

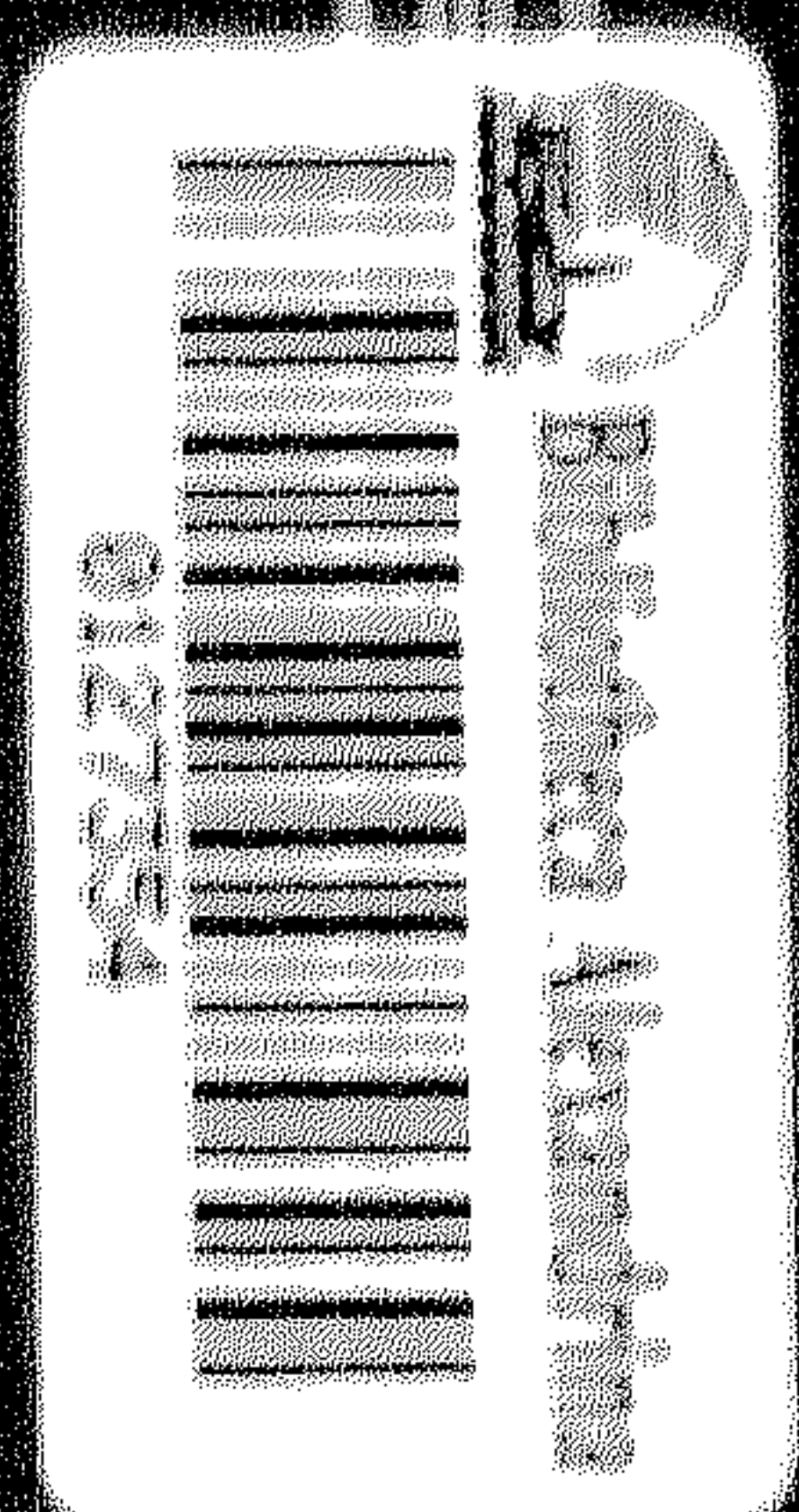
دولة لبنان الحديثة في الألفية الثانية

تأليف
عز الدين القزويني

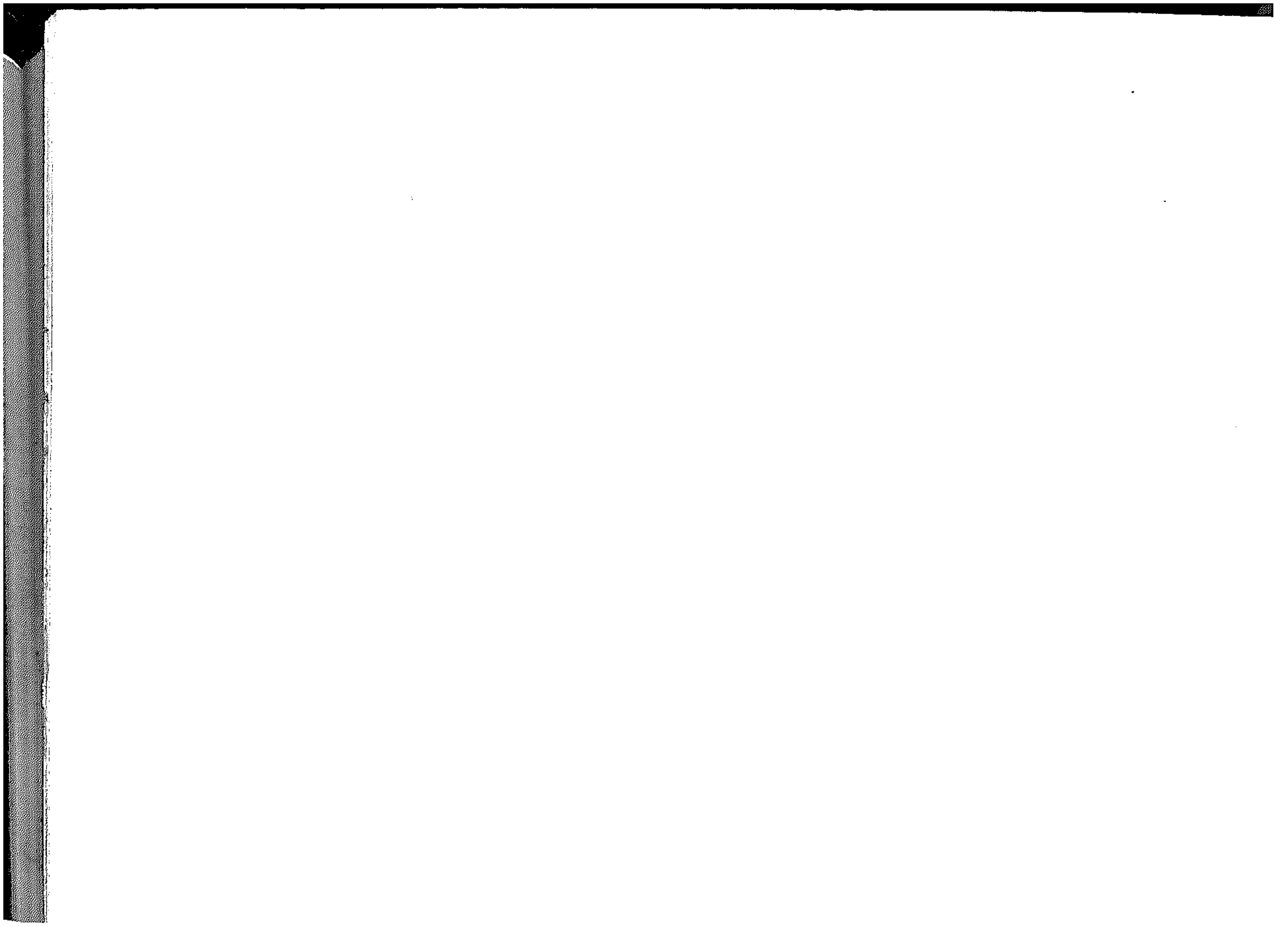
المعاصر الثالث
عصر المبدأين والمؤسسين
في المغرب والأندلس

القديم المثلث
عصر المبدأين
وبداية الدولة الموحدة

الناشر مكتبة الخانجي بالناصرة



Faint, illegible text at the top of the page, possibly a header or title.



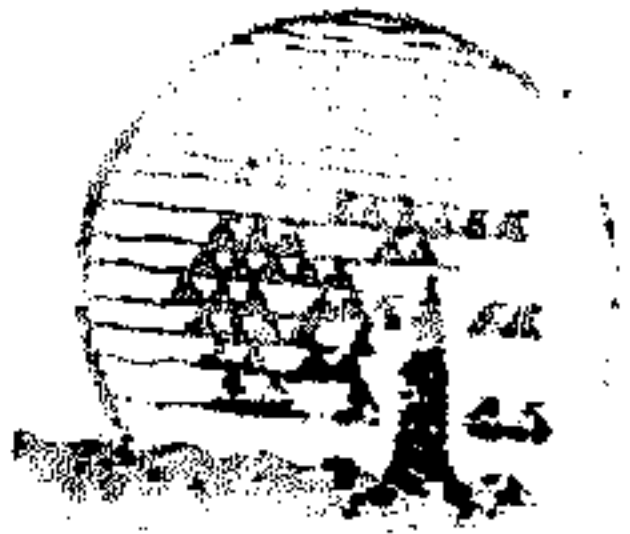


946.8

ع ٢٤

٧

دولة الإسلام في الأندلس



تأليف

محمد عبد الله غنيان

Direction of the Archives and Library of the Kingdom of Morocco

العصر الثالث

عصر المرابطين والموحدين

في المغرب والأندلس

القسم الأول

عصر المرابطين

وبداية الدولة الموحدية

الرقم المكتبي	
946.8	
ع ٢٤	
٧	

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م

مطبعة الميكني
المؤسسة السعودية بمضمر
٦٨ شارع الباسية - القاهرة، ت: ٨٩٧٨٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حينما عولت على كتابة تلك السيرة المشجية ، الحافلة بالعر - تاريخ الأندلس - لم يكن يجول بخاطري ، أن المهمة تقتضى حياة بأسرها ، وأن الأعوام سوف تمر تباعا ، دون أن تصل إلى غايتها . وقد مضى الآن مذ أصدرت القسم الأول من « دولة الإسلام في الأندلس » في سنة ١٩٤٢ ، عشرون عاما ، كرست خلالها ، معظم أوقاتي وجهودي ، لإتمام هذه المهمة . ومنذ اثنتي عشر عاما ، وأنا دائم التردد على اسبانيا والمغرب ، أنقب باستمرار في مكتباتهما ، ودور محفوظاتهما ، عن كل ما يتعلق بهذه السيرة من مصادر ، ووثائق مخطوطة ، وغير مخطوطة . عربية أو قشتالية ، حتى أضحت هذه المهمة ، مهمة حياتي ، لا أدخر في تحقيقها وسيلة ولا جهداً .

وقد استطعت خلال هذه الحقبة الطويلة ، أن أكتب تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى نهاية دول الطوائف ، في ثلاثة مجلدات ، وأن أكتب في نفس الوقت تاريخ المرحلة الأخيرة من دولة الإسلام في الأندلس ، أعني تاريخ مملكة غرناطة حتى سقوطها ، ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة واستشهادها المؤسى ، ومحنتها الأخيرة ، بإخراج بقاياها المنتصرة من أوطانها القديمة ، وذلك في مجلد كبير ، هو « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » .

وكانت الثغرة التي بقيت بين نهاية عهد الطوائف ، وقيام مملكة غرناطة ، وهي عصر المرابطين والموحدين ، وهي ثغرة تستغرق من الزمن نحو مائة وخمسين عاما - كانت تروغني دائماً بطول مداها ، وتشعب آفاقها ، وخصوصاً بالمغرب . ولكن ، كان لابد لإتمام المهمة التي كرست لها بقية حياتي ، وهي تسطر تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى النهاية ، أن أقتحم هذا الميدان الوعر ، وأن أعكف على كتابة تاريخ هذا العصر ، بالرغم من كل ما يكتنفه من صعاب وعموض ، حتى تجبر

الثغرة ، وتتصل المراحل ، ويغدو تاريخ الأندلس ، والأمة الأندلسية ، كله ، وقد استكملت حلقاته ، منذ بدايته إلى نهايته .

وأنه ليملاً نفسى اليوم غبطة ، أننى قد استطعت بعون الله ، أن أتم هذه المهمة ، وأن أكتب تاريخ عصر المرابطين والموحدين ، فى المغرب والأندلس ، بعد أعوام من العمل الشاق ، والجهد المتواصل ، والتنقيب المستمر ، فى مكاتب مدريد ، والإسكوريال ، والرباط ، وفاس ، والقاهرة ، ولندن ، وأكسفورد ، والفاتيكان . وقد حرصت فضلاً عن تقصى المصادر والوثائق ، على دراسة المواطن الجغرافية والإستراتيجية دراسة عملية ، فزرت بالمغرب سائر عواصمه التاريخية ، وزرت منطقة جبال الأطلس ومدينة تينملل ، مكة المهدي ابن تومرت ، ودرست طريق مسير الحيوش المرابطية والموحدية ، إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وزرت مواقع العبور إليها من جانبي المضيق . وأما بالأندلس فإنى لم أترك قاعدة أو مدينة أندلسية قديمة حتى زرتها ، ودرست معالمها القديمة ، وآثارها الأندلسية الباقية . وقد حرصت بنوع خاص على أن أدرس مواقع المعارك العظيمة ، التى نشبت بين الموحدين وبين اسبانيا النصرانية ، فى شنترين ، وفى شلب ، ثم الأرك ، وفى العقاب . وقد قضيت عدة أيام فى دراسة مواقع هاتين المعركتين العظيمتين الحاسمتين - الأرك والعقاب - وقمت لذلك برحلة خاصة ، طفت فيها بسهل الأرك ، ومواقع قلعة رباح القديمة . ثم قصدت إلى جبال سيرامورينا التى تفصل بين الأندلس وبين قشتالة ، وصعدت إلى آكامها ، وتجولت فى هضابها ، وطففت بسائر الأماكن التى وقعت فيها معركة العقاب ، من وعرو ومن سهل ، وهى المعركة التى سحقت فيها الحيوش الموحدية ، وانتهت بانحلال سلطان الموحدين ، وانحلال الأندلس ، ثم سقوط سائر قواعدها العظيمة ، فيما لا يزيد عن ثلاثين عاماً . وكانت هذه الدراسات الجغرافية ، والطبوغرافية ، تمدنى بكثير من أسباب الإيضاح والإدراك لظروف هذه المواقع ، والنتائج التى انتهت إليها ، وتعاون على الدقة فى وصف مراحلها وتطوراتها .

وثمة مسألة أخرى جديرة بالتنويه ، وهى أن كتابة تاريخ عصر المرابطين والموحدين ، تعتبر قبل كل شىء تسطيراً لتاريخ المغرب ، ولا يشغل فيه تاريخ الإندلس سوى حيز يسير ، فقد كانت الأندلس أو شبه الجزيرة الأندلسية ، فى هذا العصر الذى استطال زهاء قرن ونصف ، ولاية مغربية ، داخل الإمبراطورية

المغربية الكبرى ، المرابطية ، ثم الموحدية . بيد أن حكم المرابطين ، ثم الموحدين لولاية الأندلس ، والظروف العسكرية ، والإدارية ، والاجتماعية ، التي أحاطت بحكم كل من هاتين الدولتين العظيمةتين للأمة الأندلسية ، لا يمكن أن تفهم إلا على ضوء التفاصيل الكاملة لحكم كل منهما للإمبراطورية المغربية الكبرى . ومن ثم فقد كان لزاماً على أن أكتب تاريخ عصر المرابطين والموحدين بالمغرب كاملاً ، بالرغم مما يحيق بهذه المهمة من صعاب لانهاية لها ، سواء من الناحية الجغرافية أو القبلية ، أو ناحية الاستيعاب التاريخي . وإني لأرجو أن أكون قد وفقت إلى بعض ما طمحت إليه ، من عرض تاريخ هذه الفترة الهامة من تاريخ الإمبراطورية المغربية الكبرى ، في صورته الحقيقية الكاملة .

هذا مع العلم بأنني قد استعرضت في كتابي « دول الطوائف » ، وهو الذي يتناول العصر الثاني من كتاب « دولة الإسلام في الأندلس » « نشأة المرابطين ، وفتوحهم في المغرب ، وقيام الدولة المرابطية الكبرى ، على يد عاهلها العظيم يوسف بن تاشفين ، ثم عبور المرابطين إلى الأندلس ، لإنجاد أمراء الطوائف في موقعة الزلاقة ، وماتلاً ذلك من فتح المرابطين لدول الطوائف ، واستيلائهم على شبه الجزيرة الأندلسية ، ومن ثم فإني لم أجد موضعاً لتكرار ما سبق أن كتبت في هذا الشأن . ولهذا فقد بدأت كتابي هذا ، بالتحدث عن خاتمة عهد يوسف بن تاشفين .

وقد رأيت أن أستعرض في فصل خاص ، أهم المصادر المخطوطة وغير المخطوطة ، التي كانت قبل غيرها ، عمادى في البحث والدرس . ومن المحقق أن هذه المصادر ، بالرغم مما تقدمه إلينا أحياناً من مواد أصيلة ومعاصرة ، لاشك في أهميتها ونفاستها ، لا تقدم إلينا سوى القليل ، ولاتعالج إلا بعض نواحي المسائل الكبرى ، التي يعرضها لنا تاريخ الدولتين المرابطية والموحدية ، بيد أنها من جهة أخرى تلتقي أضواء كثيرة على النواحي السياسية والإدارية لحكم المرابطين والموحدين ، ولاسيما لشبه جزيرة الأندلس ، فقد كانت لكل من الدولتين في حكم الأندلس ، أوضاع ومبادئ خاصة .

وأود أن أشير هنا إلى أني قد جريت في كتابة تاريخ عصر المرابطين ، والموحدين ، وهو العصر الثالث من كتاب « دولة الإسلام في الأندلس » - على نفس الأسلوب الذي جريت عليه في كتابة العصرين الأول والثاني ، ثم الرابع

(نهاية الأندلس) ، وحرصت على أن أستعرض نظم الحكم والأوضاع السياسية والدينية ، لكل من الدولتين ، المرابطية والموحدية ، وسير الحركة الفكرية الأندلسية ، والأحوال الاجتماعية في ظل كل منهما ، وذلك بقدر ما تمدنا به المصادر والوثائق التي بين أيدينا . كما خصصت لتاريخ اسبانيا النصرانية مكانها المعتاد ، وفقاً لما جرىت عليه في العصور الأخرى .

وكذلك عنيت عناية خاصة بتزويد الكتاب بالخرائط التاريخية ، والرسوم الطبوغرافية ، التي تبين مواقع المعارك الكبرى ، وقد زرتها بنفسى كما تقدم ، وأرجو أن يكون في ذلك ما يسهل مهمة القارئ والباحث ، في فهم أوضاع هذه المعارك وظروفها وتطوراتها .

وقد ألحقت بنهاية الكتاب طائفة من الوثائق الهامة المرابطية والموحدية ، والوثائق الأخرى التي رجعت إليها ، ومنها ما لا يزال مخطوطاً لم ينشر بعد ، وذلك تسهيلاً لمهمة الباحثين في هذا الميدان ، في التزود بمعلومات أوفى عن الموضوعات التي تتناولها .

ولأنه لا يسعنى في الختام ، إلا أن أقدم جزيل الشكر والعرفان لسائر الهيئات العلمية والمكتبية ، التي ساهمت في تسهيل مهمتى ، في البحث والمراجعة ، والتصوير والنقل ، وفي مقدمتها معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ومكتبة الإسكوريال ، ومكتبة مدريد الوطنية ، وخزانة الرباط ، وخزانة جامع القرويين بفاس ، وقسم المخطوطات بالمتحف البريطاني ، والمكتبة البودلية بأكسفورد ، ودار الكتب المصرية ، فقد كان لى من ذخائر هذه الهيئات ، والمكتبات الحليمة ، خير منهل ، وخير معين لى ، في تأليف هذا الكتاب .

محمد عبد الله عثمان

القاهرة في رجب سنة ١٣٨٣
الموافق نوفمبر سنة ١٩٦٣

بيان عن المصادر

كان عصر المرابطين والموحدين ، من حيث المصادر والوثائق ، من أشق مراحل هذه السلسلة من تاريخ المغرب والأندلس ، التي نضطلع بكتابتها منذ أعوام طويلة ، وذلك نظراً لاستطالة مداه ، وتشعب نواحيه ، وكثرة ثغراته الغامضة . وقد بذلنا خلال الأعوام التي قضيناها في كتابة تاريخ هذا العصر ، جهوداً مضنية ، في استيعاب مصادره ، وتقصى الوثائق التي تكشف عن أحداثه وخواصه ، وقمنا في هذا السبيل بعدة رحلات إلى اسبانيا والمغرب وإنجلترا . وقد رأينا أن نستعرض في هذا البيان الموجز ، أهم المصادر والوثائق المخطوطة والمنشورة ، التي كانت عمادنا في كتابة هذا التاريخ ، وسوف نعود في نهاية الكتاب ، فنخص المصادر بثبت عام شامل ، يضمها جميعاً من مخطوط ومنشور ، ومن عربية ، ولاتينية وقشتالية ، وغيرها .

كتاب « المن بالإمامة »

نستطيع أن نقول إن هذا الكتاب ، أو بالحري القسم الذي وصلنا منه ، هو أهم مصادرنا المخطوطة عن المرحلة الأولى من تاريخ الدولة الموحدية . واسمه الكامل هو حسبما جاء في الصفحة الأولى ، من المخطوط الوحيد الذي انتهى إلينا ، « كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة ، وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام أمير الموحدين على الملثمين ، وفي مساق ذلك خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين [وأحد] الخلفاء الراشدين » . وأما مؤلفه ، فقد ورد اسمه في صفحة العنوان على النحو الآتي : « أنهى تأليفه ، وأبدع تحبيره وتصنيفه ، عبد الملك ابن محمد بن صاحب الصلاة الباجي رحمه الله » . ويحفظ هذا المخطوط بمكتبة جامعة أكسفورد المسماة « بالمكتبة البودلية » Bodleian Library ، وهو مسجل في فهرس المخطوطات الشرقية بها ، المنشور باللاتينية في سنة ١٧٨٧ في صفحة ١٦٧ ، برقم DCCLVIII (١٧٥٨) ، فهو بذلك من أقدم مخطوطاتها الشرقية . وهذا المخطوط عبارة عن مجلد ضخيم ، يقع في ١٩٤ لوحة مزدوجة ، أعني

في ٣٨٨ صفحة كبيرة الحجم (نحو ٣٠ في ٢٠ سم) في كل منها ١٩ سطراً ، وفي كل سطر نحو تسع كلمات ، ومكتوب بخط أندلسي كبير واضح ، وهو سليم جيد الحفظ ، ما عدا ورقة الأولى فهي قديمة باهتة ، ومجلد بمجلد متين . وليس في بداية المخطوط أونهايته ما يدل على تاريخ كتابته ، ولكن يبدو من كتابته وحالته ، أنه ربما يرجع إلى القرن الثامن أو التاسع الهجري (الرابع عشر أو الخامس عشر) . ولا يضم هذا المخطوط من كتاب « المن بالإمامة » سوى « السفر الثاني » وذلك حسبما سجل في صفحة العنوان ، وحسبما ورد في ختام المخطوط على النحو الآتي : « كمل السفر الثاني من كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وصلى الله على محمد وآله ، يتلوه الثالث بحول الله سنة تسع وستين وخمسمائة ، خبر وصول العليج الطاغية » .

ويبدو من عنوان الكتاب الذي تقدم ذكره ، أن السفر الأول منه ، يتضمن تاريخ قيام الموحدين ، وظفرهم بالتغلب على المرابطين ، وتاريخ أول خلفاء الموحدين عبد المؤمن بن علي ، وهذا السفر الأول من الكتاب لم يصل إلينا ، كما لم يصل إلينا سفره الثالث الذي أشير إليه في ختام المخطوط . وأما السفر الثاني وهو الوحيد الذي انتهى إلينا ، فيبدأ بحوادث سنة ٥٥٤هـ ، وينتهي بحوادث سنة ٥٦٨هـ ، وهي فترة قصيرة من الناحية الزمنية ، ولكنها حافلة بالحوادث الهامة ، التي يعرضها لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان شاهد عيان لكثير منها ، في تفصيل شاف ، على أن الأحداث التاريخية ليست أهم ما يتضمنه كتاب « المن بالإمامة » . ذلك أن أهم وأنفس ما يتضمنه الكتاب ، هو تلك المجموعة من الرسائل والوثائق الموحدية الصادرة عن الخلفاء والأمراء الموحدين ، التي ينقلها إلينا ابن صاحب الصلاة ، وتلك التفاصيل الدقيقة التي يقدمها إلينا عن نظم الحكم الموحدية ، وعن الشؤون الإدارية والمالية ، وهذه الوثائق والتفاصيل تلي أكبر ضوء على خواص الحكم الموحدى ، والدولة الموحدية .

وبالرغم من أن السفر الثاني الذي انتهى إلينا من كتاب « المن بالإمامة » ينتهى كما تقدم بحوادث سنة ٥٦٨هـ ، وبالرغم من أن البحث لم يظفر حتى يومنا ، بالحصول على نص السفر الثالث من الكتاب ، فإننا نستطيع مع ذلك أن نعثر بكثير من النبد والشذور التي يتضمنها هذا السفر المفقود من الكتاب ، وقد نقلها إلينا مؤرخ متأخر هو ابن عذارى المراكشي في كتابه الجامع « البيان المغرب »

الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد ، وهذه الشذور تمتد حتى معركة الأرك في سنة ٥٩١ هـ ، وحتى وفاة الخليفة يعقوب المنصور في سنة ٥٩٥ هـ .

ولابن صاحب الصلاة في عرض الحوادث والشئون أسلوب خاص ، جزل نوعاً ، وإن كان يلجأ أحياناً إلى السجع الركيك ، والتنميق المتكلف ، وهو يبدو سواء بأسلوبه ، أو طريقة عرضه للحوادث ، وتقدمه للأشخاص ، مؤرخ بلاط أثر ، يحرص كل الحرص على الإشادة بسادته وبأعمالهم ، يغمرهم خلال حديثه بالألقاب الفخمة ، والدعوات الرنانة ، ولا يفوته كلما ذكر اسم الموحدين أن يقرنه بقوله « أعزهم الله » ، ثم هو يلجأ أحياناً في وصف الخلفاء والأمراء إلى عبارات من المديح المسجع والملق المغرق . بيد أنه مع ذلك لا يحجم في بعض الأحيان ، عن النقد ، والتنديد بأعمال وتصرفات يراها جديرة بذلك (١) .

وقد كان مؤلف كتاب « المن بالإمامة » من أدباء عصره وكتابه . وهو عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي ، ويكنى أبا مروان وأبا محمد ، ويعرف بابن صاحب الصلاة وبصاحب التاريخ (٢) . وهو كما يبدو من اسمه أندلسي من أهل باجة . وقد على إشبيلية منذ نزل بها الموحدون ، واتخذوها عاصمة لولاية الأندلس ، واتصل بالبلاط الموحدى منذ البداية ، وخدم فيه كاتباً وشاعراً ، وكان ضمن الوفود التي لقيت الخليفة عبد المؤمن حين زيارته لحبل طارق في سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) . وقد عني ، وهو من أهل باجة ، وهي المنطقة التي قامت بها ثورة ابن قسي وأنصاره المرينيين ، بأن يؤلف كتاباً عن « ثورة المرينيين » ، وهو كتاب يشير إليه في غير موضع من « المن بالإمامة » ولكنه لم يصل إلينا . وقد وصفه ابن عبد الملك في « الذيل والتكملة » بقوله : « وكان أديباً محسناً ، عني بحفظ التواريخ وتقييدها ، وصنف « تاريخ ثورة المرينيين بالأندلس » و« دولة بني عبد المؤمن ، ومن أدرك بحياته من بني » (٣) ، ومن الواضح أنه يعني بذلك كتاب « المن بالإمامة » . ولم يقدم لنا أحد ممن تعرض

(١) مثال ذلك ما ورد في حديثه عن غزوة وبذة التي قام بها الخليفة أبو يعقوب يوسف ، ثم عن غزوة شنترين التي انتهت بمصرع الخليفة المذكور (ص ٩٧ و ١٣٤ و ١٣٥ من القسم الثالث من البيان المغرب) .

(٢) كتاب التكملة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) رقم ١٧٢٦ .

(٣) كتاب « الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشي ، الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس .

لترجمة ابن صاحب الصلاة ، تاريخ مولده أو وفاته . وقد ذكر المستشرق الإسباني بونس بويجس في معجمه نقلا عن المستشرق أماري أنه توفي سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) (١) ، وتابعه في ذلك الأستاذ بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (٢) ، وهو تاريخ خاطيء ، لا يتفق مع سياق كتاب « المن بالإمامة . ذلك أن ابن صاحب الصلاة ، يذكر لنا في مؤلفه حوادث شهدها ترجع إلى سنة ٥٩٤ هـ ، مثل الاحتفال بإتمام بناء صومعة جامع إشبيلية الأعظم ، ورفع التفافيح الذهبية إلى قممها ، بحضرة الخليفة يعقوب المنصور ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٥٩٤ هـ ، عقب عوده ظافرا من معركة الأرك الشهيرة (Fol. 171. v.) ، بل يبدو مما ينقله ابن عذارى في « البيان المغرب » من شذور عن وفاة المنصور في سنة ٥٩٥ هـ ، ثم عن حوادث الأعوام الأولى من خلافة ابنه الناصر ، وهي شذور يبدو فيها أسلوب ابن صاحب الصلاة واضحا ، أن مؤلف كتاب « المن بالإمامة » قد عاش حتى أواخر القرن السادس ، بل وإلى أوائل القرن السابع ، وأنه قد توفي على الأرجح حوالي سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) (٣) . وأما مولده فيمكن أن نضعه بين سنتي ٥٢٠ و ٥٣٠ هـ (١١٢٦ - ١١٣٥ م) .

كتاب نظم الجمان

ومن أهم مصادرنا المخطوطة عن أواخر عهد المرابطين ، وأوائل عهد الموحدين قطعة كبيرة مخطوطة من كتاب نظم الجمان لابن القطان ، تتضمن السفر الثالث عشر من هذا الكتاب . وعنوانه على النحو الآتي : « السفر الثالث عشر من كتاب نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » . وفي داخل المخطوط ، توصف القطعة بأنها « الجزء السادس ، من هذا الكتاب . في ذكر ما انتهى إلينا من أخبار القرن السادس ، وهو المائة السادسة من الهجرة الكريمة » . ويحتوي هذا المخطوط على ثمانية وستين لوحة مزدوجة كبيرة الحجم (١٣٦ صفحة) في كل صفحة منها

(١) Pons Boigues : Ensayo Bio - Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo - Espanoles, p. 246.

(٢) C. Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur, Supp. 1. p 554.

(٣) راجع بعض هذه الشذور التي ينقلها ابن عذارى في البيان المغرب : القسم الثالث الذي يجرى نشره الآن بعناية الأستاذة : هويثي ميرانده ومحمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني عن معهد مولاي الحسن بتطوان : ص ٢٠٧ - ٢١١ و ٢١٣ ، و ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٣ و ٢٢٥ .

تسعة عشر سطرًا بخط مغربي كبير ، والنص كله مشكول بالمداد الأحمر ، وأحياناً بخط مذهب ، والمخطوط قديم مبتور الآخر ، وليس هناك ما يدل على تاريخ كتابته . بيد أنه يمكن أن نرجعه إلى القرن الثامن الهجري . ويبدو من خطه المنمق وعناوينه المذهبة ، أنه ربما كتب برسم أحد الأمراء أو الكبراء .

وأما عن مؤلف الكتاب ، ابن القطان ، فليس لدينا عنه تفاصيل شافية ، وقد ذكر اسم المؤلف في صفحة العنوان بأنه « الإمام العالم أبو النجوم الباجي » وذكر في رأس الصفحة الأولى أنه « ابن القطان »^(١) . وقد ورد في لوحة ٦٧ ١ من المخطوط ما يدل على أن المؤلف كان حياً ، في عهد الخليفة الموحدى المرتضى (٦٤٦ - ٦٦٥ هـ) وهو الذى حكم قبل آخر الخلفاء الموحدين .

ويتناول المخطوط أخبار المرحلة الأخيرة من حكم المرابطين منذ سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) ، وأخبار بداية ظهور المهدي ابن تومرت ، وتقدم دعوته ، وتصنيف أصحابه ، ومرحلة الصراع الأولى بين الموحدين والمرابطين ، وأخبار الأندلس خلال هذه الفترة ، وذلك حتى أخبار سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . وأهم ما يتميز به هذا القسم من مؤلف ابن القطان أنه ينفرد بإيراد رسالتين هامتين لم تذكر في غيره وهما ، رسالة « الكافية في براهين الإمام المهدي » ، وهى رسالة خاطب بها أبو عبد الرحمن بن طاهر عميد مرسية ، الخليفة عبد المؤمن بن على ، ورسالة وجهها عبد المؤمن إلى الطلبة والمشيخة والأعيان بالأندلس (سنة ٥٤٣ هـ) ، يشرح فيها

(١) وردت في التكملة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) رقم ١٩٢٠ ، ترجمة « لعل بن محمد ابن عبد الملك بن يحيى بن ابراهيم الكتامى الحميرى الفاسى ، أبى الحسن بن القطان » جاء فيها أنه « كان من أبصر الناس بصناعة الحديث ، وأحفظهم لأسماء رجاله ، وأشدهم عناية بالرواية ، ورأس طلبة العلم بمراكش . ونال بخدمه السلطان دنيا عريضة . وله تواليف ، ودرس وحدث . وتوفى على قضاء سجلماسة فى ربيع الأول سنة ثمان وعشرين (أى وستائة) » .

وعثرنا أيضاً فى « الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشى على ترجمة طويلة للمذكور ، جاء فيها أنه « فاسى سكن مراكش ، وكان ذا كرام للحديث ، مبحراً فى علومه ، وكان معظماً عند الخاصة وللعامه من آل عبد المؤمن ، حظى كثيراً عند المنصور منهم ، فابنه الناصر ، فالستنصر بن الناصر ، فأبى محمد عبد الواحد أخى المنصور ، ثم أبى زكريا المعتصم بن الناصر ، وكان المنصور يوثقه على غيره من أهل طبقته . وكان مرجوعاً إليه فى الفتاوى » (الجزء الخامس من مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٣) .

على أن ما ورد فى المخطوط ، مما يدل على أن ابن القطان كان حياً فى عهد الخليفة المرتضى ؛ يجعلنا نتردد فى الاعتقاد بأنه هو صاحب الترجمة التى أوردها ابن الأبار ، ثم ابن عبد الملك ، لما هنالك من الفارق الزمنى الملحوظ . وربما كان المترجم هو أبو المؤرخ .

قواعد السياسة الشرعية الموحدية ، ولا سيما في مطاردة المنكر ، وفي شئون المكوس والمغارم .

ويبدى ابن القطان فيما يورده من أخبار الموحدين ، حماسة ظاهرة في تأييد المذهب الموحدى ، والدولة الموحدية ، ويذكر الإمام المهدي ، وخلفاءه الموحدين بمنتهى الخشوع والإجلال^(١) .

القسم الثالث

من كتاب البيان المغرب

كان كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي ، منذ البداية من أهم مصادرنا في كتابة تاريخ الأندلس . ولقد انتفعنا خلال كتابة العصرين الأول والثاني من هذا التاريخ ، في كتابينا « دولة الإسلام في الأندلس » و« دول الطوائف » ، بجزئيه الأول والثاني ، اللذين نشرا منذ أكثر من قرن بعناية العلامة دوزى ، ثم بجزئه الثالث الذى نشر بعناية الأستاذ ليثى بروقنسال . وقد كان من المفروض أن ننتفع بجزئه الرابع الذى صدر بعد ذلك بمدينة تطوان في سنة ١٩٥٦ ، وهو الذى يتناول بقية عهد المرابطين ، وعهد الموحدين . ولكن اكتشافاً جديداً في منتهى الأهمية غير هذا الاتجاه ، وهو العثور في الخزانة الناصرية بثاجروت على مقربة من زاكوره بالمغرب ، على مخطوط جديد موسوم « بالجزء الثالث » من « البيان المغرب » ، وهو عبارة عن مجلد كبير يحتوى على ٤٦٣ صفحة كبيرة . في كل منها واحد وعشرون سطراً . ويبدأ بحوادث سنة ٥٣٣ هـ في أواخر عهد الدولة المرابطية ، بحملة تاشفين بن علي بن يوسف لمقاتلة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي . وينتهي بحوادث سنة ٦٦٥ هـ ، بخلافة إدريس أبي دبوس الواصل بالله آخر الخلفاء الموحدين ، وحملته إلى السوس ، ويزيد في البداية ستين صفحة ، وفي النهاية ست وستين صفحة عن الجزء الرابع المطبوع ، هذا فضلاً عما يمتاز به في مواطن كثيرة ، من زيادات في النص ، وفي الشعر ، ومن تصحيحات كثيرة أخرى .

ولقد اغتبطنا بما غبطة باكتشاف هذا المرجع النفيس من مراجع عصر الدولة

(١) ان هذا الجزء المخطوط من كتاب « نظم الجمان » يوجد اليوم في حوزة معهدنا المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو الذى سهل لى مشكوراً سبيل مراجعته ودراسته . وقد علمت أن هذا المخطوط قد أعد للنشر محققاً بعناية صديقى الدكتور محمود على مكى وكيل المعهد المذكور .

الموحدية . ويجرى فيه ابن عذارى على طريقته أحياناً من تصنيف روايته إلى فصول ، وأحياناً إلى حوليات سنوية . ثم هو يجرى أيضاً في أسلوبه على طريقته من إلترام الحيدة في إيراد الحوادث وتقديم الأشخاص ، وعدم التورط في المديح أو الذم ، ويترك هذه المهمة في الإشادة أو الانتقاص ، لمن ينقل عنهم من مؤرخى الدولة الموحدية . ومن أهم مميزات هذا القسم من « البيان المغرب » ما ينقله إلينا ابن عذارى خلال روايته ، من شذور عديدة من المعاصرين من مؤرخى الدولة الموحدية ، ولاسيما ابن صاحب الصلاة ، حيث ينقل إلينا الكثير من « السفر الثالث » من كتاب « المن بالإمامة » . وهو الجزء المفقود من هذا المؤلف حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل (١) .

هذا ، وفضلا عن ذلك ، فقد انتفعنا من تراث ابن عذارى بقطعة مخطوطة من أربع وخمسين لوحة ، عن أصل دولة المرابطين ، وولاية يوسف بن تاشفين وفتوحه في المغرب ، ودخول المرابطين بلنسية ، وأخبار على بن يوسف ، وقصة إحراق كتاب الإحياء ، وولاية تاشفين بن على ، وغزوة ألفونسو المحارب ، وغير ذلك . وكان المرحوم الأستاذ ليثى بروقنسال قد عثر بهذه القطعة بين أضياب مكتبة جامعة القرويين بفاس ، ونشر منها بعض شذور ، عن بعض الوقائع الهامة التى وردت فيها ، ثم نشرها أخيراً بنصها الكامل الأستاذ هويثى ميرانده فى مجلة هسپرس تمودا فى عدد سنة ١٩٦١ .

وكان من حسن الحظ أننا عثرنا خلال بحثنا فى « خروم » (دشت) مكتبة جامع القرويين بفاس ، بأربع صفحات كبيرة من كتاب « البيان المغرب » تتناول حوادث سنى ٥١١ هـ إلى ٥١٤ هـ ، وفيها تفاصيل هامة عن سقوط سرقسطة فى يد ألفونسو الأرجونى (٥١٢ هـ) ، وعن موقعة كتندة ، وعن ثورة قرطبة ضد المرابطين (٥١٤ هـ) ، وتفاصيل أخرى . وكان اختفاء هذه الصفحات يكون ثغرة فى مجموعة الأوراق المخطوطة المتقدمة ، التى عثر بها الأستاذ بروقنسال ، فجاء عثورنا عليها متمماً لهذه المجموعة المتناثرة من كتاب البيان المغرب .

(١) سبق أن أشرنا إلى أنه يجرى الآن نشر هذا القسم الثالث من البيان المغرب برعاية معهد مولاي الحسن بتطوان ، وتحقيق الأساتذة أمبروسيو هويثى ميرانده ، ومحمد بن تاريت ، ومحمد ابراهيم الكتانى ، وقد أنجز منه حتى اليوم معظمه .

وانتفعنا كذلك ببضعة أوراق مخطوطة من كتاب « صلة الصلة » لابن الزبير ،
وهي أيضاً من محتويات « خروم » مكتبة القرويين .

أما عن حياة ابن عذارى ، وأصله ونشأته ، فلسنا نعرف الكثير ، وكل
ما نعرفه أنه يسمى أبو عبد الله محمد المراكشي ، وأنه قد عاش في أواخر القرن
السابع الهجري ، في بداية دولة بني مرين ، وفي بداية القرن الثامن ، وقد كان لهذا
الظرف الزمى بلاريب تأثير كبير ، فيما يلتزمه في روايته عن تاريخ الموحدين ،
من الحيدة ، وضبط النفس ، وعدم التورط في عبارات الملق ، التي يكثر منها
مؤرخون مثل ابن صاحب الصلاة ، وابن القطان .

الرسائل المرابطية

إن مصادر العصر المرابطي التي بين أيدينا ، وفي مقدمتها البيان المغرب ،
وروض القرطاس ، والحلل الموشية ، ينقصها الكثير مما يلقي ضياء حقيقياً على
أحوال الدولة المرابطية ونظمها وخواصها ، وعلى اتجاهات السياسة المرابطية
الدينية والسياسية ، سواء بالمغرب ، أو الأندلس . بيد أنه كان من حسن الطالع ،
أننا وقفنا خلال بحوثنا بمكتبة الإسكوريال على طائفة عديدة من الرسائل والوثائق
المرابطية ، التي تسد فراغاً كبيراً في هذا الميدان ، وتلقي أضواء كثيرة على خواص
الدولة المرابطية ونظمها وسياستها ، هذا فضلاً عما تلقيه من أضواء على طائفة
كبيرة من الأحداث العسكرية الأندلسية الهامة التي وقعت خلال العصر المرابطي .

وتجتمع هذه الرسائل أولاً في المخطوطين رقم ٤٨٨ ورقم ٥٣٨ ، من فهرس
الغزيري ، وثانياً في المخطوط رقم ٥١٩ الغزيري ، وثالثاً في مجموعة أخرى يضمها
مخطوط معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

وأهم هذه الرسائل فيما يختص بالعصر المرابطي ، هو المجموعة التي يضمها
المخطوط الأول ، وهو رقم ٤٨٨ ، وهو مخطوط قديم مبتور الآخر وليس له
عنوان معين ، ولكن جاء في الورقة الأولى منه ما يأتي : « جمع هذا الكتاب قصائد
كثيرة لعلماء يطول تفسير أسماهم ، للفتح بن خاقان ، ولابن عبد الصمد ،
وللبستي ، ولابن عمار ، وابن اللبانة ، وابن زيدون ، وابن حبيب .. ورسائل شتى
ورحلة ابن جبير ، ونسخة بيعة والسلام » . على أن أهم ما يحتويه المخطوط هو
خمس رسائل ، كتبت عن أهم الأحداث العسكرية التي وقعت بالأندلس أيام

المرابطين ، الأولى رسالة يوسف بن تاشفين عن موقعة الزلاقة ، والثانية رسالة ابن شرف عن فتح أقليش . والثالثة رسالة أهل سرقسطة حينما حاصرها النصارى إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف ، والرابعة رسالة لعلى بن يوسف عن هزيمة القلعة . والخامسة رسالة أهل بلنسية إلى على بن يوسف عند نزول ألفونسو المحارب عليها ، وهذا عدا وثيقة موحدية هامة هي بيعة أهل قرطبة بولاية العهد ، لمحمد الناصر ولد الخليفة الموحدى يعقوب المنصور .

ويضم المخطوط الثانى ، وهو رقم ٥٣٨ ، عدة رسائل مرابطية ، أخرى ، عن أواخر العهد المرابطى بالأندلس ، أهمها رسالة وجهها تاشفين بن على بن يوسف إلى الفقهاء والوزراء والكافة ببلنسية يحثهم على التزام الجهاد والسنن الرفيعة ، وأداء الصلاة ، ومجانبة الخمر ، والرفق بالرعية ، والتزام مذهب مالك فى الأحكام ، ومطاردة كتب الغزالي . وتعتبر هذه الرسالة من أهم الوثائق المرابطية الدستورية ، هذا إلى عدة رسائل ثانوية أخرى تلى أضواء مختلفة على جوانب من أواخر العصر المرابطى بالأندلس (١) .

ويضم المخطوط الثالث . وهو رقم ٥١٩ . وهو خاص « بترسيل الفقيه الكاتب أبى عبد الله بن أبى الحصل ومقاماته ومعارضته » ، عدة رسائل مرابطية وجهت إلى على ابن يوسف ، ورسائل أخرى أدبية ، متبادلة بين أكابر كتاب ذلك العصر ، وبين ابن أبى الحصل . تلى ضوءاً على بعض جوانب أدبية واجتماعية من ذلك العصر .

أما المجموعة الثالثة ، فيضمها مخطوط حصل عليه معهد الدراسات الإسلامية من تركة المرحوم الأستاذ ليثى بروفنسال ، وهو نفس المخطوط الذى يضم مجموعة الرسائل الموحدية التى نشرها (سنة ١٩٤١) تحت عنوان « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » . وقد نشرت هذه الرسائل أخيراً ، وعددها إحدى وعشرون رسالة بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية (٢) ، وهى تلى أضواء كثيرة على نواح مختلفة من العصر المرابطى ، سياسية وعسكرية وإدارية .

(١) نشرت معظم الرسائل المشار إليها فى المخطوطين السابقين بعناية صديق الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمديرية خلال الأعوام الأخيرة فى فترات مختلفة ، وذلك بمجلة معهد الدراسات الإسلامية (سنة ١٩٥٤ و ١٩٥٥) .

(٢) قام على نشر هذه الرسائل وتحقيقها والتمهيد لها صديق الدكتور محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية ، ونشرت بالمجلدين السابع والثامن من مجلة المعهد (سنة ١٩٥٩ - ١٩٦١) .

ويمكننا أن نشير في هذا الموطن أيضاً . إلى وثيقة مرابطية هامة . أوردها لنا ابن الخطيب في الإحاطة . وهي كتاب تولية العهد الصادر من يوسف بن تاشفين لولده علي .

الرسائل الموحدية

حسبنا أن نشير في هذا الموطن . أولاً إلى مجموعة الرسائل الموحدية التي نشرت بعناية الأستاذ بروقتسال والتي سبقت الإشارة إليها ، وهي من أهم الوثائق التي تلقى كثيراً من الضوء ، على معظم الأحداث الهامة ، التي وقعت في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي ، وولده الخليفة أبي يعقوب يوسف . فولده الخليفة يعقوب المنصور ، فولده الخليفة محمد الناصر .

وقد وقفنا إلى جانب ذلك على مجموعة من الرسائل المخطوطة . وردت في مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيري (ديرنبور ٥٢٠) وهو كتاب « زواهر الفكر وجواهر الفكر » لمحمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي المكنى بابن المرابط ، وهو حسبنا ورد في آخره مكتوب في سنة ٧٢١ هـ . وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الرسائل الأندلسية ، ومنها عدة رسائل بقلم القاضي الكاتب أبي المطرف بن عميرة عن حوادث بلنسية أيام الفتنة الأخيرة ، التي انتهت بسقوطها في أيدي النصارى . ورسالة كتب بها عن أهل شاطبة إلى ابن هود ، وظهر موحدى صادر عن الخليفة الرشيد إلى المتوطنين من أهل شرقي الأندلس برباط الفتح ، ورسائل وقصائد لابن الأبار ، وغيرها . وهذه الرسائل تكشف عن كثير من الظروف والأحداث التي وقعت في شرقي الأندلس ، في أواخر عهد الموحدين . وأواخر عهد الإسلام به .

التراجم المخطوطة

كان من أهم مصادرنا المخطوطة طائفة كبيرة من التراجم وردت في موسوعتين هامتين ، الأولى ، « كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » لقاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصاري الأوسى المراكشي المتوفى فيما يرجح في أواخر القرن السابع الهجري ، والثانية كتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة » للوزير لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٥ م) . وكتاب التكملة موسوعة جليلية من التراجم ، وبها عدد كبير من تراجم أعلام العصرين المرابطي والموحدي ، من فقهاء وكتاب وأدباء وشعراء . وقد رجعنا

إلى أجزاءها المخطوطة الموجودة في دار الكتب المصرية (الجزء المخطوط الموسوم بالسفر الخامس ، والأجزاء المصورة ، وبها تراجم حرف الميم حتى الياء) ، وفي المتحف البريطاني (الرابع والخامس رقم ٧٩٤٠) وخزانة الرباط (الأول مصور مخطوط باريس) ، والإسكوريال (قطعة فقط رقم ١٦٨٢ الغزيرى وبها تراجم حرف السين حتى أوائل حرف ع) ، ونقلنا منها عدداً كبيراً من التراجم . وقد كان من أهم ما انتفعنا به من هذه التراجم ، هو الشذور والنبد التاريخية العديدة ، التي وردت خلالها عن أحداث العصرين المرابطى والموحدى ، ومنها أحياناً روايات هامة وحيدة لم ترد في أية مصادر أخرى ، هذا فضلاً عن التعريف بكثير من الأعلام الذين تنفرد هذه الموسوعة النفيسة بإيراد تراجمهم .

وكذلك الشأن في كتاب الإحاطة لابن الخطيب ، فقد وردت به تراجم عديدة لأمرء وزعماء من المرابطين والموحدين ، وكذلك لكثير من أعلام هذا العصر من فقهاء وكتاب وشعراء ، وكان انتفاعنا عظيماً بهذه التراجم ، ولا سيما التي وردت منها بالقسم المخطوط من الإحاطة (الإسكوريال رقم ١٦٧٣ و ١٦٧٤ الغزيرى) ، وقد ورد خلالها كثير من الشذور التاريخية الهامة ، منقولة عن مصادر ضاعت مثل كتاب « الأنوار الحلية في أخبار الدولة المرابطية » وغيره .

أما عن كتب التراجم المطبوعة ، فحسبنا أن نشير هنا إلى وفيات الأعيان لابن خلكان ، والصلة لابن بشكوال ، وصلة الصلة لابن الزبير ، وبغية الملتمس للضبي ، والتكملة والحلة السيرة لابن الأبار ، والأخيران يضمنان كثيراً من التراجم والنبد التاريخية الهامة المتعلقة بعصرى المرابطين والموحدين .

وثائق ومصادر أخرى

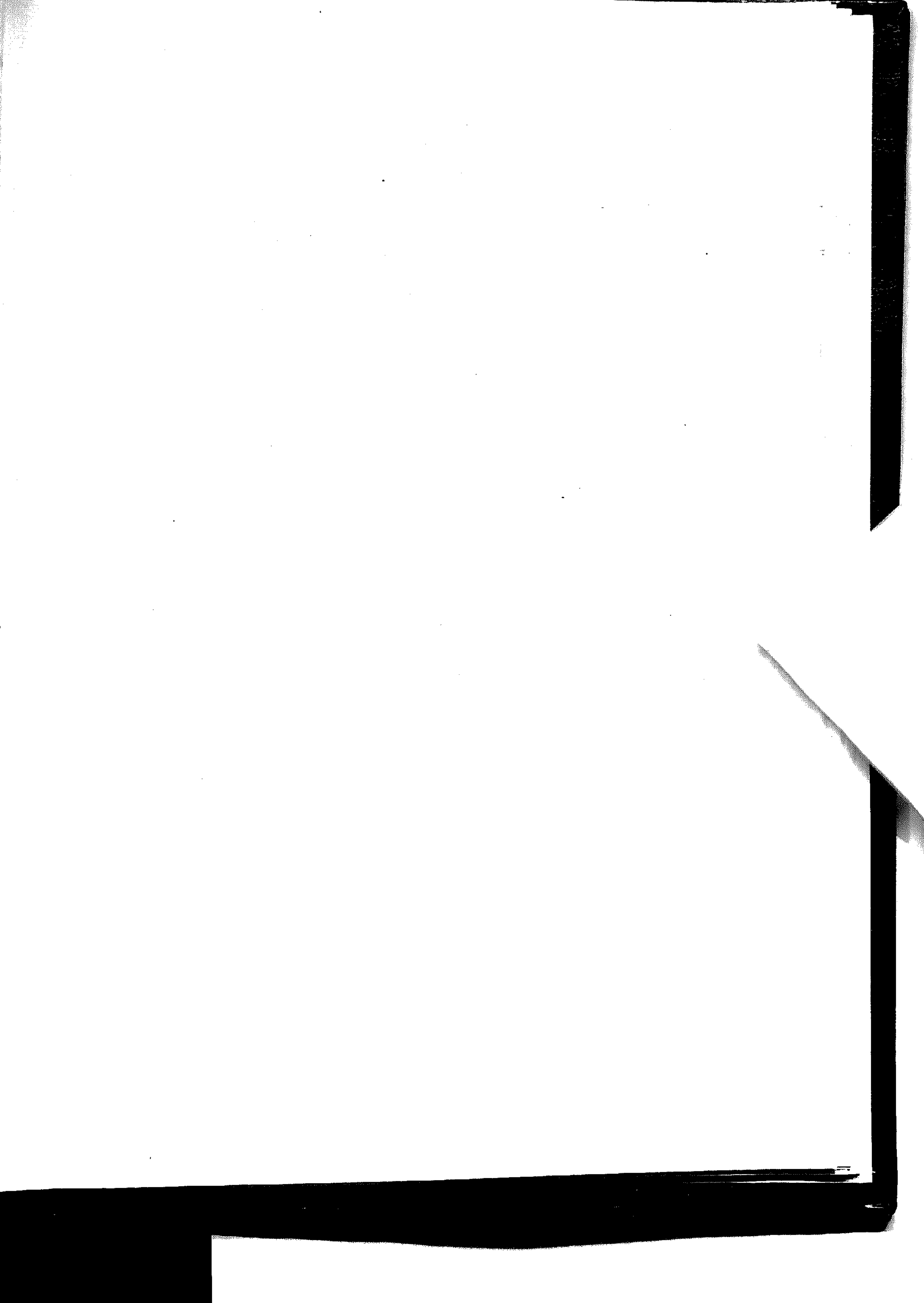
وليس في نيتنا أن نتحدث في هذا البيان الموجز عن المصادر المخطوطة ، عن المصادر المطبوعة ، وهي كثيرة يتعذر حصرها . بيد أنه يجدر بنا أن نشير فقط إلى طائفة من هذه المصادر التي تعتبر إلى جانب المصادر المخطوطة ، من أهم المراجع الرئيسية عن عصر المرابطين والموحدين .

ففيها كتاب « المعجب » لعبد الواحد المراكشى ، و « الحلل الموشية » ، لمؤلف مجهول ، و « روض القرطاس » لابن أبي زرع الفاسى ، وهذه المراجع الثلاثة تتناول عصر المرابطين والموحدين معا ، وهي لمؤلفين عاشوا في عصر الموحدين أو قريباً منه .

ومنها ما يختص بالموحدين وعصرهم ، وفي مقدمتها مؤلفا المهدي محمد بن تومرت ، وهما « أعز ما يطلب » و«الموطأ» ، وأولهما يضم خلاصة مذهبه وتعاليمه ، والثاني يضم شروحه لأحكام مذهب مالك . ويليهما كتاب « أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » وهو من تصنيف أبي بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق أحد أصحاب المهدي ، وهو أهم وأقيم مصادرنا عن نشأة المهدي ونسبه وأصحابه ، وحركاته الأولى ، ثم غزوات خليفته عبد المؤمن .

وهناك مصدر هام آخر جدير بالذكر ، وهو « رحلة التجاني » وهي رحلة قصيرة قام بها أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني بين سنتي ٧٠٦ و ٧٠٨ هـ ، في أنحاء تونس وطرابلس ، وهي تتضمن طائفة كبيرة من النبد والشذور التاريخية القيمة عن الأحداث والمعارك التي وقعت في أنحاء إفريقية وبلاد الجريد ، بين بني غانية والموحدين ، وهي من أدق وأوفى الروايات التي انتهت إلينا عن هذه الفترة .

وكذلك رحلة ابن جبير الأندلسي ، ففيها إشارات ونبذ هامة ، تتعلق بالموحدين ؛ أما عن المصادر الجغرافية المتعلقة بالمغرب والأندلس ، فلدينا ثلاثة من أهمها وأقيمها ، هي كتاب «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» ، المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » (لأبي عبيد البكري) ، و« وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » المستخرج من كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسي ، وكتاب « الإستبصار » (لمؤلف مجهول) وهو أحدثها من الناحية التاريخية . وهذا كله إلى المصادر النصرانية من لاتينية وقشتالية وغيرها ، معاصرة أو محدثة ، وقد ذكرت تباعاً في مواطنها ، ولا داعي للتحدث عنها هنا .

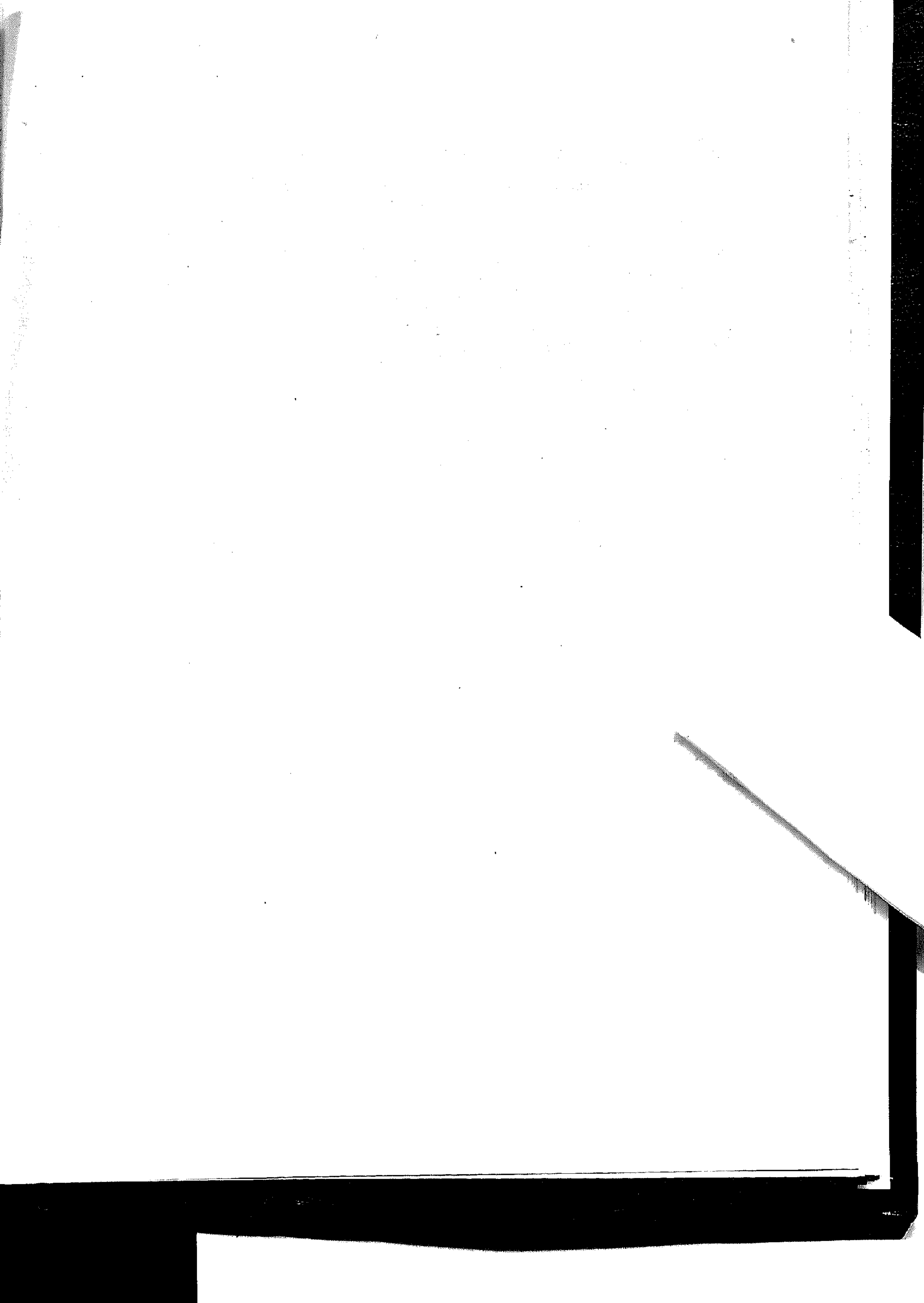


وجه الله انما انصرف من المكان الذي يتولى فيه وميراثه في حياته
 وعزل قضايته بطريقه اولادته من بيننا وليكنوا في اصلاح
 انفسهم من اصلاح عبيدها ومن لا يبيع امره يبيع لانفسه يبيع
 ومن لم يبيع امره لا يبيع امره من قوله وعلية امره يبيع بقوله الله في
 النسيء والاعلان والتمسك بعضهم بربان والاعلان عن
 حوايلهم بالانان والتسوية من طريق البيرو والتمسك من
 جعل كل علم وصنع ويومع على تخرج الجسد العليم وتقيه المصنع
 القوم ولحقوا بالانان من يبيع من يبيع ما اذا اقصوا به التمسك
 واصح امرهم الظرفه التي يبيعون بها انفسهم ولا تحفه في الاصل
 انما رضاء والتمسك بها على ما ولا يتقوا انفسهم من مسبق فانها في حيا
 واخصوا ما لله العلي يبيعوا واحلوا ما كان قال سبحانه انما اطلب
 نبي من يبيع ما يبيع ويبيع وفيه الله باصله في انفسه اليقين
 واعتقاد الحق الغلص في الغرابين وغير الزبط والقاب المخلص
 فان مثل اليقين المشهور في الغرابين والقاب المخلص في الزبط
 اليقين وفيه العيش وانتم وادوا من امره في بيع الجهاد الزبط
 من عاين اذ ان الزكاه امر الحسن وموت على النجاة في حيا
 وانظر الميراث في الغرابين ومن جاء من ربه في حيا عليه
 وصلى الله على الجاهل في تسيير الله في الغرابين الزكاه لا يبيع
 عن صلته ولا يبيع والذين اذنهم صدر الله على المصالح في الزبط
 والبيع بالقوية حاجتها في التسيير اليقين في حيا
 النقص التزمه الاستعداد والاصل الزبط في حيا في حيا

وجه الله انما انصرف من المكان الذي يتولى فيه وميراثه في حياته
 وعزل قضايته بطريقه اولادته من بيننا وليكنوا في اصلاح
 انفسهم من اصلاح عبيدها ومن لا يبيع امره يبيع لانفسه يبيع
 ومن لم يبيع امره لا يبيع امره من قوله وعلية امره يبيع بقوله الله في
 النسيء والاعلان والتمسك بعضهم بربان والاعلان عن
 حوايلهم بالانان والتسوية من طريق البيرو والتمسك من
 جعل كل علم وصنع ويومع على تخرج الجسد العليم وتقيه المصنع
 القوم ولحقوا بالانان من يبيع من يبيع ما اذا اقصوا به التمسك
 واصح امرهم الظرفه التي يبيعون بها انفسهم ولا تحفه في الاصل
 انما رضاء والتمسك بها على ما ولا يتقوا انفسهم من مسبق فانها في حيا
 واخصوا ما لله العلي يبيعوا واحلوا ما كان قال سبحانه انما اطلب
 نبي من يبيع ما يبيع ويبيع وفيه الله باصله في انفسه اليقين
 واعتقاد الحق الغلص في الغرابين وغير الزبط والقاب المخلص
 فان مثل اليقين المشهور في الغرابين والقاب المخلص في الزبط
 اليقين وفيه العيش وانتم وادوا من امره في بيع الجهاد الزبط
 من عاين اذ ان الزكاه امر الحسن وموت على النجاة في حيا
 وانظر الميراث في الغرابين ومن جاء من ربه في حيا عليه
 وصلى الله على الجاهل في تسيير الله في الغرابين الزكاه لا يبيع
 عن صلته ولا يبيع والذين اذنهم صدر الله على المصالح في الزبط
 والبيع بالقوية حاجتها في التسيير اليقين في حيا
 النقص التزمه الاستعداد والاصل الزبط في حيا في حيا

صفحات من المخطوط رقم ٣٨ هـ الفيزي المكتبة الاسكودريال ، وهما من رسالة الأمير تاشفين بن علي
 إلى الفقهاء والوزراء والصلحاء والكافة ببلنسية ، المؤرخة في أوائل جمادى الأولى سنة ٥٣٨ هـ







تهيد

الأوضاع العامة لشبه الجزيرة الأندلسية

في عصر المرابطين والموحدين

كانت موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) ، موقعة الحسم ، في مصابر اسبانيا المسلمة ، سواء إزاء اسبانيا النصرانية ، أو إزاء المرابطين . فقد انقشع الخطر الداهم الذي كان يهددها بالفناء العاجل ، مذ سقطت طليطلة حصن الأندلس من الشمال في أيدي النصارى ، وقد كتبت لها حياة جديدة . ولكن الزلاقة ، كانت من جهة أخرى نذيراً بأعظم تحول وقع في مصايرها منذ الفتح ، ذلك أن المرابطين الذين قدموا إليها إخواناً في الدين ، وأصدقاء مجاهدين منجدين ، انقلبوا عقب الزلاقة إلى أعداء فاتحين . وما كاد الموقف يتضح لعاهل المرابطين يوسف ابن تاشفين عقب النصر ، وتبدو له دول الطوائف الأندلسية على حقيقتها ، دويلات متخاذلة متنازعة ، يسودها الإنحلال ، ويقضم أسسها الترف والخور ، حتى قرر أمره تجاه أمراء الطوائف . وسواء أكان هذا القرار قد أملته شهوة الفتح ، ورغبة الاستيلاء على هذه البلاد الخضراء الغنية الساحرة ، أم كان يقصد حمايتها من النصارى ، والتحوط بذلك لسلامة المغرب ، بصون جناحه الدفاعي من الشمال - الأندلس - فقد نفذ عاهل المرابطين قراره ، واستولت جيوشه تباعاً على دول الطوائف ، في فترة لا تتجاوز عشرين عاماً ، فيما بين سنتي ٤٨٣ و ٥٠٢ هـ (١٠٩٠ - ١١٠٩ م) ، وذلك حسبما فصلناه من قبل في كتابنا « دول الطوائف » .

وأضحت الأندلس من ذلك الحين ولاية مغربية ، تخضع لحكومة مراکش ، وتحكمها القبائل البربرية المغربية ، بعد أن كان المغرب قبل ذلك بنحو قرن فقط ، ولاية أندلسية تخضع لخلافة قرطبة الأموية . ونحن نعرف أن البربر قد اضطلعوا في فتح الأندلس بأعظم قسط ، ولكنهم لم ينالوا نصيبهم الحق ، في حكم هذه البلاد الجديدة ، وغلب سلطان العرب سادة البربر عند الفتح . وعلى الرغم من أن البربر كانت لهم ما بين آونة وأخرى ، في ظل الدولة الأموية ، بعض

الخطوة ، وكان لهم في ظل الدولة العامرية قسط بارز من النفوذ والسلطان ، وعلى الرغم من أنهم نالوا قسطهم من أسلاب الخلافة ، وقامت لهم في عهد الطوائف عدة من الدول القوية ، بلغت في ظل بني حمود مرتبة الخلافة ، فإنهم في ظل المرابطين ، يسيطرون لأول مرة سلطانهم كاملا على الأندلس ، ويستأثرون فيها بالحكم والسيادة ، وتختفي خلال ذلك رياسة الأسر والزعامات الأندلسية . أجل إن عهد المرابطين بالأندلس لم يكن طويل الأمد . ذلك أنه لم يدم أكثر من زهاء نصف قرن . ولكن سلطان البربر على الأندلس يمتد بعد انتهاء الدولة المرابطية ، على يد ورثتها الدولة الموحدية ، أكثر من قرن آخر . وفي وسع المؤرخ أن يلاحظ ما بين هذين العهدين ، من أوجه التماثل التي تجمع بينهما ، وأن يلاحظ في نفس الوقت أوجه الخلاف والتناقض التي تباعد بينهما ، وتسبغ على كل منهما خواصه ومميزاته .

إن المرابطين والموحدين ، ينتمى كلاهما إلى طائفة من تلك القبائل البربرية ، التي أخذت على كراعصور في حكم المغرب وسيادته بأوفر نصيب ، فالمرابطون ينتمون بالأخص إلى المتونة وكدالة ومستوفة ، وينتمى الموحدون بالأخص إلى هرغة ومصمودة وهنتاة وكومية . وقد نشأت كلتا الدولتين ، المرابطية والموحدية ، في ظروف متشابهة ، كأنما رسمت لكل منهما على نسق واحد ، فكلتاها قامت على أسس دينية ، وعلى يد فقيه وداعية متعصب ؛ فكان داعية الدولة المرابطية ، الفقيه عبدالله بن ياسين ، وكان داعية الدولة الموحدية ، المهدي محمد بن تومرت ، وتحولت كلتاها إلى ملك سياسي على يد زعيم موهوب وقائد بارع ، فكان زعيم الدولة المرابطية الذي وطد دعائمها ، وشاد ملكها السياسي ، يوسف بن تاشفين ، وكان قرينه عبد المؤمن بن علي ، هو الذي وضع أسس الدولة الموحدية ، ووطد دعائمها . واستطاعت الدولة الموحدية ، بعد أن قضت على الدولة المرابطية ، أن تسيطر على نفس الرقعة الإقليمية الشاسعة ، التي كانت تحتلها ، سواء في المغرب أو الأندلس ، وإن كانت الأندلس لم تخلص للموحدين إلا بعد فترة من الصراع المحلي ، ولاسيما ضد الثورة في شرقي الأندلس .

وفضلا عن ذلك ، فقد كانت تجمع بين الدولتين ، بالنسبة للأندلس ، إذا أغضينا عن العوامل الإقليمية والسياسية ، التي كانت تحرك هاتين الدولتين ، إلى بسط سيادتهما على هذا الإقليم الغني الساحر - كانت تجمع بينهما فكرة الجهاد ،

وحماية الأندلس ، من عدوان الممالك الإسبانية النصرانية . وهنا تبدو وجوه الخلاف بين الدولتين . ذلك أنه بالرغم من وحدة الغاية ، فقد كان المرابطون يضطرمون بروح جهاد قوية خالصة ، وقد استطاعوا في ظل هذا الروح الدافع أن يصدوا عن الأندلس عدوان اسبانيا النصرانية ، وأن يحرزوا بعد الزلافة ، النصر في عدة مواقع مماثلة ، حاسمة في صدع قوى اسبانيا النصرانية . وإذا استثنينا موقف المرابطين من سقوط سرقسطة ، وهو السقطة العسكرية المرابطية البارزة خلال هذا الكفاح ، فإن الصراع الذي اضطلع به المرابطون ضد الممالك الإسبانية النصرانية ، كان صراعاً قوياً وناجحاً ، وقد أحرز المرابطون خلاله ضد النصارى عدة من الانتصارات الباهرة ، ولاسيما في أقليمش (سنة ٥٠١ هـ - ١١٠٨ م) ، وفي إفراغة (٥٢٨ هـ - ١١٣٤ م) . وقد استطاع المرابطون على وجه العموم حتى أواخر عهدهم ، الذي استطال بالأندلس زهاء خمسين عاماً ، أن يحافظوا على رقعة الوطن الأندلسي ، ولم يصدع من كفاحهم ضد النصارى ، سوى قيام الثورة عليهم في مختلف القواعد ، عند ظهور الموحدين وعبورهم إلى الأندلس .

أما الموحدون فبالرغم من أنه كانت تحذوهم مثل الروح ، التي كانت تحذو المرابطين ، في محاربة اسبانيا النصرانية ، والذود عن الأندلس ، فإنهم لم يحرزوا مثلاً أحرز المرابطون من التوفيق في هذا الكفاح . وقد بذل الموحدون بالفعل جهوداً فادحة في سبيل الاضطلاع بحركة الجهاد بالأندلس ، وصد عدوان اسبانيا النصرانية عنها ، وقد عبرت جيوشهم الحرارة مراراً إلى شبه الجزيرة ، مزودة بكميات هائلة من العتاد والسلاح ، ولكنهم وهم في إبان قوتهم ، لم يحرزوا توفيقاً في حملاتهم الغازية ضد النصارى ، فتحطمت حملة الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ضد القشتاليين ، تحت أسوار وبدة (٥٦٧ هـ - ١١٧٢ م) ، وتحطمت حملته الثانية ضد البرتغاليين تحت أسوار شنترين (٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م) ، ومنيت الجيوش الموحدية بهزيمة فادحة ، وهلك الخليفة نفسه في الموقعة . ويرجع هذا الفشل إلى عدة أسباب ، منها اختلال نظام الجيوش الموحدية ، وضعف قيادتها ، واختلال وسائل تموينها ، كما يرجع إلى اشتداد ساعد مملكة البرتغال ، واستغراقها معظم جهود الموحدين ، في ولاية الغرب الأندلسية ؛ ولم تبرز الجيوش الموحدية في جهادها ضد النصارى إلا في معركة الأرك العظيمة ، التي أحرز فيها الخليفة يعقوب المنصور ، انتصاره الباهر على القشتاليين ، في شهر رجب سنة ٥٩١ هـ

(يوليه سنة ١١٩٥ م) . على أن هذا النصر العظيم ، لم يلبث أن محت آثاره موقعة العقاب المشنومة ، التي أحرز فيها القشتاليون نصرهم الساحق على الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة محمد الناصر ولد المنصور ، وذلك في صفر سنة ٦٠٩ هـ (يونيه سنة ١٢١٢ م) ، والتي كانت ضربة قاضية ، لقوى الموحدين بالأندلس والمغرب ، ولم يمض على وقوعها سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تسقط تباعاً في أيدي النصارى في وابل من المحن المؤلمة .

كانت قصة الجهاد في سبيل الله ، وقصة حماية الأندلس من عدوان النصارى ، تجثم وراء هذه المعركة الطويلة المستمرة بين المرابطين والموحدين من ناحية ، وبين اسبانيا النصرانية من ناحية أخرى ، وكان المرابطون والموحدون ، تحملهم في هذا الصراع المستمر ضد اسبانيا النصرانية ، فضلاً عن غريزة الاحتفاظ بالنفس ، نزعة لا شك فيها من الجهاد الإسلامي ، والدود عن معاقل الإسلام وتراثه في « جزيرة الأندلس » . وهم قد عبروا البحر أول ما عبروا إلى الأندلس ، تدفعهم تلك النزعة النبيلة ، ولم تخمد نزعة الجهاد في صدورهم طوال الوقت الذي كانت تضطرم فيه المعارك باستمرار ، بينهم وبين اسبانيا النصرانية ، وكثيراً ما غزت الجيوش المرابطية والموحدية ، أراضي اسبانيا النصرانية من تلقاء نفسها ، طلباً للجهاد ليس غير ، وقد عبر الخلفاء الموحدون إلى الأندلس في جيوشهم الحاررة مراراً ، لمتابعة هذا الجهاد ، الذي كان شعارهم دائماً في محاربة النصارى في شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

ولقد كان من الطبيعي أن تنشب بين المرابطين والموحدين ، وهم سادة الأندلس الحدد ، وبين زعماء الأندلس المحليين معركة السلطان والملك . ولقد كانت هذه المعركة التي تغذيها عوامل مختلفة ، هي محنة الأندلس الحقيقية ، وكانت تتجدد من خلالها صور المعارك الانتحارية ، التي أثلخت الأندلس أيام الطوائف بجراحها الدامية . على أنه مهما كانت بواعث الأسف والأسى ، التي تقترن بمثل هذه المعارك ، ومهما كان لنا أن نستنكرها وأن نحكم عليها ، فإنه يصعب على المؤرخ ، أولاً أن يحدد المسؤولية في شأنها أو أن يلقى تبعها على فريق بعينه ، وثانياً أن يتجاهل العوامل القومية والوطنية ، التي كانت من ورائها . وهي في ذلك تفترق عن معارك

الطوائف ، التي لم تكن تحدوها سوى الأطماع والأهواء الشخصية الوضيعة .
ومما يلاحظ أن الثورة على سلطان المرابطين في الأندلس ، لم تضطرم إلا في
أواخر عهدهم في شبه الجزيرة ، في نفس الوقت الذي اضطرم فيه المغرب بثورة
الموحدين الحارفة ، وتضعض سلطان المرابطين في عقر دولتهم ، وتعذر عليهم
إرسال الإمداد إلى ما وراء البحر . على أن هذه الثورة كانت في الواقع أقدم عهداً
وأعمق جذوراً ، إذ هي ترجع إلى عهد الفتح المرابطي ذاته . وكانت الأندلس ،
حينما اشتدت عليها وطأة اسبانيا النصرانية ، وعجزت دول الطوائف الضعيفة
المتنازعة ، عن رد عدوانها ، وجاء سقوط طليطلة نذيراً بالخطر الداهم ، قد
استقبلت المرابطين إخوانا في الدين منجدين منقذين ، وأكد نصر الزلاقة الباهر
ومن بعده جواز يوسف بن تاسفين الثاني لنصرة الطوائف في حصار حصن لبيط
(أليدو) (٤٨١ هـ - ١٠٨٨ م) هذا الاعتبار وهذا المعنى . على أن فكرة
الاستنصار بالمرابطين لم تكن دون توجس ، ودون تخوف من العواقب . وقد
ذكرنا فيما تقدم من كتابنا « دول الطوائف » كيف عارض المعتمد بن عباد ولده
الرشيد ، في فكرة الاستنصار بالمرابطين ، وحذره من مقدمهم بقوله : « ياأبت
أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ، ويبدد شملنا » وكيف أنه كان ثمة بين
أمراء الطوائف ، ورجال الأندلس ، من لم ترقه هذه الفكرة ، توجساً
من عواقبها (١) .

وقد تحققت هذه المخاوف ، وانهار ذلك المعنى النبيل الذي بثه نصر الزلاقة
لأمد قصير ، وانقلب المنقذون إلى فاتحين ، واستولى المرابطون على دول الطوائف
واحدة بعد أخرى ، واقترن هذا الفتح في بعض الأحيان بكثير من العنف ،
والقسوة ، وسقط عدد من أمراء الطوائف مدافعين عن أنفسهم وملكهم . وكان
لهذا التحول بلاريب أعظم صدى في جنبات الأندلس ، وأعمق أثر في نفوس
الأمة الأندلسية . ومن جهة أخرى فإن أساليب الحكام والقادة المرابطين ، في
حكم هذا القطر الجديد ، لم تكن لينة ولارفيقة ، وذلك بالرغم مما كان يحدوها
ويوجهها في معظم الأحيان من جانب أمير المسلمين ، من النيات الطيبة والنصائح
المثالية لعماله وقادته ، باتباع العدل ، والرفق بالرعية ، وكانت أساليب هؤلاء

(١) راجع كتاب دول الطوائف ، ص ٧٨ ، والحلل الموشية ص ٢٧ و ٢٨ ، وأعمال الأعلام
لابن الخطيب (طبع بيروت) ص ٢٤٥ ، وكتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين ص ١٠٣ و ١٠٤ .

الحكام والقادة ، ومعظمهم من أقارب أمير المسلمين وأصحابه ، تجافى بعنفها وخشونتها ما جبلت عليه الأمة الأندلسية المتحضرة المترفة ، من الأساليب المهذبة الرقيقة . ومن ثم فإنه لا يدهشنا أنه لم يمض سوى خمسة عشر عاماً فقط ، على وفاة عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، حتى اضطرت الثورة في قرطبة حاضرة الأندلس يومئذ ، ضد المرابطين في سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، في أوائل عهد علي بن يوسف ، وذلك وفقاً لقول الثوار « ذبا عن الحرم والدماء والأموال » (١) . ولم تكن هذه الفورات وأمثالها ، في البداية سوى محاولات للتنفس من حكم المرابطين المتزمت المرهق . ولم تقو الفكرة الوطنية الأندلسية وتبلور إلا فيما بعد ، في أواخر عهد المرابطين ، حينما اضطرت الأندلس كلها ، من شرقها إلى غربها ، بالثورة ضدهم ، وقام أحمد بن قسى في غرب الأندلس ، في ميرتلة وشلب وباجة سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، وقام في نفس العام أبو جعفر ابن حمدين في قرطبة ، وأبو الحسن علي ابن أضحى في غرناطة . وفي نفس الوقت انهار سلطان المرابطين تباعاً في شرقي الأندلس ، وقام القاضي ابن عبد العزيز أولاً في بلنسية ، ومرسية . ثم نهض ابن عياض فغلب عليهما بعد طائفة من الأحداث والانقلابات المتوالية ، ودعا بالرياسة لسيف الدولة ابن هود . وتقلد ابن هود الرياسة الإسمية ، وهو في تقلده إياها ، يمثل الفكرة القومية الأندلسية ، ولما قتل ابن هود في موقعة البسيط ، التي نشبت بين قوات بلنسية وابن هود ، وبين القشتاليين وذلك في سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) دعا ابن عياض لنفسه ، وغلب على شرقي الأندلس كله ، إلى أن لقي مصرعه في معركة نشبت بينه وبين القشتاليين في سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) . وعندئذ خلفه في الرياسة نائبه وصهره محمد بن سعد بن مردنيش ، وسرعان ما اشتد ساعده ، وبسط سلطانه القوى على سائر القواعد الشرقية من بلنسية حتى قرطاجنة . وكان ابن مردنيش يمثل الفكرة القومية الأندلسية في أعرق صورها ، وقد شهر علم النصال ضد الموحدین أعواماً طويلة ، حتى تبددت قواه ، ثم خبت فورته بوفاة ، وذلك كله حسبما تفصل بعد في مواضعه . وكان سلطان المرابطين قد انهار نهائياً في شرقي الأندلس ، قبل ثورة ابن مردنيش بعدة أعوام ، وإن كان بفضل الجهود العنيفة التي بذلها قائد المرابطين القوى ابن غانية ، قد لبث في بعض القواعد الوسطى والغربية لفترة قصيرة أخرى .

(١) الحلل الموشية ص ٦٣ .

كانت هذه الفورات المتعاقبة التي اضطرت ضد المرابطين في مختلف القواعد الأندلسية ، في تلك الفترة العصبية من أيامهم ، تتسم بالرغم من اتخاذها في بعض نواحيها صورة الحرب الأهلية ، بالطابع الوطني ، وتمثل بوضوح فكرة تحرير الأندلس من النير المرابطي . ولم يكن أولئك الزعماء الخوارج ، يجمعون في سبيل تحقيق غايتهم ، أو في سبيل التطاحن فيما بينهم ، عن الإستعانة بالنصارى ، وهي وسيلة شائنة ، خطيرة في نفس الوقت ، تتحطم لديها سائر الاعتبارات الوطنية والدينية . بيد أنه يجب أن نذكر أنها نفس الوسيلة اليائسة التي لجأ إليها أمراء الطوائف ، حينما استشفوا نية عاهل المرابطين في القضاء عليهم ، فلم يجمعوا عن الالتجاء إلى ملك قشتالة ، ألفونسو السادس ، أخطر أعدائهم ، والمنزع لقواعدهم وأراضيهم ، والتحالف معه على رد الجيوش المرابطية . وكان الملوك النصارى يسارعون بتلبية أمثال هذه الدعوات ، ليس فقط انتهازاً لما تقدمه إليهم من فرص الضرب والتفريق بين الأمراء المسلمين ، واستنزاف قواهم ، وانتزاع ما يمكن انتزاعه منهم من الأموال والأراضي ، ولكن كذلك شعوراً منهم بالخطر المشترك ، الذي يهدد الوطن المشترك - شبه الجزيرة الإسبانية - من جراء تغلب القبائل البربرية المرابطية عليه ، واستقرارها فيه ، وقد تمثلت هذه الظاهرة فيما بعد أيام الموحدين ، أصدق تمثيل ، في ثورة محمد بن سعد بن مردنيش ، وفي تحالفه المستمر الوثيق مع الملوك النصارى ، ضد الموحدين .

* * *

ونستطيع أن نقول إنه منذ انهارت ثورة ابن مردنيش في شرقي الأندلس بوفاته في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) ، واستولى الموحدون على مملكة مرسية ، خاضت الأندلس كلها لطاعة الموحدين ، وغاضت النزعة القومية الأندلسية ، واستسلمت الأندلس لحكم سادتها من وراء البحر ، واستطاع الموحدون أن يوطدوا سلطانهم في الجزيرة مدى نصف قرن آخر ، وسطع البلاط الموحدى في إشبيلية ، التي جعل الموحدون منها حاضرة الأندلس ، وخصوها بمنتهى الرعاية ، وعملوا على تحصينها ، وتجميلها بطائفة من الصروح الفخمة ، وقامت منشآتهم العمرانية العظيمة بإشبيلية ، وغيرها من قواعد الأندلس ، من قصور ومساجد وحصون وقناطر وأسوار ، تشيد بهمهم وقوة سلطانهم ، وفخامة دولتهم . والتف حول البلاط الموحدى سواء بإشبيلية أو المغرب ، أعلام الأندلس من كل

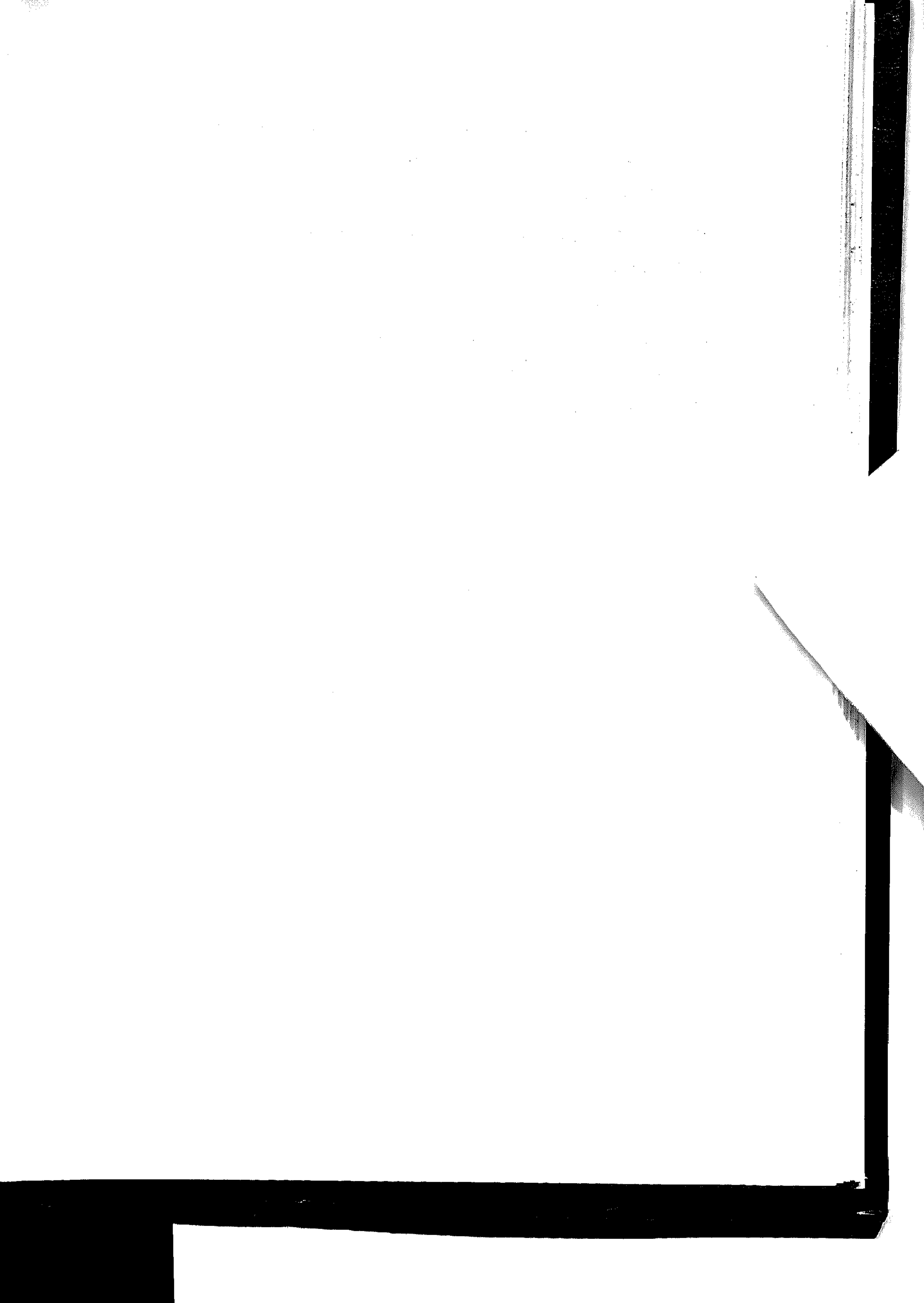
ضرب ، من فقهاء وعلماء وكتاب وشعراء ، وحشد الخلفاء الموحدون إلى جانبهم أقطاب البيان والتفكير الأندلسيين ، واتخذوا منهم وزراء وكتابا وأطباء ، وخدم علماء وفلاسفة عظام ، مثل ابن طفيل ، وابن زهر ، وابن رشد ، في بلاط الخليفة الموحدى .

وهكذا استقام الأمر بالأندلس في ظل الحكم الموحدى مدى نصف قرن آخر ، وشغل الموحدون داخل إمبراطوريتهم العظمية بالمغرب ، بتوطيد سلطانهم ، وقمع نزعات العصيان المحلية ، وشغلوا بالأخص بمكافحة بنى غانية ، والقضاء على ثورتهم وحركاتهم المخربة بإفريقية ، وهى ثورة اقتضت منهم أفدح الجهود ، وكادت في بعض الأحيان أن تقضى على سلطانهم في إفريقية . ثم كان عهد الخليفة الناصر ابن المنصور ، وكانت حملته المشثومة إلى الأندلس ، وكانت نكبة العقاب الساحقة (٥٦٠٩ هـ) ، وما ترتب عليها من انهيار سلطان الموحدين في شبه الجزيرة ؛ عندئذ تغيرت الأمور ، وتجهمت الحوادث ، ولم يقتصر الأمر عندئذ على استئالة الممالك النصرانية ، وضغطها على مختلف نواحي الأندلس ، وتحفزها لافتتاح قواعدها الكبرى ، ولكن حدث في نفس الوقت أن أخذت بوادر الثورة تتحرك داخل الأندلس ، تغذيها العوامل القومية القديمة ، ضد حكم وهنت دعائمه . وكان موطن هذه الثورة الجديدة ، شرقي الأندلس ، وكان على رأسها زعيان ينتمى كلاهما إلى بيت من البيوت الثائرة القديمة ، أولها زيان بن مردنيش ، والثانى أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود ؛ وبينما انحصرت حركة زيان ببلنسية ، إذا بدعوة ابن هود تجتاح مرسية وألمرية وغرناطة ومالقة ، وكانت حركة ابن هود تمثل فكرة الأندلس القومية أصدق تمثيل ، وترمى إلى تحرير الأندلس من نير الموحدين ، والنصارى معا ، ولكن موارده وقواته ، لم تكن تسمح له بأن يضطلع بمثل تلك المهمة الفادحة . ومن جهة أخرى ، فقد نهض النصارى لانتهاز الفرصة السانحة ، وانتزاع قواعد الأندلس الكبرى ، خلال تلك الغمار المضطربة ، فقام ألفونسو التاسع ملك ليون بانتزاع قواعدها الغربية ، ماردة وبطليوس وغيرها (٥٦٢٧ هـ) ثم قام فرناندو الثالث بانتزاع قرطبة عاصمة الخلافة القديمة (شوال سنة ٥٦٣٣ هـ - يونيه ١٢٣٦ م) - وذلك في الوقت الذى تخلى فيه ابن هود عن إنجازها ، وشغل بالعمل لتوطيد سلطانه في جنوبي الأندلس . وكان لسقوط قرطبة أعمق وقع في تلك الأندلس المفككة المهوكة القوى ، ولكنه كان أمراً محتوماً لاسيما إلى اتقائه .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى توفي ابن هود في أوائل سنة ٦٣٥ هـ ، وهو في إبان قوته وطموحه ، وانهارت بوفاته أمانى ومشاريع كثيرة ؛ وفي العام التالى استطاع خايمي الأول أو الفاتح ملك أراجون ، أن يستولى على بلنسية عاصمة الشرق (صفر سنة ٦٣٦ هـ - سبتمبر ١٢٣٨ م) وكان قد استولى قبل ذلك في سنة ٦٢٨ هـ على الجزائر الشرقية . وفي الوقت الذى أخذ يتوالى فيه سقوط القواعد الشرقية والوسطى ، فى أيدي النصارى ، كان محمد بن الأحمر من جانبه ، يعمل بكل ما وسع لبسط سلطانه على القواعد الجنوبية . وهكذا أضحت الأندلس مرة أخرى مسرحاً لغمار متوالية من الحوادث والفتن التى تمزق أوصالها ، وتجعلها فريسة هينة لعدوها الخالد - إسبانيا النصرانية - ينتزع قواعدها وأراضيها تباعاً ، ولا تجد وسيلة ناجعة لدفع هذا العدوان الحار ، بعد أن انهار سلطان الموحدين وقواهم بالأندلس ، وبعد أن فقدت الأندلس منعتها ومواردها العسكرية القديمة ، فى ظل حكم الدولة الغالبة .

ولم تفق الأندلس من تلك المحنة الطاحنة ، إلا وقد فقدت قواعدها الكبرى شرقاً وغرباً - قرطبة ، وبلنسية ، ومرسية ، وشاطبة ، ودانية ، وجيان ، وإشبيلية وبطليوس ، وماردة ، وشلب ، وغيرها وغيرها - وأضحت أنقاضاً متناثرة ، تجتمع أشلاؤها الدامية فى الجنوب ، فيما وراء نهر الوادى الكبير ، ولاح من خلال ذلك كله ، أن ساعة الأندلس الأخيرة قد دنت ، وأنه لم يبق على إسبانيا النصرانية إلا أن تجتنى بقية تراثها الممزق ، وأن تختتم هذه السلسلة من معارك « الإسترداد » "La Reconquista" العظيمة بضربة أخيرة ، تكون هى القاضية على حياة إسبانيا المسلمة ، لولا أن شاء القدر أن تلتئم هذه الأنقاض المتناثرة من تراث الأندلس الكبرى ، وأن تبعث من بينها قوة فتية جديدة ، تتمثل فى قيام مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام فى الأندلس .

تلك هى الخطوط العريضة لصورة العصر ، الذى نحاول أن نضطلع باستعراض أحداثه ، وشرح ظروفه وخواصه ، - عصر المرابطين والموحدين .



الكتاب الأول
الدولة المرابطية
في أوج سلطانها

الفضل الأول

يوسف بن تاشفين

خواص إمارته ولامع خلاله

يوسف بن تاشفين وبداية زعامته . أبو بكر بن عمر اللمتوني . المرابطون ينشرون الإسلام في غانة ومالي . يوسف يتسمى بأمر المسلمين . ظروف تسميته بهذا اللقب . اعترافه بطاعة الخليفة العباسي . رواية ابن خلدون . ما يؤيد هذه الرواية . رواية ابن العربي عن رحلته . فتوى الإمام الغزالي عن موقف أمراء الطوائف وعن حتى يوسف في استصدار المرسوم الخلافي . كتاب الإمام الغزالي ليوسف . كتاب أبي بكر الطرطوشي . اختيار يوسف لولده على لولاية العهد . المرسوم الصادر بذلك . كتاب البيعة والتولية . خلال يوسف وسنائه . بساطته المؤثرة . براعته العسكرية . عدله وإيثاره للفقهاء . موافقه من الضراب والمكوس . سيادة الأمن والرخاء في عهده . وزيره عبد الرحمن بن أسباط . كاتبه ابن القصيرة . مرض يوسف ووفاته . تحقيقه لوحدة المغرب والأندلس . الدولة المرابطية الكبرى .

- 1 -

كان مما اقتضاه سياق الكلام عن تاريخ دول الطوائف ، أن نتحدث عن نشأة الدولة المرابطية وقيامها في المغرب ، والتجاء أمراء الطوائف ، حينما لاح خطر اسبانيا النصرانية قوياً على الأراضي والقواعد الإسلامية في شبه الجزيرة ، وحينما جاء سقوط طليطلة في شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو سنة ١٠٨٥ م) نذيراً بتفاقم هذا الخطر ، - التجأهم إلى إخوانهم فيما وراء البحر ، إلى المرابطين ، يطلبون منهم الإنجاد والغوث ، ثم عن عبور بطل المرابطين يوسف بن تاشفين في جيوشه الحرارة المتوثبة إلى الأندلس ، وخوض الجيوش الإسلامية المتحدة - المرابطية والأندلسية - معركة الزلاقة ضد الجيوش النصرانية المتحدة ، في رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) ، وإحرازها لانتصارها الباهر الذي قمع عدوان اسبانيا النصرانية إلى حين ، وأخيراً عن انقلاب المرابطين من منقذين إلى فاتحين ، واستيلائهم على إمارات الطوائف تباعاً ، وضم الأندلس إلى الدولة المرابطية الكبرى .

وقد تتبعنا خلال ذلك كله حياة زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين ، منذ

نشأته ، حتى فوزه بإنشاء الدولة المرابطية في المغرب ، وماتلاً ذلك من عبوره إلى شبه الجزيرة غير مرة ، وفوزه بملك الأندلس ، ثم وفاته في مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) بعد حياة حافلة بعظائم الحوادث ، وجلال الأعمال .

ولسنا نجد بعد أن استعرضنا ذلك كله ، بتفاصيله الشاملة في كتابنا « دول الطوائف » ، مجالاً لتكرار الكلام في هذه الموضوعات . بيد أنه لا يسعنا ، ونحن نزمع الكلام هنا عن عصر المرابطين في المغرب والأندلس ، إلا أن نرتد بأبصارنا إلى بعض إلى ما تقدم من المواطن ، وأن نستزيدها فيما أوجزنا فيه منها ، حتى ينتظم السياق ، وتكمل وحدة الموضوع .

وأول ما يعرض لنا في ذلك ، هو العود إلى بعض مواطن ، في حياة البطل المغربي العظيم ، يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، ونبدأ في ذلك بصفته وألقابه الملوكية ، وهو ما تناولناه فيما تقدم بطريقة عابرة .

كانت رئاسة المرابطين الزمنية ، حينما أنشأ الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ، طائفة المرابطين في أول أمرها ، لزميله وصديقه يحيى بن إبراهيم الكدالي ، ولما توفي هذا الرئيس ندب عبد الله بن ياسين مكانه للرئاسة الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني ليتولى شئون الحرب والجهاد . وكانت هذه أول مرحلة في رئاسة لمتونة الزمنية لطائفة المرابطين . ولما توفي الأمير يحيى في سنة ٤٤٧ هـ ، عين مكانه للقيادة أخوه أبو بكر بن عمر . ولما وضع المرابطون خططهم لافتتاح بلاد السوس في سنة ٤٤٨ هـ ، ندب الأمير أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليكون قائداً لمقدمة الجيش المرابطي . وهذه هي أول مناسبة تاريخية ، يذكر فيها اسم البطل المرابطي ، ولم يكن له يومئذ من الرئاسة ، سوى صفة القيادة لجنح من أجنحة الجيش المرابطي . وهنا ظهرت براعته العسكرية ، فيما اضطلع به المرابطون يومئذ من الفتوحات المتوالية في أنحاء المغرب ، وهي التي فصلنا أطوارها فيما تقدم . ولما توفي عبد الله بن ياسين قتيلاً في بعض المعارك التي نشبت في أراضي برغواطة في سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ، استأثر الأمير أبو بكر اللمتوني بزعامة المرابطين الروحية والزمنية معاً ، وتحققت بذلك رئاسة لمتونة ، وبدأت الدولة المرابطية اللمتونية ، وقوام سلطاتها ، ماتم يومئذ من فتوح المغرب .

ولما وقع الخلاف بين ملتونة ومستوفة وغيرها من القبائل المرابطية ، في بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء ، واعتزم أبو بكر أن يسير بنفسه لتلافي الأمر ، عهد بشئون المغرب إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين (٤٥٣ هـ) ، وقسمت الحيوش المرابطية عندئذ إلى قسمين ، تولى يوسف إمرة أحدهما ليتم به إخضاع المغرب ، وسار أبو بكر إلى الصحراء في القسم الآخر . وقد أشرنا من قبل إلى خاتمة أبي بكر ، وكيف أنه حينما عاد بعد إتمام مهمته في الصحراء إلى المغرب ولقي يوسف (سنة ٤٦٥ هـ) ، ورأى من عظمة سلطانه وقوته ، ما أدرك معه أن كل أمل قد غاض في استرداد إمارته على المغرب ، قد ارتد ثانية إلى الصحراء ، وهنالك اخترق مشارف الصحراء الكبرى ، ودخل منطقة النيجر الوسطى ، ولبت حينما يقوم بغزوات متوالية في قلب مملكة السودان ، وعاصمتها يومئذ مدينة غانة ، وفي مملكة مالي ، وهو يعمل على نشر الإسلام بين تلك القبائل السود ، التي كانت يومئذ تدين بالنصرانية ، والتي تضع الرواية تاريخ إسلامها في سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م)^(١) . واستمر يتابع الجهاد والغزو حتى توفي قتيلا في بعض المعارك في سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) . أما يوسف فقد عني من جانبه بإتمام فتوح المغرب واستطاع أن يخضع معظم نواحيه ، وأنشأ مدينة مراكش (٤٦٢ هـ - ١٠٦٩ م) لتكون قاعدة للملكه ، وعاصمة للأقطار المغربية المترامية التي تم له افتتاحها^(٢) .

وهنا يتشجع يوسف بن تاشفين بثوب الملك السياسي والإمارة الفعلية . وقد كان مذندب لقيادة الجيش المرابطي ، وتوالت على يديه فتوح المغرب ، يتشجع بثوب الرياسة والإمارة القبلي . وهنا تختلف الرواية في أصل ألقابه الملوكية ، وأوضاعها . والتاريخ يعرف يوسف بن تاشفين « بأمر المسلمين ، وناصر الدين » . فمتى كان اتخاذه لهذا اللقب ؟ وفي أي ظروف وقع ذلك ؟

(١) الحلل الموشية (طبع : تونس) ص ٧

(٢) هذا هو التاريخ الذي يضعه ابن عذارى لإنشاء مراكش في البيان المغرب (من أوراق مخطوطة وجدت بمكتبة جامع القرويين بفاس ، ونشرت أخيراً بعناية الأستاذ هويثي ميرانده في مجلة **Hespéris** عدد سنة ١٩٦١ ص ٥٥) . ويتابعه صاحب الحلل الموشية فيضع تأسيسها في نفس التاريخ (الحلل الموشية ص ٦) . ويضع الشريف الإدريسي تاريخ إنشاء مراكش في سنة ٤٧٠ هـ (راجع المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المنشور بعناية دوزي ص ٦٧) . ويضع صاحب كتاب « الاستبصار » تاريخ إنشائها في سنة ٤٥٩ هـ (ص ٢٠٨) . ويضع صاحب روض القرطاس تاريخ إنشائها في سنة ٤٥٤ هـ ، (طبعة تورنبرج ص ٨٩) ، ويتابعه في ذلك ابن خلدون (كتاب العبر ج ٦ ص ١٨٤) .

هنالك روايتان في ذلك . الأولى خلاصتها أن يوسف بن تاشفين لما كثرت فتوحه ، وترامت أطراف مملكته ، وكان يقتصر عندئذ على التسمية « بالأمير » اجتمعت إليه أشياخ لتونة ، وأعيان دولته ، وقالوا له أنت خليفة الله في أرضه ، وأن حقه يسمو على لقب الإمارة ، واقترحوا عليه أن يتسمى « بأمير المؤمنين » فأبى واعتذر بأن هذا اللقب إنما يتسمى به خلفاء بني العباس ، سلالة النبي ، وأصحاب الحرمين ، وأنه يعتبر في المغرب رجلهم والقائم بدعوتهم ، ولكنه استجاب إليهم في التسمية « بأمير المسلمين » و« ناصر الدين » وكان ذلك في سنة ٤٦٦ هـ ، وخطب له بذلك في المنابر ، وخطب في العُدوتين ، وخرج بذلك كتابه إلى النواحي ، وهذا نصه بعد الديباجة :

« أما بعد حمد الله ، أهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر ، وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وإنا كتبنا إليكم من حضرتنا بمراكش حرسها الله في نصف محرم سنة ستة وستين وأربعمائة ، وأنه لما من الله علينا بالفتح الحسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة ، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه أفضل السلام ، وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم ، لئمتاز به على سائر أمراء القبائل ، وهو أمير المسلمين وناصر الدين ، فن خطب الخطبة العلية السامية ، فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، والله ولي العدل ، بمنه وكرمه ، والسلام » (١)

ولكن هذه الرواية تعارضها رواية أخرى ربما كانت أكثر قبولا . ذلك أنه يوجد لدينا أكثر من نص يؤيد القول ، بأن تلقب يوسف بن تاشفين بهذا اللقب ، وقع عقب انتصاره في موقعة الزلاقة ، وهذا ما يوضحه لنا صاحب « روض القرطاس » إذ يقول ، إن يوسف كان يُدعى أولا بالأمير ، فلما فتح الأندلس وصنع غزاة الزلاقة ، وأذل الله تعالى بها ملك الروم ، بايعه في ذلك اليوم أي عقب النصر ، ملوك الأندلس وأمراؤها الذين شهدوا معه تلك الغزاة ، وكانوا ثلاثة عشر ملكاً ، وسلموا عليه « بأمير المسلمين » . وخرجت كتبه مصدرة عنه بذلك إلى

(١) هذه هي رواية صاحب الحلل الموشية ص ١٦ و ١٧ ، وكذلك ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها - هسبيرس ص ٦٠) . وفي بعض الروايات المتأخرة أن يوسف بن تاشفين تسمى بالفعل بأمير المؤمنين وخطب له بهذا الاسم ولبنيه من بعده (المؤنس في أخبار إفريقية وتونس) لابن دينار . ص ٩٩ ، وهي رواية ضعيفة .

العدوة وبلاد الأندلس ، فقرئت على المنابر ، وفيها يخبرهم بما فتح الله عليه من النصر والظفر والفتح العظيم . ثم يزيد على ذلك بأن يوسف هو أول من تسمى بأمر المسلمين من ملوك المغرب^(١) . وهذه الرواية يؤيدها ابن الخطيب في الإحاطة إذ يقول لنا بإيجاز في ترجمة يوسف : « تسمى بأمر المسلمين لما احتل الأندلس ، وأوقع بالروم وكان قبل يدعى الأمير يوسف »^(٢) . ونحن نرجح هذه الرواية الأخيرة لأنها أكثر اتفاقاً مع منطق الحوادث ودلالاتها .

أما اعتراف يوسف بن تاشفين بطاعة الخليفة العباسي ، فمسألة تتفق عليها معظم الروايات . ويقول ابن الأثير ، وهو من أقدم مصادرنا في ذلك ، إن يوسف بعد أن تم له افتتاح ممالك الطوائف ، والاستيلاء على الأندلس ، وعاد إلى حضرة ملكه مراکش ، جمع الفقهاء وأحسن إليهم ، فذكروا له أنه ينبغي أن تكون ولايته صادرة من الخليفة لتجيب طاعته على الكافة ، وأنه يجب أن يأتيه منه تقليد بحكمه للبلاد ، ويرجع ابن الأثير هذا النصح إلى علماء الأندلس خاصة ، ويقول لنا إن يوسف أرسل على أثر ذلك إلى الخليفة المقتدى بأمر الله ، فوافته الخلع والأعلام والتقليد ، ولُقب بأمر المسلمين وناصر الدين . ومعنى ذلك أن يوسف تسمى بهذه الألقاب الملوكية ، أو أنها خلعت عليه فقط حينما أتاه المرسوم أو التقليد العباسي بذلك . وفي ذلك تختلف رواية ابن الأثير عن باقي الروايات^(٣) . ومن جهة أخرى فإن ذلك لا بد أن يكون قد وقع قبل سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) وهي السنة التي توفي فيها الخليفة المقتدى بأمر الله . ويبدو من كلام صاحب « روض القرطاس » وابن الخطيب ما يؤيد ذلك ، وأن صدور هذا التقليد العباسي ليوسف قد وقع عقب انتصار الزلاقة (٤٧٩ هـ) ، وأن يوسف قد ضرب السكة عقب ذلك ، وأصدر الدينار المرابطي الحديد وفي أحد وجهيه « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » وتحت ذلك « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » ، ونقش في مداره : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً ، فإن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » وكتب في الوجه الآخر « الإمام عبد الله أمير المؤمنين العباسي »^(٤) .

(١) روض القرطاس ص ٨٨ ، وراجع وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) ج ٢ ص ٤٨٨ .

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة ، مخطوط الإسكوريال (رقم ١٦٧٣ الفزيرى) لوحة ٣٩٣

(٣) تاريخ ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢ و ١٤٥ .

(٤) روض القرطاس ص ٨٨ ، وابن الخطيب في مخطوط الإحاطة السالف الذكر لوحة ٣٩٣

على أن ابن خلدون يقول لنا بالعكس إن يوسف قد كتب في شأن تقليده إلى الخليفة المستظهر بالله ، ولد المقتدى بالله وخافه ، وأنه بعث إليه في ذلك الغرض سفارة على رأسها عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبو بكر وهو الحافظ الشهير فيما بعد « فتلفظا في القول ، وأحسنا في الإبلاغ ، وطلبا إلى الخليفة أن يعقد ليوسف على المغرب والأندلس » فصدر له عهده بذلك ، وعاد السفيران يحملان التقليد بولاية يوسف على ما تحت نظره من الأقطار والأقاليم ، وأذيعت محتويات هذا التقليد بين الناس . وكذلك كتب الإمام الغزالي ، والقاضي الطرطوشي إلى يوسف يحضانه على العدل والتسك بالخير ، ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف (١).

ولقد وقفنا نحن على ما يؤيد هذه الرواية الأخيرة - رواية ابن خلدون - تأييداً قاطعاً ، وحصلنا على نص الرواية التي سجلها ابن العربي عن مهمته ، وعن لقائه بالإمام الغزالي في بغداد ، وما استصدره من الفتوى الخاصة بموقف يوسف من أمراء الطوائف ، ومن الخلافة ، كما حصلنا على النص الكامل للخطاب الذي كتبه الإمام الغزالي عن هذا الموضوع ، إلى يوسف بن تاشفين ، وحمله الفقيه ابن العربي معه عند عوده إلى الأندلس .

ونحن نعرف أولاً أن الفقيه ابن العربي وولده أبا بكر ، قد رحلا إلى المشرق في مهمتهما المذكورة في مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥ هـ ، وان كانت رحلتهم قد اتخذت يومئذ طابع السفر لطلب العلم (٢) . وكان يوسف قد اشترك بعد الزلافة ، مع أمراء الطوائف في حصار حصن ليط Alédo في سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) وشهد عندئذ من تمردهم ، ونفاقهم ، وجنوحهم إلى ممالأة النصارى ، ما أحفظه عليهم . ثم جاز جوازه الثالث إلى الأندلس في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وكان عندئذ قد اعتزم أمره في افتتاح ممالك الطوائف ، وأخذ يستولى عليها تناعاً ، وكان يهيمه إلى جانب الحصول على المرسوم الخلافي ، أن يحصل على سند شرعي يبرر تصرفه نحو أولئك الأمراء . فلما وصل الفقيه أبو محمد العربي وولده أبو بكر إلى بغداد ، لقي الإمام أبا حامد الغزالي ، قطب فقهاء المشرق يومئذ ، وشرح له

(١) ابن خلدون - كتاب العبر - ج ٦ ص ١٨٨ . وقد ورد في هذا النص أن يوسف خاطب « المستنصر العباسي » . ونحن نعتقد أن ذلك تحريف من الناسخ ، وأن المقصود هو الخليفة المستظهر .
(٢) ابن بشكوال في « الصلة » في ترجمة ابن العربي رقم ١٢٩٧ .

أحوال الأندلس ، وخلال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وما اضطلع به من أعمال الجهاد وإعزاز الدين ، وما كان عليه ملوك الطوائف من تفرق وتخاذل ، واستعداد للنصارى ، وكيف تخلف بعضهم عن مشاركته في الجهاد مجاملة للمشركين . فلما قام بحصار النصارى ، عتب جوازه الثاني ، في حصن لييط ، تخلف بعض رؤساء الشرق عن معاونته ، وقالوا إن طاعته ليست بواجبة لأنه ليس إماماً شرعياً من قريش . ووقف يوسف على رسالة وجهت من بعضهم إلى العدو ، يشجعه على المقاومة والصمود ، وكان جواب يوسف لأولئك الزعماء المتمردين ، أنه خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وأن الخطبة تجرى باسمه على أكثر من ألى منبر ، وتضرب السكة باسمه . وطلب الفقيه ابن العربي إلى الإمام الغزالي أن يزوده فيما تقدم بفتوى تبين حكم الشرع فيه ، وأن يزوده بكتاب إلى أمير المسلمين . فأما الفتوى فقد جاء فيها « أن يوسف كان على حق في إظهار شعار الإمامة للخليفة المستظهر^(١) ، وإن هذا هو الواجب على كل ملك ، استولى على قطر من أقطار المسلمين ، وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية ، وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء ، ومخالفته مخالفة للإمام ، وكل من تمرد واستعصى ، فحكمه حكم الباغي ، ومن حق الأمير أن يرده بالسيف ، وأن يقاتل الفئة المتمردة على طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى ، وهم أعداء الله ، في مقاتلة المسلمين ، وهم أولياء الله ، وأن يستمر في قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الأمير العادل ، المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ، ومتى تركوا المخالفة ، وجب الكف عنهم ، وذلك عن المسلمين منهم دون النصارى . وأما ما يظفر به من أموالهم فردد عليهم وعلى ورثتهم ، وما يؤخذ من نسايتهم وذرائعهم في القتال مهدورة لاضمان فيها ، وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة ، المستولى على المنابر والبلاد بقوة الشوكة ، وحكم الباغي على نايب الإمام ، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوايق المانعة ، من وصول المنشور بالتقليد ، فهو نايب بحكم قرينة الحال ، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل مسلم عادل ، استولى

(١) عثرنا على نص رواية ابن العربي ، وعن نص فتوى الإمام الغزالي في المخطوط رقم ١٢٧٥ لك (المكتبة الكتانية) المخطوط بخزانة الرباط وعنوانه « مجموع أوله كتاب الأنساب » (لوحة ١٢٨ و ١٢٩) ، كما عثرنا فيه على نص كتاب الإمام الغزالي إلى يوسف بن تاشفين . ويبدو من ذكر الخليفة المستظهر في رواية ابن العربي وفي فتوى الغزالي أنهما يرجعان إلى سنة ٤٨٧ هـ ، وقد تولى المستظهر الخلافة بعد وفاة أبيه المقتدى في ١٦ المحرم سنة ٤٨٧ هـ .

على قطر من أقطار الأرض ، أن يخطب له ، وينادى بشعاره ، ويحمل الخلق على العدل والصفحة ، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه ، وأن توقف في كتبه المنشور ، فالكتب قد يعوق عن انشائها ، وإيصالها المعاذير . وأما الإذن والرضى بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسياسة ، وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين ، فلارخصة في تركه ، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يشك فيه . وإن لم يكن عن إيصال الكتب وانشائه عائق ، وكانت هذه الفتنة لا تنطفي ، إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور ، مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك ، فإن الإمام الحق عاقلة الإسلام ، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة ، إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن .

هذا هو نص فتوى الإمام الغزالي لابن العربي عن حكم الشرع في موقف ملوك الطوائف ، حسبما شرحه ابن العربي للإمام ، وعن حق يوسف في الحصول على المرسوم الخلافي بولايته على ما فتحه من الأقطار بسيفه . وقد عاد الإمام الغزالي بعد ذلك ، فكتب إلى يوسف كتاباً يعرض فيه بالتفصيل إلى قصة ملوك الطوائف ، حسبما رواها له ابن العربي ، وإلى ما كانت عليه الأندلس في ظل حكمهم من التخاذل والذل ، والصغار والهوان ، وإلى استطالة النصارى عليها ، لما كان يسودها من تفرق الكلمة واختلاف الرأي ، حتى انتهى النصارى بأن رتبوا الجزية على المسلمين . ثم يشير إلى صريح الطوائف إلى يوسف ، وإلى جوازه البحر للجهاد ، وإلى ما وفقه الله من دحض شوكة النصارى ، وأنه حينما طلب يوسف إلى ملوك الطوائف أن يرفعوا المظالم عن المسلمين ، عادوا فجنحوا إلى ممالأة النصارى ، فسأله المسلمون عندئذ إنزالهم عن البلاد ، فاستجاب لرغبتهم ، ورفع المظالم وقطع الفساد ، وبنوه بما أبداه يوسف من العمل بأحكام الله ، ومن إيثار العلماء والاستماع لرأيهم فيما يفتون إليه من الأحكام ، ثم يشير بعد ذلك إلى ما أصدره من فتوى في شأن ملوك الطوائف ، وإلى ما كان ابن العربي بصدده من السعي إلى استصدار المرسوم الخلافي بولاية يوسف على جميع بلاد المغرب ، وتمكين طاعته ، وإلى ما كان يبته ابن العربي من دعاية واسعة للإشادة بحكم يوسف وخلاله ، سواء في العراق أو في المشاهد الكريمة بأرض الحجاز . ولم يثبت الغزالي بخطابه تاريخاً معيناً ، ولكن يبدو من نصه أنه كتبه قبل « مسيره إلى سفر

الحجاز» . ونحن نعرف من حياة الغزالي أن ذلك كان في سنة ٤٨٨ هـ (١) .
وكذلك حصل ابن العربي من العلامة أبي بكر الطرطوشي ، حين مروره على
ثغر الإسكندرية ، وهو في طريق العودة ، على خطاب آخر يرسم أمير المسلمين
يوسف . ويسدى الطرطوشي في كتابه النصيح إلى يوسف بأن يحكم بالحق وفقاً
لكتاب الله ، وأن يكون شقيقاً على رعيته شفقة الرجل على أهله ، وأن يعمل
لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويجري الطرطوشي
في إسداء نصحه على طريقته في إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ،
وأقاصيص الخلفاء والصحابة (٢) .

وتوفي الفقيه ابن العربي بثغر الإسكندرية في فاتحة سنة ٤٩٣ هـ (٣) ، وعاد
ابنه أبو بكر دونه إلى الأندلس في نفس العام ، وهو يحمل الرسالتين - رسالة
الغزالي ورسالة الطرطوشي - وكذلك مرسوم الخليفة المستظهر إلى عاهل
المرابطين .

وهكذا يبدو أنه مما لا مرأى فيه ، أن مؤسس الدولة المرابطية الكبرى ، كان
ينضوي من الناحية السياسية تحت لواء الخلافة العباسية وأنه كان يدعى حتى قبل
صدور هذا التقليد في الخطبة ليوسف بعد الدعاء للخليفة العباسي ، في سائر نواحي
المغرب والأندلس . وسنرى فيما بعد كيف أن هذه الرعاية الأدبية العباسية للدولة
المرابطية ، تمتد إلى ما بعد عهد يوسف ، وأن الخليفة العباسي يسبغ في مراسلاته
على عاهل المرابطين بعض الألقاب الخاصة .

عرفنا فيما سبق كيف آلت إمارة المغرب إلى يوسف بن تاشفين ، مذ عهد
إليه بشثونه ابن عمه الأمير أبو بكر اللمتوني في سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) ، وكيف
ارتد هذا الأمير إلى الصحراء وهناك توفي ، وخلصت إمارة المغرب نهائياً
ليوسف ، وقامت الدولة المرابطية الكبرى ، بالمغرب والأندلس ، في ظل
عاهلها الكبير .

(١) ورد نص خطاب الغزالي في مخطوط المكتبة الكتانية المشار إليه (لوحات ١٣٠-١٣٣) وقد نشرناه كاملاً في باب الوثائق .

(٢) ورد نص خطاب الطرطوشي في المخطوط المشار إليه (لوحة ١٣٣ و ١٣٤)

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٧ .

وأراد يوسف في أواخر حياته ، وبعد أن تم له افتتاح الأندلس ، أن يوثل ملكه ، وأن يطمئن لمصاير دولته العظيمة ، وذلك باختيار ولي عهده . وكان ليوسف من البنين خمسة هم ، أبو بكر سير ، وعلي ، وتميم ، والمعز ، وإبراهيم ، ومن السنين ثلاث هن كوتة ورقية وتميمة (١) . وكان أبو بكر أكبر بنيه وولي عهده فيما يظهر ، وقد استخلفه أبوه على المغرب حينما عبر البحر لأول مرة إلى الأندلس ، في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ ، اسجانة نصريخ الطوائف . ولما انتهت معركة الزلاقة بظفر المسلمين الباهر ، وارتدت الحيوش المرابطية إلى إشبيلية في طريقها إلى العودة ، تلقى يوسف نبأ وفاة ولده أبي بكر ، وكان قد تركه مريضاً في سبتة ، ويقول لنا صاحب القرطاس ، إن هذا النبأ المحزن ، وصل إلى يوسف في يوم النصر ذاته (٢) . وكان هذا الحادث سبباً في تعجيل يوسف بالعودة ، بل يقال لنا أيضاً إنه كان سبباً في إحباط خطط يوسف ، وتركه كل فكرة في مطاردة الحيوش النصرانية المهزومة (٣) .

وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ، قرر يوسف أمره في ولاية عهده ، ووقع اختياره في ذلك على ولده أبي الحسن علي . ولم يكن على أكبر أولاده ، إذ كان أكبرهم عندئذ ، أبو الطاهر تميم ، ولكنه آثر علياً لما آتته فيه من الورع والنباهة والخزم ، وأصدر مرسومه بولايته لعهدده في نفس العام ، وإليك نص هذا المرسوم بعد الديباجة ، وهو من إنشاء الوزير الفقيه أبي محمد بن عبد الغفور ، وقد كان من أعلام البلاغة في هذا العصر :

« أما بعد فإن أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن يسأله الله غدا عما استرعاه ، كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه . وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة ، كيف في هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور . وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله بها من

(١) كانت الأميرة تيممة بنت يوسف بن تاشفين تشتهر بجهاها ، ورعاية عقلها ، وأدبها ، وكانت تنظم الشعر الجيد . سكنت فاس مدة (ابن الأبار في التكملة ، وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس ، ص ١٠٥ و ١٠٦) .

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٣) F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides en Espana (٣) (Zaragoza 1899) p. 2

النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة ، قد أعز الله رماحه وأحدّ سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل ، أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً ، وأكرمها سحياً وأنفسها اعتزازاً ، فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان إليه دعى ، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأى ، فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلاً أن يسترعى فيما استرعاه ، فأحضره مشروطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين الشروط ، فقبل ورضى ، وأجاب حين دعى ، بعد استخارة الله الذى بيده الخيرة ، والاستعانة بحول الله الذى من آمن به شكره . وبعد ذلك مواعظ ووصية ، بلغت من النصيحة مراعى قصية ، يقول فى خاتمة شروطها ، وتوثيق ربوطها ، كتب شهادته على النائب والمستناب ، من رضى إمامتهما على البعيد والقريب ، وعلم علماً يقيناً بما وصاه فى هذا الترتيب ، وذلك فى عام خمسة وتسعين وأربعمائة» (١) .

وكان من الشروط التى اشترطها يوسف على ولده وولى عهده على ، فيما يختص بالدفاع عن الأندلس ، هو ألاّ يعين فى مناصب الحكام والقضاة فى الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة ، وأن ينشئ بها جيشاً مرابطياً ثابتاً ، قوامه سبعة عشر ألف فارس ، توزع على مختلف القواعد ، فيرابط منها بإشبيلية سبعة آلاف ، وبقرطبة ألف ، وبغرناطة ألف ، وفى شرق الأندلس أربعة آلاف ، وتوزع الأربعة آلاف الباقية على الثغور والحصون المتاخمة لأراضى العدو . هذا ويحسن أن يعهد إلى الأندلسيين بحراسة الحدود النصرانية ، فهم أكثر خبرة بأحوال النصارى ، وأكثر دربة على قتالهم من المرابطين . وفى سنة ٤٩٦ هـ ، (١١٠٢ م) (٢) جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس جوازه الرابع والأخير ، ومعه ولداه أبو الحسن على وأبو الطاهر تميم (٣) . وكان يوسف يقصد بهذا الجواز النظر فى شئون الأندلس ومصالحها ، وكان يقصد بالأخص أن ينظم البيعة لولده على الذى اختاره لولاية عهده . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن علياً لم يكن مع والده فى هذا الجواز ، وإنه بالعكس كان يقيم عندئذ فى سبتة التى ولد بها

(١) أورد نص هذا المرسوم صاحب الحلل الموشية (ص ٥٦ و ٥٧) .

(٢) وفى رواية أخرى أن هذا الجواز قد وقع فى سنة ٤٩٧ هـ (ابن خلدون - كتاب العبر ج ٦ ص ١٨٨) . ولكن التاريخ الذى يحمله كتاب التولية وهو ذو الحجة سنة ٤٩٦ هـ ، يؤكد صحة الرواية الأولى .

(٣) الحلل الموشية ص ٥٥ .

ونشأ^(١) . ونحن نرجع الرواية الأولى بحضور علي مع والده إذ كان هو المقصود بتنظيم البيعة ، ومن المعقول أن يكون حاضراً في حفل تنظيمها . وفي أواخر سنة ٤٩٦ هـ ، كان يوسف بقرطبة ، عاصمة الخلافة ، وكانت يومئذ قاعدة للحكم المرابطي في الأندلس ، وجمع يوسف أعيان قبيلة لمتونة ، وأشياخ المرابطين والفقهاء ، وأخذ البيعة عليهم جميعاً لولده علي ، وصدر كتاب التولية والبيعة عن يوسف لولده ، مدبجاً بقلم وزيره وكاتبه أبي بكر بن القصيرة علم البلاغة ، وإمام النثر والترسل يومئذ ، وإليك نص الكتاب المذكور :

« هذا كتاب تولية عظيم جسيم ، . وتوصية حميم كريم ، صدرت على الرضا قواعده ، وأكدت بيد التقوى معاقده ، وسددت إلى الحسنى مقاصده ، وأبعدت عن الهوادة والهوى مصادره وموارده ، أنفذه أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين أدام الله أمره ، وأعز نصره ، وأطال فيما يرضيه منه ، ويرضى به عنه عمره ، غير محاب ولا تارك في النصيحة لله ولرسوله والمسلمين ، موضع ارتياب لمرتاب ، للأمر الأجل أبي الحسن علي ابنه ، المتقبل هممه وشيمه ، المتأثر حلمه وتحلمه ، الناشئ في حجر تقويمه وتأديبه ، المتصرف بين يدي تخريجهم وتدريبه ، أدام الله عزه وتوفيقه ، ونهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه ، وقد تهتم ، بمن تحت عصاه من المسلمين ، وهدى في انتقاء من يخلفه هدى المتقين ، ولم ير أن يتركهم بعد سدى غير مدينين ، واعتام في النصاب الرفيع ، واختار واستنصح أولى الرأي والدين ، واستشار فلم يوقع بعد طول تأمل وتراخي مدة ، وتمثل اختياره في اختيار من فاوضه في ذلك من أولى التقوى والحكمة ، واستشارة [الأعلى] ولا صار بدونهم الارتياح والاجتهاد إلا إليه ، ولا التي رواد الرأي والتشاور إلا لديه ، فولاه عن استحكام بصيرة ، وبعد طول مشورة ، عهد ، وأفضى إليه الأمر والنهي والقبض والبسط بعده ، وجعله خليفته الساد في رعاية مسده ، وأوطأ عقبه جماهير الرجال ، وناط به مهمات الأمور والأعمال ، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع ، ولا يعدل عن سمت العدل وحكم الكتاب والسنة ، في أحد عصا أو أطاع ، ولا ينم عن حماة الحدب والخوف بالإضطجاع ، ولا يتلين دون معلن بشكوى ، ولا يتصام عن مستصرخ لدى بلوى ، وأن ينتظم أقصى البلاد وأدناها في سلك تدبيره ، ولا يكون بين

القريب والبعيد في إحصائه وتقديره . ثم دعا أدام الله تأييده لمبايعته ، أدام الله عزه ، من حضر و . . من المسلمين ، فلبوا مسرعين وأتوا مهطعين ، وأعطوا صفقة إيمانهم متبرعين متطوعين ، وبايعوه على السمع والطاعة ، والتزام سنن الجماعة ، وبذل النصيحة جهد الاستطاعة ، ومناصفة من ناصفه ، ومحاربة من حاربه ، ومكايده من كايده ، ومعاندة من عانده ، لا يدخرون في ذلك على حال المنشط مقدره ، ولا يحجون في حالي الرضا والسخط إلى معذرة ، ثم أمر بمخاطبة ساير أهل البلاد لتبايعه ، كل طائفة منهم في بلدها ، وتعطيه كما أعطاه من حضر ، صفقة يدها ، حتى ينتظم في التزام طاعته القريب والبعيد ، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته الغايب والشهيد ، وتطمين من أعلام الناس وخيارهم نفوس قلقة ، وتنام عيون لم تزل مخافة أقدائها مورقة ، ويشمل الناس كافة السرور والاستبشار ، وتتمكن لديهم الدعة ، ويمهد القرار ، وتنشأ لهم في الصلاح آمال ، ويستقبلهم جد صالح وإقبال ، والله يبارك بيعة رضوان ، وصفقة رجحان ، ودعوة يمن وإيمان ، إنه على ما يشاء قدير ، لا إله إلا هو نعم المولى ونعم النصير . شهد على إشهاد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنهم فوق هذا من بيعته . . حمله عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل ، وأعطى صفقته طائفاً مترعاً ، وبالله التوفيق ، وكتب بحضرة قرطبة في ذى الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة « (١) .

وقد سبق أن عرضنا من قبل في كتاب « دول الطوائف » إلى لمحة من خلال يوسف وصفاته (٢) ، ونود هنا أن نبسط القول في ذلك .

إن شخصية البطل المرابطي العظيم تنطوي على كثير من الصفات اللامعة ، التي جعلت من حياته المديدة الحافلة ، نموذجاً مثالياً لهذا النوع من البطولة الساذجة الرائعة معاً . والواقع أن أروع ما في صفاته ، تلك الهالة الوضاعة من البساطة المؤثرة ، التي لبثت شعار حياته كلها ، والتي لم تتأثر بتطورات الأحداث السياسية التي

(١) أورد لنا ابن الخطيب نص هذه الوثيقة في « الإحاطة » في ترجمته لأبي بكر بن القصيرة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٧١ و ٧٢) . وفي بعض الروايات أن البيعة عقدت لعل في غرناطة (كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، لابن الكردبوس ، مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد لوحة ١١٦٤) وهذا ما ينقضه ختام الوثيقة .

(٢) كتاب دول الطوائف ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

خاضها ، والفتوح العظيمة التي حققها ، والتي جعلت من الدولة المرابطية الكبرى ، في ظله ، أعظم دولة قامت في الغرب الإسلامي ، من حيث المدى الإقليمي ، ومن حيث القوى والموارد الزاخرة ، إذ كانت تمتد من تونس شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً ، ومن ضفاف نهري الإيبرو والتاجه في شبه الجزيرة الإسبانية شمالاً ، إلى قلب الصحراء الإفريقية الكبرى جنوباً . فقد لبث البطل المرابطي ، عاهل هذه الدولة الشاخنة ، على حالته الأولى ، مذ كان زعيماً محلياً من زعماء الصحراء ، بدوياً متقشفاً يرتدى الصوف الحشن ، ولا يلبس غيره قط ، ويقتصر في طعامه على الشعير ولحوم الإبل وألبانها ، لا يأكل سواها قط (١) ، ولم يتأثر طول حياته ، بأية نزعة من ترف القصور ، ولا عيشها الناعم ولا مغرياتها المفسدة ، بالرغم من هذا الملك الباذخ ، وهذه الدنيا العريضة التي كانت تحت أقدامه . ويكفي أن نتأمل مدى لحظة عابرة ، ما كانت عليه قصور الطوائف الأندلسية من الفخامة والبذخ الطائل ، وما كان يغرق فيه أمراؤها الأصاغر من العيش الرخو الوثير المترف ، تتألق ثيابهم الفخمة بالذهب والجوهر ، وتحيط بهم أكواب الشراب وأسراب الغلمان والحواري والفتيات - يكفي أن نتأمل ذلك ، لترتفع بحياة البطل المرابطي ، إلى ذرى الإكبار والإجلال والإعجاب .

وقد كانت هذه البساطة المؤثرة التي طبعت حياة يوسف بن تاشفين ، تقترن في نفس الوقت بطائفة من الصفات المعنوية النبيلة ، التي تجعل من صاحبها عماداً حقيقياً للملك ، وتتوطد بها أسس الدولة العظيمة . فقد كان يوسف يتمتع بكثير من الذكاء والفطنة ، والعزم والشجاعة والحزم ، والكرم والجلود ، وكان فضلاً عن ذلك كثير التقى والورع . وإلى ذلك يشير ابن الصيرفي مؤرخ الدولة المرابطية بقوله : « كان رحمه الله خائفاً لربه ، كتوما لسره ، كثير الدعاء والاستخارة ، مقبلاً على الصلاة ، مديماً للاستغفار » (٢) . ويلحق بذلك شغف يوسف بالجهاد ، فقد كان بطلاً مجاهداً حقاً ، وقد أنفق من عمره أعواماً طويلة في الجهاد في سبيل الله ، مذ ندبه ابن عمه الأمير أبو بكر اللمتوني لقيادة المرابطين . وقد تجلت هذه النزعة للجهاد فيما بعد بصورة رائعة ، في استجابته لصريخ الطوائف ، وفي موقعة الزلاقة العظيمة ، وفيما خاضته الحيوش المرابطية ، في مختلف

(١) روض القرطاس ص ٨٧ .

(٢) ابن الخطيب عن ابن الصيرفي في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٣) .

أنحاء الأندلس ، ولاسيما في الولايات الشرقية في بلنسية وسرقسطة من معارك عديدة ، ضد الجيوش النصرانية ، ولم يكن غريباً في مثل الظروف التي كانت تجوزها اسبانيا المسلمة يومئذ ، من تخاذل أمراء الطوائف وتنازلهم ، وتراميهم على أعتاب الملوك النصارى ، وإشفاق البطل المرابطى ، أن ينتهى الأمر باستيلاء النصارى على الأندلس ، أن ينفذ يوسف مشروعه في القضاء على ممالك الطوائف ، ووضع الأندلس تحت حماية جيوشه القوية المظفرة ، ولم يكن في ذلك ما يصدع من نزعة الجهاد ، التي كانت من أبرز صفات يوسف ، والتي لبثت الجيوش المرابطية تضطرم بها من بعده عصرًا .

وكان يوسف بن تاشفين جندياً عظيماً ، وقائداً من أعظم قواد العصور الوسطى ، وقد أبدى في سائر فتوحه المتوالية لأقطار المغرب ، كفاية عسكرية واضحة ، ولم يكن ظفره المستمر راجعاً إلى كثرة جيوشه ومقدرتها ، بقدر رجوعه إلى براعته في تنسيق الخطط ، وتنظيم القيادة ، وانتهاز الفرص السانحة . وأشد ما تبدو هذه البراعة في حوادث موقعة الزلاقة وتطوراتها ، فإن النصر الباهر الذي أحرزته الجيوش المرابطية والأندلسية ، في هذه الموقعة ، يرجع بالأخص إلى شجاعة يوسف وثباته ، وبراعة خططه ، وقد كان من حسن طالع يوسف ، أنه استطاع أن يعتمد في حروبه ومشاريعه العسكرية ، على معاونة طائفة من أقدر القواد وأشجعهم ، - مثل سير بن أبي بكر ، وداود بن عائشة ، والأمير مزدلى ، ومحمد بن الحاج ، وغيرهم ممن سبق ذكرهم في مختلف المواطن والحوادث . وإلى جانب براعته العسكرية ، كان يوسف يمتاز بمقدرة إدارية فائقة ، وكان هذا الزعيم الصحراوي الموهوب ، يحكم الإمبراطورية المرابطية الضخمة ، بحزم وكفاية تدعو إلى الإعجاب ، وكان إلى جانب ورعه وتقواه ، صارماً شديداً الوطأة ، حريصاً على استتباب النظام والأمن ، دائماً على تفقد بلاده وشئون رعيته . ويلخص لنا ابن الصيرفي طريقة يوسف وصرامته في قمع المعارضين والحوارج على القانون في قوله : « أكثر عقابه لمن تجرأ أو تعرض للانتقامه الاعتقال الطويل ، والقيد الثقيل ، والضرب المبرح ، إلا من انتزى أو شق العصا ، فالسيف أحسم لانتشار الداء »^(١) . ويبدو من ذلك أن يوسف لم يكن يلجأ إلى تطبيق عقوبة

(١) ابن الخطيب نقلاً عن ابن الصيرفي في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٣) . وكذلك الحلال الموشية ص ٥٩ ، وابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ، هسبيرس ص ٦٥) .

الإعدام إلا في حالة العصيان أو الثورة ، وأنه فيما عدا ذلك فإن أقصى عقوبة تطبق في الجرائم العادية ، هي « الاعتقال الطويل ، والقيد الثقيل » ، وهو ما تعتبر عنه القوانين الجنائية الحديثة ، بعقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة .

وقد نوهت معظم الروايات بحب يوسف للعدل وإيثاره ، والعمل على توطيده ، كما نوهت باحترامه لأحكام الشرع ، والحرص على تطبيقها ، وتعظيمه للعلماء والفقهاء ، والرجوع إليهم والأخذ بأرائهم وفتاويهم . وهو ما يجمله ابن الصيرفي في قوله : « يواصل الفقهاء ، ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها بأرائهم ، ويقضى على نفسه ، وغيره بفتياهم ، ويحض على العدل ، ويصدع بالحق ، ويعضد الشرع »^(١) . وقد رأينا فيما تقدم في غير موطن ، كيف كان يوسف يلجأ إلى رأى الفقهاء في أخطر الأمور ، ومن ذلك استشارته إياهم ، أولاً في مسألة العبور إلى الأندلس ، واستجابة صريخ الطوائف ، وثانياً في خلع ملوك الطوائف ، وانتزاع ممالكهم ، ولم يكتف يوسف في ذلك بفتاوى فقهاء المغرب والأندلس ، بل لجأ في نفس الوقت إلى فقهاء المشرق ، وحصل على آراء أعلام مثل أبي حامد الغزالي ، وأبي بكر الطرطوشي^(٢) . ومما يروى في ذلك أن الإمام الغزالي كان يعجب بورع يوسف وجميل صفاته ، وميله إلى أهل العلم ، حتى أنه اعتزم الرحلة إلى المغرب وزيارة هذا الأمير الأمثل . ولكنه لما وصل إلى الإسكندرية وأخذ في التأهب للسفر إلى المغرب ، ورد إليه الخبر بوفاة أمير المسلمين ، فارتد عن عزمه وعاد من حيث أتى^(٣) . وكان من أبرز مظاهر تمسك يوسف بأحكام الشرع ، وآراء الفقهاء ، موقفه من الضرائب والمغارم التي يسوغ للأمير فرضها على رعيته ، فهو قد ألغى الضرائب والمكوس ، التي لم يجز الدين فرضها ، واكتفى بفرض ما يجيزه الشرع من ذلك ، مثل الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم ، وجزية أهل الذمة . وقد كان لهذه السياسة الضريبية الرفيعة ، بالأخص في الأندلس ، أطيب الأثر ، إذ كان ملوك الطوائف يرهقون رعيتهم بالفروض ،

(١) ابن الخطيب نقلا عن ابن الصيرفي في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) . وراجع الحلال الموشية ص ٥٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ . ويلاحظ أن الطرطوشي كان في الأصل من فقهاء الأندلس ولكنه نزع إلى المشرق (راجع كتاب دول الطوائف ص ٢٨٤) .

(٣) ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٨ ، وكتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ص ١٠٦ .

والمغارم الفادحة ، تغذية لقصورهم الفخمة ، وبذخهم الطائل ، وقد كان تماديتهم في ذلك ، من الأسباب التي التُمتست لخلعهم والقضاء على سلطانهم . بيد أن يوسف كان يلجأ في بعض الأحيان إلى فرض الإتاوات على رعاياه ، مساهمة منهم في نفقات الجهاد المستمر ، الذي كان يضطلع به ، وقد كان يلجأ في جواز ذلك أيضاً إلى فتاوى الفقهاء . ومن ذلك ما وقع له مع قاضي ألمرية ، أبي عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن الفراء ، فإنه قرر بعد موافقة الفقهاء ، أن يطالب أهل المغرب والأندلس بمعونة مالية للمساهمة في أعمال الجهاد . وكتب إلى قاضي ألمرية المذكور يأمره بتحصيل هذه الإتاوة وإرسالها ، فأبى القاضي ، وكتب إلى يوسف يطعن في شرعية هذه الإتاوة ، وفي رأى الفقهاء الذين أجازوها ، ويطالب يوسف ، إن كانت خزائنه ناضبة حقاً ، بأن يمثل في المسجد الجامع بحضرة أهل العلم ، وأن يحلف علناً بأنه ليس لديه في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم ، أسوة بما فعل عمر بن الخطاب ، حين أراد فرض مثل هذه الإتاوة ، وعندئذ يجوز له تحصيلها^(١) . ومن جهة أخرى فإن يوسف لم يكن يحجم في بعض الأحيان ، عن تحصيل الأموال بطرق استثنائية كفرض المغارم على اليهود والنصارى من آن لآخر ، لظروف وأسباب خاصة . وقد ذكر لنا صاحب الحلل الموشية طرفاً من ذلك^(٢) .

وكان المغرب يتمتع في ظل يوسف بكثير من الإستقرار والأمن والرخاء ، بعد الفتن والحروب المضطربة ، التي لبثت قبل الفتح المرابطي ، زهاء نصف قرن ، تمزق أوصاله ، وتودى بأمنه وسلامه . ولما تم استيلاء المرابطين على الأندلس ، وشعرت الأمة الأندلسية أنها أصبحت في مأمن من عدوان اسبانيا النصرانية ، أتيح لها أيضاً أن تتمتع بشيء من الاستقرار والسكينة ، وذلك بالرغم مما كانت تشعر به من شدة وطأة الحكم المرابطي ، وجفاء أساليبه ، وخشونة حكامها الجدد من زعماء البربر ، وبعدهم عن تلك الكياسة التي كان يمتاز بها الأمراء والحكام من مواطنيهم . وعلى أي حال فقد عرفت الأندلس في الأعوام الأخيرة من حياة يوسف ، وقبل أن يشتد عليها ضغط النير المرابطي ، وتستيقظ مشاعرها الوطنية الدفينة ، فترة طيبة من الهدوء والاستقرار ، يصفها لنا المؤرخ فيما يلي :

« أقامت بلاد الأندلس في مدته (أي مدة يوسف) سعيدة حميدة في رفاة عيش ،

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٨٥ ، والإستقصاء للسلاوي (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٣ و ٥٩ .

وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة ، إلى حين وفاته ^(١) .

وكان يوسف فضلاً عن حسن اختياره لقادته ، يحسن اختيار معاونيه من الكتاب والوزراء . وكان كاتبه قبل أن يجوز جوازه الأول إلى الأندلس ، أديباً أندلسياً من أهل ألمرية هو عبد الرحمن بن أسباط ، أو أسبط . وكان قد نشأ أديباً مغموراً يشتغل في باب الديوان بالمرية أيام بني صمادح . وفي سنة ٤٧٢ هـ عبر البحر إلى العدو ، ولحق بمراكش يبحث وراء طالعه ، واتصل بحاشية الأميرة الحرة زينب زوجة يوسف ، فأسند إليه منصب الكتابة . ولما توفيت الأميرة أقره يوسف لكتابته ، فظهر في هذا المنصب ، ونال حظوة وجاها عريضاً ، « وكان رجلاً حصيفاً سكوناً عاقلاً » وكان يوسف يثق في مقدرته وحصافته . وحسن معرفته بشئون الأندلس . وقد لعب عبد الرحمن بن أسباط دوراً هاماً في تدخل يوسف في أحوال الأندلس ، واستجابته لصريخ الطوائف ، وهو الذي أشار عليه ، حينما قرر الجواز إلى شبه الجزيرة ، بأن يطالب ابن عباد بثغر الجزيرة ليكون مركزاً أميناً لجواز جيوشه وعودتها إلى العدو ^(٢) . ومما هو جدير بالذكر أن يوسف بن تاشفين كان لا يعرف العربية ، وكان ابن أسباط يجيد اللغة البربرية التي يتحدث بها يوسف ^(٣) وكان هذا من أسباب حظوته . ولما توفي ابن أسباط في سنة ٤٨٧ هـ ، تولى الكتابة ليوسف من بعده . كاتب من أعظم كتاب الأندلس يومئذ ، هو محمد بن سليمان بن القصيرة المعروف بأبي بكر بن القصيرة ، وهو الذي يصفه ابن الصيرفي بقوله : «الوزير الكاتب الناظم النائر القائم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، الذي لا يشق غباره ، ولا تخمد أنواره ، اجتمع له براعة النثر ، وجزالة النظم» ^(٤) ، وهو الذي كتب عن يوسف حين مثوله بقرطبة في سنة ٤٩٦ هـ ، كتابه بتولية ولده علي ولاية عهده حسبما تقدم . ولما توفي يوسف استمر أبو بكر في الكتابة لولده علي حتى وفاته في سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) ، وفي استخدام يوسف لهذين الكاتبين الأندلسيين البليغين ، بالرغم من عدم معرفته بالعربية ، ما يدل على حصافته ، وبعد نظره ، وإدراكه لأهمية الأساليب العالية في الترسل ، وقد

(١) الحلل الموشية ص ٥٩ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٢ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٢ .

(٤) ابن الخطيب عن ابن الصيرفي في الإحاطة (مخطوطة الإسكوريال السالفة الذكر) .

كان ثمة بين يوسف وبين الخلافة العباسية ، وبينه وبين أكابر فقهاء المشرق مراسلات كثيرة . ومن جهة أخرى فقد كانت المراسيم المرابطية ، تصدر في أحيان كثيرة باللغتين البربرية والعربية ، لتقف عليها الكثرة الغالبة من الرعايا ، وهي المتكلمة بالعربية ، ومما زاد في أهمية منصب الكتابة في الدولة المرابطية ، وشغله بأعلام الكتاب البلغاء ، فتح الأندلس . وخضوعها للحكم المرابطي ، ووجوب مخاطبتها بنفس الأساليب العربية العالية التي كانت سائدة فيها .

وأما عن شخص يوسف ، فإن الرواية تصفه بأن كان معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، رقيق الصوت (١) .

في سنة ٤٩٨ هـ ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، واستمر يعاني من مرضه حتى اشتدت به العلة في العام التالي ، ومازالت حالته تسوء شيئاً فشيئاً ، حتى حم القضاء ، وتوفي في يوم الإثنين مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ، بقصره بمراكش ، عن مائة عام كاملة ، وبعد أن وصلت الدولة المرابطية الكبرى على يديه إلى ذروة عظمتها وقوتها .

فكان لوفاة وقع عظيم في المغرب والأندلس ، ورثاه جماعة من شعراء العصر ، منهم أبو بكر بن سوار ، وقد أنشد على قبره مرثية مؤثرة جاء فيها :

ملك الملوك وما تركت لعامل عملاً من التقوى يشارك فيه
يا يوسف ما أنت إلا يوسف والكل يعقوب بما تطويه
اسمع أمير المؤمنين وناصر الـدين الذي بنفوسنا نفديه
جوزيت خيراً عن رعيتك التي لم ترض فيها غير ما يرضيه
وصل الجهاد إلى الجهاد موقفاً حتم القضاء بكل ما تقضيه
ويجىء ما دبرته كمجيئه فكأن كل مغيب تدرييه
متواضعاً لله مظهر دينه في كل ما يديه ويخفيه (٢)

وقد ترك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عند وفاته إمبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التي حكمها الإسلام ، تشمل على قطرين من أعظم وأهم الأقطار

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٨ .

(٢) ابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها ، هسبرس ص ٦٤ و٦٥ و٦٦ .

الإسلامية في العصر الوسيط ، هما المغرب والأندلس ، وتمتد فيما بين تونس شرقاً ، والمحيط الأطلنطي غرباً ، وفيما بين نهر التاجه في قلب اسبانيا شمالاً ، وبلاد السودان ونهر النيجر جنوباً . ويكفي لكي نقدر روعة المعجزة العسكرية والسياسية ، التي حققها عبقرية يوسف ، أن نرتد نصف قرن فقط إلى ما قبل وفاته ، وأن نلقى نظرة عابرة على ما كان عليه المغرب والأندلس يومئذ . فقد كان المغرب عندئذ فريسة لأشنع ضروب التفرق والفوضى ، تنقسم أقطاره وقواعده التالدة ، عدة كبيرة من الزعامات القبليّة ، وتقوم فيه إمارات عديدة ، متخاصمة متنازعة ، وتحتاج الحروب الأهلية الصغيرة مروجها وبواديها ، ويسود الفقر والاختلال والفوضى سائر نواحيها . وقد كان قيام المرابطين في جنوبي المغرب ، وانتظامهم إلى قوة مصلحة غازية ، في هذه الآونة ، وسيرهم لافتتاح أقطار المغرب وقواعده ، وظفرهم بالتغلب على إماراته وقواعده المتفرقة ، وضمها تحت لوأهم في وحدة متماسكة ودولة موحدة ، كان ذلك في الواقع عمل إنقاذ قومي من أعظم ما وقع في تاريخ المغرب . وقد اضطلع يوسف بن تاشفين في ذلك كله حسب رأينا بأوفر نصيب ، وكان له في تحقيقه أعظم الفضل . ولما قامت الدولة المرابطية الكبرى ، تتوسطها عاصمتها العظيمة مراکش ، وتوطدت دعائم الحكم المرابطي ، ساد في المغرب نوع من النظام والأمن ، لم يكن له به عهد منذ بعيد ، وعم الرخاء ، واستطاع الناس أن ينعموا بكثير من الاستقرار والهدوء . ووقعت نفس المعجزة في الأندلس ، فبعد أن لبثت زهاء نصف قرن ، تعاني في ظل أمراء الطوائف ، وفي ظل دولهم الضعيفة المتنازعة ، مصائب التفرق ، والحروب الأهلية المتوالية ، وبعد أن استطال عليها النصراني ومالوا على دول الطوائف ، فأذلوها واستباحوا حماها ، واستصفوا أموالها ، وبدأوا بانتزاع قواعدها ، وبعد أن لاح لأهل الأندلس أن الآخرة قد دنت ، وأنه لن يمضي سوى القليل ، حتى تقضي اسبانيا النصرانية على دول الطوائف كلها ، وتنتزع سائر قواعدها وأراضيها ، وتسقط الأندلس كلها في يد العدو الخالد ، وينطفيء نور الإسلام من تلك الديار العزيزة ، بعد ذلك كله جاء جواز يوسف بن تاشفين وجيوشه المرابطية إلى الأندلس ، نذير الإنقاذ ، وانقشاع الخطر الداهم ، وكتبت لإسبانيا المسلمة حياة جديدة . ثم كان افتتاح المرابطين لدول الطوائف ، وبسط سيادتهم على الأندلس ، فردت إليها وحدتها الإقليمية القديمة ، وبالرغم مما اقترن

بهذا الفتح المرابطى من مظاهر العنف والقسوة ، وبالرغم مما كان ينطوى عليه بالنسبة للأمة الأندلسية من معانى الافتئات والاعتصاب ، وسيطرة القبائل البربرية على حريات الأندلس ومصايرها ، فإنه كان أيضاً عمل إنقاذ لاشك فيه ، وكانت سيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة فى تلك الفترة العصبية من حياتها ، هى أوكد ضمان بصونها ، والدود عنها ، وحمايتها من عدوان اسبانيا النصرانية .

وهكذا استطاع يوسف فى مدى نصف قرن أن يحقق وحدة المغرب ، وأن يحقق وحدة الأندلس معاً ، وأخيراً أن يحقق الوحدة بين الدولتين الإسلاميتين العظيمتين فى ظل الدولة المرابطية الكبرى .

ولما توفى يوسف كانت هذه الدولة المرابطية الكبرى تمثل بشطريها - المغرب والأندلس - وفقاً لقول المؤرخ « ملكا مؤسساً ، وجنداً مجنداً ، وسلطاناً قاهراً ومالاً وافراً » (١) .

بيد أن هذه الدولة العظيمة بالرغم مما كان يبدو من توطنها وقوتها ورنخاتها ، كانت تحمل فى ثنيتها بعض عوامل الوهن الخفية ، التى تسترها المظاهر الخادعة ، وهى كانت تدين بوحدتها وقوتها قبل كل شىء إلى عبقرية مؤسسها العظيم . فلما اختفى يوسف من الميدان ، فقدت الدولة المرابطية أعظم قادتها وحماها : فقدت تلك اليد الموجهة المرشدة ، التى كانت تقودها دائماً نحو التوطد والظفر ، وتلك العقلية الراجحة ، التى كانت تستشف الحوادث البعيدة من خلال الحجب ، وتعمل على تداركها ، وتوجيهها إلى الغاية المرغوبة .

(١) ابن الخطيب عن ابن عذارى فى الإحاطة فى ترجمة على بن يوسف (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٢٩٢) .

الفصل الثاني

أمير المسلمين علي بن يوسف وأحداث عصره

علي بن يوسف يخلف أباه . الثورة في فاس وإخفاؤها . علي يعبر إلى الأندلس . أعماله وعوده . أمره إلى أخيه تميم باستئناف الغزو . خروج تميم في قواته إلى قشتالة . مسيره إلى حصن أقليمش واقتحامه إياه . أهبة ألفونسو السادس لرد الغزاة . مسير القشتاليين إلى أقليمش . موقف الجيش المرابطي . عدد الجيشين المتحاربين . التحامهما في معركة عنيفة . مصرع الإنفانت سانشو وهزيمة القشتاليين . خسائر النصراري والمسلمين . إتمام الاستيلاء على أقليمش . الروايات النصرانية عن الموقعة . عبور علي إلى الأندلس . غزوه لأراضي قشتالة ، استيلاؤه على طليطلة . محاصرته لطليطلة . رفع الحصار وعوده إلى قرطبة ثم إلى مراكش . غزو الأمير سير اللمتوني لأراضي البرتغال . استيلاؤه على يابرة وأشبونة وشذترين . غزو مزدلي والى قرطبة لأراضي قشتالة . استيلاؤه على حصن أرجنة ومحاصرته لطليطلة . القتال بين القشتاليين والمرابطين . رفع الحصار وعود المرابطين . وفاة مزدلي وولاية ولده محمد لقرطبة . غزو القشتاليين لولاية قرطبة . خروج المرابطين لردهم . هزيمة المرابطين ومصرع محمد بن مزدلي وأكابر لمتونة . هزيمة مرابطية أخرى . وفاة الأمير سير والى إشبيلية . التعريف بسير ومزدلي . من أسباب نشاط الغزو المرابطي . أحوال سرقسطة . استيلاء المرابطين عليها . إنهاء ملك بني هود . ابن الحاج والى سرقسطة . الحرب بين المرابطين وبين عماد الدولة بن هود . غزو ابن الحاج وابن عائشة لإمارة برشلونة . هزيمة المرابطين ومصرع ابن الحاج . أحوال الجزائر الشرقية . افتتاح النصراري لها . أهبة علي لإنقاذها . مسير الأسطول المرابطي إلى الجزائر . استيلاء المرابطين عليها . إحراق كتاب الإحياء في قرطبة . نفوذ الفقهاء وأثرهم في هذا الحادث . عبور علي إلى الأندلس للمرة الثالثة . غزوه لأراضي البرتغال واقتحامه لمدينة قلورية . عودته إلى المغرب . عبوره إلى الأندلس للمرة الرابعة . الثورة في قرطبة . مختلف الروايات في شأنها . مغزى هذه الثورة وأسبابها . موقف علي منها . النقاش بينه وبين ابن رشد . تسوية الحادث وعودة علي .

لما توفي أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، في يوم الاثنين مستهل شهر المحرم سنة خمسائة (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ، بقصره بمراكش ، خلفه في نفس يوم وفاته ولده أبو الحسن علي ، وكان قد اختاره كما تقدم لولاية عهده ، منذ سنة ٥٤٩٥ هـ ، وأصدر له عهد التولية بقرطبة في شهر ذي الحجة سنة ٥٤٩٦ هـ ، مؤثراً إياه بذلك علي ولده الأكبر أبي الطاهر تميم . وعقدت البيعة لعلي في نفس اليوم ، قبل أن يُوارى جثمان العاهل الراحل ، وكان أول من بايعه بمحضر من أشياخ لمتونة وباقي قبائل صنهاجة ، والأكابر والقادة ، أخوه تميم معلناً بذلك طاعته

لأخيه ، واحترامه لإرادة أبيه ، ثم بايعه من بعده سائر من حضر من الأسيخ والأكابر ، وكتب على في نفس الوقت إلى سائر قواعد المغرب والأندلس وبلاد القبلة بالصحراء ، يعلمهم بموت أبيه ، واستخلافه إياه من بعده ، ويأمرهم بأخذ البيعة له (١) . وكان على وقت تبوئه الملك ، فتي في نحو الثالثة والعشرين من عمره ، وكان مولده بثغر سبته سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) ، عقب سقوطه في أيدي المرابطين بأشهر قلائل ، وأمّه أم ولد رومية اسمها قمر ، وتسمى أيضاً « فاض الحسن » . وقد أنفق على فيما يبدو أحداثته في سبته (٢) . ولما توفي الأمير أبو بكر أكبر أولاد يوسف وولى عهده بسبته في سنة ٤٧٩ هـ عقب نصر الزلاّقة ، وأخذ يوسف يبحث عن خلفه بين أولاده ، اتجهت نيته لاختيار ولده على ، لما آنسه فيه منذ صغره من ذكاء ونجاجة ، وكان يصطحبه في كثير من المهام ، ولاسيما عند جوازه الأخير إلى الأندلس ، حينما عبر إليها ليتفقد أحوالها ، وليعقد بها بيعة العهد لعلي .

وكان يوسف قبيل وفاته بقليل ، قد أوصى ولده عليا بثلاثة أمور ، أولها ألاّ يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درّان ، ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة ، والثاني أن يهادن بني هود أمراء سرقسطة ، وأن يتركهم حائلا بينه وبين النصاري ، والثالث أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عن أساء منهم (٣) ، هذا فضلا عما اشترطه عليه حين خصه بولاية عهده ، من الأمور المتعلقة بشئون الأندلس الدفاعية ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه فيما تقدم .

وكان على بن يوسف أميراً وافر الهمة والذكاء والعزم ، وكانت تحدوه رغبة صادقة ، في أن يسير على نهج أبيه في الحكم ، وفي متابعة الجهاد ، وهو قد سار بالفعل وفق هذا المنهج ، وحقق في ظله طائفة من جلائل الأعمال ، وهو ما يجمله المؤرخ في قوله : « فاقتنى أثر أبيه ، وسلك سبيله في عضد الحق ، وإنصاف المظلوم ، وأمن الخائف ، وقمع المظالم ، وسد الثغور ، ونكاية العدو ، فلم يعدم التوفيق في أعماله ، والتسديد في حسن أفعاله » (٤) .

(١) روض القرطاس ص ١٠٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠١ .

(٣) اللؤلؤ الموشية ص ٦٠ .

(٤) ابن عذاري البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٦٧) ، ونقله ابن الخطيب

في الإحاطة في ترجمة على بن يوسف (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر اوحة ٢٩٢) .

ولأول ولايته وقعت ثورة محلية لم تكن على شيء من الخطورة، ولكنها كانت أول بادرة في الانتفاض والخروج . وذلك أنه حينما كتب إلى القواعد والثغور بأخذ البيعة له ، أتته البيعة من سائر البلاد إلا من مدينة فاس ، عاصمة المغرب القديمة ، وقد كان واليها عند وفاة يوسف ، حفيده يحيى بن الأمير أبي بكر أخى على المتوفى ، فرفض أداء البيعة لعمه على ، وأعلن الخلاف ، ووافق على ذلك جماعة من قواد لمتونة ، فبادر على بالسير في بعض قواته إلى فاس ، فخشى يحيى البادرة على نفسه ، خصوصاً بعد أن تخلى عنه أنصاره ، وفر من المدينة ، ودخلها على بن يوسف ، وذلك في الثاني من ربيع الآخر سنة ٥٠١ هـ . وأخذت هذه الثورة الصغيرة في مهدها . وسار يحيى صوب تلمسان ملتجئاً إلى واليها الأمير مزدي ، فلقيه بالطريق ، وكان قادماً ليقيم بيعة على ، فاستجار به ووعد مزدي ، بأن يسعى لدى على في العفو عنه . واختفى يحيى في أحواز فاس حتى لقي مزدي الأمير ، وقدم إليه بيعة ، وشفع لديه في ابن أخيه ، فعفى عنه على ، وخيره بين الإقامة في ميورقة أو في الصحراء ، فاختار يحيى الصحراء ، ثم سار منها إلى الحجاز ففرض فريضة الحج ، وعاد إلى المغرب ، واستأذن عمه علياً في سكنى مراکش ، فإذن له . ولكن بدت منه عندئذ بعض بوادر مريبة ، فخشى على من نياته ، وأمر بالقبض عليه ونفيه إلى الجزيرة الخضراء ، فاعتقل بها حتى توفي (١) .

ولم يكف على يفرغ من قمع الثورة في فاس ، حتى أزمع الحواز إلى الأندلس لتفقد أحوالها ، وتنظيم شئونها ، فخرج من مراکش في جيش من المرابطين ومصمودة ، وعبر البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء في منتصف سنة ٥٠٠ هـ (أوائل سنة ١١٠٧ م) ، وهناك بادر إليه زعماء الأندلس ورؤسائها ، وقضاتها ، وفقهاؤها وأدباؤها وشعراؤها ، فقدموا إليه بيعتهم وطاعتهم ، وأنشده الشعراء قصائدهم ، فعنى بالنظر في مطالبهم ، وغمر الجميع بعطفه وصلاته (٢) .

وعمد على في الوقت نفسه إلى إجراء طائفة من التغييرات الإدارية الهامة ، فعزل أخاه أبا الطاهر تميماً عن ولاية المغرب ، وعينه لولاية غرناطة بالأندلس ، وجعله قائداً أعلى للجيش المرابطية فيما وراء البحر . وعين لولاية قرطبة أبا عبدالله

(١) روض القرطاس ص ١٠٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٢ ، وابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس

محمدًا بن أبي بكر اللمتوني ، وعين لولاية المغرب أبا عبد الله محمدًا بن الحاج ، فلبث والياً على فاس وسائر أنحاء المغرب زهاء ستة أشهر . ثم عينه على لولاية بلنسية وشرقي الأندلس ، ومن بلنسية ، سار ابن الحاج في القوات المرابطية إلى سرقسطة ودخلها في سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) حسبما تفصل بعد (١) .

ولما عاد على إلى المغرب ، كتب في أوائل سنة ٥٠١ هـ إلى أخيه تميم وإلى غرناطة ، وقائد الحيوش المرابطية بالأندلس ، أن يستأنف الجهاد ، وأن يغزو أرض النصارى . وقد كانت غرناطة يومئذ قاعدة الحكم المرابطي في الأندلس بعد قرطبة . والظاهر أن هذا الاختيار كان يرجع لأسباب استراتيجية تتعلق بموقع غرناطة ، وإنما كتب على لأخيه ولم يعبر إلى الأندلس ، حسبما يبدو من أقوال صاحبي الحلل الموشية وروض القرطاس . فإنه يبدو من الرواية الأولى (٢) ، أن علياً لم يعبر عبوره الثاني إلى الأندلس إلا في سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) . وتمر الرواية الثانية على مسألة جواز على بالصمت . ويؤيد ذلك بنوع خاص رسالة كتب بها الأمير تميم إلى أخيه على عقب الواقعة التي نشبت بينه وبين النصارى ، وهي رسالة سوف نتحدث عنها فيما بعد .

ولم يصدر على أمره باستئناف الغزو والجهاد عفوًا ، فقد كان ثمة ما يبرره ويستدعيه . ذلك أنه لما مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في سنة ٤٩٨ هـ ، وذاع أمر مرضه في الأندلس ، ونقلت عن الأحوال في المغرب والأندلس إلى قشتالة أقوال وصور زائفة ، اعتقد ألفونسو السادس ملك قشتالة الشيخ : أن الفرصة قد سنحت ليستأنف غزواته في أراضي المسلمين ، فبعث حملة من نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، سارت نحو أحواز إشبيلية ، وعاشت فيها ، واستويات على كثير من الغنائم والسبي ، فخرج الأمير سسير بن أبي بكر وإلى إشبيلية في قواته لرد الغزاة ، ولحقت به عساكر غرناطة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج واليه يومئذ ، وطارد المسلمون القشتاليين ، وردوهم على أعقابهم ، وقتلوا منهم نحو ألف وخمسمائة (٣) ، ولما تولى على بن يوسف الملك بعد ذلك بقليل ، لم يذس أمر هذا

(١) روض القرطاس ص ١٠٣ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٦٧ ،

و ٦٨) .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٣ .

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها - هسبيرس ص ٦٤ و ٦٥) .

العدوان وما يدل عليه من تحفز النصارى ، فرأى أن يبادرهم بالغزو ، وأن يهاجمهم في قلب أراضيهم .

وصدع تميم بأمر أخيه ، وجهاز جيشاً حسن الأهبة ، وخرج من غرناطة في العشر الأخيرة من شهر رمضان سنة ٥٠١ هـ (أوائل مايو سنة ١١٠٨ م) وسار في قواته شمالاً صوب جيان ، وكانت الجنود والإمداد تهرع إليه في طريقه . ولبت في جيان أياماً قلائل ، حتى وافته حشود قرطبة بقيادة واليها أبي عبد الله محمد بن أبي رنق ، ثم سار إلى بياسة شمال شرقي جيان . واتجه منها شمالاً صوب أراضي قشتالة ، وانضمت إليه في الطريق حشود مرسية بقيادة واليها أبي عبد الله محمد بن عائشة ، وحشود بلنسية بقيادة واليها محمد بن فاطمة . واخترقت القوات المرابطية أراضي قشتالة وعاثت فيها . ثم اتجهت صوب بلدة أقليمش الحصينة ، وهي التي وقع الاختيار على مهاجمتها ، فوصلت إلى ظاهرها في يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال (٢٧ مايو) .

وقد كانت أقليمش في ذلك العصر من أمنع معاقل كورة شنتيرية ، وهي محلة حصينة ، تقع في شمالي جبال طليطلة ، وجنوب غربي وبدة ، أنشأها الفتح بن موسى بن ذى النون في أواخر القرن الثالث الهجري أيام الأمير عبد الله (١) واتخذها مستقراً ومعقلاً ، وغدت دار بني ذى النون ، حتى ظهروا أيام المنصور ابن أبي عامر ، وحكموها أيام اضطراب الخلافة ، ثم انتقلوا منها إلى حكم طليطلة على يد إسماعيل بن ذى النون في أوائل المائة الخامسة . ولما سقطت طليطلة في أيدي القشتاليين في صفر سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وانتهى سلطان بني ذى النون في تلك المنطقة ، كانت أقليمش ضمن القواعد والحصون العديدة ، التي استولى عليها القشتاليون نتيجة لافتتاح مملكة طليطلة .

وما كادت القوات المرابطية تصل إلى أقليمش حتى طوقها ، وهاجمتها بعنف ، ولم يستطع النصارى المدافعون عنها ، أن يثبتوا طويلاً أمام شدة المهاجمين ، فسقطت في أيديهم في اليوم التالي وهو يوم الخميس ١٥ شوال (٢٨ مايو) ، وفي الحال

(١) جاء في الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٢٨ ، أن أقليمش بناها الفتح بن موسى بن ذى النون وفيها كانت ثورته وظهوره في سنة ١٦٠ هـ ، وفي ذلك تحريف واضح ، لأن ثورة الفتح بن موسى بن ذى النون كانت في مسهل عهد الناصر بعد سنة ٣٠٠ هـ ، وإذا فإن الصحيح والمعول عليه هو أن إنشاء أقليمش قد وقع في أواخر القرن الثالث :

دخلتها القوات المرابطية ، وقوضت صروحها ، وهدمت كنائسها ، ودكت هياكلها ، وهرع المسلمون الذين كانوا بها - وكان ما يزال منهم بقية كبيرة فضلت التدجن والبقاء تحت حكم النصارى - والتجأوا إلى معسكر الجيش المرابطى ، لائذين بحمايته ، وشرحوا لإخوانهم فى الدين أحوال المدينة ، وظروف المدافعين عنها (١) :

والتجأ المدافعون من النصارى إلى قسبة أقليمش الحصينة ، وامتنعوا بها فى انتظار الغوث والإنجاد من مواطنيهم . والواقع أنه منذ تحركت الجيوش المرابطية ، ونفذت إلى أراضى قشتالة ، كان الملك الشيخ ألفونسو السادس ملك قشتالة وقادته ، يبذلون أقصى جهودهم فى إعداد العدة لرد الغزاة . وكان ألفونسو السادس قد هدمه الإعياء والمرض ، ولم يستطع لضعفه أن يسير بنفسه لملاقاة الغزاة وإنقاذ القلعة ، فجهز حملة قوية بقيادة كبير قواده ألبرهانس - وهو أشهر قواد قشتالة فى ذلك العصر ، وقد خاض من قبل وقائع كثيرة ضد المسلمين ، ولاسيما فى منطقة بلنسية - وزميله غرسيه أردونيث مؤدب ولى العهد سانشو ، وهو أيضاً من أكابر القادة ، ومعهما عدة أخرى من قادة منطقة طليطلة من قلعة النسور ، وقلعة النهر أو قلعة عبد السلام (Alcala de Henares) وغيرهما . بيد أن أهم شخصية مثلت فى تلك الحملة كانت شخصية الأمير الصبى (الإنفانت) سانشو ولد ألفونسو السادس وولى عهده ، وهو الذى رزق به من « زائدة » حظيته أوزوجته المسلمة المنتصرة ، التى كانت زوجة للفتح بن المعتمد بن عباد ، والتى فصلنا قصتها فى موضعها من كتاب « دول الطوائف » (٢) ، وكان يومئذ صبياً فى الحادية عشرة من عمره . وكان مستشارو الملك - أو زوجته زائدة - قد نصحوا بإرساله على رأس الجيش الكفى يشر منظره الفتى حماسة الجند ، فنزل عند رأيهم ، وبعثه مع مؤدبه غرسيه أردونيث كونت دى قبره . ويشير صاحب روض القرطاس إلى تلك الواقعة ، ويفسرها بتفسير طريف يقول فيه « فأشارت عليه زوجته (أى ألفونسو) أن يوجه ولده عوضاً عنه فيكون مقابلاً لقيم ، لأن تميم ابن ملك المسلمين ، وشانجيه

(١) استقيننا هذه المعلومات من رسالة الأمير تميم التى سبقت الإشارة إليها والتى سوف ننشر نصها فى باب الوثائق .

(٢) كتاب دول الطوائف ص ٣٣٣ - ٣٣٧ .

(سانشو) ابن ملك الروم ، فسمع منها ، فبعث ولده شانجه في جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجادهم « (١) .

وزحف الجيش التشتالي بسرعة لإنجاد قلعة أفليش . وفي تلك الأثناء ، في عصر يوم الخميس ١٥ شوال (٢٨ مايو) كانت الأنباء قد ترامت عن قرب مقدمه إلى العسكر المرابطي . وهنا تختلف الرواية في تصوير موقف الجيش المرابطي ، وموقف قائده الأعلى الأمير أبي الطاهر تميم . ذلك أن صاحب روض القرطاس يقول لنا إن تيميا حين علم باقتراب القشتاليين ، أراد الارتداد والإحجام عن لقاءهم ، فنصحته محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وغيرهما من قواد لمتونة بالبقاء وملاقة العدو ، وهونوا عليه الأمر ، خصوصاً وأن القادمين لا يزيد عددهم عن ثلاثة آلاف فارس . فنزل تميم عند هذا النصيح ، فلما وافى القشتاليون عند مغيب الشمس ، ورأى تميم وفرقة حشودهم ، أراد الفرار والإحجام عن لقاءهم ، ولكنه لم يجد سبيلاً إلى ذلك ، وصمم قواد لمتونة على لقاء العدو ومناجزته (٢) . بيد أن تيميا يصور لنا الموقف في رسالته التي يصف فيها الموقعة والتي سبقت الإشارة إليها تصويراً آخر . فيقول لنا إنه حين مقدم القشتاليين ، استدنى إليه « القائدين الحربين ، ذوى النصيحة والآراء الصحيحة ، أبا عبد الله محمد بن عائشة ، وأبا عبد الله محمد بن فاطمة وأهم بعد المشاورة ، اجتمعوا على كامة الله متعاقدين ، وخضعوا إلى حكمه مستسلمين » ثم يقول : « ونهضنا بجملتنا ، من محلتنا والصبر يفرغ علينا لامة ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نقتنى سبيله ، ونبتغى دليله » فكان اللقاء ، وكانت الموقعة .

ولم تقدم إلينا الرواية بيانات كافية عن عدد الجيشين المتحاربين . بيد أنه يستفاد من أقوالها عن الجيش المرابطي ، الذي كان يتكون من حشود غرناطة وقرطبة وشرقي الأندلس ومن انضم إليه من المتطوعة المجاهدين خلال مسيره ، أنه كان يضم عدة آلاف من الفرسان ، إذ كانت حامية غرناطة تتكون من ألف فارس ، ومثلها حامية قرطبة ، وكانت الحامية المرابطية بشرقي الأندلس تتكون من أربعة آلاف فارس . أما الجيش القشتالي القادم للنجدة ، فمن المرجح أنه كان متفوقاً على المرابطين في الكثرة ، يدل على ذلك إحجام تميم في البداية عن لقائه ، وتوجهه-

(١) روض القرطاس ص ١٠٤ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٤ .

من تفوقه العددي . هذا عدا من كان من القشتاليين بالقصبة وهم حسبما تصنفهم الرواية « جمع عظيم من الروم »^(١) . ومن جهة أخرى ، فإنه لدينا عن عدد الجيش القشتالي روايتان إسلاميتان ، الأولى تقدره بعشرة آلاف فارس ، وهذه هي رواية ابن القطان وقد كتب بعد الموقعة بقرن ونصف ، في أواخر عهد الموحدين^(٢) ، والثانية تقدر بسبعة آلاف فارس ، وهي رواية ابن عذارى ، وهو يقول لنا مشيراً إلى مقدم القشتاليين لإنجاد قلعة أقيش ، « وفي خلال ذلك وصل إليه (حصن إقيش) ، ولد ألفونسو شانجه من زوج المأمون بن (عباد) التي كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس »^(٣) .

وفي فجر يوم الجمعة ١٦ شوال سنة ٥٥٠١ هـ ، الموافق ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م ، بدت طلائع المعركة ، وتقدم المرابطون قليلاً في اتجاه أقيش للقاء القشتاليين . وأقبل القشتاليون يقودهم ألبرهانس وغرسيه أردوينت كونت دى قبره وكونتات طليطلة ، وبينهم الأمير الفتى الإنفانت سانشو فوق فرسه ، وقد ارتدى حلة الفرسان . وبدأ الهجوم ووقعت الصدمة الأولى حسبما ينبئنا تميم في رسالته ضد قوات قرطبة ، وقائدها ابن أنى رنق ، فارتد إلى الورا . وعندئذ تقدمت قوات مرسية وبلنسية ، وتقدم تميم في قواته إلى قلب المعركة ، ونشب بين الفريقين قتال بالغ العنف ، يصفه لنا تميم في رسالته عن الموقعة في عبارات حماسية مضطربة . ومما جاء فيها : « فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، وأعتقت الفرسان ، واندقت الحرصان ، ودحا ليل القتام ، وضاق مجال الجيش اللهم ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تغربنكالها . وثارت نائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها » . وتجمع الروايات الإسلامية والنصرانية معاً ، على أن الموقعة كانت مضطربة رائعة ، وأن الفريقين المتحاربين ، قاتل كلاهما بمنتهى العنف والشدة . وبينما القتال على أشده إذ وقع

(١) روض القرطاس ص ١٠٣ .

(٢) أوردها في كتابه « نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » . وتوجد منه قطعة مخطوطة هي « السفر الثالث عشر » ضمن نسخة محفوظة بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد (وقد وصفناها في بيان المصادر) لوحة ١٧ . وقد نقل إلينا رواية ابن القطان هذه عن الموقعة الأستاذ هويثي في كتابه : Las Grandes Batallas de la Reconquista, p. 118 & 119

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ٦٨) . وراجع كتابي

« دول الطوائف » ص ٣٣٦ .

حادث كان حاسماً في مصير المعركة . ذلك أن الأمير الصبي سانشو ابن ملك قشتالة ، ازدلف إلى قلب المعركة إلى جانب مؤدبه غرسية أردونيث أو الكونت دى قبره ، فلم يلبث أن أحاطت بهما ثلة من الفرسان المسلمين ، وتوالت عليهما الطعان ، فسقط الفتى من فوق جواده ، وقد أصابته طعنة قاتلة ، وسقط فوقه الكونت دى قبره مدافعاً عنه^(١) ، فدب الهرج إلى صفوف القشتاليين وكثر القتل بينهم ، ولجأ الكثيرون منهم إلى الفرار ، وسقط معظم القادة والكونتات قتلى ، وارتد ألبار هانيس في فلول القشتاليين صوب طليطلة ، وحاول الكونتات السبعة الذين كانوا يؤلفون حاشية الأمير القليل ، الفرار إلى حصن بلنشون القريب ، فلحقت بهم جماعة من المسلمين المدجنين وقتلتهم عن آخرهم ، وعرف مكان مصرعهم فيما بعد « بالكونتات السبعة » . وهكذا تمت الهزيمة الساحقة على الجيش القشتالي ، وأحرز المسلمون نصرهم الباهر ، في ذلك اليوم المشهود .

هكذا كانت أدوار موقعة أقليمش الشهيرة ، التي أعادت بروعتها ، وانتصار المرابطين الساحق فيها ، ذكريات موقعة الزلاقة . وتعرف الموقعة في الرواية النصرانية « بموقعة الكونتات السبعة » نسبة إلى الكونتات السبعة الذين كانوا حاشية لولى عهد قشتالة . وتقدر بعض الروايات الإسلامية خسائر القشتاليين فيها بنيف وثلاثة وعشرين ألفاً^(٢) . وتجارها في ذلك بعض الروايات النصرانية ، فتقدر خسائر القشتاليين بعشرين ألفاً^(٣) . بيد أنه يبدو مما سبق أن ذكرناه عن عدد الجيشين المتحاربين ، ومما ذكره الأمير تميم في رسالته عن الموقعة ، أن خسائر النصارى لم تكن بهذه النسبة المغرقة ، وإن كان مما لا ريب فيه أنها كانت فادحة . ويقول لنا الأمير تميم في رسالته إنه أمر عقب الموقعة بجمع رؤوس القتلى من النصارى ، فجمعت الدانية منها ، وتركت النائية ، فبلغ ما جمع منها أكثر من ثلاثة آلاف رأس ، ميزت منها رؤوس غرسية أردونيث (أردونش) أو الكونت دى قبره ، وقواد طليطلة ، وكدست ، وأذن من فوقها المؤذنون وفقاً للتقليد المأثور . واستولى

(١) ويقدم إلينا ابن القطان رواية أخرى عن مصرع « الإنفانت » سانشو ، فيقول إنه أفلت من قلب المعركة في ثمانية من النصارى ولجأ معهم إلى حصن بلنشون (بلنشون) ، وكان فيه رعية لهم من المسلمين ، فاخترت عندهم رجاء أن يسلموا من القتل ، فلحق بهم المسلمون وقتلهم وقتل معهم ولد أذفوتش (المخطوط السالف الذكر لوحة ٧ ب) .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٤ .

(٣) M. Lafuente : Historia General de España (Barcelona 1899) V. III. p. 202

المرابطون في نفس الوقت على مقادير هائلة من الأسلاب والغنائم ، من المال والخيل والبغال والسلاح والدروع وغيرها .

وأما عن خسائر المسلمين في الموقعة ، فإنه يبدو أنها كانت أيضاً ذات شأن ، وإن لم يكن لدينا من أقوال الرواية الإسلامية أرقام معينة . وكل ما ذكر عن ذلك عبارة أوردها صاحب روض القرطاس في ختام كلامه عن المعركة يقول فيها : « واستشهد جماعة من المسلمين رحمهم الله » وقول ابن القطان : « واستشهد في هذه الواقعة الإمام الجزولي وكان رجل صدق ، وجماعة من الأعيان والعربان »^(١) . على أننا نستنتج ذلك من إجماع المرابطين ، عن مطاردة فلول الجيش القشتالي مطاردة شاملة والتوغل في أرض النصارى .

وغادر الأمير تميم في قواته ميدان المعركة عائداً إلى غرناطة ، مكابلاً بغار الظفر ، وكتب إلى أخيه أمير المسلمين على بالفتح ، رسالته التي سبق ذكرها . وترك قوات مرسية وبلنسية تحت إمرة قائدها لحصار قلعة أقليمش ، فلبثا على حصارها فترة ، ولما رأيا مناعها تظاهرا بالانسحاب ، وارتدا في قواتهما قليلا ورتبا الكمان ، فخرج النصارى من القلعة ، فانقض عليهم المسلمون ، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً ، واحتلوا القصبية ، وبذلك تم استيلاؤهم على أقليمش ، وترتب على ظفر المسلمين باحتلال هذه القلعة المنيعة ، أن سقطت في أيديهم عدة من البلاد والحصون المجاورة ، مثل وبدة وقونقة وأقونية وكونسويجرا ، وغيرها^(٢) .

وتعني الروايات النصرانية بذكر معركة أقليمش عناية خاصة ، وهي لا تخرج في مجملها عما تقدمه إلينا الروايات الإسلامية من التفاصيل ، ولا سيما ما أورده الأمير تميم في خطابه الرسمي عن الموقعة . بيد أن الروايات النصرانية تفيض بنوع

(١) روض القرطاس ص ١٠٤ . وابن القطان في المخطوط السالف الذكر (لوحة ٧ ب) .

(٢) راجع في حوادث موقعة أقليمش ، روض القرطاس ص ١٠٣ و ١٠٤ ، وابن عذارى في البيان

المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٦٨) ، وابن القطان في نظم الجمان (المخطوط المشار إليه ، لوحة ٦ و ٧) ، ورسالة الأمير تميم الرسمية عن المعركة وهي التي أنشأها الكاتب ابن شرف ، وقد نشرناها في باب الوثائق منقولة عن مخطوط الإسكوريال رقم ٤٨٨ ؛ الغزيري لوحات ٥٤ - ٥٨ ، ونشرها الأستاذ هويثي في كتابه Las grandes Batallas de la Reconquista ص ١٢٠ -

١٢٦ . ويشير ابن خلدون إلى المعركة إشارة عابرة (ج ٦ ص ١٨٨) . وأورد عنها ابن الكردبوس خلاصة موجزة (كتاب الإكتفا - مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر) ، ولم يذكرها صاحب

الحلل الموشية . ومن المراجع القشتالية F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides p. 8-10 ; La Fuente: Hist. General de Espana, Vol. II. p. 201 & 202

خاص في تفاصيل مصرع الإنفانت سانشو ، ومصرع مؤدبه غرسية أردونيث ، فتذكر لنا كيف سقط الأمير عن جواده الجريح ، وكيف حجه الكونت غرسية بدرعه وجسمه ، وأخذ يدافع عنه وهو مسجى ، حتى قتل بدوره ، وتشيد بفروسية الكونت ، ورائع صفاته . ثم تصف لنا كيف وقع النبأ المحزن على الملك الشيخ ألفونسو السادس وقع الصاعقة ، وكيف استسلم إلى التأوه والنواح بمحضر من سادته . والواقع أن الملك الشيخ لم يستطع احتمال تلك الصدمة الأليمة طويلاً ، إذ توفي بعد ذلك بنحو عام في ٣٠ يونيو سنة ١١٠٩ م .

ثم تنحرف الرواية النصرانية بعد ذلك إلى منحدر الأسطورة ، فتزعم أن الملك ألفونسو أراد أن ينتقم لمصرع ولده ، فسار إلى قرطبة وحاصرها ، وفيها على بن يوسف « أمير المؤمنين » ، وأن النصارى أسروا ذات ليلة جماعة من المسلمين حاولوا مهاجمتهم ، وتبين أن رئيسهم عبد الله ، وهو من أشرف قرطبة ، هو الذي قتل ابن عبّاد حمو الملك ألفونسو ، ووالد زوجته ماريا ، التي كانت تسمى زائدة ، وأنه أمر بتقطيع أشلاء عبد الله هذا وحرقها ، وأحرق معه عدداً من الأشراف المسلمين ، وأنه أخيراً استطاع أن يرغم علياً أمير المؤمنين على طلب الصلح ، وأداء ضريبة فادحة لقشتالة (١) .

وكانت موقعة أقليمش ، بعد الزلاّقة (٤٧٩ هـ) ، واستيلاء المرابطين على بلنسية ، (٤٩٥ هـ) ، أعظم نصر أحرزه المرابطون على قوات قشتالة ، وهو نصر كان من أثره توطيد سلطان المرابطين في المناطق الوسطى والشرقية في شبه الجزيرة ، وفي إعلاء سمعتهم العسكرية والدفاعية .

ونستطيع أن نقول أيضاً إن حملة أقليمش كانت فاتحة لبرنامج منظم من الغزوات المرابطية لأراضي النصارى . ذلك أنه لم يمض سوى عام وشهرين على موقعة أقليمش ، حتى عبر أمير المسلمين على بن يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الثانية في جيوشه الحرارة . وكان عبوره من سبتة ، في الخامس عشر من محرم سنة ٥٠٣ هـ (أغسطس ١١٠٩ م) . وكان عبوره في تلك المرة بقصد الجهاد خاصة ، أو حسبما يقول لنا صاحب الحلل الموشية « برسم الجهاد ، ونصر الملة ، وإعزاز الكلمة » .

(١) يراجع في ذلك بالأخص : (Ed. : Primera Crónica General de Espana

M. Pidal), Parte II. p. 554 - 556

وسار إلى غرناطة : وأقام بها مدى حين « ريثما تلاحقت حشوده وتأهبت متطوعته ووجنوده » . وتقدر الرواية الحيوش المرابطية الغازية هذه المرة ، بنيف ومائة ألف فارس وثلاثمائة ألف راجل . وهو تقدير يحمل طابع المبالغة . ولما تكاملت الحشود ، سار على في قوات ضخمة ، صوب قرطبة ، فأقام بها شهراً يضع خططه ، ويستكمل أهباته . ثم غادر قرطبة على رأس قواته ، وعبر جبال الشارات (سيرا مورينا) ثم جبل طليطلة ، وانقض المرابطون كالسيل على أراضي ولاية طليطلة ، فعاثوا فيها وانتسفوا زروعها ، وخرّبوا ديارها ، وسبوا كثيراً من السكان ، واستولوا على كثير من القلاع والحصون ، وهبت ريح من الرعب والروع على النصارى في تلك الأنحاء . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن المرابطين ساروا أولاً إلى مدينة طلبيرة الواقعة على نهر التاجه غربي طليطلة ، واقتحموها عنوة ، وقتلوا معظم سكانها النصارى ، واستنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، ولحأت جماعة من النصارى الذين بها إلى القصبه ، ثم تسربوا منها ليلاً إلى النهر ناجين بأنفسهم ، فاستولى المرابطون على القصبه ، وانتهبوا سائر ما في المدينة من السلاح والمتاع ، وردوا كنيستها كما كانت جامعاً ، وندب لها أمير المسلمين والياً من قبله ، ورتب بها حامية قوية . ويضع ابن القطان تاريخ اقتحام المرابطين لطلبيرة في منتصف شهر المحرم سنة ٥٠٣ هـ ، ولكن المرجح أنه وقع بعد ذلك بنحو شهر أو شهرين ، إذ كان عبور أمير المسلمين إلى شبه الجزيرة حسبما تقدم في منتصف المحرم^(١) . وافتتح المرابطون من حصون أحواز طليطلة سبعة وعشرين ، ثم استولوا على مجريط ووادي الحجارة ، وقصدوا بعد ذلك إلى طليطلة فضربوا حولها الحصار . ولكن الرواية النصرانية تقدم إلينا تفصيلاً آخر للغزوة المرابطية ، فتقول لنا إن المرابطين بعد أن عاثوا في أراضي قشتالة الجنوبية ، ساروا أولاً إلى طليطلة ، واقتحموا منيتها (ضاحيتها) الحضراء الواقعة على نهر التاجه ، وهي التي كانت من قبل جنة لبي ذى النون ، ثم ضربوا الحصار حول عاصمة قشتالة ، وكان يدافع عنها قائد قشتالة الأول ألبار هانيس في حامية قوية ، ولم يلبث المرابطون على حصار طليطلة وفقاً للرواية الإسلامية سوى ثلاثة أيام . ثم غادروها بعد أن

(١) ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها - هسبيرس ص ٧٠) .

و ابن القطان في « نظم الجمان » (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٣ و ١٥) .

قطعوا ثمارها ، وانتسفوا زروعها^(١) . ولكن الرواية القشتالية تقول لنا بالعكس إن الحصار قد دام سبعة أيام . بذل المرابطون فيها جهوداً فادحة ، وضربوا أسوارها بالمحانيق ضرباً شديداً ، وحاولوا حرق بعض أبراجها ، ولكن جهودهم ذهبت كلها سدى ، واستطاع القشتاليون . اعتماداً على حصانة مدينتهم ، وأسوارها المنيعة العالية ، أن يردوا كل محاولات المرابطين . وفي اليوم السابع ، خرج ألبارهانيس في قواته . واشتبك مع المرابطين في معركة شديدة ، واضطر المرابطون على أثرها إلى رفع الحصار . ومغادرة المدينة بعد أن أحرقوا آلات الحصار (سنة ١١١٠ م) . ثم تقول الرواية القشتالية إن المرابطين ساروا بعد ذلك إلى طليطلة ، فاقتحموها وقتلوا حاميتها ، ثم ساروا من بعدها شمالاً ، واستولوا على مجريط ووادي الحجارة وقناليش وغيرها من قواعد هذه المنطقة . وهنا دب الوباء في الجيش المرابطي ، فاضطر على بن يوسف أن يغادر أراضي العدو ، وأن يعود أدراجه إلى قرطبة . وعلى أي حال فإن الروايات المختلفة العربية والقشتالية تتفق على أن هذه الغزوة المرابطية لأراضي قشتالة ، كانت من حيث ضخامة حشودها وأهبتها ، واتساع نطاقها ، بالغة الأثر في ردع القشتاليين ونذيرهم^(٢) .

وعاد على بن يوسف على أثر ذلك إلى مراکش ، ولكن الغزوات المرابطية استمرت على نشاطها وشدها ، في أنحاء شبه الجزيرة . ففي نفس الوقت الذي كانت فيه الحيوش المرابطية تحت أسوار طليطلة ، سار جيش مرابطي زانخر بقيادة الأمير سير بن أبي بكر والى إشبيلية صوب الغرب إلى أراضي البرتغال . وكانت هذه المملكة النصرانية الجديدة الناشئة في كنف قشتالة ، قد بدأت في ظل أميرها هنري البرجونى ، صهر ملك قشتالة ألفونسو السادس وزوج ابنته غير الشرعية ، تريسا ، تنمو ويشهد ساعدها بسرعة ، وكانت قاعدتها يومئذ

(١) هذه رواية ابن عذارى في البيان المغرب ، في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر . ولكن صاحب روض القرطاس يقول لنا إن المرابطين لبثوا على حصار طليطلة مدى شهر (روض القرطاس ص ١٠٥) .

(٢) تراجع تفاصيل هذه الغزوة في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها - هسبيرس ص ٧٠) وروض القرطاس ص ١٠٥ ، والحلل الموشية ص ٦٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ . وكتاب الاكتفاء لابن الكردبوس (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٤) . وراجع أيضاً :

M. Lafuente ، وكذلك F. Codera : Dec. y Dis. de los Almoravides p 232 & 234 .
Hist. General de Espana Vol. III. p. 229

قُلُومرية ، ومن ثم فإن الرواية الإسلامية تعرف أميرها « بصاحب قُلُومرية » . وكانت يومئذ تضم عدة من القواعد الإسلامية القديمة من قواعد ولاية الغرب . فسار الأمير سير في قواته صوب بطليوس ، ثم زحف على يابرة وافتتحها على الفور ، ثم قصد إلى أشبونة فاستولى عليها هي وضاحيتها شنترة ، وسار بعد ذلك شمالاً ، واستولى على مدينة شنترين ، الواقعة على نهر التاجه ، ويستفاد من الرسالة التي وجهها سير بفتح هذه المدينة إلى أمير المسلمين ، وهو من إنشاء كاتبه الوزير أبي محمد عبد المجيد بن عبدون ، أن المرابطين هاجموا أولاً فاستعصت عليهم ، فضربوا حولها الحصار حتى سلمت ، وكان قد قتل من حاميتها عدد كبير ، فسلم الباقون ، وأسروا سائر من بها . وقد كانت شنترين ، حسبما ورد في هذه الرسالة من أعظم قلاع الغرب وأكثرها موارد لوقوعها في بسيط وافر الحصب^(١) ، ووصل سير في زحفه نحو الشمال إلى مقربة من مدينة قلمرية عاصمة الإمارة . ولم تستطع القوات البرتغالية بقيادة الكونت هنري ، دفعاً للقوات المرابطية الغازية . وكان افتتاح المرابطين لهذه القواعد الغربية في سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) وتقول الرواية الإسلامية إن الأمير سير ، افتتح في هذه الغزوة أيضاً مدينة بطليوس وبرتقال^(٢) . ولكن بطليوس كانت في أيدي المرابطين منذ انتزعوها من بني الأفطس في سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٤ م) . وأما برتقال ، وهي تعنى في الجغرافية الأندلسية ثغر بورتو ، فهي تقع في أقصى شمالي البرتغال ، وفي شمال قُلُومرية . ومن ثم فإن المرابطين لم يصلوا في زحفهم إليها ولم يفتتحوها .

ومما هو جدير بالذكر أنه على أثر هذه الغزوة ، وفد على مدينة إشبيلية المنصور بن عمر المتوكل بن الأفطس قادماً من أراضي قشتالة ، وكان قد سار إليها في أمواله وذخائره ، والتجأ إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس ، حينما غزا المرابطون مملكة بطليوس سنة ٤٨٨ هـ ، وقتلوا أباه عمر المتوكل وأخويه . وقيل إنه اعتنق النصرانية يومئذ . ولما وصل إلى إشبيلية ، أخذ إلى حضرة أمير المسلمين بمراكش فكانت له لديه منزلة ملحوظة .

ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت حملة مرابطية جديدة صوب قشتالة ،

(١) راجع الرسالة المذكورة في المعجب للمراكشي ص ٩٠ - ٩٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٥ .

بقيادة الأمير أبي محمد مزدلي والى قرطبة^(١)، وكان أمير المسلمين على بن يوسف قد أسند إليه ولاية قرطبة وغرناطة منذ سنة ٥٠٥ هـ . وولى أخاه أبا الطاهر تميميا والى غرناطة ولاية تلمسان بالمغرب . وعاث المرابطون في أراضي قشتالة ، وخرّبوا ربوعها بالنار والسيوف ، واستولوا على حصن أرجنة أو أرلبة Oreja وقتلوا حاميته ، وسبوا كثيرًا من النساء والأطفال ، ثم قصدوا إلى مدينة طليطلة عاصمة قشتالة ، وضربوا حولها الحصار مرة أخرى (٥٠٧ هـ - ١١١٤ م) . وكان ألبار هانيس قائد قشتالة الأكبر ، عندئذ في منطقة قونقة ، وكان قد استطاع انتزاع قونقة ، من المرابطين (١١١١ م) ، ولكنها لم تلبث في يد القشتاليين سوى فترة يسيرة . فلما ترامت إليه أنباء الغزوة المرابطية ، وحصار المرابطين لطليطلة ، هرع لمدافعتهم في جيش قوامه عشرة آلاف فارس . ونشبت بين القشتاليين والمرابطين تحت أسوار المدينة المحصورة ، معارك عديدة ، منى فيها كل من الفريقين بخسائر ، وفقد القشتاليون وفقاً لأقوال الروايتين العربية والنصرانية سبعمائة قتيل ، ولكنهم استطاعوا أن يحملوا المرابطين على رفع الحصار ، بعد أن نجحوا في إحراق آلاتهم الثقيلة^(٢) . وتقول الرواية العربية إن ألبار هانيس حينما أقبل لنصرة مواطنيه ، وسار مزدلي للقائه ، فرأى أمامه ليلاً ولم يجرأ على مقاتلته ، وعاد مزدلي على أثر ذلك إلى قرطبة ظافراً ، ثم تقص علينا خبر غزوة أخرى قام بها مزدلي في منطقة وادي الحجارة ، وأن صاحبها « الزند غرسييس » حينما سار مزدلي لقتاله ، لحأ إلى الفرار واحتوى مزدلي على محلته وسائر أثقاله وأمتعته^(٣) وهي غزوة لم تشر إليها الرواية النصرانية . وتزيد الرواية العربية على ذلك أن الأمير مزدلي توفى في شوال سنة ٥٠٨ هـ (١١١٥ م) أعنى في العام التالي لحصار طليطلة ، وذلك أثناء غزوة قام ضد القشتاليين على مقربة من حصن مسطانية^(٤) الواقع في طريق قرطبة . وكتب نبأ وفاته إلى أمير المسلمين على بن تاشفين ، فأمر بتولية ولده محمد بن مزدلي مكانه على قرطبة ، وبتولية ولده عبد الله على غرناطة . ولم يمكث محمد في ولاية

(١) ويقول ابن الكردبوس في كتاب «الاكتفاء» إن الحملة كانت بقيادة الأميرين مزدلي ، وسير ابن أبي بكر (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١١٦٥) .

(٢) M. Lafuente: ibid; Vol. III. p. 230.

(٣) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٤) ابن الخطيب عن ابن الصيرفي في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة

١٨٠) ؛ والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسيبرس ص ٧٧) .

قرطبة سوى أشهر قلائل ، ثم خرج في عسكره ليرد القوات القشتالية التي اقتربت من أراضي ولاية قرطبة ، ونشب بين الفريقين قتال عنيف سقط فيه محمد بن مزدلى وعدد كبير من زعماء لمتونة منهم الأمير محمد بن الحاج ، والأمير أبو إسحق ابن دانية ، والأمير أبو بكر بن واسينو ، وجملة وافرة من الحشم وأهل الأندلس ، وذلك في مستهل صفر سنة ٥٠٩ هـ (٢٧ يونيو ١١١٥ م) . ولما وصل خبر هذه النكبة إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، بادر فندب لولاية قرطبة ابن عمه الأمير أبا بكر يحيى بن تاشفين ، فقدم إليها على عجل ، وما كاد يستقر بها حتى حشد قواته ، وسار في أثر القشتاليين صوب بياسة ، ولحق به عبد الله بن مزدلى صاحب غرناطة في قواته ونشبت بين المرابطين والنصارى معركة جديدة ، هزم فيها المرابطون مرة أخرى ، وقتل منهم عدد جم ، وذلك في اليوم الثامن والعشرين من جمادى الثانية سنة ٥٠٩ هـ (أواخر أكتوبر ١١١٥ م) (١) .

وكان الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني والى إشبيلية ، والقائد العام للجيش المرابطية في اسبانيا قد توفى قبيل وفاة الأمير مزدلى بقليل في جمادى الأول في سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) ، فعين مكانه لولاية إشبيلية محمد بن فاطمة فلبث على ولايتها حتى توفى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) . وهكذا فقد المرابطون في شبه الجزيرة بوفاة مزدلى ، وسير بن أبي بكر ، قائدين من أعظم قواد لمتونة وألمعهم . وقد كان مزدلى ، وهو مزدلى بن تيولتكان بن الحسن بن محمد بن ترقوت (تُرجوت) ، من أركان الدولة اللمتونية والعصبة الصنهاجية ، وكان من أقارب يوسف بن تاشفين لالتقائهما في ترقوت . ويصفه ابن الخطيب بأنه كان «بطلاً ثباتاً ، بهمة من بهم ، بعيد الصيت ، عظيم الجلد ، أصيل الرأي ، مستحكم الحنكة ، طال عمره ، وجمدت مواقفه ، وبعدت غاراته ، وعظمت في العدو وقائمه» (٢) وقد كان من أعظم أعمال مزدلى استرجاعه لمدينة بلنسية من أيدي جنود السيد الكمبيادور بعد وفاته وجنود قشتالة ، وذلك في سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) . وكان

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هيسيرس ص ٧٧) . وروض مقرطاس ص ١٠٥ . وما يلفت النظر أن صاحب البيان يذكر هنا الأمير محمد بن الحاج ، وهو والى سرقسطة بين قتلى موقعة قرطبة . بيد أننا سنرى ، فيما بعد أن هناك رواية أخرى تضع مقتله في العام السابق وفي غزوة أخرى بالشر الأعلى .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ١٨٠) .

قد وُلّيت بلنسية ثم قرطبة ، وغرناطة أيام يوسف ، ثم وُلّيت قرطبة قبيل وفاته
ببضعة أعوام من قبل علي بن يوسف .

وأما سير بن أبي بكر ، فقد كان أيضاً من أعظم زعماء لمتونة وقادتها ، وقد
ظهر بنوع خاص بشجاعته وبراعته العسكرية الفائقة في موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ) .
ولما جاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جوازه الثالث إلى شبه الجزيرة في
سنة ٤٨٣ هـ ، وبدأ افتتاح دول الطوائف بالاستيلاء على غرناطة ، فوض عند
عودته إلى المغرب شئون الأندلس إلى الأمير سير ، وعهد إليه بافتتاح ممالك
الغرب الأندلسية ، فافتتح سير مملكة إشبيلية من أيدي بني عباد (٤٨٤ هـ) ، ثم
افتتح مملكة بطليوس من أيدي بني الأفطس (٤٨٨ هـ) ، في الظروف والمناظر
العنيفة المروعة ، التي فصلناها في كتابنا « دول الطوائف » . وكانت آخر الغزوات
العظيمة التي قام بها سير ، هي افتتاحه لقواعد الغرب من يابرة حتى أشبونة
سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) حسبما تقدم من قبل .

ويجب أن نلاحظ أنه كان من أسباب نشاط الغزوات المرابطية في تلك الفترة ،
وإقدامها على مهاجمة طليطلة عاصمة قشتالة ومحاصرتها غير مرة ، ما وقع في
اسبانيا النصرانية عقب وفاة ألفونسو السادس دون وارث (١١٠٩ م) ، وقيام
ابنته أورাকা في العرش ، من حروب أهلية حول السلطان بين أورাকা وزوجها
ألفونسو الأول ملك أراجون من جهة ، وبينها وبين أشراف جلدّيقية أنصار
ولدها ألفونسو ريمونديس من جهة أخرى ، وضعف الجبهة الدفاعية النصرانية
بذلك ، وعجزها عن القيام بغزوات كبيرة في أراضي المسلمين ، وخصوصاً بعد
مصرع ألبار هانيس قائد قشتالة الكبير في إحدى هذه المعارك الأهلية ، وقد كان
هذا القائد الشهير زميل السيد الكمبيادور ومعاونه ، من أعظم قادة اسبانيا النصرانية
في هذا العصر .

وشملت موجة الغزو المرابطي شرقي الأندلس كذلك . ونحن نعرف أن
المرابطين بقيادة أبي عبدالله محمد بن الحاج والي بلنسية ، قد استولوا على سرقسطة
من أيدي بني هود في أواخر سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) حسبما سبق أن فصلناه
من قبل في تاريخ مملكة سرقسطة . وكان يوسف بن تاشفين قد أوصى ولده علياً

فما أوصاه ، بأن يهادن بني هود ملوك سرقسطة ، وأن يتركهم في ملكهم حائلا بينه وبين النصارى . وكانت هذه سياسة فطنة ، تتفق مع ظروف سرقسطة وموقعها في الثغر الأعلى بين الممالك النصرانية . ولكن الحوادث سارت في طريق آخر ، واختلف أهل سرقسطة مع ملكهم عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة ، لارتماؤه في أحضان النصارى ، وتغليبهم في مصالح الدواة . وكتبوا إلى أمير المسلمين علي بن يوسف يدعونه لامتلاك بلادهم . وكان علي بعد أن تلقى فتوى الفقهاء بوجوب خلع عماد الدولة ، وفقاً لرغبات أهل سرقسطة ، وبعد أن زحفت الحنود المرابطية بالفعل من بلنسية نحو الشمال - قد أراد أن يبقى علي رياسة بني هود استجابة لضراعة عماد الدولة ، ولكن الحوادث سبقته ، وانتهى المرابطون بالاستيلاء على سرقسطة ، وذلك في اليوم العاشر من ذي القعدة سنة ٥٠٣ هـ (يونيو ١١١٠ م) ودخل ابن الحاج قصر « الجعفرية » الشهير واستقر فيه . وكان عماد الدولة حينما شعر بمقدم المرابطين ، قد غادر سرقسطة في أهله وأمواله إلى حصن روضة المنيع ، الواقع على نهر خالون (شلون) . وهكذا انتهت مملكة سرقسطة ، وانتهى ملك بني هود ، وامتد سلطان المرابطين بذلك ، إلى قلب الثغر الأعلى .

ولبت ابن الحاج واليا على سرقسطة بضعة أعوام ، وهو يحوطها بحمايته ويرد عنها أطماع النصارى ، المحيطين بها من الشرق والغرب والشمال ، ويقوم بغزو أراضيهم والعيث فيها من آن لآخر . وفي سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) زحف ألفونسو الأول ملك أراجون (المحارب)^(١) ، نحو سرقسطة ومعه عماد الدولة عبد الملك ابن المستعين حتى أصبح قريباً منها ، وخرج محمد بن الحاج في قواته لمدافعته ، وقدمت الحند المرابطية من مرسية على عجل يقودها واليها محمد بن عائشة ، فلما رأى ألفونسو تفوق المرابطين ، ارتد أدراجه ، وطارده العساكر المرابطية حيناً ، واستمر المرابطون على غزواتهم الخربة في أراضيهم . وسارت قوة منهم بقيادة علي ابن كنفاط اللمتوني صوب قلعة أيوب ، وحاصرت بعض حصون عبد الملك بن هود ، فاستغاث عبد الملك بحليفه وحاميه ألفونسو ، وقدمت لمعاونته نجدة من النصارى ، فانهزم المرابطون وأسر قائدهم ابن كنفاط ، وبقي في أسر عبد الملك مدة ثم أنحلي سبيله^(٢) .

(١) تسمى الرواية الإسلامية ألفونسو المحارب « ابن رذمير » نسبة إلى اسم ابيه « سانشو راميرز »

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ٧٣) .

ولما اشتدت موجة الغزو المرابطى لأراضي قشتالة ، خرج ابن الحاج في قواته من سرقسطة في شهر صفر سنة ٥٠٨ هـ (يولية ١١١٤ م) ، وانضم إليه في لاردة محمد بن عائشة في قواته . وسارت القوات المرابطية المتحدة شرقاً ، واخرقت أراضي إمارة برشلونة ، وهي تثخن فيها ، وتستولى على مقادير عظيمة من السبي والغنائم ، واستمرت كذلك حتى وصلت إلى ظاهر مدينة برشلونة العظيمة . وعندئذ بعث ابن الحاج الغنائم والسبي مع بعض قواته لتعود من الطريق الكبير ، واتجه هو بباقى قواته غرباً ليسير من طريق البرية ، وهو أقصر وأقرب إلى سرقسطة . ولكنه فوجئ خلال الطريق بقوات كثيفة من النصارى متأهبة في كوائنها ، فنشب القتال بين الفريقين ، وقاتل ابن الحاج وقواته قتالا عنيفاً ، حتى سقط معظمهم ، وفي مقدمتهم - وفقاً لهذه الرواية - قائدهم الباسل ، ونجا ابن عائشة وقليل من صحبه . بيد أن ابن الحاج ، وفقاً لرواية ابن عذارى المتقدمة لم يقتل في هذه الموقعة ، وإنما قتل في العام التالي في موقعة قرطبة التي سبق ذكرها . ولما علم أمير المسلمين على هذه النكبة ، وما أصاب محمداً بن عائشة على أثرها من الدهول ، عين صهره زوج أخته الأمير أبا بكر بن ابراهيم بن تافلوت والى مرسية ، أيضاً والياً على بلنسية وطرطوشة وسرقسطة ، وأمره بالسير لغزو النصارى . فجمع ابن تافلوت سائر قواته ، وسار شمالاً إلى برشلونة ، وهو يشحن في أراضيها بالنار والسيوف ثم حاصرها . وأقام على حصارها عشرين يوماً ، حتى خرج إلى لقائه أميرها رامون برنجير في قوات برشلونة وأربونة ، ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة قتل فيها كثير من النصارى ، وخسر المسلمون نحو سبعمائة قتيل ، وارتد المرابطون بعد ذلك صوب أراضيهم (١) .

وكان أبو عبد الله محمد بن الحاج من أكابر زعماء لتونة وقوادها ، وكان يتصل بصلة القرابة المتينة ليوسف بن تاشفين ، إذ يرجع نسبه إلى ترقوت أو ترجوت جد العاهل المرابطى ، وعرف بابن الحاج ، إذ قام أبوه بأداء الفريضة وقد ظهر منذ البداية ، مذ عبر إلى شبه الجزيرة مع يوسف بن تاشفين في سنة ٤٨٤ هـ ، بمقدرته وأعماله العسكرية البارزة ، أولاً حين افتتحه لقرطبة من يد

(١) روض القرطاس ص ١٠٤ و ١٠٥ ، وراجع أيضاً : F. Codera: ibid; p. 20-22. هذا وقد سبق أن أتينا على رواية ابن عذارى التي تقول بمقتل ابن الحاج ضمن من قتلوا من أمراء لتونة في موقعة قرطبة في سنة ٥٠٩ هـ .

ابن عباد، ثم في محاربته للقشتاليين ، في غير موقعة . ولما تولى على بن يوسف ، عينه أولاً والياً للمغرب ، ولكنه لم يمكث في هذا المنصب سوى أشهر قلائل ، ثم ندبه لولاية بلنسية وشرقي الأندلس ، في سنة ٥٠١ هـ . ومن بلنسية سار ابن الحاج إلى سرقسطة ، استجابة لدعوة أهلها ، وانتزعها من يد بني هود ، واستقر والياً لها حسبما تقدم ..

وكان من أعظم الأعمال التي حققتها أمير المساميين على بن يوسف يومئذ ، استردادده للجزائر الشرقية واستنقاذها من أيدي الغزاة النصارى . وقد سبق أن تحدثنا ، عند كلامنا عن مملكة دانية ، عن أخبار الجزائر الشرقية وأحوالها ، وكيف أنه حينما سقطت مملكة دانية في يد المقتدر بن هود في سنة ٤٦٨ هـ ، (١٠٧٦ م) ، وانتهت بذلك رئاسة على بن مجاهد موفق الدولة ، كان على حكمها ، (أى الجزائر) ، عبد الله المرتضى ، وكيف أن المرتضى أعلن استقلاله عندئذ ، واستبد بحكمها . ولما توفي المرتضى في سنة ٤٨٦ هـ ، خلفه في حكم الجزائر فتي من أخص فتيانه هو مبشر بن سليمان ، فضبط شئونها بحزم وكفاية ، وتلقب بناصر الدولة ، واستمر على حكمها فترة طويلة ، وهو معزل عن حوادث شبه الجزيرة . وكانت الجيوش المرابطية خلال ذلك ، تستولى تباعاً على قواعد الأندلس الشرقية ، فاستولت على بلنسية في سنة ٤٩٥ هـ ، ثم استولت بعد ذلك على سرقسطة وقواعد الثغر الأعلى (٥٠٢ هـ) . بيد أن مبشراً لم يفكر بالرغم من وجود الجيوش المرابطية على مقربة منه في ثغور اسبانيا الشرقية ، أن ينضوى تحت لواء المرابطين ، أو يعقد الحلف معهم ، واستمر على استقلاله بحكم الجزائر ، حتى دهمتها الغزوة النصرانية الكبرى .

وقد سبق أن فصلنا في أخبار مملكة دانية ، من كتابنا « دول الطوائف » قصة الغزو النصراني للجزائر الشرقية ، وكيف أنه لما كثرت غارات البحارة المسلمين على الشواطئ الإيطالية الشمالية والشرقية ، وشواطئ قطلونية الإسبانية ، عقدت جمهوريةا بيزة (بيشه) وچنوة ، وإمارة برشلونة حلفاً لافتتاح الجزائر ، وفي أوائل سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) خرج من مياه چنوة أسطول الغزو ، وقوامه نحو ثلاثمائة سفينة ، ومعه وحدات بحرية أخرى من برشلونة وفرنسا ، وفرض الغزاة على مدينة ميورقة عاصمة الجزائر حصاراً محكماً صارماً ، وقاسى المسلمون أهوالاً من الحصار الذي استمر زهاء عام ، وفي أواخر سنة ٥٠٨ هـ (أوائل

سنة ١١١٥م) اقتحم الغزاة أسوار ميورقة ودخلوها ، واحتلوا قصر المدينة : وعاثوا في أنحائها ، قتلوا ونهباً وسبياً ، وقتلوا من سكانها حملة عظيمة ، وكانت محنة مروعة .

وفي خلال ذلك ، كان المرابطون يرقبون تطور الحوادث في الجزائر . ولم يكن أمير المسلمين بغافل عن أهمية الجزائر ، وأهمية موقعها بالنسبة لحماية شواطئ الأندلس الشرقية . ولما حاصر النصارى ميورقة ، بعث مبشراً بصريخه إلى أمير المسلمين ، ولكنه توفي خلال الحصار ، وحاول خلفه القائد أبو الربيع سليمان ، أن يغادر الجزيرة ليسعى في طلب النجدة ، فأسره النصارى . ولكن صريخ مبشر وصل إلى أمير المسلمين على يد بحار جرىء هو القائد أبو عبد الله بن ميمون ، استطاع أن يخترق الحصار بسفينته تحت جناح الظلام ، ولم يستطع النصارى لحاقاً به .

وكان أمير المسلمين ، قد أتم عندئذ أهباته البحرية الضخمة ، فبعث لإنجاد الجزائر واستنقاذها أسطولاً ضخماً قوامه نحو ثلاثمائة سفينة . وأقبلت السفن المرابطية بسرعة صوب الجزائر ، بقيادة أمير البحر المرابطي ابن تفرطاش أو (تافرطاش) . ولما علم البيزيون وحلفاؤهم بمقدم هذا الأسطول الإسلامي الضخم ، وأدركوا أن لا أمل لهم في مدافعتهم ، غادروا ميورقة مثقلين بالغنائم والسبي : بعد أن استصفوا ثرواتها وخرّبوا ربوعها ، وأحرقوها وقتلوا معظم أهلها . ووصلت السفن المرابطية في أثرهم إلى الجزيرة في أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦م) واحتلها المرابطون وشرعوا في تعمیرها ، وعاد إليها الفاورن من سكانها . وتزيد الرواية الإسلامية على ذلك أنه لما انصرفت السفن النصرانية ناجية إلى أوطانها ، دهمتها العواصف والأمواج العالية ، فحملت منها أربع سفن صوب ثغر دانية ، فطاردها القائد أبو السداد ، حتى غرقت منها واحدة ، وتمكن من أسر الثلاث الأخرى (١) .

وعين أمير المسلمين والياً للجزائر هو وانور بن أبي بكر اللمتوني ، وبذلك أضحت الجزائر الشرقية جزءاً من الإمبراطورية المرابطية الكبرى . ودخلت في عهد جديد من تاريخها . وسنرى فيما بعد ، أي دور خطير تلعبه الجزائر الشرقية ، كمركز للثورة « المرابطية » المريرة ، التي حمل لواءها بنو غانية حكام

(١) ابن الكردبوس في كتاب الاكتفاء (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوجه ١٦٥ ب).

الجزائر ، ضد الدولة الموحدية قاهرة الدولة المرابطية ، ووريثة ملكها في المغرب
والأندلس (١) .

- ٤ -

في بداية سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) وقع في قرطبة حادث كبير الدلالة ، عميق
الأثر ، بالرغم من عدم أهميته الظاهرة ، هو إحراق كتاب « إحياء علوم الدين »
للإمام أبي حامد الغزالي ، ويقول ابن القطان إن هذا الحادث وقع « في أول عام
ثلاثة وخمسةائة » ، ومعنى ذلك أنه وقع قبيل عبور علي بن يوسف إلى شبه الجزيرة
بأسابيع قلائل . وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، في أواخر عهده على
صلة طيبة بالإمام الغزالي ، وكان يستفتيه باعتباره عميد فقهاء المشرق ، في عظام
الأمور ، ومن ذلك أنه استفتاه في مسألة خلع ملوك الطوائف (٢) ، وكان الغزالي
من جانبه يقدر يوسف ونصرته للإسلام ، حتى قيل إنه اعتزم أن يسير إلى المغرب
لرؤياه ، ولكنه حينما وصل إلى الإسكندرية ، علم بوفاة يوسف (سنة ٥٠٠ هـ) ،
فعدل عن رحلته (٣) . ولكن الأمور تغيرت في عهد والده علي . وكان علي يتسم
بنوع من الورع والزهد ، ويميل إلى إيثار الفقهاء ومشاورتهم ، فاشتد نفوذ الفقهاء
بالمغرب والأندلس في عهده ، حتى أصبح لا يقطع في أمر من الأمور ، صغيراً
كان أو كبيراً إلا برأيهم ، وهكذا علت مكانتهم ، واشتد نفوذهم ، حتى سيطروا
فيما بعد على الدولة . وكان من أشدهم نفوذاً لدى أمير المسلمين ، قاضي قرطبة
أبو عبد الله محمد بن حمدان . وكان الفقهاء عندئذ يؤثرون علم الفروع بعنايتهم ،
وهو علم العبادات ، والمعاملات ، ويهملون علم الأصول ، أو أصول الدين . وكان
لا يحظى لدى أمير المسلمين إلا من برع في علم الفروع (٤) . فلما وصلت كتب

(١) يراجع في أخبار غزو النصارى للجزائر الشرقية واستنقاذها على يد المرابطين ،
ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٠٥ ، والروض المعطار (صفة جزيرة
لأندلس) ص ١٨٨ ، وراجع كتابي « دول الطوائف » ص ٢٠١ - ٢٠٤ ومن المراجع القشتالية :
A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dominación Islamita en las
Islas Baleares (Palma 1888) p 105 - 135
وكذلك : P. y Vives : Los Reyes Taifas, p. 41
(٢) ابن خلدون في العبر ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٤٧ .
وراجع كتابي دول الطوائف ص ٣٢٧ .
(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٨ ، والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ص ١٠٦ .
(٤) المراكشي في المعجب ص ٩٥ و ٩٦ .

الإمام الغزالي إلى المغرب والأندلس ، وفي مقدمتها كتاب « الإحياء » ، وقرئت وذاع ما فيها ، سخط الفقهاء المرابطون ، وأنكروا كثيراً من المسائل التي وردت في كتاب « الإحياء » ، وزعموا أنها مخالفة للدين ؛ وكان أبو القاسم ابن حَمْدِين^(١) من أشد الفقهاء مبالغة في ذلك حتى أنه قال « بتكفير » من قرأ كتاب « الإحياء » . ورفع ابن حمدين ومعه فقهاء قرطبة ، الأمر إلى علي بن يوسف ، وأجمعوا على وجوب مطاردة كتاب « الإحياء » وإحراقه ؛ فأخذ علي برأيهم ، وجمعت نسخ الكتاب واحتفل بإحراقها في رحبة المسجد الجامع بقرطبة أمام الباب الغربي بعد أن أشبعت جلودها بالزيت ، ونفذت كتب أمير المسلمين ، إلى سائر أنحاء الأندلس والمغرب بإحراقه حيثما وجد ، وانزعت نسخه من أصحابها ، وتوالى إحراق الكتاب في سائر أنحاء المغرب ، وشدد أمير المسلمين في ذلك حتى إنه أنذر بعقوبة الإعدام ومصادرة المال لكل من وجد عتده^(٢) ، واستمرت هذه المطاردة لكتاب الإحياء وباقي كتب الغزالي طوال أيام المرابطين ، وجدد المرسوم بذلك في أواخر عهد تاشفين بن علي بن يوسف (سنة ٥٣٨ هـ) حسبما نذكر بعد .

والحقيقة أن حملة الفقهاء المرابطين على كتاب الإحياء ، لم تكن راجعة لأمر تتعلق بالعتيدة أولاً لأنه يخالف الدين في شيء ، بل كانت ترجع قبل كل شيء إلى ما ورد فيه من حملة لاذعة على علماء الفروع ، والتنويه بجهلهم ، وسنف مجادلاتهم السطحية ، ووصف الغزالي لهم بأنهم « مجازين » ، وكونهم يجهلون علم الأصول ، الذي ينزه الغزالي بأهميته وعظيم قدره^(٣) .

ويحمل ابن القبطان على هؤلاء الجهلة الذين قاموا بإحراق هذا « الكتاب العظيم » ، ويقول لنا إن إحراقه كان سبباً لزوال ملكهم ، واستئصال شأفتهم ، ثم ينقل إلينا قصة وجود المهدي ابن تومرت في حلقة الإمام الغزالي بالمشرق ، ووقوف الغزالي

(١) هو أخو القاضي أبو جعفر أحمد بن حمدين الثائر فيما بعد بمدينة قرطبة .

(٢) ابن القبطان في « نظم الحيات » (المخطوط السالف الذكر لوحه ١٦) ، ونقله ابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسيروس ص ٧٦) ، والخلل الموشية ص ٧٦ ، والمعجب ص ٩٦ .

(٣) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ١٠٦ و ١٠٧ ، وراجع مقدمة العلامة جولديهير

الفرنسية لكتاب « محمد بن تومرت » : Mohamed ibn Toumert et la Théologie de l'Islam dans le Maghreb au XI eme Siècle p. 35 & 36

منه على ما تم من إحراق كتابه بقرطبة ، ودعائه « أن يمزق الله ملكهم كما مزقوه ، وأن يذهب دعوتهم كما أحرقوه » . بيد أننا سوف نرى فيما بعد ، عند الكلام على نشأة ابن تومرت وظهوره ، بطلان هذه القصة ، وما يحيط بها من المتناقضات المنطقية والزمنية .

ولم يمض قليل على استرداد المرابطين للجزائر الشرقية حتى عبر أمير المسلمين على بن يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة منذ جلوسه ، وذلك في أواخر المحرم سنة ٥١١ هـ الموافق لشهر مايو سنة ١١١٧ م^(١) ، أعني في بداية الصيف ، وهو الفصل المفضل للعبور والجهاد ، على نحو ما وقع في الحواز الثاني . وفي روض القرطاس أن هذا العبور قد وقع سنة ٥١٣ هـ ، بعد سقوط سرقسطة وقواعد الثغر الأعلى ، وأنه هو الحواز الثاني لأمر المسلمين ، وهو تحريف واضح في التاريخ والوصف . ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذا الحواز ، وما اقترن به من الحوادث تفاصيل شافية ، ويكتفى صاحب الحلل الموشية وابن الخطيب كلاهما ، بالإشارة إليه في كلمات عابرة . ولكن صاحب روض القرطاس وابن عذارى يقدمان لنا عنه بعض التفاصيل . وفي الرواية الأولى ، أن عليا جاز إلى الأندلس برسم الجهاد وإصلاح شئونها ، وجزأت معه جموع غفيرة من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر ، وأنه سار في قواته صوب قرطبة وعسكر في خارجها ، فأنته الوفود للسلام عليه ، ووقف منها على أحوال البلاد ، وكان من تصرفاته عندئذ ، أن عزل القاضي أبا الوليد بن رشد (الحد) عن قضاء قرطبة ، وولى مكانه أبا القاسم ابن حمدين^(٢) . ولكن سوف نرى أن هذا التصرف قد وقع في مناسبة لاحقة . أما ابن عذارى فإنه يقول لنا ، إن علياً قصد عند عبوره إلى مدينة إشبيلية ، وهناك لحقت به العساكر العدوية والأندلسية ، وقصدت إليه وفود العلماء والفقهاء والمجاهدين من قرطبة ، وكذلك جموع المتطوعة من غرناطة . وأما ما يتعلق بغزوات علي في هذا الحواز فيتخلص في أنه سار في قواته نحو أراضي البرتغال ، وغزا قُدُميرية (ويسمها روض القرطاس سنبرية ،

(١) الحلل الموشية ص ٦٢ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٤٧ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ٧٩) .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٦ .

وابن عذارى قلمورية) ، وأثنى في تلك الأثناء تخريباً وقتلاً وسيياً ، ولم تستطع قوات الملكة تريسا مالكة البرتغال يومئذ ، أن تقوم بأية أعمال دفاعية ذات شأن ، وفر أمامه النصارى في كل مكان ، واعتصموا بالمعاقل المنيعة ، وأنه على العموم « دوح بلاد الشرك بجيوش لا تحصى » (١) . ويستفاد من أقوال الرواية النصرانية أن علياً وصل بقواته إلى أحواز قلمرية ، وبعد أن حاصرها ، دخلها عنوة ، وذلك في يوم ٢٢ يونيه سنة ١١١٧م ، وهو يوافق يوم ١٨ صفر سنة ٥١١هـ (٢) . ويقول لنا ابن عذارى إن حصار قلمرية استمر عشرين يوماً ، ومعنى ذلك أنه بدأ في ٢ يونيه الموافق ٢٨ من المحرم ، فإذا ذكرنا أن علياً قد عبر إلى الأندلس في أواخر المحرم ، وفقاً لرواية ابن عذارى ، فإنه تبدو ثمة في التواريخ ثغرة واضحة . وإذن فلا بد أن يكون عبور علي قد وقع في أوائل المحرم ، أو أن تكون قلمرية قد سقطت في أيدي المرابطين ، بعد التاريخ الذي تحدده الرواية النصرانية ، بشهر أونحوه ، وهو ما يفسح لمسير علي وغزوته بضعة أسابيع ، وهي أقل ما يمكن أن تستغرقه مثل هذه الغزوة .

والظاهر أن علياً لم يحتفظ بقلمرية لأية مدة ، فقد انصرف عنها عقب افتتاحها إلى إشبيلية حسبما يقول ابن عذارى . ويفسر ذلك موقع قلمرية النائي ، وصعوبة الاحتفاظ بها في منطقة يحيط بها النصارى من كل صوب .

وتذكر لنا الرواية الإسلامية نبأ غزوة قام بها في نفس الوقت القائد عبد الله ابن فاطمة ، ومنصور بن الأفطس - وهو الذي سبق أن ذكرنا خبر عوده من أراضي النصارى إلى إشبيلية والتجائه إلى حماية أمير المسلمين - في أرض النصارى ، وهي غزوة عاداً منها إلى إشبيلية مثقلين بالسبي والغنائم الكثيرة (٣) .

وقضى أمير المسلمين علي بن يوسف ، عقب عوده من الأندلس ، بحاضرتة مراکش ، زهاء أربعة أعوام ، وفي أوائل سنة ٥١٥هـ (ربيع سنة ١١٢١م) ، عبر إلى شبه الجزيرة مرة أخرى في جيش عظيم من صنهاجة وزناتة ومصمودة وغيرها من قبائل البربر ، وقيل أن حشوده لم تبلغ في أية عبور سابق ما بلغته هذه

(١) اللؤلؤ الموشية ص ٦٣ .

(٢) F. Codera : Dec. y Dis. de los Almoravides, p. 256

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٧٩) .

المرّة من الضخامة والأهبة . وكان هذا هو الجواز الرابع لأمير المسلمين . وقد اختلفت الرواية في بواعثه ، فقيل إن علياً اهتز لما بلغه من توالي المحن على جيوشه في شبه الجزيرة ، وبخاصة لما أصابها في كتندة من هزيمة ساحقة ، فعبر إلى الأندلس ، لتدارك الموقف ، وإصلاح الأمور . والعمل على توطيد سمعة الجيوش المرابطية^(١) ، بيد أنه كان ثمة باعث أهم وأخطر ، وهو الذي تردده أكثر من رواية ، وهو قيام الثورة ضد المرابطين في قرطبة . ويلخص لنا صاحب الحلال الموشية الحادث في أن أمير المسلمين كان قد ولّى على قرطبة الأمير أبا يحيى بن رواده ، فحدث بينه وبين أهلها نفور وسوء تفاهم فثاروا عليه ، وحدثت بينهم وبين من كان بها من المرابطين فتنة كبيرة . ونهب العامة قصر الوالي ، ودور المرابطين ، واشتدت الحال^(٢) . ولكن ابن عذارى يقدم إلينا رواية أخرى يقول فيها : إنه في سنة ٥١٤ هـ ، « نفذ أمر أمير المسلمين إلى البلاد الأندلسية ، بإحياء المخانيق والآلات الحربية ، فلما كمل منه المختص بأغرناطة ، خرج لمشاهدة التجربة لها والرمي بها أجدادى بن سير اللمتونى صاحب الأعنة . فتزاحم هناك اللحم الغفير ، فرام الفسحة ، وأشار برسوخ كان في يده فأصاب صبيّاً في مقتلته فقتضى لوقته ، وانفض الليف ، وتهرجت البلدة . فاسترضى ولى الدم بدفع الدية ، فسكنت الثورة ، وأمهل الله القاتل ثم أخذه . ولما كمل ما أنشئ منها بقرطبة ، وقد جاء عيد النحر ، فخرج ثانية عامل البلدة لمشاهدة التجربة ، وقد أقبل السواد الأعظم الذى لا يطاق ، بمجمع حضور العيد ، وحضور كل ذاعر وناعق ، من كل حدب وشاهق ، فكثرت التدافع والتزاحم ، ودهم الحشم ، فكثرت بينهم التزاحم ، وأقبل لفيف الربض الغربى ، فالتقى بأسهم على القصر . ورام صاحبه المدافعة بحشمه وخدمه فغلبوا ، واقتحم القصر عليه و [انتهب] جميع ما فيه . وخرج هو فاراً بنفسه ، وركب القاضى أبو الوليد بن زشد في أعلام الفقهاء ، فردع العامة ، وقمع السفلة »^(٣) .

وأخيراً يقدم إلينا ابن الأثير عن هذه الثورة تفاصيل أوفى ، ومن نوع خاص ، فيقول إنه لما كان يوم الأضحى (من سنة ٥١٤ هـ) ، خرج الناس متفرجين ، فد عبد من عبيد أبى بكر يده إلى امرأة وأمسكها . فاستغاثت فأغاثها الناس ،

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) الحلال الموشية ص ٦٣ .

(٣) ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة التى عثر بها المؤلف فى مكتبة القرويين) .

فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة ، ونشب القتال بينهم حتى دخل الليل ، ووصل الخبر إلى الوالي الأمير أبي بكر ، واجتمع إليه الفقهاء والأعيان ، واقترحوا عليه تهديئةً للحال أن يقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة ، فأنكر ذلك وغضب ، وفي اليوم التالي استعد للقتال وأظهر السلاح ، والعدد ، فاجتمع لقتاله أهل قرطبة بزعامة الأعيان والفقهاء ، وهزموه ، فتحصن بالقصر فحاصروه ، وفر منهم بعد مشقة ، فنهبوا القصر وأحرقوا دور المرابطين ، ونهبوا أموالهم ، وأخرجوهم من قرطبة على أقبح صورة (١) .

تلك هي تفاصيل الفتنة القرطبية التي أهدت أمير المسلمين ، وحملته على المبادرة إلى العبور إلى الأندلس . بيد أن هذه الحوادث اظاهرة ، كانت تحمل في ثنيتها عوامل أخطر وأبعد مدى . فلم يكن الأمر في الواقع متعلقاً بحادث شغب عابر ، ولكنه كان أعمق جذوراً ، وكان أول فورة علنية ضد الحكم المرابطي . وقد سبق أن أشرنا إلى أن أساليب المرابطين في الحكم لم تكن تتسم بكثير من الرفق والكياسة ، وأنها كانت بالعكس تتسم بالضغط والحشونة . ولم ينجح المرابطون منذ غلبوا على الأندلس ، منذ نحو ربع قرن ، أن ينشئوا في البلاد المفتوحة نظاماً مدنياً للحكم ، فبقيت الأندلس في أيامهم ، تعاني ضغط الحكم العسكري المرهق ، وكانت تزمت المرابطين الديني ، وحجرهم على الأفكار والعقائد ، سبباً آخر من أسباب التدمير لدى العقلاء والمفكرين . وكانت الحاميات المرابطية المكونة من أخلاط البربر ، تعامل جموع الشعب بصلف وتعال وجفاء ، وكانت جموع الشعب من جانبها تحقد عليها ، وتنظر إليها بعين المقت والحفيظة . وهذا إلى ما كان يشعر به الشعب الأندلسي بصفة عامة من ألم نفسي عميق لفقد استقلاله وحرياته ، في ظل أولئك السادة الجدد ، الذين عبروا إلى الأندلس باسم إنقاذها ، ثم انتهوا بأن فرضوا عليها نيرهم الحديدي .

ولم تلك ثورة قرطبة سوى أولى البوادر المادية لهذه الثورة النفسية . ومن ثم فقد قدر أمير المسلمين خطورتها ، وبادر بالتقدم إلى الأندلس لمعالجة الموقف ، وكان في استعداداته العسكرية الضخمة ما ينم عن توجسه من عواقب هذه الثورة التي ربما وجدت صداها في بعض القواعد الأخرى .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٧ .

ووصل على بن يوسف بحشوده إلى ظاهر قرطبة في شهر ربيع الآخر سنة ٥١٥ هـ (يوليه سنة ١١٢١ م) ، وهو ينوي أن يحمي الهياج بشدة ، فأغلقت قرطبة دونه أبوابها ، واستعد أهلها للدفاع عن أنفسهم ، واستفتوا فقهاءهم ، فأفتوا بأنه متى عرضت الحقائق فيما حدث على أمير المسلمين ، وتبين منها أن الأمر لم يكن عدواناً من أهل قرطبة ، وإنما كان بالعكس دفاعاً عن الحرم والدماء والأموال ، فإن أصر أمير المسلمين على موقفه . واستمع لنصح المفسدين . وجب القتال دفاعاً عن النفس والحرم (١) . ويقول لنا ابن الأثير من جهة أخرى ، إن أمير المسلمين ، بادر عند مقدمه محصار قرطبة ، فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمي دمه وحرمة وماله ، وأنه لما رأى شدة قتالهم . دخل السفراء بينه وبينهم ، وسعوا في الصلح (٢) . على أنه يبدو أنه لم يكن ثمة قتال ، وإنما تذرع أمير المسلمين بالهدوء والصبر ، وأقام أمام المدينة فترة ، حتى تردد إليه وجوه قرطبة وأعيانها . ويقول لنا ابن عذارى إن أمير المسلمين استدعى القاضي أبا الوليد بن رشد (الحد) قاضي قرطبة وفتهاء المدينة ، وجرت بينهم أحاديث طويلة في أمر الثورة والانتزاع على الرياسة ، واقتحام قصر الوالي وانتهابه . وذكر أعيان قرطبة أمير المسلمين بوصية أبيه ، في أن يقبل من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عن أساءتهم . وكان محمد بن داود قاضي إشبيلية في ركاب أمير المسلمين . فجعل يعظم الأمر . ويبالغ في تصوير شناعته ، ويقول إنه اجترأ وعصيان وضلال . ودافع القاضي ابن رشد من جهة أخرى عن موقف أهل المدينة . وبين أنهم لم يشقوا عصا ولا نبذوا طاعة ، وأنه كان من واجب الوالي أن يعاقب المذنب من عبيده . فقال أمير المسلمين فتمكنوا منهم . فقال ابن رشد ليس لنا قدرة على حصرهم . وإنما يحصرهم صاحب الأمر ، ثم بعد ذلك يأمر الصفيح عنهم . وانتهت المفاوضات بالاتفاق على أن يقوم أهل قرطبة بالتعويض عما نهب من المرابطين . وارتضى أمير المسلمين هذا الاتفاق ، ولكنه غضب لموقف ابن رشد وإيضاحاته ، فصرفه عن القضاء ، وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين ، وأمر كذلك بصرف الأمير عبد الله ابن تينغمر عن غرناطة ، وأسند نظر غرناطة إلى أخيه الأمير أبي الطاهر تميم ، وكان يومئذ بفاس ، فاستحثه إلى الحضور ، ولبث تميم والياً على غرناطة مدى

(١) اللؤلؤ الموشية ص ٦٣ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٧ .

عامين ، ثم عين بعد ذلك والياً لإشبيلية مكان الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف ،
فلبث والياً حتى وفاته في سنة ٥٢٠ هـ (١) .

ولم يمكث علي بن يوسف هذه المرة طويلاً بالأندلس ، إذ وافته أنباء من عجة
من مراکش ، عن قيام محمد بن تومرت المهدي ببلاد السوس الأقصى ،
واستفحال أمره (٢) .

(١) ابن عذارى في البيان المغرب (من الأوراق المخطوطة ، التي عثر بها المؤلف والتي سبقت
الإشارة إليها) ، وروض القرطاس ص ١٠٦ وكذلك : F. Codera: *ibid*; p. 237 & 238 .
(٢) الخلل الموشية ص ٦٤ ، ٧٤ .

الفصل الثالث

سقوط سرقسطة

سرقسطة وخواص موقعها . موقف أمرائها من الملوك النصارى . إستيلاء المرابطين عليها . أطاع قشتالة وأراجون نحوها . تربص ألفونسو ملك أراجون بها . ولاية الأسير أبي بكر بن ابراهيم لسرقسطة . حكمه اللامع ووفاته . ندب عبد الله بن مزدلي لولاية سرقسطة . أهبة أراجون وحلفاؤها من النصارى الصليبيين لافتتاحها . محاصرة النصارى لسرقسطة . اختلاف الروايات الإسلامية حول حوادث الحصار . رواية ابن عذارى عن القتال بين أهل سرقسطة والنصارى . عبد الله بن مزدلي ومدافعتهم للنصارى . صمود المدينة واستمرار الحصار . نضوب الموارد ووفاة ابن مزدلي . مقدم المرابطين بقيادة الأمير تميم . استغاثة أهل سرقسطة بالأمير وإحجامه . الرسالة التي وجهها قاضي سرقسطة إلى الأمير بالاستغاثة واللوم . ما تدلى به هذه الرسالة . بواعث إحجام المرابطين وعدم الاعتداد بها . اضطرار أهل سرقسطة إلى طلب الهدنة . الإتفاق على تسليم المدينة ، وشروط هذا التسليم . تسليم سرقسطة ، وتحويلها إلى مدينة نصرانية . هجرة أهلها المسلمين . الآثار المترتبة على سقوط سرقسطة . إستيلاء ألفونسو المحارب على طرسونة وقلعة أيوب . اهتمام علي بن يوسف بهذه الحوادث . سير الجيوش المرابطية لمقاتلة الأراجونيين . موقعة كتندة وهزيمة المسلمين . سقوط قلعة دروكة .

— ١ —

مضت ثلاثة وثلاثون عاما ، مذ سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وجاشت الأندلس بهزتها العنيفة ، التي تمخضت عن مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة نصرية لإخوانهم في الدين ، وإحرازهم لنصرهم الباهر في الزلافة (٤٧٩ هـ) . ثم استقرارهم بعد ذلك سادة في الأندلس . ثم شاء القدر ، بعد أن لمعت الجيوش المرابطية في غير موقعة وغزوة في أراضى اسبانيا النصرانية ، أن تفجع الأمة الأندلسية مرة أخرى ، بفقد قاعدة جديدة من قواعدها العظيمة ، هي سرقسطة قاعدة الشجر الأعلى .

كانت سرقسطة — وقد اشتق اسمها العربي من اسمها الروماني Caesar Augusta —

تمثل منذ عهد الإمارة ، زعامة الأسر العربية ، والرياسة المحلية ، في الشجر الأعلى ، واستمرت هذه الزعامة قائمة خلال القرن الخامس الهجري ، أولا في بني هاشم التجيبين ، ثم في خلفائهم بني هود ، حتى وضع مقدم المرابطين حداً

لحياة دول الطوائف ، وكانت سرقسطة حسبها تقدم من قبل ، آخر القواعد التي سقطت في أيديهم . وذلك في أواخر سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) .

وقد أشرنا من قبل إلى ما يمتاز به موقع سرقسطة الخاص من الناحيتين الإستراتيجية والقومية . فأما من الناحية الإستراتيجية ، فقد كان بُعد سرقسطة عن مؤسسة الأندلس ، ومركز الحكومة الرئيسية . وموقعها الحصين على الضفة اليسرى لنهر إيبرو (إبرة) ، ومناعة أسوارها العالية . تعاون المنزّين بها على تحدى الحكومة المركزية . وتوطيد استقلالهم المحلي . وكانت من جهة أخرى تجعلها حاجزاً طبيعياً بين أراضي المسلمين ، وأراضي النصارى . وأما من الناحية القومية ، فإن وقوع مملكة سرقسطة المسلمة بين الممالك النصرانية - بين إمارة برشلونة من الشرق ومملكة أراجون ونافار (نبرة) من الشمال ، ومملكة قشتالة من الغرب - كان يحتم عليها أن تتبع نحو جيرانها النصارى ، سياسة خاصة ، يغلب عليها طابع السلم والتهادن ، والملق والخضوع أحياناً في صورة أداء للجزية ، وذلك حتى تأمين شر أولئك الجيران الطامعين الأقوياء ، وكان ملوك سرقسطة فوق ذلك يستخدمون في جيوشهم كثيراً من النصارى المرتزقة ، ومن هؤلاء أحياناً قادة مبرزون مثل السيد الكمبيادور ، وأحياناً كانوا يعتمدون على التحالف مع الملوك النصارى . وهكذا كانت مملكة سرقسطة تُحمل بموقعها وظروفها الخاصة ، على اتباع سياسة ، تجعلها في شبه عزلة عن باقي الإمارات المسلمة . وقد كان هذا شأنها ، حينما قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وحينما بدأت جيوشهم تستولى تباعاً على قواعد الأندلس الوسطى ، ثم الشرقية . ودخل المرابطون مدينة سرقسطة حسبنا قدمنا ، في أواخر سنة ٥٠٣ هـ ، (١١١٠ م) ، استجابة لصريخ أهلها ، وكانت آخر القواعد الأندلسية التي استولوا عليها .

وشعر المرابطون منذ الساعة الأولى بهذا المركز الدقيق ، الذي تحتله سرقسطة في قلب هذا المعترك من الإمارات النصرانية المتوثبة ، وشعروا بفداحة مهمتهم في حمايتها والاحتفاظ بها . وكانت مملكة أراجون القوية جارة مملكة سرقسطة من الشمال قد استطاعت أن تنزع منها بعض قواعدها الشمالية الهامة مثل مونتشون ، والمنارة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولم يبق لسرقسطة من قواعدها ، سوى تطيلة ولاردة وإفراغة ، وثغرها على البحر المتوسط طرطوشة .

وكانت مدينة سرقسطة هدفاً لأطباع قشتالة وأراجون معاً . ففي صيف سنة ١٠٨٥ م (٤٧٨ هـ) حاصرها ألفونسو السادس ملك قشتالة على أثر استيلائه على طليطلة ، محاولاً الاستيلاء عليها ، ولم يرفع الحصار عنها إلا حينما وافته الأنباء بمقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، فغادرها على عجل ليجمع سائر قواته ، وليبقى هزيمته في الزلافة في شهر رجب ٤٧٩ (أكتوبر ١٠٨٦ م) . ولما رأى المستعين ابن هود ملك سرقسطة يومئذ ، اشتداد ضغط النصارى على مملكته ، ورأى من جهة أخرى انسياب الجيوش المرابطية إلى شرقي الأندلس ، واقترابها من الثغر الأعلى ، اعتزم أن يتقرب من المرابطين ، وأن ينضوي تحت لوأهم ، فبعث إلى أمير المسادين يوسف بن تاشفين سفارتين متواليتين ، وكان يوسف يرى أن تترك سرقسطة ، حاجزاً بين المرابطين والنصارى ، وبهذا أوصى ولده علياً قبيل وفاته ، واكن الحوادث تطورت فيما بعد ، وانتهت باستيلاء المرابطين على سرقسطة وباقي قواعد الثغر الأعلى .

- ٢ -

لما استقر المرابطون في سرقسطة تحت إمرة قائدهم محمد بن الحاج أول ولائها من اللمتونيين ، كانت حوادث الثغر الأعلى ، تنذر باقتراب الخطر الداهم ، وكان النصارى قد أنشأوا منذ سنة ١٠٩١ م (٤٨٤ هـ) على ضفة نهر إيبرو اليسرى شمال سرقسطة حصناً قوياً ، يقع على قيد أربعة فراسخ فقط منها ، واتخذوه قاعدة للضغط عليها ، وإرهاقها من آن لآخر ، وكان ألفونسو الأول ملك أراجون الملقب بالمحارب El Batallator ، والمسمى « ابن رذمير » في الرواية العربية ، يتربق الفرص لمهاجمة سرقسطة ، وسر غور المدافعين عنها ، وكانت قواته قد وصلت شرقاً حتى ظاهر لاردة ، واحتلت قلعة تاماريت القريبة منها وذلك في سنة ١١٠٧ م .

ولما احتل المرابطون سرقسطة ، سار إليها ألفونسو في العام التالي (٥٠٤ هـ - ١١١١ م) وحاول مهاجمتها ، فردته عنها القوات المرابطية بقيادة ابن الحاج ومحمد ابن عائشة والى مرسية . ثم شغل ألفونسو بعد ذلك حيناً بالحرب التي نشبت بينه وبين زوجته أورাকা ملكة قشتالة ، وانتهز المرابطون ، من جهة أخرى ، تلك الفرصة ، فقاموا ببعض الغزوات الخربة في أراضي إمارة برشلونة ، وحاصروا الثغر العظيم ذاته حسبما فصلنا ذلك من قبل . ولما قتل ابن الحاج حين عودته من

تلك الغزوة (٥٠٨ - ١١١٤ م) ، خلفه في ولاية سرقسطة الأمير أبو بكر بن ابراهيم بن تافلوت المستوفى والى مرسية ، وهو ابن عم أمير المسلمين علي بن يوسف وصهره - زوج أخته - فلبث في ولايتها زهاء عامين . وقد كان هذا الأمير من خيرة أمراء الدولة المرابطية ، كرمأوجوداً وشجاعة ، وظهوراً في ميدان الفضائل ، وقد أقام خلال عهده التصير بسرقسطة بلاطاً فخماً كبلات الملك ، واستوزر الفيلسوف الشهير أبا بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة ، وخاض حياة باذخة فخمة ، ومن حوله الأدباء والندماء ، وانهمك في اللذات والشراب ، وذلك كله بالرغم مما كانت تجوزه سرقسطة يومئذ من ظروف حرجة واحتمالات خطيرة . بيد أنه يبدو من إشارة لابن عذارى ، أنه سار في سنة ٥١٠ هـ ، إلى حصن روضة وغزاه ، وأنه غزا كذلك برجة وبها عماد الدولة بن هود ؛ ويبدو من إشارة أخرى لابن الخطيب ، أنه قد خاض خلال تلك الفترة مع النصارى ، بعض معارك دفاعية ، كان لهم فيها التفوق على القوات المرابطية . ويبدو من جهة أخرى أن ألفونسو ملك أراجون ، هو الذى كان يضطلع بهذه الغزوات المرهقة^(١) . ثم توفى الأمير أبو بكر سنة ٥١٠ هـ أو في سنة ٥١١ هـ ، على قول آخر^(٢) . ولما اتصل نبأ وفاته بالأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف ، أخى أمير المسلمين علي بن يوسف ، وهو يومئذ والى مرسية ، بادر بالسير إلى سرقسطة فنظر في شئونها ، وضبط أحوالها ، ولما اطمأن إلى توطيد أمورها عاد إلى مرسية مقر ولايته^(٣) .

وإنه لما يلفت النظر أنه لم يعين في تلك الآونة العصبية ، التي لاح فيها الخطر داهماً على سرقسطة ، وال جديد يخلف على الفور واليها المتوفى ، خصوصاً وقد كان أمير المسلمين علي بن يوسف موجوداً في تلك الفترة بالذات (٥١١ - ١١١٧ م) في شبه الجزيرة ، عقب جوازه الثالث إليها . وأعجب من ذلك هو أن علي بن يوسف ، بدلا من أن يتجه بجيوشه الحرارة العابرة معه ، إلى مواطن الخطر في الثغر الأعلى ، يؤثر أن يضطلع بغزوات عقيمة في أراضي البرتغال ، يستولى

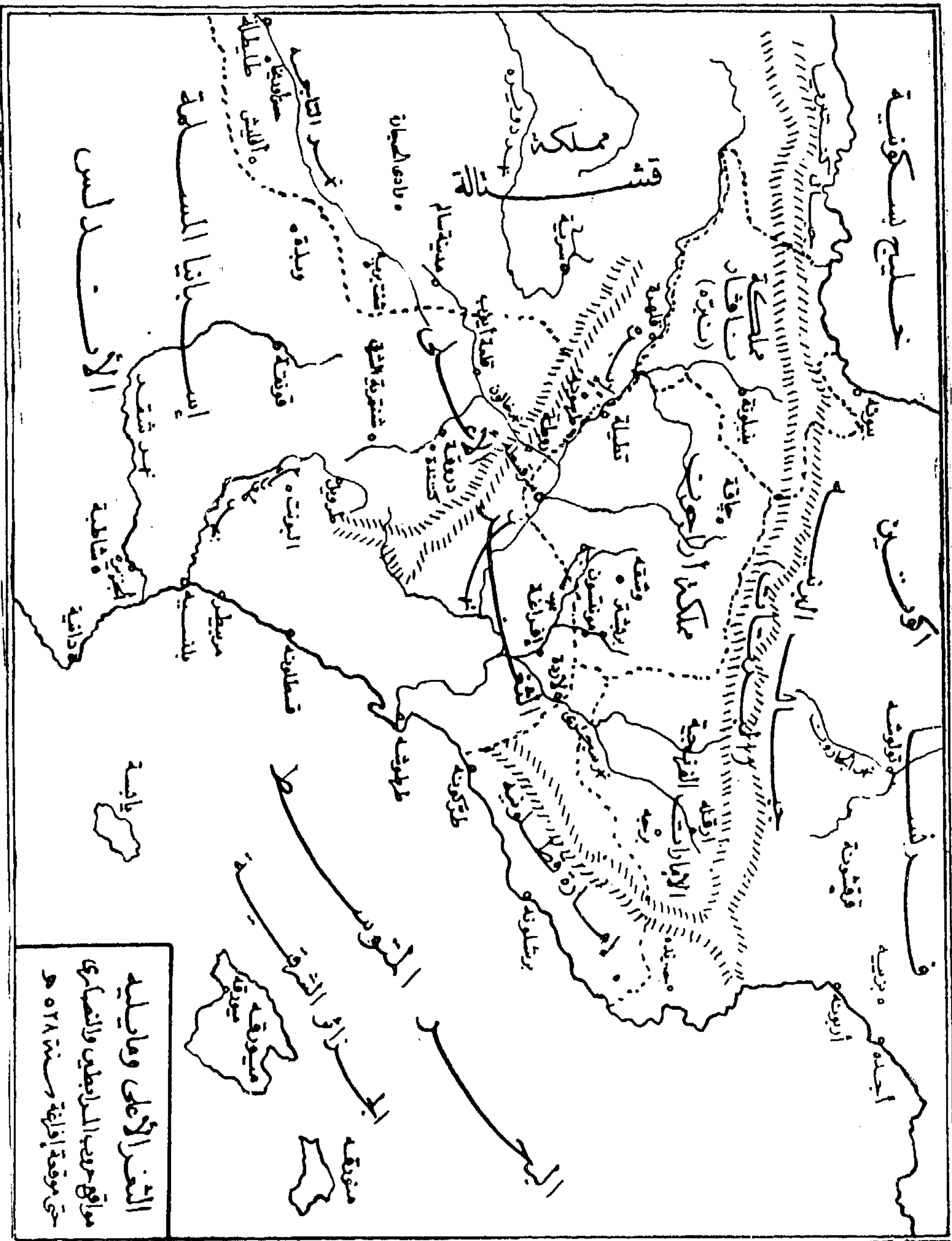
(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة ، هسبيرس ص ٧٨) ، والإحاطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٦ ، حيث يقول في ترجمة الأمير أبي بكر « توفى بسرقسطة في سنة عشر وخمسمائة ، بعد أن ضاق ذرعا بطاغية الروم ، الذى أناخ عليه بكلكله » .
(٢) يقول بالرواية الأولى ابن الخطيب (الهامش السابق) . ويقول بالثانية ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة التي عثر بها المؤلف في مكتبة جامع القرويين بفاس) .
(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

خلالها على مدينة قُلمرية ، ثم يتركها عقب افتتاحها . وعلى أى حال ، فإنه بعد أن لبثت سرقسطة حيناً دون وال ، نُدب عبد الله بن مزدلى والى غرناطة ليكون والياً لبلنسية وسرقسطة . وذلك فيما يبدو فى أواخر سنة ٥١١ هـ (أواخر ١١١٧ م) (١) .

وهنا يحيق الغموض بحركات النصارى وحركات والى سرقسطة الجديد . ذلك أنه من المسلم به ، ومن المتفق عليه فى الروايتين العربية والإفريقية ، أن حصار النصارى لسرقسطة بدأ فى شهر صفر سنة ٥١٢ هـ ، الموافق لشهر مايو سنة ١١١٨ م . ونقول هنا حصار النصارى بصفة عامة ، لأن الجيش المحاصر لم يكن مكوناً فقط من الأرجونيين . أعداء سرقسطة الأصليين ، بل كان يضم طوائف عديدة أخرى من الفرنج . والواقع أننا نجد أنفسنا فى هذا الموطن أمام حملة صليبية حقيقية . ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه ملك أراجون ألفونسو المحارب ، يوالى الضغط على سرقسطة ، ويُجدد فى انتزاع حصونها الأمامية حتى أنه استولى على تطيلة فى سنة ١١١٧ م ، ووصل فى أوائل سنة ١١١٨ إلى موريللا القريبة منها ، كان صدى دعواته وحركاته ضد المسلمين يعمل عمله فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، وكانت الحرب الصليبية الأولى ، قد انتهت قبل ذلك بعشرين عاماً فى الشرق باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس (١٠٩٩ م) وازدادت الروح الصليبية اضطراباً ، فى فرنسا وفى اسبانيا . فى سنة ١١١٧ م . عبرت حملة قوية من الفرنج أهل بيارن بقيادة جاستون دى بيارن وأخيه سانتولو - وكانا قد اشتركا بالمشرق فى الحرب الصليبية الأولى - ، إلى اسبانيا ، لتشارك مع الأرجونيين فى افتتاح سرقسطة . وفى العام التالى (١١١٨ م) عمد بمدينة تولوز (تولوشة) مؤتمر من أساقفة آرل ، وأوش ، ولاسكار ، وبنبلونة ، وبيشتر ، وتقرر فيه أن ترسل حملة صليبية أخرى إلى اسبانيا يقودها الكونت دى تولوز ، وحشدت فوق ذلك قوات كبيرة من البشكنس ، ومن قطلونية ، ومن أورقلة تحت إمرة سادة هذه المناطق ، وكان بين المقاتلين كثير من الأساقفة ورجال الدين (٢) . وتنوه الرواية الإسلامية بضخامة هذه الحملات الفرنجية التى اشتركت فى حصار سرقسطة وافتتاحها ، وتصنفها إحدى الروايات بأنها كانت أهمما كالثمل والجراد ، أو أنها أقبلت فى عدد لا يحصى أكثره من

(١) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٢) يراجع فى ذلك مقال عن افتتاح سرقسطة بقلم الأستاذ J. Maria Lacarra نشر بمجلة



من الحند والرماة^(١) ، . وفي رواية أخرى أن الفرنج بلغوا خمسين ألف فارس^(٢) .

وهكذا اجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة من الأرجونيين والفرنج ، وسارت لافتتاح سرقسطة ، وفي بعض الروايات أن الذي بدأ بالحصار هو الجيش الفرنجي الذي يقوده جاستون دي بيارن ، وأن ألفونسو المحارب قدم بعد ذلك في قواته من قشتالة^(٣) . وبدأ حصار سرقسطة وفقاً للرواية الإسلامية : في مستهل شهر صفر سنة ٥١٢ هـ^(٤) ، ويوافق ذلك يوم ٢٢ مايو سنة ١١١٨ ، وهو التاريخ الذي تضعه الرواية الفرنجية . وهنا يبدأ الغموض في تعقب حوادث الحصار ، ونجد أنفسنا أمام طائفة من الروايات المتناقضة ، فهناك أولاً القول بأن سرقسطة انتهت بعد حصار دام أشهراً ، أودام بالتحديد تسعة أشهر ، بالتسليم صلحاً . وهذه رواية ابن الكردبوس في « الإكتفا » وابن عبد المنعم الحميري في الروض المعطار^(٥) . بيد أن هذه رواية ضعيفة أو بعبارة أخرى رواية ناقصة . وأما الروايات الأخرى وهي عديدة ، عربية وإفريقية ، فإنها تتفق في أنه وقعت خلال الحصار معارك عديدة بين المسلمين والنصارى ، وأن سرقسطة لم تسلم صلحاً ، وإنما أرغمت على التسليم إرغاماً ، بعد أن برحت بأهلها أهوال الحصار ، وبعد أن هزم أهلها في غير معركة ، وهزم المرابطون الذين تصدوا للدفاع عنها .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية تفاصيل مختلفة عن حوادث الحصار ، والمعارك التي سبقته أو اقترنت به ، فيقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن عبد الله بن مزدلي لما ولي سرقسطة في سنة ٥١١ هـ ، سار إليها من غرناطة ، فوجد ابن رزمير قد أذاق أهلها شراً ، فاشتبك معه عبد الله في عدة معارك شديدة حتى هزمه ، وأخرجه عن البلدة ، ولبث عبد الله بعد ذلك عاماً آخر في سرقسطة ثم توفي ، فبقيت دون أمير « فاتها ابن رزمير فنزلها ، وأنى ألفنش أيضاً في أمم لا تحصى من قبائل الروم ، فنزل لاردة من بلاد الجوف ، فاتصل الخبر بأمر المسلمين على

(١) روض القرطاس ١٠٦ ، والبيان المغرب (من الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

(٢) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٩٨ .

(٣) مقال الأستاذ لاكارا السالف الذكر ص ٨٠ .

(٤) ابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

(٥) ابن الكردبوس (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٤ ب) والروض

المعطار ص ٩٧ و ٩٨ .

ابن يوسف ، ، فكتب إلى أمراء الأندلس بالمسير إلى أخيه تميم ، وكان والياً على شرق الأندلس ، ليسروا معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة ، فقدم على تميم . عبد الله بن مزدلي ، وأبو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، بعساكرهما ، فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع أمراء لمتونة ، فقصده نحو لاردة ، وكان بينه وبين ألفنش قتال عظيم ، أقبله عن لاردة خاسئاً حاسراً بعد أن بذل جهده في قتالها ، وفقد عليها من جيوشه ما يزيد على العشرة آلاف رجل ، ورجع تميم إلى بلنسية « (١) .

وربما كانت رواية ابن عذارى أكثر وضوحاً واتساقاً . فهو يقول لنا إنه في سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ولتى أمير المسلمين على بن يوسف أخاه الأمير أبا الطاهر تميمياً إمرة بلاد شرقي الأندلس لما ضيق العدو عليها ، وأعمل عزمه وحزمه إليها ، وذلك أنه لما رأى « أذفونش » ضعف سرقسطة ، وتفرق الجيش عنها ، بعد موت الأمير أبي بكر بن إبراهيم ، جد في الحشد إليها واستجاش للإفرنجية ؛ فأقبلت في عدد لا تحصى ، أكثرهم جند ورماة ، فاحتل سرقسطة مستهل صفر من هذه السنة (٥١٢ هـ) فخرج المسلمون إليهم ، وشبت الحرب بينهم ، فحمل الروم عليهم ، فانهزم الناس ، وهم في أثرهم إلى ربض الدباغين ، إلى القنطرة ، فازدهموا بها ، وقد حصل الروم معهم فيها . فبادر المسلمون بإلقاء النار عليها ، فاحترقت القنطرة إلى أقصاها ، ولولا المناجزة بين الربض والمدينة لكانت الخالقة ، وبات الناس على الأسلحة ، وخمسوا أبواب المدينة ، واتصل الحصار وتواترت الحرب . وكان أذفونش قد تخلف عن .. فلحق بعد نصف شهر ، فتعاصد العدو ، وقد أمد ، وزاد كلبه واشتد ، ولنحو الشهر تغلبوا على قصر . . . بالجعفرية ، وهو قبيل ميل من سرقسطة ، وكان عبد الله بن مزدلي أوان نزول الروم على سرقسطة بالعسكر ، على جيان لحماية ذلك الثغر عن عدو طليطلة .

ويزيد ابن عذارى على ذلك ، أنه لما توالى تضيق العدو على سرقسطة وحصارها وهزيمة أهلها ، وتحريق قنطرتها ، ونزول العدو على قصرها المعروف بالجعفرية ، اتصل الخبر بعبد الله بن مزدلي ، فسار الجيش إليها ولحق به مدد من جيش قرطبة ، فتمويت نفوس أهل سرقسطة ، ولحق الجيش بطرسونة ،

(١) روض القمطران ص ١٠٥ و ١٠٦ ، ويلاحظ ما في هذه الرواية من تناقض أولاً في القول بموت عبد الله مزدلي ثم مشوله ثانية للقتال مع الأمير تميم ، وثانياً في التفرقة بين ابن رذمير وألفنش وابن رذمير هو ألفونسو الخارب ، وهما شخص واحد .

وقد شد العدو غارته عليها ، فجد في اتباعه وأدركه غير بعيد ، فهزم الله العدو ، وأظهر على يد عبد الله بن مزدلي عجائب في هذه الغزوة لم يعهد مثلها ، منذ مدة بعيدة قبلها . ثم احتل بتطيلة ، وتلوم بها ، وأقلع الفرنج عن سرقسطة ، فرأى الأمير عبد الله بعد تلومه أن ينهض إليها ، فترك الحملة ومدد قرطبة ، وانتخب أنجاد العسكر ، وصمم إلى سرقسطة ، فدخلها في أوائل جمادى الآخرة ، وقد استنشق أهلها ريح الحرب . وفي خلال ذلك اعتل الأمير عبد الله المذكور ، فتوفى في رجب ، فكم وفاته أياما ، ثم انبث الخبر وعلم به رذمير ، ففغر على البلد فمه ، وأتى عليه زوره ، وقد نفذت الأقوات ، وبلغ الميقات ، فدخله بالمعاهدة والأمنة في يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان المعظم من السنة المؤرخة (أغنى ٥١٢ هـ) (١) .

وعلى أي حال ، فإنه بالرغم مما يوجد بين الروايتين من اختلاف في الوقائع والتفاصيل ، يمكننا أن نستخلص منهما حقيقتين هامتين : الأولى أنه وقعت قبل حصار سرقسطة ، أو خلال الحصار ، معارك شديدة بين المسلمين والنصارى ، والثانية هو أن عبد الله بن مزدلي ، آخر ولاية سرقسطة المسلمين ، قد اشترك بقواته في هذه المعارك وأبلى فيها . وثمة مسألة أخرى ، ينفرد بها صاحب روض القرطاس ، وهي أن القوات المرابطية المشتركة ، سارت لاستنقاد سرقسطة بقيادة الأمير أنى الطاهر تميم ، واشتبكت عند لاردة في موقعة شديدة مع ألفونسو المحارب ، وأنزلت به هزيمة ساحقة ، وأن تمما عاد على أثر ذلك إلى مقر ولايته في بلنسية ، وهذه مسألة سوف نعود إلى مناقشتها .

بدأ حصار سرقسطة حسبنا قدمنا ، في مستهل شهر صفر سنة ٥١٢ هـ (٢٢ مايو سنة ١١١٨ م) ، وطوقها قوات كثيفة من الفرنج والأرجونيين ، والبشكنس والقطلان وغيرهم . وكانت سرقسطة ، فضلا عن حصانها الطبيعية بموقعها جنوبي نهر إيبرو على ضفته اليسرى ، تعتمد في الدفاع على أسوارها العالية القوية . وهي ترجع إلى أصل روماني . وعلى قلعتها المنيعة ، وكان قصرها الشهير المسمى بالجعفرية ، نسبة إلى مؤسسه أنى جعفر المقتدر بن هود ، يقع خارج الأسوار ، غربى سرقسطة على قيد نحو ميل منها ، وعلى مقربة من النهر ، ومن ثم فقد احتله

(١) البيان المغرب من الأوراق المخطوطة التي عثر بها المؤلف في مكتبة جامع القرويين بفاس .

النصارى لأول مقدمهم . وجاء المخاصرون معهم بأبراج خشبية عالية تجرى على بكرات لكي يستطيع المهاجمون بها محاذاة الأسوار العالية ، لينصبوا فوقها الرعدات ، وجاءوا كذلك بعشرين منجنيقاً ضخمةً لذلك الأسوار^(١) ، وكان الذي يشرف على آلات الحصار واستعمالها ، طائفة من أهل بيارن ممن اشتركوا في حصار بيت المقدس ، وتمرسوا في استعمال هذه الآلات .

واستمر حصار سرقسطة سبعة أشهر . والظاهر أنه استطال أكثر مما قدر ألفونسو المحارب وحلفاؤه . ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه أهل سرقسطة ، يعانون ويلات الحصار داخل الأسوار . كان المعسكر النصراني منذ مقدم الحريف ، يعاني من نقص المؤن . ويهدده الجوع بشبحه المروع ، حتى لقد فكر قادة الجيش النصراني في رفع الحصار ، لولا أن شجعهم أسقف وشقة وزملاؤه ، ووضعوا تحت تصرفهم ذخائر عدة من الكنائس يجلبون بثمنها الأقوات^(٢) . أما في داخل سرقسطة . فقد كانت الأقوات تنضب يوماً بعد يوم ، خصوصاً وأن أهل المدينة المحصورة لم يتمكنوا من جني محاصيلهم لتبكير النصارى في فرض الحصار ، وكان من العسير عليهم أن يتلقوا أية مؤن من الخارج ، لإحكام الحصار حول المدينة ، من ناحية النهر وناحية البر . ومضت الأشهر تباعاً والحال تشتد شيئاً فشيئاً ، حتى « فنيت الأقوات ، وفنى أكثر الناس جوعاً »^(٣) . ووقع خلال ذلك حادث زاد في وجرم أهل المدينة ، وارتباك تدابير الدفاع ، هو وفاة واليها عبد الله بن مزدلي ، في أوائل جمادى الآخرة (سبتمبر ١١١٨ م) . والظاهر أنه لم يخلفه في الرياسة أحد من أهل المدينة ، فترك الأمر فوضى وأخذت الخاتمة المروعة تدنو شيئاً فشيئاً .

وهنا وقبل أن نتحدث عن خاتمة سرقسطة الإسلامية ، يحق لنا أن نتساءل أولاً ، ما الذي حدث خلال الحصار من الحوادث والوقائع ؟ وهل نشبت بين المسلمين والنصارى عندئذ بعض المعارك ؟ ثم ماذا كان موقف المرابطين ، وهل حاولوا إنتقاذ المدينة المحصورة ؟ وفي أي الظروف ؟

فأما ما وقع خلال هذه المرحلة الأخيرة من الحصار من الحوادث والوقائع ، فإن معظم الروايات الإسلامية تلتزم الصمت إزاء ذلك . بيد أنها في موطن واحد

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) الأستاذ Lacaria في مقاله السالف الذكر بمجلة الأندلس والمراجع .

(٣) روض القرطاس ص ١٠٦ .

تذكر لنا ما يؤيد هذه الحقيقة الهامة . وهي أن جيشاً مرابطياً بقيادة الأمير
أبي الطاهر تميم - وقد كان عندئذ حسبها تقدم والياً لشرقي الأندلس - وصل في
أواخر أيام الحصار (نحو منتصف شهر شعبان الموافق شهر ديسمبر) إلى مقربة من
سرقسطة ، وذلك فيما يرجح يقصد محاولة إنقاذها ، فخرج إلى الأمير تميم زعيان
من زعماء المدينة . هما الفقيه علي بن مسعود بن إسحق بن إبراهيم بن عصام الخولاني
وهو من أكابر علماء سرقسطة وحفاظها وأدبائها ، وكان متولياً قضاء ميورقة ،
والخطيب أبو زيد بن منتيال . وحدثاه باسم أهلها بمحضر أبي الغمر الشايب بن
غرون . عن أهبات النصارى . ووجوب مناجزة العدو . ولكن الأمير تميم
« جبن عن ذلك » وكان انتقاله بالحيوش عن سرقسطة ، حسبها يقول ابن الأبار
صاحب هذه الرواية . سبياً في نجاح النصارى في الاستيلاء على المدينة (١) .

بيد أن إحدى الروايات النصرانية ، تقول لنا بالعكس إنه قد وقعت في يوم
٦ ديسمبر سنة ١١١٨ معركة عنيفة بين قوات ألفونسو المحارب . وجيش قوى
من المرابطين انتهت بظفر النصارى ، ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى سلمت
المدينة . وذلك بعد أن انتهت المهلة الممنوحة للمحصورين (٢) .

على أنه توجد وثيقة مخطوطة هامة تؤيد ما جاء في الرواية الأولى وتؤكد ،
وهذه الوثيقة هي عبارة عن رسالة مؤثرة ، بل مبكية ، كتبها قاضي سرقسطة ثابت
ابن عبد الله ، وجماعة من أهلها إلى الأمير تميم يتضرعون إليه ، في عبارات مؤثرة ،
ولكن أبيه حازمة باسم الدين والوطن ، أن يتقدم لإنقاذ سرقسطة وإنقاذ أهلها .
والأولى ينكص على عقبه أمام النصارى ، وقد استهلت هذه الرسالة بالتاريخ الذي
كتبت فيه ، وهو يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان (٥١٢ هـ) . أعني لسته أشهر
ونصف من بدء الحصار ، وقبل تسليم المدينة بثمانية عشر يوماً فقط ، وفيها يصف
الكاتب ما عاناه أهل سرقسطة من أهوال الحصار والجوع . ثم يشير إلى مقدم
الأمير تميم بعساكره ، ويلومه على إحجامه عن لقاء النصارى في قوله :

(١) وردت هذه الرواية خلال ترجمة ابن الأبار للفقيه علي بن مسعود الخولاني . وقد نشرت
مع تراجم أخرى ملحقاً لتراجم « التكملة » وذلك في كتاب المشتشرقين الإيبانيين G. Palencia.
M. Alarcón, تحت عنوان (Madrid 1916) p.205 Misalanea de Estudios y Textos Arabes
وعرنا على نفس هذه الترجمة أيضاً في كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (المخطوط
المصور المحفوظ بالحزارة العامة بالرباط) الجزء الأول .
(٢) أوردها الأستاذ Lacarra في مقاله السالف الذكر .

« وما كان إلا أن وصلت ، وصل الله برك بتقواه ، على مقربة من هذه الحضرة ، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصر ، بتلك العساكر التي أقر العيون بهاؤها ، وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما اثنت وما انتهت ، وارعويت وما أدنيت ، خائياً عن اللقاء ، ناكصاً على عقبيك عن الأعداء ، فما أوليتنا غناء ، بل زدتنا بلاء ، وعلى الداء داء ، بل أدواء ، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء ، بل أذلت الإسلام والمسلمين ، واجترأت فضيحة الدنيا والدين . فيالله وبالإسلام ، لقد اهتضم حومه وحماه أشد الاهتضام ، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام ، ونكصت عن لقاء عدوه ، وهو في فئة قليلة ، ولمة رذيلة ، وطايفة قليلة . »

ثم يشير الكاتب بعد ذلك إلى أهمية سر قسطة الدفاعية وعواقب سقوطها الوخيمة على مركز المرابطين في شبه الجزيرة في قوله :

« فما هذا الحبن والفرع ، وما هذا الملعع والجزع ، بل ما هذا العار والضيع ، أتحسبون يا معشر المرابطين وإخواننا في ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سر قسطة القدر ، بما يتوقع من المكروه والحذر ، أنكم تبلغون بعدها ريقاً ، وتجدون في سائر بلاد الأندلس عصمها الله مسلكاً من النجاة أو طريقاً - كلا والله ليسو منكم الكفار عنها جلاء وفراراً ، وليخرجنكم منها داراً فداراً ، فسر قسطة حرسها الله هي السد الذي إن فتق ، فتقت بعده أسداد ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله ، استبيحت له أقطار وبلاد ، فالآن أيها الأمير الأجل ، هذه أبواب الحنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالمنية ولا الدنية ، والنار ولا العار ، فأين النفوس الأبية ، وأين الأنفة والحمية ، وأين الهمم المرابطية ، فلتقدح عن زنادها ، بانتضاء حدها ، وامتضاء جدها ، واجتهادها ، وملاقة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون . »

ويتوجه الكاتب في ختام رسالته ، بالضراعة إلى الأمير أن يقبل على سر قسطة ، وألا يتأخر قبل وقوع الكارثة فيقول :

« ولن يسعك عند الله ، ولا عند مؤمن ، عذر في التأخر والارعواء من مناجزة الكفار والأعداء . وكتابتنا هذا أيها الأمير الأجل ، اغتذار تقوم لنا به الحججة في جميع البلاد ، وعند سائر العباد ، في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والإلحاد ، ونحن مؤمنون ، بل موقنون أجابتك إلى نصرتنا ، وإعدادك إلى الدفاع عن

حضرتنا ، وأنتك لا تتأخر عن تلبية نداينا ، ودعائنا إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا . . فأقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة ، عصمها الله ، ليخرج الجميع عنها ، ويرأ إلى العدو وقمه الله منها ، ولا تتأخر كيفما كان طرفة عين ، فالأمر أضيقت ، والحال أزهق ، فعدبنا عن المطل والتسويق قبل وقوع المكروه والخوف ، وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمستولون عن صبيتنا وأطفالنا ، لإحجامكم عن أعدائنا وتشبثكم عن إجابة نداينا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير الأجل عنها ، فإنها تحملك من العار ما لم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الخزي أبداً . . ومهمي تأخرتم عن نصرتنا ، فالله ولي الثأر لنا منكم ، ورب الانتقام ، وقد برئتم بإسلامنا للأعداء من نصر الإسلام ، وعند الله لنا لطف خفي ، ومن رحمته ينزل الصنع الخفي ، ويغنيننا الله عنكم وهو الحميد المغني^(١)

كتبت هذه الرسالة المؤثرة قبيل سقوط سرقسطة بفترة يسيرة ، وإنه لتبدو من تلك الفقرات التي نقلناها منها ، حقيقة لاشك فيها ، وهي أن جيشاً مرابطياً بقيادة الأمير أبي الطاهر تميم ، قدم إلى سرقسطة قبيل سقوطها لاستنقاذها من أيدي النصاري ، وعسكر على مقربة منها ، وتقول إحدى الروايات النصرانية ، إن هذا الجيش قد وصل إلى حصن سانتا ماريا الواقع على بعد ثمانية عشر كيلومتراً من سرقسطة^(٢) ولكن ما الذي فعل هذا الجيش بالضبط ؟ وهل بذل أية محاولة جديدة لاستنقاذ سرقسطة والدخول مع النصاري في معركة حاسمة ؟ إنه مع استثناء الرواية النصرانية التي أشرنا إليها من قبل ، والتي تقول بأن معركة عنيفة وقعت بين

(١) نشرنا هذه الرسالة بأكملها في باب الوثائق . وقد نقلناها عن مخطوط الإسكوريال رقم ٤٨٨ الغزيري ، لوحة ١٥٩ إلى ٦١ ب . هذا وقد نشر هذه الرسالة وانتفع بها من قبل صديق الدكتور حسين مؤنس في بحث عنوانه « الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين » (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة - المجلد الحادي عشر الجزء الثاني ديسمبر سنة ١٩٤٩) . بيد أنه ذهب في التمهيد إليها (ص ١٣٣) إلى نتيجة نحسب أنها لا يمكن أن تدل بها ، فذكر أنها بالمقارنة بالوثيقتين الأخيرتين المنشورتين بعدها ، قد كتبت في سنة ٥٢٣ هـ أعني بعد سقوط سرقسطة بإحدى عشر عاماً . هذا في حين أن نص الرسالة وفقراتها المتوالية تدل قطعاً بأنها كتبت وقت حصار سرقسطة وقبيل سقوطها بقليل ، في شهر شعبان سنة ٥١٢ هـ ، ومن الواضح أنها دعوة يائسة موجهة إلى قائد المرابطين يومئذ الأمير أبي الطاهر تميم ، بأن يتقدم بجنده ، وقد كان على مقربة من سرقسطة ، لإنقاذ المدينة المحصورة وإنقاذها قبل فوات الوقت وأقطع دليل على صحة هذا الرأي فضلاً عن نص الرسالة ذاته ، هو أن الأمير أبا الطاهر تميم قد توفي بقرطبة في سنة ٥٢٠ هـ (روض القرطاس ص ١٠٦) .

(٢) مقال الأستاذ Lacarra السالف الذكر ، نقلنا عن المؤرخ Zurita

المرابطين والنصارى ، هزم فيها المرابطون ، ثم سلمت المدينة على أثر ذلك ، يبدو مما جاء في هذه الرسالة ، أن الجيش المرابطى التزم الجمود والإحجام ، ولم يبذل أية محاولة لإنقاذ المدينة ، ثم ارتد بعد ذلك على أعقابيه ، وهذا ما يؤيده رواية ابن الأبار التى سبقت الإشارة إليها . ثم يؤيده أيضاً مع اختلاف فى تصوير الوقائع ، ما ورد فى روض القرطاس ، من أنه بعد سقوط سرقسطة ، وصل من العدو جيش من عشرة آلاف فارس ، بعثة أمير المسلمين على لاستنقاذها ، فوجدها قد فرغ منها وملكها العدو ، ونفذ حكم الله فيها^(١) .

وإنه ليحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن البواعث التى حملت قائد الجيش المرابطى الأمير أبا الطاهر تميمًا ، على اتخاذ هذا الموقف السلبي ، فى مثل هذه الآونة العصيبة من حياة المدينة المسلمة العظيمة ، وحملت الجيش المرابطى على الإحجام عن لقاء العدو فى محاولة يائسة لإنقاذها . فأما من الناحية العسكرية ، فإنه يمكن أن يقال إن ذلك قد يرجع إلى تفوق النصارى فى الكثرة على الجيش المرابطى ، تفوقاً خشى معه الأمير تميم أن يدخل فى معركة غير مأمونة العواقب . وتميم لم يكن من أكابر القادة المرابطين ، وإنما كان يقود الجيش بصفته الأميرية ، ولم يكن انتصاره ، فى موقعة أقليمش راجعاً إلى مقدرته وصفاته الخاصة ، وإنما كان راجعاً بالأخص إلى شجاعة قائديه المحربين محمد بن عائشة ، ومحمد بن فاطمة ، ولولاهما لما اشتبك فى المعركة ولأثر الارتداد . وكان الجيش المرابطى قد فقد إلى ذلك الحين معظم قادته العظام ، أمثال سير بن أبى بكر ، ومزدلى ، وعبد الله بن فاطمة ، ومحمد بن الحاج ، ويمكن أن يقال أيضاً إن موقع سرقسطة بعيداً عن مراكز تموين الجيش المرابطى وإمداده فى بلنسية ومرسية وقرطبة ، لم يكن مما يشجع على القيام بأية محاولة عسكرية خطيرة .

على أن هذه الأعداء العسكرية وأمثالها ، لم تكن تكفى لتبرير موقف الجيش المرابطى ، وإحجامه عن القيام بعمل إنقاذ مشرف ، واتقائه بذلك صدع هيئته فى أنحاء شبه الجزيرة ، ولوم التاريخ والأجيال . وإنما قد ترجع البواعث الحقيقية لتقاعس المرابطين عن المغامرة بإنقاذ سرقسطة ، إلى أنهم كانوا يشعرون بأن الاحتفاظ بهذه المنطقة النائية من شبه الجزيرة - منطقة الثغر الأعلى - كان يلقى

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

عليهم مسئوليات عظيمة ، لوقوعها بين أعداء أقوياء يتربصون بها باستمرار ، وأن سرقسطة لم تكن بظروفها وروح شعبها كثيرة الولاء لحكمهم ، ومن ثم فإن المرابطين لم يعنوا فيما يبدو ، بأن يتجشموا في سبيل إنقاذها تضحيات عسكرية عظيمة .

وهكذا تركت سرقسطة لمصيرها ، واضطرت بعد أن عانت من أهوال الحصار ، وعصف الجوع والحرمان والمرص ، أشنع الخطوب والحن ، وبعد أن يئس أهلها من إجابة صريخهم ، وتلقى الإنجاد من أى مكان ، أن تخاطب ألفونسو (ابن رذمير) أن يمنح أهلها هدنة مؤقتة (لم تعين لنا الرواية مدتها) ، فإذا لم يأتهم الإنجاد المنشود ، سلمت إليه المدينة ، وتعاهد الفريقان على ذلك ، ثم مضى هذا الأجل دون أن يتلقى المحصورون أية معونة ، فاضطرت المدينة إلى التسليم (١) .
وتلخص الرواية العربية الوحيدة - وهي رواية ابن الكردبوس - شروط هذا التسليم فيما يلي :

أن تسلم سرقسطة إلى ملك أراجون (ابن رذمير) ، ومن أحب المقام بها من أهلها فاه ذلك ، على أن يؤدي جزية خاصة ، ومن أحب أن يرحل إلى حيث شاء من بلاد المسلمين ، رحل وله الأمان التام ، وعلى أن يسكن الروم (الأرجونيون والفرنج) المدينة ، والمسلمون ربض الدباغين ، وعلى أن كل أسير يفلت للروم من المدينة ويحصل عند الإسلام ، فلا سبيل لمالكه إليه ولا اعتراض له عليه .

وقد كان ربض الدباغين من أحياء سرقسطة المتطرفة ، ويقع على ضفة النهر اليمنى ، حسبما يبدو ذلك من أقوال ابن عذارى التي تقدم ذكرها . وكانت سياسة الملوك النصارى ، فيما يتعلق بمن يبقى من السكان المسلمين في المدن المفتوحة ، هو أن يسمح لهم بالبقاء في منازلهم داخل المدينة لمدة سنة أو نحوها ، ثم يازمون بعد ذلك بالانتقال إلى الأرباض ، وهي الأحياء المتطرفة أو الضواحي ، وقد منح سكان سرقسطة وفقاً للرواية النصرانية هذا الامتياز بالبقاء في أحيائهم داخل المدينة مدى عام ، ينتقلون بعده إلى ربض الدباغين ، وغيره من الأرباض الخارجية ، وهذا هو ما اتبع فيما بعد في عهود تطيلة وطرطوشة وغيرهما من قواعد الثغر المفتوحة .
ويضيف ابن الكردبوس إلى ما تقدم ، أنه ما كاد ملك النصارى يستقر بالمدينة ، حتى غادرتها كثرة أهلها المسلمين ، وأنه لما شهد جموعهم الزاخرة ركب بنفسه إليهم ، وأمرهم أن يبرزوا جميع ما لديهم ، فأبرز الفارون أموالاً لا تحصى ، ولكنه

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

بعد أن رأها سمح لهم بالاحتفاظ بها ، وتركهم يسرون إلى حيث شاءوا في أمان ،
ووجه معهم من رجاله من يشيعهم إلى داخل أعماله ، ولم يأخذ منهم سوى مثقال
واحد عن كل أحد من الرجال والنساء والأطفال (١) .

وتضع الرواية الإسلامية تاريخ تسليم سرقسطة في يوم الأربعاء الثالث من
شهر رمضان سنة ٥١٢ هـ : وهو يوافق ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨ م (٢) ، وتضع
الرواية النصرانية هذا التاريخ في يوم ١١ ديسمبر ، أو في ١٨ ديسمبر (٣) . ودخل
ألفونسو الأرجوني وحلفاؤه المدينة ، بعد أن قطع لأهلها المسلمين العهود
المذكورة ، وسمح لهم مدى فترة قصيرة باستبقاء قاضيهم ابن حفصيل ، وبالاحتكام
إلى شريعتهم . ولكن مسجد سرقسطة الجامع ، حول منذ السادس من يناير سنة
١١١٩ م إلى كنيسة سلمها ألفونسو المحارب إلى الرهبان البرناردين ، وسميت
كنيسة لاسيو La Seo أي الكنيسة العظمى . وفي رواية أخرى أن مسجد سرقسطة
الجامع لم يحول إلى كنيسة إلا بعد ذلك بثلاثة أعوام في أكتوبر سنة ١١٢١ م ،
وأنه حول عندئذ إلى كنيسة سميت باسم « سان سالبادور » San Salvador (٤) ،
وجعلت سرقسطة عاصمة مملكة أراجون ، وجعل منها مركز لأسقفية ، ومنح
سكانها النصراني امتيازات الأشراف ، وعين الكونت جاستون دي بيارن
« سيدا » للمدينة المفتوحة في ظل ألفونسو ، وأقطع الحى الذى كان يقطنه النصراني
المعاهدون ، وعهد إليه بالإشراف على توزيع الغنائم على الجند الفاتحين ، وكوفئ
سائر الفرسان الذين عاونوا في الفتح (٥) .

وهكذا سقطت سرقسطة ، بعد أن حكمها المسلمون منذ الفتح أكثر من
أربعة قرون ، وبعد أن لعبت في تاريخ الثغر الأعلى الأندلسي ، أعظم دور ،
سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو الحضارية .

ولما سقطت الحاضرة الإسلامية ، ودخلها النصراني ، غادرها معظم أعيانها

(١) ابن الكردبوس في كتاب « الاكتفاء » (مخطوط أكاديمية التاريخ لوحة ١٦٤) .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٢٥ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السابقة

الذكر) . وذكر المقرئ أنه كان في يوم الأربعاء الرابع من رمضان (نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٥) .

(٣) راجع مقال الأستاذ Lacarra السالف الذكر حيث يشير إلى الروايات النصرانية .

(٤) مقال الأستاذ Lacarra السالف الذكر .

(٥) M. Lafuente: ibid; V. III. p. 238 . وكذلك « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين

والموحدين » ترجمة محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية ، ص ١٤٥ .

وأكبرها المسلمين ، من الحكام والعلماء والقضاة وغيرهم ، على نحو ما وقع عند سقوط طليطلة . ويقول لنا ابن الكردبوس ، إن من غادرها من أهلها عند دخول النصارى بلغ خمسين ألفاً ، بيد أنه يبدو هذا العدد مبالغ فيه . ولما رأى ملك أراجون كثرة المهاجرين من المسلمين فيما بعد ، وخشى أن ينهار عمران المدينة ، أصدر أمره بمنع هجرة المسلمين إلا بإذن خاص ، وكان المهاجرون يقصدون بالأخص بلنسية ، وقواعد شرقي الأندلس .

وكان سقوط سرقسطة ، بعد سقوط طليطلة ، ضربة جديدة قاصمة للأندلس ، وكان نذيراً بسقوط باقي قواعد الثغر الأعلى في يد مملكة أراجون ، التي لم تكن منذ ربع قرن تشغل سوى رقعة صغيرة في شمالي مملكة سرقسطة ، ثم أخذت تنمو بسرعة على حساب المملكة الإسلامية ، ثم كان نذيراً في نفس الوقت بتصعد الجبهة الدفاعية في شمالي شرقي الأندلس ، وهي التي كانت سرقسطة معقدها المنيع ، ومن ذلك الحين تواجه منطقة بلنسية ، خطر العدوان النصراني المباشر من الشمال ، كما كانت تواجهه من الغرب . وأخطر من ذلك كله ما أصاب هيبة المرابطين العسكرية بسبب هذه الضربة من تصدع وانهار ، وقد كانت هذه الهيبة ، منذ الزلافة ثم أقليش في أوج قوتها ، ثم أخذت منذ أقليش تخبو شيئاً فشيئاً ، حتى جاء سقوط سرقسطة فأصابها بأول ضربة حقيقية ، هزت من أركانها في أنحاء شبه الجزيرة . ومن ذلك الحين تضطرم اسانيا النصرانية ضد المرابطين بروح مضاعف من التحدي، والعدوان والثقة بالنفس .

- ٥ -

وما كاد ألفونسو المحارب يستقر في سرقسطة وينظم شئونها ، حتى اعزم أن يتابع ظفره بافتتاح ما بقي من قواعد الثغر الأعلى ومعاقله ، وكانت تطية قد سقطت في يده قبيل سقوط سرقسطة بنحو عشرين في سنة ١١١٧م (٥١١ هـ) ، فسار في قواته نحو طرسونة الواقعة جنوب غربي تطيلة واستولى عليها ، وأعاد بها مركز الأسقفية القديمة ، ثم سار منها إلى برجة^(١) الواقعة في جنوب تطيلة ، واستولى عليها ، وافتتح عدة أخرى منه الحصون والبلاد الواقعة في تلك المنطقة ، ومنها الأجون ، ومالن ، ومجايون وأبيلا وغيرها ، وتمت هذه الفتوح كلها في سنة ١١٢٠م

(١) طرسونة من بالاسبانية Tarazona وبرجه هي Borja

(٥١٣ هـ) (١). ثم عبر ألفونسو جبال سيرا مولينا التي تفصل بين أراجون وقشتالة ، وزحف على قلعة أيوب وكانت من أمنع ما بقي من معقل الثغر الأعلى ، فاستولى عليها كذلك . وكانت أبناء هذه المحن المتوالية ، التي نزلت بمسلمي الثغر الأعلى ، ونوالى سقوط قواعده في أيدي النصارى ، قد وصلت إلى أمير المسلمين علي بن يوسف ، فاهتم لها ، وكتب إلى أخيه الأمير أبي إسحق إبراهيم بن يوسف ، وإلى إشبيلية منذ وفاة واليها السابق القائد محمد بن فاطمة في سنة ٥١١ هـ ، بتجهيز الجيوش ، والمبادرة إلى السير لقتال ملك أراجون (ابن رذمر) ، ووضع حد لعدوانه ، وكتب في نفس الوقت إلى القادة والرؤساء بالأندلس أن ينهضوا بقواتهم مع أخيه ، وأن يكونوا تحت إمرته . فحشد إبراهيم قواته ، ووافته قوات قرطبة بقيادة واليها ابن زيادة ، وقوات غرناطة بقيادة واليها الأمير محمد بن تينغمر اللمتوني ، وقوات مرسية بقيادة أبي يعقوب ينتان بن علي ، وجماعة أخرى من الرؤساء والقادة ، وعدد كبير من المتطوعة . وسار الأمير إبراهيم في هذه القوات الحرارة صوب الشمال . وكان ألفونسو قد انتهى وفقاً لبعض الروايات من افتتاح قلعة أيوب ، وصار منها لافتتاح دروكة قرينتها في المنعة والأهمية ، والواقعة في جنوبها . وفي رواية أخرى أنه لم يكن قد انتهى بعد من افتتاح قلعة أيوب ، حينما اقتربت منه الجيوش المرابطية . وكان ألفونسو حينما علم بتحريك المرابطين وسيرهم إلى قشتالة قد استقدم سائر قواته ، واجتمع له وفقاً لأقوال الرواية الإسلامية زهاء اثني عشر ألف فارس ، غير المشاه والرماة وهم جموع غفيرة لا تحصى . ووقع اللقاء بين المسلمين والنصارى في ظاهر بلدة صغيرة تسمى كَتْسُنْدَة أو قَتْسُنْدَة على مقربة من دروكة ، وذلك في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول - وعلى قول آخر ربيع الثاني - سنة ٥١٤ هـ (يونيو أو يولييه سنة ١١٢٠ م) . ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، كانت الدائرة فيها على المسلمين ، فهزموا هزيمة شديدة ، أو « هزيمة منكورة » على قول ابن الأثير وكثير القتل فيهم ، وسقط منهم في ميدان القتال ، وفقاً لأقوال الرواية الإسلامية نحو عشرين ألفاً من المتطوعة ، وتنوه الرواية الإسلامية بنوع خاص بمن استشهد في الموقعة من العلماء والفقهاء ، وفي

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ ، وكذلك M. Lafuente : ibid; V. III. p. 238 . ونقل المقرئ عن ابن اليسع أن تطيله وطرسونة قد سقطتا في أيدي النصارى في سنة ٥٢٤ (١١٣٠ م) وهذا مناقض لما يذكره روض القرطاس وتؤيده الرواية النصرانية من أن سقوط طرسونة وغيرها من معقل الثغر الأعلى كان في سنة ٥١٣ هـ (١١٢٠ م) .

مقدمتهم العلامة أبو علي الصدفي ، وأبو عبد الله بن الفراء قاضي ألمرية ، وارتد الأمير إبراهيم بن يوسف في فلول الجيش المرابطي إلى بلنسية^(١) . وكانت نكبة جديدة ساحقة لاسبانيا المسلمة ، وهيبة المرابطين العسكرية . ومما هو جدير بالذكر أن الأمير إبراهيم هذا الذي قاد المرابطين في تلك الموقعة ، هو الذي ألّف الفتح بن خاقان باسمه كتابه « قلائد العقيان » وأهداه إليه في مقدمته ، في عبارات فخمة رنانة^(٢) .

وعلى أثر الموقعة استولى ألفونسو على قلعة دروقة ، وأنشأ على مقربة منها ، عند منابع نهر « خلوكا » محلة جديدة محصنة ، سميت قلعة « مونريال » ، لتكون حاجزاً لصد الجيوش الإسلامية ، التي تنساب من طرق مرسية وبلنسية ، ولتكون في نفس الوقت منزلاً لجمعية دينية جديدة من الفرسان ، أسست لحماية الدين .

(١) تراجع في حوادث موقعة كتنده ، ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٨ ، وابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) والمقرئ في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٠ . وكذلك ابن الأبار في كتابه « المعجم في أصحاب الإمام القاضي أبي علي الصدفي » (المكتبة الأندلسية - المجلد الرابع ص ٧) . ومن المراجع القشتالية : F. Codera ; ibld ; p. 262- 267, M.Lafuente: ibid ; Vol. III. p. 239 .

(٢) كتاب قلائد العقيان - المقدمة - ص ٣ و ٤ .

البفصل الرابع

الصراع بين ألفونسو المحارب وبين المرابطين

النصارى المعاهدون. موقفهم من الحكومة الإسلامية . تحفزهم للإيقاع بالمسلمين. نصارى غرناطة . هدم كنيسهم في قوبجر . اتصاهم بألفونسو المحارب وتحريضه على غزو الأندلس . خروج ألفونسو إلى الغزو . اختراقه أراضى الثغر إلى بلنسية . مسيره إلى جزيرة شقر فدانبة فشاطبة . اختراقه لأراضى مرسية حتى بسطة ثم وادى آس . تاهب المرابطين لرد النصارى وإحاطتهم بغرناطة . وصف ابن الصيرفى لأحوال المدينة . انضمام المعاهدين للجيش الأرجونى . مسير ألفونسو نحو الشمال . ملاحقة الجيوش المرابطية له . نشوب المعركة فى فحص الرئيسول بين المسلمين والنصارى . مسير ألفونسو إلى الجنوب حتى شلوبانية . عوده صوب غرناطة فوادى آس . المناوشات المستمرة بينه وبين المسلمين . اتجاهه نحو مرسية فبلنسية . انحلال قواته وعوده إلى بلاده . ما تدل عايه غزوة ألفونسو المحارب . ضعف الدفاع عن الأندلس . خطر النصارى المعاهدين . معاقبتهم بالتغريب وفقاً لفتوى ابن رشد . التعذيب والأسوار بالأندلس . نشاط الغزو النصرانى بالثغر الأعلى . عودة ألفونسو المحارب إلى غزو أراضى بلنسية . موقعة القلاعة . رواية ابن القطان . الوثائق الرسمية المرابطية عن الموقعة . كتاب أمير المسلمين لأهل بلنسية . ألفونسو يشغل بالحرب فى قشتالة وفرنسا . نشاط المرابطين فى غزو أراضى الثغر . تحفز ألفونسو لافتتاح قواعد الثغر الباقية . زحفه على مكناسة واستيلاؤه عليها . زحفه على مدينة إفراغة . مبادرة المرابطين إلى مدانعة . محاصرته لإفراغه وتصميمه على أخذها . وصول الجيوش المرابطية بقيادة ابن غانية . نشوب المعركة الحاسمة بين الفريقين تحت أسوار إفراغة . الهزيمة الساحقة على النصارى . موت ألفونسو المحارب وما يقال حوله . أهمية النصر المرابطى وآثاره . ألفونسو المحارب وخلاله . تأملات حول موقف المرابطين بعد نصر إفراغة . بنو هود يستقرون فى روطة . عماد الدولة بن هود . ولده سيف الدولة . انضواؤه تحت حماية ملك قشتالة . نزوله له عن قاعدة روطة . بعض الروايات الخاصة بذلك . نهاية رياسة بنى هود .

١ - غزوة ألفونسو الكبرى للأندلس

لم تمض بضعة أعوام على سقوط سرقسطة ، حتى وقعت بالأندلس حادثة عدوان لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الغزوات النصرانية ، من حيث اتساع نطاقها ، وخطورة العوامل الموجهة لها ، ونعنى بذلك الغزوة الكبرى التى قام بها ألفونسو المحارب ملك أراجون فى قلب الأندلس ، بناء على تحريض النصارى المعاهدين . ولقد تحدثنا من قبل ، فى كتابنا « دول الطوائف » عن أحوال النصارى المعاهدين ، وظروف حياتهم فى ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة ، منذ عصر الإمارة والخلافة ، ثم فى ظل دول الطوائف ، وأشرنا إلى ما كانت تتمتع به

طوائف المعاهدين ، في ظل هذه الحكومات الإسلامية ، من ضروب الرعاية والتسامح ، والتمتع بمزاولة شعائرهم ، وتقاليدهم ، والاحتكام إلى قوانينهم وقضاتهم ، والتحدث بلغتهم الخاصة ، دون حيف أو ضغط متعمد يلحق بهم ، ودون مطاردات دينية من أى نوع تعصف بأمنهم وسلامتهم ، وأنهم كانوا يؤلفون في مختلف القواعد الإسلامية ، مجتمعات متقدمة مزدهرة ، ويشغلون في أحيان كثيرة في القصر وفي الحكومة ، مناصب النفوذ والثقة ، وإن كانت التواريخ النصرانية تؤثر مع ذلك كله ، أن تقدم إلينا مجتمع المعاهدين في صور قائمة ، وتزعم بأنهم كانوا ضحية الجور والإرهاق ، يعانون من ضغط الحكومة الإسلامية المادى والأدبى ، في صور وأوضاع شتى .

وقد أشرنا في نفس الوقت إلى ما كان يتسم به أولئك النصارى المعاهدون من نكران الصنيعة ، وعدم الولاء للحكومات الإسلامية ، بالرغم مما كانت تحيطهم به من ضروب الرعاية والتسامح ، وكيف أنهم لم يدخروا دائماً وسعاً في الكيد لها ، والتآمر على سلامتها ، ومداخلة أعدائها النصارى الإسبان ، وتحريضهم عليها ، ومعاونتهم على الإيقاع بها في كل فرصة سانحة ، وضرربنا لذلك عديد الأمثلة التاريخية ، التي تسجل على النصارى المعاهدين أعمال الخيانة والغدر ، والتآمر مع أعداء الأندلس المسلمة على القضاء عليها^(١) .

ولما سقطت سرقسطة في أيدي النصارى ، وتوالت انتصارات ألفونسو المحارب ، وتوالت محن المسلمين في الثغر الأعلى ، وظهر التخاذل على الحيوش المرابطية ، أخذت طوائف المعاهدين في التحفز ، ولاح لها أنها تستطيع أن تعمل عملاً مثمراً لضرب الأندلس ، بالتفاهم مع عاهل الثغر الأعلى ، وإمداده بما وسعوا من ضروب الإمداد والعون .

وكان أشد طوائف المعاهدين نشاطاً في تدبير هذه المؤامرة الكبرى ، نصارى ولاية غرناطة ، وكانوا من أكبر طوائف المعاهدين عدداً ، وأغناهم مالا ، وأكثرهم ازدهاراً ومقدرة ونفوذاً ، وكانت لهم خارج غرناطة ، تجاه باب البيرة ، في طريق قرية قوبلجر ، كنيسة عظيمة شاهقة ، فريدة في العمارة والطرز ، فلما استولى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على غرناطة ، خاطبه الفقهاء في

(١) يراجع الفصل الخاص بذلك من كتاب « دول الطوائف » ص ٣٩٥ - ٤٠١ .

هدمها لما يدلى به صرحها الشامخ من تطاول المعاهدين ، فأمر بتحقيق رغبتهم ،
وخرج أهل غرناطة لهدم الكنيسة المذكورة ، في آخر جمادى الآخرة سنة ٤٩٢ هـ ،
فصيرت في الحال ركاما ، وغدت قاعا صفصفا (١) .

ويحاول دوزى أن يصور هذا الحادث - هدم الكنيسة - في صورة اضطهاد
عام أنزله المرابطون بالنصارى المعاهدين ، ويقول لنا إن هذا الاضطهاد شمل هدم
الكنائس بصفة عامة ، وشمل أيضاً أشياء أخرى لا يستطيع أن يتكهن بها ، لأن
الرواية الإسلامية تلتزم الصمت إزاء ذلك ، ، ومن ثم فإنه يحاول أن يصور لنا
استدعاء النصارى المعاهدين لألفونسو المحارب في صورة الإستغاثة والانتقام لما
نزل بهم من صنوف الاضطهاد المصني (٢) . ويتابعه في هذا المعنى المستشرق الإسباني
سيمونيت ، فيقول لنا إن نصارى مملكة غرناطة ، كان قد وقع عليهم اضطهاد
شديد من جراء تعصب المرابطين ، فهدمت كنائسهم ، وطورد قساوسهم وانتهكت
رسومهم ، وبعد أن صبروا على هذا الاضطهاد أعواماً ، اعزموا أن يطلبوا عون
الملك ألفونسو المحارب ، وكان قد اشتهر في أنحاء شبه الجزيرة بقوته وفتوحاته
وانتصاراته ضد الكافرين (يريد المسلمين) (٣) . ولكن سنرى أن هذا الاستدعاء
لملك أراجون ، وما اقترن به من صنوف الاستعداد والتحفز الخطر ، لم يكن كما
قدمنا ، سوى مؤامرة كبرى دبرها النصارى المعاهدون لضرب الأندلس المسلمة
في الصميم .

ذلك أنه لما ترددت أصداة انتصارات ألفونسو المحارب ، في جنبات الأندلس ،
وشعر المعاهدون بأن فرصة العمل قد سنحت ، بعثوا إليه بكتبهم ورسولهم المتوالية ،
يلحون عليه في غزو الأندلس وافتتاح غرناطة . وقد كانت غرناطة حسماً تقدم
قاعدة الحكم المرابطى في الأندلس ، وكان لهذه الصفة فيما يبدو أثرها في قيام
المعاهدين بها ، بالدور الرئيسى في هذه المؤامرة . وبعث أولئك المعاهدون إلى
ألفونسو زماما يشتمل على أسماء اثني عشر ألفاً من أنجاد مقاتليهم ، على أهبة
لمعاونته ، وأنه يوجد غيرهم جموع غفيرة مستترة على قدم الأهبة ، وبعثوا إليه في
نفس الوقت بأوصاف غرناطة ، وما تشتمل عليه من الثروات والمحاصيل الحمة ،

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١١٤ .

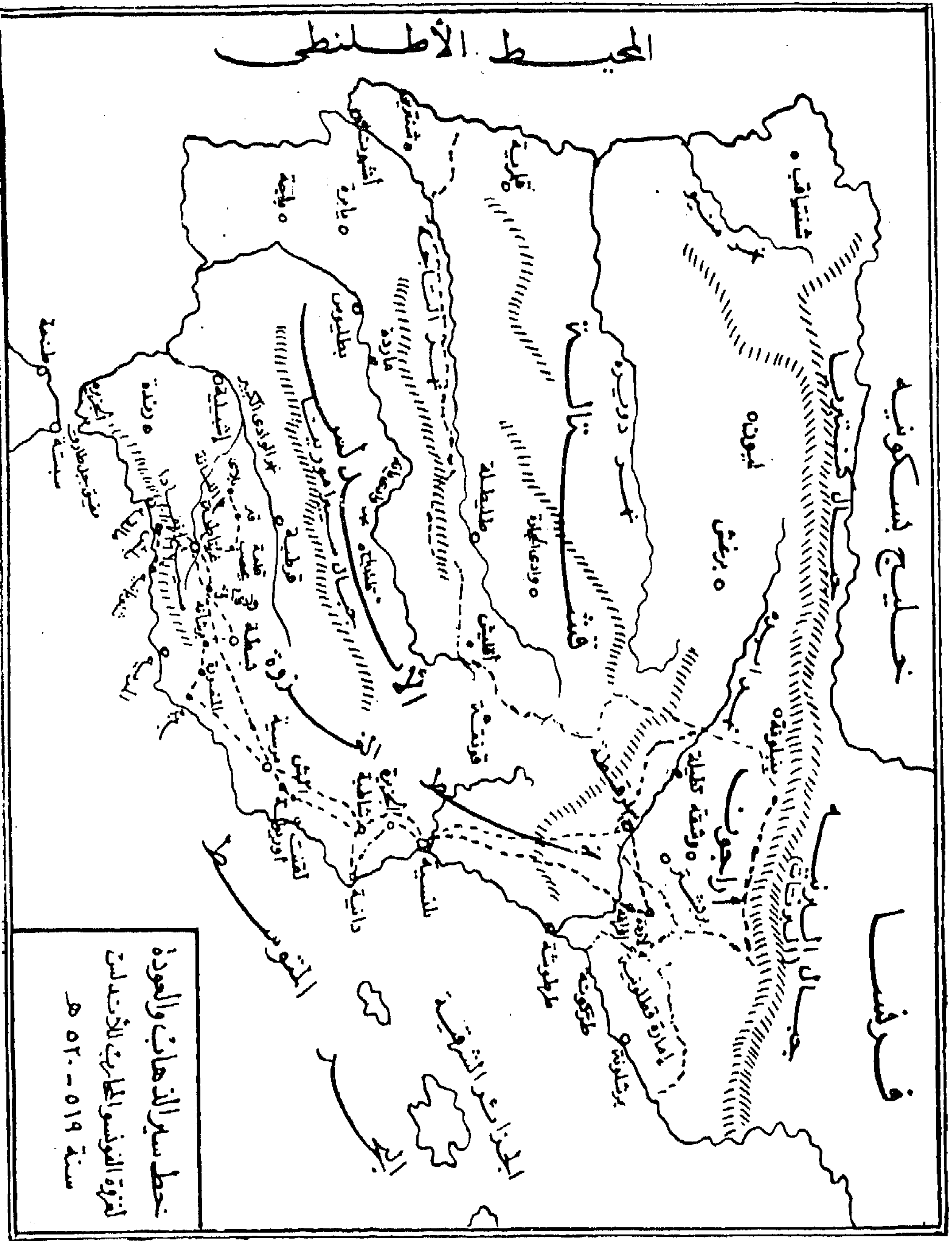
(٢) Dozy : Recherches. V. I. p. 348 & 349

(٣) F. J. Simonet : Historia de los Mozárabes de Espana, p. 745

والعيون والأنهار الغزيرة ، وما تمتاز به من حسن الموقع ، وروعة العمارة ، وازدهار العمران ، وكونها عاصمة الأندلس . وكان لهذه الدعوة المقرونة بالعون والإنجاد ، وهذا الإغراء بصفات الحاضرة الإسلامية التالدة ، أثرها في نفس ألفونسو المحارب ، وفي شحذ همته ، وإذكاء أطماعه ، وكان يشعر عندئذ أن الظروف مهيأة ، وأن تضعف قوى المرابطين منذ موقعة كُتُنْدَة ، مما يسهل له السبيل إلى اختراق الأندلس ، وتحقيق الغاية المنشودة .

فخرج من سرقسطة في أول شعبان سنة ٥١٩ هـ (سبتمبر سنة ١١٢٥ م) في قوة مختارة من أربعة آلاف ، وقيل في خمسة آلاف فارس مع أتباعهم من من الرجال والرماة ، وقد بلغوا خمسة عشر ألفاً ، وكان معه الكونت جاستون دي بيارن الذي اشترك في حملة سرقسطة ، وفي ركبه عدد من رجال الدين في مقدمتهم أسقف سرقسطة ووشقة ، وقد تعاهدوا جميعاً وتحالفوا بالإنجيل على ألا يفر أحد منهم^(١) ، وهكذا كان للحملة طابعها الصليبي ، الذي طبع سائر الغزوات والحملات النصرانية ، منذ حصار سرقسطة . وسار ألفونسو بحملته شرقاً ، واخترق أراضي لاردة وإفراغه الإسلامية ، وهو يعيث فيها ، ثم انحرف جنوباً ودخل أراضي مملكة بلنسية ، وهو ينسف الزروع ويحرق القرى ، وقاومته في بلنسية قوة مرابطية ، بقيادة أبي محمد يدّر بن ورقاء (أواخر شهر رمضان) ، وكان من الصعب أن تجتمع القوات المرابطية للوقوف في وجهه ، لأنه حرص على إخفاء وجهته الحقيقية ، ولبث طول الوقت متحركاً في قواته . وفي أثناء ذلك كانت جموع المعاهدين تهرع إلى الانضمام إليه حيثما وجد ، حتى اجتمعت له إعداد وفيرة ، وكانوا يدلونه على الطرق والمسالك ، ويكشفون له مواطن الضعف لدى المسلمين ، في المدن والحصون التي يمر بها . ولما غادر بلنسية سار منها إلى جزيرة شُقْر فقاتلها أياماً ، ثم رحل منها إلى دانية ، فعاث في واديه ، وقاتلها ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، واستمر في مسيره محترقاً شرقاً الأندلس مرحلة مرحلة ، ومنازلاً سائر قواعده وحصونه ، ماراً بشاطبة ، وألش وأوريولة ، حتى وصل إلى مرسية ، ثم اجتاز منها إلى بيرة ، فالمنصورة ، فبرشانة ، حيث توقف أياماً . ثم سار إلى مدينة بسطة ، وحاول منازلها وافتتاحها ، لسهولة موقعها ، وضعف

(١) الخلل الموشية ص ٦٧ . وهو الذي يأخذ بالتقدير الأول . ويأخذ ابن عذارى في البيان المغرب بالتقدير الثاني (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ٨٣) .



خط سير الازهاب والعودة
لغزوة الفوفسوا المطارب الأندلس
سنة ٥١٩ - ٥٢٠ هـ

تحصيناتها ، ولكنه لم ينجع ، فغادرها إلى وادي آش ، ونزل بقريّة القصر القريبة منها ، وأخذ ينزل منها وادي آش ، ويقاثلها أياماً ، وذلك في أوائل شهر ذي القعدة من السنة المذكورة ، واستمر في محاولته زهاء شهر ، ولكنه لم ينل منها مأرباً .

وهنا نجد وصفاً دقيقاً لبقية هذه الغزوة الحريثة في أقوال مؤرخ غرناطى معاصر تقريباً ، هو أبو بكر ابن الصير في كتاب الدولة المرابطية ومؤرخها في كتابه « الأنوار الحلية في أخبار الدولة المرابطية » ، وهو مؤلف لم يصل مع الأسف إلينا ، ولم نتلق منه سوى شذور يسيرة ، على يد بعض المؤرخين اللاحقين ، مثل ابن عذارى ، وابن الخطيب ، وصاحب الحلل الموشية (١) .

يقول لنا ابن الصير في ، إنه لما اقترب ألفونسو المحارب بقواته من غرناطة ، تناجى النصراني المعاهدون بغرناطة باستدعائه ، فافتضح تدبيرهم ، وهمّ أميرها باعتقالهم ، فأعياه ذلك ، وتسلسل المعاهدون من كل صوب إلى محلة الغزاة ، وكان المشرف على شئون الأندلس يومئذ الأمير أبو الطاهر تميم ، وقاعدته كما هو معروف بغرناطة ، فحشد سائر قواته ، وأمدّه أخوه أمير المسلمين على بجيش وافر ، وكان حينما سمع بعدوان ابن رذمير ، قد أمر بإعداده في العدو ، وعبوره إلى الأندلس على وجه السرعة ، وانضمت إليه قوات مرسية وإشبيلية ، وأحاطت الحيوش المرابطية الحرارة بغرناطة ، حتى صارت كالدائرة ، وصارت المدينة في وسطها كالنقطة . وتحرك ألفونسو من وادي آش ، ونزل بقريّة دجة غربى وادي آش ، في منتصف المسافة بينها وبين غرناطة ، فاشتد القلق بغرناطة ، وصلى الناس صلاة الخوف يوم عيد النحر ، واستعدوا بالسلاح . ويصف ابن عذارى حال غرناطة في قوله : « وجاءت الطلائع منبئة . . وانقطعت السابلة والواردة ،

(١) ترجم لنا ابن الخطيب لابن الصير في الإحاطة ، فقال هو « يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى يكنى أبا بكر ويعرف بابن الصير في ، من أهل غرناطة ، كان نسيج وحده في البلاغة والجزالة والتبريز في أسلوب التاريخ والتلى من الأدب والمعرفة باللغة والخبر . قال أبو القاسم (الملاحى) ، من أهل المعرفة بالأدب والعربية واللغة والتاريخ ، ومن الكتاب المجيدين والشعراء المطبوعين الكثيرين . كتب بغرناطة عن الأمير أبي محمد تاشقين ، وله فيه نظم حسن . وألف في تاريخ الأندلس كتاباً سماه « الأنوار الحلية في أخبار الدولة المرابطية » ضمنه العجائب إلى سنة ثلاثين وخمسة ، ثم وصله إلى قرب وفاته . وكتاباً آخر في ذلك سماه « قصص الأنبياء ، وسياسة الرؤساء » . توفي بغرناطة في حدود السبعين وخمسة (مخطوط الإحاطة بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ٤١٥) .

وقلت المرافق ، وتزاحم الناس في المدينة [وسكنت] المساجد والمصاطب ،
والرحاب ، وكثر الخزع والإرجاف والموجان .. والأسوار معمورة بأهل البلدة ،
وليس في الدور غير الصبية والنسوة»^(١). وفي ظهر اليوم التالي وصل النصارى
إلى مقربة من شرق المدينة ، وكان عددهم قد بلغ عندئذ زهاء خمسين ألفاً ،
ونشب القتال بينهم وبين المسلمين . قال ابن الصيرفي : « وتوالى الحرب على
فرسحين منها ، وقد أجلى السواد ، وتزاحم الناس بالمدينة ، وتوالى الحليد ، وأظلت
الأمطار» . ولبت ألفونسو بحملته بضع عشرة ليلة ، وهو ملتزم السكون بسبب
الحليد والأمطار ، والمعاهدون يمدونه بالأقوات والمؤن . ثم أقلع عن غرناطة ،
وقد ارتفع طمعه عنها ، لما لمسه من وفرة الجيوش المدافعة عنها ، وذلك في يوم
٢٦ ذى الحجة سنة ٥٢٠ هـ (٢١ يناير سنة ١١٢٧ م) ، وأنحى ألفونسو باللائمة
على المعاهدين ، وزعيمهم ابن القلايس ، لتقاعسهم ، وعدم وفائهم بما التزموه ،
فردوا اللوم إليه ، واحتجوا ببطئه وتاومته حتى تلاحقت الجيوش ، وأنهم قد أضحوا
بذلك عرضة للهلاك على يد المسلمين . وسار ألفونسو إلى قرية مرسانة ، ثم
إلى بيش^(٢) ثم اتجه شمالاً إلى قلعة يحصب ، ثم انحدر غرباً نحو قبرة واللسانة^(٣)
والجيوش الإسلامية تلاحقه ، وتناوشه في معارك صغيرة ، وكانت قوات إشبيلية
قد تحركت عندئذ بقيادة واليها الأمير أبي بكر ابن أمير المسلمين ، وانضمت إلى باقي
الجيوش المرابطية في مطاردة العدو . ثم أقام ألفونسو بقبرة أياماً ، وسار منها إلى
بلاي^(٤) فاللسانة ثم انحدر جنوباً ، والمسلمون في أثره حتى قرية شيجة^(٥) القريبة
من غرناطة ، وهناك في فحص الرينسول^(٦) وقعت بينه وبين المسلمين معركة ،
كان فيها الظهور في البداية للمسلمين . ولما جن الليل وقع في المعسكر الإسلامي
حادث أثار فيه الاضطراب . وذلك أن الأمير تميا أمر بنقل خبائه ، من وهدة.

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ٨٤) .

(٢) مرسانة وبالإسبانية Maracena وبيش وبالإسبانية Beas قرنتان من أعمال غرناطة تقع
الأولى في شمالها الشرقي والأخرى في شمالها الغربي .

(٣) قلعة يحصب هي اليوم بالإسبانية Alcalà la Real ، وقبرة هي Cabra ، واللسانة هي

Lucena .

(٤) هي قرية Poley القديمة ، وتسمى اليوم Aguilar

(٥) شيجة هي قرية Espejo الإسبانية .

(٦) فحص الرينسول أو أرنسول يقع جنوب غرناطة وبالإسبانية Arinsol .

كان فيها إلى نجدة ، فظن الناس أنه ينوى الانسحاب ، فاختل الأمر ، وكثر الفرار ، وفي الغد هجم النصارى على محلة المسلمين ، واستولوا عليها ، ووقعت الهزيمة على المسلمين (مارس سنة ١١٢٧ م) .

وسار ألفونسو بعد ذلك في قواته نحو الجنوب الشرقي ، واخترق جبال سيرا نقادا (جبل الثلج) ، وانحدر إلى الشاطئ نحو وادي شلوبانية العميق المتحصن المحاز ، ويروى أنه قال عند رؤيته : « أى قبر هذا لو ألفينا من يرد علينا التراب » . ثم سار غرباً نحو مدينة بلدش مالقة ، وأنشأ بها مركباً صغيراً يصيد له حوتاً ، أكل منه « كأنه نذر كان عليه وفي به ، أو حديث أراد أن يخلد عنه » . ثم عبر جبال سيرا نقادا مرة أخرى ، عائداً إلى غرناطة ، وعسكر بقريّة دالر على مقربة منها ، ثم انتقل منها إلى قرية همدان الواقعة في جنوبها ، وهناك وقعت بينه وبين المسلمين معركة شديدة ثم انتقل بعد يومين إلى « المرج » La Vega ، وفرسان المسلمين في أثره تضيق عليه ، ثم نزل بعين أطسة ، وهي على أتم الأبهة والحذر ، وسار بعد ذلك إلى وادي آش ، وقد أصيب كثير من عسكره ، خلال المناوشات العديدة التي وقعت بينه وبين المسلمين ، ولما رأى أنه لم يحقق بغزوته الطويلة المدى ، أى هدف يذكر ، عول على العود إلى بلاده ، فاتجه شرقاً نحو مرسية ، فشاطبة فيلبانية ، وقد لحق بعسكره خلال السير نحو عشرة آلاف من النصارى المعاهدين ، الذين فروا من مواطنهم خيفة الانتقام والهلاك ، هذا والعساكر الإسلامية تلاحقه في كل موطن ، والوباء يعصف بعسكره ، حتى وصل إلى بلاده مفلولاً ، قد حطمه وجنده الإعياء والوهن ، وذلك بعد أن أنفق في غزوته خمسة عشر شهراً ، وهو مع ذلك ، « يفخر بما ناله في سفره من هزيمة المسلمين ، وفتكته في بلادهم وكثرة ما أسر وغنم » (١) .

تلك تفاصيل غزوة ألفونسو المحارب الشاملة ، لأقطار الأندلس الشرقية والجنوبية ، وهي قد انتهت بعد المعارك والمناوشات العديدة ، التي خاضها مع المسلمين ، إلى فشل مطبق ، ولم يحقق ملك أراجون من وراءها أية نتيجة عملية .

(١) راجع في تفاصيل غزوة ألفونسو المحارب للأندلس : الخلل الموشية ص ٦٦ - ٧٠ ، وابن الخطيب في الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١١٦ - ١١٩ ، وكلاهما ينقل رواية ابن الصيرفي مفصلة . وابن عذارى في البيان المغرب ، وهو يقدم لنا نفس الرواية ، ولكن مزينة بمعلومات وتفاصيل أخرى (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ٨٤ و ٨٥) . وراجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٤ .

ولكنها مع ذلك قد كشف عن حقيقة هامة ، وهي أن نظم الدفاع عن الأندلس ، لم تكن يومئذ وفق ما يجب من المتانة والإحكام ، وأن خطط القيادة المرابطية ، منذ نكبة سرقسطة لم تكن كفيلاً ، بردع عدوان الممالك النصرانية . ولم يكن أدل على هذه الحقيقة من أن ملكاً من ملوك اسبانيا النصرانية ، استطاع أن يخرق الأندلس من الثغر الأعلى ، حتى شاطئ البحر المتوسط ، دون أن تستطيع قوة إسلامية ، مرابطية أو غيرها ، أن تقف في سبيله .

وثمة حقيقة أخرى كانت جديرة بالاعتبار ، وهي أن النصارى المعاهدين الذين يعيشون في ظل الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون برعايتها ، لم يكونوا يشعرون نحوها بذرة من الولاء ، بل كانوا يمثلون خطراً داخلياً على الأندلس ، ولا يدخرون وسعاً في الكيد لها ، وممالة أعدائها ، وتحريضهم على التنكيل بها ، وقد سبق أن أشرنا من قبل في كتابنا « دول الطوائف » إلى هذه الحقيقة ، وبيننا كيف كانت الأحقاد والشكوك ، تحيط بمجتمع المعاهدين ، وبالأخص منذ سقوط طليطلة ، وكيف أن بعيدى النظر من الوزراء والفقهاء ، كانوا ينصحون بالحذر منهم ، ويدعون إلى ردعهم والتضييق عليهم ، كما فعل الوزير الكاتب عبد الحميد بن عبدون في رسالته عن الحسبة^(١) . ولقد كانت دعوة المعاهدين لألفونسو المحارب ، ومعاونتهم له في غزو الأندلس ، على هذه الصورة البعيدة المدى ، تمثل بالنسبة لهم ذروة الحمود والاجترار والحيانة ، ومن ثم فقد كان لابد من أن يحدث موقفهم أسوأ الأثر في الأمة الأندلسية والحكومة الإسلامية ، وكان لابد أن تتخذ في حقهم إجراءات رادعة ، تكفل قمع دسائسهم وعدوانهم بصورة حاسمة . وهذا ما حدث بالفعل عقب انتهاء غزوة ألفونسو المحارب ، فإن ما حدث على أثرها من بوادر السخط على المعاهدين ، والتوجس من مكائدهم ، حمل كبير الجماعة في قرطبة القاضي أبا الوليد بن رشد ، على أن يعبر البحر إلى المغرب ، ثم قصد إلى أمير المسلمين على بن يوسف بمرآكش ، وشرح له أحوال الأندلس ، وما منيت به على يد المعاهدين ، وما جنوه عليها من استدعاء النصارى ، وما يترتب على ذلك من « نقض العهد والخروج على الذمة » ، وأقنى بتغريبهم ووجوب إجلائهم عن أوطانهم ، وهو أخف ما يؤخذ به في عقابهم . فأخذ أمير المسلمين بهذه الفتوى ، وصدر عهده إلى جميع بلاد الأندلس ، بتغريب المعاهدين إلى العُدوة

(١) كتاب « دول الطوائف » ص ٣٩٩ و ٤٠٠ .

(المغرب) ، فنفتت منهم جموع غفيرة ، وسبق الكثير منهم إلى مكناسة ، وسلا وغيرهما من بلاد العدو ، وهلك منهم خلال العبور والسفر عدد جم ، وتفرقوا شذراً مذبذباً ، وضم أمير المسلمين منهم عدداً إلى حرسه الخاص ، امتازوا فيما بعد بالإخلاص والبراعة . على أن هذا التغريب لم يكن شاملاً ، فقد بقيت في غرناطة وفي قرطبة وفي غيرها من القواعد ، جماعات من النصاري المعاهدين ، لأسباب مختلفة ، لتنمو وتزدهر مرة أخرى . وقد وقع تغريب المعاهدين في شهر رمضان سنة ٥٢١ هـ (أواخر سنة ١١٢٧ م) وكانت نكبة بالغة لم يصب المعاهدين مثلها منذ بعيد (١) .

وينوه المستشرق سيمونيت بما أصاب المعاهدين من جراء هذا النفي من الآلام والحن ، ويقول إن العناية الإلهية شاءت أن ترد هذه القسوة ، بما أنزل بعد ذلك بقرون بالموريسكيين أو العرب المنتصرين عند نفهم من اسبانيا من قسوة مماثلة . وهذه مقارنة غير موفقة ، لأن ما أنزلته اسبانيا بالموريسكيين قبل النفي وخلالها ، من ضروب القسوة المروعة ، يندر أن نجد له مثيلاً في صحف الاستشهاد القومي .

٢ - التعذيب والأسوار

وقد كانت سنة ٥٢٠ هـ ، هذه وهي التي وقعت فيها غزوة ألفونسو المحارب والنصاري المعاهدين للأندلس ، واشتدت في نفس الوقت حركة محمد بن تومرت المهدي بالمغرب ، سنة التحصينات ، والمنشآت الدفاعية سواء ، في المغرب أو الأندلس . فأما في المغرب ، فقد شرع أمير المسلمين علي بن يوسف في تسوير حضرته مراکش ، وكانت حين إنشائها في سنة ٤٦٢ هـ ، قد أقيم السور فقط حول المسجد والقصبة اللتين ابتناهما يوسف بن تاشفين . وبقيت المدينة ذاتها دون أسوار تحميها . وكان الذي أشار على أمير المسلمين بتسويرها ، القاضي أبا الوليد ابن رشد ، حينما اشتدت حركة المهدي ، واستفتى أمير المسلمين فقهاء المغرب ، والأندلس في أمره ، فأفتى ابن رشد بوجوب إنشاء أسوار للمدينة ، تقوم بحمايته وحماية الساكنين معه . وشرع أمير المسلمين في بناء أسوار مراکش في جمادى الأولى

(١) يراجع في ذلك الخلل الموشية ص ٦٦ و ٧٠ ، وابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ١١٩ و ١٢٠ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٨٦) . وأشباخ في «تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين» (الطبعة الثانية) ص ١٤٧ - ١٥٠ . وراجع : « F.J. Simonet :

سنة ٥٥٢٠ (١١٢٦ م) وهذه هي رواية صاحب الخلل الموشية وابن عذارى (١). ويضع ابن القطان رحلة ابن رشد إلى مراکش وبناء سورها وفقاً لنصحه في سنة ٥٥٢٢. ويقول لنا صاحب روض القرطاس، ويتابعه ابن خلدون إن بناء أسوار مراکش كان في سنة ٥٥٢٦ (٢). والرواية الأولى أرجح فيما يبدو، لأن القاضي ابن رشد توفي في أواخر سنة ٥٢٠ (أواخر سنة ١١٢٦ م). وحشد أمير المسلمين جمعاً غفيرة من الفعلة والصناع فتم بناء السور في نحو ثمانية أشهر. كما تم بناء الجامع ومناره. وبلغت النفقة على السور وحده سبعين ألف دينار من الذهب العين، ثم أصلح هذا السور، وأنشئت به أبراج جديدة وزيد فيه حتى شمل مقابر المدينة، وذلك في سنة ٥٣٠ هـ. وبعث أمير المسلمين على بن يوسف في الوقت نفسه، كتابه إلى الأندلس، بوجوب إنشاء الأسوار، فأرجى النظر في ذلك حتى صرف الأمير تميم عن ولاية الأندلس وجزا إلى مراکش وهناك توفي، وقدّم أبو عمر ينانة اللمتوني على غرناطة، وقدّم أبو حفص عمر بن أمير المسلمين على قرطبة. وعمد ينانة إلى تعذيب غرناطة وفرض «المعتب» (إتاوة الدار) على سائر أهلها، واشتد في تحصيل المال، وأصلحت الأسوار وأكملت في أقرب وقت. ثم جاء سيل شديد فصدت الأسوار، وسقطت منها أجزاء كبيرة مما يلي باب الرملة وباب البيرة، وهلك كثير من الناس. وتولى أهل قرطبة إصلاح أسوارهم ورممها على سالف عاداتهم، دون تعذيب ودون ضغط. وكذلك فعل أهل إشبيلية نحو أسوارهم، فجمعت النفقة بأيسر أمر، ودون إجحاف، وأقيمت الأسوار وأصلحت. وتولى النظر في إصلاح أسوار ألمرية رجل من أهلها يعرف بابن العجمي، فاستعمل الخزم والرفق معاً، وأبدى الناس إقبالا على أداء الإتاوة المطلوبة، وأصلحت الأسوار وأكملت دون ضغط ولا إرهاق.

واستمر ينانة اللمتوني، والياً على غرناطة حتى، عزل عنها في جمادى الأولى سنة ٥٢٢ هـ، أي بعد سنة وتسعة أشهر. وكان ظلوماً جائراً، وكان من أعمال ظلمه أن استدعى فقهاء جيان وعلماءها إلى غرناطة، ثم قبض عليهم، وأودعهم السجن دون جريرة، وسار إلى الغزو في شرقي الأندلس، وتركهم في المطبق،

(١) الخلل الموشية عن ٧٠ و ٧١، ، وابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسپيرس ص ٨٦)، ونظم الجمان (المخطوط لوحة ٣٣ ب).

(٢) روض القرطاس ٨٩، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤، وفي كتاب «الإستبصار في عجائب

الأمصار» أن سور مراکش قد أنشئ في سنة ٥١٤ هـ وهي رواية ضعيفة (ص ٢٠٩).

فلما نمت ذلك إلى أمير المسلمين علي بن يوسف ، أمر بعزله ، وعين ولده أبا حفص عمر والي قرطبة والياً لغرناطة . فلما وصل إلى غرناطة بادر بالإفراج عن الفقهاء والعلماء المعتقلين ، وردهم إلى بلدتهم مكرمين ، واستراح الناس من ظلم ينالة وجوره (١) .

٣ - موقعة القلاعة

لما عاد ألفونسو المحارب من حملته الأندلسية الفاشلة ، عاد إلى استئناف نشاطه في أراضي الثغر ضد المرابطين . وكان المسلمون ما يزالون يحتلون من الثغر الأعلى ، المنطقة الواقعة شرقي سرقسطة ، فيما بين نهري سنكا وسجري فرعي إبرة ، وأهم قواعدها لاردة وإفراغة ومكناسة الواقعة عند ملتقى إبرة وسجري ، وكذلك المنطقة الممتدة بعد ذلك على طول نهر إبرة ، حتى مصبه عبر ثغر طرطوشة ، وكان ألفونسو يرمى إلى إجلاء المسلمين عن هذه المنطقة ، حتى يكفل اتصال مملكته بالبحر المتوسط عن طريق ثغر طرطوشة الهام . وكان ثغر طركونة الواقع شمال طرطوشة ، قد سقط في أيدي النصارى قبل ذلك بنحو أربعين عاماً . ونحن نذكر أن هذا الثغر كان من أعمال مملكة سرقسطة أيام بني هود ، وأنه لما توفي المقتدر بن هود في سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) قسمت مملكته بين ولديه يوسف المؤمن وأخيه المنذر ، وأن المنذر بن هود اختص بالجانب الشرقي من مملكة سرقسطة وفيه ثغرا طركونة وطرطوشة . ثم توفي المنذر بن هود في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) وخلفه ولده الطفل سليمان الملقب بسعد الدولة ، وكان الكونت رامون برنجير الثاني أمير برشلونة ، ومن ورائه أحبار قطلونية ، يتوقون إلى انتزاع ثغر طركونة من المسلمين وإعادته كما كان مركزاً رئيسياً للكنيسة القطلونية ، فكتبوا بذلك إلى البابا أوربان الثاني ، وهو محرك الحرب الصليبية الأولى في المشرق ، فشجع مشروعهم وباركه ، وأسبغ عليه الصفة الصليبية ، وأصدر طائفة من المنح والمزايا الدينية لمن يشتركون في هذه الحملة . وكتب إلى سائر الأمراء والبارونات والفرسان ورجال الدين ، في البلاد المجاورة ، يحثهم على الاشتراك في هذه الحرب المقدسة ، وهكذا جهزت حملة صليبية قوية لافتتاح طركونة ، على رأسها رامون برنجير ، وجاءت وفاة المنذر بن هود في تلك الآونة بالذات مشجعة للغزاة . وسارت الحملة إلى طركونة واستطاعت انتزاعها من المسلمين بسهولة (١٠١٠ م) اضعف وسائلها الدفاعية ، وتخلي المستعين بن هود صاحب سرقسطة عن إنجادهما ،

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هيسيرس ص ٨٦ ، و ٨٧) .

ولأن الجيوش المرابطية ، لم تكن قد وصلت يومئذ في زحفها نحو الشمال ، إلى الثغر الأعلى .

وبسقوط طر كونه في يد أمير برشلونة ، وضمها إلى مملكة قطلونية ، لم يبق من ثغور مملكة سرقسطة القديمة سوى طرطوشة ، وكان ألفونسو المحارب يتوق إلى انتزاع هذا الثغر ، ولكنه كان مضطراً إلى أن يخوض قبل ذلك معارك عديدة مع المرابطين ، الذين يسيطرون على متطقي لاردة وإفراغة ، وما وراءهما من الأراضي حتى مصب نهر إبرة . ومن ثم فإنه ما كاد يعود من حملته الأندلسية ، حتى أخذ يعد العدة لتنفيذ مشروعه . ولم يمض سوى عامين حتى خرج في قواته من سرقسطة ، وزحف شرقاً نحو نهر سينكا في اتجاه إفراغة ولاردة . وكانت هذه المنطقة قد غدت منذ سقوط سرقسطة ، مسرحاً للصراع المستمر بين المسلمين والنصارى ، وكانت للمرابطين فيها يبدو حاميات قوية في تلك القواعد ، وكانت لهم فوق ذلك قوات متحركة ، تناسب بسرعة من شرقي الأندلس ، من منطقة بلنسية ، كلها همّ النصارى بالعدوان .

على أنه يبدو أن ألفونسو المحارب ، لم يرد أن يشتبك في هذه المنطقة من الثغر الأعلى مع المرابطين في صراع حاسم ، قبل أن يقضى على قواتهم في جنوبي الثغر ، وقد كانت تلاحقه نحو الشمال باستمرار . ومن ثم فقد سار في قواته جنوباً نحو أراضى بلنسية ، وكان على بن يوسف قد علم من عماله في بلنسية وما والاها أن ألفونسو المحارب يتأهب لغزو أراضى المسلمين ، فخشى على أن تكون حركة شاملة كالتى قام بها المحارب في قلب الأندلس ، وأمر بحشد قوات من السود تتكفل بنفقاتها مختلف المدن ، كل وفق طاقتها ، ثم أرسلت هذه الحشود إلى مرسية - ووالها يدّر بن ورقا - تعزيزاً للجيوش المرابطية في شرقي الأندلس . وهنا يحيق شيء من الغموض حول تفاصيل الواقعة التى نشبت على أثر ذلك بين الأرجونيين والمرابطين ، وحول موقعها . وتذكر لنا الرواية الإسلامية الوحيدة التى لدينا عن الواقعة - وهى رواية ابن القطان - أن الواقعة نشبت في مكان يعرف بالقلعة أو القلاعة ، وأن القلعة هذه تقع على مقربة من جزيرة شقر جنوبي بلنسية ، وكان ابن زدمير (ألفونسو الأرجونى) يربط بقواته بها . وهكذا نشبت في القلعة معركة عنيفة بين المرابطين والأرجونيين ، ويضع ابن القطان تاريخها في سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) ، ويقول لنا إن قوات المسلمين كلها كانت بقيادة

ابن محبور ، وأن المسلمين أصيبوا فيها بهزيمة فادحة ، وفي معظمهم قتلا وأسراً ، واحتوى العدو على سائر أسلابهم ومتاعهم ودوابهم ، وبلغت خسارتهم نحو اثني عشر ألفاً بين قتيل وأسير (١) .

أما الغموض الذي يحيق بأمر هذه الموقعة ، فيأتي مما تذكره لنا الرواية النصرانية وهو أن القلعة أو القلاعة هذه Alcolea ، إنما هي بلدة صغيرة محصنة تقع على الضفة اليسرى لنهر سينكا أحد أفرع نهر إبرة ، على مقربة من إفراغة ، ولها قصبة منيعة ؛ ومعنى ذلك أن الموقعة نشبت بين المرابطين والموحدين في الثغر الأعلى ، لا في أراضي بلنسية . وتضيف الرواية النصرانية إلى ذلك أن ألفونسو المحارب استولى على أثر الموقعة على بلدة القلاعة ، وحصنها ثم أقطعها لأحد أكابر رجاله ممن أبلوا في خدمته (٢) .

ثم إنه يوجد من جهة أخرى في الرواية النصرانية ما يفيد أن ألفونسو المحارب قد حاصر بلنسية في أوائل سنة ١١٢٩ م ، وهو مما يعزز قول الرواية الإسلامية في أن المعركة قد نشبت بين الأرجونيين والمسلمين في أراضي بلنسية .

هذا ، وإلى جانب رواية ابن القطان المتقدمة عن الموقعة ، توجد لدينا عنها وثيقتان مرابطيتان ، تلقيان عليها ، وعلى تاريخ وقوعها ، مزيداً من الضياء ، ويستخلص منهما ما يأتي :

أولاً - أن الموقعة وقعت في « القلعة » أو « القلاعة » . ونحن نرجح قول الرواية الإسلامية في تحديد موقع القلاعة ، بأنه على مقربة من جزيرة شقر .
وثانياً - أن وقوعها كان في النصف الأول من سنة ٥٢٣ هـ (النصف الأول من سنة ١١٢٩ م) .

وثالثاً - أن المرابطين ، أصيبوا في تلك الموقعة بهزيمة شديدة ، وقد كانوا بقيادة الأمير أبي محمد بن أبي بكر بن سير اللمتوني ، وهو ابن أخت علي بن يوسف ، المعروف بابن قنونه ، باسم أمه أخت الأمير .

والوثيقة الأولى هي عبارة عن رسالة كتب بها أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الأمير أبي محمد بن أبي بكر من حضرة مراکش ، ومؤرخه في السابع من شهر شعبان سنة ٥٢٣ هـ ، وذلك رداً على كتابه الذي أرسله إلى أمير المسلمين ينبئه

(١) ابن القطان في « نظم الجمان » (المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٤ ب) .

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. III. p 240

فيه بنجر الموقعة . والرسالة من إنشاء كاتب الأندلس وإمام النثر بها يومئذ ،
أبي مروان بن أبي الحِصَال ، وقد كان يتولى الكتابة في بلاط مراکش ، وفيها
ينحى أمير المسلمين باللوم القارص على قائده أبي محمد بن أبي بكر ، وينوه بتقصيره
وخذلانه في عبارات لاذعة يقول فيها :

« وإن لبيان العذر بتلك الحال لتقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع
بصير ، توافقت مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعاً ، وأحرى أن تكونوا
أشد عن حريمكم منعاً ، وأقوى دونه دفعاً ، فتبت وزلتم ، وجد ونكلم ، وشد
عقدة عزمته وحلتم ، وكنتم في تلك الموقعة قرة عين الحاسد ، وشماتة العدو
والراصد ، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ، ودعامتكم لولا انشاؤه
عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه من الرجل الذي أسلمتوه للقتل ، وفررتم ،
ونصبتموهم دريئة للرماح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم
تصدروه ، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح
جنتكم ووقاؤكم ، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله» (١) .

والوثيقة الثانية عبارة عن رسالة كتب بها أيضاً أمير المسلمين علي بن يوسف
إلى قادة الجيش المرابطي الذين هزموا في موقعة « القلاعة » ، مؤرخة في الحادي عشر
من شعبان سنة ٥٢٣ هـ من حضرة مراکش ، رداً على كتابهم في وصف المعركة ،
وفيها يقول إنه لا محيص عن القدر ، وإنه لم يأل جهداً في العمل لإعلاء كلمة
الإسلام ، وبذل الأموال وحشد الرجال ، وإنه لو استطاع أن يكون حاضراً
بنفسه لديهم لفعل ، ثم يطمئنهم ويؤكد لهم أنه لا هم له إلا الزياد والدفاع عنهم
والتوفر عليه بأقصى جهد (٢) .

وإنه ليبدو لنا من رسالة ثالثة كتبها أمير المسلمين علي بن يوسف إلى قاضي
بلنسية وسائر الفقهاء والوزراء والأعيان والعامّة ، عند نزول ابن رذمير عليها ،
أن ألفونسو الأرجوني ، بعد أن أحرز نصره في موقعة القلاعة المتقدمة
الذكر ، قد سار بقواته شمالاً محترقاً أراضي ولاية بلنسية ، وأنه اقترب من ثغر

(١) يراجع نص هذه الوثيقة بأكمله في باب الوثائق . وقد نقلناها عن مخطوط الإسكوريال
رقم ٤٨٨ الغزيري (لوحة ٧١ ب - ١٧٢) وسبق أن نشر هذه الوثيقة وعلق عليها الدكتور حسين
مونس في بحثه الذي سبقت الإشارة إليه (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٩) .
(٢) يراجع نص هذه الرسالة في باب الوثائق . وقد نقلناها عن نفس المخطوط (لوحة ٧٢ ب
و١٧٣) وسبق أن نشر هذه الوثيقة أيضاً الدكتور حسين مونس في بحثه السالف الذكر .

بلنسية ، ورابط أمامه حيناً. والواقع أن ابن القطان يذكر لنا بعد حديثه عن موقعة القلاعة ، أن قوة من النصارى أغارت على غليرة Cullera الواقعة على البحر على مقربة من جنوبي بلنسية ، واكتسحت ما وجدت^(١) ، وعندئذ وجه قاضي بلنسية الخطيب أبو الحسن إلى أمير المسلمين رسالة استغاثة ، هي التي يرد عليها في رسالته . وقد صدرت رسالة أمير المسلمين من حضرة مراکش مؤرخه في السابع من شعبان سنة ٥٢٣ هـ ، في نفس اليوم الذي أرخت فيه الرسالة الأولى ، الموجهة إلى الأمير محمد بن أبي بكر بلومه ، وتقريعه على تخاذله في « القلاعة » . وفي هذه الرسالة يشير أمير المسلمين برفق إلى هزيمة جنده في القلاعة ، وأن ذلك لم يكن إلا بسبب تخاذلهم ، وعدم اعتبارهم بمواعظه ، ثم يطمئن أهل بلنسية ، ويؤكد لهم أنه إن يتركهم إلى الضياع ، ولن يألو جهداً للذب عنهم ، وأنه قد كتب إلى سائر ولايته ، بإرسال الأقوات ، والتعجيل بإنفاذها في أقرب وقت ، وأنه يضعهم من باله في أعز مكان ، ويختتمها بالدعاء لأهل بلنسية « بأن يشد الله أزرهم ، ويصح أمرهم ، ويسد ثغرهم ، ويحفظ الألفة عليهم »^(٢). والظاهر أن ألفونسو المحارب ، قد اكتفى في زحفه بأعمال العيث والتخريب ، ولم يحاول مهاجمة بلنسية ذاتها^(٣).

٤ - موقعة إفراغة

شغل ألفونسو المحارب ، عقب غزوته الكبرى خلال الأندلس ، بضعة أعوام ، بالحرب مع منافسه ملك قشتالة الفتي ألفونسو ريمونديس ولد زوجته أورাকা ، ولما انتهت هذه الحرب بعقد الهدنة بين قشتالة وأراجون في سنة ١١٣٠ م ، حول ألفونسو المحارب نشاطه إلى وجهة أخرى ، غير العدوان على الأندلس . فعبر جبال البرنيه في بعض قواته إلى فرنسا ، وحاصر مدينة بيونة الواقعة شمال ناغار ، ولم توضح لنا الرواية النصرانية بواعث هذه الحركة ، من جانب ملك أراجون ، ولكن الظاهر ، أنه قام بها لإنجاداً لبعض أتباعه من السادة الفرنج ، الذين تجاوز أراضيهم ناغار ، وانتهى الحصار باستيلاء ألفونسو على بيونة (سنة ١١٣١ م) ، ثم عاد إلى أراجون ، ليستأنف تدبير مشاريعه ضد الأندلس .

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٤ ب) .

(٢) نشرنا هذه الوثيقة في باب الوثائق ، . منقولة عن مخطوط الإسكوريال السالف الذكر

(لوحة ٧٢ ب - ١٧٣) .

(٣) M. Lafuente: ibid ; Vol. III. p. 240

وكانت الحيوش المرابطية في الثغر الأعلى وشرقي الأندلس ، خلال هذه الفترة ، التي شغل فيها ألفونسو المحارب بحروبه في قشتالة وجنوبي فرنسا ، تقوم بالإغارة على الأراضي النصرانية المجاورة والعيث فيها ، وكانت تخرج بالأخص من طرطوشة ولاردة ، وهما أهم القواعد التي بقيت بأيدي المسلمين في الثغر الأعلى ، لتجتاح أراضي النصارى المجاورة في أراجون وإمارة برشلونة . ووقعت بين المسلمين والنصارى في تلك الفترة ، عدة معارك ، وشغل الكونت رامون برنجير الثالث أمير برشلونة ، بمعاونة حلفائه الأرجونيين لرد غارات المسلمين . فلما عاد ألفونسو المحارب إلى استئناف نشاطه ضد المسلمين ، كان أهم ما يشغله هو الاستيلاء على ما بقي من قواعد الثغر الأعلى ، وإجلاء المسلمين عنها . وكانت هذه القواعد ، تنحصر أولاً في لاردة وإفراغة ومكناسة الواقعة ، في المثلث الواقع بين نهري سنكا وسجري فرعي نهر إبرة (الإيرو) ، وثانياً في ثغر طرطوشة الواقع على البحر المتوسط عند مصب إبرة . وكان ثغر طرطوشة كما قدمنا بالأخص هدف ملك أراجون ، إذ كان الاستيلاء عليه ، يحقق له الاستيلاء على ما بقي من مجرى نهر إبرة ، ويضمن له سلامة الملاحة في هذا النهر العظيم ، ويصل ما بين مملكته وبين البحر . ومن ثم فقد وضع ألفونسو مشروعه الكبير من شقين ، يتضمن الأول الاستيلاء على القواعد الإسلامية ، الواقعة في مثلث نهري سنكا وسجري ، ثم يتبعها بالشق الثاني وهو الاستيلاء على طرطوشة . وأعد ألفونسو حملة جديدة قوية للبدء في تنفيذ مشروعه ، واشترك في هذه الحملة كثير من الأشراف والفرسان الفرنسيين ، على غرار ما حدث في حملة سرقسطة ، وبدأ ألفونسو بالزحف على مدينة (مكنسة) مكناسة الواقعة عند ملتقى نهري سجري وإبرة ، وهي قاعدة حصينة ، ولكن الدفاع عنها لم يكن ميسوراً لوقوعها في السهل المكشوف ، فهاجمها النصارى بشدة ، واضطرت إلى التسليم بعد مقاومة عنيفة ، وذلك في يونيو سنة ١١٣٣ م (أواخر سنة ٥٢٧ هـ) .

واتجه ألفونسو بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدينتي إفراغة ولاردة ، وبدأ الزحف على إفراغة وهي تقع على الضفة اليمنى لنهر سنكا على مسافة قريبة من شمال مكناسة . ولم يكن الاستيلاء على إفراغة بالأمر الهين ، لموقعها الحصين فوق الرابي العالية في نهاية منحدر وعرض ضيق ، تصعب مهاجمته ، ويسهل الدفاع عنه . ومن جهة أخرى ، فقد شعر المرابطون ، من أهبة ألفونسو وعنفت تحركاته ، أن

المعركة الحاسمة بينهم وبين النصارى في الثغر الأعلى ، أضححت على وشك الوقوع . وكانوا مذوقفوا على حركات ألفونسو وأهباته ، لافتتاح قواعد الثغر الباقية ، قد رأوا من باب التحوط والاستعداد ، أن يعقدوا التفاهم والسلم مع أمير برشلونة رامون برنجير الثالث ، وذلك خشية أن ينتهز الفرصة فيهاجمهم من جانبه ، ويضطر المرابطون إلى القتال في جهتين ، فاتفقوا على أن يؤدوا له جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دينار ، وذلك عن أمر على بن يوسف وتوجيهه . فغضب لذلك ألفونسو ، وأقسم بأنه سوف ينزع تلك البلاد التي تؤدى عنها الجزية ، ويقطع بذلك منفعتها عن الطرفين الخصيمين (١) .

ومن ثم فإنه ما كادت مكناسة تسقط في يد العدو ، حتى بادر المرابطون في الثغر ، وفي وسط شرقي الأندلس ، إلى التأهب للدفاع عن إفراغة ولاردة ، وهرع الزبير بن عمرو اللمتوني من قرطبة إلى الثغر الأعلى ، في ألني فارس ، ومعه مقادير وفيرة من المؤن . وهرع إليه الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية والى بلنسية ومرسية ، في قوة تقدرها الرواية بخمسمائة فارس ، وكان من أعظم وأشجع القادة المرابطين . وكذلك حشد عبد الله بن عياض والى لاردة قواته . وكان أهل إفراغة حينما ضيق عليهم ألفونسو الحصار ، وأخذت مواردهم في النضوب ، قد كتبوا إلى يحيى بن غانية باعتباره عميد القادة المرابطين ، بطلب الإنجاد والأقوات ، وأنذروه في كتابهم ، بأنه إن لم يفعل خضعوا لألفونسو ، وسلموه المدينة . ولكن ابن غانية لم يكن في حاجة إلى مثل هذا النذير ، وكانت مهمة إنجاد إفراغة وإنقاذها تلقى لديه ، ولدى سائر القادة المرابطين منذ البداية منتهى الغيرة والاهتمام (٢) .

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو قد وصل بقواته إلى إفراغة ، وضرب حولها الحصار ، فقاومته حاميتها وأهلها بقيادة واليها سعد بن محمد بن مردنيش أشد مقاومة ، واضطر أن يرفع الحصار غير مرة ، ثم يعود إليه ، وحملته هذه المقاومة ذاتها ، على مضاعفة جهوده في التضييق على المدينة المحصورة ، والتصميم على أخذها . وأقسم ألفونسو تحت أسوار إفراغة ، كما أقسم أبوه سانشو راميرز قبل ذلك بأربعين عاما . تحت أسوار وشقة ، أن يفتح إفراغة أو يموت دونها ، وأقسم معه عشرون من سادته ، وأمر ألفونسو كذلك أن يؤتى برفات القديسين إلى المعسكر

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر) .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر) .

إذ كاء الحاسمة الحند ، وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوة بالقوامس (الكونتات) . وهنا تختلف الروايات الإسلامية والنصرانية في تصوير الوقائع ، وبينما تقول الرواية الإسلامية إنه ما كادت الجيوش المرابطية تصل إلى إفراغة ، حتى نشبت الموقعة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، إذا بالرواية النصرانية تقدم إلينا تفصيلاً آخر ، وهو أنه ما كادت القوات المرابطية تصل إلى ظاهر إفراغة ، وتقدم إلى إنجادهما ، حتى وقعت بينها وبين النصارى معركة متواليتين ، وهزم المرابطون في الموقعتين ، ولجأوا إلى الفرار ، وعندئذ دب اليأس إلى أهل المدينة وعرضوا التسليم ببعض الشروط ، فرفض ألفونسو كل عرض للتسليم ، وصمم على اقتحام المدينة بالسيف ، فانقلب المحصورون إلى مقاومة اليأس ، ونظم المرابطون قواتهم ، وعادوا إلى محاولة إنقاذ المدينة ، ودبروا كميناً جذبوا إليه الأرجونيين ، على يد قافلة من المؤن . وهنا نشب القتال واضطربت الموقعة .

وعلى أي حال ، فقد نشبت بين المرابطين وبين النصارى تحت أسوار إفراغة ، موقعة من أشد وأعنف ، مما عرف في تاريخ المعارك الحاسمة في الثغر الأعلى . وتقدر الرواية الإسلامية قوات المرابطين بنحو ثلاثة آلاف فارس^(١) ، وهو تقدير لا يتفق في نظرنا مع ضخامة المعركة ونتائجها ، وتقدرهم الرواية النصرانية بعشرة آلاف فارس^(٢) . وأما الجيش النصراني ، فتقدره الرواية الإسلامية بإثنى عشر ألف فارس^(٣) . ومن المرجح على أي حال ، أن القوات النصرانية كانت تتفوق في الكثرة على المسلمين . ووقع بين الفريقين قتال شديد مروع ، وأبدى المسلمون بقيادة ابن غانية ضروباً رائعة من البراعة والباسالة ، وقاتل الأرجونيون كذلك بفيض من الشجاعة ، وكان ملكهم يقود المعركة بنفسه ، وخرج أهل إفراغة ، فانقضوا على النصارى من الخلف ، فاشتد الأمر على النصارى ، وكثر القتل فيهم ، وهلكت منهم عدة كبيرة من القادة والأكابر ، ومزقت صفوفهم تمزيقاً ، وأصيبوا بهزيمة ساحقة ، لم يصبهم مثلها منذ موقعي الزلاقة وأقلش^(٤) ، واستولى

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ ، وهو يحدد القوات المرابطية على النحو الآتي : قوات قرطبة ألف فارس ، وقوات مرسية وبلنسية خمسمائة فارس ، وقوات لاردة مائتا فارس .

(٢) M.Lafuente: ibid; Vol. III. p. 248. وكذلك أشباخ في تاريخ الأندلس في

عهد المرابطين والموحدين (الترجمة العربية) ص ١٦٤ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

(٤) راجع في تحديد معالم الموقعة خريطة الثغر الأعلى (ص ٩١ من هذا الكتاب) .

المسلمون على محلهم وعتادهم وسلاحهم ، وكان ذلك في اليوم السابع عشر من يولييه سنة ١١٣٤ م (٢٣ رمضان سنة ٥٢٨ هـ) (١) .

وتختلف الرواية اختلافاً بيناً في مصير ألفونسو المحارب . ومعظم الروايات النصرانية على أنه سقط خلال الموقعة . ويؤيد هذه الرواية صاحب « الأخبار الطليطلية » وردريك الطليطلي . وثوريتا وغيرهم . ولكن الذي يثير ريباً حولها ، هو أن جثة ألفونسو المحارب لم توجد قط بين ضحايا الموقعة (٢) . وأما الرواية الأخرى ، فهي أن ألفونسو توفي بعد الموقعة بأيام قلائل ، ويروى مؤرخ قطلونى معاصر في وصفه للمعركة ، أنه حين تمت الهزيمة الساحقة على النصارى ، عمد ألفونسو إلى الفرار بصحبة فارسين فقط ، ولجأ إلى دير القديس « خوان دى لابنيا » في سرقسطة ، وهناك توفي غمماً ويأساً ، لثمانية أيام فقط من الموقعة ، وذلك في ٢٥ يولييه سنة ١١٣٤ . وهذا ما تؤيده الرواية الإسلامية مع خلاف يسير . فإن ابن الأثير يقول لنا في حديثه عن الموقعة ، أن ابن رذمير (ألفونسو) لحق عقب هزيمته بمدينة سرقسطة ، « فلما رأى ما قتل من أصحابه ، مات مفجوعاً بعد عشرين يوماً من الهزيمة » (٣) ويقول ابن القطان أن ابن رذمير فر في شزيمة قليلة جداً ، ولحق بمدينة سرقسطة ، واله العقل ، مخبول الذهن ، ثم خرج منها إلى وشقة فأقام بها مختلاً أشهراً قليلة ثم حان أجله (٤) . ويقول لنا صاحب الروض المعطار ، إن ألفونسو فر عقب هزيمة ، وأوى إلى حصن خرب في رأس جبل شاهق ، مع الفل الذي بقي معه ، ثم غادره متسللاً بالليل حينما أحرق به المسلمون (٥) .

(١) تختلف الرواية العربية في تاريخ الموقعة فيضعه ابن عذارى في سنة ٥٢٨ هـ (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ١٠٠) . ويقول لنا ابن القطان إنها وقعت في سنة ٥٢٩ هـ ويقول في موضع آخر إنها وقعت سنة ٥٢٨ هـ (المخطوط السابق ذكره) ويضعها ابن الأثير في سنة ٥٢٩ هـ (ج ١١ ص ١٣) . ويقول لنا صاحب الروض المعطار إنها وقعت في رمضان سنة ٥٢٥ هـ (صفة جزيرة الأندلس ص ٢٤) . ولكن الرواية النصرانية تحدد لنا تاريخها تحديداً دقيقاً واضحاً ، وهو يولييه سنة ١١٣٤ ، الموافق لرمضان سنة ٥٢٨ هـ .

(٢) يراجع في ذلك M. Lafuente : ibid ; Vol. III. p. 248 ، والهامش حيث يعدد الروايات النصرانية المؤيدة لسقوط ألفونسو في الموقعة . وراجع أيضاً : F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides p. 269 - 272

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

(٤) في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٥) الروض المعطار ص ٢٥ .

وقد كان لنصر المرابطين في إفراغة ، صدى عميق في سائر أرجاء الأندلس ،
وفي اسبانيا النصرانية بنوع خاص ، وعادت سمعة المرابطين العسكرية ، إلى سابق
مكانتها في شبه الجزيرة ، وذاع صيت يحيى بن غانية ، قائد المرابطين في ذلك
اليوم المشهود ، وسرى فيما بعد كيف يضطلع ابن غانية في قيادة المرابطين في
شبه الجزيرة بأعظم دور . وقد نظم الشاعر أبو جعفر بن وضاح المرسي ، في واقعة
إفراغة ، ومديح ابن غانية قصيدة يقول فيها :

شمرت برديك لما أسبل الواني وشب منك الأعادي نار غيان
دلفت في غاية الخطي نحوهم كالعين يهفو عليها وطف أجفان
عقرهم بسيوف الهنيد مصلثة كأنما شربوا منها بغدوان
هون عليك سوى نفس قتلهم من يكسر النبع لم يعجز عن البان
وقفت والجيش عقد منك منتثرا إلا فرائد أشياخ وشبان
والخيل تنحط من وقع الرماح بها كأن نصالها ترجيع ألحان

وكان من أثر موقعة إفراغة ، وهلاك ألفونسو المحارب ، أن انقشع الخطر
مدى حين ، عما بقي بأيدي المسلمين من أراضي الثغر الأعلى ، وعن شرقي الأندلس ،
واختفت من ميدان الصراع بين المسلمين والنصارى ، شخصية خطيرة كانت
تهدد بمشاريعها البعيدة المدى وتصميمها المستميت ، سلام المسلمين ، وسلامة
الوطن الأندلسي . وقد كان ألفونسو المحارب في الواقع ، مثل فرناندو الأول ،
وآلفونسو السادس ، من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، في العصور الوسطى .
وكان افتتاحه لسرقسطة ، فاتحة عصر جديد لمملكة أراجون ، كما كان افتتاح
آلفونسو السادس لطليطلة فاتحة عصر جديد لمملكة قشتالة ، وقد غدت مملكة أراجون
في ظله ، باتحاد مملكة نافار معها ، منذ عهد أبيه سانشو ، قرينة مملكة قشتالة من
حيث ترامي الرقعة ، وضخامة الموارد ، وقوة المراس في مناجزة الأندلس ، وقد
استطاع هو أن يوطد حدود مملكته ، وأن يوسع رقعتها ، بافتتاحه سرقسطة وتطيلة
وطرسونة وقلعة أيوب ودورقة وغيرها ، من القواعد الإسلامية ، وكانت أمامه ،
بزواجه من أوركا مملكة قشتالة ، فرصة لأن يغدو قيصر لإسبانيا الكبرى ، ولكن
ما نشب بين الزوجين من خلاف حول السلطان ، وما أبداه أشراف قشتالة من
بغض لنير أراجون - كان كفيلا بتحطيم مثل هذا المشروع ، وكانت الحرب

الأهلية التي نشبت من جراء ذلك بين قشتالة وأراجون ، تتيح للمسلمين أوقاتاً للتهادن ، كما تتيح لهم فرص الغزو في الأراضي النصرانية . والرواية الإسلامية نفسها تشيد بعظمة ألفونسو المحارب . ويصفه ابن الأثير في قوله « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً ، وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين وأعظمهم صبراً » (١) . هذا وسوف نغني عن الكلام عن تاريخ اسبانيا النصرانية في عهد المرابطين ، بالتحدث عن أحوال أراجون وقشتالة في عهد ألفونسو المحارب .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن المرابطين ، بالرغم من نصرهم الساحق في موقعة إفراغة ، وتمزيقهم للجيش الأرجوني شر ممزق ، لم يفكروا في الاستفادة من نصرهم بالزحف توطاً على سرقسطة ، ومحاولة استردادها ، وقد كانت على مقربة من ساحة نصرهم ، وكان سحق الجيش الأرجوني ، وهلاك عاهله ، مما يشجع على الاضطلاع بمثل هذه المحاولة ، ولكن المرابطين قنعوا في ذلك الموطن بالنصر ، وانصرفوا إلى قواعدهم ، على غرار ما حدث عقب نصر الزلاقة ، حيث أحجم عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين عن مطاردة القشتاليين ، وانتهز فرصة انهيار الجيش القشتالي لمحاولة استرداد طليطلة ؛ ومن الغريب أن المرابطين كانوا في نفس الوقت الذي اضطرت فيه معركة إفراغة سنة ٥٢٨ هـ يقومون بغزوات مخربة عقيمة في أراضي قشتالة ، بقيادة الأمير تاشفين ، ولد أمير المسلمين علي بن يوسف ، ولو أنهم حشدوا مزيداً من قواتهم في الثغر الأعلى ، على أثر انتصارهم في إفراغة بقيادة قائدهم البطل يحيى بن غانية ، لكانت لديهم بلاريب فرصة مرجحة ، لاسترداد الثغر الإسلامي العظيم - سرقسطة - وفي رأينا أن المرابطين ، بإحجامهم عن استغلال ظفرهم في الزلاقة وإفراغة ، وإحجامهم في الحالة الأولى عن محاولة استرداد طليطلة ، وفي الثانية عن محاولة استرداد سرقسطة ، قد ارتكبوا في الحالتين خطأ عسكرياً لاشك في خطورته ، وكانت له في الحالتين نتائج بعيدة المدى .

٥ - خاتمة ملك بني هود بالثغر الأعلى

لما دخل المرابطون سرقسطة بدعوة أهلها ، في أواخر سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) كان قد غادرها آخر ملوكها من بني هود ، عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة . ولم يكن عبد الملك قد حكم سوى فترة يسيرة ، دب الخلاف

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

خلالها بينه وبين أهل سرقسطة لمخالفته النصارى وانضوائه تحت لوأهم ، حسبما فصلناه من قبل فى كتاب « دول الطوائف » . وسار عبد الملك فى أهله وأمواله إلى قاعدة روطه المنيعه ، الواقعة على الضفة اليسرى لنهر خالون أحد أفرع نهر لبرة الجنوبية ، على قيد خمسة وثلاثين كيلومتراً من سرقسطة . وكان بنو هود قد أنشأوا هذه القاعدة ، وحصنوها وزودوها بالأبنية الضخمة ، وأعدوها لتكون لهم عند الضرورة ملجأ ومثوى . وفى بعض الروايات أن الذى أنشأ حصن روطه ، وأسبغ عليه مناعته الفائقة ، هو المستعين والد عبد الملك ، وأنه حفر فيه إلى الوادى سرباً أتقن أدراجه ، تنيف على أربعائة درج فلا ينقطع فيه المياء (١) . واستقر عبد الملك فى هذه القاعدة ، وأنشأ بها إمارة صغيرة . والظاهر أن إمارة روطه كانت تشمل يومئذ ، رقعة من الأراضى ، تمتد شمالاً حتى برجة الواقعة شمال غربى سرقسطة ، على مقربة من تطيلة ، يدل على ذلك ما يذكره صاحب البيان المغرب فى أخبار سنة عشر وخمسمائة من أن الأمير أبا بكر صاحب سرقسطة ، خرج إلى الغزو ، وهاجم حصن روطه ، وأثنخ فى أنحائه ، ثم تحرك إلى برجة ، وبها عماد الدولة بن المستعين بن هود ، فضيق عليها ، وبالغ فى إرهابها ، حتى صالحه أهلها ، فرجع عنها إلى سرقسطة (٢) . وعلى أى حال فإنه يبدو أن العداء كان مستحكماً ، بين عماد الدولة وبين المرابطين ، ومن ثم فقد وضع عماد الدولة نفسه تحت حماية ملك أراجون القوى ، ألفونسو المحارب ، خشية من نقمة المرابطين سادة سرقسطة ، واستمر عبد الملك عماد الدولة ، فى حكم إمارته الصغيرة نحو عشرين عاماً ، حتى توفى بحصن روطه فى شعبان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) . وكانت سرقسطة قد سقطت فى تلك الأثناء فى أيدي النصارى ، وأصبح ألفونسو المحارب سيد هذه الأنحاء بلا منازع . وتوجد ثمة رواية مفادها أن عماد الدولة بن هود ، لبث أميراً بسرقسطة ، تحت حماية المرابطين ، حتى سقطت المدينة فى أيدي النصارى ، وعندئذ فر منها إلى روطه (٣) . بيد أن هذه الرواية ضعيفة لاتؤيدها أية رواية أخرى . وينقضها بالعكس ، ماسبق أن ذكرناه من توالى الولاة المرابطين على سرقسطة ، مذ دخلها ابن الحاج حتى سقوطها فى أيدي النصارى فى سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) .

(١) ابن الكردبوس فى كتاب « الإكتفاء » (مخطوط الأكاديمية السالف الذكر لوحة ١٦٥ب) .

(٢) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٧٨) .

(٣) ابن الكردبوس فى كتابه السالف الذكر (المخطوط لوحة ١٦٥ب) .

ولما توفي عماد الدولة خلفه في إمارة روضة وأعمالها . ولده أبو جعفر أحمد ابن عبد الملك ، وتلقب بسيف الدولة المستنصر بالله . وكذلك المستعين بالله ، واستمر في حكم روضة وما حولها من الحصون والأراضي ، وحذا حذو أبيه في مخالفة النصارى ، والانضواء تحت حماية ألفونسو المحارب ملك أراجون . بيد أنه ما لبث أن شعر بوطأة هذا النير . ورأى أن يتجه إلى الناحية الأخرى من اسبانيا النصرانية ، إلى ناحية قشتالة . وكان ملك قشتالة الفتي ألفونسو ريمونديس ، الذي تسميه الرواية العربية أدفنش بن رمند باسم أبيه ريموند البورجونى ، وبالسلطين أى الملك الصغير - لأنه تولى الملك وهو حدث ، وأضحى بعد وفاة أمه أورآكا في سنة ١١٢٦م ، ملكاً على ليون وقشتالة ولما تجاوز الحادية والعشرين . وكان ألفونسو ريمونديس ، بعد أن انتهى النضال بينه وبين خصمه ومنافسه ألفونسو المحارب ، زوج أمه القديم بظفره . وأضحى سيد قشتالة القوى ، يبدو لسيف الدولة حليفاً أفضل . وتعرف الرواية اللاتينية « سيف الدولة » معرفة جيدة ، وتسميه « سفادولا » Zafadola ، وتقول لنا إن سيف الدولة عرض على أولاده ووزرائه ، فكرة التحالف مع ملك قشتالة والانضواء تحت لوائه ، فوافقوا عليها ، وأنه بعث إلى ملك قشتالة برغبته في زيارته . وبأن يرسل إليه بعض فرسانه للحماية ، خوفاً من المرابطين ، فبعث إليه الملك ببعض أكابر فرسانه ، وصحبوه إلى بلاط طليطلة ، فاستقباه الملك بترحاب وعطف ، وعامله معاملة ملك ، وقدم إليه طائفة من الهدايا النفيسة ، وتأثر سيف الدولة بما رآه من فخامة بلاط قشتالة ، وكرم معاملته ، فأعلن أنه ينضوى تحت لوائه وحمايته ، ويضع نفسه هو وأولاده تحت تصرفه ، ثم نزل له عن حصن روضة ، مقابل حصون وبلاد في منطقة طليطلة وإسترامادورة ، أعطاه إياها ملك قشتالة ، فانتقل إليها ووضع نفسه في خدمته (١) .

وتقدم إلينا بعض الروايات النصرانية الأخرى ، قصة سيف الدولة في صيغة أخرى ، فتقول إن سيف الدولة لما برم بحماية ملك أراجون المرهقة ، وخشى من انقلاب رعيته عليه لمخالفته للملوك النصارى ، قرر أن يعترف بحماية ملك قشتالة ، ونزل له عن روضة اليهود ، وغيرها من المواقع المنيعة ، الباقية من مملكته الصغيرة ،

(١) تراجع هذه الرواية في T.I. A. P. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901)

p. 466-467 وكذلك في F. Codera : Dec. y Disp. de los Almoravides, p. 24-26

فاستقبله ملك قشتالة بترحاب ، وأعطاه في مقابل ذلك ، عدة أمكنة في قشتالة وليون (سنة ١١٣٢ م)^(١) .

وتحدثنا الرواية العربية عن سيف الدولة المستنصر بن هود ، وعن تنازله عن حصن روضة لملك النصارى ، ولكنها تختلف في تفاصيل ذلك . ويضع ابن الأثير هذا التنازل في حوادث سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) ، ويقول لنا إن المستنصر ابن هود ، عقد في هذه السنة الصلح مع « السليطين » (ألفونسو ريمونديس) . وكان « السليطين » قد أكثر من غزو بلاد المستنصر وقتالها حتى ضعف عن مقاومتها ، فرأى أن يريح نفسه وجنده مدة ، فاستقر بينهما الصلح لمدة عشر سنين ، على أن يسلم المستنصر حصن روضة ، وهو من أمنع الحصون وأحصنها ، وتسلم النصارى الحصن « وفعل المستنصر فعلة لم يفعلها قبله أحد »^(٢) .

ويقدم إلينا ابن الكردبوس عن هذه الواقعة رواية ضافية ، ينفرد فيها بتفاصيل خاصة ، خلاصتها أن طاغية الروم الإمبراطور الملقب بالسليطين ، هو الذي راسل المستنصر ، وعرض عليه أن يتخلى له عن روضة ويعوضه عنها بقشتالة ما هو أحسن وأفيد ، بحيث يغدو وأقرب إلى بلاد غربي الأندلس ، وأنه سوف يخرج معه بنفسه إلى طائفة من البلاد المتاخمة لقشتالة يدعو أهلها لطاعته ، وأنه على يقين من أن أهل هذه البلاد سوف يستجيبون إلى دعوته ، لأن المرابطين قد أذاقوهم العذاب ، وهم يكرهونهم ، ويتمنون زوال دولتهم ، وأخيراً أنه لم يبق من أبناء الملوك المسلمين سواه ، أي المستنصر ، وهكذا تخلى المستنصر لملك قشتالة عن روضة وهي « معقل ما أبصر مثله من يعقل » . وعوضه عنها ملك قشتاله بقرى ومزارع مغللة في بلاده . ثم خرج معه إلى غربي الأندلس ، في قوات كثيفة ، فما قصد موضعاً إلا ألفاه ممتنعاً ، ولم تستجب إلى دعوته أية قرية ، أو أي موضع ، وخشى أهل هذه البلاد جميعاً ، إن أطاعوه وانضموا تحت لوائه ، فإن العدو يغلبهم ويملكهم ، وهكذا رجع المستنصر من مشروعه بأخسر صفقة^(٣) . ويستفاد من رواية ابن الكردبوس هذه ، أن ملك قشتالة ، كان يرمى إلى استخدام المستنصر

(١) M. Lafuente: ibid ; Vol. III p. 247.

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

(٣) وردت رواية ابن الكردبوس في كتاب « الإكتفاء » (مخطوط أكاديمية التاريخ السابق

الذكر لوحة ١٦٥ ب) .

في إنشاء إمارة متاخمة لقتالة من ناحية الجنوب الغربي ، تتكون من بعض البلاد والقرى الإسلامية النائية المحاورة لحدود قشتالة ، وذلك لكي يجعل منها قاعدة أمامية لعدوانه على أراضي الأندلس ، ووسيلة للضرب والتفريق بين المسلمين في تلك المنطقة ، بيد أنه فشل في مشروعه واقتصر سيف الدولة المستنصر ، في مقامه بقتالة ، على الأماكن والأراضي التي منحت له ليعيش فيها . ويقول لنا ابن الأبار إن ملك قشتالة عوضه عن روضة بنصف مدينته طليطلة^(١) . وهذه رواية تدعو إلى التأمل : لأن طليطلة كانت في ذلك الوقت عاصمة مملكة قشتالة ، وتقول لنا الرواية اللاتينية السالفة الذكر إن ملك قشتالة منح المستنصر حصوناً وبلاداً في منطقة طليطلة وإسترامادورة ، وهو أقرب إلى المعقول ، وربما شملت هذه الأماكن حياً أو دوراً في طليطلة ذاتها . ويضع ابن الأبار تاريخ تنازل المستنصر عن روضة في شهر ذي القعدة سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) .

وهناك رواية أخرى يقدمها إلينا ابن الخطيب ، وهي تختلف في مضمونها عما تقدم ، وخلاصتها أن المستنصر بن هود لجأ إلى حماية ابن رذمير ، أعني ألفونسو الخنارب ملك أراجون ، وليس إلى حماية ملك قشتالة ، وأن ابن رذمير عاوضه عن روضة بأماكن من أعمال مدينة تـُطـيـلـة في شمالي الثغرفانتقل إليها بأهله وأمواله^(٢) . وهكذا انتهت بتخلي المستنصر عن قاعدة روضة وأعمالها ، رئاسة بني هود فيما تبقى من أنقاض مملكة سرقسطة القديمة . وأقام المستنصر في مقره الحديد في كنف ملك قشتالة بضعة أعوام أخرى ، إلى أن سنحت له فرصة للتدخل في حوادث الأندلس ، وشق طريقه إلى الرئاسة من جديد ، وهو ما سنعنى به في موضعه المناسب .

(١) ابن الأبار في الخلة السراء ص ٢٢٥ .

(٢) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٧٦ .

الفصل الخامس

الأمير تاشفين بن علي

وغزواته وأعماله في شبه الجزيرة

قاعدة التولية لدى المرابطين . علي بن يوسف يولي ولده تاشفين شئون الأندلس . الخلاف حول تاريخ هذه التولية . خروج تاشفين إلى غزو قشتالة . غزوة لوالى إشبيلية . القشتاليون يغزون أراضي قرطبة . غزوة ينتان بن علي لأراضي أراجون . تاشفين يفتح حصن السكة . عود القشتاليين إلى غزو أراضي قرطبة . مسير تاشفين إلى لقائمهم وهزيمتهم . غزو القشتاليين لأراضي إشبيلية ورددتهم . عودهم إلى الغزو بقيادة ملكهم ألفونسو ريموندس . التقاء تاشفين وقواته بالنصارى قرب بطليوس . هزيمة القشتاليين وفرارهم . خروج تاشفين إلى الغزو . اللقاء في موقعة البكار . هزيمة المرابطين في البداية ثم ثباتهم وانتصارهم . قصيدة أبي بكر الصيرفي في مديح تاشفين ونصحه . إيضاح عن مكان الموقعة . حوادث أندلسية مختلفة . غزوة قشتالية لأراضي الأندلس . توغل القشتاليين وغيثهم حتى أراضي شريش . غزوات جديدة لتاشفين في أراضي قشتالة . غزوة قشتالية أخرى لأراضي قرطبة . نقل قاعدة الحكم المرابطي من غرناطة إلى قرطبة . التنويه بتاشفين وحسن إدارته . عود تاشفين إلى المغرب . اختياره لولاية العهد مكان أخيه سير . ظروف هذه التولية وبواعثها .

- ١ -

وضح مما تقدم ، مما ذكرناه في أخبار ولاية الأندلس وأقاليمها ، أن الدولة المرابطية ، كانت تعتمد في حكم الأندلس على عصبية القبيل والأسرة ، فيتولى الحكم بها الأمراء من أبناء أمير المسلمين وقرابته وأصهاره ، ويتولى هؤلاء كذلك قيادة الجيوش المرابطية ، ويضطلع بالقيادة العامة ولد الأمير . وقد طبقت هذه القاعدة منذ البداية ، فكان الأمير سير ابن أبي بكر اللمتوني قائد الجيوش المرابطية ، ومتولى شئون الأندلس في عهد يوسف بن تاشفين ، ثم كان أبو الطاهر تميم ولد يوسف متولى القيادة العامة ، منذ وفاة والده ، وولاية أخيه علي بن يوسف ، وكذلك متولى شئون الأندلس ، وقاعدته الإدارية غرناطة . ولبث تميم في منصبه عدة أعوام ، قاد فيها الجيوش المرابطية منذ موقعة أقلدش في سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ، حتى سقوط سرقسطة في سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، وموقعة كُنُندة في سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) . وفي سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، ولي الأمير تميم ولاية إشبيلية إلى جانب ولاية غرناطة ثم صرف عن إشبيلية في العام التالي ، وولى

إشبيلية الأمير أبو بكر بن علي بن يوسف . واستمر الأمير تميم بعد ذلك والياً على
غرناطة . ومتولياً لسائر شئون الأندلس . حتى توفي سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) .
ومما هو جدير بالذكر أن القاضي أبا الوليد بن رشد ، حينما عبر إلى العدو في هذا
العام نفسه ، على أثر غزوة ألفونسو المحارب . بمالأة النصارى المعاهدين ، كان
يقصد - إلى جانب سعيه لدى أمير المسلمين علي بن يوسف في تغريب المعاهدين -
أن يسعى كذلك في عزل أخيه تميم عن ولاية الأندلس ، وتعيين غيره (١) . ولكن
القدر عجل بوفاة تميم . فعندئذ عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بشئون الأندلس ،
إلى ولده تاشفين بن علي ، فعبر إليها في جيش مرابطي جديد من خمسة آلاف
فارس ، ولم يلبث أن بدأ سلسلة جديدة من الغزوات في أراضي قشتالة .

وتختلف الرواية في تاريخ تولية تاشفين لشئون الأندلس . فهناك قول بأن
توليته كانت في سنة ٥٢٠ هـ عقب عزل عمه تميم (٢) . وهناك قول آخر بأن هذا
التعيين كان في سنة ٥٢٢ أو ٥٢٣ هـ (٣) ، ثم هناك قول ثالث بأنه كان في سنة
٥٢٦ هـ (٤) . بيد أنه يبدو من أقوال صاحب البيان المغرب عن غزوات تاشفين
بالأندلس ، وهي أقوال تؤيدها الرواية النصرانية . أن تاشفين كان موجوداً
بالأندلس منذ سنة ٥٢٢ هـ ، وأنه قد التقى في هذا العام ذاته بالقشتاليين على مقربة
من قلعة رباح (٥) . وهذه الرواية يؤيدها أيضاً ما يذكره لنا ابن القطان في حوادث
سنة ٥٢٢ هـ ، وهو أن علياً بن يوسف ، عزل ولده الأمير أبا بكر عن ولاية
إشبيلية ، وغربه مكبولا إلى الصحراء . لأنه لم يرض عنبيعة أخيه . وتوليه
شئون الأندلس . وعين مكانه لولاية إشبيلية أجداي والي قرطبة (٦) . ويؤيد
ابن عذارى واقعة عزل الأمير أبي بكر ولكنه لا يذكر لنا شيئاً عن تغريبه ، ويقول لنا
إن الذي خلفه في ولاية إشبيلية هو عمر بن سير . وذلك في شعبان سنة ٥٢٢ هـ (٧) .
وفضلاً عن ذلك ، فإن صاحب البيان المغرب . ينقل إلينا عن ابن الوراق رواية

(١) الخلل الموشية ص ١٠٧ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٤ و ٤٥٧ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ .

(٥) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٩٠) .

(٦) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره) .

(٧) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ١١٠) .

أخرى مفادها أن ولاية تاشفين للأندلس كانت في سنة ثلاث وعشرين وخمسة ،
وأنه قدم إلى غرناطة في السابع والعشرين لذي حجة من هذا العام (١) .
وعلى أي حال فإن حديث غزوات تاشفين في شبه الجزيرة يبدأ بالفعل قبل
هذا التاريخ . ويستفاد من رواية صاحب روض القرطاس أن تاشفين قد عبر إلى
شبه الجزيرة منذ سنة ٥٢٠ هـ ، وأنه خرج في أواخر هذا العام أو أوائل العام التالي
في جيشه ، وفي أجناد الولايات ، غازياً إلى أراضي طليطلة ، فعاث في أحوازها ،
واقترح اثنين من حصونها ، ثم سار نحو الغرب ، والتقى بالنصارى في موضع
يعرف « بفحص الضباب » فهزمهم هزيمة شديدة ، وافتتح ثلاثين حصناً من
حصون هذه المنطقة وكتب إلى أبيه بالفتح (٢) .

وقام الأمير تاشفين بعد ذلك بعدة غزوات في أراضي قشتالة ، وخاض مع
القشتاليين معارك عديدة . وبالرغم من أن الرواية العربية تحدثنا عن غزوات تاشفين
ووقائعها في عبارات حماسية ، فإنها لا تقدم إلينا تفاصيل شافية عن هذه الوقائع .
وكذلك فإن الرواية النصرانية ليست دقيقة ولا واضحة في هذا الموضع .

وفي وسعنا أن نتتبع غزوات الأمير تاشفين وحروبه مع النصارى منذ سنة
٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) ، ففي تلك السنة غزا القشتاليون أراضي الأندلس بجيش
ضخم ، ووصلوا في زحفهم إلى جبال الكرس ، على مقربة من قلعة رباح ،
فخرج الأمير تاشفين إلى لقاءهم ، فارتدوا عائدين إلى بلادهم .

وفي العام التالي ، أعنى في سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) ، سير الأمير تاشفين
جيش إشبيلية بقيادة واليها عمر بن سير اللمتوني ، فأغار على أطراف قشتالة ،
فخرج إليه زهاء ثلاثمائة فارس للعدو وقاتلوه بشدة ، فانهزم المرابطون ، وقتل
وأسر الكثير منهم . وكانت هذه الهزيمة ترجع بالأخص إلى تهاون عمر بن سير
وعدم تحوطه ، فرفع أمره إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فألزمه بدية من
أسر ، وعزله عن ولاية إشبيلية ، وولى مكانه الأمير أبا زكريا يحيى بن علي الحاج .
وفي سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) انحدرت القوات القشتالية جنوباً حتى أصبحت
على مقربة من قرطبة ، فاستغاث واليها عبد الله بن تينغمر بالأمير تاشفين ، فبادر
إليها في قواته ، فارتد القشتاليون أدراجهم ، ولم يشاءوا الاشتباك مع المرابطين ،

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبرس ص ٩١) .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٧ .

وتحول الأمير تاشفين بقواته إلى جيان . فلبث بها قليلا يرقب الحوادث ، ثم سار منها إلى غرناطة (١) .

وتوفي في أوائل هذا العام محمد بن يوسف بن يدّر والى بلنسية ، فعين مكانه ينتان بن علي وهو الابن الأصغر لعلی بن يوسف . وخرج ينتان بقواته غازياً في أراضي أراجون . فلقية النصارى بقيادة الكونت جاستون دي بيارن (وتسميه الرواية العربية غشتون) فهزم النصارى ، وقتل الكونت وسبق رأسه إلى غرناطة وطيف بها على رمح ؛ ثم حملت إلى أمير المسلمين بمراكش ، فطيف بها هنالك أيضاً .

وفي رمضان من نفس هذا العام . خرج الأمير تاشفين بجيش غرناطة وامتطوعتها . واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السكة Aceea من عمل طليطلة ، وكان ملك قشتالة ، قد شحنه بالمقاتلة للإغارة على أراضي المسلمين ، فحاصره تاشفين ، وافتتحه عنوة ، وقتل من كان به ، وأسرقائده تليو فرنانديث - وكان من مشاهير فرسان قشتالة - وكذلك ضباطه ، وتزيد الرواية النصرانية على ذلك ، أن القتلى من حامية الحصن بلغوا مائة وثمانين ، وأن تاشفين سار بعد ذلك إلى حصن بارجاس فقتل من رجاله خمسين . واستمر في تقدمه حتى وصل إلى « سان سرقاندو » من ضواحي طليطلة ، ثم ارتد بعد ذلك بقواته جنوباً وعاد إلى غرناطة ، فاستقبله الناس أفخم استقبال (٢) .

وفي صفر سنة ٥٢٥ هـ (يناير ١١٣١ م) ، هزم المرابطون قوة من القشاليين كانت تغير على الحدود وتضيق على المسلمين .

وفي هذا العام أسندت ولاية قرطبة إلى ابن أخت علي بن يوسف ، عبد الله ابن أبي بكر المعروف بابن قنونة . وفيه شبت النار بسوق الكتانين بقرطبة ، واتصلت بسوق البرز ، فأنت عليه وأسفرت عن خسائر فادحة . ورجم الناس ابن المناصف صاحب السوق لتقصيره في المعونة (٣) .

وفي ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ (يناير ١١٣٢ م) ، نمت إلى الأمير تاشفين أن

(١) نقلنا أخبار هاتين الغزوتين ، عن البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ٩١) .

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٩١) . وابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق الذكر لوحة ١٦٧) .

(٣) نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٦٨ ب) .

القشتاليين خرجوا من طليطلة متجهين صوب قرطبة، فبادر بالسير إلى قرطبة، ثم اتجه إلى لقاء العدو في قواته الخفيفة، وترك الثقل بحصن أرجونة، وفي تلك الأثناء كان القشتاليون قد وصلوا حصن شنت إشتين على مقربة من جيان، واستولوا عليه ثم ساروا إلى قرية براشة. وهناك التقى الفريقان، ووقعت بينهما معركة عنيفة، هزم فيها القشتاليون وقتل منهم عدد جم، وأسر قائد القشتاليين وعدة من أكابر ضباطه، واستولى المرابطون على مقادير وافرة من الأسلحة والدواب والثياب، وسار الأمير تاشفين بالأسرى والغنائم إلى قلعة رباح القريبة من ميدان المعركة، فأصلح أحوالها وحصن أسوارها، وترك الأسرى لدى أهلها، ليفتدوا بهم من يستطيعون من أسراهم، ثم عاد في قواته ظافراً إلى غرناطة^(١).

وقد سجل لنا ابن القطان من أحداث هذا الغم بعض صور أخرى غير أخبار الحرب والغزوات، فذكر لنا أن المجاعة اشتدت فيه بقرطبة، وانتشر الوباء بين الناس، وكثر الموت، وبلغ سعر المد من القمح خمسة عشر دينارا، وذاعت الفوضى وكثر أهل الشر، فجد الوالي ابن قنونة في مطاردة أهله، وقتل الكثير منهم.

وفي أواخر هذا العام، أعنى ٥٢٦ هـ، خرج جيش من القشتاليين بقيادة الكونت ردريجو كوثالث إلى ناحية إشبيلية وأغاروا على أراضيها من جهة حصن القليعة، وعاثوا فيها قتلاً وسبياً، ثم انحدروا فجأة إلى الشرف^(٢) على مقربة من المدينة وقتلوا من أهله جموعاً غفيرة، وأخذ والي المدينة عمر بن الحاج اللمتوني على غرة، فبادر في قواته إلى لقاء القشتاليين بالوادي على ضفة النهر، وبعث سرية من فرسانه إلى الضفة الأخرى، فأسرت بعض القشتاليين وجاءت بهم فأمر الوالي بضرب أعناقهم أمام أعين إخوانهم في الضفة الأخرى، فاضطرم القشتاليون سخطاً وحماسة، واقتحموا النهر كالسيل المنهمر، وأطبقوا على المرابطين، ووقعت بينهما معركة عنيفة، قتل فيها عمر بن الحاج ومعظم جنده، فأغلقت المدينة

(١) ابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ٤٥٩. والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها.

هسبيرس ص ٩٤ و ٩٥).

(٢) إقليم «الشرف» في الجغرافية الأندلسية، هو السهل الممتد غرباً من إشبيلية حتى لبلبة، وجنوباً حتى شاطئ المحيط، ويشمل حصن القصر، ولبلبة، وولبة، وجزيرة شلطيش، وجبل العيون. وقد سمي بهذا الاسم لأنه «مشرف من ناحية إشبيلية» (الإدريسي في نزهة المشتاق. الجزء الخاص بوصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس طبعة دوزي ص ١٧٤ و ١٧٨).

أبوابها دون الغزاة . واشتد الخوف بالناس . وكان ذلك في منتصف رجب من السنة المذكورة (١) .

وزحف القشتاليون على إشبيلية حتى صاروا على قيد فرسخين منها . وهم يثخنون في أحوازها قتلا وسبيا وتخريباً . وكان الأمير تاشفين . حينما نعى إليه عدوان القشتاليين قد نهض في قواته إلى إشبيلية . فطارد العدو وطهر منه الوادي . وارتد النصارى إلى بلادهم مثقلين بالغنائم والسبي .

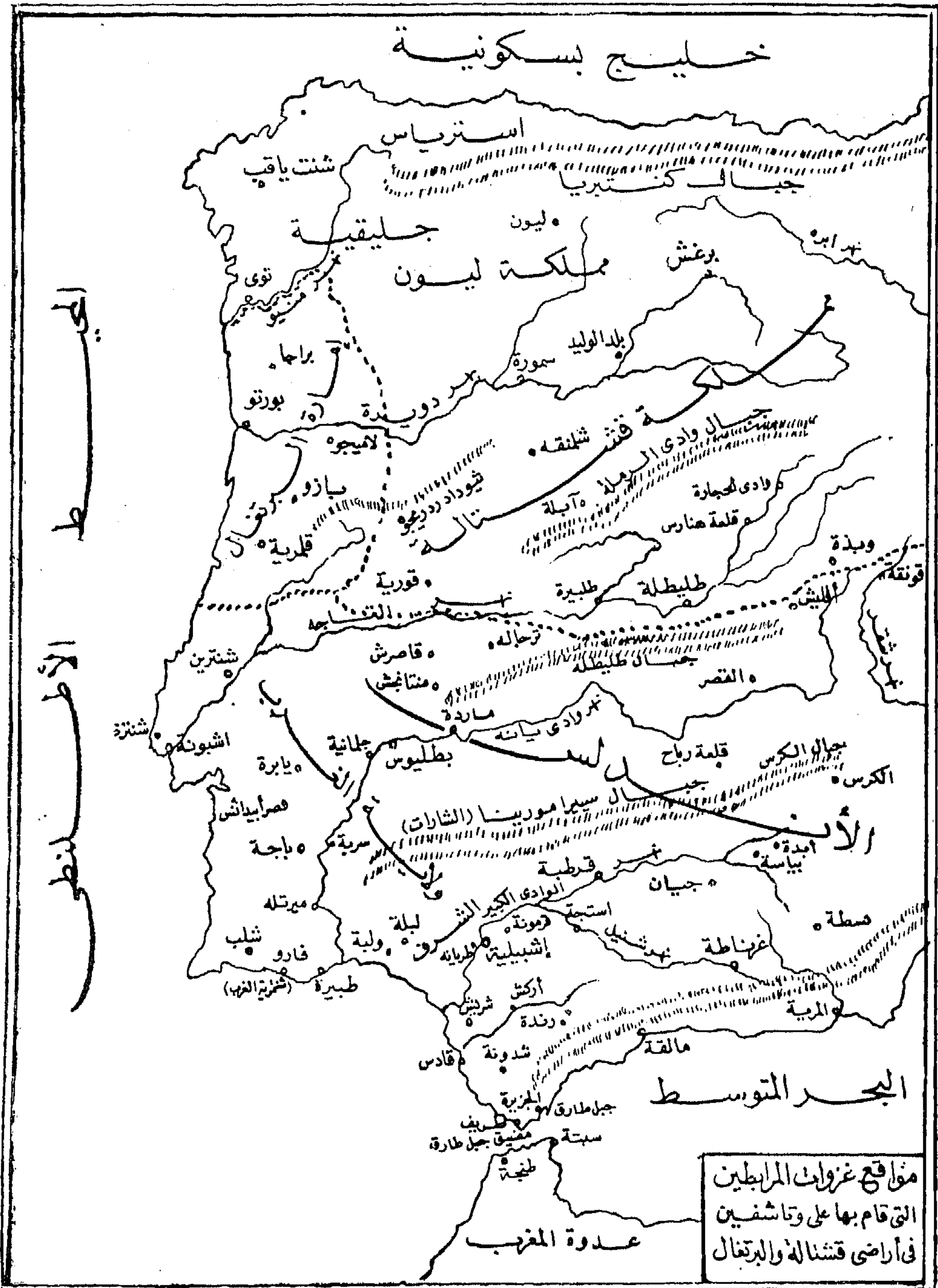
وتزيد الرواية الإسلامية على ما تقدم . أن الأمير تاشفين سار في قواته نحو الغرب ومعه ابن قنونة والى قرطبة . والتقى بقوة من النصارى . كانت قد أغارت على أحواز يابرة . فهزمها المرابطون . وقتلوا معظم رجالها . وأنقذوا منها الغنائم والأسرى (٢) .

بيد أنه لم يمض قليل عن ذلك . حتى بدت نيات القشتاليين واضحة في استئناف العدوان على نطاق واسع . ففي أوائل سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) حشد ألفونسو ريمونديس (ألفونسو السابع) أو ألفنش بن رمند كما تسميه الرواية العربية . جيشاً ضخماً من آلاف عدة . وبه كثير من أبطال قشتالة وأنجاءها المشهورين . وقصد إلى ناحية بطليوس . وعاث في أحوازها . وخرب أراضيها . فهض إليه الأمير تاشفين من إشبيلية في قوات ضخمة . ووقف من أدلائه وطلائعه على خط سير العدو . ورابط للقائه في مكان يقع شرقي بطليوس على مقربة من سهل الزلاقة . الذي اشتهر بانتصار جده العظيم يوسف بن تاشفين فيه . على ألفونسو السادس (٤٧٩ هـ) . وما كادت طلائع العدو تبدو . وقد ملأت جموعه وغنائمه السهل . حتى تاهب المرابطون للقائه بحماسة وتوثب . ونظم الجيش الإسلامي مثلما نظم يوم الزلاقة في وحدات متناسقة . فاحتل المرابطون . وعلى رأسهم الأمير تاشفين القلب . تتقدمهم البنود البيض مكتوبة بالآيات . واصطفت إلى جانبه القوات الأندلسية تتقدمها الرايات الحمراء بالصور الهائلة . واحتل الحناحين أهل الثغور وذوو الحلال . وعليهم الرايات المرقعات . واحتل المقدمة أنجاد زنانة . ولفيف الحشم ذوو العائم . وأمامهم الأعلام المصبغات . ونشبت بين الفريقين

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٩٧) ونظم الجمان (المخطوط السالف

الذكر لوحة ٧١ ب) . وابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ٤٦٠ .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧٢) .



البحر المتوسط

مواقع غزوات المرابطين
التي قام بها علي وتاشفين
في اراضي قشتالة والبرتغال

معركة عنيفة ، دارت فيها الدائرة على القشتاليين ، فهزموا شر هزيمة ، ولجأوا إلى الفرار ، وقد قتلت وأسرت منهم جموع غفيرة ، واستنقذ المسلمون الأسرى والغنائم من أيدي القشتاليين ، وكان ذلك في جمادى الأولى من سنة ٥٢٨ هـ (مارس سنة ١١٣٤) وقفل الأمير تاشفين في قواته ظافراً إلى قرطبة . ثم سار منها إلى غرناطة فاستقبل استقبالاً فخماً ، وأنشده الشعراء مهنئين ، فمن ذلك قصيدة طويلة جاء فيها :

أما وبيض الهند عنك خصوم فالروم تبذل ما طباك تروم
تمضى سيوفك في العدا ويردها عن نفسه حيث الكلام ونخيم
دار هجمت بيوتها بطباك فأبدأ على قمم الملوك هجوم^(١)

وفي شهر ذى الحجة من نفس العام (٥٢٨ هـ) خرج الأمير تاشفين أثر عيد النحر ، بقوات غرناطة وقرطبة وقوات المجاهدين من الخيل والرجل ، إلى الغزو ، فسار نحو الغرب ، وقد انضم إليه جيش إشبيلية « بفحص الريحانة » ثم سار إلى موضع تسميه الرواية « بالبكار » وهو طريق للعدو لا محيص منها . ولما رأى القشتاليون القوات المرابطية ، وضعوا خطة لاجتذابها إلى هذا الموضع ، وأقبل المرابطون بالفعل إليه ، وندب القشتاليون نخبة من أنجادهم تبلغ نحو ألفين ، فانقضت على المرابطين فجأة عند دخول الظلام ، في هذا الموضع الحرج ، واستطاعت أن تخترق صفوفهم في عدة مواضع ، فدب الخلل بال جيش المرابطين ، ونفرت الخيل وشردت واقتحمت الأنحية ، وعلا الضياح بين المسلمين ، وفروا من كل جانب ، ووصلت سرية من النصارى إلى خيمة الأمير تاشفين ، فأشار إليه بعض خاصته بأن يبادر بالفرار ، فأبى ، فأحرق به فرسان الأندلس وأنجاد المرابطين ، وحالوا بينه وبين العدو ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة ، والأمير تاشفين ثابت فوق فرسه ، متشح بسيفه ودرعه ، يشدد الضرب والطعان ، قال المؤرخ « فلم ير أربط منه جأشاً ولا أشهم نفساً ، في مطلع ذلك الهول » ، واستطاع أحد الحند العبيد أن يقضى على قائد القشتاليين المهاجمين بطعنة نافذة ، ثم انجلت الظلمة عن هزيمة النصارى ، وقد اجتمعت من القتلى من الجانبين أكاداس ضخمة . وفي صباح الغد سار الأمير تاشفين في قواته إلى حصن قشرش ، وهو من

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس - ص ٩٧) ، وابن الخطيب في الإحاطة

ج ١ ص ٤٦٠ و ٤٦١ . ولم يذكر لنا ناظم هذه القصيدة .

حصون المسلمين ثم غادره عائداً إلى قرطبة^(١) . وقد وجه إليه كاتبه أبو بكر يحيى ابن الصيرفي بهذه المناسبة قصيدة ضافية ، يهنته فيها بالسلامة ، ويحذره من خدع الحرب ، ويسدى إليه بعض النصائح فيما يجب أن يكون عليه القتال . وهي طويلة في نحو ستين بيتاً . نقتطف منها الآيات الآتية :

يا أيها المלא الذي يتقنع
ومن الذي غدر العدو به دجى
تمضى الفوارس والطعان يصددها
والليل مرضج الترايك بينهم
عن أربعين ثنت أعنتها دجى
لولا رجال كالجبال تعرضت
فثبتت والأقدام تزلق والردى
لا يعظمن على الأمير فإنها
ولكل يوم حنكة وتمرس
يا شجع الأبطال ليلة أمسه
ومنها في نصائح الحرب :

واحذر كمين الروم عند لقاءها
لا تبقين النهر خلفك عند ما
أجعل مناجزة العدو عشية
وصدمه أول وهلة لا ترتدع
وجاء في ختامها في مخاطبة تاشفين وتهنئته :

يا تاشفين أقم لجيشك عذره
هجم العدو دجى فروع مقبلا
كم وقعة لك في ديارهم انثنت
النعمة العظمى سلامتك التي
كادت تكون ولو إذا لتزلزلت
وهوت بأندلس عقاب لم تدع

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٥) . والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة

الذكر - هسبيرس ص ٩٨ و ٩٩) .

لأضيّع الرحمن سعيك إنه سعى به الإسلام ليس يُضيّع
نستودع الرحمن منك ودیعة فهو الحفیظ لكل ما يستودع (١)

وتشير الرواية القشتالية إلى هذه الموقعة (٢) ، ولكنها كالرواية العربية ،
لا توضح لنا مكان وقوعها توضيحاً ، كافياً ، والظاهر مما تشير إليه أقوال صاحب
البيان المغرب ، من أن الأمير تاشفين ، سار غداة المعركة في قواته إلى حصن
« قشرش » أنها وقعت على مقربة من هذا المكان . وتقع قشرش أو قاصرش
Cáceres ، جنوبي نهر التاجه وشمال شرقي بطليوس وغربي ترجاله . أما تاريخ
الموقعة ، فتضعه الرواية العربية حسبها تقدم ، في أواخر شهر ذي الحجة من سنة
٥٢٨ هـ (أوائل أكتوبر سنة ١١٣٤ م) . ومما تجدر ملاحظته أن وقوعها جاء
لنحو ثلاثة أشهر فقط من موقعة إفراغة ، التي هزم فيها ألفونسو المحارب وفقد
حياته ، هذا في حين أنه يبدو من أقوال الرواية النصرانية ، أنها وقعت قبل
موقعة إفراغة .

ومما يلفت النظر ، ما يذكره لنا ابن القطان غير مرة من هجوم أسراب الحراد
على بسائط الأندلس وإتلافها في هذين العامين الأخيرين . وقد ذكر لنا أنه في
العام الذي وقعت فيه الغزوة السابقة - وهو يضع تاريخها في سنة ٢٢٩ هـ -
« محت الحراد ما على الأرض من زرع وكلاً ، وأمر الناس بالخروج إليها فساقوا
منها خمسة آلاف عدل ، وثلاثمائة وثلاثين عدلاً ، وما غاب عن العيون أكثر
تركت في الموضع الذي قتلت فيه ولم تحمل » .

ومما يذكر من أحداث هذه الفترة أيضاً ، أنه في سنة ٥٢٩ هـ ، وقع بقرطبة
هياج شديد ، وثارَت العامة ضد اليهود على أثر ظهور قتيل مسلم في بعض أحيائهم ،
واقترحوا منازل اليهود ، ونهبوها ، وقتل خلال ذلك عدد منهم . ووقعت في
نفس الوقت بعض اضطرابات بمدينة إشبيلية ، من جراء ثورة العامة ضد قاضيها
أبي بكر بن العربي ، وكان يشتد في زجرهم ، ومعاقبتهم بمختلف العقوبات
الأيمة المبتكرة (٣) .

(١) راجع الحلل الموشية حيث يشير إلى هذه الموقعة بإيجاز (ص ٩٢) ، ثم يورد قصيدة.
ابن الصيرفي كلها (ص ٩٣ - ٩٦) .

(٢) M. J. Lafuente : *ibid*; Vol. III. p. 248

(٣) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ١٠١) .

وفي نفس هذا العام ، وقع حادث مروع بجامع قرطبة . هو مصرع قاضي قرطبة أحمد بن خلف التجيبي (أو أبو عبد الله بن الحاج وفقاً لابن القطان) . وثب به أحدهم فطعنه بخنجره . وهو راكم حين صلاة الجمعة . فسقط مضرجاً بدمه . ووقع بالجامع هرج عظيم . وأخرج المرابطون منه أميرهم تاشفين في حراسة قوية ، وقبض على القتائل وقتل حينه في صحن الجامع . وتوفي القاضي في مساء نفس اليوم ، وهو الخامس والعشرون من صفر سنة ٥٢٩ هـ (١) .

وتقص علينا الرواية النصرانية قصة غزوة قام بها القشتاليون في سنة ١١٣٣ م ومعهم سيف الدولة المستنصر بن هود . في أراضي الأندلس . على غرار غزوة ألفونسو المحارب . وتقول لنا إن ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة قسم جيشه لهذا الغرض إلى قسمين . بقصد تسهيل التموين والحركة . سار هو على رأس أحدهما . وقاد الآخر سيف الدولة . والدون رديجو كونثالدي لارا زعيم ليون . وعبر الجيشان جبال سيرا مورينا ، (جبل الشارات) . واجتمعا على مقربة من قرطبة ، وكان المفصل فصل الحصاد فأمر ملك قشتالة بانتساف حقول القمح والكروم والزيتون وغيرها . فساد الرعب بين المسلمين وهجروا السهول والقرى . إلى الحصون ومغائر الجبال . ووصل الجيش النصراني في زحفه إلى أحواز إشبيلية ، وهو يحرق المزارع والقرى والقلاع المهجورة . ويدمر المساجد ويحرق المصاحف . ويقبض على الفقهاء ويعذبهم . وشمل هذا العيث المروع الذي كانت تقوم به سرديات خفيفة من الفرسان النصارى ، سائر المنطقة الواقعة ما بين قرطبة وإشبيلية . وامتلات صفوف القشتاليين من الغنائم والأسرى والأقوات . ومن ثم سار ملك قشتالة إلى شريش ، فخربها وهدمها . ثم سار إلى قادس . ولما رأى ذلك أمراء الأندلس ، بعثوا إلى سيف الدولة يطلبون إليه أن يعمل ملك النصارى ، على تحريرهم من نير المرابطين ، فبعث إليهم بعد التفاهم مع ملك قشتالة يحثهم على انتزاع الحصون ومقاتلة المرابطين . وعندئذ يأتي هو وملك قشتالة لإنجادهم . بيد أن الملك اعزم أن يعود أدراجه على الأثر . وألا يغامر بالبقاء في أرض لا يأمن مغبتها . وارتد إلى منطقة طليطاة (٢) .

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - مسيرس ص ١٠ و ١٠١) ؛ وابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) M Lafuente: ibid; (cit. Crónica Alfonso VII); Vol. III. p. 249

وتقدم إلينا الروايات الإسلامية أنباء هذه الغزوة في عبارات موجزة . ويضع ابن القطان حدوثها في سنة ٥٢٦ هـ (١١٣٢ م) ، ويقول لنا إنه في هذه السنة خرج السليطين (ألفونسو ريمونديس) وابن هود إلى بلد المسلمين ، فهبطوا إلى إشبيلية ، وانبسطت خيلهم ، واقتحمت ما وجدت ، ثم هبطوا إلى شريش ، فدخلوها وقتلوا كل من فيها ، وبالغوا في النكاية بالمسلمين ، ثم رجعوا إلى بلادهم . ويقول لنا ابن عذارى نقلا عن ابن حمادة ، إن العدو وصل إلى حومة شريش والبحيرة ، ولم يلقه أحد من المسلمين . ويضع تاريخ هذه الغزوة في سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٣ م) متفقاً بذلك مع الرواية النصرانية (١) .

ولكن الرواية العربية من جهة أخرى تشير إلى غزوات ثلاث أخيرة قام بها الأمير تاشفين . وبالرغم من أنها تذكر لنا التاريخ والمكان في كل غزوة ، فإنها لا تقدم لنا عنها تفاصيل شافية . وقد وقعت الأولى في سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) ، وفيها التقى الأمير تاشفين بالقشتاليين في مكان يعرف « بفحص عطية » فهزمهم ، وقتل منهم جموعاً غفيرة . وفي العام التالي أعنى سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) ، غزا الأمير تاشفين أرض قشتالة ، واقتحم مدينة كركشي على مقربة من قلعة رباح فلم يجد بها أحداً .

وقد أورد لنا ابن الخطيب بهذه المناسبة أبياتا نظمها الكاتب الكبير أبو عبد الله ابن أبي الحصال يمدح فيها الأمير تاشفين ، ويشير إلى موقعة كركشي ، وفيها يقول :

الله أعطاك فتحاً غير مشترك	ورد عزمك عن فوت إلى درك
أرسل عنان جواد أنت راكبه	واضمم يدك ودعه في يد الملك
قد كان بعدك للأعداء مملكة	حتى استدرت عليهم كورة الفلك
فما تركت كميأ غير منفغر	ولا تركت نجيعاً غير منسفك
فصحبهم جنود الله باطشة	والصبح من عبرات الفجر في مسك (٢)

ووقعت الغزوة الثالثة في سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) ، وكانت لمدينة « أشكونية » (أو أشكلونة Escalona وفقاً لصاحب نظم الجمان) وقد كانت حسبما يقول لنا صاحب الروض المعطار من أعمال كورة تدمير أي مرسية (٣) . وهذا

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق الذكر لوحة ١٧٢) ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبريس ص ٩٦) .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة - مخطوط الإسكوريال السالف الذكر (لوحة ٢٩) .

(٣) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٢٢ و ١٧٢ .

ما لا يمكن قبوله لأن ولاية تدمير كانت كلها من الأراضي الإسلامية . بيد أن الرواية النصرانية تلتقى بعض الضوء على أخبار هذه الغزوة ومكانها ، فتقول لنا أن الأمير تاشفين ، قام قبيل عبوره إلى العدو باجتياح أراضي بلدتي وبذة ، وألاركون . وهما من أعمال مقاطعة قوننة الواقعة على الحدود ، ثم دخل قوننة وأخضعها . وكان أهلها قد أعلنوا الخروج والثورة وذلك في سنة ١١٣٧م (١) ، وتقول الرواية الإسلامية إن تاشفين دخل أشكلونة (ألاركون ؟) عنوة ، وقتل كل من كان بها وسبي نساءها ، واحتوى على أسلابها . ومنها عدة من النواقيس العظيمة . ودخل قرطبة وبين يديه الأسلاب والغنائم ، فكان يوماً مشهوداً . ثم تضيف الرواية إلى ذلك قولها إن الأمير تاشفين حمل من سبي هذه الغزوة عند عبوره إلى العدو في نفس العام ستة آلاف سبية (٢) .

وأخيراً . فإن تاشفين قبيل مغادرته للأندلس وحين خروجه من قرطبة قاصداً إلى العدو . بلغه قيام النصارى بغزو منطقة جيان ، فاستعد للسبر إلى لقاءهم . وكان القشتاليون قد خرجوا في حشود عظيمة ، وساروا نحو الوادي الكبير ، واقتربوا من بيباسة وأبذة ، وعاثوا في تلك المنطقة ، واستعدوا لعبور النهر ، ولكن الأمطار هطالت بشدة ، واستمرت على هطلها عشرين يوماً حتى فاض النهر ، وعجزت الخيل المغيرة عن عبوره . ووضع القشتاليون بعض المعادى فوق الماء ، وحاولوا عبور النهر . فانكسر بعضها وغرق من كان فيها ، وتبعهم قائد جيان فأوقع بجماعة منهم . وانصرف النصارى بعد أن هاجموا حصن شبيوطة من عمل أبذة وعجزوا عن اقتحامه . أما تاشفين فإنه لبث يترقب السير إلى الشمال ، مدى أسابيع ، والأمطار تهطل والسيول تغمر الطرق والبساتن وتعوقه عن السير . فلما بلغه انصراف النصارى ، ارتد من فوره صوب طريق العدو ، وجاز البحر عائداً إلى حضرة مراکش ، وكان ذلك في سنة ٥٣٢هـ (٣) .

ومما هو جدير بالذكر أن الأمير تاشفين . كان حينها ولاه أبوه شئون الأندلس عقب وفاة عمه أبي الطاهر تميم ، قد اتخذ مقره في غرناطة ، التي جعلتها الدولة

(١) A. P. Ibars : Valencia Arabe; P. 475

(٢) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٩) . وروض القرطاس ص ١٠٧ .

(٣) ابن التطان في نظم الجمان (المخطوط السابق الذكر) .

المرابطية مركز الإدارة العامة لشئون الأندلس ، وكان الحاكم العام المرابطى يعتبر أحياناً في نفس الوقت والياً لغرناطة ، وكان من بين معاونيه يومئذ الكاتب والشاعر والمؤرخ البارع ، أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى ، المشهور بابن الصيرفى صاحب كتاب « الأنوار الجلية فى تاريخ الدولة المرابطية » . تولى له منصب الكتابة ، فحظى لديه وكانت له فيه مدائح حمة^(١) . بيد أنه لم تمض بضعة أعوام على تولى تاشفين لمنصبه ، حتى صدر إليه مرسوم أبيه أمير المسلمين من مراکش فى العشرين من رجب سنة ٥٢٦هـ^(٢) ، بتعيينه والياً لقرطبة وبأن يجعل قرطبة « دار سكناه ومقر مشواه » ، وأن يستخلف على غرناطة عند مغادرتها ، أبا محمد الزبير بن عمر ، ليقوم بالولاية على شئونها . وقد كان الزبير هذا من زعماء لمتونة المرموقين ، ويشيد ابن الخطيب بذكوره ويصفه « بندرة الزمان كرمياً وبسالة ، وحزماً وأصالة »^(٣) . ويوصى أمير المسلمين ولده فى هذا المرسوم الذى دججه قلم الوزير الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال بقوله : « وعلى مقرر ما درك من العمل ، فازدد من التيقظ باتساع ذرعك ، وامتداد مسعاك ، واستعن بالله فى إعلانك وأسرارك ، ونخذ من أوقات ليلك الأوقات المباركة ، واجعل لنظرك حظاً من سهرك ، ولفكرك مستمنحاً من يديك ، على مستظهر عن المشورة فى مواطن الاشتباه ، فإن الله سبحانه يقول لرسوله : « وشاورهم فى الأمر »^(٤) . ويستفاد مما تقدم أن على بن يوسف قرر أن ينقل مركز حكم الأندلس ، من غرناطة إلى قرطبة لأسباب رآها ، وهى أسباب ربما كانت سياسية وعسكرية فى نفس الوقت .

ودخل تاشفين قرطبة والياً فى شعبان من هذه السنة (٥٢٦هـ) ، وعزل واليها السابق عبد الله بن قنونة ، وسير إلى إشبيلية فاعتقل بها لأسباب لم توضحها الرواية ، وذلك بالرغم من قرابته لأمر المسلمين^(٥) .

-
- (١) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الفزيرى لوحة ٤١٥) .
(٢) والظاهر أن ابن خلدون قد اعتبر أن هذا المرسوم ، هو مرسوم تولية تاشفين ولاية الأندلس ، ولذلك فإنه يضع تاريخ توليته لهذا المنصب فى سنة ٥٢٦هـ (كتاب العبر ج ٦ ص ١٨٦) .
(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٥٨ .
(٤) نقل إلينا صاحب البيان المغرب بعض محتويات هذا المرسوم (وقد وردت فى الأوراق المخطوطة السابقة الذكر - هسبيرس ص ٩٥ و ٩٦) . وقد نشرنا فى باب الوثائق بعض فقراته .
(٥) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧٢) .

وقد استوفينا فيما تقدم ، ما وقفنا عليه من تفاصيل الغزوات والحروب التي قام بها الأمير تاشفين خلال وجوده في شبه الجزيرة . أما عن أعماله الإدارية وأسلوبه في الحكم ، فلم نلتق الكثير . وقد لخص لنا ابن الصيرفي مؤرخ الدولة المرابطية ، سيرته في ذلك في عبارات موجزة خلاصتها ، أن الأمير تاشفين عني منذ ولايته لشئون الأندلس بإصلاح الحصون ، وسد الثغور ، وإذكاء العيون على العدو ، وتنظيم الجيش ، واقتناء الخيل والسلاح ، وتكوين فرق الرماة ، وتوسيع الأرزاق على الحند ، واستنهاض همهم ، كما عني بالغزو ومباشرة الحرب ، فقام بعدة غزوات توجت بالظفر على العدو ، وافتتح فيها عديد الحصون . وأما عن أسلوبه في الحكم ، فإنه سار في حكم الأندلس وتمهيد أحوالها بالحزم ، والتزم العدل في معاملة الرعية ، وكذلك في معاملة الحند ، فملك قلوب الجميع بعدله ورفقه ، « ولم يكن منه إلا الحد ، ولم تُنل عنده الحظوة إلا بالغناء والنجدة »^(١).

وهذه أقوال يؤيدها صاحب البيان المغرب ، ويحملها في قوله : « وساس (أي تاشفين) أهل الأندلس سياسة طار بها ذكره ، من الاستقامة ، واتباع ناموس الشريعة »^(٢) .

وتنوه الرواية في نفس الوقت بصفات تاشفين الشخصية ، فتقول لنا إنه « كان بطلا شجاعاً حسن الركبة والهيئة لولا بخل أهل به ، وأنه كان يسلك طريق ناموس الشريعة ، ويميل إلى طريقة المستقيمين ، وقراءة كتب المريرين . وقيل إنه لم يشرب قط مسكراً ، ولا استمع إلى قينة ، ولا اشتغل بلذة صيد ، ولا غير ذلك مما يلهو به الملوك من ساير اللهو »^(٣) . وينوه ابن الصيرفي بورعه وتقواه ، وصيامه وقيامه^(٤) .

لبث الأمير تاشفين والياً على الأندلس ، وقائداً عاماً للجيش المرابطية بها

(١) ابن الخطيب عن ابن الصيرفي ، في الإحاطة ج ١ ص ٤٥٦ ، وراجع أيضاً الحلل الموشية ص ٩٠ .

(٢) البيان المغرب في الأوراق المخطوطة المتقدمة الذكر .

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ٩٠) ، والإحاطة

ج ١ ص ٤٥٦ .

(٤) الإحاطة ج ١ ص ٤٥٧ .

حتى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) وقيل بل حتى سنة ٥٣١ هـ^(١). وهو إلى جانب مهامه الإدارية يضطلع بالغزوات المستمرة في أراضي النصارى حسبما فصلناه من قبل . ثم وصلته أوامر أبيه أمير المسلمين بالعودة إلى المغرب ، فعبر البحر إلى العدو في أوائل جمادى الأولى من هذا العام (٥٣٢ هـ) ، ودخل مراكش في أول رجب ، وفي ركبته عدد كبير من سبي غزوة أشكونية حسبما تقدم ، فاستقبله أبوه أعظم استقبال ، وسعد بلقائه أو « فرح به » على قول المؤرخ . وكان مما يتصل بذلك ما يرويه لنا ابن عذارى ، من أن أمير المسلمين عليا ، كان قد مرض في العام السابق (٥٣٠ هـ) ، واشتد به المرض ، حتى كثرت الإشاعات ، وساءت الطنون ، وسرى القلق إلى بلاد الأندلس ، فلما تلقى تاشفين خطاب والده بالعود ، أسرع بالاستجابة والقبول^(٢). وفي العام التالي ، أعني في سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) أصدر أمير المسلمين علي بن يوسف مرسوم ولاية عهده لولده الأمير تاشفين ، عقب وفاة ولده الأكبر وولى عهده سير ، وأخذ له البيعة بذلك وفقاً للقاعدة التي وضعها مؤسس الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين ، باختيار أمير المسلمين لولى عهده في حياته من بين أبنائه ، وعقد البيعة له .

ولاختيار تاشفين لولاية العهد قصة فصلتها الرواية ، وهي أنه في سنة ٥٢٢ هـ اختار أمير المسلمين علي بن يوسف ولده الأمير سيراً لولاية عهده من بعده^(٣) ، وجعل له الأمر في بقية حياته ، واختار في نفس الوقت ولده الأمير تاشفين لولاية الأندلس ، وولاه مدينة غرناطة وألمرية ، ثم قرطبة بالإضافة إلى ما في يده . وأبدى تاشفين في أداء مهام منصبه مقدرة وهمة مشكورة ، وظهر بالأخص في ميدان الجهاد ضد النصارى ، وذاع صيته في شبه الجزيرة وفي العدو ، فكبر ذلك على أخيه سير ولى العهد ، وخاطب سير أباه في ذلك ، وأعرب له عن قلقه وامتناعه لما ناله أخوه من بعد الصيت وحسن الذكر ، وأنه قد غطى بذلك على اسمه ، ونال إعجاب أهل المملكة ، وأنه لم يبق له معه اسم ولا ذكر ، فحاول أمير المسلمين أن يرضى ولده وولى عهده سير ، باستدعاء أخيه تاشفين من الأندلس ، ولما وصل تاشفين إلى مراكش ، نظمه أبوه في حاشية أخيه « وصار من حملة من يتصرف بأمر أخيه ، ويقف ببابه كأحد حجابيه » . وكان علي بن يوسف متأثراً

(١) « روض القرطاس » ص ١٠٧ . والإحاطة ج ١ ص ٤٥٤ و ٤٦١ .

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبوس ص ١٠٣) .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٣٤) .

في هذا التصرف بنفوذ حظيته قمرأم ولده سير ، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لها ، وهي التي حملته على عزل تاشفين وإخماله إرضاء لأخيه .
ولكن شاء القدر أن يتوفى سير فجأة وفي حادث مروع مشين معاً وذلك في أوائل سنة ٥٣٣ هـ . وتلتزم الرواية الإيجاز والتحفظ في شأن هذا الحادث ، ويقول لنا ابن عذارى ، إن سيراً كان يركن إلى الراحة والبطالة ، ويصطحب أهل الفكاهة والمجون ، وأنه اقتحم ليلاً على أخيه تاشفين في داره ، فضربه حتى مات ، وقيل غير ذلك . والظاهر ، وهو ما تصرح به بعض الروايات ، أن الأمر يتعلق بمحاولة مشينة ، فإن ابن القطان يقول لنا ، إن علي بن يوسف كان قد فتن بولده سير ، وقدمه ولي عهده ، ولم يكن أهلاً لشيء ، فعكف على البطالة ، ودخل متسوراً على أخيه عمر يريد زوجته ، فجرح جراحة عجلت منيته ، فجزع عليه أبواه . وكان مصرع سير على هذا النحو في آخر صفر سنة ٥٣٣ هـ^(١) . وعندئذ تدخلت قمر مرة أخرى لتحمل علي بن يوسف على تقديم ولده الأصغر إسحاق لولاية العهد ، وكانت قد تبنته وعينت بتربيته عند موت أمه . واكن علياً اعتذر بصغر سنه وبأنه لم يبلغ الحلم ، وأنه سوف يستدعى الناس إلى الجامع لأخذ رأيهم في ذلك . واستدعى على الناس وأكابر المرابطين ، وعرض عليهم الأمر ، فهتفوا جميعاً باسم تاشفين ، فنزل على عند هذه الرغبة ، وعقد البيعة بولاية العهد لولده تاشفين وذلك في الثامن من شهر ربيع الآخر ، ونقش اسمه في السكة ، وقلده النظر في الأمور الساطانية ، وكتب إلى سائر بلاد العدو والأندلس ببيعته ، فوصلت البيعات من كل جهة مؤيدة للبيعة ، ومؤرخة بشهر رجب سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م)^(٢) .
على أن استدعاء الأمير تاشفين من الأندلس إلى العدو ، ثم أخذ البيعة له على هذا النحو ، لم يكن يرجع فقط إلى ما تقدم من العوامل والظروف ، وإنما كان راجعاً بالأخص إلى ما وقع في تلك الأثناء بالمغرب ، من تطورات وأحداث عظيمة ، ترتبت على ظهور المهدي محمد بن تومرت ، ودعوته الدينية الجديدة ، وما تلاها من قيام دولة الموحدين في تينمائل ، واضطرام الصراع المرير بينها وبين المرابطين . وهو ما سنغني بذكره وتفصيله في موضع آخر .

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ١٠٤) ، وابن القطان في نظم الجمان المخطوط السالف الذكر لوحة ٨٢ ب .

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ١٠٤) . وابن الخطيب عن ابن الوراق في الإحاطة ج ١ ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

الفصل السادس

شرق الأندلس

ولاية بلنسية ومرسية . يحيى بن غانية . ندبه به لحاية الشرق . أصله ونشأته . ولايته لشرق الأندلس . مسيره في القوات المرابطية لإنجاد حصن أرنية . تقدمه نحو طليطلة . ما تقوله الرواية النصرانية عن انصراف المرابطين . الغزوات في غرب الأندلس . أخبار الجزائر الشرقية ، ولايتها بعد الفتح المرابطي . وانور بن أبي بكر . محمد بن علي بن غانية . استقلاله بحكم الجزائر ، وقيام دولة بني غانية بها .

- ١ -

كان شرقي الأندلس في عهد المرابطين ، يشتمل بعد سقوط سرقسطة ، على ولايتي بلنسية ومرسية ، وكان يتبع بلنسية سائر الأراضي والقواعد الممتدة شمالاً من شاطبة حتى الثغر الأعلى ، ومن البحر غرباً حتى قونقة ، ويتبع مرسية سائر الأراضي والقواعد الواقعة على ضفتي نهر شقورة ، والممتدة جنوباً حتى ولاية المرية .

وقد سبق أن أتينا على ذكر ولاية بلنسية ومرسية ، منذ الفتح المرابطي حتى سقوط سرقسطة . وكان والي مرسية قبيل سقوط سرقسطة ، الأمير أبو إسحق إبراهيم ابن يوسف بن تاشفين ، أخو أمير المسلمين علي بن يوسف ، وكان والي بلنسية أخوه الآخر الأمير أبو الطاهر تميم . وقد فصلنا في حديثنا عن سقوط سرقسطة ، الدور الذي قام به الأمير تميم في حوادث الحصار ، والدور الذي قام به أخوه إبراهيم في موقعة كتندة المشثومة (٥١٤ هـ) وهو يومئذ والي إشبيلية .

وخلف الأمير إبراهيم في ولاية مرسية ، أبو محمد يدّر بن ورقا ، أوحسبها يسميه صاحب البيان المغرب محمد بن يوسف يدّر ، والظاهر أنه تولى في نفس الوقت ولاية بلنسية . ولما شعر يدّر باشتداد وطأة الغزوات النصرانية ، في شرقي الأندلس ، طلب إلى أمير المسلمين علي بن يوسف ، أن يوجه إليه يحيى بن غانية لمعاونته ، فاستجاب أمير المسلمين إلى طلبه ، وبعث إليه بابن غانية ، وكان ذلك في سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) . ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن ابن غانية ،

وفد عندئذ إلى شرقي الأندلس والياً لمرسية^(١) . ولكن الظاهر أنه قدم إليه بصفة قائداً للجيش المرابطية ، وأنه لم يتشج بثوب الولاية إلا فيما بعد ، حينما توفي يدّر في سنة ٥٣٤ هـ^(٢) .

وهو الأمير أبو زكريا يحيى بن علي بن غانية الصحراوي ، الذي لعب فيما بعد في حوادث الأندلس في أواخر العهد المرابطي ، أعظم دور ، واضطلعت أسرته - بنو غانية - فيما بعد ، في الجزائر الشرقية ، وفي إفريقية ، ضد الموحدين ، بأخطر صراع . وقد سُمّي بنو غانية ، باسم أمهم غانية ، وهي لمتونية من قرابة يوسف بن تاشفين ، وربما كانت تسميتها بهذا الاسم دلالة على أصلها الإقليمي ، أو بعبارة أخرى نسبة إلى بلاد غانة ، وهي التي افتتحها المرابطون عند مطلع نهضتهم في مشارف الصحراء الكبرى . وتلقب الولد باسم الأم دون الأب ، من الأمور الدائعة في أسر لمتونة ، خصوصاً متى كانت الأم تمتاز بصفات وخلاها العالية . ولدينا من ذلك أمثلة أخرى ، مثل الأمير محمد بن عائشة ، ولد يوسف ابن تاشفين ، والقائد محمد بن فاطمة . وكان والد يحيى ، علي بن يوسف ، من زعماء قبيلة مسوفاة أحد بطون صنهاجة . وربى يحيى وأخوه محمد ، الذي ولي حكم الجزائر الشرقية فيما بعد ، في بلاط مراکش ، في عهد يوسف وولده علي ، ثم عبر يحيى إلى الأندلس وهو فتى ، وعاش في كنف الأمير أبي عبد الله محمد بن الحاج اللمتوني ، والى قرطبة في أواخر عهد يوسف ، وتزوج أمه غانية بعد وفاة أبيه علي ، فنذبه لحكم مدينة إستجة ، فكانت أول ولاية أسندت إليه . ولما تولى علي بن يوسف الأمر بعد أبيه ، عزل ابن الحاج عن ولاية قرطبة ، لانضمامه إلى الخوارج عليه ، المناصرين لابن أخيه يحيى بن أبي بكر والى فاس ، وقد ذكرنا خبر خروجه في بداية حكم علي وفشل ثورته ، فانفصل عندئذ يحيى بن غانية عن ابن الحاج وجماعته . ثم عفا علي عن ابن الحاج وغيره من القادة المواليين ليحيى ، وعين ابن الحاج لولاية المغرب مكان أخيه أبي الطاهر تميم بن يوسف ، الذي وُلّي حكم الأندلس ، ثم نُدب ابن الحاج بعد ذلك لولاية بلنسية ، ومنها سار إلى سرقسطة ، وقد فصلنا أخباره وغزواته فيما تقدم .

ولسنا نجد في الأعوام التالية ، أثراً لأخبار يحيى بن غانية ، بين مختلف

(١) ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٨١) .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيري) لوحة ٣٩١ .

الولاية . والظاهر أنه كان عندئذ ينتظم في قيادة الجيش ، لما ظهر من فائق شجاعته وبراعته . ثم كان ندبه لولاية مرسية ، أو لمعاونة واليها يدّر في سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) حسبها تقدم . ومن ذلك الحين يلمع اسم يحيى في حوادث شبه الجزيرة لمعانا شديداً ، فهو يقوم بقيادة الحيوش المرابطية في شرقي الأندلس بكفاية وبراعة ، وهو يكرر الغزو لأراضي النصارى في أراجون وقطالونيا ، وقد كان له فيما يبدو دور ملحوظ في مقاومة قوات ألفونسو المحارب حينما اخترق شرقي الأندلس ، في غزوته التي قام بها استجابة للنصارى المعاهدين (سنة ٥١٩ هـ) ومر فيها بأراضي بلنسية ، واجتاز إلى جزيرة شقّر ، وقاتل أهلها أياماً ، ثم تحول إلى دانية ، واتجه بعد ذلك صوب شاطبة ومرسية . وقاومه المسلمون أينما حل . ولما توفي يدّر والي بلنسية ومرسية في سنة ٥٢٤ هـ ، كما تقدم ، ولّى يحيى على شرقي الأندلس (١) ، بيد أنه كان أكثر انشغالا بشئون الحرب والقيادة ، وكان ينبغ عنه في حكم بلنسية ومرسية أخاه لأمه ، المنصور بن محمد بن الحاج . ولما حاصر ألفونسو المحارب إفراغة ، هرع يحيى في قواته لإنجادها ، مع من هرع إليها من ولاية الأندلس الآخرين . وقاد يحيى قوات الإنجاد في المعركة التي نشبت تحت أسوار إفراغة بشجاعته وبراعته المأثورتين ، فكانت الهزيمة الساحقة على النصارى في رمضان سنة ٥٢٨ هـ (يولييه سنة ١١٣٤ م) حسبما فصلنا ذلك في موضعه (٢) .

ولبت يحيى بن غانية ، بعد موقعة إفراغة ، والياً على شرقي الأندلس بضعة أعوام أخرى . وتقص علينا الرواية الإسلامية قصة غزوة أخرى ، في الأراضي النصرانية ، اشترك فيها ابن غانية . وخلاصتها أن القشتاليين ضربوا الحصار بقوات كثيفة ، حول حصن « أرنية » أو أرلبة (٣) الواقع شرقي طليطلة ، على الحدود بين ولاية قونقة وقشتالة ، وكان من أمتع الحصون الإسلامية في تلك المنطقة ، وضيق النصارى على حامية الحصن ، وقطعوا عنها الأقوات ، فهض والي قرطبة الأمير عبد الله بن أبي بكر ، واستمد الأمير تاشفين ، واستمد في نفس الوقت يحيى بن غانية والي مرسية وبلنسية ، وهرعت القوات المرابطية ، من قرطبة ومرسية ومن

(١) ولكن ابن عذارى يقول لنا إن الذي ولي على شرقي الأندلس بعد وفاة يدّر ، هو يينتان بن على اللمتوني (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسيرس ص ٩١) .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩١) . وراجع

Gaspar Remiro : Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p. 152—154.

(٣) وهو الحصن الذي يسمى بالإسبانية حصن Oreja ، أو حصن أورليا Aurelia .

إشبيلية ، واجتمعت تحت قيادة ابن غانية ، وسارت مسرعة لإنجاد الحصن وإمداده بالموئن . واستعد القشتاليون للقاء المسلمين بقوات جديدة . ويضع صاحب البيان المغرب تاريخ هذا الحصار في سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م)^(١) . ولكن الرواية النصرانية ، تضعه بعد ذلك بعدة أعوام في سنة ١١٣٧ م . وليس هنالك في الرواية الإسلامية ، ما يدل على أن موقعة حدثت في هذا الموطن بين المسلمين والنصارى . وكذلك فإن الرواية النصرانية ، تقول لنا إن هذا اللقاء بين المسلمين والنصارى في أراضي طليطلة ، انتهى إلى خاتمة تتسم بالفروسة . وذلك أن الجيش المرابطى ، وقد كان وفقاً لأقوال هذه الرواية ، يتكون من ثلاثين ألف فارس ، سار من طريق طليطلة . وكان ملك قشتالة ألفونسو السابع (ألفونسو ريمونديس) قد عهد بحماية طليطلة إلى حامية قوية تشرف عليها زوجها الملكة برنجيلا ، فلما وصل الجيش المرابطى إلى ظاهر أسوار طليطلة ، خرجت الملكة برنجيلا إلى شرفة « القصر » العالى المطل على نهر التاجه ، وبدأت للقادة المسلمين مع وصائفها ، وقد ازدانت بأفخر الثياب والحلى ، وبعثت إلى ابن غانية رسوفاً ، يؤئبه بلسانها لأنه قدم لمهاجمة بلد تدافع عنه امرأة ، في حين أن الإمبراطور ينتظرهم في جيشه عند حصن أرنية (أورينجا) ، فدهش ابن غانية وزملاؤه القواد المسلمون ، وأخذوا بذلك المنظر ، ولم يسعهم إلا أن ينحنوا قبالة الملكة المطلة عليهم ، تكريماً لها وتعظيماً ، ثم استأنفوا سيرهم ، دون أن يقوموا بأية محاولة . أما حامية حصن « أرنية » فتمد اضطرت في النهاية إلى التسليم (أكتوبر سنة ١١٣٧ م) ولكن سمح لها أن تخرج بالأمان وأن تسير إلى قلعة رباح^(٢) .

وهكذا يبدو مما تقدم ، أنه لم تقع في شرقي الأندلس ، في الفترة التي تلت سقوط سرقسطة ، وموقعة كتندة ، حوادث خاصة بهذه المنطقة ، سوى الغزوات المحلية العارضة ، والتي لم تقدم إلينا الرواية عنها تفاصيل شافية ، وقد كان شرقي الأندلس ، يردد صدى الحوادث العامة في شبه الجزيرة ويشترك فيها ، كما تشترك باقي الولايات الأندلسية ، وقد كانت الجيوش المرابطية كلها ، سواء في شرقي الأندلس أو غربه ، تعمل دائماً في حركات موحدة شاملة .

أما عن أخبار الغزوات في الناحية الأخرى من الأندلس ، فإن الرواية

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها - هيسيرس ص ٩٤) .

(٢) راجع : A. P. Ibras : Valencia Arabe (cit. Crónica Adefonsi Imperatoris)

الإسلامية تقدم إلينا بعض التفاصيل الموجزة ، عن بعض الأحداث التي وقعت عقب مغادرة تاشفين بن علي لشبه الجزيرة . ومن ذلك أن الزبير بن عمر والى قرطبة ، خرج في قواته غازياً لأرض النصارى ، وافتتح حصن مورة (سنة ٥٣٣ هـ) . وفي نفس العام ردت قوات شترين ويابرة عسكرياً من النصارى (البرتغاليين) حاول غزو الأراضي الإسلامية ، وقتلت وأسرت منه جملة وافرة ، واحتوت على أسلابه . وفي أواخر هذا العام غزا ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة أرض الأندلس ، وحاصر حصن إربلية ، فسارت قوات الأندلس من مختلف الأنحاء لرده وإنجاد الحصن ، ولكنها تخلفت في الطريق ، ثم عادت من حيث أتت ، واضطر الحصن ، بعد أن أرهق الحصار أهله إلى التسليم^(١) .

تحدثنا فيما تقدم من أخبار أمير المسلمين علي بن يوسف ، عما وقع في أوائل عهده من استرداده للجزائر الشرقية (جزائر البليار) من البيزيين والحنويين في أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) . ولما كانت الجزائر الشرقية ، تلحق دائماً بشرقي الأندلس ، فإنه يجدر بنا أن نتناول هنا ، طرفاً من أخبارها في تلك الفترة .

وقد ذكرنا عندئذ ، أن أمير المسلمين عين لولاية الجزائر عقب استرداده ، وانور بن أبي بكر اللمتوني^(٢) بيد أنه يبدو من بعض الرسائل السلطانية المرابطة التي بين أيدينا ، أنه قد سبقت ولاية وانور ولاية قصيرة الأمد للقائد أبي السداد والى دانية . ففي رسالة صادرة عن علي بن يوسف من حضرة مراکش ، في الحادى والعشرين من ربيع الأول سنة ٥١٠ هـ ، أعنى عقب استرداد الجزائر ببضعة أشهر ، يشير أمير المسلمين إلى موت القائد أبي السداد والى ميورقة ، ويسند ما كان تحت نظره إلى واليها الحديد ، ويسدى إليه النصيح بأن يحسن السيرة في أهل الجزيرة ، وأن يسلك طريق الرفق والعدل والحق ، وأن يستعمل الخزم في ضبط أحوالها ، وأن يسعى في استرجاع من خرج من أهلها ، وأن يستنيب من يرضاه في النظر على الأسطول والمستخلص بثغر دانية ، وأن يبذل جهده في

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكره لوحة ٨٢ ب) .

(٢) هذه رواية ابن خلدون في كتاب العبر ج ٤ ص ١٦٥ .

استمالة الناس . وهدثة روعهم ولاسيما بعد الذي « أحدثه السفية المعتوه ابن أبي السداد من إباحشهم وترويعهم »^(١) .

ويستفاد من هذه الرسالة أن القائد ابن أبي السداد : وقد كان والياً لثغر دانية ، حسبما تقدم ذكره ، قد ولى على ميورقة عقب استردادها في أواخر سنة ٥٥٠٩ هـ ، وأنه توفي بعد قليل من ولايته ، وأنه لم يحسن السيرة مع أهل الجزائر خلال ولايته القصيرة . وعلى أثر وفاته ، قام أمير المسلمين على بن يوسف باختيار خلف له . وبالرغم من أن اسم الوالي الجديد لم يرد في الرسالة ، ولا في ديباجتها ، فإنه يبدو من المرجح أنه لم يكن سوى وانور بن أبي بكر ، وهو أول وال حقيقي ، ولها عقب الاسترداد . أما إغفال أبي السداد في رواية ابن خلدون وغيره . فالظاهر أنه يرجع إلى قصر ولايته ، التي لم تتجاوز بضعة أشهر .

ولبت وانور بن أبي بكر والياً على الجزائر زهاء عشرة أعوام . وكان ظلوماً صارماً ، فعصف بأهل الجزائر واشتد في إرهابهم . وكان من أهم أسباب سخطهم عليه . أنه أراد أن يرغمهم على ترك ثغر ميورقة ، وإنشاء مدينة أخرى داخل الجزيرة . تكون بعيدة عن البحر . وأخيراً اضطرت الجزيرة بالثورة وغلب الثوار على وانور ، وقبضوا عليه ووضعوه في الأصفاد ، وبعثوا إلى أمير المسلمين يشرحون أحوالهم وظلاماتهم ، فاستجاب على إلى صريحهم . وعين والياً جديداً للجزائر ، هو محمد بن علي بن غانية المسوّفي ، أخو يحيى بن غانية الأصغر ، وكان عندئذ يتولى النظر على بعض أعمال قرطبة . فقدم إلى الجزائر في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، وأقر أهلها على ما فعلوه بوالهم السابق وانور . وبعثه مصفداً إلى مراکش لينظر هنالك في أمره^(٢) .

وقد شاء القدر أن يكون تعيين محمد بن غانية لولاية الجزائر الشرقية . ممهداً لتطور أحوالها . ودخولها في عهد جديد من تاريخها . وقيام دولة جديدة مستقلة بها . هي دولة بني غانية . ذلك أن محمد بن غانية ضبط الجزائر ، وحكمها بقوة وحزم . وطالت أيامه بها ، حتى توفي أمير المسلمين على بن يوسف

(١) وردت هذه الرسالة ضمن مجموعة من الرسائل المرابطية نشرت بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية بعناية الدكتور محمود مكى (العدد السادس) سنة ١٩٦١ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، والمعجب للمراكشي ص ١٥١ ، ١٥٢ . وراجع أيضاً :

A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Hist. de la Dominación Islamita en las Islas Baleares; p.137 وكذلك Alfred Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903) p. 5&18

(٥٣٧ هـ) ، واضطربت أحوال الدولة المرابطية في المغرب ، وقامت الثورة في أنحاء الأندلس على المرابطين ، وولى أخوه يحيى بن غانية قرطبة وما إليها من قبل تاشفين بن علي بن يوسف في سنة ٥٣٨ هـ ، وأخذ نخوض من ذلك التاريخ مع الثوار ومع النصاري ، حروباً ووقائع مستمرة ، إلى أن توفي بغرناطة في سنة ٥٤٣ هـ . وفي خلال ذلك كان محمد بن غانية ، يعمل في مركزه النائب على توطيد سلطانه بالجزائر والاستقلال بها لنفسه ولعقبه . ومع ذلك فقد لبث على ولائه للدولة المرابطية وزعامة لتونة ، واستمر يدعو في الخطبة لأمر المسلمين ، ولبنى العباس . وكان خلال اضطرام الفتنة بالأندلس يستقبل اللاجئين من فلول المرابطين بالجزائر ، ويشملهم بحمايته ورعايته .

وليست لدينا تفاصيل شافية عن حوادث الجزائر في تلك الفترة . ويبدو أنها كانت تجوز عندئذ فترة استقرار وسلام ، بعيدة عما تجيش به شبه الجزيرة من الحوادث والخطوب . وكان محمد بن غانية حينما شعر بتوطيد سلطانه ، وتمكن استقلاله بحكم الجزائر ، قد اختار لولاية عهده ولده الأكبر عبد الله . وهنا تختلف الرواية ، فقول إن عبد الله خلف أباه بعد وفاته على حكم الجزائر ، ثم خلفه بعد وفاته أخوه الأصغر إسحاق . وقيل إن إسحاق حقد على أخيه عبد الله حينما عين لولاية العهد ، ودبر مؤامرة قتل فيها أخوه وأبوه ، وتولى هو على أثرها حكم الجزائر ، وذلك في سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) (١) .

ونحن نقف في تتبع أحداث الجزائر الشرقية عند هذا الحد ، لنستأنفه في فرصة أخرى في موضعه المناسب .

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، وكذلك : A. Bel :

الكتاب الثاني
المهّدي محمد بن تومرت
والصّراع بين المرابطين والموحّدين
وقيام الدّولة الموحّدية بالمغرب

الفصل الأول

محمد بن تومرت

نشأته وظهوره

حركة ابن تومرت وخصائصها المحلية . أول ظهور لابن تومرت في مراكش . أصله ومولده . معنى كلمة « تومرت » . نسبه البربرية . انتسابه إلى آل البيت . ما يحيط بهذه النسبة من الريب . نشأته . رحلته في طلب العلم إلى الأندلس ، ثم المشرق . قصة لقائه بالإمام الغزالي . سقم هذه القصة وبطلانها . ما ينقضاها من الناحية الزمنية . ما يطبعها من ألوان الأسطورة . نفي البحث الحديث لصحتها . تأثر ابن تومرت بتعاليم الأشعرية وآراء الغزالي . عوده بعد إتمام دراسته إلى المغرب . دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . نزوله بالمهدية . سفره إلى بجاية . ما وقع بها من هرج من جراء دعايته لإزالة المنكر . المناظرة بينه وبين طلبتها . مغادرته لبجاية ، ونزوله بملاة . لقاءه بعبد المؤمن بن علي وما يقال في ذلك من روايات وأساطير . مسيره إلى وانشريش ثم إلى فاس بمكناسة . نظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . تفسيرها وفقاً لابن حزم . تعليق العلامة جولدمسيهر على النظرية . نزول ابن تومرت بمراكش . استمراره في حملته دون هوادة . مظاهر الخلل والفساد في العاصمة المرابطية . تعرضه لأخت الأمير وما وقع بسبب ذلك من الهرج . أمير المسلمين يأمر بمناظرته . قبول ابن تومرت . ما وقع في هذه المناظرة . الأصول والفروع . تحريض الفقهاء للأمير على قتل ابن تومرت . اقتصاره على اعتقاله ثم نفيه من مراكش . مسيره إلى إغمت ثم إلى السوس . تجوله في بلاد المصامدة . نزوله بجبل إيجليز في هرغة . عكوفه على بث دعوته والتبشير بنظرية المهدي . إعلانه لإمامته وأنه هو المهدي . مبايعة أصحابه له بهذه الصفة . أصحاب المهدي ومراتبهم . تلقيبه بالمهدي والإمام المعصوم . ملخص شريعته . وضعه لكتب الدعوة لأصحابه . ما يدل على أن ابن تومرت كان يضرر مشروعه ويعمل له .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من تاريخ الدولة المرابطية ، وهي ناحية طارئة عليها ، وقد شاء القدر بأن تحول وجهة سيرها من التقدم والتوطد ، إلى الإدبار والانحلال المفاجئ ، فبينما هي في أوج قوتها ورسوخها ، إذا بها تجد نفسها فجأة أمام فورة دينية صغيرة ، يضطلع بها فقيه متواضع ، وتضطرم بسرعة مدهشة ، حتى تغمر كل شيء فيها ، وتستغرق كل قواها ومواردها ، ثم تنتهي بعد صراع قصير الأمد ، بالقضاء عليها : تلك هي ثورة المهدي ابن تومرت .

إن التاريخ الإسلامي ، قلما يقدم إلينا حركة أكثر تواضعاً في بدايتها ، وأبعد مدى في نتائجها ، من تلك الحركة التي قام بها محمد بن تومرت السوسي ، المتشعب بثوب المهدي ، والتي أسفرت عن قيام دولة من أعظم الدول الإسلامية ،

وأضحى رقة ، وأعظمها قوة وساطانا ، هي الدولة الموحدية الكبرى .
ولقد كانت حركة ابن تومرت هي الثانية من نوعها في الغرب الإسلامي .
وكانت الأولى هي حركة الشيعة ، التي أسفرت عن قيام الدولة الفاطمية في
إفريقية (تونس) ، والتي كان زعيمها الروحي وأول خلفائها عبدالله يذبح كذلك
بثوب المهدي المنتظر . وبالرغم من أن الدولة الفاطمية قد انتقلت بعد ذلك إلى
مصر ، فإن نشاطها وفتوحاتها ، وسلطانها الروحي والسياسي . قد استمرت
بالمغرب ردها من الزمن ، على يد ولاتها من القبائل البربرية ، التي كانت هي المادة
الأدمية التي استندت إليها في قيامها وتوطدها بالمغرب .

بيد أن حركة المهدي ابن تومرت هي حركة مغربية مستقلة ، لم تنبعث كما هو
الشأن في قيام الدولة الفاطمية . من الدعوة الشيعية المشرقية . وإن كانت مع ذلك
تستند إلى نظرية المهدي المنتظر ، وهي بذلك تمتاز بتخصصها القوي وصبغتها
المحلية البربرية العميقة ، كما تمتاز بأساسها الديني الواضح . الذي انبعث منه .
قبل أن تتطور بسرعة إلى حركة سياسية ، يتزعمها الإمام المعصوم والمهدي
المنتظر ، وهي تتجه في خصوصيتها المذهبية إلى الصراع المحلي المحض . وتستمد
لمقوماتها العوامل الدينية المحلية ، التي اختص بها المغرب منذ عصور .

ثم هي فوق ذلك تمثل معركة قومية داخلية ، تضطرم بين فريقين من القبائل
البربرية . تستظل كل منهما بشعارها الديني الخاص . فتقد رأينا كيف قام
المرابطون في البداية للجهاد في سبيل الله . وإحياء السنة ومحاربة البدع والضلالات .
والانحراف عن أحكام الإسلام . وقد كان يومئذ يسود كثيراً من القبائل البربرية .
ثم رأينا كيف استقرت رئاسة الدولة المرابطية في قبيلة لتونة . وحليفاتها كدالة
ومسوفة وغيرها من بطون صنهاجة . وكذلك فإن حركة ابن تومرت . قامت
في البداية على شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وبدأت رياسته السياسية
في وطنه بالسوس الأقصى . وفي قبيلته هرغة . وغيرها من بطون مصمودة .
وإذن فقد كانت المعركة بين المرابطين والموحدين . تصطبغ في نفس الوقت
بالصبغتين الدينية والقومية .

في أواخر سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) وقعت بمدينة مراکش أول بادرة
مؤذنة ببداية الثورة الدينية التي اضطلع بها محمد بن تومرت ضد الدولة المرابطية .

ففي ذات يوم جمعة ، من هذه السنة ، دخل إلى المسجد الجامع رجل صغير القد ، متواضع الهيئة ، وجلس على مقربة من المحراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين ، فلما اعترض على ذلك بعض سدنة الجامع ، تلا الآية « إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » . ولما حضر أمير المسلمين على بن يوسف ، نهض سائر الحضور ، إلا ذلك الرجل ، فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام على علي ، وقال له فيما قال « غير المنكر في بلدك ، فأنت المسئول عن رعيتك » وبكى . فلم يجبه أمير المسلمين بشيء . ولما عاد إلى القصر سأل عنه ، فقيل له إنه قريب العهد بالوصول ، وهو يوئلف الناس ويقول لهم إن السنة قد ذهبت ، فأمر على بن يوسف ، وزيره عمر بن ينتان أن يكشف عن أمره ومقصده ، فإن كانت له حاجة ينظر في قضائها ، فقال الرجل ليس لي حاجة ، وما قصدي إلا تغيير المنكرات^(١) .

كان هذا الرجل هو محمد بن تومرت ، وكان قد آب من رحلته إلى المشرق . ونزل بمراكش ، بعد أن طاف ببعض مدن المغرب الشمالية ، وهو يدعو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأصل هذا الرجل من قبيلة هرغنة إحدى بطون مسمودة الكبرى ، من قوم بها يعرفون « بايسرغين » وهم الشرفاء في لغة المصامدة . وقد ولد بضبعة ، تقع في جنوبي السوس الأقصى ، تسمى « بايجلي ان وارغن »^(٢) . وقد اختلف في تاريخ مولده . وتضعه الرواية فيما بين سنتي ٤٧١ ، و ٤٩١ هـ ، ويقول لنا ابن الأثير إنه توفي في سنة ٥٢٤ هـ عن إحدى وخمسين عاما أو خمسة وخمسين عاما ، مما يجعل تاريخ مولده في سنة ٤٦٩ هـ ، أو ٤٧٣ هـ ، ويضع ابن خلكان تاريخ مولده في العاشر من محرم سنة ٤٨٥ هـ ، وابن الخطيب في سنة ٤٨٦ هـ ، وابن سعيد في سنة ٤٩١ هـ ، ويضعه الغرناطي في سنة ٤٧١ هـ ، وهو أقدم تاريخ ينسب إليه مولد ابن تومرت^(٣) . وأما عن نسبه فإن الرواية أشد تباينا واختلافاً . ومن المتفق عليه أنه أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، ووالداه من أهل السوس ، وكان أبوه رجلا فقيراً ، وأمه من قوم يعرفون ببني يوسف من مسكالة من عمل السوس ، وبنو يوسف هم أخواله ، ومولده

(١) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة التي عثرنا بها) .

(٢) المعجب ص ٩٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ .

(٣) يراجع في مولد ابن تومرت ، الزركشي في تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس

١٢٨٩) ص ١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

بموضع يسمى « نومكران » ، وهو موضع لا ماء فيه ، وإنما يشرب أهله من ماء المطر . وهنالك كانت دار أسرته^(١) . وكان يقال لوالده تومرت وأمغار ، ومعناه في لغة المصامدة ، الضياء الذي يوقد في المسجد ، ومن ثم فقد عرفه التاريخ باسمه الذائع ، وهو محمد بن تومرت . كما عرفه بلقبه الديني وهو المهدي . ويفسر لنا مؤرخه « البيدق » معنى كلمة « تومرت » التي لصقت بأبيه ، فيقول لنا ، إن اسم أبيه عبد الله ، شهر في صغره إلى كبره « بتومرت بن وجلّيد » . وذلك أنه لما ولد فرحت به أمه وسرت ، فقالت باللسان الغربي « آتومرت آينو آيسك آيبوى » ، ومعناه : يا فرحتي بك يا بني . وكانت إذا سئلت عن ابنها وهو صغير ، تقول باللسان الغربي « يك تومرت » ، معناه صار فرحاً وسروراً ، فلب عليه اسم تومرت . وترك دعاؤه باسم عبد الله الذي سمي به أولاً^(٢) .

ومن المحقق الذي لا يقبل ذرة من الجدل ، أن ابن تومرت بربري الحنس ينتسب إلى هرّغة ومصمودة ، ومع ذلك فإنه نظراً لانتحاله صفة المهدي والإمام المعصوم ، لم يعدم رواية تنسبه لآل البيت ، إذ لا بد ، وفقاً لأسطورة المهدي المنتظر ، أن يكون المهدي منهم . ومن ثم فإننا نجد إلى جانب نسبة ابن تومرت البربرية المحضة . نسبة أخرى ترجعه إلى آل البيت . أما نسبه البربرية فهي أنه محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سفيون بن أنكليدس بن خالد . أو أنه محمد بن عبد الله بن وجلّيد بن يامصال بن حمزة بن عيسى . وهذه النسبة الثانية تمد بعد ذلك على يد بعض الرواة إلى آل البيت على النحو الآتي : ابن عبيد الله ابن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله^(٣) . وأما نسبه العربية العلوية فهي أنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن ياسر ابن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب . ويؤيد هذه النسبة ابن رشيق في شجرة أنساب الخلفاء والأمراء ، وابن القطان ، وابن صاحب الصلاة ، مؤرخا

(١) ابن القطان في « نظم الجمان » (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤ ب) .

(٢) كتاب « أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » لابن بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق ، المنشور بعناية الأستاذ ليئي بروفيسال (باريس سنة ١٩٢٨) ص ٣٠ ، وقد قرنت به ترجمة فرنسية .

(٣) أخبار المهدي بن تومرت ص ٢١ .

الدولة الموحدية^(١) ، ويقول لنا المراكشي ، إنه رأى بخط المهدي نسبه المتصلة
بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب^(٢) .

بيد أنه يوجد إلى جانب ذلك من المؤرخين ، من ينكر هذه النسبة على
ابن تومرت ويعتبره دعياً فيها . ومن هؤلاء ابن مطروح القيسي ، وهو يصف
ابن تومرت بأنه « رجل من هرغة من قبائل المصامدة يعرف بمحمد بن تومرت
الهرغي » . وقال بعضهم إنه من قبيلة جنميسة^(٣) .

ونحن لا نرى في هذه النسبة العربية النبوية التي يدعيها ابن تومرت لنفسه ،
والتي يؤيدها بعض المؤرخين من أولياء الموحدين وكتاب دولتهم ، إلا نحلة باطلة ،
وثوباً مستعاراً ، أراد به ابن تومرت أن يدعم به صفة المهدي التي انتحلها شعاراً
لإمامته ورياسته الدينية والسياسية ، ومما يلفت النظر أن كثيراً من القبائل والأسر
البربرية التي تشق طريقها إلى السلطان ، تحاول دائماً أن تنحل الأنساب العربية ،
كما هو الشأن في بني حمود الذين يرجعون نسبهم إلى آل البيت ، وفي قبيلة صنهاجة
وهي الأم الكبرى للمتونة ، صاحبة الرياسة في الدولة المرابطية ، فإنها تزعم أنها
تنتمي في الأصل إلى العرب اليمنية^(٤) .

وليست لدينا أية تفاصيل شافية عن نشأة ابن تومرت وحدثاته . وكل ما يقال
لنا من ذلك أنه نشأ في بيت نسك وعبادة ، وشب قارئاً محباً للعلم ، وكان يسمى
في حدثاته « أسافور » ، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد التي
يلازمها^(٥) . ولكن الرواية تتبع سيرة حياته منذ سنة ٥٥٠٠ (١١٠٦ م) ، ففي تلك
السنة ، أو السنة التالية (٥٥٠١ هـ) حسبنا ينقل إلينا ابن القطان ، عن الشيخ يحيى
ابن وسنا من أهل خمسين أصحاب المهدي — غادر ابن تومرت وطنه بالسوس في
طلب العلم ، وعبر البحر إلى الأندلس ، ودرس في قرطبة حيناً ، ثم جاز من ثغر
ألمرية إلى المشرق^(٦) ، ومر في طريقه على المهدي ، وأخذ بها على الإمام المازري ،
ثم قصد إلى الإسكندرية ودرس بها على الإمام أبي بكر الطرطوشي ، وقضى

(١) الحلل الموشية ص ٧٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، والزركشي ص ١ .

(٢) المعجب ص ٩٩ .

(٣) روض القرطاس ص ١١٠ .

(٤) روض القرطاس ص ٧٥ .

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٦) ابن القطان في « نظم الجمان » (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٢) .

بعد ذلك فريضة الحج ، ثم سافر إلى بغداد ، وهناك درس الفقه والأصول على أبي بكر الشاشي الملقب بفخر الإسلام ، ودرس الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيره^(١) . وفي بعض الروايات أن ابن تومرت لقي الإمام أبا حامد الغزالي ودرس عليه في بغداد ، وقيل بل لقيه بالشام أيام تزدهه^(٢) . ونحن نقف قليلا عند هذه الرواية ، التي يرددها كثير من مؤرخي المشرق والمغرب ، إذ منى وأين كان هذا اللقاء ، وفي أي الظروف ؟ لقد خرج ابن تومرت من وطنه في طلب العلم في سنة ٥٠٠ أو ٥٠١ هـ ، وقضى فترة في الأندلس ، وفي المهديّة ، وفي الإسكندرية ، ثم سافر لقضاء فريضة الحج ، وقصد على أثر ذلك إلى بغداد ، وإذن فيكون من المرجح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥ هـ . وقد كان الإمام الغزالي ببغداد يضطلع بالتدريس في المدرسة النظامية بين سنتي ٤٨٤ و ٤٨٨ هـ (١٠٩١ - ١٠٩٥ م) . وفي سنة ٤٨٨ هـ غادر العاصمة العباسية ، في رحلته التأملية الشهيرة التي استطالت حتى سنة ٤٩٩ هـ ، والتي زار فيها دمشق وبيت المقدس والإسكندرية ومكة والمدينة . وإذن فيكون من المستحيل ماديا ، أن يكون ابن تومرت الذي غادر وطنه لأول مرة في سنة ٥٠٠ هـ ، قد استطاع أن يلتقي بالغزالي في بغداد أو غيرها من المدن التي زارها في خلال رحلته ، ثم إنه ليس من المحتمل أن يكون هذا اللقاء قد وقع عند عودة الغزالي إلى بغداد . ذلك أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، ثم رحل منها إلى نيسابور حيث قام بالتدريس فيها استجابة لدعوة السلطان ملك شاه ، ثم غادرها بعد قليل إلى مسقط رأسه طوس ، وانقطع بها للعبادة والتأليف حتى توفي في جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ (ديسمبر سنة ١١١٢ م) .

ويتضح من ذلك جلياً بطلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالي من الناحية التاريخية . وفضلا عن ذلك فإنه يوجد دليل مادي آخر على بطلان هذه القصة أو الأسطورة . ذلك أنها تقرن بواقعة أخرى خلاصتها ان ابن تومرت حينما لقي الإمام الغزالي ، وأخبره بما وقع من إحراق المرابطين لكتابه « إحياء علوم الدين » بالمغرب والأندلس ، تغير وجهه ، ورفع يده إلى الدعاء ، والطلبة يؤمنون ، فقال « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » ،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، والحلل الموشية ص ٧٥ ، والزرركشي ص ١ ، والمعجب ص ٩٩ .

(٢) الحلل الموشية عن ابن القطان ص ٧٥ ، والمعجب ص ٩٩ ، وروض القرطاس ص ١١٠ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨ ، والزرركشي ص ١ .

وان ابن تومرت ، رجا الإمام عندئذ أن يدعو الله أن يكون ذلك على يده ، فاستجاب الإمام ، ودعا الله بذلك (١) .

وينقض هذه الواقعة من أساسها ، أن قرار المرابطين بحرق كتاب « الإحياء » قد صدر لأول مرة في سنة ٥٠٣ هـ في أوائل عهد علي بن يوسف ، وذلك حسبما يخبرنا ابن القطان ، أعني بعد أن غادر الغزالي بغداد إلى نيسابور لآخر مرة ، وقبيل وفاته بنحو عام . فأين إذن ومتى كان لقاء ابن تومرت به ؟ وكيف نستطيع إزاء هذه المفارقات الزمنية ، أن نصدق تلك القصة التي نسجت حول حرق كتاب الإحياء ؟ هي أسطورة إذن ، نسجت كما نسجت نسبة ابن تومرت إلى آل البيت ، لتغدو هالة تحيط بشخصه وسيرته ، وتذكى عناصر الحفاء والقدسية ، حول شخصه وإمامته . وقد اختير الإمام الغزالي لبطولتها بالذات لتبوئه يومئذ أسمى مكانة من العلم والدين والورع في العالم الإسلامي ، ولشهرته الذائعة في المغرب ، وصلاته المعروفة بعاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وتأثيره الشرعي لديه ، وتأيينه لدولته . ويبدو لون الأسطورة في هذه القصة التاريخية بنوع خاص ، فيما تزعمه الرواية من أن الإمام الغزالي ، حين رؤيته لابن تومرت ، شهد من صفاته وشمائله ، وتبين فيه من العلامات والآثار ، ما يدل على أمره ومستقبله ، وأنه كان يقول لجلسائه « لا بد لهذا البربري من دولة ، أما إنه يثور بالمغرب الأقصى ، ويظهر أمره ، ويعلو سلطانه ، ويتسع ملكه ، فإن ذلك ظاهر عليه في صفاته ، وبان عنه في شمائله » . ثم تزيد الرواية على ذلك ، أن بعض الصحب نقل ذلك إلى ابن تومرت ، وأخبره أن ذلك عند الشيخ في كتاب ، فأم يزل ابن تومرت يجتهد في خدمة الشيخ ويتقرب إليه ، حتى اطلع على الأخبار التي كانت فيه ، فلما تحقق من ذلك اعتزم الرحيل إلى المغرب ليتابع قدره ، ويبحث عن مصيره (٢) .

ولم يقف أمر هذه الأسطورة التي تجمع بين الغزالي وابن تومرت عند هذا الحد ، بل لقد كان من آثارها أنه يوجد كتاب منسوب للغزالي عنوانه « سر العالمين ، وكشف ما في الدارين » أو بعنوان أقصر « السرالمكنون » وقد جاء في

(١) الحلل الموشية ص ٧٦ و ٣٧٧ والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السابق ذكرها -

هسبيرس ص ٧٦) .

(٢) روض القرطاس ص ١١٠ و ١١١ .

أوله ما يأتي : « أول من استنسخه ، وقرأه على بالمدرسة النظامية سرّاً من الناس في النوبة الثانية بعد رجوعى من السفر ، رجل من أرض المغرب يقال له محمد ابن تومرت من أهل سلمية ، وتوسمت فيه الملك »^(١).

وليس أشد إمعاناً من ذلك كله في عالم الأسطورة . ومن ثم فإننا نجد كثيراً من المؤرخين والمفكرين يرفضون هذه الأسطورة والأخذ بها ، فأبن الأثير ينفىها بصراحة ويقول لنا « والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به (أى الغزالي) »^(٢). ويبدى ابن خلدون ريبه فيها ، ويحملها على محمل الزعم ، وكذلك يعاملها ابن الخطيب^(٣). وكذلك فإن البحث الحديث ينكرها وينفيها . ومن أصحاب هذا الرأى المستشرق الألماني ميللر^(٤) ، والعلامة المستشرق إجناس جولديسيهر . ويستعرض جولديسيهر بنوع خاص ما فى هذه القصة من مفارقات ومتناقضات تاريخية ثم يقول : « ويبدو من ذلك كله أنه يحق لنا أن نلغى من ترجمة ابن تومرت قصة الغزالي ، فهى غير مقبولة إطلاقاً ، سواء من حيث ترتيب الحوادث الزمنية ، أو من حيث منطق الحوادث نفسها . وكل ما هنالك أننا نرى فيها تحقيقاً لحاجة الناس ، بأن يجدوا سبباً موجباً ، غير الصفات الشخصية ، لارتفاع رجل ، وصل فى لمعة نور خارقة إلى السلطان ، وإلى سحق الدولة القائمة »^(٥).

على أن ذلك كله لا يعنى أن ابن تومرت لم يتأثر فى تعاليمه الدينية بآراء الغزالي ونظرياته . ومن المسلم به أن ابن تومرت ، قد تأثر خلال دراسته بالمشرق بالنظريات المشرقية فى علوم الكلام والأصول والسنة . ويقول لنا ابن خلدون ، إنه تأثر بتعاليم الأشعرية ، وأخذ عنهم ، واستحسن طريقتهم فى الانتصار للعقائد السلفية والدفاع عنها ، وفى تأويل المتشابه من القرآن والحديث^(٦) ، وهى

(١) هذا ما ورد فى مقدمة العلامة جولديسيهر الفرنسية لكتاب «أعز ما يطلب» الآتى ذكره (ص ١٩) ولكننا لم نجد هذه العبارة فى مخطوطى دار الكتب المصرية من هذا الكتاب (رقم ١٨٠ و ٢٠٤ مجاميع) .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٠١ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، وابن الخطيب فى الإحاطة فى (القاهرة ١٩٥٦) فى ترجمة

إدريس بن يعقوب بن عبد المؤمن ج ١ ص ٤١٧ و ٤١٨ .

A. Müller: Der Islam in Morgen und Abendland (Berlin 1885) B. II. (٤)

p. 611)

(٥) مقدمة العلامة جولديسيهر (I. Goldziher) لكتاب محمد بن تومرت (أعز ما يطلب)

Le Livre de Mohamad ibn Toumert (Alger 1903) Introduction, p. 12

(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

مسائل سوف نعود إليها حينما نتحدث عن تعاليم المهدي الدينية . وأما فيما يتعلق بتأثير الغزالي ، فإن هذا التأثير يظهر في آراء ابن تومرت ومشاريعه الدينية ، وخصوصاً فيما أبداه ابن تومرت من المعارضة للتقاليد الدينية الكائنة بالمغرب ، فإن هذه المعارضة كانت تعكس في صور كثيرة ، ما كان قائماً من نظرية الغزالي الكلامية ، وبعض النظريات الأخرى في المشرق . على أن هذا التأثير بتعاليم الغزالي ، لم يصل في رأي جولدسيهر إلى الأعماق ، ولم يكن كبيراً ، ويلاحظ جولدسيهر بالأخص أن المهدي ، بالرغم مما يوصف به في تراجمه من الورع والزهد ، لم يبد قط ميلاً إلى المعارف الصوفية ، وإلى ذلك الجهد النفسي الذي يسمح للإنسان بالحياة في ضمير الحقائق الدينية ، وهو الغرض الأساسي في بحوث الغزالي الدينية . هذا إلى ما كان بينهما من خلاف في المناهج ، وفي علم الشريعة ، وفي بعض النقط الكلامية الأخرى (١) .

ولما أتم محمد بن تومرت بغيته من الدراسة بالمشرق ، اعزم العودة إلى المغرب ، وكان قد قطع في دراسته وبحوثه مرحلة بعيدة المدى ، حتى غدا على قول ابن خلدون : « بحرأ متفجراً من العلم ، وشهاباً واريماً من الدين » . وركب ابن تومرت البحر من الإسكندرية في أواخر سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ، ويقال إنه أخرج منفياً من الإسكندرية ، لما ترتب من شغب على نشاطه في مطاردة المنكر . بيد أنه استمر في دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو على ظهر السفينة التي أقلته . فألزم ركامها بإقامة الصلاة وقراءة القرآن ، واشتد في ذلك حتى قيل إن ركاب السفينة ألقوه إلى البحر ، فلبث أكثر من نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شيء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا إليه من رفعة من الماء ، وقد عظم في نفوسهم ، وبالغوا في إكرامه (٢) . ولما وصل إلى المهديّة ، نزل بمسجد من مساجدها ، وليس معه سوى ركوة ماء وعصا ، فتسامع به الناس ، وأقبل الطلاب يقرأون عليه مختلف العلوم ، وكان إذا شاهد منكراً من آلات الملاحى ، أو أواني الخمر ، بادراً إلى إزالته وكسرها ، وأصابه

(١) مقدمة جولدسيهر الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت السابقة الذكر ص ٢٠ .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٥ ب) ، والمعجب ص ٩٩

بسبب ذلك بعض الأذى . ووصل خبره إلى الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ملك إفريقية ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سمته ، واستمع إلى مناقشاته أعجب به وأكرمه وسأله الدعاء^(١) . ثم غادر المهديّة إلى بجاية ، وجرى فيها على نفس أسلوبه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان يقوم بدعوته بلا كلل ، حتى وقعت ذات يوم بسبب تشدده في إزالة المنكر ، ضجة وشغب ، وكان والى البلدة العزيز بن المنصور بن حماد الصنهاجي ، رجلاً فظاً قاسياً ، فسخط عليه هو وخاصه ، وأراد البطش به . ويفصل لنا ابن القطان بعض ما فعله ابن تومرت لإزالة المنكر ببجاية ، وبعض ما كان بها من المناكر والبدع ، فيقول ، إن ابن تومرت لما دخل بجاية لقي بها الصبيان في زى النساء بالصفائر والأخراس والزينة ، وشواشي الخرز ، وألبي الأردال قد فتنوا بذلك ، وانهمكوا فيه ، فشدد في مطاردته ، وفي إزالة هذا الزى المنكر . ثم إنه حضر عيداً فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتكحلين صوراً مشيرة ، فزجرهم ، ونغص عليهم اجتماعهم ، فوقع الهرج ، وسرى الشر ، وسلب النساء حلين . وسأل العزيز عن ذلك ، فعرف بأنه لا سبب لهذا الهرج سوى الفقيه السوسى ، وذلك حسماً كان يعرف ابن تومرت مذ كان بالمشرق . فأمر بجمع الطلبة لمناظرته ، فاجتمعوا في دار أحدهم على طعام وشراب ، واستدعى ابن تومرت للحضور ، فأبى ، فقصد إليه الكاتب عمر بن فلفول ، فلاتفه وتضرع إليه حتى قبل المناظرة ، واجتمع بالطلبة ، وسألوه فأجابهم عن كل ما سألوا ؛ وسألهم فما استطاعوا الإجابة عن شيء . وتضرع إليه ابن فلفول عندئذ بأن يترك ما هو بسبيله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢) . وخشى ابن تومرت العاقبة ، فغادر بجاية إلى ناحية قريبة منها تسمى ملالة ، ونزل في كنف أصحابها وهم من أعيان صنهاجة ، فأووه وأكروموه ، وطلب إليهم وإلى بجاية تسليمه إليه ، فأبوا ، ولبت بينهم حيناً يدرس العلم ، وكان إذا فرغ يجاس على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ملالة . فن ذات يوم وفد إليه كهل وفقى حسن التكوين ، رائع الجمال ، ولم يكن هذا الفقى الوسيم سوى عبد المؤمن بن علي بن عمّالوى ، الذى شاء القدر أن يغدو فيما بعد أعظم أصحاب المهدي ، وأعظم قاداته ، وخليفة

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) ابن القطان في « نظم الجمان » (المخطوط ذكره لوحة ١٦ ب و ١٧ ا) .

تراثه ودولته . وكان قد قدم مع عمه من بلده القريب من تلمسان ، في طريقه إلى المشرق ، ليطلب العلم ، ويقضى فريضة الحج ، فسأله ابن تومرت عن شخصه وعن أحواله ، ولما وقف على مقصده ، قال له إن العلم والشرف والذكر التي يطلبها موجودة ، وإنما تنال بصحبته ، ودعاه إلى معاونته فيما هو قائم به ، من إمامة المنكر ، وإحياء العلم ، وإخماد البدع . ويقدم إلينا ابن القطان عن لقاء عبد المؤمن بابن تومرت رواية أخرى ، خلاصتها أن ابن تومرت حينما خرج من بجاية ، واتخذ مقره في رابطة ملالة ، وأقبل عليه طلبة العلم ، كان ممن وفد عليه منهم الفقيه عبد الواحد بن عمر التونسي ، وتعلق به ولازمه حيناً ، وكان التونسي من فقهاء رباط تلمسان ، فلما توفي ، اتفق أصحابه وتلاميذه على استدعاء ابن تومرت ليقوم بالتدريس مكانه ، فوجهوا إليه عبد المؤمن ، وكان من تلاميذ التونسي المذكور^(١) . وأعجب عبد المؤمن كذلك بشخصية ابن تومرت وغزير علمه ، وعول على البقاء إلى جانبه . وهنا تدخل الأسطورة مرة أخرى ، فيقال إن ابن تومرت قد اطلع على كتاب في الحفر من علوم آل البيت ، ورأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، من ذرية الرسول ، وإن استقامة أمره ، وتوطد مركزه ، يكون على يد رجل من أصحابه ، هجاء اسمه كاسم عبد المؤمن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة ، وأنه ، أي ابن تومرت ، كان يبحث عن هذا الرجل أينما حل ، فلما رأى عبد المؤمن وسمع اسمه « أدرك أنه هو الشخص المبتغى »^(٢) . وقيل إن ابن تومرت التقى بعبد المؤمن بموضع يعرف ببنزارة من بلاد متيجة ، وإن عبد المؤمن كان عندئذ يشتغل بتعليم صبيان القرية المذكورة^(٣) . وبقي عبد المؤمن إلى جانب ابن تومرت ، وانقطع إليه واختص به ، ودرس عليه حيناً بملالة ، ثم غادرا ملالة معاً ، وذهبا إلى وانشريش ، وهناك انضم إليهما رجل من قبيلة هرغة ، أي قبيلة ابن تومرت ، هو أبو محمد البشير . وقصد ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى تلمسان ، وقد تسامع الناس بخبره ، وذاع صيته ، فاستدعاه قاضيا ، وهو ابن صاحب الصلاة ، وأنبه على مسلكه ، ومخالفته لعقائد أهل قطره ، وطلب إليه العدول عن دعوته ، فأعرض

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٣ ب) .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ ، والمعجب ص ١٠٠ .

(٣) المعجب عن ١٠٠ .

عنه ابن تومرت ، وسار مع صحبه إلى فاس ، ثم إلى مكناسة . وهناك اشتد في مطاردة المنكر ، فاعتدى عليه الغوغاء بالضرب والأذى ، فغادرها إلى مركش (١) .

ونظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي اتخذها ابن تومرت شعاراً له ، هي فكرة تختص بها الإسلام ، وهي مشتقة مما ورد في القرآن من قوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » ، وقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » ، ومما ورد في الحديث مما شهد بصحته قوله : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده إن استطاع ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، وقوله : « لا طاعة في معصية ، إنما الطاعة في الطاعة ، وعلى أحدكم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة » .

وأساس هذه الفكرة الإسلامية ، هو التضامن الاجتماعي ، والمسئولية العامة عن حماية المجتمع من المنكر والرذائل التي ينهى عنها الدين . وقد تناول الإمام الفيلسوف ابن حزم القرطبي هذه النظرية في كتابه الجامع «الفصل» وشرح لنا أصولها ومغزاها ، وذكر لنا فيما يتعلق بتطبيق هذا الشعار في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بأنه قد ذهبت طوائف من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والزيدية ، إلى أن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك . فإذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ، ولا يئسسون من الظفر ، ففرض عليهم ذلك ، وإن كانوا في عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر ، كانوا في سعة من ترك التغيير باليد . ويزيد ابن حزم على ذلك ، أنه يجب إن وقع شيء من الجور وإن قل ، أن يكلم الإمام في ذلك ويمنع منه ، فإن امتنع وراجع الحق وأذعن للقود من البشرية أو من الأعضاء ، وإقامة حد الزنا والقذف والخمر ، فلا سبيل إلى خلعه ، وهو إمام كما كان لا يحل خلعه ، فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع ، وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (٢) .

ويعلق الإمام الغزالي أهمية كبيرة على تلك الفكرة ، ويصف الأمر بالمعروف

(٣) راجع الحلل الموشية ص ٧٧ و ٧٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

(١) ابن حزم في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (القاهرة ١٣٢١ هـ) ج ٤ ص ١٧١

و ١٧٣ ، و ١٧٦ .

بأنه « هو القطب الأعظم في الدين ». ومن الطبيعي أن يكون الحاكم أو رئيس الدولة (الإمام) ، هو المسئول الأول عن تنفيذ هذا المبدأ الأخلاقي ، وأن يبذل ما في وسعه في قمع ما يخالف الشرع من الأعمال والذنوب ، بيده ، أي بواسطة مأموريه ، ثم بلسانه أي بالوعظ والحث على التزام أحكام الشرع . وقد كان منصب الحسبة في مختلف الدول الإسلامية في العصور الوسطى ، مظهراً من مظاهر العمل على محاربة بعض أنواع المنكر ، بيد أن هذه المطاردة للمنكر لم تكن وقفاً على الدولة ، أو ممثليها الرسميين ، وإنما كان حق الحسبة يمتد إلى كل مسلم ، فلكل مسلم أن يعمل أو أن ينبه على الأقل لإزالة كل منكر يراه ، أو مخالفة لأحكام الشرع . وهذا المبدأ ما يزال مسلماً به في عصرنا في سائر المجتمعات الإسلامية ، وإن كان الشرع يقصر استعماله على التنبيه أو تبليغ السلطات المختصة .

يقول العلامة جولديسيهر معلقاً على هذا المبدأ : « كان أولئك الذين يحاولون تغيير المنكر ، وتغيير وجه الأمور ، رجال متحمسون مخلصون ، ولكنه كان أيضاً ذريعة لمغامرين أذكياء يحاولون الوصول إلى السلطان بطريقة سهلة ، فيسبغون الصبغة الدينية على حركة ثورية ، وقد كان مبدأ الأمر بالمعروف ، شعار الحركات لقلب أسر حاكمة ، ورفع آخرين إلى مكانها ، وهو يبدأ بنقد الأسرة الحاكمة ، ثم يتلو ذلك شهر السيف ، وإثارة الجموع . فإذا نجح ذلك ، تم الوصول إلى الغاية المنشودة .

« وقد كان هذا الشعار كلمة تجمّع لثورات أسرف في المشرق ، وكذلك في إفريقية الشمالية ، التي كانت دائماً مهددا خصبة لأولئك الذين يريدون إقامة صرح سياسي فوق أسس دينية . ولم تكن بين هذه ثمة حركة ، لا في أوائلها ، ولا في تقدمها ، تضارع في اتساع نطاقها ، تلك الثورة التي أدت في أعوام قلائل ، إلى طرد المرابطين ، وتأسيس الإمبراطورية الموحدية القوية في إسبانيا وشمال إفريقية » . وبالرغم من أن جولديسيهر يرى بصفة عامة أن ابن تومرت لم يتأثر بتعاليم الغزالي ، فإنه في هذا الموطن يقول لنا إن ابن تومرت ربما تأثر في نظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنفوذ الغزالي ، لأنه يعلق على هذه النظرية أهمية قصوى ، ويصفها كما تقدم « بالقطب الأعظم للدين »^(١) .

(١) مقدمة جولديسيهر الفرنسية لكتاب «محمد ابن تومرت» أو أعز ما يطلب : Mohamed

Ibn Toumert et la Théologie de l'Islam dans le Magreb au XI Siècle, p. 85-87 & 95 - 96

ونزل ابن تومرت بالحاضرة المرابطية ، وكان ذلك في سنة ٥١٤هـ (١١٢٠م) وعكف على طريقته في مطاردة المنكر وإزالته ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، والتقى في المسجد الجامع بأمير المسلمين علي بن يوسف ، وجرى بينهما ما سبقت الإشارة إليه من الأحاديث . واستمر ابن تومرت في حملته الدينية الأخلاقية دون هوادة . وقد كانت مراکش وغيرها من المدن المغربية ، تبدي أيام المرابطين كثيراً من مظاهر التسامح الديني ، أو بعبارة أخرى كثيراً من مظاهر الاستهتار والفساد ، فقد كانت الحمر تباع علناً في الأسواق ، وكان النبيذ يشرب دون تحفظ ، وكانت الخنازير تمرح في أحياء المسلمين ، وكان القصف ذائعاً بسائر صنوفه ، ومظاهر التدين ضعيفة باهتة ، هذا إلى ما كان يسود الإدارة من تفكك ، والقضاء من انحلال واغتصاب لأموال اليتامى ، وغير ذلك من ضروب الفساد^(١) ، وهو ما يلخصه المراكشي في قوله مشيراً إلى عهد علي بن تاشفين « واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسةائة ، اختلالاً شديداً ، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد . . واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من لتونة ومستوفة ، مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله ، ويقوى ضعفه »^(٢) .

ووقع ذات يوم حادث زاد في لفت الأنظار لابن تومرت ولدعوته . وذلك أن الصورة أخت أمير المسلمين خرجت في موكبها ، ومعها عدد من الحوارى الحسان ، وذن جميعاً سافرات على عادة المرابطين ، من سفور النساء ، واتخاذ الرجال اللثام . ورأى ابن تومرت هذا الموكب ، فأنكر على النساء سفورهن ، وأمرهن بستر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت الأميرة عن دابتها ، ووقع الاضطراب والهرج ، ورفع الأمر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف ، ففاوض الفقهاء في شأن هذا الداعية المضطرم . وكانت المعلومات التي جمعت عنه منذ حادثة المسجد ، هو أنه حديث العهد بالوصول إلى مراکش ، وأنه يؤلف الناس ، ويقول لهم إن السنة قد ذهبت . وكان علي بن يوسف قد أمر وزيره ينتان بن عمر أن يكشف عن مذهبه ، وعن أحواله ومطلبه ، فإن كانت له

(١) مقدمة جولديهر الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت السالفة الذكر ص ٩٧ .

(٢) المعجب ص ٩٩

حاجة ينظر في قضائها ، وكان جواب ابن تومرت حسبنا أشرنا من قبل ، أن لا حاجة له إلا بتغيير المنكر^(١) .

ورأى أمير المسلمين أن يناظر الفقهاء هذا الرجل . وكان الفقهاء المرابطون محقدون على ابن تومرت لاعتناقه مذهب الأشعرية . وما يملى به من تأويل المتشابه ، ولحملة عليهم ، وإنكاره لجمودهم إزاء مذهب السلف ، وإقراره كما جاء ، وذهابه إلى حد تكفيرهم ، فأغروا الأمير باستدعائه للمناظرة معهم^(٢) ، وقبل ابن تومرت هذا التحدي ، وأبدى في مناظرته للفقهاء المرابطين تفوقاً ظاهراً . وقد ورد ذكر هذه المناظرة في كتاب « أعز ما يطلب » ، الذي دونه الخليفة عبد المؤمن بن علي عن إملاء ابن تومرت ، وملخص ذلك أن المهدي ، أو « الإمام العصوم ، المهدي المعلوم » كما يوصف ، طلب إلى مناظريه أن يختاروا من ينوب عنهم لمناظرته ، فقدموا من اختاروه ، فكان مما سألهم المهدي ، أن قال لهم طرق العلم هل هي منحصرة أم لا ، فأجاب مقدمهم المذكور ، نعم هي منحصرة في الكتاب والسنة والمعاني التي نهت عليها ، فقال المهدي ، إنما السؤال عن طرق العلم هل هي منحصرة أم لا . فلم تذكر إلا واحداً منها ، ومن شرط الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال ، فلم يفهم مناظره قوله ، وعجز عن الجواب . ثم سألهم المهدي عن أصول الحق والباطل ما هي ، فعاد مناظره إلى جوابه الأول ، فلما رأى المهدي عجزهم عن فهم السؤال ، وعجزهم عن الجواب ، شرع يبين لهم أصول الحق والباطل ، فقال إنها أربعة وهي « العلم والجهل ، والشك والظن » ، ثم أخذ يشرح ماهية كل منها في كلام طويل ، ثم يستعرض الكتاب بعد ذلك آراء المهدي منفصلة عن « الجهل » و « الشك » ، و « الظن » ، ثم عن « الأصل والحقيقة » ويقسمها إلى أقسام عديدة ، وكل قسم منها إلى فصول مختلفة^(٣) . وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء المرابطين ، من علماء الفروع ، وليست لهم معرفة بعلم الأصول . ونقول بهذه المناسبة إن علم الأصول أو أصول الدين ، يقوم على دراسة الشريعة واشتقاقها من الكتاب والسنة ، ودراسة النصوص الشرعية ، والأدلة العقلية ، وتفصيل العقائد ، وأصول الفقه

(١) البيان المغرب في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر .

(٢) ابن خلدون ٦ ص ٢٢٧ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب (الجزائر سنة ١٩٠٣) ص ١ - ٥ و ١١ - ١٨ .

أى مصادر الشريعة ، ومعرفة النبوة والرسالة ، وكل ما يتعلق بذلك . وأما علم الفروع ، فإنه يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها ، والحدود والأقضية ، أو بعبارة أخرى ، على دراسة الجانب العملي والديني من الشريعة . وقد كانت الدراسات المفضلة في ظل المرابطين هي علم الفروع . ويقول لنا المراكشي ، خلال حديثه عن نفوذ الفقهاء أيام علي بن يوسف ، إنه لم يكن يحظى عنده إلا من أتقن علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك ، ثم يستطرد قائلاً : « ففتقت في ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نُسِيَ النظر في كتاب الله ، وحديث رسول الله (ص) ، فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء »^(١) . وقد كان أخص ما تمتاز به هذه المناظرة الدينية ، هو أن ابن تومرت أبدى في مناقشته تمسكه بأصول الشريعة ، إزاء الفقهاء المرابطين ، وهم أقطاب علم الفروع ، وأراد أن يبين جهلهم بمناهج الشريعة الحقيقية ، فجعل المناقشة تجري على الأصول لا الفروع ، وأبدى في عرضه لأصول الشريعة ، أنه يرجع خاصة إلى القرآن والحديث ، ولا يرجع قط إلى قول مستخرج ، ولا يعتبر الإجتihad مرجعاً من مراجع الشريعة^(٢) . ولم يكن بين الفقهاء المرابطين من استطاع أن يقدر براعة ابن تومرت ، وتبحره في علوم الدين ، سوى فقيه أندلسي هو مالك بن وهيب قاضي مراكش ، وقد كان من أكابر العلماء والأدباء ، وكان متمكناً من علوم الدين والفلسفة ، ولكنه كان لا يظهر من علمه إلا ما يروج في ذلك الزمان^(٣) . فبين لأمر المسلمين خطورة هذا الرجل ، وخطورة دعوته وتعاليمه ، وقال له إن هذا رجل ، لا ينبغي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكنه ينبغي تضليل العامة ، وإثارة الفتنة ، والوصول إلى السلطان ، وأشار عليه بقتله ، وأشار البعض الآخر على أمير المسلمين ، باعتقال الرجل وسجنه ، وعبر عن ذلك أحدهم بقوله للأمير : « ألقه في الكبول لئلا يسمعك الطبول » . وخالفهم في ذلك الوزير ينتان بن عمر ، وقال

(١) المعجب ص ٩٥ و ٩٦ .

(٢) جولديبير في مقدمته الفرنسية السالفة الذكر لكتاب محمد بن تومرت ص ٣٩ و ٤٠ .

(٣) المعجب ص ١٠٢ ، ويقول لنا المراكشي إن مالك بن وهيب هذا ، قد وضع كتاباً فريداً

في بابه اسمه « قراضة الذهب في ذكر لثام العرب » ضمنه لثام العرب في الجاهلية والإسلام ، وأنه رأى هذا الكتاب في خزانة بني عبد المؤمن .

لعلى بن يوسف إن هذا وهن في حق الملك ، ونوه بضعف الرجل وضآلة شأنه . فأمر على بن يوسف وزيره أن يعتقله لديه أياما حتى يرى فيه رأيه . ولم تمض أيام على ذلك ، حتى جاءت الأنباء بوقوع الفتنة في قرطبة ، وأخذ على بن يوسف في التأهب للعبور إلى الأندلس . فطلب إلى وزيره أن يأتيه بابن تومرت ، فحضر بين يديه ، وقال له على بلغني عنك ما صنعت ببجاية وغيرها فتورع الناس عن قتلك ، فعرفني بحقيقة غرضك ، فقال ابن تومرت غرضي تغيير المنكر ، ورفع المغارم . وألا تولى من قبيلتك أحد ، وإن تركوا اللثام لأنه من شأن النساء ، ولا تجوز به صلاة ، فزجره أمير المسلمين ، وأمر بإخراجه من مراکش . وكان ذلك في أوائل سنة ٥١٥ هـ (١) .

غادر محمد بن تومرت وصحبه مدينة مراکش إلى أنعمات ، وفي بعض الروايات أنه بالعكس استمر حيناً يقيم في خيمة بين مقابر المدينة ، وينهال عليه الناس والطلاب ، وهو يبث فيهم الدعوة ضد المرابطين ، ويرميهم بالتجسيم والكفر ، ثم انتهى بأن أعلن بطلان بيعة على بن يوسف وخلع طاعته عن أعناق أصحابه وتابعيه (٢) ، ولكنه اضطر أن يغادر مكانه حينما بلغه أن القوم يضمرون اعتقاله وقتله (٣) . ولما حل ابن تومرت بأنعمات استمر فيها على طريقته من مطاردة المنكر والحملة على المرابطين ، واتخذ لصلاته ودعايته مسجداً خارج أنعمات ، فأمر صاحب المدينة بإخراجه وإبعاده (٤) . فعندئذ قصد ابن تومرت وصحبه إلى بلاد السوس ، ولحق بجبال المصامدة ، وذهب أولاً إلى مسفيوة ، ثم إلى هنتاتة ، ثم إلى إيكلين ، ومر في خلال ذلك بكثير من المحلات البربرية ، وهو يتوقف أوقاتا في بعضها ، ويبني المساجد ، وينضم إليه الصحب والأتباع . وقد فصل لنا أبو بكر الصنهاجي صاحب ابن تومرت ، برنامج رحلته منذ خروجه من أنعمات . ومسيره

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) ، ورض القرطاس ص ١١٢ ، والخلل الموشية ص ٧٣ و ٧٤ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، والمعجب ص ١٠٢ و ١٠٣ ، وراجع كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٦٨ و ٦٩ .

(٢) ابن القطان نقلا عن ابن الراعي (نظم الجان المخطوط لوحة ١٠ ب) .

(٣) هذه هي رواية أبي بكر الصنهاجي أحد أصحاب المهدي في كتابه «أخبار المهدي ابن تومرت»

(ص ٦٩) ونقلها صاحب روض القرطاس (ص ١١٣) .

(٤) البيان المغرب في الأوراق المخطوطة المشار إليها ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

خلال جبال المصامدة ، ومن لقيه خلال رحلته من الصحب والأتباع . ورحل ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى قرية إيجليز أو جبل إيجليز من بلاد هرغة ، بلده وموطن قومه وعشيرته ، ونزل في مكان منيع لا يصل إليه أحد إلا من طريق لا يسلكها إلا الراكب بعد الراكب ، وتدافع عنها أقل عصابة من الناس^(١) ، وهناك انهال إليه المصامدة من كل فج ، وكثر صحبه وأتباعه ، وهو يدعوهم إلى التوحيد ، وإلى قتال المحسمن المرابطين ، وعكف على تدريس العلم . وكان يعنى بالأخص بأن يشرح لأنصاره وتلاميذه نظرية المهدي المنتظر والإمام المعصوم ، وماورد فيها من الأحاديث والأقوال المأثورة ، ويبث الخاصة من دعائه بين رؤساء القبائل يمهدون لتلك الدعوة وينشرون بها . ولما شعر ابن تومرت بأن دعايته قد أتت ثمرتها ، وأضحى الميدان ممهداً للعمل ، اعتزم أن يعلن إمامته^(٢) . وفي اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ هـ (ديسمبر سنة ١١٢١ م) قام ابن تومرت خطيباً في أصحابه وأعلن إليهم أنه المهدي المنتظر^(٣) في خطبة قصيرة ينقل إلينا نصها ابن القطان في « نظم الجمان » فيما يلي :

« الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضى بما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله ، المبشر بالإمام المهدي ، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، يبعثه الله إذا نُسِخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور . مكانه المغرب الأقصى منبته وزمانه آخر الزمان ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم ، وقد ظهر جور الأمراء ، وامتألت الأرض بالفساد ، وهذا آخر الزمان ، والإسم الاسم والنسب النسب ، والفعل الفعل » .

وعلى أثر ذلك ، وفي ظل شجرة خروب وارفقة ، هرع إلى المهدي عشرة من أصحابه الملازمين له ، وبايعوه على أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم ، وهؤلاء العشرة الأوائل من أصحاب المهدي هم : تلميذه وأصق الناس عبد المؤمن بن علي ،

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٣٣) .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٠٣ .

(٣) هذه رواية روض القرطاس (ص ١١٣) ، ويؤيدها ابن خلدون ، (ج ٦ ص ٢٢٨) ، والخلل الموشية ص ٧٨ ، والزركشي ص ٤ ، ويقول ابن عذارى إنها كانت في سنة ٥١٨ هـ (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسييرس ص ٨٢) .

(٤) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٢٣) . الخلل الموشية ص ٧٨ .

وكان أول من بايعه ، وأبو محمد عبد الله بن محسن الوائشريشي المسمى بالبشير ،
وعبد الله بن ملويات ، وأبو حفص عمر بن يحيى المنتاني ، وأبو حفص عمر بن
علي أزناج (أصناك) ، وسليمان بن مخلوف ، وإبراهيم بن إسماعيل الخزرجي
وأبو محمد عبد الواحد الحضرمي ، وأبو عمران موسى بن تماري ، وأبو يحيى
أبو بكر بن يكيث . وسمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة (١) ، ثم بايعه
من بعدهم خمسون رجلا ، فسموا أهل خمسين ، وهم الطبقة الثانية من أصحاب
المهدي (٢) . ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين ، وهم الطبقة
الثالثة . وكانت هذه الطبقات الثلاث تضم أخلص أنصار المهدي ، وأقدرهم .
وقسم ابن تومرت بعد ذلك بقية أصحابه وأنصاره ، إلى طبقات تلي هذه ، فالطبقة
الرابعة تتكون من طلبة العلم ، والطبقة الخامسة تتكون من الحفاظ ، وهم صغار
الطلبة ، والطبقة السادسة تتكون من أهل الدار وهم أقارب المهدي وعشيرته
وخاصة خدمه . وقد ذكر لنا ابن القطان نقلا عن ابن صاحب الصلاة أسماء
هؤلاء الخدم الذين كانوا يلازمونه ليل نهار . والطبقة السابعة تتكون من أهل
هرغة بلد المهدي وموطن قبيلته ، والطبقة الثامنة تتكون من أهل تينمائل ،
والطبقة التاسعة من أهل جدميوه ، والطبقة العاشرة من أهل جنفيسة ، والطبقة
الحادية عشرة من أهل هنتاتة ، والثانية عشرة تتكون من الحند ، والثالثة
عشرة من الغزاة والرماة . ويقول ابن القطان إن الطبقة الثانية عشرة كانت تتكون
من أهل القبائل ، والثالثة عشرة من الحند . ويضيف إلى ذلك طبقة أخرى ،
هي الرابعة عشرة ، وهي طبقة « الفرات » ، وهم الأحداث الصغار الأميون .
ووضع المهدي فيما بعد نظاماً خاصاً لمهام هذه الطبقات ورتبها ، وجعل لكل
منها مهمة تختص بها ، ورتبة لا تتعداها ، سواء في السفر أو الحضر ، وشرع القتل
جزاء لمن خالف الأوامر ؛ ومن تخلف عن الحضور أدب ، فإن تمادى قتل ،

(١) الخلل الموشية ص ٧٩ ، وروض القرطاس ص ١١٣ . ويذكر لنا ابن القطان اسمين ،
آخرين هما أبو الربيع سليمان بن الحضرمي ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان مكان أبي محمد عبد الواحد
الحضرمي ، وسليمان بن مخلوف (نظم الجمان لوحدة ٣٣ ب) . ويورد أبو بكر الصنهاجي في كتابه أخبار
المهدي بن تومرت أسماء أخرى ، ويذكر نفسه ضمن العشرة الأوائل (ص ٧٣) . وكذلك يذكر
ابن خلدون بعض أسماء أخرى (ج ٦ ص ٢٢٨) .

(٢) ذكر لنا أبو بكر الصنهاجي صاحب كتاب أخبار المهدي ابن تومرت أسماء « أهل خمسين »

ومن لم فظ حزبه عزز بالسياط ، وكل من لم يتأدب بما أدب به ، ضرب بالسوط مرة أو مرتين ، فإن تمادى في تصرفه وترك امتثال الأوامر قتل ، ومن داهن على أخيه أو أبيه أو ابنه أو من يكرم عليه قتل . وشدد المهدي في تنفيذ شريعته وضبط الأمور بحزم ، وكان هذا النظام هو أساس الدولة الموحدية المستقبلية^(١).

ولما كملت بيعة ابن تومرت على هذا النحو ، لقبه أنصاره بالمهدي والإمام المعصوم ، وكانوا من قبل يقتضرون على تلقيبه بالإمام . وسمى المهدي وأصحابه وأهل دعوته بالموحدين . ويقول لنا ابن خلدون ، إنه اختار لهم هذه التسمية تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم^(٢) . ووضع لهم في التوحيد كتاباً باللغة البربرية سماه « المرشدة » يحتوي على معرفة الله تعالى ، والعلم بحقيقة القضاء والقدر ، والإيمان بما يجب لله تعالى ، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويتضمن الأعشار والأحزاب والسور ، وقال لهم إن من لا يحفظ هذا التوحيد ، فليس بموحد ، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ، ولا تؤكل ذبيحته . قال صاحب روض القرطاس « فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز ، لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولا من أمر الدنيا »^(٣) . ووضع لهم بالبربرية كتاباً أخرى في العقيدة منها كتاب سمي « بالقواعد » وآخر سمي « بالأمانة » ، ودونها كذلك بالعربية ، وكان ابن تومرت أبرع أهل عصره في إتقان اللغتين العربية والبربرية . ثم وضع بالعربية فيما بعد ، كتابه في العقيدة والعلم والإمامة الذي رواه عنه تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي والذي يفتتحه بقوله « أعز ما يطلب » وهي عبارة أصبحت تعتبر عنواناً للكتاب ذاته^(٤) . وسوف نتحدث في فصل خاص عن محتويات هذا الكتاب ، وعن عقائد المهدي وآرائه الدينية والسياسية بصفة عامة .

ولبث المهدي بن تومرت يبث دعوته ، ويعمل على توطيدها في نفوس أنصاره ، بفصاحته وذلاقته ، ورقيق وعظه ، وأعوانه من المخلصين القادرين يجوبون جبال المصامدة ، ويدعون إلى إمامته ومهديته ، والناس ينفدون عليه من كل صوب جموعاً غفيرة ، يبائعونه بالإمامة ، ويتبركون برويته ، حتى

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر ص لوحة ١٠ اوب) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٣٤) . وروض القرطاس ص ١١٤ .

(٤) روض القرطاس ص ٨٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

استفحل أمره ، وعلا صيته ، وكثر جمعه ، وأضحى يمثل بما تنطوى عليه
حركته من القوى الأدبية والمادية الضخمة ، خطراً داهماً على سلطان المرابطين .
وإنه ليحق لنا أن نتساءل هنا ، هل كان محمد بن تومرت يضممر منذ الساعة
الأولى مشروعه في انتحال صفة المهدي توسلاً إلى نيل السلطان ، وأنه مذ عاد
عقب دراسته بالمشرق إلى المغرب ، كان يضطرم بهذه الأمنية الكبيرة ، أم أنه
حمل على مشروعه ، بما رآه من نجاح دعوته ، وتكاثر أتباعه ، وشعوره بقوة ملاءه؟
يلوح لنا أن ابن تومرت كان يضطرم بأطباعه منذ الساعة الأولى ، وأنه كان في
بداية أمره يتخذ الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ستاراً يتحسس
به طريقه ، حتى تسنح له فرصة العمل المثمر . يؤيد ذلك ما سبق أن نقلناه عن
المراكشي من أن ابن تومرت ، كان خلال محادثاته لتلاميذه وأنصاره ، يعني بأن
يشرح لهم بالأخص نظرية المهدي المنتظر ، والإمام المعصوم ، ويبعث رسله ودعائه
لإذاعتها بين القبائل . وتؤيده كذلك رسالة أشار إليها ابن القطان ، قال إنها وجهت
من المهدي في آخر شهر رمضان سنة ٥١١ هـ إلى الفقيه القاضي علي بن أبي الحسن
الخداعي وفيها يقول بعد البسملة : « أقول ، وأنا محمد بن عبد الله بن تومرت ،
وأنا مهدي آخر الزمان »^(١) . وقد يؤيده أيضاً ما تردده تراجمه المختلفة من قصة لقائه
بالإمام الغزالي ، وما ينسب إلى الغزالي ، حينما وقف منه علي ما فعل المرابطون
بكتبه ، من دعائه بتمزيق دولتهم ، وزوال ملكهم ، وأن يكون ذلك على
يده ، أي على يد ابن تومرت ، وما تردده هذه التراجم أيضاً من أن ابن تومرت ،
قد اطلع في بعض كتب الحفر والملاحم السرية على ما ورد فيها بشأن قدره ومصيره ،
وأنه وقف منها على العلامات والشواهد الخاصة التي يتميز بها المهدي المنتظر ،
وهي علامات كانت كلها متوفرة فيه^(٢)

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ١١٤) .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٠٣ . وراجع أيضاً جولديسيه في مقدمته الفرنسية لكتاب

محمد بن تومرت التي سبقت الإشارة إليها ص ٩٩ .

الفصل الثاني

الصراع بين المرابطين والموحدين

المرحلة الأولى

على بن يوسف يرسل جيشاً لمحاربة المهدي . تحصن المهدي بجبل إيجليز . نزول الموحدين للقاء المرابطين . هزيمة المرابطين وفرارهم . أمير المسلمين يرسل جيشاً آخر لمحاربة الموحدين . هزيمة المرابطين للمرة الثانية ، ثم للمرة الثالثة . أثر هذا الظفر في توطيد أمر المهدي وتقوية شيعته . المهدي يوجه رسالة إلى المرابطين . غزوات المهدي للمرابطين ثم للقبائل الخارجة . افتتاحه لجبال درن . انتقاله من جبل إيجليز إلى تينملل . رواية عن استيطان المهدي لتينملل ، وفتكه بقبيلة هزيمة . استعداد المهدي لمرحلة جديدة من الصراع ضد المرابطين . تمييزه لأصحابه عن يد محمد البشير . قصة البشير ومعجزاته المزعومة . بعث المهدي قواته لغزو المرابطين . غزوها لكليك وأغيات . هزيمة المرابطين في الموقعتين . حشد المهدي لسائر قواته . يعهد بقيادتها إلى محمد البشير وعبد المؤمن بن علي . زحف الموحدين على مراکش . تفاصيل عن المعارك التمهيدية بين الموحدين والمرابطين . استعداد على ابن يوسف للدفاع . اللقاء الأول بين المرابطين والموحدين تحت أسوار مراکش . هزيمة المرابطين والتجاؤهم إلى داخل المدينة . حصار الموحدين لمراكش . اجتماع الحشود المرابطية من سائر الأنحاء . نشوب معركة جديدة بين الفريقين في بقعة البحيرة . هزيمة الموحدين وتمزيق قواتهم . مصرع قائدهم البشير ومعظم زملائه . انسحاب عبد المؤمن في فلوله ، وفتك القوات المرابطية بها . ارتداد الموحدين إلى تينملل . فداحة النكبة التي أصابت الجيش الموحدى . الخلاف حول تاريخ معركة البحيرة . مرض المهدي ووفاته . صفاته وخلاله وأحكامه . سفكه للدماء . خداعه واستغلاله لسذاجة الجماهير . تصدى ابن خلدون للدفاع عن صفته ونسبه وعن صحة دعوته . بواعث هذا الدفاع ، وما يتسم به من سقم وتناقض . مثل الداعية المخاتل الساعى إلى انتزاع السلطان . حكومة المهدي التيوقراطية . الإتفاق على خلافة عبد المؤمن . قبر المهدي في تينملل .

— ١ —

كان واضحاً ، أن محمد بن تومرت أو المهدي حسماً نسميه منذ الآن ، كان منذ شعر بتوطيد أمره ، وتضخم أنصاره وجموعه ، يتأهب لمحاربة المرابطين . وهو قد أعلن ذلك لأنصاره « الموحدين » بالفعل مذ تمت بيعته وتسمى بالمهدي ، وأخذ الموحدون في التأهب للحرب ، بعد أن رتبهم المهدي ، وجعل لكل عشرة منهم نقيباً . وسرى فيما بعد كيف تنتظم الحشود الموحدية وفق منهاج جديد ، وتتخذ لها في الحروب خططاً مبتكرة ، كانت من أهم أسباب ظفرها . وقد رأينا فيما تقدم ، كيف اضطر أمير المسلمين على بن يوسف أن يعبر

البحر إلى الأندلس في أوائل سنة ٥١٥ هـ ، حينما سمع بأمر الفتنة التي حدثت بقرطبة ، وكيف أنه لم يمكث عندئذ طويلاً بالأندلس ، ولم يضطلع بأية أعمال أو غزوات جديدة ، لما بلغه من تفاقم حركة ابن تومرت في بلاد السوس ، وكان قبل ذلك بأشهر قلائل فقط قد سرحه ، عقب المناظرة التي وقعت بينه وبين الفقهاء ، واكتفى بإبعاده عن حضرته مراکش ، فسار ابن تومرت إلى بلاد السوس ، وهناك كشف عن حقيقة نيته ومشاريعه البعيدة المدى .

ولما عاد أمير المسلمين إلى مراکش حاول أن يستدرك ما فاتته ، وأن يدبر أمر القبض على ابن تومرت ، ولكن الأمر كان أخطر من ذلك وأعظم ، ولم يكن أمامه سوى محاربة الرجل ، الذي تحول في فترة قصيرة من فقيه متواضع يدعو إلى تغيير المنكر ، إلى داعية سياسي خطر ، يتشج بثوب الإمامة المهدية ، ويجمع تحت لوائه قوى جرارة .

فبعث لقتاله والي السوس أبا بكر بن محمد اللمتوني ، وقيل إبراهيم بن تيعشت في جيش من الأجناد والحشم ، فقصده إلى السوس الأقصى ، وكان المهدي قد صعد عندئذ إلى جبل إيجاز من شعب جبال المصامدة ، وتحصن فيه مع أنصاره ، وكان لهذا الجبل طريق واحد ضيق وعرا لا يستطيع أن يسلكه سوى فارس واحد ، وتصعب مهاجمته على أية قوة محاربة ، فلما قدم المرابطون نزلوا في شرقي الجبل ، وكان وعرا ، فخرج المهدي من معقله ، وعتمد مجاساً لأصحابه ووعظهم ، وقال لهم : أنظروا إلى أعدائكم ، واعلموا أن كل ما جاءوا به من خيل وعدة ، إنما هو هدية من الله تعالى لكم ، على غربتكم وفقركم ، فأعطاكم وأغناكم . ثم جهز لقتالهم جيشاً من أنصاره من أهل هرغة وهنتاتة وتينمال ، وزوده بالأعلام البيض ، وندب لقيادته محمداً البشير الوانشريشي أحد أصحابه العشرة ، فنزل الموحدون من الجبل ، وما كاد اللقاء يقع بين الجيشين حتى هزم المرابطون وركتوا إلى الفرار ، واستولى الموحدون على أسلحتهم من الخيل والسلاح ، وطاردهم حتى مدينة مراکش ، ووقع هذا النصر الأول لجيوش المهدي ، في شهر شعبان سنة ٥١٦ هـ (أغسطس سنة ١١٢٣ م)^(١) .

وكان لهذا النصر أثر بالغ في ذيوع أمر المهدي ، وتضاعف صيته ، وتضخم

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ٣٧) ، والحلل الموشية ص ٨٠ ، وروض القرطاس ص ١١٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

شيعته ، وكان له بالأخص أثره في تقوية الروح المعنوية لدى جموع الموحدين .
وبادر علي بن يوسف فجهز جيشاً آخر ، أضخم عدة وعدداً ، وسيره تحت إمرة
الأمير أبي إبراهيم إسحاق ، وكان الموحدون قد كثر جمعهم ، وقويت نفوسهم ،
وتزودوا بما غنموه من المرابطين من الخيل والسلاح . فلما التقى الجمعان للمرة
الثانية سرى إلى الحشم والحند المرابطين رعب مفاجئ ، وانهمزوا أمام الموحدين
دون قتال ، وقتل منهم عدد وافر ، واستولى الموحدون على محلتهم ، وسائر
عُددهم ، وكان لهذه الهزيمة الثانية أسوأ وقع في نفس علي بن يوسف ، فجهز
على الأثر جيشاً عظيماً ثالثاً ، وعهد بقيادته إلى الأمير سير بن مزدي اللمتوني ،
فلم يكن في قتال الموحدين أسعد حظاً من سابقه ، فأصيب كذلك بهزيمة شديدة
وقتل من جنده حملة وافرة ، وكانت نكبة جديدة للمرابطين .

وبدا عندئذ ، لعلي بن يوسف على ضوء هذه الهزائم المتوالية بلحوشه ، أن
المسألة ليست فتنة محلية ، وأن المهدي لم يكن ثائراً عادياً ، بل إن الأمر أجل من
من ذلك وأخطر ، وأن محاربة الموحدين أصبحت بالنسبة للدولة المرابطية ،
معركة حياة أو موت . وشعر المهدي من جهة أخرى أنه أصبح من حيث توطن
أمره ، ووفرة حشوده ، وروح شيعته المعنوية ، التي أذكأها الظفر ، ندّاً قوياً
للمرابطين ، وأنه يسير قدماً في هزيمتهم وتحطيم دولتهم ، وأنه لن يمضي سوى
القليل ، حتى ينزعهم سلطانهم ، ويقيم دولته الموحدية الحديدية على أنقاض دولتهم .
وكان من أثر هذه الثقة بالظفر النهائي ، أن وجه المهدي إلى المرابطين ،
رسالة يدعوهم فيها إلى طاعته ، وينذرهم فيها بسحقهم إذا لم يستجيبوا . وإليك
نص هذه الرسالة التي يوردها لنا صاحب الحلل الموشية : « إلى القوم الذين
استدلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمن ، الفئة الباغية ، والشرذمة الطاغية ،
لمتونة ، أما بعد ، قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم
طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ، وقد
وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة ، فإن أدبتموها كنتم في عافية ، وإلا
فنتعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم ، ونكدر دياركم ، ويرجع العامر
خالياً ، والحديد باليا ، وكتابتنا هذا إليكم إعدار وإنذار ، وقد أعذر من أنذر ،
والسلام عليكم ، سلام السنة ، لاسلام الرضى » (١) .

وقعت هذه المرحلة الأولى من الصراع بين الموحدين والمرابطين في سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) وربما كذلك في سنة ٥١٧ هـ. وقد ذكر لنا أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق ، وقد كان حسبما يقرر لنا من حشم المهدي وخاصته ، في روايته في باب غزوات المهدي ، أو المعصوم كما يسميه ، ان هذه الغزوات الأولى بلغت تسع غزوات متوالية كانت كلها ضد المرابطين ، إلا واحدة منها ، وهي الغزوة السابعة ، فقد كانت لقبيلة هسكورة ، وكان من أبرز هذه الوقائع في مقاتلة المرابطين واقعتان ، الأولى نشبت بين المرابطين وألحشم حسبما ينعتهم ابن القطان ، وبين الموحدين في بلدة تادرات ، وكانت معركة عنيفة هزم فيها الموحدون ، وفي معظمهم أو قتلوا جميعاً حسبما يروي ابن القطان . ونشبت الموقعة الثانية في آنسا ، وكانت الدائرة في هذه المعركة على الموحدين ، فقتلت منهم جملة كبيرة . أما غزوة هسكورة ، فلأنها كانت من القبائل المتخلفة عن بيعة المهدي ، والاعتراف بطاعته ، وفي هذه الغزوة اشترك المهدي بنفسه في القتال ، وأصيب بجراح ، وأسرع أنصاره بحمله وإنقاذه^(١) . والواقع أن المهدي لم يقتصر في بداية أمره على مقارعة المرابطين أو لمتونة ، ولكنه شغل في نفس الوقت بمحاربة القبائل المحاورة المتخلفة عن بيعته وطاعته ، مثل هسكورة ، ورجراجة ، وهزرجة ، وغجرامة ، وكثير من بطون المصامدة ، وكان بعض هذه القبائل مثل هزرجة وهسكورة من حلفاء لمتونة ، فكان المهدي يشتد في قتالهم ويرغمهم على الطاعة قبيلة بعد أخرى ، حتى دانت له سائر القبائل الخارجة ، من المصامدة ومن غيرهم^(٢) ، وجاز المهدي بعد ذلك إلى جبال دَرَّان ، فاحتوى على سائر بلادها ومحلاتها من بلدة تامبوت إلى ماغوصة إلى جنفيسة ، ثم جاز إلى تادرات حيث وقعت هزيمة الموحدين الأولى ، فأغار عليها الموحدون وقتلوا أهلها قتلاً ذريعاً . وأنفق المهدي في تلك الحروب والغزوات المحلية زهاء ثلاثة أعوام ، من سنة ٥١٦ إلى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٢ - ١١٢٤ م) ، وبذلك استطاع أن يبسط سلطانه المطلق على منطقة السوس كلها .

وفي سنة ٥١٨ هـ ، غادر المهدي جبل إيجليز بعد أن أقام فيه ثلاثة أعوام ،

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٧٤ - ٧٨ ، وابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوجه ١٤٦) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ ، وروض القرطاس ص ١١٥ ، والزرکشی ص ٤ .

وسار في صحبه إلى تينملل ، وهي محلة صغيرة من عمل هرغة تقع فوق ربوة عالية في سفح جبل درن من شعب جبال الأطلس على قيد نحو مائة كيلومتر من جنوب غربي مراکش ، فقسم أرضها وديارها على أصحابه ، وابتنى بها حصناً في قمة الجبل يشرف عليها من عل ، وابتنى كذلك داراً ومسجداً ، وأدار حول وهداتها سوراً . وكان اختيار المهدي لهذه البلدة يرجع بالأخص إلى حصانة موقعها الفائق ، وكان الوصول إليها من الغرب من طريق ضيق لا يتسع إلا لفارس واحد ، ومن الشرق كذلك من طريق في بطن الجبل تحت راكبيها حافات وفوقه حافات ، والسير فيها خطر شاق . وهكذا استقر المهدي في تينملل ، وجعلها مقر رياسته ، ومركز جهاده ، وبذلك أضحى على مسافة قليلة من العاصمة المرابطية الكبرى (١) .

ويقدم إلينا اليسع بن أبي اليسع عن استيطان المهدي لتينملل رواية ، خلاصتها أن أهلها بعثوا إليه بطاعة قبيلتهم هزميرة الجبل ، وأن سكناه لديهم أصلح له ، وأقرب إلى بث دعوته ، فسار إليهم ، ونزل بتينملل ، فأكرمه أهلها أيما إكرام ، وأكدوا له خضوعهم وطاعتهم ، وبايعوه ، فرأى المهدي من كثرتهم وحصانة بلدتهم ما راق لديه ، وكان يخرج إلى الشريعة في خارجها ، ويجلس على حجر مربع أمام المحراب ، ويعظ الناس ، فلاحظ أن قبيلة هزميرة محضرون دائماً متقلدين سلاحهم . فسألهم يوماً لم تمسكون سلاحكم ، وإخوانكم الموحدون لا تمسكونه ؟ فتركوا حمل السلاح مدة . وكان المهدي قد توجس من كثرتهم وقوتهم ، ونظر في أمرهم . فجاءوا ذات يوم إلى سماع الوعظ دون سلاح . وكان الموحدون بالعكس قد تقلدوا سلاحهم ، فانقضوا عليهم ، وأوسعوهم قتلاً ، فقتلوا منهم في ذلك اليوم وفقاً لرواية اليسع نحو خمسة عشر ألفاً ، وسبيت نساوتهم ، ونهبت أموالهم ، وقسمت أراضيهم بين الموحدين . ثم ابتنى المهدي سوراً حول تينملل ، وأقام في قمة الجبل حصناً يكشف ما وراءه . وأخذ يبعث بقواته إلى الأماكن المجاورة من أراضي قبيلة تينملل أو هزميرة فيغيرون عليها ، ويقتلون أهلها ، ويسبون ويغنمون .

ووقعت هذه الحوادث كلها ، حسبما يخبرنا ابن القطان في سنة ٥١٨ هـ (٢) (١١٢٤ م)

(١) أتيج لي خلال إحدى زياراتي للمغرب أن أزور بلدة تينملل ، وأن أتأمل موقعها الحصين في سفح جبال الأطلس ، وهي اليوم بلدة صغيرة تحتوى على مساكن قليلة وأمامها مسجد المهدي وهو في حالة خربة ، وعلى مقربة منه موضع تظله الأشجار ، قيل لنا إنه قبر المهدي .

(٢) ابن القطان عن اليسع ، في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٤٦ ب و ٤٧ ا و ب) .

وأخذ المهدي بعد ذلك يتأهب للمرحلة التالية ، وربما الحاسمة ، في صراعه مع المرابطين . وكان قد اعتاد أن يسميهم « بالمجسمين » . وترجع هذه التسمية إلى حديث نقله إلينا أبو بكر الصنهاجي في كلامه عن الغزوة التاسعة ، وذلك أن المهدي سأل أنصاره الموحدين في هذه الغزوة ، وكان مشاركاً فيها ، عما يقوله المرابطون عنهم ، فقالوا إنهم لقبونا بالحوارج ، فقال المهدي « سبقونا بالقبيح » لو كان خيراً أحجموا عنه ، لقبوهم أنتم ، فإن الله ذكر في كتابه : « فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه » قولوا لهم أنتم أيضاً « المجسمون » . ومن ذلك الحين يطلق الموحدون على خصومهم المرابطين لقب المجسمين ، ويشير إليهم المهدي في سائر كتاباته بهذا اللقب (١) .

ورأى المهدي ، استعداداً لهذا الصراع ، أن يستوثق من ولاء أنصاره ، فأمر أن ينادى في الجبل بدعوة الناس كافة ، وندب أبا محمد البشير لتمييز الناس ، فكان يخرج قوماً عن يمينه ويسمئهم أهل الحنة ، ويخرج آخرين عن يساره ويسمئهم أهل النار ، وهم الذين يشك في ولائهم ، وفي اعتقادهم أن ابن تومرت هو المهدي المعلوم . ويقول لنا ابن القطان ، إن البشير كان يطلق أهل اليسار ، وهم يعلمون أن ليس لهم إلا القتل فلا يفر منهم أحد ، وكان إذا اجتمع منهم كثير قتلهم قراياتهم ، وقتل الأب ابنه ، والابن أباه والأخ أخاه ، ولم تقل لنا الرواية ، ماذا كان مقياس الولاء أو المروق في هذا التمييز ، ولكن المفروض أنه انتهى بسحق المنافقين والمثبطين من صفوف الموحدين (٢) .

ولمحمد البشير هذا ، وهو كما نذكر من أصحاب المهدي العشرة ، قصة ذكرها لنا ابن القطان نقلاً عن اليسع في أخبار سنة ٥١٩ هـ ، وهي التي وقع فيها التمييز . وذلك أن البشير كان منذ البداية يتظاهر بالبله ، ويلتزم الصمت والعزلة ، وتأخذه سنوات من النوم ؛ ففي ذات يوم خرج المهدي إلى الناس ، وقال لهم ، أتعرفون البشير ، فقالوا ومن هو ؟ فقال لهم هو الونشريشي ، وأنتم تعلمون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وتعرفون أنه لا يثبت على آية ، ولكن الله قد جعله مبشراً لكم ، مطلعاً على أسراركم ، وهو من آيات الله تعالى في هذا الأمر . وكان المهدي

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٧٧ ، وراجع كتاب ابن تومرت مهدي الموحدين أو كتاب أعز ما يطلب ص ٢٥٨ .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٥٠) ، ونقل هذه الرواية ابن عذارى (في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسبرس ص ٨٢) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

قد عني سرّاً بتحفيظ القرآن للبشير ، فاستعرضه أمامهم ، وقرأه عليهم في أربعة أيام ، وركب أمامهم حصاناً فأتقن ركوبه ، ثم قال لهم المهدي ، إن البشير هذا مطلع على الأنفس محدث ، وأنه يوجد إلى جانب الموحدين ، أقوام منافقون ، وقف البشير على دخيلتهم ، وأنه لا بد من النظر في أمورهم حتى يتم العدل^(١) .

وفي العامين التاليين ، وقعت بين الموحدين والمرابطين بضعة معارك ، يصعب استجلاء تفاصيلها . وكان علي بن يوسف قد بعث جيشاً ليحاول اقتحام تينملل معقل المهدي ففشل وهزم . وكانت خطة المهدي ، أن يلتزم الدفاع في معاقلة الحبلية الوعرة ، وألا يهبط إلى السهل ، ليحمل أعداءه المهاجمين أن يصعدوا إليه إذا شاءوا قتاله^(٢) ، وكانت هذه الخطة تكبد المرابطين مشقات جمة ، وكان الفشل مصيرهم دائماً كلما حاولوا القيام بدور الهجوم .

وفي سنة ٥٢٠ هـ بدأ المهدي في تنفيذ خطته من الاضطلاع بالهجوم ، وغزو لتونة على نطاق واسع ، فبعث جيشاً ضخماً من الموحدين بقيادة أبي محمد البشير ، فغزاهم أراضي كيك شمالي تينملل وغربي أغمات ، فبعث علي بن يوسف لردهم جيشاً كبيراً حسن الأهبة ، بقيادة أخيه الأمير أبي الطاهر تميم ، فالتقى الجمعان على مقربة من جبل كيك ، فوقعت الهزيمة على المرابطين ، وجد الموحدون في مطاردتهم حتى جبل وريكة قبلي أغمات ، فلقيتهم هناك قوات مرابطية جديدة بقيادة أبي بكر بن علي بن يوسف ، وقيل بقيادة يطى اللمتوني ، وجموع غفيرة من أهل أغمات وغيرهم ، فانهزم المرابطون مرة أخرى ، ووصل الموحدون في زحفهم إلى أسوار مراکش ، ثم ارتد قائدهم البشير بقواته عائداً إلى الجبل ، وأمر علي بن يوسف أن تسد جميع الطرق الصاعدة التي ينزل منها الموحدون من الجبال إلى السهل ، حتى يعرقل بذلك نزولهم ، ويتق حرب المفاجأة التي درجوا عليها^(٣) . وكان خلال الأعوام الثلاثة التي قضاها المهدي بجبل إيجليز قد عهد بحراسة طرق الجبل إلى الفلاكي الأندلسي ، وهو مغامر وقاطع طريق من أهل إشبيلية ، كان قد ذاع صيته ، وتاب ودخل خدمة الأمير ، فقام بمهمته خير قيام ، وأقام

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٩ ا و ب) .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٧٥ .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر) وابن عذارى في البيان المغرب

(الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٨٧) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

سلسلة من الحصون سد بها ثغرات الجبل ، ثم كان له بعد ذلك شأن سوف نعود إليه .
وكانت المعركة التالية أعظم المعارك التي اضطرت بين الموحديين والمرابطين ،
وفيها وضع المهدي خطته لافتتاح مراکش والقضاء على الدولة المرابطية في عقر
دارها . وكان المهدي قد بلغ عندئذ ذروة سلطانه ونفوذه بين قبائل المصامدة .
ونفذ طاعته إلى أعماق تلك المضاب ، وبلغت جموعه أعظم حد من الكثرة
والتوثب والظمأ إلى القتال . وكانت الانتصارات المتوالية التي أحرزتها جموع
المهدي على المرابطين . تذكى من عزمه وثقته في بلوغ النصر النهائي . وعندئذ
وجه المهدي رسالة نخطه قرئت على الموحديين في سائر النواحي ، ووجهت بالأخص
إلى جزولة ولمطة وهنكيسة ودرعة وصنهاجة القبلة وهسكورة القبلة . وسائر
القبائل المجاورة ، وفيها يستدعيهم ويأمرهم بالقدوم عليه ، وكان المهدي إلى جانب
تسميته للمرابطين بالملثمين والمجسمين ، والحشم . قد أسبغ عليهم عندئذ اسماً
جديداً هو « الزراجنة » وذلك تشبيهاً لهم بطائر يقال له الزرجان ، وهو طائر أسود
البطن أبيض الريش . لأنهم أي المرابطين « بيض الثياب سود القلوب » (١) .
وهرعت الجموع إلى المهدي من كل صوب . وهي في غاية الاستعداد والأهبة ،
واجتمع منها جيش عظيم قوامه نحو أربعين ألف مقاتل ، منهم أربعمئة فارس
فقط ، والباقي من الرجالة ، وقدم المهدي على هذا الجيش أبا محمد البشير أعظم
قواده ، وعبد المؤمن بن علي . وجعل عبد المؤمن إمام الصلاة ، ولم يصحب
المهدي جيشه الحرار في هذه الغزوة لمرضه . ونزل الموحدون من سفوح الجبال
إلى السهول يتصدون إلى مدينة مراکش .

وهنا تضطرب الرواية أولاً في تحديد تاريخ هذا الزحف الموحدى على العاصمة
المرابطية . وثانياً في ترتيب الوقائع . فأما من حيث التاريخ فإن اليسع يضع تاريخ
هذا الزحف في سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) ، ولكن ابن القطان يعارضه ، ويقول إنه
في سنة ٥٢٤هـ وهي السنة التي توفي فيها المهدي ، وأن هذا هو قول سائر المؤرخين .
ويقدم إلينا ابن القطان تفاصيل بعض المعارك الأولى التي وقعت قبيل نشوب
المعركة العامة تحت أسوار مراکش . فيقول إن معركة وقعت بين الموحديين وبين
المرابطين بقيادة أبي بكر بن يندوج بكريك هزم فيها المرابطون ، واستولى الموحدون
على سائر سلاحهم ومتاعهم . ثم تلتها معركة ثانية ، وكان المرابطون في جيش ضخم

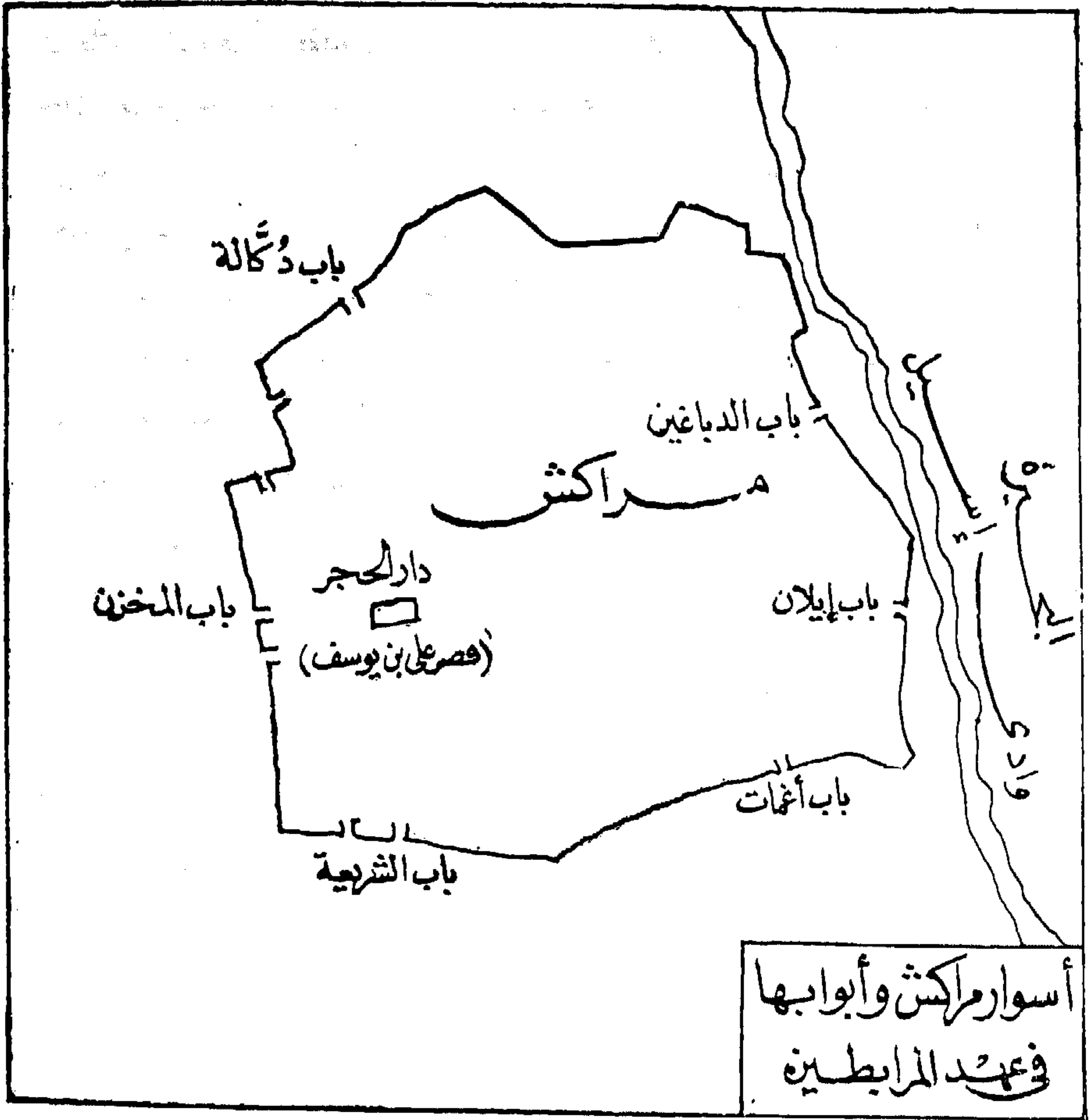
(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره) .

بقيادة بكو بن علي بن يوسف ، ومعه يطى بن اسماعيل ، وكان الموحدون بقيادة محمد البشير ، ووقعت المعركة في الحروبية ، فانهزم المرابطون ، وسقطت محلاتهم ومتاعهم ودوابهم وسائر أسلحتهم في أيدي الموحدين ؛ ثم وقعت معركة ثالثة أمام أغمات ، وكان المرابطون قد جمعوا أشتات قواتهم واستعدوا للقاء الموحدين من جديد ، وانضمت إليهم حشود عظيمة من أهل أغمات . وكانت القوات الموحدية عندئذ بقيادة عبد المؤمن بن علي وأبي حفص عمر بن أصناج ، وأبي عمران موسى بن تمارى . فنشبت بين الفريقين معركة هائلة ، هزم فيها المرابطون ، وقتل منهم ومن أهل أغمات جموع غفيرة ، واستول الموحدون على سائر محلاتهم وعتادهم وسلاحهم^(١) . ثم زحف الموحدون على مراکش ، وربطوا تجاه باب الشريعة ، وكان علي بن يوسف قد حشد في تلك الأثناء قواته ، واستعد للقاء الموحدين أعظم استعداد ، وبلغ الجيش المرابطى يومئذ زهاء مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكان تحت إمرة الزبير بن علي بن يوسف . والتقى الجمعان في ظاهر مراکش ، فكتب عبد المؤمن تنفيذاً لتوصية المهدي ، إلى علي بن يوسف يدعو إلى ما يدعو إليه المهدي ، من قمع البدع ، وإحياء السنة ، والمبادرة إلى بيعة المهدي ، فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ، ويذكره الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة^(٢) ، فلم يلتفت عبد المؤمن لتحذيره ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، هزم فيها المرابطون ، وقتلت منهم جموع غفيرة ، وهرعت فلولهم مرتدة إلى المدينة ، فازدحموا على الأبواب في الدخول ، ومات منها في الزحام خلق كثير ، وفر علي بن يوسف إلى داخل المدينة من باب المخزن ، وأغلقت المدينة أبوابها فأحاط بها الموحدون وضربوا حولها الحصار .

واستمر حصار الموحدين لمراكش زهاء أربعين يوماً . وكان ما يزال بداخل المدينة جموع ضخمة من القوات المرابطية ومنها زهاء أربعين ألف فارس ، وأعداد لا تحصى من الرجال ، وكان المرابطون يخرجون من وقت لآخر لقنال الموحدين ، وتنشب بين الفريقين تحت الأسوار معارك طاحنة ، يفنى فيها الكثير من الجانبين ، وكان من أعنف ما وقع من هذه المعارك ، معركة هزم فيها المرابطون قبالة باب دكالة ، وهلك منهم عدد جم خلال الزحام الهائل ، الذي وقع عند دخولهم من هذا

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٠٦ و ١٠٧ .



أسوار مراكش وأبوابها
و عهد المرابطين

الباب ، وفرت منهم جموع لم يستطيعوا الدخول ، حتى وصلوا إلى وادي أم الربيع ، فلما عادوا بعد ذلك إلى المدينة أمر على بن يوسف بحلق لحاهم ، ومثل بهم ليكونوا غيرة لغيرهم (١) .

وفي تلك الأثناء كان على بن يوسف قد استنفر سائر أمراء لمتونة وولاتها وقادتها ، لموافاته بمشودهم ، فقدمت إليه الأمداد من سائر النواحي ، ووافاه بالأخص جيش ضخيم حسن الأهبة ، قام بحشده والى سجلماسة وانودين بن سير . وخرج على ابن يوسف في قواته من المدينة ، وانضمت إليه الأمداد الزاخرة ، وتولى قيادة الجيوش المرابطية الشيخ أبو محمد وانودين بن سير . وكان الموحدون منذ بدء الحصار ، قد ضربوا محلتهم خارج المدينة تجاه باب الدباغين وباب إيلان أمام بستان كبير ، والبستان في اللغة المحلية يسمى بالبحيرة ، ومن ثم فقد سميت المعركة التي تلت بموقعة البحيرة (٢) . ففي ظاهر تلك البقعة وقعت بين المرابطين والموحدين أعظم معركة نشبت في ذلك الصراع المروع ، وكان المرابطون يتفوقون على الموحدين بكثرتهم تفوقاً ظاهراً ، وكان الموحدون من جهة أخرى ، قد أرهقتهم المعارك المتوالية التي اضطروا إلى خوضها خلال الحصار . وبدأ القتال بمعركة محلية نشبت بين جيش سجلماسة وحرس الأمير النصراني ، وبين قوة من الموحدين ، فهزم الموحدون في هذه الحولة الأولى ، وكان لهذا النصر أثره في إذكاء روح المرابطين المعنوية ، والتدليل على أن الموحدين ليسوا من المنعة كما بدوا في المعارك الأولى . ثم نشبت بين الفريقين معركة عامة ، قاتل فيها الموحدون بشجاعة فائقة ، ولكن المرابطين فضلاً عن كثرتهم ، كانت تحدهم عندئذ ، روح مضطربة من التوثب والظماً إلى الانتقام ، فقاتلوا بشدة رائعة ، حتى رجحت كفتهم وأصيب الموحدون بهزيمة شنيعة ، وقتلت منهم جموع غفيرة يقدرها ابن القطان بأربعين ألفاً ، ويقول إنه لم يسلم من الموحدين إلا أربعمئة بين فارس وراجل (٣) ، بل قيل بأن الجيش الموحدى ، قد أفنى عن آخره ولم تبق منه سوى فلول يسيرة (٤) ، وسقط

(١) ابن عذارى عن ابن القطان في (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسبيرس ص ٨٨) .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٥٠) . وراجع ابن عذارى

(في الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ٩٣) .

(٤) الحلل المشوية ص ٨٥ ، وهو أيضاً قول عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين

(أورده صاحب الحلل ص ٨٦) .

في الميدان أبو محمد البشير أعظم قادة الموحدين ، وسقط معه معظم الرؤساء والقادة ومن هؤلاء غير البشير ، أربعة من أصحاب المهدي العشرة ، هم سليمان بن مخلوف الحضرمي ، وأبو عمران موسى بن تماري الكدميوي ، وأبو يحيى بن يكيث ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان . ومما هو جدير بالذكر أن البشير لم يعثر له بأثر ، ولم توجد جثته ، فذاع بين المتعصبين من المصامدة أنه رفع إلى السماء^(١) . ولكن الحقيقة هي أن عبد المؤمن بادر بدفنه في مكان سقوطه . ولم ينقذ البقية اليسيرة الباقية من الموحدين سوى دخول الليل وهطل الأمطار ، فارتد قائدهم عبد المؤمن ، وهو جريح قد أصيب في فخذه ، في فلوله تحت جناح الظلام ، متجهاً صوب أغوات ، فطارده المرابطون ، حتى أرض هيلانة ، وهناك وقعت بينهما معركة أخرى ، قاتل فيها الموحدون بشجاعة اليأس ، ولكنهم هزموا مرة أخرى ، وقتل منهم عدد جم يقدره ابن القطان بنحو اثني عشر ألفاً ، وكان الموحدون قد عادوا فجمعوا أشتات قواتهم ، وأوعبوا في الحشد . وارتد المرابطون بعد ذلك إلى مراکش ، وسارت فلول الموحدين إلى تينملل . ويضع ابن القطان تاريخ هذه الهزيمة الساحقة للموحدين في يوم السبت الثاني من جمادى الأولى سنة ٥٣٤ هـ (١١ أبريل سنة ١١٣٠ م) .

وكان المهدي ابن تومرت عندئذ مريضاً ، فلما وقف على أخبار النكبة التي أصابت جيشه ، سأل هل « عبد المؤمن في الحياة » ، ولما أجيب بالإيجاب ، قال « الحمد لله قد بقي أمركم » . ويقول لنا أبو بكر الصنهاجي إنه هو الذي تولى إبلاغ المهدي نبأ نجاة عبد المؤمن ، وينقل لنا عبارات المهدي بألفاظها^(٢) .

وهكذا أحرز المرابطون نصرهم الساحق على الموحدين ، بعد أن منوا قبل ذلك بسلسلة من الهزائم المتوالية ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة أن هزائم المرابطين بلغت قبل موقعة البحيرة نحو أربعين هزيمة ، وأن المهدي اشترك في أربع من هذه الغزوات الظافرة ، كما يذكر لنا أن الموحدين في موقعة البحيرة « قتلوا أجمعين » ، ولم ينج منهم إلا نفر يسير . وهذا القول من مؤرخ الموحدين . يدلنا على فداحة النكبة التي نزلت بجيوش المهدي ، في تلك الموقعة الهائلة . ولكن سوف نرى أن إحرار المرابطين لهذا النصر لم ينجحهم من قدرهم المحتوم . وأن ما وضعه المهدي

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢٨ .

(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٧٩ .

من الأمل والثقة في طالع تلميذه وزعيم أصحابه ، عبد المؤمن بن علي ، كان ينم عن تنبؤ صادق وفراسة دقيقة (١) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما هنالك من خلاف حول تاريخ موقعة البحيرة ، فإن اليسع يضع تاريخها في سنة ٥٢١ هـ ، ويضعه ابن القطان في سنة ٥٢٤ هـ ، ويضع ابن خلدون تاريخها في سنة ٥٢٢ هـ ، ويقول لنا إن وقوعها كان لأربعة أشهر قبل وفاة المهدي ، وهو يتفق بعد ذلك مع نفسه فيقول لنا إن المهدي توفي في نفس العام أي في سنة ٥٢٢ هـ (٢) . ولكنه لما كان من المتفق عليه أن هزيمة الموحدين وقعت قبيل وفاة المهدي بأشهر قلائل ، فإن هذه الرواية لا يمكن الأخذ بها ، إذ أن المعول عليه أيضاً ، هو أن المهدي توفي في سنة ٥٢٤ هـ .

ولدينا إلى جانب رواية ابن القطان رواية موحدية قاطعة ، تضع تاريخ المعركة في سنة ٥٢٤ هـ ، هي رواية أبي بكر الصنهاجي أحد أصحاب المهدي الذين شهدوا الموقعة (٣) . ويأخذ بهذه الرواية ابن الأثير (٤) وصاحب روض القرطاس (٥) ، والزركشي (٦) . وأما عن وفاة المهدي ، فإن المتفق عليه ، أنه كان مريضاً وقت موقعة البحيرة ، وأن مرضه اشتد بعد وقوع الهزيمة ، ولم يعيش طويلاً أو لم يعيش بعد ذلك سوى أيام قلائل . وليس أدل على ذلك من أن الموحدين يسمون العام الذي توفي فيه المهدي وهو عام ٥٢٤ هـ بعام البحيرة (٧) . ويصف لنا أبو بكر الصنهاجي ، وقد كان شاهد عيان ، تصرفات المهدي الأخيرة ، فيقول لنا إنه استدعى الموحدين ، فحشروا كلهم ، ثم وعظ الناس حتى أضحى النهار ، ثم دخل الدار فغاب ساعة ، ثم خرج حاسر الرأس ، وقال للناس إنني مسافر عنكم سافراً بعيداً ، فضج الناس بالبكاء وودعوه ، ثم دخل داره ، ولم يره أحد بعد ذلك .

(١) تراجع تفاصيل موقعة البحيرة في نظم الجمان لابن القطان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤٠ وما بعدها) ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ ، والحلل المشية ص ٨٤ - ٨٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ و ٢٢٩ ، وأخبار المهدي ابن تومرت ص ٧٨ و ٧٩ ، والمعجب ص ١٠٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢٨ .

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٥) روض القرطاس ص ١١٦ .

(٦) الزركشي في تاريخ الدولتين ص ٤ .

(٧) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٤٢) وابن خلكان ج ٢

والمعول عليه أن المهدي توفي في شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ (أغسطس سنة ١١٣٠ م)، ويقول لنا أبو بكر الصنهاجي إنه توفي يوم الأربعاء أو يوم الخميس الخامس والعشرين من رمضان سنة ٥٢٤ هـ^(١)، وتؤيد هذه الرواية رواية موحدية أخرى، هي رواية عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الدولة الموحدية، مع خلاف يسير في يوم الوفاة، وهي أن المهدي توفي يوم الأربعاء الثالث عشر من رمضان سنة ٥٢٤ هـ^(٢)، وقال ابن القطان، ويتابعه صاحب الحلل الموشية إنه توفي يوم الاثنين الرابع عشر من رمضان سنة ٥٢٤ هـ^(٣). وكان عمر المهدي عند وفاته، على قول ابن القطان، نحواً من خمسين سنة^(٤)، وعلى قول ابن الأثير إحدى وخمسين سنة أو خمساً وخمسين سنة^(٥) مما يرد تاريخ مولده في الحالة الأولى إلى سنة ٤٧٤ هـ، وفي الثانية إلى سنة ٤٧٣ هـ، وفي الثالثة إلى سنة ٤٦٩ هـ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الخلاف في تاريخ مولد المهدي.

وكان المهدي ابن تومرت من أعظم الدعاة الدينيين، وأغزرهم علماً، وأشدهم دهاء، وأقواهم نفساً، وأشدهم تأثيراً في النفوس. وكان إلى جانب ذكائه ودهائه، يتمتع بمنطق قوي، ومحاجة قاطعة، وذلاقة مؤثرة. وكان خطيباً مفوهاً، فصيحاً في العربية والبربرية معاً، يستميل الجموع برائع بيانه ووعظه. وكان متمكناً من علوم القرآن والسنة ومن الأصولين، أصول الفقه وأصول الدين، شديد التقشف والزهد والورع، لم يلبس قط سوى ثياب الصوف من قميص وسراويل وجبة، وقد يرتدى الثياب المرقعة، ولا يقبل على شيء من متاع الدنيا، حتى قيل إنه كان يقتات من غزل أخت له في كل يوم، رغيفاً بقليل من سمن أوزيت، ولم يتحول عن ذلك حينما سما شأنه وأقبلت عليه الدنيا^(٦). وكان

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٣، وابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ١٤٢).

(٢) أورده روض القرطاس ص ١١٧.

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤٢)، والحلل الموشية ص ٨٦.

(٤) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٣٣). ونقله ابن عذارى في البيان المغرب

(الأوراق المخطوطة سالفة الذكر - هيسيرس ص ٩٤).

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥.

(٦) ابن القطان عن ابن صاحب الصلاة (في نظم الجمان المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤٥)،

وابن خلكان (عن المغرب) ج ٢ ص ٥٢.

ظهوره في ذلك المجتمع البربري الساذج ، الذي اختاره مسرحاً لدعوته ، والذي كان يحيم عليه الجهل المطبق ، وتعصف به الخرافات والأساطير ، يتسم بصفات الزعامة الحارقة أو النبوة ، ومن ثم فقد ألقى ابن تومرت الطريق ممهداً ليعلمن دعوته ، وليتشح بثوب المهدي المنتظر ، وينتحل صفة الإمام المعصوم ، وقد كان ابن تومرت من بين دعاة المهديّة ، أوفرهم عزمًا وبراعة ، وأشدّهم تأثيراً وسحرًا .

وكان يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى ، ويخبرهم بأنه تعالى قد فرض عليهم الصلوات الخمس في يومهم وليلتهم ، وفرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم ، ويأمرهم بقراءة القرآن وحفظه ، ولزوم الأحزاب التي ألفها لهم بعد صلاة الصبح ، وبعد المغرب ، وأمر المؤذنين ، إذا طلع الفجر ، أن ينادوا « أصبح والله الحمد » إشعاراً بلزوم الطاعة وحضور الجماعة ، وللغدو لكل ما يؤمرون به ، وفرض عقوبة المخالفين .

ولكن ابن تومرت إلى جانب هذه الصفات الحلابة ، كان يتسم بطائفة من الصفات المثيرة ، فقد كان شديد التعصب ، صارم النفس ، سفاكاً للدماء ، غير متورع فيها ولا متحوط ، يهون عليه سفك دم عالم من الناس في سبيل رأيه وبلوغ مقصده ، لا تأخذه شفقة ولا رحمة في دماء خصومه ، ويستحل سبي نساءهم وأولادهم ونهب أموالهم^(١) ، ويسبغ على هذا السفك المروع ، صفة الشرعية ، لما يزعمه من مخالفة خصومه لأحكام الكتاب والسنة ، أو لمبدأ التوحيد الذي اتخذه شعاره . وقد رأينا فيما تقدم من مراحل صراعه مع خصومه أمثلة عديدة من هذا الإسراف المغرق في سفك الدماء ، وربما كان فيما ذكر عن المهدي من أنه « كان حصوراً لا يأتي النساء »^(٢) ما يفسر بعض عوامل هذه القسوة المروعة ، وهذا الظماً إلى سفك الدماء .

ويلاحظ العلامة جولدسيهر بهذه المناسبة أن ابن تومرت كان يبث في أذهان أنصاره بتدرج غير محسوس ، فكرة محاربة المرابطين ، وأنه حينما كان في بداية أمره ، يقتصر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويتبع ما يقضي به الدين من العمل على حقن الدماء ، ولكنه منذ اتشح بصفة المهدي ، أخذ يشهر الحرب ،

(١) روض القرطاس ص ١١٧ .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٤ ب و ١٣٣) ، ونقله ابن خلدون ج ٦

ويدعو إلى سفك الدماء ، ويقول إن المحاربين الذين يسقطون في هذه المعارك ، إنما هم شهداء في سبيل الله (١) .

كذلك تنوه الرواية بما جبل عليه ابن تومرت من الخداع والكيد والمكر ، وكيف أنه لحأ إلى هذه الصفات في استهواء الجماهير وخداعها ، واستغلال جهلها ، وسذاجتها ، حتى ذاعت دعوته ، وتمكن أمره (٢) .

ومن الغريب الذي يلفت النظر في هذا الشأن موقف العلامة الفيلسوف ابن خلدون من ابن تومرت ودعوته ، فهو يدافع عن المهدي ، وعن صحة دعوته وصدق إمامته ، في نبذة طويلة يقبل فيها :

« ويلحق بهذه المقالات الفاسدة ، والمذاهب الفائلة ، ما يتناوله ضعفه الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ، ونسبته إلى الشعوذة ، والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق ، والنعي على أهل البغي قبله ، وتكذيبهم بجميع مدعياته في ذلك ، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت ، وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ، ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه ، فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي ، مسموع القول ، موطأ العقب ، نفسوا عليه ذلك ، وغضوا منه بالقدح في مذاهبه ، والتكذيب لمدعياته ، وأيضاً فكانوا يؤثسون من ملوك لمتونة ، أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم ، لما كانوا عليه من السذاجة ، وانتحال الديانة ، فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة ، والانتصاب للشورى كل في بلده ، وعلى قدره في قومه ، فأصبحوا بذلك شيعة لهم ، وحرماً لعدوهم ، ونقموا على المهدي ، ما جاء به من خلافهم ، والتثريب عليهم ، والمناسبة لهم ، تشيخاً للمتونة ، وتعصباً لدولتهم . ثم يقول دفاعاً عن المهدي : « وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم ، وخالف اجتهاده فقهاءهم ، فنادى في قومه ودعا إلى جهادهم بنفسه ، فاقتلع الدولة من أصولها ، وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوة ، وأشد شوكة ، وأعز أنصاراً وحامية ، وتساقت في ذلك من أتباعه نفوس لا يخصصها إلا خالقتها ، قد بايعوه على الموت ، ووقوه بأنفسهم من الهلكة ، فتقربوا إلى الله تعالى باتلاف مهجهم في إظهار تلك الدعوة ،

(١) جولدسيهر في مقدمته الفرنسية السالفة الذكر لكتاب « أعز ما يطلب » ص ١٠٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١١٤ و ١١٧ .

والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ، ودالت بالعدوتين من الدول ، وهو بحالة من التقشف والحصر ، والصبر على المكاره ، والتقلل من الدنيا ، حتى قبضه الله ، وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه .. فليت شعري ، ما الذي قصد بذلك إن لم يكن وجه الله ، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله . ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره ، وانفسحت دعوته ، سنة الله التي قد خلت في عباده» (١).

وابن خلدون يقدم إلينا هذا الدفاع عن المهدي في معرض كلامه عن أخطاء المؤرخين وأوهامهم ودعاويهم المغرضة . وهو يقدم إلينا منها نماذج ، يصاحبه التوفيق في بعضها ويخطئه في البعض الآخر . ونحن نرى أن التوفيق قد أخطأه في هذا الدفاع عن المهدي ابن تومرت ، وعن صدق دعوته . وقد استعرضنا فيما تقدم من حديثنا عن حياة المهدي ، ما يحملنا على الشك أولاً ، في صدق انتسابه إلى آل البيت ، وثانياً في انتقاله دعوة المهدي ، وهي دعوة نشك أيضاً في صدقها من الناحية الدينية والتاريخية . ونحن نعتقد أن مفكراً عظيماً ، ومؤرخاً فيلسوفاً ، وضعي العقلية ، كابن خلدون ، لا يمكن أن يؤمن بصدق هذه الدعوة ، وإنما حمل ابن خلدون على الدفاع عن المهدي ودعوته ، بواعث خاصة ، أولها أن بني خلدون - أسرة المؤرخ - كانت منذ غادرت الأندلس في أوائل القرن السابع الهجري - قد نزلت بتونس ، وعاشت في رعاية بني حفص ملوك الدولة الحفصية الموحدية التي أسسها الأمير أبو يحيى زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر الموحدى ، وتولى أجداد المؤرخ في ظلهم مناصب النفوذ والثقة ، وبدأ هو حياته العامة في ظلهم ، وعاش في كنفهم رديحاً من الزمن ، وأهدى أول نسخة من مقدمته وتاريخه للسلطان أبي العباس الحفصي (سنة ٥٧٨٤ هـ) ، فلم يكن من المعقول أن يجاهر المؤرخ في مقدمته ، بالطعن في إمامة المهدي ودعوته ، وهي التي كانت أساساً لقيام الدولة الموحدية . وثانياً أنه ليس من المنطق السليم ، أن يكون نجاح دعوة المهدي ابن تومرت ، وما ترتب عليه من قيام الدولة الموحدية ، دليلاً على صدق هذه الدعوة ، لأن النجاح السياسي والعسكري لداعية أو متغاب لم يكن قط في ذاته دليلاً على صدق إمامة أو دعوة دينية ، وثالثاً أن إنكار صدق دعوة المهدي ابن تومرت لم يكن قاصراً على الفقهاء المرابطين ، الذين يعلل ابن خلدون طعنهم في هذه الدعوة بما كان يجيش في صدورهم من حقد على رجل يتفوق عليهم

(١) ابن خلدون - المقدمة (بولاق) ص ٢٢ .

بعلمه ، ويغض بهذا التفوق من مكانتهم ونفوذهم القديم لدى الدولة اللمتونية ، بل شمل هذا الإنكار كثيراً من المؤرخين .

ولا يكتفى ابن خلدون بالدفاع عن صحة دعوة المهدي ، بل يقرن ذلك بالدفاع عن نسبه في آل البيت ، وهو هنا في تدليله أضعف منطقاً ، حينما يقول أنه لا دليل يعضد إنكار هذه النسبة ، والناس مصدقون في أنسابهم . وهو إذ يشعر هنا بضعف منطقته ، يقول لنا إن ظهور المهدي لم يكن يتوقف على نسبه ، وإنما قام أمره بعصبيته القبلية في هرغة ومصمودة ، وأن هذا النسب الفاطمي ، كان أمراً خفياً عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم (١) .

ويذكرنا موقف ابن خلدون في الدفاع عن دعوة المهدي ابن تومرت ونسبه ، بموقفه عن نسب بني عبيد الخلفاء الفاطميين ، فهو يتصدى لتأييده وإثباته ، ويعتبر الطعن فيه من « الأخبار الواهية » التي عني بتفنيدها في مقدمته ، وأن هذا الطعن يرجع بالأخص إلى الأحاديث التي لفقت لبني العباس خصوم الفاطميين تزلماً إليهم ، ويعتمد هنا على نفس النظرية التي لجأ إليها في الدفاع عن دعوة المهدي ، وهو أن ظهور الفاطميين ، وقيام الدولة الفاطمية المترامية الأطراف ، واتصال أمرها نحواً من مائتين وسبعين عاماً ، كل ذلك لا يمكن أن يتم لدعي (٢) . وهي طريقة معكوسة في التدليل ، ونظرية واضحة الضعف والسقم ، إذ كان على بن خلدون أن يقدم لنا الأدلة المباشرة ، على صحة نسب الفاطميين لآل البيت ، كما قدم خصومهم الأداة على بطلان هذه النسبة .

وقد تناول كاتب مشرقى من كتاب النصف الأول من القرن الثامن الهجرى هو الحسن بن عبدالله العباسى في كتابه « آثار الأول وترتيب الدول » مثلاً ابن تومرت وقصة ظهوره ، في معرض الكلام عن الزهاد ، والمغالطين باسم الزهد ، والبدعة الذين يعمدون إلى الطعن في أحوال الملك ، وإثارة الجماهير ، وخطر تركهم ، وأنه « ينبغى للملك أن ينظر في حالة هذه الطائفة ، ويميز محققهم من مبطلهم ، ويفرق بين الزاهد والمتزهد ، وفيهم أصناف من أهل الغلط في طريق الزهد والمغالطة لأغراض آخر ، منهم صنف يغلب عليهم محبة الرياسة والإمرة ، ويتفق أعراض الملك عنهم وانتقباضه لمخالفة طبعه لطباعهم » ، وأن ذلك مما يحملهم على الطعن

(١) ابن خلدون في المقدمة ص ٢٣ .

(٢) ابن خلدون في المقدمة ص ١٧ و ١٨ .

على أحوال الملك ، وإهماله لضوابط الشريعة ، ثم يجمعون حولهم الجموع ، ويقصون عليهم من الأمور ، « ما يحركون به عزائمهم لتغيير المنكر ، ونصرة الحق ، فإن أهمل الملك أمرهم عظم وتفاقم ، وكان منهم خطر عظيم » .
ويعتبر هذا الكاتب مثل ابن تومرت ، هو أقرب ما جرى في هذا المعنى ، معنى الداعية المتزهد المخادع الذي يبطن انتزاع الرياسة ، وأنه تذرع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعه طائفة يسيرة ، حتى اشتهر أمره ، ولم يعن الملك بشأنه ، ولم يدر بخلده أنه قد يغدو خطراً على ملكه ، حتى كثرت جموعه واشتدت شوكته ، وانتهى بالاستيلاء ، على البلاد وقيادة الجيوش (١)

وقد نجح المهدي في إقامة نوع من الحكومة الشيوقراطية (الدينية) ، وكان الجماعة أو أصحابه العشرة الأوائل هم أعضاء وزارته ، يبحث معهم جلائل الأمور ، وعندئذ يخلو بهم ولا يحضر معه أحد سواهم . فإذا جرى البحث في أمور أقل أهمية ، حضر الخمسون من الصحب في هيئة جمعية استشارية ، وإذا جرى البحث في الشؤون العادية حضر معهم السبعون . ومن جهة أخرى فقد ذكر لنا اليسع أسماء سبعة رجال ، قال إنهم كانوا للمهدي رجال مشورته ، وهم أبو سليمان من هرغة ، وأبو الحسن ، وأبو وزغيع بن ياموهل بن يابوجان ، وأبو دايور يغور ميوركن ، من أهل تينملال ؛ وقطران بن ماغليفة ، وأبو محمد سكانية ، وأبو عمران موسى بن واحد بن من أهل هنتاة (٢) .

واتخذ المهدي شعاراً لحيوشه علماً أبيض كتب على أحد وجهيه ، « الواحد الله . محمد رسول الله . المهدي خليفة الله » ، وكتب على الوجه الثاني « وما من إله إلا الله . وما توفيقى إلا بالله . وأفوض أمري إلى الله » (٣)

وأما عن شخصه ، فقد كان المهدي ، حسبما تصفه الرواية ، رجلاً ربعة حسن التكوين ، مفلج الثنايا ، عظيم الهامة ، أسمر مشوب بحمرة ، غائر العينين ، حديد البصر ، أقنى ، خفيف العارضين ، له شامة سوداء في كفه الأيمن (٤) .

(١) كتاب « آثار الأول وترتيب الدول » المنشور على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي (القاهرة

سنة ١٣٠٥ هـ) ص ٦١ و ٦٢ .

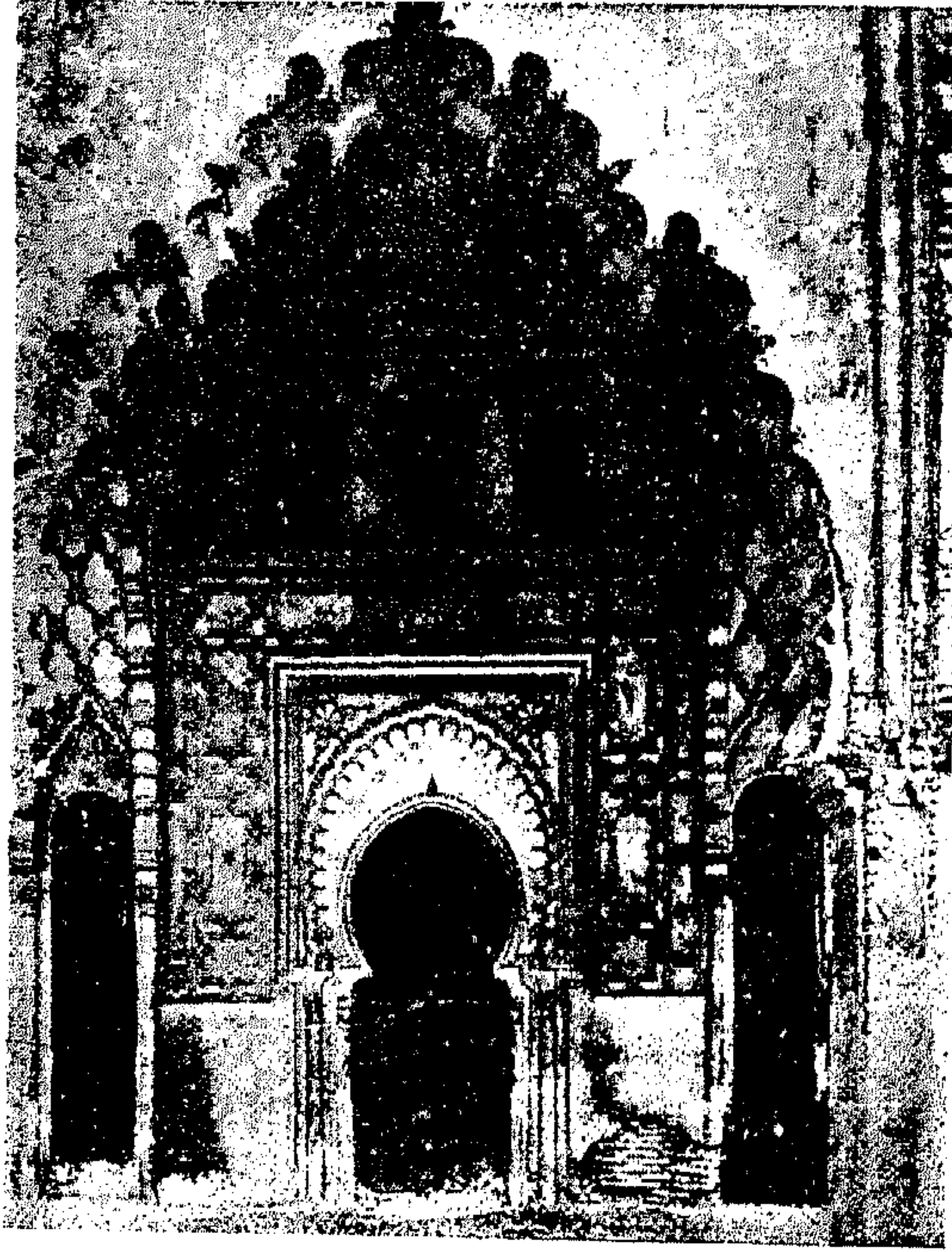
(٢) هذا ما نقله إلينا ابن القطان عن اليسع في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ١٠ ب

و ٣٣ ب) .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ٤٣ ب) .

(٤) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٤ ب) ، وكذلك ابن خلكان ج ٢ ص

٥٢ ، وروض القرطاس ص ١١٧ .



تينملل : محراب جامع
المهدى ابن تومرت



تينملل : إحدى واجهات
جامع المهدي
وأمامها لفيف من قبيلة جندافة

ولما توفي المهدي ، كتم أصحابه الأقربون موته حيناً تختلف الرواية في مداه .
ويذهب ابن القطان ، ويتابعه صاحب روض القرطاس ، إلى أن هذا الكتمان استمر زهاء
ثلاثة أعوام حتى سنة ٥٢٧ هـ^(١) ، وهي رواية تحمل طابع المبالغة . وعلى أى حال ،
فقد كتبت وفاة المهدي حتى اتفق أصحابه على اختيار من يخلفه منهم ، وقد كان
هذا الخليفة الأول لدولة الموحدين هو عبد المؤمن بن علي ، تلميذ المهدي وأحب
أصحابه إليه ، وكان أول ما عمله أن قام بمواراة المهدي في مشواه الأخير . ويقول
لنا ابن القطان ، وهو من أوثق مؤرخي الموحدين ، إن المهدي دفن بتينملل
دون تخصيص للمكان ، ويقول لنا ابن خلدون إن عبد المؤمن قام بدفن المهدي
في مسجده الملاصق لداره^(٢) ، الكائن بتينملل . وقد أتيح لنا أن نزرور تينملل ،
وأن نشهد مسجد المهدي . وتينملل اليوم محلة صغيرة (مدشر) تقع على سفح التل
المنحدر إلى الوادي ، وتظلها من وراء البعيد آكام الأطلس العالية ، ومن بينها
قمة « طبوتقال » الشهيرة التي يزيد ارتفاعها على أربعة آلاف متر ، وبها مساكن
قليلة ، ولا يعدو سكانها مائة من الأنفس ، ولكنها مازالت تشتهر بكونها بلد المهدي
ابن تومرت ، وأما المسجد فهو قائم في سفح الجبل ، وهو اليوم طلل دارس
لا تقام فيه الشعائر ، ولكن جدرانه وعقوده مازالت قائمة ، وله محراب جميل .
ولم نجد به ضريح المهدي حسبما تشير إلى ذلك الرواية التاريخية .

بيد أنه توجد على قيد نحو ستين متراً من المسجد ، بقعة صغيرة تظلها
الأشجار ، وتقع فوق ربوة منحدر ، فهذه البقعة تعينها الرواية المتواترة ، وهي
رواية قبيلة جندافة ، التي تقطن هذه الناحية منذ أجيال ، بأنها تضم رفات المهدي
وبها قبره ، وإن لم يك ثمة ما يدل على وجود قبر بها ، ولا تميزها سوى بضعة
أحجار زرقاء ظاهرة الروثوس ، يقال إنها شواهد القبر . وربما كانت هذه الرواية
المتواترة في تعيين قبر المهدي ، تتفق مع ما يقول لنا ابن خلكان ، من أن المهدي
« قد دفن بالحليل ، وإن قبره هناك مشهور يزار »^(٣) . وعلى أى حال فإن المتفق
عليه هو أن المهدي يثوى ثواه الأخير بتينملل مبعث دعوته ، ومهد دولته ،
وذلك سواء داخل مسجده أو في بقعة قريبة منه .

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) ، وروض القرطاس ص ١١٩ ،
وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

الفصل الثالث

عقيدة المهدي ابن تومرت

وتعاليمه الدينية والسياسية

تراث المهدي الفكري والديني . كتاب أعز ما يطلب ومحتوياته . فاتحته . طريق العلم . تحصيل الفقه . التواتر . رأى ابن تومرت في أصول الشريعة . حملته على الاجتهاد . تمسكه بالتفسير الظاهري . نظرية الإمام المعصوم هي السبب . معارضة الغزالي لهذه النظرية . ابن تومرت لم يتأثر بتعاليم الغزالي . تعليق العلامة جولدسيهر على ذلك . فكرة التوحيد عند ابن تومرت . نظريته في الإمامة . كيف يعرض لنا وجوب الإيمان بها . نظرية المهدي المنتظر . اعتمادها على الأحاديث الموضوعة . كيف يعرضها لنا ابن تومرت . وجوب طاعة المهدي باعتبارها طاعة الله ورسوله . قواعد علوم الدين والدنيا . تكفير من يشك في أمر المهدي . حملة ابن تومرت على المرابطين . العلامات التي ينسبها لهم . ما أحدثوه من المناكر . تحريم طاعتهم ووجوب جهادهم . نعتهم بالمجسمين . حملته على اللثام . مظاهر الفساد أيام المرابطين . الطائفة التي تقوم آخر الزمان وتقاتل على الحق . استعارة فكرة التوحيد من المعتزلة . مناقضة فكرة التجسيم للتوحيد . حديث الصلاة والطهارة والغلول . تحريم الخمر . كتاب الجهاد تصنيف الخليفة أبي يعقوب يوسف . كتاب موطأ المهدي ومحتوياته . انتشار كتب المهدي بين البربر لكتابها بالبربرية .

نقف الآن قليلاً في تتبع ذلك الصراع المرير، الذي اضطرم بين المرابطين والموحدين، لنستعرض طرفاً من عقائد المهدي وآرائه ومبادئه الدينية والسياسية . لقد انتهى إلينا لحسن الطالع من تراث المهدي، الفكري والديني، ما يلقي الضياء على تلك المبادئ والآراء، التي اتخذها سنداً لدعوته الدينية، والتي جعل منها عقيدة جديدة، يمكن أن توصف بالعقيدة الموحدية .

ويجتمع تراث المهدي الفكري والديني في كتابين، أولهما يضم مبادئه، ونظرياته في الأصول، وفي الإمامة، وفي التوحيد والعلم، وهو أهم الكتابين، وقد عرف بكتاب (أعز ما يطلب) لاستهلاله بتلك العبارة، والثاني كتاب «الموطأ» أو «موطأ الإمام المهدي»، وقد وضعه المهدي في العبادات والمعاملات والحدود، أو بعبارة أخرى في علم الفروع، على مثل موطأ الإمام مالك . وقد وُصف الكتاب الأول في أصل نسخته المخطوطة بأنه «سفر فيه جميع

تعاليق الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، رضى الله عنه ، مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن علي أدام الله تأييدهم ، وأعز نصرهم ومكن سعودهم » . ومعنى ذلك أن الكتاب لم يصل إلينا من المهدي مباشرة ، وأن الذي نقل إلينا تعاليم المهدي وآراءه ودونها ، هو تلميذه عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين .

ويضم هذا الكتاب فصولاً وأبواباً عديدة ، ويشتمل على الكلام عن الجهل والشك والظن ، والأصل والفرع والتواتر ، وعن الصلاة ، وكون الشريعة لا تثبت بالعقل ، وعن العموم والخصوص ، وعن العلم ، وعن العقيدة ووجود الباري سبحانه ، وعن التنزيهات والتسيحات ، ثم الكلام عن الإمامة وعلامات المهدي ، وعن طوائف المبطلين من المثلثين والمجسمين وعلاماتهم ، وعن الطائفة التي تقاتل عن الحق وتقوم بأمر الله ، وعن علاماتها وخواصها ، وعن التوحيد وثبوته ، وما يتعلق بذلك من الإيمان بالله ورسوله ، وعن تحريم الخمر وماورد في ذلك ، ويختتم الكتاب بفصل عن الجهاد ، وهو منسوب للخليفة أبي يعقوب يوسف ولد الخليفة عبد المؤمن .

يفتح المهدي كتابه بهذه الفقرة الرنانة التي أضحى مستهلها عنواناً لكتابه وهي : « أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » .

وأول ما يلفت النظر في أسلوب الكتاب جزالته ، فالمهدي رغم أصوله ونشأته البربرية ، يقدم إلينا آراءه في أسلوب قوى ، وبيان عربي متين ، ولكنه إلى جانب ذلك مولع بالتصنيف والتقسيم ، يكثر من ذلك في كل باب وفصل ، وهذه النبذة التي يبدأ بها المهدي كتابه ، والتي يحدثنا فيها عن فضل العلم وطرقه ، تعتبر نموذجاً لما يتبعه في سائر الفصول من التصنيف والتقسيم المستمر لعناصر موضوعاته وآرائه :

« والذي يستعين به طالب العلم على فتح ما انغلق ، وكشف ما التبس ، إخلاص النية ، واغتنام الفوائد ، والحرص على الزيادة ، والرغبة إلى الله في

الهداية والتوفيق . والعلم نور في القلب تتميز به الحقائق والخصائص ، والجهل
ظلام في القلب تلتبس به الحقائق والخصائص . وطرق العلم منحصرة في ثلاثة :
الحس ، والعقل ، والسمع . فالحس على ثلاثة أقسام : متصل ومنفصل ، وما يجده
الإنسان في نفسه . والعقل على ثلاثة أقسام : واجب وجائز ومستحيل . والسمع على
ثلاثة أقسام : الكتاب والسنة والإجماع . والكلام الآن في الطريق الذي هو السمع
فيما علق عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، رضى [الله عنه] في ذلك ، أول
هذا الأمر برباط هرغة ببلد السوس سنة خمس عشرة وخمسة ، أن تحصيل الفقه
في السنة بخمسة أوجه : « أحدها كيفية الأخذ والنقل عن الرسول (ص) . والثاني
معرفة السند . والثالث معرفة ما يتعلق بالمتن . والرابع معرفة الصحيح والسقيم .
والخامس معرفة الاستنباط والتأويل » . ثم يتحدث عن الأخذ عن الرسول ، وعن
النقل ، وتسمية التواتر والآحاد ، ويقسم ذلك إلى أقسام وفروع عديدة (١) .
ومحدثنا خلال ذلك عن مناظرته للفقهاء المرابطين بأعلمات ، وماتلاه عليهم من إيضاح
ما عجزوا عن الإجابة عنه ، من تبيان أصول الحق والباطل ، وفي رأيه أن هذه
الأصول تنحصر في أربعة : هي العلم والجهل والشك والظن ، وهو يفيض في شرح
نظريته ، وبيان الأدلة عليها ، ثم يتحدث عن كل أصل من الأصول الأربعة ،
ويقول لنا إن الجهل والشك والظن هي من أصول الضلال ، ويدلل على أقواله
بالآيات القرآنية . ثم يفيض بعد ذلك في التحدث عن التواتر والأخبار المتواترة
وأصولها وفروعها ، ويقسمها إلى أقسام عديدة متفرعة ، ويشرح دور الأصل والفرع
في الإثبات في حديث طويل متعدد الأقسام والفروع . وهو يعتبر « التواتر » علماً
ويفيض في بيان أقسامه وخصائصه ، والدور الذي يؤديه كمصدر من مصادر العلم ،
وطريقة التمييز بين ما يثبت بالتواتر ، وما يثبت بالآحاد . وهو يرى أن أفضل التواتر
ما كان صادراً عن أهل المدينة ، لأن « الإسلام والشرايع والرسول والصحابة ،
إنما كانوا في المدينة » ولهذا « صار عمل أهل المدينة حجة على غيرهم » (٢) ،
ويحاول أن يدعم شروحه بما أثر عن الرسول والصحابة ، من أقول وأعمال .
ومحدثنا المهدي بعد ذلك عن « الصلاة » وعن معناها ، وبيان فضلها ،
وحكمتها وتفصيلها ، وبيان أحكامها ، وذلك في حديث طويل جداً ، يتخلله

(١) كتاب « أعز ما يطلب » للمهدي محمد بن تومرت (الجزائر سنة ١٩٠٣) ص ٢ ، ٣ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ٤٩ .

كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يحاول بها أن يدعم أقواله وآراءه^(١).
على أن هذه الشروح الحدلية ، مهما دلت عليه من مقدرة في العرض ،
والسفسطائية ، ليست هي أهم ما يعرض لنا ابن تومرت من نظرياته الدينية ،
وإنما تبدو أهمية تعاليمه ونظرياته في عدة مسائل خاصة ، هي التي تعتبر قوام
مذهبه الديني .

وأول هذه المسائل هو رأى ابن تومرت في أصول الشريعة ، وهو يرى قبل
كل شيء « أن الشريعة لا تثبت بالعقل من وجوه ، منها أن العقل ليس فيه إلا
الإمكان والتجويز وهما شك ، والشك ضد اليقين ، ومحال أخذ الشيء من ضده » ،
و « منها ان الله سبحانه وتعالى مالك الأشياء يفعل في ملكه ما يريد ، ويحكم
في خلقه ما يشاء ، فليس للعقول تحكيم ولا مدخل فيما حكم به المولى » . وهو يقصد
بإشارته هذه الرد على بعض من لا خلاق لهم « فيما ذهبوا إليه من أن الشريعة
لا حكمة فيها ، وأنها ليست على سنن العقل جارية ، طعناً منهم في الدين ، وجهلاً
بحكمة الله تعالى » . وهو يحمل في نفس الوقت على من « ذهبوا إلى الاستنباط من
عقولهم ، وتحسين الأشياء على مادتهم ، وجعلوا أقيسة في الشرع عدولاً منهم عن
الحق ، وذلك كله فاسد »^(٢) ، وعنده أن أصول الشريعة تنحصر في عشرة وهي :
أمر الله ونهيه ، وخبره بمعنى الأمر ، وخبره بمعنى النهي ، وأمر الرسول ونهيه ،
وخبره بمعنى الأمر ، وخبره بمعنى النهي ، وفعله ، وإقراره . وتنحصر الفروع في
خمس : « وهي الواجب والمندوب والمحذور والمكروه والمباح » . وهو لا يخص
الإجماع والقياس بالذكر ، باعتبارهما من أصول الشريعة ، ولكنه يقول إنهما
داخلان فيما تقدم ، مائلين فيه ، ثم يفيض في شرح ذلك على طريقتيه من تصنيف
القياس إلى أقسام وفروع لا نهاية لها . ومما هو جدير بالذكر أنه يعتبر « قياس
الوجود » ، إنما هو « قياس المحسمة » وهم في نظره المرابطون ، ويعتبره من ضروب
القياس الفاسد^(٣) ، ثم يعود إلى القياس في موضع آخر ، فيقول إنه « لا فرق بين
القياس العقلي والشرعي في الإضطراد إذا حقق معناه ، فإن القياس العقلي هو المساواة
فيما يجب ويجوز ويستحيل . والقياس الشرعي هو المساواة في الوجوب أو التحليل

(١) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ٦٣ - ١٦٣ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ١٦٣ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ١٦٥ .

أو التحريم ، فهذه الثلاث هي المعتبرة في القياس الشرعي ، وهي مضطردة في جميع الشرع ، فمضى خرج عن هذه الثلاث أو واحدة منها لم يصح قياس ولا يقاس بعضها على بعض لأنها متناقضة . ولا يصح القياس في المتناقضات ، خلافاً لما ذهب إليه من لا معرفة عنده بالقياس ، فقاوسا المتناقضات كالمحررات على المباحات ، ومزقوا الشرع كل ممزق (١) .

أما عن الاجتهاد كأصل منه أصول الشريعة ، فإن ابن تومرت يحمل عليه ، ويقول مشيراً إلى إثبات النفي ، إنه قلب للحقائق ، وقلب الحقائق محال ، ثم يقول « إن هذه القاعدة كثيرة الإلتباس ، وعنها زل كثير من الناس ، وبالجهل بها ، وعدم التحقيق لها ، قالوا كل مجتهد مصيب ، فجعلوا هذه المقالة سلماً إلى هدم الشريعة ، وإسناد الأحكام إلى غير مستندها ، وعكس الحقائق عن موضوعها ، وصيروا الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، وجعلوا الشرع متناقضاً ، واتبعوا قولة كل قائل ، وإن تناقضت ، واعتقدوا الحق في المجتهدين وإن تعارضت » (٢) .

ومعنى ذلك بقول آخر أن ابن تومرت كان يأخذ في تفسير الشريعة بالمذهب الظاهري ، فيما يقول به من وجوب الاعتماد في استقراء الأحكام على القرآن والسنة دون غيرها ، وقد كان الإمام الفيلسوف ابن حزم القرطبي ، يرى فوق ذلك أن يطبق المذهب الظاهري على العقائد ، ويرى أنه يجب أن يؤخذ بمعنى الكلمة المكتوبة والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين . ومن الغريب أن الظاهرية لم تنتظم في ظل الموحدين إلى مدرسة مذهبية إلا بعد المهدي بنحوستين عاماً في عصر الخليفة يعقوب المنصور ، ففي هذا الوقت ، فقط اعترف بأن الظاهرية هي المدرسة الفقهية الرسمية . بيد أنها لم تكن مدرسة ناجحة ، وقد أخفقت في حل كثير من المسائل (٣) .

وإنكار ابن تومرت لقيمة الاجتهاد كمصدر من مصادر الشريعة ، ومعارضته لجهود المجتهدين في تجديد الشريعة ، والاستنباط في مجال الاجتهاد ، من الأمور المنطقية ، لأن ابن تومرت يتشعب بثوب « الإمام المعصوم » الذي لا تبحث آراؤه ، ولا ترد أحكامه . ويلاحظ العلامة جولديسيهر أن ابن تومرت يخالف بهذه النظرية سائر الآراء السنية التي تسلم بقيمة آراء المجتهدين في الإمامة وغيرها ، ويفرض

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥ .

(٣) الأستاذ شتروتمان في دائرة المعارف الإسلامية (مقال الظاهرية ، وابن حزم) .

على أتباعه وجوب الاعتقاد في الإمام المعصوم ، والإمام المعلوم ، وذلك وفقاً لرأى الشيعة . فهم يعتبرون ، حسبما بصوغ لنا رأيهم الشهرستاني « بأن الإمامة ليست قضية مصلحة ، تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ، وهي ركن من أركان الدين ، لا يجوز للرسول إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله . ويجمعهم أى الشيعة القول بوجوب التعيين والتنصيب ، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر » (١) . كذلك يلاحظ جولديسهر بهذه المناسبة أن ابن تومرت بموقفه من الاجتهاد ، يعارض الإمام الغزالي ، الذى يعلق أهمية كبيرة على مبادئ الاجتهاد . ومن جهة أخرى ، فإن الغزالي يعارض نظرية الإمام المعصوم في غير كتاب من كتبه . وقد أشار إلى ذلك في إحدى رسائله ، وهي « المنقذ من الضلال » . وفيها يحيل إلى ما سبق أن كتبه في ذلك من مختلف الفصول ، ثم يحمل على فكرة « المعصوم » ويسخر منها في عبارة موجزة (٢) .

ثم إن الخلاف بين ابن تومرت والغزالي لا يقف عند هذا الحد . والواقع أنه ليس من الحقيقة في شيء ، أن يقال إن ابن تومرت قد تأثر بتعاليم الغزالي سواء من تلميذه المزعوم عليه بالمشرق ، أو بدراسة كتبه ونظرياته . وإليك ما يقوله لنا العلامة جولديسهر في ذلك : « إن المستخلص من قراءة كتب الغزالي أن ابن تومرت لم يسترشد سواء في تعاليمه أو أعماله بتعاليم الغزالي ، بل هناك ما هو أكثر ، وهو أن التعصب الذى أبداه ابن تومرت نحو مسائل العقيدة ، يدل على أنه لم يتأثر بنفوذ الغزالي الشخصى . ذلك أن طريقة « الأستاذ » الرفيقة الموفقة ، وميوله المشبعة بالتوقير للإيمان التقليدى ، هي أبعد مما نجده في تصرفات الثورى « المصمودى » . ولو أن الغزالي عاش مدة أطول ليتتبع حياة ابن تومرت ، وطُلب إليه أن يصدر في شأنه فتوى ، لأصدر فتواه بنقض عمل تلميذه المزعوم ، وأنه لا يوحده أجدر بلوم الغزالي ، من ذلك التقديم المغصوب « للتأويل » بين الطبقات الدنيا لشعب يتسم بالبدادة » (٣) .

(١) كتاب الملل والنحل للشهرستاني المنشور على هامش الفصل والنحل لابن حزم « القاهرة » ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) المنقذ من الضلال (طبعة القاهرة سنة ١٣٠٩ ص ١٩) . وراجع مقدمة العلامة جولديسهر

الفرنسية لكتاب (محمد بن تومرت) Mohamed ibn Tcumert et la Théologie de

l'Islam dans le Maghreb au XI^{eme} Siècle, p. 21, 22 & 40

(٣) جولديسهر في مقدمته الفرنسية السالفة الذكر ص ٨٣ .

ثم يحدثنا ابن تومرت بعد ذلك عن « العموم والخصوص ، والمطلق والمقيد ، والمحمل والمفسر ، والناسخ والمنسوخ ، والحقيقة والمجاز ، والكناية والتعريض والتصريح ، والأسماء اللغوية التي غلب عليها العرف وخصصها ، والأسماء المنقولة من اللغة إلى عرف الشرع » ، وهو يتناول هذه الأشياء على ضوء الدين ، ويمثل لها بمختلف الآيات القرآنية . ثم يعود فيحدثنا من جديد عن العلم وفضله وتقاسيمه في فصل خاص ، ينحو فيه منحاه المأثور في التصنيف والتقسيم .

بعد ذلك ينتقل بنا ابن تومرت إلى مسألة العقيدة ، ويحدثنا عن التوحيد ، وعن دلائل وجود الباري سبحانه ، وتنزيهه عن التشبيه . وإذا كان التوحيد في الأصل ركناً من أركان الإسلام الأساسية ، فإنه يعتبر هنا وبنوع خاص أساساً لمذهب ابن تومرت الديني والسياسي معاً ، وهو يتحول على يد المهدي من صفة الدينية إلى فكرة سياسية ، هي التي أضحت أساس الدولة الموحدية ، ودعامة سلطانها الأولى . ويلاحظ العلامة جولديسير بهذه المناسبة ، أن فكرة التوحيد لم يبق معناها فيما بعد ، هو الاعتراف بوحدانية الله ، ولكن غدا معناها الخضوع لحكومة الموحدين^(١) ، ويستشهد على ذلك بما ذكره ابن صاحب الصلاة في تاريخه من خضوع الزعيم الأندلسي إبراهيم بن همشك لحكومة الموحدين في سنة ٥٦٤ هـ ووصفه ذلك الخضوع في قوله : « توحيد ابن همشك » ، والتعبير عن رغبته في الاستسلام برغبته في « التوحيد والتوبة »^(٢) ويقدم إلينا ابن تومرت بعد ذلك صيغة التوحيد وصيغ التسييح التي وضعها لأتباعه ، وهي صيغ تردد مضمون عبارات التوحيد والتقديس التي عرفت منذ الأجيال^(٣) .

على أن أهم ما يتضمنه كتاب ابن تومرت ، هو كلامه عن الإمامة وعن الإمام المعصوم ، وعن المهدي وعلاماته ، وعن قيام الطائفة التي تقوم في آخر الزمان لتقاتل في سبيل الحق . ويمكننا أن نعتبر هذا الفصل لب الكتاب ، ولب مذهب

1. Goldziher : Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung. (١)

(Z. der Mog. Gesellsch. 1887), p. 70.

(٢) في كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » (مخطوط أكسفورد السالف الذكر ، لوحة ١٢٦ ب) .

(٣) كتاب المهدي ابن تومرت ص ٢٤٠ - ٢٤٤ ، وقد نقلنا بعضها في باب الوثائق في نهاية الكتاب .

ابن تومرت كله ، ولب دعوته السياسية كلها ، فإن الإمامة الدينية ، هي الشعار السياسي الذي انتحله ابن تومرت ، دعامة لزعامته وسلطانه . ونظرية المهدي المنتظر ، هي الثوب الروحي الذي اتشح به ، لتأييد شرعية إمامته وقدسيتها . ونحن نعرف أن الإمامة هي شعار الدعوة الشيعية ، الديني والسياسي ، وأنها تخص بها آل البيت دون سواهم ، وعلى كرا العصور . ولكن ابن تومرت ، في تمسكه بنظرية الإمامة ، يبدو مستقلاً ، بعيداً عن الدعوة الشيعية ، وممثلاً لدعوة خاصة ، وإن كان في نفس الوقت يحرص على أن ينتسب إلى آل البيت ، حتى تتوفر فيه شرعية الإمامة ، وإليك كيف يعرض لنا ابن تومرت نظرية الإمامة وخصائصها حين يقول :

« هذا باب في العلم ، وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة ، وهي ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمدة الشريعة ، ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة . ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من عاد إلى نوح ، ومن بعده إلى إبراهيم . . . ولا يكون الإمام إلا معصوماً من الباطل لهدم الباطل ، لأن الباطل لا يهدم الباطل ، وأن يكون معصوماً من الضلال ، لأن الضلال لا يهدم الضلال . . . وأن يكون معصوماً من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبتته ، وأن يكون معصوماً من البدع ، لأن المبتدع لا يهدم الكذب بل يثبتته ، وأن يكون معصوماً من العمل بالجهل ، لأن الجاهل لا يهدم الجهل ، وأن يكون معصوماً من الباطل لأن المبطل ، لا يهدم الباطل ، كما لا تدفع النجاسة بالنجاسة ، وكما لا تدفع الظلمة بالظلمة ، كذلك لا يدفع الفساد بالفساد ، ولا يدفع الباطل بالباطل ، وإنما يدفع بضده الذي هو الحق ، لا يدفع الشيء إلا بضده ، ولا تدفع الظلمة إلا بالنور ، ولا يدفع الضلال إلا بالهدى ، ولا يدفع الجور إلا بالعدل ، ولا تدفع المعصية إلا بالطاعة ، ولا يدفع الاختلاف إلا بالاتفاق ، ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولى الأمر ، وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم»^(١) . ثم يعود ابن تومرت فيؤكد أهمية الإمامة كركن جوهرى من أركان الدين ، ووجوب اعتقادها والخضوع لها في قوله :

« والإمامة هي عمدة الدين وعموده على الإطلاق في سائر الأزمان ، وهو دين السلف الصالح ، والأمم السالفة إلى إبراهيم وما قبله ، فاعتقادها دين ، والعمل بها

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٤٥ و ٢٤٦ .

دين ، والتزامها دين ، ومعناها الإلتباع والاقتراء ، والسمع والساعة ، والتسليم ، وامتنال الأمر ، واجتناب النهي ، والأخذ بسنة الإمام في القليل والكثير» (١) .
ولإنه لا يمكن أن تكون ثمة تأكيدات أخطر من هذه وأشد فعلا ، وأبعد أثراً في النفوس ، لتأكيد الزعامة الدينية والسياسية ، والانضواء تحت لوائها ، والإذعان لسلطانها . وقد كان المهدي مخاطب بأسلوبه القوي المنذر ، مجتمعاً يسوده الجهل ، وتسيطر عليه الخرافة ، فكانت أقواله وتعاليمه تنساب إلى هذا المجتمع الساذج ، كقرآن جديد . كيف لا وهو يؤكّد بأنه « لا يكذب بهذا ، إلا كافر أو جاحد أو منافق أو زائع أو مبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق ، أو رذل أو نذل ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر » (٢) .

ثم إن هذه الإمامة المطلقة الواجبة الطاعة في كل زمان ومكان ، لا بد أن تتوج بصفة خاصة تؤكّد من شرعيتها وتزيد في قدسيتها ، وتجعلها أقرب إلى مراتب النبوة ، وتلك هي صفة المهدي المنتظر . وهي أسطورة من أقدم الأساطير الدينية في الإسلام . ويرجعها البعض إلى عصر النبي ذاته . وهناك طائفة من « الأحاديث » تشير إلى هذه الأسطورة . وهناك أيضاً طائفة من الأقوال المأثورة تنسب لجماعة من أكابر الصحابة . ولكن هذه الأحاديث والأقوال ، موضع كثير من الجدل والريب ، وهي على الأغلب من خلق الشيعة الذين استغلوا هذه الأسطورة على كسر العصور ، واتخذوها سبيلاً إلى تحقيق السلطان السياسي . وخلاصة هذه الأحاديث والأقوال « إنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من آل البيت ، يؤيد الدين ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويعيد مجد الإسلام ودولته ، ويسمى بالمهدي » أو على حد عبارتهم المأثورة ، وهي أن المهدي يخرج في آخر الزمان « فيملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً » . وقد كان قيام الدولة الفاطمية الشيعية بإفريقية ثم بمصر ، في أوائل القرن الرابع الهجري ، أعظم وأروع استغلال لهذه الأسطورة . وهذا الثوب القدسي - ثوب المهدي المنتظر - هو الذي اعتم محمد بن تومرت أن يتشح به ، وأن يتوج به أمامته وسلطانه السياسي . ومن ثم فإننا نراه ، بعد أن يحدثنا عن أهمية الإمامة . وكونها ركن الدين الركين ، يعرض

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٣ و ٢٥٤ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٤ .

لنا نظرية المهدي بقوة وحماسة . وهو يستهل كلامه بوصف مثير لأحوال العصر الذي تلا عصر النبوة والخلفاء الأربعة ، وما ساد فيه من ضروب التفرق والهوى والفتن ، وهو العصر الذي « يذهب فيه العلماء ، ويظهر الجهال ، ويذهب الصالحون ، وتبقى الخثالة ، ويذهب الأمناء وتبقى الخونة ، وتذهب الأئمة ، وتظهر المبتدعة ، ويذهب الصادقون ، ويظهر الدجالون ، ويذهب أهل الحقائق ، ويظهر أهل التبديل والتغيير والتليس والتاليس ، حتى انعكست الأمور ، وانقلبت الحقائق وعطلت الأحكام ، وفسدت العلوم ، وأهملت الأعمال ، وماتت السنن ، وذهب الحق ، وارتفع العدل ، وأظلمت الدنيا بالجهل والباطل ، واسودت بالكفر والفسوق والعصيان ، وتغيرت بالبدع والأهواء ، وامتلأت بالخور والظلم والهرج والفتن » . ثم جاء المهدي في زمان الغربية ، في الوقت الذي عكست فيه الأمور ، وقلبت الحقائق ، وبدلت الأحكام « وخصصه الله بما أودع فيه من معاني الهداية ، ووعد قلب الأمور عن عاداتها ، وهدمها بهدم قواعدها ، ونقلها إلى الحق بإذن الله ، حتى تنتظم الأمور على سنن الهدى ، وتستقيم على منهاج التقوى ، وينهدم الباطل من قواعده ، وتهدم بانهدامه فروعه ، ويثبت الحق من أصله ، وتثبت بثبوته فروعه ، ويظهر العلم من معادنه ، ويشرق نوره في الدنيا بظهوره ، حتى يملأها عدلاً ، كما ملئت قبله جوراً ، بوعد ربه كما وعد ، وبفضله كما سبق ، هذا ما وعد الله للمهدي ، وعد الحق الذي لا يخلفه » (١) .

وهذا المهدي ، الذي تستحيل على يده شئون العالم ، من الفساد الشامل ، والظلم المطبق ، إلى الصلاح والعدل الشامل ، « لاند له في الوري » ولن يجد « من يعانده ، ولا من ينازعه ، ولا من يخالفه ، ولا من يضاده » ، ومن ثم فإن ابن تومرت يؤكد لأتباعه وأنصاره وجوب طاعة المهدي ، والإيمان برسالته ، والإذعان لمشيئته ، والاستسلام لحكمه ، وذلك بصورة مطلقة يعرضها لنا على النحو الآتي :
« فالعلم به واجب ، والسمع والطاعة له واجب ، واتباعه والاقترداء بأفعاله واجب ، والإيمان به والتصديق به واجب على الكافة ، والتسليم له واجب ، والرضى بحكمه واجب ، والانقياد لكل ما قضى واجب ، والرجوع إلى علمه واجب ، واتباع سبيله واجب ، والاستمساك بأمره حتم ، ورفع الأمور إليه بالكلية لازم » .

وليس ذلك فقط ، فإن طاعة المهدي ، والاستسلام إليه ، إن هي إلا طاعة الله ورسوله ذاتها ، « فإن سنة المهدي هي سنة الله ورسوله ، وأمره أمر الله ورسوله ، وطاعته طاعة الله ورسوله ، والانقياد له الانقياد إلى الله ورسوله ، وموافقته موافقة الله ورسوله ، وتعظيم حرمانه تعظيم حرمان الله ورسوله . هو أعلمهم بالله ، وأقربهم إلى الله ، به قامت السموات والأرض ، وبه كشفت الظلمات ، وبه تدفع الأباطيل ، وبه تظهر المعارف ، وبموافقته تنال السعادة ، وبطاعته تنال البركات» (١) .

أما أولئك الذين تسول لهم أنفسهم مخالفة المهدي ، ومعارضته أو الشك في أمره ، فويل لهم . ولم يذس ابن تومرت أن يتوعد هؤلاء بشر النكال . ذلك أن من ناوأ المهدي « فقد تقمع في الردى ، وليس له التطرق إلى النجاة » . ثم إن « أمر المهدي حتم ، ومن خالفه يقتل ، لا دفع له في هذا للدافع ، ولا حيلة فيه لئذافع ، ثبت بثبوت نصوص الكتاب ، وقواطع الشرع ، وبيان العلم ، ودام مادامت السموات والأرض بإذن الله الواحد القهار» (٢) .

ويتحدث ابن تومرت بعد ذلك في فصل قصير عن « القواعد التي بنى عليها علوم الدين والدنيا » يتناول فيه أموراً شتى ، ومما جاء فيه : « أن القيام بأمر الله واجب ، وأن الفساد يجب دفعه على الكافة ، ولا يجوز التماذى فيه ، وإن من منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها ، وإن التماذى على ذرة من الباطل ، كالتماذى على الباطل كله ، وأن الهوى لا يجوز إثارة عن الحق ، وإن الدنيا لا يجوز إثارتها على الآخرة ، وإن الحق لا يجوز تليسه بالباطل ، وأن العلم ارتفع ، وأن الجهل عم ، وأن الحق ارتفع ، وأن الباطل عم ، وأن الهدى ارتفع ، وأن الضلال عم ، وأن العدل ارتفع ، وأن الجور عم ، وأن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا ، وأن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا ، وأن الدجالين استولوا على الدنيا » ويختتم ابن تومرت هذا الفصل ، بالعود إلى الكلام عن المهدي في فقرة يلخص فيها كل ما تقدم ، ويؤكد به بقوة ، وذلك على النحو الآتي :

« إن الباطل لا يرفعه إلا المهدي ، وإن الحق لا يقوم به إلا المهدي ، وإن المهدي معلوم في العرب والعجم ، والبدو والحضر ، وإن العلم به ثابت في كل

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٢ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥١ و ٢٥٤ .

مكان ، وفي كل ديوان ، وأن ما علم بضرورة الإستفاضة قبل ظهوره ، يعلم بضرورة المشاهدة بعد ظهوره ، وأن الإيمان بالمهدي واجب ، وأن من شك فيه كافر ، وأنه معصوم فيما دعا إليه من الحق ، لا يجوز عليه الخطأ فيه ، وأنه لا يكابر ، ولا يضاد ، ولا يدافع ، ولا يعاند ، ولا يخالف ولا ينازع ، وأنه فرد في زمانه ، صادق في قوله ، وأنه يقطع الجبايرة والدجاجلة ، وأنه يفتح الدنيا شرقها وغربها ، وأنه يملؤها بالعدل ، كما ملئت بالجور ، وأن أمره قائم إلى أن تقوم الساعة » (١).

لم ينس ابن تومرت في الوقت الذي يعرض فيه دعوته ، ويشيد بنظريته الإمام المعصوم والمهدي المنتظر ، وهي التي اتخذها دعامة لزعامته الدينية ، وسلطانه السياسي ، أن ينظم حملته ضد أصحاب الأمر القائم ، ضد أولئك المرابطين ، الذين كان يرمى إلى تحطيم دولتهم ، والاستيلاء على ترأثهم . ومن ثم فإنه يخصصهم في كتابه بفصل ، يشهر فيه عليهم الخصومة والبغض ، ويحاول أن يسبغ على حملته لون القداسة ، وأن يردّها إلى أصول دينية ، وهو ينعتهم « بالمبطلين ، والمثمين ، والمجسمين » . ويقول لنا إن لهم علامات خاصة يعرضها لنا في قوله :

« جميع علاماتهم ظاهرة ، منها ما ظهر قبل مجيئهم من كادم ، ومنها ما ظهر بعد أخذهم البلاد ، ومنها ما ظهر من أحوالهم وأفعالهم . فالذي ظهر منها قبل مجيئهم خمس ، إحداهن أنهم الحفاة ، والثانية أنهم العراة ، والثالثة أنهم العالة ، والرابعة أنهم رعاء الشاء والبهم ، والخامسة أنهم جاهلون بأمر الله . والذي ظهر منها بعد أخذهم البلاد سبع ، إحداهن أنهم في آخر الزمان ، والثانية أنهم ملوك كما والثالثة أنهم يتناولون في البنيان ، والرابعة أنهم يادون مع الإمام ويشكركون من الحوارى ، والخامسة أنهم صم ، والسادسة أنهم يكلمونهم ، والثانية أنهم صم الحق لا يستمعون إليه ، بكم عن الحق لا يقولون به ، ولا يأمرؤن به ، وكل ذلك راجع إلى الجهل والعدول عن الحق ، والسابعة أنهم ما هم أهلا للأمانة في القيام بأمر الله . والذي ظهر من أحوالهم وأفعالهم ثمان ، إحداهن أنهم في أيديهم سيئات كأذنان البقر ، والثانية أنهم يعذبون الناس ويضربونهم بها ، والثالثة أن نساءهم رؤوسهن كأسنمة النجب ، يعنى أنهم يجمعن شعورهن فوق رؤوسهن حتى تكون شعورهن على تلك الصفة ، والرابعة أنهم كاسيات عاريات ، والخامسة أنهم مائلات يعنى

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٧ .

عن الحق والرشاد ، والسادسة أنهم مميلات يعنى لغيرهن ، والسابعة أنهم يغدون في سخط ، والثامنة أنهم يروحون في لعنة . هذه علاماتهم ، وجملة علاماتهم عشرون أخبر الرسول بجميعها قبل وجودهم ، فظهرت كلها على وفق ما أخبر به ^(١) . ويحاول ابن تومرت أن يثبت صحة هذه العلامات بإيراد « أحاديث » تنسب روايتها إلى عمر بن الخطاب وإلى أبي هريرة ، وفيها ذكر للعلامات المتقدمة ، وأنها من علامات الساعة ، و« أحاديث » أخرى يدمغ فيها الرسول أصحاب هذه العلامات ، بالنار والسخط والغضب واللعنة ، ويذكر فيها صفة نساأهن على النحو الذي تقدم ذكره ^(٢) .

ويتناول ابن تومرت بعد ذلك مثالب المرابطين ، وتحريم طاعتهم ، والحض على جهادهم ، في عدة أبواب رتبت كما يأتي :

(١) باب فيما أحدثوه من المناكير والمغارم ، وتقلبهم في السحت والحرام يأكلون فيه ويشربون ، وفيه يغدون وفيه يروحون ، وتجنسهم وكفرهم أكبر (٢) باب في تحريم معونتهم على ظلمهم ، وتصديقهم على كذبهم (٣) باب في معرفة أتباعهم الذين أعانوهم على ظلمهم ، وصدقوهم على كذبهم ، وبيان أفعالهم (٤) باب في وجوب مخالفتهم وتحريم الاقتداء بهم ، والتشبه بهم ، وتكثير سوادهم وحبهم (٥) باب في وجوب بغضهم ومعاداتهم على باطلهم وظلمهم (٦) باب في تحريم طاعتهم واتباع أفعالهم (٧) باب في وجوب جهادهم على الكفر والتحسيم وإنكار الحق ، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم (٨) باب في وجوب جهاد من ضيع السنة ومنع الفرائض (٩) باب في وجوب جهادهم على ارتكاب المناكر والفجور وتماديهم على ما لا يؤثرون به (١٠) باب في وجوب جهادهم على العناد والفساد في الأرض ^(٣) .

وهو خلال ذلك يحاول أن يؤيد أقواله وأحكامه ، بختلف الأحاديث والآيات القرآنية . وهو ينعى على المرابطين بنوع خاص - وهو ينعتهم هنا بالمجسمين الكفار - مسألة اللثام ، وتشبههم في ذلك بالنساء ، في تغطية الوجوه بالتلثيم والتنقيب ، وتشبه نساأهم بالرجال في السفور ، وعدم التلثيم والتنقيب ، وتحريم ذلك ، واعن

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٨ و ٢٥٩ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٠ و ٢٦١ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

من يرتكبه ، وفقاً لحديث تنسب روايته لابن عباس ، ونصه : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء ، شملتهم اللعنة جميعاً »^(١). على أنه من الإجحاف البين أن تُنعى هذه المسألة بالذات - مسألة اللثام - على المرابطين ، وتعتبر في حقهم جرماً يستوجب اللعن . ذلك أنها ليست سوى مسألة تقليد قومي وقبلي لا شأن له بالدين . وقد قيلت في أصل اللثام وسببه أشياء كثيرة ، منها ما سبق أن أشرنا إليه من قبل ، وهو أن أهل لمتونة - وهي قبيلة المرابطين - كانوا يتخذون في أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، ومنها أنه حدث ذات مرة في بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات ، حتى يحسن بذلك في عداد الرجال ، ومنها أنهم كانوا يلجأون إلى اللثام تخفياً من طلبه ثأر الدم ، وأخيراً أن اللثام كان من ضرورات الحماية من لفح العواصف والرمال والحر والبرد . وما تزال عادة اللثام قائمة حتى اليوم بين بعض قبائل موريتانيا والسودان وغيرها ، ويقال إن الحكمة في ذلك هو أن الرجال الأشراف لا يكشفون عن أنفسهم . وأما عن سفور النساء ، فقد قيل إنه لكي يظهر انحطاطهن عن الرجال^(٢) .

وأما حملة ابن تومرت على المرابطين بسبب ما أحدثوه من « المناكر والمغارم » فإن لها ما يبررها . وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يسود العاصمة المرابطية ، (مراكش) وقواعد المغرب الأخرى ، أيام المرابطين ، من مظاهر الاستهتار والفساد ، ومن ذلك ذبوع الحمر والقصف علناً في الأسواق ، وغير ذلك من مظاهر الخروج على الدين . وهذا ما يردده المراكشي في قوله مشيراً إلى علي بن يوسف : « وكان رجلاً صالحاً ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ، ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير أوقاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له ، وزراً على ما تقدم »^(٣). ومما هو جدير بالذكر أن أمثال هذه المناكر ، لم تلبث أن ظهرت في دولة الموحدين ، بعد ذهاب المهدي بفترة قصيرة . ومن ذلك أن

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٤ .

(٢) الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي ج ١ ص ٩٨ و ٩٩ ، وكذلك العلامة

جولدسيهر في مقاله : Z. (er : Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung

Morg. Gesellsch. 1887 p. 101)

(٣) المعجب ص ١٠٣ .

عبدالمؤمن أول الخلفاء الموحدين ، أبا علي ولده الأكبر محمد إتمام بيعته لولاية العهد ، لأنه كان مدمناً لشرب الخمر ، ولتفانص أخرى كانت تنسب إليه (١) .
علي أنه إذا كان المرابطون ، أو كما بنعتهم ابن تومرت ، طائفة المبطلين من الملثمين والمحسمين ، كانوا يتصفون بما يرميهم به من العيوب والمثالب التي يستحقون من أجلها اللعنات ، والتي تستوجب بغضهم ومعاداتهم ومجاهدتهم ، فإن هناك طائفة أخرى بشر الرسول بظهورها ، وهي التي تقاتل على الحق وتقاتل عنه ، وتقوم به إلى آخر الزمان ، وأن هذه الطائفة تقوم بأمر الله ، لا يضرها من خذلها أو خالفها ، وأنها ظاهرة على من عاداها إلى يوم القيامة ، وأنها تقاتل على أمر الله وتقهّر عدوها إلى قيام الساعة ، وأنها تقاتل على الحق حتى تجتمع مع عيسى بن مريم ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال ، وأن الله يفتح الدنيا كلها لأهل الغرب ، وأخيراً أن هذه الطائفة ينصرها الله حتى تقوم الساعة . وبالرغم من أن ابن تومرت لا يقول لنا من هي هذه الطائفة بصريح العبارة ، فإنه من الواضح أنه يعنى بها طائفة الإمام المعصوم ، والمهدى المعلوم ، أو بالحرى طائفته الخاصة ، طائفة الموحدين ، وهو يحاول هنا كعادته ، أن يؤيد كل أقواله ونبوءاته بطائفة من الأحاديث (٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما ذكره ابن تومرت ، عند الحديث عن العقيدة ، عن التوحيد ودلائل وجود الباري سبحانه . ويلاحظ العلامة جولديسهر ، أن ابن تومرت قد استعار عبارة « التوحيد » ، ومعناها التعلق بفكرة الله وصفاته ، من « المعتزلة » ، فهم الذين يعطون إسم « التوحيد » في تعريفهم لفكرة الله ، وهذا ما يوضحه لنا الشهرستاني في قوله عن المعتزلة : « واتفقوا على نبي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونبي التشبيه عنه من كل وجه ، جهة ومكاناً وصورة وجسماً وتحيراً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها ، وسموا هذا النمط « توحيداً » (٣) .

ومن ثم فإن ابن تومرت ، كان يُشهر في ظل هذا التفسير لمعنى التوحيد ،

(١) المعجب ص ١٣١ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٧ - ٢٧٠ .

(٣) الشهرستاني في كتاب « الملل والنحل » ، المنشور على هامش كتاب « الفصل » (القاهرة

بالفكرة المادية التي كانت ذائعة في المغرب في ظل المرابطين ، والتي تناقض فكرة التوحيد الحقيقية ، ويعتبر المرابطين مسئولين عن فكرة « التجسيم » ، و« التشبيه » الذائعة بين رعاياهم ، وينادى من أجل ذلك بقتالهم ، لأنهم هم السبب في نشر ذلك الإلحاد الذي يسود العقيدة ، وأنهم يقيمون نظاماً دينياً ، لا تتوجه فكرة الله . ومتى كان المرابطون على هذا النحو من أهل الشرك ، فيجب أن يشهر عليهم الجهاد في سبيل الله^(١) .

ويعود ابن تومرت فيتناول التوحيد هنا من ناحية أخرى ، وذلك كعادته في أبواب متعاقبة . أولها أن التوحيد ، هو أساس الدين الذي بنى عليه ، ثم يحدثنا عن معنى التوحيد ، وتفسير لفظه ، وعن فضله ، وعن شروط الشهادة ، وكون التوحيد يهدم ما كان قبله من الفكر والآثام ، وعن وجوب العلم بالتوحيد وتقديمه على العبادة ، وعن كون التوحيد هو دين الأولين والآخرين من النبيين المرسلين ، وكون دين الأنبياء واحد ، وعن معرفة طريق إثبات العلم بالتوحيد . ثم يتلو ذلك التحدث عن الإيمان وفضله ، والإيمان بالرسول ، وعن معنى الإيمان والعلم ، واتباع الكتاب والسنة ، يتخلل ذلك كله طائفة من الآيات والأحاديث للشرح والتدليل^(٢) .

يتناول ابن تومرت بعد ذلك طائفة من المسائل الدينية الأخرى التي لا تتصل أصلاً بدعوته الدينية أو السياسية ، ولكنها تتضمن مع ذلك ، بعض وقائع وأقوال تتصل بهذه الدعوة . وهو قد تحدث من قبل في فصل خاص ، عن الصلاة وفضلها وتفصيلها . وهو يتحدث هنا عن الطهارة ، وعن رفع العلم ، ورفع الدين والموالات . وفي هذا الفصل يكرر ما سبق ذكره ، من الأحاديث المتعلقة بالناس ، الذين يحملون سيئات كآذان البقر ، والنساء الكاسيات العاريات ، والمائلات رؤوسهن كأسنمة البخت ، وهي التي يعدها بين علامات المثلثين المحسمين . ثم يحدثنا بعد ذلك عن « التبديل والتغيير بعد رسول الله » . وفي هذا الفصل يعود إلى ذكر المهدي ، وما روى بشأنه من أحاديث ، تدل بأنه يكون من آل البيت ، وأن اسمه يطابق اسم النبي ، وأنه مملأ الأرض عدلاً

(١) جولديهر في مقدمته الفرنسية لكتاب « أعزما يطلب » التي سبق ذكرها ص ٥٦ و ٦١ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٧١ - ٢٨٠ .

كما ملئت جوراً ، وأنه يكون من عترة الرسول من ولد فاطمة^(١) ، وما ورد في شأن خروج الدجال وهزيمته^(٢) . ثم يلي ذلك كلام طويل في بابين لاعتوان لها ، وكلاهما يفيض بالأحاديث والأقوال الماثورة المتعلقة بالحننة والنار^(٣) .

وبعد أن تحدثنا ابن تومرت عن « الغلول والتحذير منه » وهو الحياة ، ويقدم إلينا في ذلك طائفة من القصص النبوية ، يختتم كتابه بفصل طويل في « تحريم الخمر » . وقد رأينا فيما تقدم من حياة ابن تومرت ، كيف كانت الحملة على الخمر ومطاردتها ، وإراقها وكسر أوانها ، من أخص ما شغله في دعوته إلى إزالة المنكر ، وكيف أنه كان يتعرض لصنوف من السخط والأذى ، كلما نشط إلى ذلك ، وهو يقرر أن الخمر محرمة « بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة » ويستعرض ما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث ، ويبين لنا أنواع الخمر المجمع على تحريمها في عصر الإسلام ، وهي التي كانت تصنع من العنب والتمر والعسل والشعير ، وهي كلها محرمة في رأيه قليلها وكثيرها ، ومن الواجب إراقها وكسر أوانها ، وهو يؤيد أقواله هنا بمختلف الأحاديث وأقوال الصحابة^(٤) .

أما الفصل الأخير من الكتاب ، وهو الذي يلي « كتاب تحريم الخمر » وعنوانه « كتاب الجهاد » فهو ليس من تأليف ابن تومرت ، وإنما هو من تأليف الخليفة أبي يعقوب يوسف ، ولد الخليفة عبد المؤمن بن علي وذلك حسبما يبدو من النبذة التي اختتم بها الكتاب ، وأشار فيها إلى تمام « كتاب الجهاد » وجميع تعاليق « الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، وذلك مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين . . . وذلك في العشر الأواخر من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسةائة »^(٥) .

وكتاب الجهاد ، والترغيب فيه ، يضم طائفة كبيرة من الأحاديث التي وردت في فضل الجهاد ، والحث عليه . وتبيان محاسنه ، وفضل الشهادة في سبيل الله . ويالحق بذلك الكلام على الجهاد بالمال وماورد فيه أيضاً من الأحاديث^(٦) . وهذا

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٣٠٩ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ٣١٣ - ٣٤٦ .

(٤) كتاب محمد بن تومرت ص ٣١٣ - ٣٧٦ .

(٥) كتاب محمد بن تومرت ص ٤٠١ .

(٦) راجع كتاب الجهاد (من كتاب محمد بن تومرت) ص ٣٧٧ - ٤٠٠ .

الفصل وما ورد فيه من الأحاديث العديدة ، يتفق تمام الإتفاق مع ما أثر عن مقدرة الخليفة أبي يعقوب يوسف العلمية ، وبراعته في علم الحديث ، والعلوم الشرعية ، وتقدمه « في علم الإمام المهدي »^(١).

إن كتاب « أعز ما يطلب » حسبما تبين من استعراض فصوله ومحتوياته ، يمكن أن يعتبر وصية ابن تومرت العقيدية والسياسية ، ويمكننا أن نعتبر ماورد فيه من تعاليم ومبادئ ، خاصة بالإمامة والزعامة السياسية والدينية ، أساس الدولة الموحدية الروحية والسياسي . على أن ابن تومرت قد ترك لنا بالعربية مؤلفاً آخر ، هو كتاب « الموطأ » المسمى « موطأ الإمام المهدي » وهو كتاب ضخيم يتناول فيه ، على نسق « موطأ الإمام مالك » ، أبواب العبادات والمعاملات والحدود .

ونحن نعرف أن مذهب الإمام مالك^(٢) كان منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ، هو المذهب المفضل في المغرب والأندلس . وبالرغم من أن ابن تومرت قد درس بالمشرق ، على عدد من أقطاب عصره ، فإنه لبث على تقاليد علماء المغرب الراجحة ، من اتباع المذهب المالكي ، ومن ثم فإنه يقدم لنا ثمرة شروحه للعبادات والمعاملات والحدود ، أو بعبارة أخرى لعلم الفروع ، متسمة باسم موسوعة الإمام مالك ، جارية على مذهبه وآرائه ، بل إنه ليبدو ، حسبما جاء في مقدمة « موطأ » ابن تومرت ، أن مصنفه ليس إلا مختصراً من مصنف الإمام مالك . فقد جاء في مقدمته طبعته التي نشرت بالجزائر في سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) ، ما يأتي : « قابلنا موطأ المهدي بموطأ الإمام مالك ، من رواية يحيى بن يحيى ، فوجدناه مختصراً منه بحذف الأسانيد مع تقديم وتأخير وزيادة تراجم وتفصيل على أسلوب مفيد وترتيب سديد » .

ويحتوي موطأ المهدي على سفرين : يتناول السفر الأول الكتب الآتية :
الطهارة والصلاة ، والحنائز والصيام ، والاعتكاف والزكاة ، والحج والجهاد ، والإيمان والندور .

ويتناول السفر الثاني الكتب الآتية : الضحايا والعقيقة ، والذبائح والصيد ، والأشربة ، والحدود ، والنكاح ، والطلاق ، والرضاع ، والبيوع ، والشفعة ،

(١) ابن صاحب الصلاة في كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٦ ا .

(٢) الإمام مالك بن أنس (٩٥ - ١٧٩ هـ) أحد أقطاب المذاهب الأربعة .

والرهن ، والإجارة ، والمساقاة ، والفرائض ، والعتق ، والمكاتب ، والتدبير ،
والعقول ، والقسامة ، والتعدى والغصب ، والأقضية والجامع .
ومن الواضح أنه ليس في كتاب « موطأ المهدي » ما يهمننا من الناحية التاريخية .
بيد أننا نستطيع أن نتخذه دلالة على ما كان يتصف به ابن تومرت من النشاط
العلمي ، والمقدرة الفقهية ، واجتهاده في أن يبصر قومه بأحكام الدين الصحيحة ،
ولاريب أن كتب ابن تومرت كانت تنتشر بين قومه بالبربرية لغتهم القومية ،
فزداد بذلك نفوذها وتأثيرها ، وقد كان من أعظم مزايا ابن تومرت العلمية ،
مقدرته البارزة في إتقان اللغتين العربية والبربرية ، وكان وعظه ومخاطبته لقومه
بالبربرية ، تنفذ إلى سويداء قلوبهم ، وتزيدهم فتنة وبه وتعلقاً ، وتعمل على
توطيد مكانته الدينية والسياسية . وكانت كتب ابن تومرت ، بعد القرآن والسنة ،
هي أشد الكتب الدينية احتراماً بين أقوام الموحدين على اختلاف قبائلهم ، لأنها
نظراً لكتابتها بالبربرية ، كانت ذائعة ، وكانت في متناول كل إنسان .

الفصل الرابع

الصراع بين المرابطين والموحدين

المرحلة الثانية

خلافة عبد المؤمن . مختلف الروايات حول تاريخها وكيفية وقوعها . أهل عبد المؤمن ونسبته العربية . أساطير حول قدره وتخصيصه بالخلافة . مولده ونشأته . اتصاله بابن تومرت . قيادته للجيوش الموحدية . عزمه على استئناف الجهاد . خروجه من تينملل في القوات الموحدية . استيلائه على تازاجورت وقصبة تادله وعلى درعة وحصن تاسنيموت . عودته إلى تينملل . محاولة ابن ملوية وإخادها . إنسلاخ الفلاكي الأندلسي عن المرابطين وانضمامه للموحدين . اتحاد عبد المؤمن ألقاب الخلافة . غزواته في الأعوام التالية . استيلائه على تارودانت عاصمة بلاد السوس . هزيمة المرابطين وفرارهم . غزوه لأحياء بني ييغز . دفاع بني ييغز ثم جنوحهم إلى الطاعة . خروج عبد المؤمن إلى الغزو ثانية . تحركه إلى أرض حاحة ونزوله في أحياء بني ملول . إغارته عليها وقتله لأهلها . مسيره إلى أجر فرجان . لقاءه بالمرابطين بقيادة تاشفين بن علي والبربرتي . هزيمة المرابطين . مبادرة جزولة لإنجاد المرابطين . هزيمتها ومقتل معظمها . ارتداد تاشفين إلى مراکش . رواية ابن عذارى عن هذه الواقعة . خروج تاشفين والبربرتي ثانية لمحاربة الموحدين . اللقاء في تيزغور . هزيمة المرابطين وجرح البربرتي . البربرتي وأصله وظروف التحاقه بخدمة المرابطين . قيادته للمرابطين في معارك أراضي كدميوه والسوس . غزو عبد المؤمن لأرض السوس . تبادل النساء الأسرى بين الفريقين . حملة عبد المؤمن الكبرى . مسيره إلى الشمال الشرقي . غزوه لعدد من القواعد والقلاع المرابطية . اختراقه لأرض فازاز واحتلاله لأزرو . مسيره شمالا نحو فاس . وصول القوات المرابطية بقيادة تاشفين والبربرتي . مقاساتها لأهوال البرد . انحدار الموحدين إلى منطقة الأطلس الوسطى . احتلالهم لوادي ملوية . مسيرهم نحو أرض غياثة ونزولهم في جبل عفرا . نزول المرابطين قباهم في السهل . عصف الرياح والأمطار بالمحلتين . رواية أخرى لابن القطان عن الحملة الموحدية إلى غياثة . مسير الموحدين إلى أرض لكاي . مسير المرابطين بقيادة تاشفين والبربرتي في أثرهم . التحام البربرتي في بعض قواته مع الموحدين في تازغندرا . مسير الموحدين نحو القصر الكبير . مسير المرابطين في إثرهم . وصول الموحدين إلى المزمة . قصة مقتل إبراهيم أخى عبد المؤمن . اقتحام الموحدين لشعر مليلة وسبي نسائه . مسيرهم إلى تاجرا . الحملات الموحدية تقتحم وهران وبني واثون وجبل مديونة . ارتداد المرابطين إلى فاس وبقاء الموحدين قرب تلمسان . وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف . بلوغ الدولة المرابطية ذروتها في عهده . استخدامه للسرترقة النصراري . إنشاؤه للفرقة الأجنبية بقيادة البربرتي . عزمه على إقالة ولده تاشفين . بعض الأحداث التي وقعت في أواخر عهده . صفاته وخلالله . حشده لأعلام الكتابة في بلاطه . أولاده . اختلال الدولة المرابطية ، وانشقاقها في أواخر عهده . خروج بني زمانو على تاشفين بن علي . مسير البربرتي لعقباهم . إنجاد الموحدين لهم . اقتحام الموحدين لبني عبد الواد وبني بيلومي . هزيمتهم ومصرع معظم أصحابهم على يد المرابطين . مسير عبد المؤمن من تلمسان إلى أرض

يلوى . مسير تاشفين إلى تلمسان . إرساله حملة قوية ومعها البربرير إلى منداس . طريقة عبد المؤمن
المبتكرة في لقاء خصومه . معركة منداس الكبرى . هزيمة المرابطين الساحقة وغنائم الموحدين الوفيرة .
غزو النورمانيين لسبتة ورد الأسطول المرابطى لها . مصرع البربرير في معركة بينه وبين الموحدين .
رواية ابن عذارى عن ذلك . مغادرة النصارى للمعسكر المرابطى . استنفاذ تاشفين لسائر الحشود
المرابطية . مقدم ولده تاشفين إليه وتوليته عهده . سير الموحدين ونزولهم بالصخرتين قرب تلمسان .
نزول المرابطين قبائلهم في سطقسيف . وصول الحشود المرابطية . اشتباك الفريقين وهزيمة المرابطين
في معركة بظاهر الصخرتين . مسير تاشفين في قواته إلى وهران . إرساله ولده إبراهيم إلى مراکش .
مقدم بعض سفن الأسطول المرابطى إلى مياه وهران . مسير عبد المؤمن في أثر تاشفين . فتك الموحدين
بأحياء لتونة في تلك الجهة . نزول الموحدين فوق جبل وهران . مغادرة معظم القادة المرابطين
لتاشفين . اقتحام الموحدين للمحلة المرابطية . فرار تاشفين وخاصته إلى الحصن المطل على البحر .
إضرار الموحدين النار حول الحصن . فرار تاشفين في الليل وسقوطه ومصرعه . روايات أخرى عن
مصرع تاشفين . فتك الموحدين بالمرابطين . فرار الفلول المرابطية من تلمسان . دخول عبد المؤمن
تاجررت وقتله لأهلها . دخوله تلمسان وقتله لأهلها . روايات أخرى عن دخوله تاجررت وتلمسان .
نزوله بتلمسان وتنظيمه لشئون المنطقة . مسيره إلى فاس .

كانت خلافة عبد المؤمن بن على ، للمهدى ابن تومرت ، في رئاسة
الموحدين ، حدثا ذا شأن ، وكانت فاتحة عهد جديد في تاريخ الدولة الموحدية ،
هو عهد التوطد والنماء .

وتختلف الرواية أما اختلاف في ظروف تولية عبد المؤمن . فهناك القول
بأن بيعة عبد المؤمن ، قد تمت على أثر وفاة ، المهدي أوبعدها بأيام قلائل ، وأن
المهدي هو الذى رشحه لخلافته قبيل وفاته وهذه هي رواية ابن القطان ، إذ يقول
لنا إنه لما توفي المهدي ، كتم أصحابه وأهل الدار ، وهم خدمته ، وأخته شقيقته ،
موته ، وبايعوا الإمام أمير المؤمنين (يريد عبد المؤمن) في الحين « بيعة سر » ، ثم
يقول في موضع آخر ، إن عبد المؤمن بويغ على أثر موت الإمام المهدي عام
أربعة وعشرين وخمسةائة « بيعة خاصة » . وهناك قول آخر ، بأنه لما توفي
المهدي كتم أصحابه موته بعض الوقت ، حتى يتفقوا على من يتولى الخلافة من بعده .
ويقول لنا ابن صاحب الصلاة مؤرخ الدولة الموحدية وكذلك ابن القطان ، إن
هذه المدة استطالت إلى عام سبعة وعشرين وخمسةائة ، أعنى مدى ثلاثة أعوام ،
بويغ من بعدها عبد المؤمن بيعته العامة ، وذلك حين أعلن موت الإمام المهدي .
ثم يقص علينا ابن صاحب الصلاة بعد ذلك قصة الحيلة ، التى دبرها عبد المؤمن
ليقنع الموحدين ببيعته ، وهى تتلخص فى قصة الطائر والشبل ، اللذين دربهما
خفية ، خلال هذه المدة ، الطائر على أن يدعو له بالخلافة ، والشبل على أن

يجلس بين يديه وادعاً هادئاً . ثم دعوته بعد ذلك الأشياخ الموحدين إلى مجلسه ، واستشارتهم في أمر من يتولى الخلافة ، ودعاء الطائر له بنطقه « العز والتكين للخليفة عبدالمؤمن أمير المؤمنين » ومثول الشبل بين يديه ، رابضاً مطيعاً لإشارته ، وتأثر الحاضرين بذلك ومبايعتهم له (١) .

بيد أنه بغض النظر عما يطبع هذه الرواية من مبالغة ، وجنوح إلى الأسطورة ، فإنه توجد لدينا أكثر من رواية وثيقة تؤيد القول ، بأن بيعة عبد المؤمن ، قد تمت عقب وفاة المهدي ، ووفقاً لسابق إشارته . من ذلك ما ذكره أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق ، وهو كما تقدم من أصحاب المهدي الأوائل ، من أنه عقب وفاة المهدي في يوم الأربعاء أو يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، ببيع الخليفة أعني عبد المؤمن في يوم السبت الأقرب من هذا التاريخ (٢) . وما ذكره في موضع آخر من أنه عقب وفاة المهدي ، قام عبد المؤمن بإعلان ذلك النبأ للناس ، وعندئذ تقدم إليه أربعة من الصحب ، اثنان من الجماعة ، وهما عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف بعمر أصناك ، وأبو إبراهيم إسماعيل ، واثنان من أهل خمسين هما عبد الرحمن بن زكو ، ومحمد ابن محمد ، وبايعوه على ما بايعوا عليه المهدي ، ثم تبعهم سائر الناس حتى دخل الليل ، واستمرت البيعة ثلاثة أيام متواليات (٣) .

ويأخذ صاحب « الحلل الموشية » بمجمل هذه الرواية ، فيقول لنا إنه « لما توفي المهدي ، تفاوض بقية أصحابه وهم أربعة ، بمن يكون إمامهم بعده ، فوقع اتفاقهم على عبد المؤمن ، لما كانوا يشهدونه من تعظيم المهدي له ، بمحضر أصحابه وجميع الموحدين ، ويقبل عليه ، ويستبشر بكلامه ، فاتفقوا عليه وقدموه » (٤) . وكذلك يذكر لنا صاحب روض القرطاس أن المهدي ببيع يوم الحمدين الرابع عشر من رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، ويصف هذه البيعة ، بالبيعة الخاصة التي بايعه فيها عشرة من أصحاب المهدي . وأما البيعة العامة فقد وقعت وفقاً لقوله في

(١) ابن القطان في نظم الجان (المخطوط السابق ذكره اوحة ١٤٥ و ١٦٦) . وراجع رواية ابن صاحب الصلاة في روض القرطاس ص ١١٩ و ١٢٠ .
(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٣ .
(٣) كتاب أخبار المهدي بن تومرت ص ٨٥ ، والمعجب ص ١٠٨ ، ويورد المراكشي اسمين آخرين مع عمر أصناك ، هما عمر بن مرزك ، وعبد الله بن سليمان .
(٤) الحلل الموشية ص ١٠٧ .

٢٠ من ربيع أول سنة ٥٥٢٦ هـ ، بعد وفاة المهدي بنحو عامين بجامع تينمئل (١) .
وفضلاً عن ذلك ، فإن لدينا رواية المراكشي ، وهو أيضاً من مؤرخي
الموحدين ، وهي رواية مفصلة واضحة ، خلاصتها أن ابن تومرت استدعى
قبل موته بأيام يسيرة ، أصحابه من الجماعة وأهل خمسين ، وهم من قبائل متفرقة
لا يجمعهم إلا اسم المصامدة ، فلما حضروا بين يديه ، نهض متكئاً ، وخطب فيهم
فذكرهم بما كان عليه السلف الصالح ، من الثبات في الدين ، والعزيمة في الأمر ،
وما حدث من بعدهم من ظهور الفتنة ، التي أضحت في العالم متجاهلاً مدهناً ،
يقصد بعلمه الملوك ، ويجتلب الدنيا ، وكيف أن الله سبحانه قد خصهم بتأييده ،
وحقيقة توحيدهم ، وهداهم بعد الضلالة ؛ ثم حذرهم من الفرقة واختلاف الكلمة ،
وأن يكونوا على عدوهم بدأ واحدة ، ثم أعلن لهم اختياره عبد المؤمن لخلافته قائلاً
في تزكيته « وهذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله
ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلانيته ، فرأيناه في ذلك كله ، ثبتاً في دينه ،
متبصراً في أمره » . وأنه على أثر ذلك قام القوم بمبايعه عبد المؤمن . ودعا لهم
ابن تومرت ، ومسح وجوههم وصدورهم . ثم توفي ابن تومرت بعد عهده
ببشير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن (٢) .

وهكذا يبدو أن عبد المؤمن ، تلقى بيعته عقب وفاة المهدي ، وربما قبل
وفاته ، وفقاً لرواية المراكشي ، وليس من المستبعد أن يكون عبد المؤمن وأصحابه
قد كتموا موت المهدي حيناً ، حتى يجتنب الخلاف ، ويستوثق الأمر ؛ ذلك أنه
لما توفي المهدي ، أخذ كل زعيم ، وكل قبيلة ، تتطلع إلى اجتناء تراث المهدي ،
برئاسة الموحدين ، واشتد التنافس بينهم في ذلك ، فخشي الجماعة والخمسون ،
أن يفسد الأمر ، وأن تضطرم الفتنة ، فاجتمعوا وتفاوضوا ، ووقع اختيارهم
على عبد المؤمن . وكان عبد المؤمن في الواقع ، منذ البداية أرجح القوم مكانة ،
إذ كان أوثقهم صلة بالمهدي ، وأشدهم اختصاصاً به ، واستثنائاً بحبه وثقته ،
وكان يُنسب للمهدي قوله فيه وإنشاده كلما رآه :

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
السنُّ ضاحكة والكف مانحة والصدر متسع والوجه منبسط (٣)

(١) روض القرطاس ص ١٢١ . (٢) المعجب ص ١٠٨ و ١٠٩ .

(٣) المعجب ص ١١٠ ، ويقول ابن خلكان إن هذين البيتين ينسبان إلى أبي الشيص الخزاعي

الشاعر المشهور (وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٩١) .

وفضلاً عن ذلك كله فقد كان عبدالمؤمن ، غريباً بأصله وقبيلته عن المصامدة ، ولم يكن له بينهم قبيل ولا طائفة ، فكان ذلك مما شجع القوم على اختياره ، اجتناباً لكل منافسة وخلاف (١) .

أما عن أصل عبد المؤمن ونسبه ، فإن الرواية تختلف أيضاً ، فهو وفقاً لرواية أبي بكر الصنهاجي ، عبد المؤمن بن علي بن علقم بن يعلى بن علي بن حسن ابن نصر بن الأمير بن نصر بن مقاتل بن كومي بن عون الله بن ورجايغ بن ينفر ابن مراو بن مطاط بن صطفور بن نفور بن رجيك بن يحيى بن هزرح بن قيس ابن عيلان . ثم يقول لنا أبو بكر معلقاً على هذا النسب ، إنه صحيح حتى مقاتل ابن كومي بن عون الله ، وأما ما ورد بعد ذلك من الأسماء إلى قيس بن عيلان ففيها اختلاف وتصحيف وتقديم وتأخير (٢) .

وينتمي عبد المؤمن إلى قبيلة كومية ، وهي بطن من بطون زناتة ، وذلك سواء عن أبيه أو أمه ، إذ هي كومية أيضاً ، فهو بذلك بربري الأصل ، وحسباً تدلى بذلك أيضاً نسبه . ولكن عبد المؤمن هو خليفة المهدي ، وهو أمر المؤمنين ، وإذاً فلا بد أن يكون له - حسباً حدث في شأن المهدي - نسبة عربية أولاً ، ثم لا بد أن تكون هذه النسبة متصلة بآل البيت . ومن ثم فإن الرواية تقول لنا إنه من ولد سليم بن منصور بن قيس بن عيلان بن مضر . وأما كيف تحولت نسبه العربية إلى النسبة البربرية ، فهو أن جدّاً من أجداده العرب ، نزل بساحل تلمسان ، فأراً من بعض الفتن بالأندلس ، وجاور بعض أحياء مطاطة ، إخوة زناتة ، فنسب ذلك إليهم بالحوار والحلف . وفي رواية أخرى أن نسبه ترجع مباشرة إلى آل البيت بانتسابه إلى جدته كنونة بنت إدريس بن إدريس بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وإلى كنونة هذه أيضاً يرجع نسبة أمه تعلقو بنت عطية ، فهو إذن ، وفقاً لهذه النسبة سليل آل البيت عن طريق أبيه وأمه (٣) . وقد كان عبد المؤمن نفسه ، حسباً يروي لنا المراكشي ، ينكر نسبه البربرية ، ويقول إذا ذكرت كنية (كومية) « لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ولكومية علينا حق الولادة بينهم ،

(١) روض القرطاس ص ١١٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢١ و ٢٢ .

(٣) المعجب ص ١٠٩ ، وروض القرطاس ص ١١٩ .

والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال . ويزيد المراكشي على ذلك ، أنه أدرك من أولاد عبد المؤمن وأحفاده ، من ينتسبون لقيس عيلان بن مضر (١) . وكما نسجت حول ابن تومرت ودعوتيه ، واختيار القدر له ليكون مهدي آخر الزمان ، هالة من الأساطير ، لتؤكد قدسية وصديق رسالته ، فكذلك نسجت مثل هذه الهالة حول عبد المؤمن وخلافته للمهدي ، لتؤكد أن القدر قد اختاره ، كما اختار المهدي منذ الأزل ، ليقوم بهذه الرسالة . وقد أورد لنا ابن القطان بعض ما ذكره أبو القاسم المؤمن في كتابه المسمى « فضائل الإمام المهدي » ، من أقوال وأمارات للتدليل على صدق رسالته . ومن ذلك أنه جاء في كتاب أبي عبد الله الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ، الحظ على الإيمان بالمهدي وطائفته ، وذكر عبد المؤمن بن علي القيسي ، وأنه هو الذي وعد بالنصر والتأييد والفتح . ويقول أبو القاسم ، إن ذلك قد ورد أيضاً في كتاب يحيى بن زيد ، وفي كتاب القاسم الأكبر ، وفيه جميع ما ذكر من فضائل الإمام المهدي ، وأعلاماته ومواضعه ورجاله ، والخليفة الأجل عنه . وقد شرح ذلك كله صاحب كتاب « النصر » إدريس بن إدريس ، وأورد لتأييده أحاديث عديدة . صاحب كتاب « النصر » ثم ينقل ابن القطان بعد ذلك قول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد في أرجوزة نظمها بعد ذكر « المهدي » بوفاته (٢) ، حيث يقول : ويرجع الأمر إلى عدنان لما جده قد خص من عيلان رب الفتوح صاحب الملاحم وقامع الأعراب والأعاجم وقول عبد الملك بن حبيب فإنه من طرية بن مضر بن قحطان بن مالك بن نضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . صاحب المهدي يأتي بعده خيرة الأعراب طرا والعجم قبله أقبل الملك به آمن نعمته أشيب اللحية ليس بالهرم وأنه قد ورد ذلك أيضاً في بعض الأراجيز القديمة ، وفيها شرح صفاته وأفعاله وفتوحه . ويزيد أبو القاسم المؤمن على ذلك كله أنه رأى بالقُدس في رباط للنصارى اسم المهدي منقوشاً على رخامة بيضاء ، كما رأى اسم عبد المؤمن خليفته ، وأنه أي

(١) المراكشي في المعجب ص ١٠٩ .
(٢) المقصود هنا « المهدي » بصفة عامة ، وليس المهدي بن تومرت ، لأن ابن عبد ربه قد عاش قبل المهدي ابن تومرت بنحو قرنين .

أبو القاسم ذكر ذلك للإمام المهدي ، فأمر بكتمانه حتى يحين الوقت الذي يكون فيه ظهوره (١) .

وهكذا نرى كتاب الدولة الموحدية ومؤرخيها يجردون في تقصي الأساطير ، وتسجها حول إمامة المهدي ابن تومرت ، وحول خلافة عبد المؤمن ، حتى تتخذ الدعوة الموحدية ، ومن بعدها الخلافة الموحدية ، مكانتها من الرسوخ والقدسية . وكان مولد عبد المؤمن في آخر سنة ٤٨٧ هـ (أول سنة ١٠٩٥ م) بموضع يعرف بتاجرا على مقربة من مرسى هنين شمالي تلمسان ، وقيل إنه ولد سنة ٤٩٠ هـ ، أو سنة ٥٠٠ هـ (٢) . ويبدو سقم هذه الرواية الأخيرة ، إذا ذكرنا أن عبد المؤمن قد لقي المهدي ابن تومرت عقب عودته من المشرق إلى المغرب في سنة ٥١٢ هـ ، وكان يومئذ شاباً ، ولم يكن غلاماً حدثاً . وكان والد عبد المؤمن فخاراً يصنع الآنية من الطين ، وهي المعروفة بالنوايخ ، وكان بالرغم من ضعته رجلاً عاقلاً محترماً من قومه (٣) . ويذكر لنا البيهقي أن والد عبد المؤمن كان بالعكس قاضياً في زمانه وفي قومه (٤) . ونشأ عبد المؤمن منذ البداية محباً للقراءة والدرس ، يلازم المساجد لتلاوة القرآن ، ولما بلغ نحو العشرين من عمره ، اعزم الرحلة إلى المشرق ليتابع الدرس ، وقد رأينا فيما تقدم كيف التقى هو وعمه بملاة على مقربة من بجاية بمحمد بن تومرت ، وكان يومئذ يقود حملته المعروفة ضد المنكر ، وكيف آانس فيه ابن تومرت نجابة وذكاء ، وشعر أنه سوف يغدو أعظم معاونيه ، وكيف استطاع أن يقنعه بالبقاء إلى جانبه يطلب العلم على يديه ، ويعاونه فيما هو قائم به « من إمامة المنكر ، وإحياء العلم ، وإخماد البدع » . كان ذلك في أوائل سنة ٥١٢ هـ . وقد بقي عبد المؤمن من ذلك التاريخ إلى جانب ابن تومرت ، ولازمه واختص به ، يؤازره في دعوته ، ويشاطره مصيره أينما حل ، حتى كان من أمر ابن تومرت ما سبق ذكره من اشتداد دعوته الدينية ضد المرابطين ، ثم التجاؤه وصحبه إلى تينمائل ، وإعلانه أنه هو المهدي المنتظر ، ومبايعته أصحابه وفي مقدمتهم عبد المؤمن له على ذلك .

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السلف الذكر لوحة ٥٣ ب و ٥٤ ا) .

(٢) الأولى هي رواية المراكشي (ص ١٠٩) ، والثانية والثالثة أوردهما ابن خلكان

في الوفيات (ج ٢ ص ٣٩١) .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٩١ ، وروض القرطاس ص ١١٩ .

(٤) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢٧ .

وقد رأينا فيما تقدم . كيف كان عبد المؤمن ، إلى جانب أبي محمد البشير ، أعظم قادة الموحدين . وكيف أنه عقب هزيمة البحيرة الساحقة (أوائل سنة ٥٢٤هـ) ومقتل البشير ، استطاع أن يجمع فلول الموحدين وأن ينقذها من الفناء المحقق ، وأن يقودها بالرغم من مطاردة المرابطين إلى تينملل ، وكيف أن المهدي ، وقد كان في مرض موته ، حينما أبلغ أمر الهزيمة ، سأل عن عبد المؤمن ، ولما علم بأنه سالم ، قال لأصحابه « الحمد لله قد بقي أمركم » .

- ١ -

لم تخب فراسة المهدي في تلميذه وصاحبه الأثير ، وخليفته من بعده ، فقد شاءت العناية الإلهية أن يغدو عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين الحقيقي ، وأن يقود الموحدين إلى ميادين النصر الباهر ، وأن يحقق لهم سلطان الإمبراطورية الموحدية الكبرى في المغرب والأندلس .

قضى عبد المؤمن بعد توليه الخلافة زهاء عام ونصف ، ينظم شئون الموحدين ويؤلف قلوبهم ، ويحشد جموعهم ، ويستنفرهم إلى الجهاد . ولما كملت أهباته ، اعتزم أن يستأنف الجهاد لمقاتلة أعداء الدولة الموحدية - المرابطين - وافتتاح البلاد من أيديهم ، وإرغامهم على الطاعة ، واستقر رأى الموحدين بعد البحث والتشاور على أن تكون أولى غزاتهم لقصبة تادلة في وادي درعة^(١) . فخرج عبد المؤمن من تينملل في شهر ربيع الأول (وقيل في شوال) سنة ٥٢٦هـ (يناير سنة ١١٣٢م) في جيش ضخم من الموحدين ، قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، وسار أولا إلى قلعة تازاجورت ، وكانت تدافع عنها حامية مرابطية بقيادة يدّر بن ولحوط ، فاقتحمها واستولى عليها ، وسبى أهلها^(٢) . وفي رواية أخرى أن قائد تازاجورت المرابطي كان يدعى يحيى بن مريم ، وأن عبد المؤمن قتله وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المجسمين ، وأسر زوجته ميمونة بنت ينتان بن عمر ، وصحبها معه إلى الجبل ، حتى افتديت فيما بعد بمن كان من أسرى الموحدين في تلمسان^(٣) وسار عبد المؤمن

(١) إن تادله التي يذكرها بهذه المناسبة صاحب الخلل الموشية (ص ١٠٧) ، وروض القرطاس (ص ١٢١) ، وابن خلدون (ج ٦ ص ٢٢٩) ليست هي بلدة تادلا الواقعة شمال شرق مراكش ، ولكنها هي الحملة الحصينة الواقعة شرقي وادي درعة ، وذلك حسبما يستدل من سير الحملة الموحدية والمواقع التي استولت عليها ، ومنها مدينة درعة .

(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٥ .

(٣) هذه رواية ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧٠) .

بعد ذلك إلى درعة ، واستولى عليها وعلى أحوازها ، ثم غزا سائر محلات تلك المنطقة وعاد إلى تينملل .

وافتح الموحدون في هذا العام حصن تاسغيموت ، وهو حصن منيع يقع فوق الجبل ، وبه حامية من هزرجة ، فتواطأ معهم الموحدون على فتحه ، واستطاعوا أن يدخلوه ليلاً ، وقتلوا واليه المرابطى أبا بكر بن وارصول ومن معه المرابطين ، وحملوا بابه الحديدى الضخم ، وركب فيما بعد على سور تينملل . وكذلك افتتح الموحدون في نفس العام حصن جلاوة ، افتتحه الشيخ أبو حفص عمر وجماعة من وجوه الموحدين ، ودخلوه عنوة وقتلوا كل من فيه . وكان أهل جلاوة هم الذين جرحوا المهدي في إحدى غزواته ، وقام الخليفة من ناحيته بافتتاح حصن هزرجة وأحرقه ، وقتل معظم أهله . ثم دخل بلدة جشجال ، وأحرقها أيضاً ، وسار منها إلى أرض غجدامة ، وافتتح بلدة أجلاحال . ودخل في هذا العام في طاعة الموحدين ، بعض بطون من هزرجة وهسكورة ، ثم ارتدوا وعادوا إلى الخروج والعصيان (١) .

ولما عاد عبدالمؤمن إلى تينملل ، كانت قد وقعت خلال غيبته في تلك الغزوة حادثة خطيرة ، كادت تحدث صدعاً في صفوف الموحدين لو لم تخمد في المهدي . وذلك أن عبدالله بن يعلى الزناتى ، الشهير بابن مملوية ، وهو أحد أصحاب المهدي العشرة ، وكان من أشد المعارضين لبيعة عبدالمؤمن ، انتهز فرصة ابتعاد عبدالمؤمن بالحيش ، وسار إلى مراکش . وتفاهم مع أمير المسلمين على بن يوسف على مهاجمة تينملل ، وسحق حكومة الموحدين ، فعهد إليه على بن يوسف بقموة من المرابطين ، فسار بها إلى تاماذاجوست مجمع قبيلة كنفيسة على مقربة من تينمائل ، لكي يضمها إليه ، ويسير بقواته المحتمة لتدمير العاصمة الموحدية ، وكان بتينمائل عبد الله بن سيدرن أحد زعماء كنفيسة ، فجمعهم فأعلنوا تمسكهم بالعهد الذى قطعوه للمهدي ، ونعوا على ابن ملوية تلك الخيانة ، وفي الحال قام واحد من أهل خمسين هو أبوسعيد بخلف بن الحسن آتيكى ومعه غلامه ، وسار إلى محلة ابن ملوية في أسفل الجبل ، وقتلاه ، وحمل جثته إلى تينمائل وصلبت بها ، وأخذت المحاولة في المهدي . ولما عاد عبد المؤمن شكر لكنفيسة إخلاصها ، وقسم الغنائم . ثم هبط

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٧١) .

ثانية إلى الوادي ، واستولى على أراضي صنهاجة القرية (أصناجان) وولى عليها
على بن ناصر ، وهو أحد زعمائها ومن أهل خمسين^(١) .

ويضع ابن القطان في أخبار هذا العام - سنة ٥٢٦ هـ - حادثاً من نوع خاص ،
هو انضمام الفلاكي الأندلسي ، وهو من قادة المرابطين ، إلى الموحدين . وكان
الفلاكي حسبما تقدم أندلسي من أهل إشبيلية ، وكان في بداية أمره شقياً وقاطع
طريق ، يتسم بالحرأة والشجاعة ، ثم تاب وسلك سبيل الاستقامة ، فعفا عنه والى
إشبيلية ، وقدمه على الرماة والرجالة . ونمى خبره إلى علي بن يوسف ، فاستقدمه
إلى مراکش ، وقدمه على فرقة من الحند المرابطين ، وعهد إليه بحراسة مخارج
جبل درن التي يهبط منها الموحدون إلى السهل لكي يعيق سبيلهم . ثم وجهه إلى
السوس لمكافحة الموحدين ، ووالى السوس حينئذ وانودين بن سير ، فجدد
الفلاكي في محاربة الموحدين ومكافحتهم . ثم فسد ما بينه وبين علي بن يوسف ،
فانضم إلى الموحدين مع طائفة من جنده ، وأخذ يغير على حصون لتونة ، ويفعل
بها مثلما كان يفعل من قبل بقواعد الموحدين ، وأخذ يغير على جهات السوس
وأغوات . واستمر في خدمة الموحدين مدى أعوام ، ثم ارتد بعد ذلك ، وفقاً لقول
ابن القطان^(٢) . بيد أنه لا يذكر لنا ماذا كان مصيره بعد هذا الارتداد . ومن جهة
أخرى ، فإن بعض الروايات تضع انضمام الفلاكي إلى الموحدين في تاريخ لاحق -
في سنة ٥٣٥ هـ - أي بعد التاريخ الذي يقدمه لنا ابن القطان بنحو تسعة أعوام^(٣) .

وفي العام التالي ، أعنى في سنة ٥٢٧ هـ أعلنت بيعة عبد المؤمن الخاصة ،
وعقدت بيعته العامة ، وذلك إذا أخذنا برواية كتمان وفاة المهدي مدى ثلاثة أعوام ،
وهي حسبما تقدم رواية ابن صاحب الصلاة وابن القطان . ويضع ابن القطان هذا
الحادث سهواً في أخبار سنة تسع وعشرين وخمسة ، ومن الواجب لكي يكون
متفقاً مع سابق روايته أن تكون سنة سبع وعشرين . ويقول لنا إنه في هذه السنة ،

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٥ ، هذا ويروي لنا ابن القطان أن ابن ملوية قتل
في سنة ٥١٨ هـ في مناسبة سابقة ، خلاصتها أنه حينما قام المهدي بتدبير اغتيال قبيلة هزميرة وسبي
نساءهم ، ونهب أراضيهم ، اعترض ابن ملوية ، ونمى عليه هذا التصرف الدموي ، وأنه لا يتفق مع
ما يدعيه من العصمة ، فأمر المهدي بقتله فقتل وصلب على الفور (نظم الجمان المخطوط لوحة ٤٧ ب) .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٩ ب و ١٧٥) .

(٣) هذه رواية صاحب الحلل الموشية (ص ٨٣) ، وربما كان هذا الانضمام المتأخر
من جانب الفلاكي إلى الموحدين ، هو انضمامه الثاني لا الأول .

كان الإعلان بموت المهدي والإعلان ببيعة الخليفة أمير المؤمنين ، ثم يعلق على ذلك بعبارات رنانة يقول فيها: « فرفع الغطاء ، ومسطع الضياء ، ومهرت الشمس ما دونها من السحاب ، وتبلج الحق واضحاً بغير حجاب » ، وبايعه الصحب على ما بايعوا عليه « الإمام المهدي » ، واتصلت البيعة ثلاثة أيام « فأشرقت الأرض بنور إمامته ، ونال أهلها عظيم حظوته وكرامته » . وعلى أثر ذلك اتخذ عبد المؤمن لقب « أمير المؤمنين » ، والظاهر أنه لم يكن يلقب به قبل ذلك (١) .

ويوجد شيء من التناقض والغموض حول أعمال عبد المؤمن وحركاته في بضعة الأعوام التالية ، من سنة ٥٢٨ إلى سنة ٥٣٢ هـ . ويقدم إلينا ابن القطان بعض التفاصيل عن حوادث هذه الفترة ، فيقول لنا في أخبار سنة ٥٢٨ هـ ، إن الموحدين اشتبكوا مع المرابطين بقيادة إبراهيم بن يوسف المعروف بابن تاعياشت في معركة هزم فيها المرابطون وقتل قائدهم . ثم ينقل إلينا عن ابن الراعي ، خبر فتح الموحدين لمدينة تارودانت . فيقول إنه لما استولى الموحدون على سائر بلاد السوس ، ارتد المرابطون مهزمين إلى تيونوين ، وعندئذ سار « العليج الأعرج » (والغالب أنه البربري الذي سوف يأتي ذكره) من أجرفرجان ، فاقتحم طريق إيغران في غفلة من الموحدين ، وسبقهم بمن معه ، فأتبعهم الموحدون حتى وصلوا إلى بلاد السوس . وكان العليج في نحو أربعمائة فارس ، فلما وصل تيونوين ، وعلم بمقدمه من كان قد فر إلى الأطراف من أهل السوس ، هرعوا إلى الالتفاف حوله . ونقتبس هنا وصف ماتلا من أدوار المعركة من رسالة كتب بها الخليفة عبد المؤمن ونقلها إلينا ابن الراعي . وفيها يقول الخليفة : « فمينا عسكرا مباركا من خيل ورجل ، فخرجوا إلى ناحية تارودانت ، وبعثنا تلك الليلة سرية إلى أسفل السوس ، فقتلوا وغنموا بقرأ وغنما وعبيداً ، وسبو ذراريهم ، ثم بعثنا سرية أخرى في الليلة التالية إلى بقية تلك الناحية ، أعنى أسفل السوس فقتلوا مقتلة أكثر من الأولى ، وغنموا أكثر مما غنم أصحابهم .

«وأما العسكر فقصدوا إلى تارودانت ودخلوها ، وفر من كان بها من المرابطين ، وقتل الموحدون من وجدوا بها ، واستقر الموحدون بالمدينة ، وأطلقوا النار في القصب ، فارتفعت النار في الهواء . كل ذلك والمرابطون في تيونوين يشهدون

(٥) نظم الجمان (المخطوط السابق لوحة ٧٤ ب و ١٧٥) وراجع روض القرطاس عن ابن

النيران تحرق أوطانهم . ولما أيقن البربر وغيرهم بعجز العليج ، انكسرت قلوبهم ، وحققت الهزيمة عليهم .»

وفي العام التالي سنة ٥٢٩ هـ ، سار عبد المؤمن لغزو بني ييغز ، وذلك لأنهم كانوا قد قتلوا أبا محمد عبد العزيز الغيغالي من أصحاب الإمام المهدي ، فلما نزل الخليفة على أحيائهم ، وضعوا الأحطاب على ظهور الجمال ، وأضرموا فيها النار ، ودفعوها نحو محلة الموحدين ، فوقع الهرج في المحلة الموحدية ، وسار بنو ييغز في أثر جمالمهم وهاجموا الموحدين ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة . وحاول رجلان من بني ييغز أن ينفذا إلى خيمة عبد المؤمن وأن يقتلاه ، ولكن عبد المؤمن كان قد غادر خبائه تحوطاً وحذراً ، فأخذ الرجلان وقتلاً . وقضى عبد المؤمن في تلك الغزوة أربعين يوماً ثم قفل عائداً إلى تينملل . ويضيف ابن القطان إلى ماتقدم نقلاً عن ابن صاحب الصلاة ، أن عبد المؤمن كان قد وجه إلى بني ييغز بعض اخوانهم الجاورين لهم ، لينصحوهم وينذروهم ، وأن مساعيه في ذلك السبيل قد كللت بالنجاح ، إذ انقاد بنو ييغز وأذعنوا ، ودخلوا في طاعة الموحدين . وهذا ما يفسر لنا النتيجة السلبية التي انتهت إليها معركة بني ييغز ضد الموحدين (١) .

ويحدثنا اليسع عن موقعة نشبت بين المرابطين والموحدين في سنة ٥٣٠ هـ ، فيقول إن عبد المؤمن سار في قواته إلى أجرفرجان ومصكروطن ، فخرج إليه سير بن علي بن يوسف ، ولى العهد يومئذ ، في القوات المرابطية . ولبث عبد المؤمن حيناً معتصماً بالجبال يطاول العدو ، ثم التقى الفريقان في مصكروطن . فهزم المرابطون ، واستولى الموحدون على مقادير عظيمة من أسلحتهم ، من المال والسلاح (٢) .

ومن جهة أخرى فإن البيدق أبا بكر الصنهاجي ، مؤرخ الموحدين المعاصر ، فيما يسطره لنا من غزوات عبد المؤمن يؤكد لنا عقب كلامه عن غزوة صنهاجة ، أن الخليفة التقى مع الإبرتير وتاشفين ، وفتح الله عليه في محاربتهم في البداية . وهذه أول مرة يلتقي فيها عبد المؤمن بجيش مرابطي يقوده الأمير تاشفين بن علي . وقد ذكرنا فيما تقدم من أخبار تاشفين ، أنه لبث والياً على الأندلس ، وقائداً للجيوش المرابطية بها حتى سنة ٥٣١ هـ (أو سنة ٥٣٢ هـ) ، وأنه عبر في أواخر

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ٧٨ ب) .

سنة ٥٣٢ هـ إلى المغرب استجابة لدعوة أبيه ، وذلك حينما تفاقمت هجمات الموحدين ، وكثرت هزائم المرابطين . وإذن فلا بد أن يكون هذا اللقاء الأول بين الموحدين ، وبين الجيوش المرابطية بقيادة تاشفين قد وقع على الأقل في أوائل سنة ٥٣٣ هـ . والواقع أن ابن القطان يقص علينا خبر موقعة حدثت في سنة ٥٣٣ هـ بين المرابطين بقيادة الأمير تاشفين بن علي والبربرير وبين الموحدين ، فيقول إن الخليفة عبد المؤمن تحرك في هذا العام من تينملل ، ونزل في بلد بني ملول من منانة في أراضي حاحة ، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط من حاحة . وكان علي بن يوسف قد قتل أعيان قبيلة منانة ، فدخلت في طاعة الموحدين ، ثم ارتدت غير مرة ، فأقام عبد المؤمن في بني ملول شهراً وثلاثة أيام ، وهو يغير على تلك الأحياء ، ويقتلهم قتلاً ذريعاً . ثم استولى على سائر أسلابهم من الحلبي والثياب والأقوات وغيرها ، وسار بعد ذلك إلى أحياء بني واجدزان ، ثم إلى أحياء بني سوار من منانة الجبل ، وقصد بعد ذلك إلى أجرفرجان ، فتبعه تاشفين في قواته ، وهناك نشبت بين الفريقين معركة شديدة ، هزم فيها المرابطون وقتل منهم عدد جم . ثم تجدد القتال بعد ذلك ، فانهزم تاشفين مرة أخرى ، وارتد إلى جهة الميزتابوت ، واستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعييد . وهرعت قوات جزولة من مراکش إلى مكان الموقعة لنجدة المرابطين ، وطمعت في أن تنزع الغنائم من الموحدين ، فرتب لها عبد المؤمن الكمائن في مضايق الجبل ، وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً لها ، وخرجت جزولة ، وهاجمت ساقه الغنيمة وقتلت بعض حراسها ، فخرجت إليها الكمائن الموحدية وأمعنت فيها قتلاً حتى أفنتها ، واستولت على سائر أسلحتها ودوابها . وكانت جزولة تضم آلافاً من الفرسان والرجال ، وارتد عبد المؤمن صوب بلاد جنفيسة ظافراً .

وجاء في رواية أخرى أن عبد المؤمن أراد أن يبني حائطاً في أضيق موضع من الجبل ليحول دون انصراف المرابطين حتى يهلكوا في تلك الهضاب ، فأحس تاشفين بمشروعه ، وارتد بقواته صوب مراکش ، وتركته جزولة عند أحياء رجراجة ، فتصدت لها قوة من المرابطين ، بقيادة الشيخ أبي حفص أصناج ، ففتكت بها ، واستاقت من خيلها إلى تينملل ثلاثة آلاف قسمت على الموحدين ، ثم عادت جزولة بعد ذلك ، فمالت إلى التوحيد ، ودخلت في طاعة الموحدين^(١) .

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٨١ ب إلى ٨٢ ب) .

ويتفق ابن عذارى مع ابن القطان في حدوث الموقعة في سنة ٥٣٣ هـ ، ولكنه يقدمها إلينا في صورة أخرى ، فيقول إن القوات المرابطية كانت بقيادة الأمير تاشفين ، ومنهم حملة وافرة من قبائل جزولة ، وإن اللقاء وقع بين المرابطين وبين عبد المؤمن في موضع يبني ملول ، وإن موقعة عظيمة نشبت بين الفريقين ، في مفاوز وجبال ضيقة ، استمرت شهراً وثلاثة أيام ، ثم انجلت عن هزيمة تاشفين . فطارده عبد المؤمن حتى موضع يسمى إيمران تانورت . ويزيد ابن عذارى على ذلك ، بأن أبناء جزولة رغبوا في الرجوع إلى بلادهم ، فأذن لهم تاشفين ، ونصحهم ألا يسلكوا طريق الجبال الوعرة ، حتى لا يتعرضوا لمهاجمة الموحدين ، ولكن جزولة لم يصغوا إلى نصحه . وكان عبد المؤمن قد رتب كمائته في هذا الطريق الجبلي ، فما كادت جزولة تسلك هذا الطريق ، حتى انقض عليها الموحدون وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، واستولوا على نساءهم وخيلهم وسلاحهم ، واستاقوهم إلى تينملل . ثم رغب أشياخ جزولة بعد ذلك في مسالة الموحدين ، والدخول في طاعتهم ، فأصدر لهم عبد المؤمن أماناً وظهيراً بذلك (١) .

وفي سنة ٥٣٤ هـ خرج تاشفين بجيش ضخم من لتونة والحشم وزناتة ، لقتال الموحدين ومعه فرقة من النصاري المرتزقة بقيادة « الإبرتر » ، واستمرت المعارك بينه وبين الموحدين زهاء شهرين . ووقعت المعركة الأخيرة بينهما في شوال من هذا العام ، وقتل فيها كثير من الفريقين . وعلى أثر ذلك ارتد تاشفين إلى مراکش وعاد الموحدون إلى تينملل (٢) .

ويبدو من أقوال البيدق أنه قد وقعت في ذلك الوقت معارك أخرى ، بين المرابطين والموحدين ، بأرض « حاحة » غربي تينملل ، وشمالى السوس الأدنى بموضع يسميه البيدق « تيزغور » ، وأن الموحدين انتصروا أولاً وأحرزوا بعض الغنائم ، ولكن المرابطين استطاعوا أن يحاصروا الموحدين بعد ذلك بهذا الموضع زهاء ستين يوماً ، حتى استنفد الموحدون غنائمهم . ثم تشبت بعد ذلك بين الفريقين موقعة جديدة ، هزم فيها الموحدون أولاً ، ثم انقلبت الآية ووقعت الهزيمة على المرابطين . وعلى أثر ذلك ارتد تاشفين في قواته إلى مراکش ، ومعه

(١) ابن عذارى في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة التي سبق ذكرها - هسبيرس ص ١٠٣) ، وكذلك في القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تاجمروت التي نشرت في تطوان ص ١١) .
(٢) ابن عذارى في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر (هسبيرس ص ١٠٤ و ١٠٥) .

زميله قائد الروم المسمى « الإبرتير » جريحاً ، وارتد عبد المؤمن في قوات الموحدين إلى تينملل (١) .

ويجدر بنا قبل الكلام عن المعارك التي اضطرمت بين الفريقين في تلك الفترة ، والتي كان يشترك فيها « الإبرتير » قائد الروم باستمرار ، أن نذكر كلمة عن هذا القائد النصراني .

إن الإبرتير أو الربرتير (٢) حسبما تسميه الرواية العربية ، هو بالإفريقية El Reverter أو Roberto ، هو في الأصل سيد (فيكونت) من أشرف برشلونه ، حدث بينه وبين أميرها برنجار رامون نزاع ، فنزعه ألقابه وأمواله ، فغادر برشلونه ، وعبر البحر إلى المغرب ، والتحق بخدمة الأمير علي بن يوسف . ونحن نعرف أن علي بن يوسف ، كان يضم إلى حرسه الخاص ، فرقة كبيرة من المرتزقة النصراني ، وقد كانت هذه الفرقة الأجنبية تشترك إلى جانب الحشم ، أوجند الحرس الخاص ، في كثير من المعارك ، وتبدي في القتال براعة وبسالة ، وتعرف الرواية العربية هذه الفرقة « بالهند الروم » ، وتذكر أعمالها في مواطن كثيرة . فلما وفد الربرتير ، أو الكونت روبرتو ، على بلاط مراکش ، عهد إليه علي بن يوسف بقيادة حرسه من النصراني ، لما آنسه من براعته وشجاعته . ويقول ابن صاحب الصلاة في وصف الربرتير « أنه كان من أكبر الطغاة بالأندلس نجدة وظهوراً متصللة » (٣) . وظهر الربرتير في الواقع في معظم المعارك التي اضطرمت بين المرابطين والموحدين . وترك الربرتير عند مقتله ولدين ، اعتنق أحدهما الإسلام ، وتسمى باسم علي الربرتير ، واشتهر فيما بعد بمشاركته في حوادث مبورقة والجزائر الشرقية حسبما نذكر في موضعه .

ويبدو مما يذكره لنا البيدق ، وابن عذارى أيضاً ، أن الربرتير ، هو الذي كان يقود الجيوش المرابطية في المعارك التي وقعت بين المرابطين والموحدين في أراضي كدوميوه والسوس ، في ذلك العام أو في العام التالي ، وتفصيل ذلك ، هو أن الربرتير ، التقى بقواته مع الموحدين بقيادة عبد المؤمن أولاً في مكان يسمى

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٦ . والبيان المغرب في الأوراق المخطوطة (هسبيرس

ص ١٠٥) .

(٢) ويسميه ابن الأبار « الربرتير » ، ويقول إنه كان علماً لبي تاشفين من كبار فوادم ،

وأبطال رجالهم كانت له في الحروب مقاوم شهيرة (الحلة السيراء ص ١٩٧ و ١٩٨) .

(٣) ابن عذارى في القسم الثالث البيان المغرب (نسخة تاجروت) ص ١٦ .

أمسيميصي ، وهو يقع في أرض كدميوه ، شمال تينمائل ، ولم تقع بين الفريقين موقعة حاسمة ، فارتد كل منهما إلى أراضييه . ثم عاد الربرتير فخرج في قوات لتونة ، وخرج عبد المؤمن للقائه ، فالتقيا بموضع يسمى آجظورور ، فهزّم المرابطون ، وقتل منهم عدد جم ، وارتد الربرتير في فلوله جريماً إلى مراکش ، وعاد الموحدون إلى تينمائل . ويضع البيدق وكذلك ابن عذارى تاريخ هذه الموقعة في سنة ٥٣٥هـ^(١) .

وخرج عبد المؤمن بعد ذلك في قواته إلى أرض السوس ، وهاجم حصن تليلن ، وكان يدافع عنه حاكمه المرابطي يرجين بن ويدرن ، فبدأ الموحدون محصاره ، ولكن قدمت القوات المرابطية عندئذ بقيادة الربرتير ، فغادر الموحدون الحصن ، ودخلوا أرض السوس ، واستولوا تبعاً على إيرمناد ميمون ، وتاسلولت ثم على تارودانت قاعدة السوس الأدنى ، ثم على حصن تيونوين . وهزم اللمتونيون في كل المواقع التي نشبت ، واستولى الموحدون خلال ذلك على كثير من الغنائم ، وسبوا النساء ، وعادوا بالغنائم والأسرى إلى تينمائل . وكان من الحوادث التي وقعت في تلك الغزوة ، وفقاً لرواية صاحب اللحل الموشية أن الفلاكي الأندلسي انضم بمن معه إلى الموحدين^(٢) ، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الانضمام قد وقع في تاريخ سابق ، قبل ذلك بعدة أعوام . وفي نفس الوقت هاجم الربرتير محلة تيغيايين الموحدية ، وسبى نساءها ، وفي جملتهن زوجة يعزى بن مخلوف ، وأخذهن معه إلى مراکش ، ولما عاد عبد المؤمن بالسبايا إلى تينمائل ، خاطبته تماجونت ابنة الوزير ينتان بن عمر ، وكانت بين الأسرى ، وذكرته بما قام به والدها ينتان من الشفاعة في المهدي ، وقت أن كان بمراكش ، وحرص الفقهاء على بن يوسف على التنكيل به ، وناشدته أن يسرحها هي وسائر النساء اللاتي معها ، فاستجاب عبد المؤمن إلى ضراعتها ، وأطلق النساء ، وبعثن إلى مراکش معزرات مكرمات ، فبادر على بن يوسف من جانبه ، بإطلاق سراح نساء تيغيايين ، وفي مقدمتهن زوجة يعزى بن مخلوف ، وأرسلهن كذلك في أمن وكرامة إلى تينمائل . وكان هذا عمل فروسية مشكورة من الخانبين^(٣) .

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٧ ، وابن عذارى في الأوراق المخطوطة (هسبيرس

ص ١٠٥) .

(٢) اللحل الموشية ص ٨٣ .

(٣) راجع كتاب المهدي ابن تومرت ص ٨٧ و ٨٨ .

لبثت المعارك التي تضطرم بين المرابطين والموحدين ، منذ وفاة المهدي ابن تومرت زهاء عشرة أعوام ، منحصرة في مناطق الأطلس ، جنوبي مراکش . في وادي درعة وبلاد السوس ، وفي بلاد حاحة من أحواز تينملال ، وقد كان النصر حليف الموحدين في معظم هذه المعارك . بيد أن انحصار الصراع في هذا النطاق المحدود من الإمبراطورية المرابطية ، لم تترتب عليه أية نتائج حاسمة ، ومن ثم فقد كان لزاماً على الموحدين أن ينقلوا مسرح الصراع إلى قلب الإمبراطورية المرابطية ، حتى يتاح لهم أن يضربوها في الصميم . وأن يقضوا عليها القضاء الأخير .

وهذا ما اعزمه عبد المؤمن في الواقع ، واستدعى من أجله سائر حشود الموحدين ، من كل صوب وقبيل . وفي سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) خرج من تينملال بعد أن استخلف عليها صهره أبا عمران موسى بن سليمان ، في جيش ضخم ، يضم مجموعة كبيرة من الفرسان والرجالة ، وسار في طرقات الجبل نحو الشمال الشرقي . ويفصل لنا البيدق ، وقد كان من شهود هذه الحملة الكبيرة ، خط سير الجيش الموحدى ، فيقول لنا إن عبد المؤمن سار أولاً إلى موضع يسمى وانزال ، ثم إلى موضع يسمى وفاد ، وسار من وفاد إلى أشبار . وهي محلة تقع على مقربة من جنوب شرقي مراکش . وفي تلك الأثناء خرج جيش المرابطين بقيادة تاشفين من مراکش ، فغادر الموحدون أشبار إلى مكان قريب يقع في الشمال الشرقي ، ويسمى تاساوت ، ولحق المرابطون بأشبار . ثم غادر الموحدون تاساوت إلى دمنات الواقعة شرقي مراکش ، على قيد نحو سبعين كيلومتراً منها ، وسار المرابطون في نفس الوقت إلى يمللو الواقعة شمال شرقي دمنات . ولم تقع خلال ذلك معارك ذات شأن بين الفريقين ، ولكن القبائل والعشائر الواقعة في طريق الموحدين ، كانت تدخل في طاعتهم تباعاً ، واستمر الموحدون في مسيرهم شمالاً بشرق حتى واويزغت ، ثم إلى داي الواقعة جنوب تادلا . ووقعت خلال ذلك بين الفريقين معركة محلية في موضع يقال له تيزى ، انتهت حسبما يقول البيدق بهزيمة « الفئدة الباغية » أي المرابطين . ولما وصل الموحدون إلى داي ، فرحوا بها المرابطى على بن ساقطرا ، واستولى عليها الموحدون دون مقاومة . وأعلن من كان بها من

صنهاجة بيعتهم للموحدين ، وطالبوا عبد المؤمن بالإفراج عن من كان معه من أسرى صنهاجة ، فأجاب مطلبهم .

وسار الموحدون بعد ذلك حتى تازاجارت ، وكان يدافع عنها حاكمها المرابطي يحيى بن ساقطرا ، فاقتحموها ، واستولوا على خيلها وغنائمها ، واقتحموا من بعدها قلعة واوما ، وكان يدافع عنها يحيى بن سير ، واستولوا عليها ، ثم استمروا في سيرهم حتى آزر ، التي تقع في قلب منطقة فازان على قيد نحو مائة كيلومتر من شمالي شرقي تادلا ، فدخلوها ونزلوا بها . وبعث عبد المؤمن ، بضعة فرق من جيشه لتخضع الأنحاء المجاورة فقامت بمهمتها ، وعادت إلى آزر ، وأرسل في نفس الوقت بعض الأشياخ إلى تينملال يحملون إليها أخبار الحملة ، وليطمئنوا على أحوالها . ودخل أهل فازان جميعاً في طاعة الموحدين^(١) .

وغادر عبد المؤمن والموحدون آزر شمالاً نحو فاس التي تبعد عنها زهاء ستين كيلومتراً . وكان تاشفين قد وصل في تلك الأثناء في القوات المرابطية ومعه الربرير إلى فاس . ويصف لنا صاحب البيان المغرب سير الجيشين على هذا النحو في قوله : « كان الموحدون يمشون في الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة ، وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره ، فما يجد من البرابر من يداخله ولا من يستعين به ، فيواصله ، وذلك بسبب إداره إلى أن استقر عبد المؤمن بالجبال المجاورة لجهة فاس المعروفة بكراندة ، ونزل تاشفين بحصن بالموضع المذكور»^(٢) .

وهكذا عسكرت الجيوش المرابطية والموحدية ، كل منها على مقربة من فاس عاصمة المغرب القديمة ، وكان ذلك حسبما يستخلص من أقوال البيدق ، وابن عذارى ، في أواخر سنة ٥٣٥ هـ (١١٤١ م) . وكان الوقت شتاء ، والشتاء قاسياً ، والمطر ينهمر بشدة . والظاهر أن المرابطين لم يحتاطوا لقسوة الطقس فعصف بهم البرد ، وأقاموا شهوراً دون حطب ولا فحم ، حتى أنهم اضطروا لحرق أوتاد أخبيتهم ، وخشب أبنيتهم ، ومات كثير منهم من البرد . وفي أثناء ذلك خرجت القوات المرابطية من فاس ومكناسة ، ومعها المؤمن والميرة ، تقصد إلى محلة المرابطين ، ولكنها اختلفت أثناء الطريق واقتتلت ، ففر البعض منها ، وسار

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٩ و ٩٠ .

(٢) القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تاجمروت) ص ١٢ . وراجع أيضاً الحلل الموشية

أحد قادتها ، وهو يحيى بن علي ، هو ومن معه إلى محلة الموحدين ، وسلموا ،
واعترض الموحدون قوة أخرى منها يقودها ابن ولحوظ على طريق مكناسة ،
وفتكوا بها ، وقتلوا معظمها واستولوا على ما معها من المؤن والعتاد .
وعبر الموحدون بعد ذلك إلى جبال الأطلس الوسطى ، وهاجموا القواعد
المرابطية في غريس الواقعة جنوب أزرو ، وتودجا الواقعة شمال سجلماسة ،
وسيطروا على وادي مآوية الواقع في شرق أزرو ، ودخل القادة المرابطون في
تلك الأنحاء في طاعتهم . ولما شعر والي سجلماسة المرابطي أبو بكر بن صارة ،
بإقتراب الموحدين من قاعدته ، خرج إليهم ، وقصد عبد المؤمن ، وأعلن
خضوعه ، فتقبل منه ذلك عبد المؤمن ، وصرف النظر عن مهاجمة سجلماسة ، وعاد
إليها واليها (١) .

وفي أواخر سنة ٥٣٥ هـ ، وأوائل سنة ٥٣٦ هـ (صيف سنة ١١٤١ م)
نرى عبد المؤمن وجيوشه الموحدية تندفع نحو الشمال في غزوات مستمرة ،
تستغرق بضعة أعوام ، وتشتبك مع الجيوش المرابطية المختلفة ، في معارك متعاقبة ،
في أواسط المغرب وشماله ، وقد بدأت هذه المعارك منذ المحرم من العام المذكور ،
حيث خرجت قوة موحدية بقيادة عبد الرحمن بن زجّو أحد أهل خمسين ،
وهاجمت صفرو واقتحمها ، واستولت على غنائمها . ثم لحقت ببقية الجيش
الموحدى في جهة الفلاج ، الواقعة شمال شرقي صفرو . وكان تاشفين قد غادر
عندئذ أحواز فاس ، وعسكر في جبل العرض الواقع في شرقها . وبعث البربر تير
قائد الحند النصراني في قوة إلى الفلاج . فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال ،
ونشبت بين الفريقين معركة ، هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم ، واحتز رأسه
وأرسل إلى فاس .

وعلى أثر ذلك سار الموحدون نحو أرض غيّاثة الواقعة شرقي فاس ، وجنوبي
رباط تازة ، وهي من أرض زنانة ، وضربوا محلّتهم بها فوق جبل عفرا ، وسار
المرابطون في نفس الوقت إلى موضع في السهل يسمى النواظر ، يقع على مقربة
من جبل عفرا من ناحية تازا . وهنا دخل الشتاء بقره . وكان شتاء قاسياً توالى
فيه الرياح العاصفة ، والأمطار الغزيرة ، بضعة أسابيع ، فأغرقت السهول واكتسحت
الوديان والقرى ، وقاسى منها العسكران أيما عناء وشدة ، وكان وقعها على

(١) كتاب المهدي ابن تومرت ص ٩٠ .

المرابطين في السهل أشد وأنكى ، حيث تساقطت الخيام ، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض ، وغرقت الدور ، ومات كثير من المرابطين برداً وجوعاً ، وعزت الأقوات والوقود في المعسكرين ، وبلغ سعر الشعير وفقاً لقول البيهقي في معسكر الموحدين « ثلاثة دنانير للسطل ، وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل » ، ولم ترفع هذه الغمة إلا حينما دخلت طوالع الربيع ، وكان ذلك حسبما يحدثنا البيهقي سنة ست وثلاثين وخمسمائة (أوائل سنة ١١٤٢ م) (١).

هذا ما يقوله لنا البيهقي عن حملة الموحدين إلى غياثة ، فهو أولاً يضع تاريخها في سنة ٥٣٩ هـ ، وهو ثانياً لا يذكر لنا أنه قد وقعت هنالك أية معارك بين الموحدين والمرابطين ، وإنما وقعت بعد ذلك في أماكن أخرى. ولكن ابن القطان يقدم إلينا رواية أخرى تختلف عن رواية البيهقي اختلافاً بيناً ، وهو أولاً يضع تاريخها في سنة ٥٣٢ هـ ، ثم يقول لنا إنه لما نزل الموحدون بجبل غياثة خرج إليهم سير بن علي بن يوسف في القوات المرابطية ، ونزل بجراندة عند وادي أبي جلوا ، وهنالك وافته حشود المغرب بقيادة عبد الله بن يحيى بن تيفلويت ، واجتمعت من حشود زناتة قوة أخرى من نيف وخمسة آلاف فارس بقيادة يحيى ابن فانو. وفي أثناء ذلك وحّد زيري بن ماخوخ من أشياخ زناتة ، ولحق بعبد المؤمن ، وطلب عسكرياً يقوده ضد المرابطين ، فأسعفه الخليفة بما طالب ، وقدم إليه عسكرياً تحت إمرة أحد أشياخ الموحدين ، فأخذ يهاجم الحشود المرابطية ، ويقتل العدد الجرم من رجالها ، وينتهب سلاحها ومتاعها . ثم توفي قائد عسكري زناتة يحيى بن فانو ، فخلفه في القيادة ولده محمد . وأرسل زيري إلى إخوانه من مشايخ زناتة يحرضهم على النكث ، وأن يعملوا لهزيمة المرابطين . ثم وجه الخليفة قوة موحدية مختارة مع زيري ، فقصدت إلى محلة زناتة ، وهاجمتها ، ونشبت بين الفريقين معركة هزمت فيها زناتة ، وانتصر الموحدون .

وكان سير بن علي ، قد علم أن عبد المؤمن يزعم السير إلى أرض غمارة ، فرتب له في الطريق ألبي فارس ، تقيم وتستبدل باستمرار لتعيق سيره ، واستمر ذلك مدى شهرين (٢).

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٩١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٣٠٥ . وكذلك ابن عذاري في البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

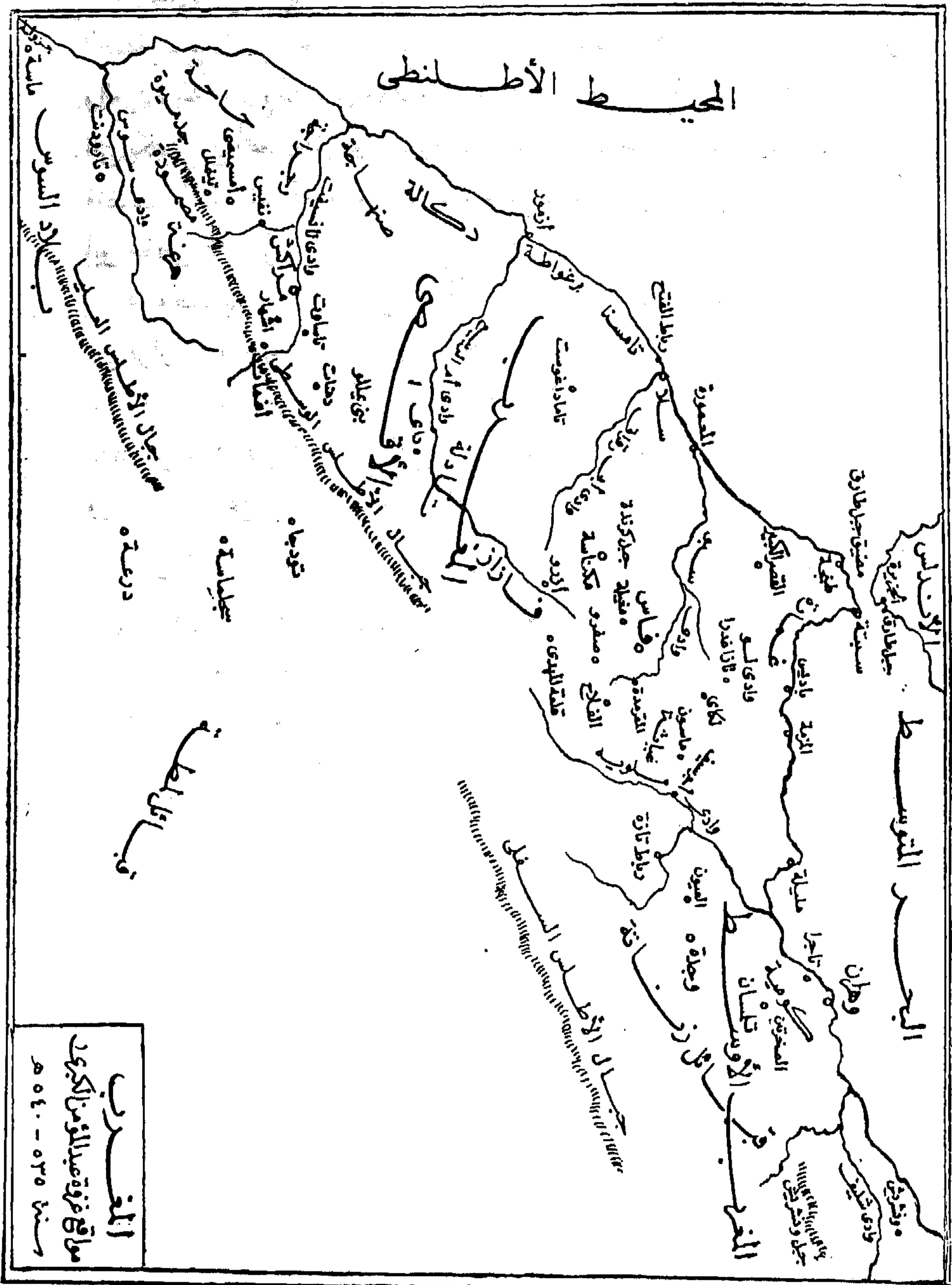
(٢) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ٧٩ ب و ١٨٠) .

هذا ما يقوله ابن القطان عن حملة غياثة . وربما اختلط عليه القول هنا بأخبار حملة موحدية أخرى . ونحن على أى حال نفضل الأخذ برواية البيذق ، وهو معاصر وشاهد عيان .

يقول البيذق إنه لما هدأت الرياح ، وبدأ الربيع ، استأنف الموحدون زحفهم . ويمضى البيذق ، وقد كان من شهود هذه الحملة الشهيرة ، فيصف لنا سير عبد المؤمن نحو الشمال تفصيلا . وكان أول موضع قصده الموحدون عندئذ ، أرض لكاي الواقعة شمالي شرقي فاس ، في منتصف المسافة بينها وبين البحر المتوسط . وهناك استولوا على قلعة الولجة من حصونها . وسار المرابطون بقيادة تاشفين والبربرتيير في أثر الموحدين ، وحاولوا تطويقهم في أرض بني سلمان ، ولكن الموحدين أحبطوا هذه الحركة بالسير إلى أرض بني غمارة ، من بطون صنهاجة ، الذين انضموا إليهم ، ودخلوا في طاعتهم ، ثم جازوا منها إلى أرض لُجاية . وعندئذ سار تاشفين والبربرتيير إلى أرض بني تاودا ونزلوا بها ، فكان بينهم وبين الموحدين نهر ورغة وواديه . . . وهنا خرج البربرتيير في قوة مختارة من المرابطين والجند النصارى ، واشتبك مع الموحدين في موضع يقال له تازغدرا ، في معركة عنيفة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ثم ارتد البربرتيير إلى بني تاودا ، وسار الموحدون إلى تاغزوت ، ثم إلى بني مزكلدة ، ثم إلى إيلانة ثم إلى أيجن على مقربة من القصر الكبير . وسار تاشفين والبربرتيير في أثر الموحدين حتى موضع قريب من المعسكر الموحدى يسمى « نهليط » . وفي أيجن مرض عمر أرناج (أصناك) أحد الجماعة العشرة ، ولما شعر بدنو أجله ، قام فوعظ الموحدين وعظا طويلا ، وحثهم على طاعة الخليفة عبد المؤمن ، ثم توفى مساء ذلك اليوم . وسار الموحدون بعدئذ إلى تامقرت ، ثم إلى وادى لو ، أرض بني سعيد . وسار البربرتيير في أثرهم حتى وصل إلى تيطاوين (تطوان) ، فارتد الموحدون نحو الشمال حتى قلعة باديس الواقعة على شاطئ البحر المتوسط ، ودخل في طاعتهم أهل تلك الأنحاء ، ثم ساروا بعد ذلك إلى ثغر المزممة^(١) ، في شرقي باديس ونزلوا به أياما ، هبت عليهم فيها رياح شديدة ، كادت أن تهلك دوابهم ، فسماها عبد المؤمن تاغزوت ، ثم أقلع عنها إلى جبل تمسامان^(٢) .

(١) المزممة هي التي تسمى في الجغرافية الحديثة محرفة « الحسيمة » Alhucemas .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٩٢ و ٩٣ ، والبيان المغرب في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر .



المغرب
 مواقع غزوة عبد المؤمن الأكبر
 سنة ٥٣٥ - ٥٤٠ هـ

وهنا يقص علينا البيدق قصة غريبة ، خلاصتها أنه قد وفد عندئذ على الخليفة عبد المؤمن أخوه إبراهيم ، فغمره الخليفة بإكرامه ، وأعطاه الخيل والعبيد والخباء ، وأنزله في موضع محمد بن أبي بكر بن يكييت ، وقد كان أبوه ابن يكييت من أصحاب المهدي العشرة ، فاستاء لذلك محمد ووثب بإبراهيم فقتله ، فغضب الخليفة لمقتل أخيه أيما غضب ، وطالب بقتل ابن يكييت ، فاعترض عليه أبو حفص عمر اينتى ، وابن واجاج ، وقالاه ، ألم يقل المهدي ، « بأن أهل الجماعة وصبيانهم ، عبيدهم كل من في الدنيا » ، فصمت الخليفة عندئذ ، وعدل عن قراره ، ولكنه أمر أن يقسم المعسكر الموحدى إلى فرق أو بنود ، وأن يكون لكل قبيلة بندها الخاص (١) . وهنا يلاحظ الأستاذ هويثى بحق « أنه ليس أقطع دليلا من ذلك على التعصب الأعمى ، الذى كان يضطرم به الموحدون الأوائل ، ويدافعون به عن مزايا وامتيازات نظامهم الدينى » (٢) .

وفى أثناء ذلك خرج عبد الرحمن بن زجّو في قوة من الموحدين ، وزحف على ثغر مليلة ، واقتحمه ، وحصل على غنائم كثيرة ، كان من بينها مائة بكر ، قسمها عبد المؤمن على أعيان الموحدين ، فتزوجوهن ، وبقيت منهن أميرتان ، هما فاطمة بنت يوسف الزناتية ، وابنة ماكسن بن المعز صاحب مليلة ، فأخذ الشيخ اسماعيل أبو إبراهيم أحد العشرة فاطمة ، وأخذ الخليفة بنت ماكسن . ثم رحل الموحدون بعد ذلك إلى ندرومة وبلاد كومية ، قبيلة عبد المؤمن ، فدخلت جميعاً في طاعة الموحدين . وسار الموحدون بعد ذلك إلى تاجرا الواقعة على البحر شرقى مليلة ، فنزلوا بها (٣) .

وكان الجيش الموحدى قد تضخم عندئذ ، ودخل في طاعة الموحدين ، عدد كبير من القبائل والبطون الشمالية . ومن تاجرا خرجت ثلاث قوات موحدية ، الأولى بقيادة عبد الرحمن بن زجّو ، وقد سارت شمالا بشرق ، وهاجمت ثغر وهران ، واقتحمته واستولت على غنائمه ، والثانية بقيادة الشيخ أبي إبراهيم ، وقد سارت إلى أرض بنى وأنوان واستاقت غنائمها ، وخرجت الحملة الثالثة بقيادة

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٩٣ و ٩٤ .

(٢) راجع : A. Huici Miranda : Historia Politica del Imperio Almohade

(Tetuan 1956) V I. p. 126 .

(٣) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة - هسييرس ص ١٠٦) .

يوسف بن وانودين ، وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان ، فخرج إليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهري ، ومحمد بن يحيى بن فائق ، وتشبت بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزيتون ، هزم فيها المرابطون ، وقتل قائداهما . ووفد على الخليفة عندئذ ، عدد من زعماء القبائل المجاورة ، وأعلنوا خضوعهم .

ثم رحل الخليفة من تاجرا إلى تيفسرت من أرض مديونة ، وخرجت عندئذ قوة موحدية بقيادة الشيخ أبي حفص عمر ابن تقي وبصلاصن بن المعز إلى العيون من أراضي قبيلة صاء غربي وجدة ، وغلبت على قبائل تلك الناحية ، وهم أربعة ، واستولت على غنائمهم .

وكانت الجيوش المرابطية بقيادة تاشفين والبربر ، قد ارتدت عند دخول الشتاء إلى مراكزها في فاس ، وبقي الموحدون في مراكزهم في أحواز تلمسان .

وفي تلك الأثناء تطورت الحوادث بمراكش تطورا خطيرا ، فقد توفي أمير المسلمين علي بن يوسف ، في السابع من شهر رجب سنة ٥٣٧ هـ (يناير سنة ١١٤٣ م) . وكانت حوادث الأعوام الأخيرة من حكمه ، وما توالى فيها من محن وخطوب ، ترتبت على قيام المهدي ابن تومرت ، وتوالى ظفر الموحدين ، وهزائم الجيوش المرابطية ، قد فتت في عضده ، وحطمت قواه ، وأذكت آلامه المعنوية ، فتوفي غما وألماً ، وهو يشهد نذر النهاية المروعة جاثمة في الأفق . فكتم نبأ وفاته ثلاثة أشهر حتى السابع من شوال ، ثم أعلنت بعد ذلك ولاية ولده أبي محمد تاشفين ، وكان أبوه قد قلده ولاية عهده ، وبويع بها منذ سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل في موضعه (١) .

وكان علي بن يوسف خير أمراء الدولة المرابطية ، بعد أبيه العظيم يوسف . ونستطيع أن نعتبر حكمه ، الذي امتد سبعة وثلاثين عاما منذ ولي الملك بعد وفاة أبيه في الحرم سنة ٥٠٠ هـ ، هو عصر الدولة المرابطية الحقيقي ، بعد أن توطدت

(١) رجع البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ١٠٧) والحلل الموشية (ص ٩٠) ، والزرركشي في تاريخ الدوليين (ص ٥) . ولكن ابن الخطيب يذكر لنا في الإحاطة أن علي بن يوسف توفي في السابع من ربيع (؟) (سنة ٥٣٧ هـ) ولم يشهر موته إلا في الخامس من شوال (الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال لوحة ٢٩٢) .

دعائها في المغرب والأندلس ، وفي أوائل عهده ، وصلت الدولة المرابطية إلى ذروة قوتها وضحامتها ، بيد أنه سرعان ما ظهرت حركة المهدي ابن تومرت حتى انقلبت الآية ، وأخذ الانحلال يسرى إلى ذلك الصرح الشامخ ، وأخذت الدولة المرابطية ، تسير سراعاً إلى قدرها المحتوم .

ومما يؤثر عن علي بن يوسف ، أنه كان أول من استخدم النصارى في الجيش المرابطي . وقد بدأ في ذلك حينما وقع تغريب النصارى المعاهدين بالأندلس في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ، حيث استخدم جماعة من الذين قضى بتغريبهم في حرسه الخاص ، وكان ما أبداه أولئك الحند النصارى من الغيرة والإخلاص ، مشجعاً له على التوسع في استخدامهم ، واستقدامهم من شبه الجزيرة ، ودعوة أنجادهم من الفرسان ، وهكذا انتظمت في الجيش المرابطي فرقة أو فرق خاصة من المرتزقة النصارى . وفي أواخر عهد علي ، عهد بقيادة هذه الفرق الأجنبية إلى الفارس القسطلاني الإبرتيير أو البربرتيير كما تقدم ، وأخذت تقوم بدور هام في المعارك التي كانت تضطرم يومئذ بين المرابطين والموحدين . ويقول لنا صاحب البيان المغرب أن علياً كان يؤثر أولئك الحند النصارى ، ويمكن لهم ، وكانوا في ظل هذه الرعاية الخاصة يتعالون على المسلمين ، ويفرضون عليهم المغارم . ولما اضطربت الأمور في أواخر عهد علي ، أهمل أمر الحند المسلمين ، وعجز الأمير عن الإنفاق عليهم ، حتى كان أكثرهم يكرون دوابهم^(١) .

ومما يذكره لنا ابن عذارى في هذا الصدد أيضاً ، أن أمير المسلمين علياً ، حينما رأى توالي فشل ولده تاشفين في محاربة الموحدين ساءه ذلك ، وعزم على إقالته ، وأن يقدم مكانه ولده إسحاق ، وكتب بالفعل إلى عامله على إشبيلية عمر ، بالقدوم ، ليجعله مدبر ولده ، وكان ذلك في سنة ٥٣٦ هـ . بيد أنه يبدو أنه لم يجد متسعاً من الوقت لتحقيق هذا العزم ، إذ توفي بعد ذلك بأشهر قلائل^(٢) .

وكان من الأحداث البارزة في أواخر عهد علي ، السيل العظيم الذي وقع بطنجة ، في سنة ٥٣٢ هـ ، وقد اكتسح معظم دورها وصروحها ، وهلك فيه عدد عظيم من الناس ، والدواب^(٣) . ثم الحريق الكبير الذي وقع في العام التالي بسوق

(١) البيان المغرب ، في الأوراق المخطوطة التي سبقت الإشارة إليها .

(٢) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة المشار إليها - هسبيرس ص ١٠٥) .

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ١٠٣) .

مدينة فاس (٥٣٣ هـ) ، وتلفت من جرائه طائفة كبيرة من الدروب التجارية ، وهلكت فيه أموال جليلة ، وافتقر كثير من الناس (١) .

وكان منها أيضاً ، أنه في سنة ٥٣٥ هـ ، هاجرت جموع عظيمة من أهل المغرب ، من مختلف نواحيه ، إلى الأندلس . وهذا ما يذكره لنا ابن عذارى نقلاً عن ابن حمادة . والظاهر أن ذلك كان راجعاً إلى توالى ظفر الموحدين على المرابطين ، وتوجس أنصار المرابطين وأولياهم مما قد يوول إليه الأمر من انهيار سلطان المرابطين بالمغرب (٢) .

وعلى بن يوسف هو الذي وسع مدينة مراکش ، وعمرها ، ونظم خططها ، حتى غدت أضعاف ما كانت عليه عند إنشائها ، وأنشأ بها الجامع ، والقصر المرابطي ، ونظم سقايتها ، وأدار أسوارها ، حتى غدت في عصره حاضرة عظيمة (٣) .

وتنوه الرواية بخلال علي بن يوسف ، وتصفه بأنه كان ملكاً عظيماً ، عالي المهمة ، رفيع القدر ، فسيح المعرفة عظيم السياسة (٤) ، وكان فوق ذلك ورعاً متعبداً ، يحب العلماء ويؤثر مجالسهم (٥) . بيد أنه لم يكن في ذلك صنو أبيه العظيم في الاقتصار على الاسترشاد بأرائهم دون خنوع واستسلام ، بل كان يخضع لأهوائهم ، ويترك لهم الكلمة العليا . وقد رأينا ما كان في استسلامه لهم ، من الحجر على حرية الفكر ، ومطاردة كتب الغزالي وإحراقها ، لما كانت تتسم به من إثارة لعلم الأصول ، وقد كان هذا من أكبر أخطائه ، ومن دلائل استسلامه لأهوائهم وتعصبهم .

وكان البلاط المرابطي في عهد علي بن يوسف ، يزدان سواء في المغرب أو الأندلس بعدة من أكابر الكتاب ، وأعلام البلاغة في ذلك العصر . وكان في مقدمة هؤلاء أبو بكر بن القصيرة المتوفى سنة ٥٠٨ هـ ، وقد كتب عن يوسف ابن تاشفين ، ثم عن ابنه علي ، وأبو القاسم ابن الجحد المعروف بالأحدب ، وأبو بكر بن عبد العزيز البطليوسي المعروف بابن القبطرنة ، وأخواه أبو الحسن

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ١٠٥) .

(٣) الزركشي في تاريخ الدولتين ص ٥ .

(٤) ابن الخطيب في ترجمة علي بن يوسف في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر

لوحة ٢٩٢) .

(٥) المعجب للمراكشي ص ٩٩ ، والحلل الموشية ص ٦١ .

وأبو محمد ، وأبو عبد الله بن أبي الحِصَال وأخوه أبو مروان ، وأبو محمد عبد الحميد بن عبدون وزير بني الألفس السابق^(١) . وأبو جعفر أحمد بن محمد ابن عطية القضاعي ، وقد خدم تاشفين بن علي من بعد أبيه ، ثم انتقل فيما بعد إلى خدمة عبد المؤمن حسبما يجيء^(٢) .

وكان أنبهم وآثرهم لدى علي بن يوسف ، أبو عبد الله بن أبي الحِصَال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ . وقد كان من أعظم علماء العصر وكتابه وبلغائه . وكان اجتماع هذه الحمهرة من أعلام البلاغة في البلاط المرابطي ، أثر من آثار قصور الطوائف ، التي امتازت بحشد أقطاب الكتاب والأدباء بين وزرائها ، وأغدقت عليهم حمايتها ورعايتها .

وكان علي قد استوزر في أواخر عهده ، إسحق بن يثان بن عمر بن يثان ، وكان فتي حدثاً لم يجاوز الثامنة عشرة من عمره ، ولكنه كان يتوقد ذكاء وفطنة وعزماً ، فأعجب به علي ، وولاه خطة المظالم والشكايات ، فأبدى في منصبه براعة وكياسة ، فانتفع به الناس وأحبوه ، وكان حسباً تصفه الرواية « مثل كاهن يأتي بعجائب الأخبار »^(٣) .

هذا ، وأما عن شخصه ، فإن الرواية تصف علي بن يوسف ، بأنه كان أبيض اللون ، مشرباً بحمرة ، حسن القد ، صبوح الوجه ، أفلج ، أقي ، أكحل العينين ، سبط الشعر^(٤) .

وكان لعلي من الولد الذكور ، أحد عشر ، ولكنه لم يترك من أولاده الأحياء بعده سوى ولي عهده وخلفه تاشفين . أما ولده الأكبر سير ، فكان قد توفي قبل وفاته بمدة طويلة ، وكذلك توفي أولاده الآخرون قبل وفاته ، ومنهم ولده أبو بكر ، وقد كان والياً بالأندلس . وفي رواية أنه قد غرّب بأمر أبيه إلى الصحراء حينما اعترض علي تعيين أخيه تاشفين لولاية الأندلس ، وفي أخرى أنه أصيب إصابة أقعدته ، فحُمل على أعناق الرجال حتى الجزيرة ، ولكنه سجن هناك حتى توفي ، واشتد ألم أبيه على فقده .

(١) المعجب ص ٩٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٩ .

(٢) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣) البيان المغرب (في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر - هسبيرس ص ١٠٧) ، والحلل الموشية ص ٦١ .

(٤) روض القرطاس ص ١٠٢ .

وكانت دولة المرابطين في تلك الأعوام الأخيرة من حكم علي بن يوسف ،
قد اضطربت أحوالها واهتزت أسسها ، وقعدت كثيراً من قواعدها وأراضيها ،
وسادت الفوضى في كل ناحية ، وساءت الأحوال الاقتصادية من توالي الحرب ،
وعزت الأقوات والموارد ، وارتفعت كلفة العيش ، وعانى الناس مشقات وشدائد .
وما كاد علي بن يوسف يجتني من الميدان ، حتى وقع ما هو أخطر ، من تصدع
الجهة المرابطية وتفرق كلمتها . وذلك أن الحصومة قد اضطربت بين قبيلتي لمتونة
ومسوفة وهما دعامتا العصبة المرابطية ، وخرج عدة من زعماء مسوفة على
حكومة مراکش ، ورأوا ، أن يلوذوا بحماية الموحدين ، فسار منهم يحيى
ابن تاكفت ، وبراز بن محمد ، ويحيى بن إسحاق المعروف بأنجار حاكم تلمسان
السابق ، في صحبهم وأتباعهم ، إلى محلة الموحدين ، وقدموا طاعتهم إلى عبد المؤمن ،
وكانت هذه ضربة جديدة لتاشفين بن علي ، فاشتد الاضطراب في الجهة
المرابطية ، ووغرت صدور اللمتونيين على مسوفة ، وأخذ يتربص بعضهم
ببعض ، ويقتل بعضهم بعضاً .

وكان ممن انشق على تاشفين في تلك الفترة ، بني وماتو من بطون زناتة ،
وقدم أشياخهم طاعتهم إلى عبد المؤمن ، فبعثهم مع بعض قواته إلى بلادهم ،
فأعلنوا طاعتهم جميعاً للموحدين . ولما علم تاشفين بخروج بني وماتو ، وجه إليهم
عسكراً على رأسه الربربر ، فسارع الموحدون إلى إنجادهم ، وتحصن بني وماتو
ببعض التلال ، فصعد إليهم المرابطون ، يحاولون اقتحام مراكزهم ، ولكنهم
ردوا المرابطين على أعقابهم . وعلى أثر ذلك سار جيش موحدى بقيادة
ابن وانودين ، وابن زجّو ، وابن يومور ، إلى بلاد بني عبد الواد وبني يلومي وهم
من أنصار المرابطين ، وعاث في تلك المنطقة ، واستاق كثيراً من الغنائم ، ولكن
فاجأته حين العودة قوة من المرابطين من زناتة واستولت على معسكر الغنائم ،
وقتل كل حراسة وهم من بني وماتو وعددهم ستمائة رجل ، وتحصن الموحدون
بجبل هنالك ، وسار عسكر المرابطين إلى موضع يسمى منداس بلد بني يلومي
من بطون زناتة ، فاجتمع إليه بني يلومي ، وعدة أخرى من البطون .

ولما علم عبد المؤمن ما حدث ، سار بقواته من أحواز تلمسان إلى أرض
يلومي ، وكان الأمير تاشفين قد قدم في نفس الوقت إلى تلمسان ، وحشد فيها

عسكرياً ، وأرسله على عجل إلى محلة المرابطين في منداس ، وكذلك انضم إليهم
البربر في قواته ، واجتمعت بذلك للمرابطين حشود ضخمة . فلما شعر
عبد المؤمن بتفوق خصومه ، لجأ إلى خطة حربية جديدة مبتكرة ، هي خطة
المربع الموحدى الذى اشتهر فيما بعد . وأضحى عماد خطط الدفاع الموحدية في
الميدان المكشوف ، وقد وصف لنا ابن اليسع خلاصة هذه الخطة ، نقلا عن
بعض الموحدين ، فيما يلي :

« أن تُصنع دائرة مربعة في البسيط يجعل فيها من جهاتها الأربع صف من
الرجال بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق المانعة ، ومن ورائهم أصحاب الدروق
والحراب صفاً ثانياً ، ومن ورائهم أصحاب الخالي فيها الحجارة صفاً ثالثاً ، ومن
وراء هؤلاء الرماة صفاً رابعاً . وفي وسط المربعة ، ترابط قوى الفرسان » . يقول
ابن اليسع « فكانت خيل المرابطين إذا دفعت إليهم ، إلى الموحدين ، لا تجد
إلا الرماح الطوال الشارعة ، والحراب والحجارة والسهام ياسرة . فحين ماتوا
من الدفع وتدبر ، وأخرج خيل الموحدين من طرق تركوها ، وفرج أعدوها ،
فتصيب من أصابت ، فإذا كرت عليهم دخلوا في غاب القنا » (١) .

وهكذا فإنه حينما نشب القتال بين المرابطين والموحدين في منداس ، ظهرت
آثار الخطة الدفاعية الموحدية واضحة في عجز المرابطين على تفوقهم في العدد
والعدة ، عن النيل من خصومهم . وبالعكس فقد أثنى الموحدون في خصومهم ،
وردوهم الكرة بعد الكرة بنحسائر فادحة ، واستمر القتال على أشده ثلاثة أيام .
وفي اليوم الرابع أحرز الموحدون على خصومهم نصراً باهراً ، واحتلوا على
محلهم ، ومحلات حلفائهم من بنى بلوى وغيرهم ، واستولوا على غنائم فادحة ،
تقدرها الرواية بثلاثين ألفاً من الغنم ، واثنى عشر ألفاً من البقر . بيد أنه حينما
ارتد عبد المؤمن بغنائمه صوب الصخرتين من أحواز تلمسان ، اعترضه البربر في
قواته ، وهاجمه بشدة واسترد منه معظم الغنائم ، وقتل من كومية قبيلة
عبد المؤمن نحو أربعائة رجل . ثم سار في قواته وغنائمه إلى تلمسان ، فانضم هناك
إلى قوات الأمير تاشفين (٢) .

وفي خلال ذلك الصراع المرير الذى استغرق قوى المرابطين ، وصل إلى

(١) الخلل الموشية ص ٩٨ .

(٢) البيان المغرب (القسم الثالث نسخة تاجروث) (تطوان ١٩٦٣) ص ١٥ .

مياه سبتة أسطول نورمانى ضخيم قوامه مائة وخمسون سفينة ، وأغار أولئك النورمان (المجوس) على سبتة ، محاولين اقتحامها ، فخرجت إليهم سفن المرابطين بقيادة أمير البحر ابن ميمون ، ووقعت بين الفريقين معركة بحرية عنيفة ، غرقت فيها من الجانبين سفن عديدة ، وقتل من الفريقين خلق كثير . وكان ذلك فى سنة ٥٣٨ هـ (١) . ودل ذلك الحادث على أن القوات البحرية المرابطية ، كانت ما تزال ، بالرغم مما حدث فى داخل المغرب ، يقظة ساهرة ، على حراسة الشواطئ والثغور المغربية المرابطية .

ووقع بعد ذلك بقليل حادث كان له فى مركز المرابطين أسوأ الأثر هو مصرع الربرير قائد « الروم » . وتختلف الرواية فى شرح هذا الحادث وفى تفاصيله . ويقدم إلينا البيدق رواية خلاصتها ، أن عبد المؤمن وجه حشود جزولة لقتال الربرير ، وكانوا بموضع يسمى « بكيرس » ، فسار الربرير فى قواته للقائهم ، وكانت جزولة تحتمى وراء خندق ، فاستطاعوا أن يردوا الربرير ، فولى عنهم مهزوماً ، وكتب إلى عبد المؤمن كتاباً يسدى فيه النصيح ، ويقول إن جزولة ، قد غدروا بإخوانهم ، وهم بلاريب سوف يغدرون بك ، وعندئذ عمد عبد المؤمن إلى تجريدهم من خيلهم وسلاحهم ، ثم قتلهم جميعاً إلا الصبيان الصغار ، واستولى على غنائمهم . فلما علم الربرير بذلك قرر أن يسير لمهاجمة الموحدين ، واستخلص الغنائم منهم ، فلم يعترض ناشفين على رغبته ، ولكنه لم يسر معه ، والتقى الربرير بالموحدين فى موضع يسمى « تاكوط آن تيفسرت » ونشبت بينه وبين الموحدين معركة عنيفة هلك فيها هو ومعظم جنده ، ولم يسلم من عسكره حسبما يحدثنا البيدق سوى ستة ، ثلاثة من الروم ، وثلاثة من المرابطين ، يذكر لنا البيدق أسماءهم . وكان ذلك فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) (٢) .

ويذكر لنا ابن عذارى من جهة أخرى مصرع الربرير فى جملة موجزة يقول فيها « فى سنة تسع وثلاثين خرج قائد الروم بعسكره ، ومعه عسكر لمتونة والحشم ، فهزمهم الموحدون ، وقتل القائد المذكور » . وهذا ما ورد فى الأوراق المخطوطة التى بين أيدينا من البيان المغرب . ولكن ابن عذارى يحاول فيما بعد ، أن ينقل تفاصيل مصرع الربرير عن ابن صاحب الصلاة ، وذلك فى القسم

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة - هسبيرس ص ١٠٨) .

(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٩٦ .

الثالث من كتابه ، بيد أن ما نقله في ذلك قد سقط من نسخة « تاجروت » وهي التي تغلو مرجعنا منذ الآن فصاعداً (١) .

ويقدم إلينا ابن خلدون عن مصرع البربرتيرو رواية ثالثة يقول فيها ، إن تاشفين بعث البربرتيرو في عسكر ضخم فأغار على بني سندم وزناته الذين كانوا في بسيطهم ، وعاد بالغنائم ، فاعترضه الموحدون ، ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها البربرتيرو وجنده (٢) .

ولما رأى الحند النصارى مصرع عميدهم ، ورأوا أنهم لا يستطيعون بعد أن يعملوا لتدعيم إمبراطورية أصبحت وشيكة الانهيار ، تفرقوا تبعاً ، وغادر الكثير منهم المغرب إلى اسبانيا ومعهم أسرهم وقساوستهم ، وساروا إلى طليطلة ملتجئين إلى حماية القيصر ألفونسو ريمونديس (ألفونسو السابع) ملك قشتالة ، فأحسن استقبالهم ، وأنزلهم بدياره ، وحمد لهم تمسكهم خلال الحوادث والخطوب بدينهم وولائهم لمذهبهم (٣) .

وعلى أى حال فقد كان مصرع البربرتيرو وتبدد جنده ، ضربة جديدة أصابت الجيش المرابطى ، وكان تاشفين في تلك الأثناء قد كتب إلى الأقطار يستدعى الحشود من كل ناحية ، فقدم إليه عسكر سجالماسة ، وعسكر بجاية بقيادة طاهر ابن كباب الصنهاجى من بنى حماد أصحاب إفريقية ، ووصل من الأندلس عسكر آخر بقيادة الأمير إبراهيم بن تاشفين ، وكان قد قدم إلى أبيه قبل ذلك على أثر موت جده على وزاره بجهة كراندة ، فبعثه والده إلى قرطبة لإتمام دراسته بها ، ثم استدعاه بعد ذلك فوصل في عسكره إلى تلمسان في أواخر سنة ٥٥٣٨ ، فولاه أبوه في الحال عهده ، واجتمعت الجيوش المذكورة في ظاهر تلمسان ، وميزوا ، وبرزوا في نظام متقن وهيئة كاملة ، وعجب الناس من كثرتهم ، وحسن نظامهم ، وجمال هيئتهم ، بيد أنها كانت آخر حشود يحتفل بها المرابطون (٤) .

ولما قتل البربرتيرو وبدد جيشه ، غادر الموحدون « تيفسرت » وساروا إلى

(١) راجع القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تاجروت) ص ١٦ .

(٢) كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣١ .

(٣) Simonet : Hist. de los Mozárabes. p. 760 & 761

(٤) القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تاجروت) ص ١٥ ، والحلل الموشية ص ٩٧ و٩٨

شمال غربي تلمسان ونزلوا « بالصخرتين » القريبة منها ، وكان تاشفين قد أقام محلته في « سطفسيف » القريبة ، وكانت المعارك والمناوشات تنشب كل يوم تقريباً بين الفريقين ، واستمر ذلك مدى شهرين . ولما وصلت حشود الأقطار إلى تاشفين ، خرجت منها حشود بجاية ، واشتبكت مع الموحدين في معركة عنيفة في ظاهر « الصخرتين » ، فهزمت وقتل منها عدد جم ، وبعث قائدها سراً إلى عبد المؤمن ، يعده بالتوحيد ، وأنه متى افتتح المغرب ، فإنه إذا ورد المشرق وجده مفتوحاً كذلك .

وعندئذ أدرك تاشفين دقة مركزه ، فقرر أن يترك محلته في تلمسان ، وغادرها في قواته إلى وهران الواقعة على البحر في شمالها الشرقي . وبعث ابنه وولى عهده إبراهيم إلى مراکش في جماعة من أشياخ لتونة ومعه كاتبه أحمد بن عطيه . وكان تاشفين قد ابتنى في وهران حصناً منيعاً على البحر كي يحتجى به عند الحاجة ، ودبر مع قائد أسطوله محمد بن ميمون ، أن يوافيه إلى وهران بجناح من الأسطول فقدم ابن ميمون من المرية في عدة من السفن ، وأرسى قريباً من المعسكر المرابطي ينتظر تطور الحوادث . وكان ذلك في شهر شعبان سنة ٥٣٩ هـ (يناير ١١٤٥ م) . وكان المرابطون قبل أن يغادروا محلتهم في سطفسيف إلى وهران قد دبروا كميناً لحيش موحدى يقوده ابن زجّو ، ففتكوا به وقتلوا ابن زجّو . فكان ذلك عاملاً جديداً في إذكاء سخط الموحدين . وما كاد المرابطون يتحركون نحو الشمال ، حتى سار في أثرهم عبد المؤمن في قواته ، وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر ابن يحيى الهنتاني (عمراينتي) ، وحشود بني ومانو من زناتة ، فنفذوا إلى بلاد بني يلومي ، وبني عبد الواد ، وبني ورسيفين ، وبني توجين ، وكلهم من أنصار لتونة ، وأثخنوا فيهم حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسار زعمائهم إلى عبد المؤمن ، وقدموا طاعتهم إليه ، فتأقاهم بالقبول ، وضمهم إلى قواته^(١) . وأشرف الموحدون على وهران ، وعسكروا فوق الجبل المطل عليها .

وكان كل شيء ينذر عندئذ بوقوع المعركة الحاسمة . وكان المرابطون يرقبون تحركات الموحدين في وجوم وتوجس وقد غادر عدة من قوادهم المعسكر المرابطي وتركوا تاشفين لمصيره . وشعر الموحدون من جانبهم أن الفرصة المنشودة قد حلت ، ففي ذات صباح أطلقوا من فوق الجبال صيحتهم الحربية بصوت واحد

(١) البيان المغرب القسم الثالث (نسخة تاجروت) ص ١٦ ، وكتاب العبر ج ٦ ص ٢٢١ .

ارتجت له المحلة المرابطية ، وأمر تاشفين بجنده بان يلزموا أماكنهم خيفة الكمينه
وعند الظهر سار الموحدون إلى عين الماء التي يشرب منها أهل وهران ، فسقوا
دوابهم دفعة واحدة ، ثم قاد الشيخ أبو حفص قواته ، واقتحم المحلة المرابطية ، حتى
أشرف على مكان خباء تاشفين ، وكان موقعه بإزاء الحصن المطل على البحر ،
فوقع الاضطراب في المعسكر المرابطي ، وبادر تاشفين وخاصته ومنهم ابن مزدلي ،
وبشير الرومي ، وصندل الفتي ، إلى الالتجاء إلى الحصن ، ووقع القتل بين
المرابطين ، وجمع الموحدون الحشب ، وأضرموا النار حول الحصن ، وما كاد
الظلام يرخي سدوله ، حتى كانت ألسنة اللهب قد تعالت ، فخشى تاشفين
الملاك ، وخرج من الحصن فوق فرسه « ربحانة » يطلب النجاة ويرجو أن تصل
إليه بعض قطع أسطوله لتحمله إلى الأندلس ، وكان معه صحبه الثلاثة ، فسقط
صندل في النار واحترق ، واستطاع ابن مزدلي أن يجوز إلى أسوار المدينة ،
ولكنه فقد رشده ومات بعد ثلاثة أيام . وسار تاشفين وبشير إلى مرتفعات
الجليل ، فقيض لبشير النجاة . ولكن تاشفين ، تردت به فرسه تحت جناح
الظلام ، فسقطت في هوة سحيقة فهالكت الفرس ، وهلك تاشفين . وفي الصباح
عثر الموحدون على جثة تاشفين في تلك الحافة فصلبوا الجثة ، واحتزوا رأسه ،
وبعث بها عبد المؤمن إلى تينمائل ، فعلمت في الشجرة التي بإزاء مسجد المهدي .
وكان مصرع تاشفين في ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٣٩ هـ (٢٢ فبراير
١١٤٥ م)^(١) ، وذلك بعد أن قضى في مدافعة الموحدين زهاء خمسة أعوام متوالية ،
لم يأو فيها إلى مكان . ولم ينعم بهدنة ، ولم يتصل بأهل ولا ولد^(٢) .

وقد أورد لنا ابن الأبار عن مصرع تاشفين رواية أخرى عن أبي علي بن
الأشيري ، وقد كان داخل تلمسان حين نزل الموحدون على مقربة منها في سنة
٥٣٩ هـ ، وكان تاشفين عندئذ في ظاهرها في محلاته وجموعه . وخلاصة هذه
الرواية ، أن تاشفين بعد أن وجه ابنه إبراهيم ولي عهده إلى مراکش خوفاً عليه
في شعبان من تلك السنة ، وسير معه كاتبه أبو جعفر بن عطية ، سار إلى وهران ،
ولجأ إلى حصن شرع في بنيانه ، فقصده الموحدون ، وأضرموا النار حوله ،

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ١٦ و ١٧ ، وأخبار المهدي ابن تومرت ص ٩٨ ، والحلل
الموشية ص ١٠٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١ ، وابن الخطيب في الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦)
ج ١ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٩٨ .

فلما رأى ذلك ودع أصحابه ليلاً ، واقتحم والنار محتدمة بباب الحصن ، فوجد من الغد ميتاً لا أثر فيه لضربة ولا طعنة ، ويقال إن فرسه صرعه . وتتفق هذه الرواية مع الروايات الأخرى في أن مصرع تاشفين وقع في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١) .

وأورد لنا المراكشي رواية ثالثة خلاصتها أن تاشفين لما ذهب إلى تلمسان لم يرضه موقف أهلها ، فغادرها إلى وهران ، فحاصره الموحدون بها ، فلما اشتد عليه الحصار ، خرج ركباً فرساً شهباء وعليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ، ويقال إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه (٢) .

هذا ويصف لنا ابن الخطيب مصرع تاشفين بن علي في تلك العبارات الشعرية :
« واستقبل تاشفين مدافعة جيش أمير الموحدين ، أبي محمد عبد المؤمن بن علي خليفة مهديهم ، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره ، والدفاع عن ملك بلغ مداه وتمت أيامه ، كتاب الله عليه ، فالتأتأ سعده ، وفل جده ولم تقم له قائمة ، إلى أن هزم ، وتبدد عسكره ، ولجأ إلى وهران ، فأحاط به الجيش ، وأخذة الحصار ، قالوا فكان في تدبيره أن يلحق ببعض السواحل ، وقد تقدم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله ليرفعه إلى الأندلس ، فخرج ليلاً في نفر من خاصته فرقهم الليل ، وأضلهم الروع ، وبددتهم الأوعار ، فمنهم من قتل ، ومنهم من لحق بالقطائع البحرية ، وتردى بتاشفين فرسه من بعض الحافات ، ووجد ميتاً في الغد ، وذلك ليلة سبع وعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسة ، وصلبه الموحدون ، واستولوا على الأمر بعده ، والبقاء لله تعالى » (٣) .

وعلى أثر مصرع تاشفين ، اقتحم الشيخ أبو حفص بقواته وهران ، وأثنى في المرابطين حتى فني معظمهم ، والتجأت منهم جماعة إلى الحصن ، فحاصروهم الموحدون وقطعوا عنهم الماء حتى أذعنوا إلى التسليم بعد ثلاثة أيام . ومع ذلك فقد قتلهم الموحدون جميعاً كباراً وصغاراً ، وكان ذلك في يوم عيد الفطر من سنة ٥٣٩ هـ . وكانت مذابح وهران هذه ، من أفظع المظاهر التي تميزت بها سياسة الموحدين الدموية .

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٩٧ و ١٩٨ .

(٢) المعجب ص ١١٢ و ١١٣ .

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٦١ و ٤٦٢ .

ولما وصل خبر مصرع تاشفين إلى تلمسان ، مع قل لمتونة ، أسرع من كان بها وبضاحيتها القريبة تاجررت من لمتونة ، فغادروها هائمين على وجوههم يقصدون إلى فاس وغيرها من الأماكن التي مازالت تحت حكم المرابطين . وكان في مقدمة من غادرها الأمير يحيى بن أبي بكر بن علي المعروف بالصحرأوى وهو ابن أخي تاشفين ، وكان قد وفد إليها قبل ذلك بقليل في بعض قواته لإنجاد تاشفين . فلما وقعت الكارثة أسرع في فلوله إلى فاس ، وامتنع بها ، وأخذ ينظم الدفاع عنها . ولم يبق بتلمسان سوى العامة وأهل الحضر ، وبادر جماعة من أعيانها في نحو ستين رجلاً إلى لقاء عبد المؤمن يلمسون منه الأمان ، فلقبهم يصلاتن (يصلاصن) الزناتي في قوة من الموحدين في وادي تافنا القريب ، فقتلهم عن آخرهم ، وطار نياً مصرعهم إلى تلمسان . فسرى إلى أهلها الرعب والروع ، وسادت بها الفوضى .

ودخل عبد المؤمن وجنده الموحدون تاجررت في غداة عيد الفطر ، فقتلوا أهلها ، واقتسموا دورها . ثم غادروها إلى تلمسان . وكان يسودها الوجوم والفرع . فلما اقترب الموحدون منها خرج الأعيان والطلبة ، يسعون إلى لقاء عبد المؤمن والتماس العفو منه ، فأقبل يصلاتن وجنده وجردهم من ثيابهم ، وقتلوا جماعة منهم ، تحت نظر الخليفة ، والشيخ أبي إبراهيم أحد أصحاب العشرة ، ثم دخل عبد المؤمن المدينة ، وقتل الموحدون كثيراً من أهلها^(١) . ويؤيد هذه الرواية ويعززها صاحب الحلل الموشية . فيقول لنا إن عبد المؤمن دخل تلمسان عنوة وقتل أهلها وسبي حريمها ، ودخل كل واحد من الموحدين من الموضع الذي يليه ، فأخذوا منها من الأموال ما لا يحصى ، وقد بلغ فيها عدد القتلى ، وفقاً لابن اليسع مائة ألف أو تزيد .

وفي رواية أخرى أن عبد المؤمن استباح أهل تاجررت وقتلهم لما كان معظمهم من حشم اللمتونيين ، وعفا عن أهل تلمسان . وفي رواية ثالثة أن عبد المؤمن لم يدخل تلمسان فوراً ، ولكنها امتنعت عليه ، واضطر إلى محاصرتها ، وأنه لبث وقتاً على حصارها ، وأخبار الفتوح والبيعات ترد عليه ، وأنه ترك على حصارها إبراهيم بن جامع وغادرها إلى فاس^(٢) . بيد أنه يبدو أن الرواية

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ١٨ ، والحلل الموشية ص ١٠١ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١ .

الأولى هي الرواية الراجحة ، وأنه ليس من المعقول أن تصمد تلمسان في مثل هذه الظروف ، أمام جيش مظفر مثل جيش عبد المؤمن ، يندفع في فتوحه كالسيل يحمل من يصادره . هذا ، وربما كان فيما يقول ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين ، ما يرفع هذا التناقض بين الروايتين ، فهو يقول لنا إنه لما استقر عبد المؤمن بتلمسان بعد استشهاد من استشهد ، امتنعت عليه قصبها ممن فيها ، فوضع عليها الحصار ، ولما رحل إلى فاس ترك عسكرياً لیتابع حصارها (١) . ومن ثم فقد لبث عبد المؤمن ، وفقاً للرواية الأولى في تلمسان سبعة أشهر ، ليستريح ويرقب شئون الفتوح في تلك المنطقة . ومن المعروف مما تقدم أن عبد المؤمن كان من أهل تاجرا (تاجررت) وبها كان مسقط رأسه ، وأن أمه تنتمي إلى قبيلة كومية ، وموطنها يقع في نفس المنطقة جنوب تاجرا . وإذا فقد كان من الطبيعي أن يتمهل عبد المؤمن قليلاً في تلك الربوع ، التي نشأ فيها وترعرع . ولما تم تنظيم الشئون ، ندب عبد المؤمن للولاية على تلمسان ، سليمان بن محمد بن وانودين الهنتاني ، ثم غادرها في قوائمه في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ (أكتوبر ١١٤٥ م) ، قاصداً إلى مدينة فاس .

(١) أورده البيان المغرب ، القسم الثالث - ص ١٩ .

الفصل الخامس

نهاية الدولة المرابطية

في المغرب

الدولة المرابطية في طور الاختصار . ولاية الأمير أبي إسحاق إبراهيم والخلاف حولها . مسير عبد المؤمن إلى وجدة ودخولها في الطاعة . مسيره إلى أجريسيف واقتحامها . زحفه على فاس ونزوله بالمقرمدة . خروج المرابطين بقيادة الصحراوي ، واشتباكهم مع الموحدين . مسير عبد المؤمن إلى وادي سبو ونزوله في عقبة البقر . احتلاله لجبل العرض . إرساله حملة لمحاصرة مكناسة . خروج المرابطين منها وفتحهم بالموحدين . مسير عبد المؤمن بنفسه إلى مكناسة . محاصرة الموحدين لفاس . قطعهم للنهر وإغراق مياهه للوادي . اتصال الجياني المشرف على المدينة بالموحدين . غدره بالصحراوي وفتح باب المدينة . دخول الموحدين فاس وفرار الصحراوي . قدوم عبد المؤمن من مكناسة ودخوله فاس . قتله لأشياخ المرابطين وهدمه لأسوار المدينة . مسيره إلى مكناسة ثم إلى سلا . سقوط مكناسة في أيدي الموحدين . مسير عبد المؤمن إلى وادي أم الربيع وخضوع صنهاجة ودكالة . وفود ابن ميمون قائد الأسطول المرابطي ودخوله في الطاعة . وفود رسل أهل سبتة . مسير عبد المؤمن في قواته إلى مراکش . نزوله فوق جبل إيجليز . محاصرة الموحدين لمراكش . حالة المرابطين داخل المدينة . خروجهم لقتال الموحدين . هزيمة المرابطين وارتدادهم إلى الداخل . وفود أشياخ القبائل على عبد المؤمن . وفود الأندلس إليه . توحيد إسحاق بن ينتان . امتداد الحصار وسمود المدينة . استعمال الموحدين للسلام واقتحامهم الأسوار . دخول الموحدين مراکش ومقاومة أهلها اليائسة . اقتحام القصبية والتبض على الأمير إبراهيم وآله وخاصته . استباحة الموحدين لمراكش ، وقتلهم الذريع لأهلها . مقتل إبراهيم بن تاشفين وأمراء وأشياخ لمتونة . دخول عبد المؤمن المدينة ثم عوده إلى محلته . منع الدخول والخروج من المدينة . اعتبارها مدينة رجسة وتطهيرها وهدم جوامعها . جمع السبي والأسلاب ، وصف مراکش في هذا العهد . دخول الموحدين قصبية تلمسان . وفود وفد إشبيلية على عبد المؤمن .

— ١ —

لم يكن ثمة شك ، بعد أن انهار سلطان المرابطين ، في المغرب الأوسط ، وفي المغرب الشمالي ، على هذا النحو الحارف ، وبسط الموحدون الظافرون سلطانهم ، على سائر القواعد الجنوبية ، فيما خلا مراکش ، وسائر الثغور الشمالية ، فيما خلا الركن الشمالي الغربي — لم يكن ثمة شك في أن الدولة المرابطية ، كانت تسير إلى نهايتها المحتومة بسرعة مذهلة .

وكان تبدد قوى الدولة المرابطية ، واستنفاد مواردها ، خلال هذه المعركة

الطويلة التي استمرت منذ قيام محمد بن تومرت المهدي ، زهاء عشرين عاما ،
وتوالى الهزائم على الجيوش المرابطية ، معركة بعد أخرى ، وتمزق صفوفها ،
وفناء عديدها . وهبوط روحها المعنوي ، من جراء هذا الإدبار المستمر - كان
ذلك كله مما يؤذن بأنه مهما كانت المقاومة المريرة اليائسة ، التي يمكن أن تبذل
في المرحلة الأخيرة ، من ذلك الصراع الرهيب ، فإنها لن تغني شيئا ، ولن
نحول دون وقوع الكارثة المرتقبة ، التي أخذت طوالها تبدو قوية في الأفق ،
ولاسيما بعد مصرع الأمير تاشفين بن علي ، وتبدد جيوشه الضخمة على هذا
النحو الشامل .

والواقع أن الدولة المرابطية لم تعد بعد هذه الضربة القاضية ، سوى شبح
هزيل . ففي مراکش . كان يمثل الفصل الأخير من مأساة الدولة المحتضرة ،
وذلك حينما بويع في مراکش ، على أثر مصرع تاشفين ، لولده الأمير أبي إسحاق
إبراهيم ، وكان أبوه قد ولاه ولاية عهده ، منذ وفوده عليه في تلمسان في أواخر
سنة ٥٣٨ هـ حسبها تقدم ، ثم وجهه إلى مراکش ، وذلك قبيل وفاته بنحو شهر .
على أن هذه البيعة التي تمت في أدق الظروف التي كانت تواجهها الدولة المرابطية ،
لم تقع دون خلاف . فإن إسحاق بن علي عم الأمير إبراهيم ، خرج عليه ودعا
لنفسه بالإمارة ، ووقع الجدل والتطاحن بين الفريقين داخل العاصمة المرابطية .
وكان الموحدون في ذلك الوقت نفسه يقتربون من فاس ، والوفود والحشود ،
تتري من كل صوب على عاهلهم عبد المؤمن ، فزيد جموعه ، وتعزز قواه .
ويصف لنا البيدق ، مؤرخ الحملة ومرافقها ، مسير عبد المؤمن ، فيقول لنا إنه
نزل على وجدات (وجدة) فأخذها ، ووجد أهلها (١) . هذا في حين أن صاحب
البيان المغرب يذكر لنا أن الموحدين استولوا على وجدة قبل ذلك بعامين
(٥٣٨ هـ) (٢) . وسار عبد المؤمن بعد ذلك إلى أجرسيف ، وهي تقع في منتصف
المسافة بين تلمسان وفاس ، فنزل عليها ، ولقي الموحدون بعض المقاومة من بعض
زعماء تلك الناحية ، فجرد عليهم عبد المؤمن بعض قواته ، فزقت جموعهم
وقتلهم ، ودخل أجرسيف ، ثم غادرها إلى فاس ، ونزل بالمقرمدة التي تقع على
مقربة من جنوب شرقي فاس ، وكان يحيى بن أبي بكر الصحراوي ، قد قدم

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٩٨ .

(٢) البيان المغرب في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر (هسپرس ص ١٠٨) .

إليها في جموعه من تلمسان كما تقدم ، وأخذ ينظم خطط الدفاع عنها . وكان عبد المؤمن يتوق إلى الوقوف على مدى استعداد المدينة للدفاع ، ومبلغ القوى المدافعة عنها . ذلك أنه بالرغم من وفرة جموعه التي تتألف حسبما تقول الرواية ، من ثمانين ساقا على عدد القبائل والوفود ، كان يريد التحوط للمفاجآت ، ويرمي إلى الاستيلاء على فاس ، بأقل التضحيات الممكنة . فبعث ألفاً من المشاه نصفهم من صنهاجة ، والنصف الآخر من هسكورة ، بقيادة أبي بكر بن الجبر ، فعبر بهم نهر سبو ، وصعد إلى جبل زالاغ الذي يشرف على فاس من الشمال ، وأوقد الموحدون النيران ليلا فوق الجبل ، فلما رأى أهل فاس نيران الموحدين على مقربة من مدينتهم ، اضطربوا وماجوا ، وخرج الصحراوي في قواته لقتال الموحدين ، وفي صباح الغد نشب القتال بين الفريقين ، وقدر الموحدون قوة أعدائهم بنحو ألف وخمسمائة ، ما بين لمتونة وأهل فاس . وفي العصر ارتد الصحراوي بقواته إلى داخل المدينة .

وفي الليلة التالية ، عاد الموحدون إلى إيقاد الزيران ، ولكن الصحراوي لم يخرج إلى القتال في تلك المرة . وفي صباح اليوم التالي ، سار عبد المؤمن في قواته إلى وادي نهر سبو ، ونزل في موضع يسمى « عقبة البقر » فمالت حشوده السهل والوعر ، هذا والصحراوي وأهل فاس ، يشهدون هذه الجموع الحرارة من فوق الأسوار ، فيملأهم منظرها رهبة وروعاً . وفي اليوم التالي ، تحرك عبد المؤمن في قسم منتخب من جيشه ، إلى موضع يعرف « بمنزل الحاج » وخرج الصحراوي في خيله إلى جبل العرض ، الواقع في شمال غربي المدينة ، يفصله عن الموحدين واد يسمى « بسد رواغ » . ولم يقع في ذلك اليوم قتال بين الفريقين . وارتد الموحدون إلى السهل الشاسع ، وبقى عبد المؤمن في « منزل الحاج » على قدم الأهبة ، في ثلاثة آلاف وخمسمائة من رجاله . وارتد الصحراوي بخيله ثانية إلى المدينة .

وفي صباح اليوم التالي ، غادر عبد المؤمن في قواته السهل ، واحتل جبل العرض ، مشرفاً منه على المدينة . وقطع الموحدون الأشجار ، وعملوا منها حول محلهم حاجزاً من الخشب ، ثم بنوا حائطاً من وراء الحاجز حماية لأنفسهم ، ولدوابهم ، واستعدوا لحصار طويل . وبعث عبد المؤمن قسماً من جيشه لمحاصرة مكناسة ، الواقعة على قيد ستين كيلومتراً غربي فاس ، وكان في مكناسة نحو

ثلاثة آلاف فارس من قوى لمتونة من الحشم والروم وغيرهم ، هذا عدا من انضم إليهم من رجال القبائل القرية الموالية . فخرجت هذه القوة من مكناسة بقيادة يدر بن ولحوط اللمتوني واستطاعت أن ترد الموحدين ، وأن تثخن فيهم ، وتغني معظمهم ، فعول عبد المؤمن عندئذ أن يسير بنفسه إلى مكناسة ، وخرج ليلاً في قسم منتخب من جيشه ، وعهد بحصار فاس إلى أبي بكر بن الجبر ، وأبي إبراهيم ، وأبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي . ولما وصل إلى مكناسة ، ضرب حولها الحصار المرهق ، ولبت ينتظر الحوادث .

واستمر حصار الموحدين لفاس زهاء سبعة أشهر أوتسعة حسبما يروى البيهقي^(١) ، وفي داخلها يحيى بن أبي بكر بن علي الصحراوي في قواته ، ومعه أهل فاس صامدون وراء الأسوار ، يخرجون إلى قتال الموحدين من آن لآخر ، ثم يعتصمون بمدينتهم . وأخيراً لجأ الموحدون إلى عملية استراتيجية بارعة . ذلك أنهم قطعوا مجرى النهر الذي يدخل إلى المدينة ، وأقاموا عليه سدداً منيعاً من الحطب والخشب والتراب ، فسالت مياه النهر في الوادي ، وتعالى حتى صارت بحراً تتلاطم أمواجه ، وانهارت بعض أقسام السور من ضغط الماء المتزايد ، وسقط معها باب السلسلة^(٢) . فبادر الصحراوي وجموعه إلى إصلاح ما تهدم من السور ، واجتمع المدافعون فوق الأسوار ، ونشبت بينهم وبين الموحدين معارك عديدة . وقد كان حرياً أن يطول حصار فاس ، لولا أن عجل بنهايته ما حدث داخل المدينة ذاتها . ذلك أنه حدث بين يحيى بن علي ، وبين أبي محمد عبد الله بن خييار الحياني المشرف على المدينة ، خلاف من جراء اشتداد يحيى في مطالبة الحياني بالأموال ، بطريقة أرهقته ، وحملة على أن يتصل سراً بقائد الموحدين أبي بكر ابن الجبر ، وأن يعده بفتح أبواب المدينة ، وكانت لديه مفاتيحها . وساعدت الظروف الحياني على تحقيق مشروعه . ذلك أن يحيى الصحراوي ، أعرض بامرأة من قومه . فبعث إليه الحياني بهدايا جليلة من الطعام والشراب ، وشغل الصحراوي في تلك الليلة بعرضه وطعامه وشرابه^(٣) . وفي صباح اليوم التالي ، أوفى الحياني

(١) أخبار المهدي ابن تومرت صفحة ١٠٢ .

(٢) روض القرطاس صفحة ١٢٣ .

(٣) الحلة السيرا ، في القسم الذي نشره المستشرق ميلر ، ضمن مجموعة بعنوان :

(Beiträge zur Geschichte des Westlichen Araber) ص ٣١٥ - ٣١٨ .

بوعده ، وفتح « باب الفتوح » ، فتدفق منه الموحدون إلى داخل المدينة ، وخرج الجياني فانضم إليهم . ولما شعر الصحراوي بوقوع الكارثة ، بادر بالفرار مع نفر من صحبه ، واخترق الوادي دون أن يلوى على شيء ، حتى وصل إلى طنجة . وكان دخول الموحدين مدينة فاس ، حسبما يروى ابن صاحب الصلاة ، في صباح اليوم الثاني عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٤٠ هـ (٢٦ أبريل سنة ١١٤٦ م)^(١) .

وظاهر مما يرويه البيدق وابن عذارى ، أن عبد المؤمن لم يكن حاضراً ، وقت دخول الموحدين فاس ، وأنه كان عندئذ على حصار مكناسة^(٢) ، وهذا ما يقرره ابن صاحب الصلاة وابن خلدون بطريقة واضحة^(٣) . ولكن صاحب الحلل الموشية من جهة أخرى ، يذكر أن الجياني اتصل بعبد المؤمن ذاته ، وأدخله المدينة من باب الفتوح^(٤) . بيد أنه من الواضح أن الرواية الأولى ، وهي التي يؤيدها البيدق مرافق الحملة ، وابن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين ، هي الرواية الراجحة . ولما علم عبد المؤمن ، وهو بمكناسة ، بسقوط فاس ، قدم إليها بسرعة ودخلها ، وولى عليها أبا إسحاق بن جامع^(٥) ومشرفها الجياني ، وأمر بقتل كل من قبض عليهم من أشياخ المرابطين ، إلا عمر بن ينتان وزير علي ابن يوسف السابق ، وهو الذي تعرض لحماية المهدي ابن تومرت ، وصرف على ابن يوسف عن إيذائه ، حسبما تقدم في موضعه ، وكان المهدي نفسه قد نبه عن قتله وقتل ذريته ، فاكتفى عبد المؤمن باعتقاله^(٦) .

وأمر عبد المؤمن بهدم أسوار فاس ، فهدم معظمها ، وصرح عبد المؤمن بأن الموحدين لا يحتاجون إلى أسوار ، وإنما الأسوار هي سيوفهم ، وبقيت فاس بلا أسوار عصراً ، حتى قام بتشييدها من جديد ، حفيده الخليفة

-
- (١) البيان المغرب ، القسم الثالث ، صفحة ٢٠ .
(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠١ ، والبيان المغرب (القسم الثالث) ص ١٩ .
(٣) البيان المغرب عن ابن صاحب الصلاة ، القسم الثالث ، ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .
(٤) الحلل الموشية ص ١٠١ .
(٥) هذا ما ورد في البيان (القسم الثالث ص ٢٠) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ . ولكن البيدق يذكر لنا أن الذي ولى على فاس ، هو أبو عبد الله محمد بن يحيى الكدميوي (أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٢) .
(٦) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٢ .

يعقوب المنصور ، ثم ولده الناصر ، وذلك في سنة ٦١٠ هـ (١٢٠٣ م) (١) .
ولم يمكث عبد المؤمن في فاس سوى أربعة أيام قام فيها بتنظيم شئون المدينة
المفتوحة ، ثم غادرها في جموع الموحدين إلى مكناسة ، وهناك عهد بمتابعة
حصارها لقائده أبي زكريا بن يومور . ثم غادرها إلى سلا . وضيق الموحدون على
مكناسة ، وبنوا حولها سوراً ، وحفروا أمامه خندقاً ، وتركوا فيها ثغرات
لمهاجمة المدينة ، ومقاتلة المدافعين عنها ، فلم تلبث أن سقطت في أيديهم . وعين
عبد المؤمن ابن يومور والياً لها . ويبدو من رواية البيهقي أن عبد المؤمن حضر
سقوط مكناسة . ثم يقول لنا إنه غادرها إلى تادلا ، وهناك ميز جنوده ، وانضمت
إليه هسكورة وصنهاجة ، ثم سار في قواته إلى وادي أم الربيع ، واخترقه شرقاً
حتى ثغر أزموور ، وهناك حملت إليه صنهاجة المؤمن ، واستدعى أشياخ دكالة
جيرانهم في الجنوب ، فوفدوا عليهم وأعلنوا خضوعهم الأول . ثم هبط بعد
ذلك إلى مراکش (٢) .

هكذا يصف لنا البيهقي مسير عبد المؤمن إلى مراکش . ولكن سائر الروايات
الأخرى تجمع على أن عبد المؤمن ، حينما غادر مكناسة ، سار منها أولاً إلى سلا ،
وافتحها بعد مقاومة قصيرة ، وذلك في اليوم السابع من شهر ذي الحجة سنة ٥٤٠ هـ .
واستولى كذلك على قصبه الرباط التي كان قد بناها الأمير تاشفين ، وعين والياً
لسلا عبد الواحد الشرقي ، وبعد أن مكث بها أربعة أيام غادرها إلى مراکش (٣) .
وكان عبد المؤمن حين وجوده تحت أسوار فاس (سنة ٥٤٠ هـ) ، قد وفد
عليه قائد الأسطول الأندلسي المرابطي علي بن عيسى بن ميمون ، وقدم
طاعته ، ثم عاد إلى الأندلس ، وأقام الخطبة للموحدين بجامع قادس ، وهي
مركز قيادة الأسطول في تلك المنطقة . ثم وفدت على عبد المؤمن خلال مسيره
إلى سلا ، رسل أهل سبتة يحملون إليه بيعتهم . فتقبلها منهم ، وندب للولاية على
سبتة يوسف بن مخلوف التينملي من مشيخة هنتاته (٤) .

(١) روض القرطاس ص ١٣٣ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٢ .

(٣) الحلال الموشية ص ١٠٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٢

ص ٢٣ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

وكان عبد المؤمن قد بعث في نفس الوقت قبل مسيره إلى مراکش حملة بقيادة أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي لغزو قبائل برغواطة ، النازلة على الشاطئ شمالي أزموور وجنوبها ، فاقتحم ديارهم ، واستاق غنائمهم ، ثم ارتد أدراجه ، فالتقى بعبد المؤمن ، وهو في طريقه إلى مراکش ، فقسم الغنائم على الموحدين ، ثم تابع سيره إلى العاصمة المرابطية .

ولما وصل جيش الموحدين إلى ظاهر مراکش ، خرج إليه جمع كبير من طلائع ملتونة ، فلما رأوا كثرة الموحدين ، سرى إليهم الرعب وبادروا إلى الفرار نحو أسوار المدينة ، فأدركهم الموحدون وقتلوا عدداً كبيراً منهم . وعلم عبد المؤمن كذلك أن قوات كبيرة من قبيلة لمطة ، قد وفدت على المدينة نصرمة للمدافعين عنها ، فطاردهم الموحدون ، وأثخنوا فيهم ، وانتزعوا منهم آلافاً من الدواب وغيرها من الغنائم (١) .

وكان نزول الموحدين على مراکش في فاتحة شهر المحرم سنة ٥٥٤١ (١٣ يونيو سنة ١١٤٦ م) . وفي الحال احتل عبد المؤمن بقواته جبل إيجليز الواقع غربها ، وضرب فوقه قبة الحمراء ، وبني الموحدون حولها محلة أو مدينة كبيرة يتوسطها مسجد وصومعة عالية ، تشرف على مراکش ، ونزلت فيها القبائل ، كل قبيلة في الموضع الذي حدد لها (٢) . وكان إقامة هذه المدينة دليلاً على ما كان يتوقعه الموحدون من طول المدافعة والحصار .

وضرب الموحدون الحصار حول العاصمة المرابطية . وكانت مراکش تموج بجموع المدافعين عنها ، من بقايا الجيوش المرابطية الكبرى ، من مختلف الحشود والقبائل . وكان منهم قوة من النصارى المرتزقة ، هي بقية الحرس الملكي القديم . بيد أن هذه الجموع الحاشدة ، كانت تنقصها القيادة الحازمة ، وكانت تعاني من هبوط قواها المعنوية ، وكان على عرش مراکش في تلك الآونة الدقيقة ، صبي حدث لم يجاوز السادسة عشرة من عمره ، هو أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي . وكان يقود هذه المعركة الأخيرة نفر من أشياخ ملتونة ، مثل سير بن الحاج ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١ و ٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٠٢ .

وإسحاق بن ينتان ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانجالا وغيرهم ، وكان الشعور عاماً بأن مصير الدولة المرابطية أضحي أمراً مقضياً ، وأنها لم تكن سوى معركة يأس ، تملها غريزة الاحتفاظ بالنفس ، والتعلق بأوهى الاحتمالات والآمال . وهكذا فإن الموحديين ، ما كادت تستقر حشودهم حول العاصمة المرابطية ، حتى اعتزم المرابطون أن يخرجوا لقتالهم . وخرجت قوة مراطية قوامها نحو خمسة آلاف وخمسمائة فارس ، وحشود لا تحصى من المشاة ، يقودها إسحاق ابن ينتان ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانجالا ، وسارت إلى محلة الموحديين . ويقول لنا البيدق إن القتال الذي نشب بين الفريقين ، استمر أربعة أيام . وفي اليوم الخامس ، رتب عبد المؤمن من جنده عدداً من الكمائن المستورة ، وخرج المرابطون إلى القتال كالعادة ، فلقبهم الموحدون في حشود قليلة ، واغتر المرابطون بتفوقهم ، بيد أنه ما كاد يتعالى النهار ، حتى خرجت الكمائن الموحدية من أماكنها ، وحملت على المرابطين بشدة ، فانهزموا في الحال ، وارتدوا على أعقابهم نحو الأسوار ، والقتل متخن فيهم ، حتى وصلوا إلى باب دُكالة ، أو باب الشريعة على قول البيدق ، فقتل منهم عدد جم ، واستولى الموحدون على نحو ثلاثة آلاف من خيلهم وامتنعت فلولهم بداخل المدينة^(١) .

وفي خلال ذلك كانت الوفود والحشود ، تترى على جيش عبد المؤمن ، ويفد عليه أشياخ القبائل وزعمائهم موحديين معلنين لطاعتهم . وكان ممن وفد عليه في تلك الفترة بعض زعماء الأندلس الثائرين على سلطان المرابطين ، مثل أبي الغمر بن غرون الثائر بشريش ، وابن حمدين الثائر بقرطبة . وأرسل عدد آخر من زعماء الأندلس الذين شعروا بانهيار سلطان المرابطين ، كذلك رسلهم إلى عبد المؤمن^(٢) . ولم تقع بعد هزيمة المرابطين الكبيرة في ظاهر باب دُكالة ، بين الفريقين معارك ذات شأن ، اللهم إلا ما يقصه علينا البيدق ، من خروج ابن ينتان لقتال الموحديين من آن لآخر . ثم ما وقع بعد ذلك من إرسال الموحديين زعيم بني ينتان الذي كان قد « وحّد » إليه أعني إلى إسحاق بن ينتان ، وتقديم إسحاق بطاعته وتوحيده ، وخروجه من المدينة مع أنصاره ، وانضمامه إلى الموحديين^(٣) .

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٢ و ١٠٣ ، والبيان المغرب (عن ابن صاحب الصلاة)
القسم الثالث ص ٢٢ ، والحلل الموشية ص ١٠٣ .
(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ .
(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٣ .

واستطال حصار مراکش أكثر من تسعة أشهر ، وشدد الموحدون في تطويق المدينة ، وقطع علائقها مع الخارج ، حتى أضحى من المتعذر ، أن يدخلها داخل أو يخرج منها خارج . كل ذلك والمدينة صامدة في وجوه المحاصرين . والظاهر أن الموحدين لم يقوموا خلال تلك الفترة بهجمات شديدة على المدينة ، وأنهم كانوا يكتفون بالمحاولات الخزئية . والظاهر أيضاً أنه لم تنجح كذلك ، أية محاولة من هذه المحاولات ، في اقتحام أية ناحية من المدينة ، أو ثلم أية ناحية من الأسوار . وفي خلال ذلك كان أهل المدينة يعانون ويلات الحصار ، وتنضب الموارد والمؤن تباعا ، حتى نفذت الحبوب والمواد الغذائية ، وفنيت الدواب ، وختلت المخازن السلطانية من مخزونها ، وتساقطت الألوف العديدة من الجوع . وتقدر الرواية عدد من هلك جوعاً من أهل مراکش في تلك المحنة بنيف ومائة وعشرين ألفاً ، وعجز الحند عن الحركة والدفاع ، وأضحت النهاية المحتومة على الأبواب . ولما شعر عبد المؤمن بأن الضيق بلغ ذروته بالمحصورين ، وأن المدينة أصبحت عاجزة عن كل دفاع ، اعترم أن يضرب الضربة الأخيرة . وكان قد مضى على الحصار عندئذ تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . وتختلف الرواية فيما اقترن بتلك الخطوة الأخيرة . ويقول لنا البيدق وهو من شهود الحصار ، إن الخليفة أمر باستعمال السلام لصعود الأسوار ، وقسمها على القبائل ، وأن الموحدين دخلوا المدينة على أثر ذلك . بيد أن صاحب الحلل الموشية يقدم لنا عن ابن اليسع الذي عاش قريباً من العصر ، رواية أخرى مفادها ، أن جيش الروم أو النصارى المرتزقة الذين كانوا داخل المدينة ، اتصلوا بعبد المؤمن واستأمنوه ، ففتحهم الأمان ، واتفقوا معه على أن يدخلوه المدينة من «باب أغمات» الواقع في جنوبها الشرقي ، وعندئذ أمر عبد المؤمن بعمل السلام . وفي يوم السبت الثامن عشر من شوال سنة ٥٤١ هـ (٢٤ مارس ١١٤٧ م) دفع الموحدون السلام إلى الأسوار ، وخصت القبائل كل قبيلة بباب معين ، وأقبل أهل مراکش يبذلون آخر محاولة للدفاع . وكانت بالطبع محاولة يائسة . فاقتحم الموحدون المدينة ، ودخلوها من كل صوب ، فدخلت هنتاتة ، وأهل تينملل من باب دُكالة ، في شمالها الغربي ، ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين في شرقها ، ودخلت هسكورة مع القبائل الأخرى من باب بيتتان . ولم يأت الظهر حتى استولى الموحدون على مراکش . ولجأ الأمير إبراهيم ابن تاشفين وجماعة من الخاصة والأعيان ، إلى القسبة الداخلية المعروفة « بقصر

الحجر» وهي قلعة منيعة ، فاستمر القتال حتى الزوال ، وكثر القتل في المدافعين وأهل المدينة ، واقتحم الموحدون القصبة ، وقبضوا على الأمير إبراهيم ومن معه من الأمراء والكبراء ، والأهل والولد ، وأخذوهم إلى محلة عبد المؤمن ، فوق تل إجليز ، لتقرير مصيرهم (١) .

وهكذا اقتحم الموحدون مراکش ، ودخلوها بالسيف على النحو الذي تصفه لنا الرواية المعاصرة . ويضيف مؤرخ معاصر آخر هو ابن الأشرى إلى ذلك قوله ، إن أهل مراکش بعد هزيمة باب دكالة ، أيقنوا بالهلاك ، وأن المحلة الموحدية انتقلت إلى دار الفتح وسط البحيرة (أى البستان) ، في صدر شوال سنة ٥٤١ هـ ، فلم تزل هناك ، وأمر المدينة في كل يوم يزداد ضعفاً ، وأحوالها ترق ، إلى أن كان يوم السبت السابع عشر من شوال ، ففتحت مراکش ودخلها الموحدون (٢) .

بيد أن ابن خلدون يقدم إلينا رواية أخرى خلاصتها ، أنه لما أجهد الحصار أهل مراکش ، وفتك بهم الجوع ، برزوا إلى قتال الموحدين ، ف وقعت عليهم الهزيمة ، وتبعهم الموحدون بالقتل ، واقتحموا عليهم المدينة . ومعنى ذلك أن مراکش سقطت على أثر معركة ، نشبت خارج الأسوار ، بين المرابطين والموحدين (٣) .

ويبدو من مختلف التفاصيل ، أن مراکش لم تسقط في أيدي الموحدين إلا بعد دفاع مرير ، بذل فيه المرابطون وأهل المدينة جهوداً رائعة ، بالرغم مما كان يحيط بهم من الظروف الأليمة ، وقتل فيه من المرابطين والمدنيين ، حسبما يقول لنا ابن اليسع نيف وسبعون ألف رجل (٤) . ومن المواقف الرائعة الحديرة بالإعجاب ، ما يقصه علينا البيذق من أن فانتو بنت عمر بن يينتان ، وهي فتاة بارعة الحسن ، وافرة المرأة ، كانت تقاتل الموحدين أمام القصر (القصبة) في ثياب فارس . وكان الموحدون ، حسبما يقص علينا البيذق يتعجبون من قتالها ، ومن شدة ما أعطتها الله من الشجاعة ، ولم يعرفها الموحدون حتى قتلت وتبين أنها امرأة في ثياب رجل (٥) .

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣ ، والحلل الموشية ص ١٠٣ و ١٠٤ . وراجع خريطة مراکش السابق نشرها في ص ١٨٧ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣ و ٢٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٤) الحلل الموشية ص ١٠٤ .

(٥) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٣ .

ولم يكتف الموحدون ، بما أوقعوا من الفتك الذريع بالمرابطين وأهل المدينة ، ولكنهم أعلنوا استباحة مراکش فيما يصفه ابن الخطيب « بالحنة العظمى » . وذلك أنهم قرروا استباحة دماء كل من اشتملت عليه من الذكور البالغين . واستمر بها القتل الذريع ثلاثة أيام أخرى ، ولم ينج من أهلها إلا من استطاع الاختفاء في سرب أو غيره . وطورد اللمتونيون بالأخص أشد مطاردة ، واستصلوا أينما وجدوا . ثم أعلن عبد المؤمن بعد ذلك عفوّه عن أهل المدينة المفتوحة . قال ابن الخطيب « فظهر من جميع الخلق بها ، ما يناهز السبعين رجلا ، وبيع أسارى المشركين ، هم وذراريهم ، وعفى عنهم »^(١) . وقال صاحب البيان الغرب ، إن مراکش أبيحت لقتل من وجد فيها من اللمتونيين مدى ثلاثة أيام ، ثم عفا عنهم عبد المؤمن ، واشتراهم من الموحدين ، وأعتقهم وأطلقهم . واستولى عبد المؤمن على ذخائر تاشفين وجميع أمراء لتونة ، مما لا يحيط به حصر ولا وصف ولا بيان .

ولم يكن مصير الأمير الصبي إبراهيم آخر ملوك الدولة المرابطية ، وزملائه من أشياخ لتونة ، بأقل روعة . ذلك أنهم اقتيدوا حسبما قدمنا ، إلى قبة عبد المؤمن فوق تل إيجليز . وكان إبراهيم قد قبض عليه مع الآخرين في القصبة . وقيل إنه وجد مختفياً في إحدى غرف القصر في كومة من الفحم^(٢) . فلما أخذ إلى عبد المؤمن ، أشفق عليه ورثا لمحنته وصغر سنه ، ومال إلى العفو عنه والإبقاء عليه . ويقص علينا البيدق وهو شاهد عيان ، أن الأمير الفتي كان يتضرع إلى عبد المؤمن ، ويقول له يا أمير المؤمنين مالي في الرأى شيء ، فيقول له وصيفه طلحة « أصمت عنا ، هل رأيت ملكاً يتضرع لملك مثله » . وفي رواية أخرى أن سير بن الحاج أحد أشياخ المرابطين ، لما رأى تضرع إبراهيم لعبد المؤمن ، تفل في وجهه وقال له « أترغب إلى أبيك ومشفق عليك ، اصبر صبر الرجال » . وعلى أى حال فقد تأثر عبد المؤمن لضراعة الأمير الفتي ، وقال لأبي الحسن بن واجاج (وهو من أهل خمسين) ، وكان قد قتل بيده عدة من أمراء وأشياخ لتونة عقب إحضارهم إلى تل إيجليز « أترك هؤلاء الصبيان ، ما الذى تعمل بهم » ، فصاح به أبو الحسن « ارتد علينا عبد المؤمن ، يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة » ، فغضب الخليفة ، وغادر

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣ .

مكانه وتبعه الموحدون إلا أبا الحسن ، والشيخ أبا حفص ، فاقتاد أبو الحسن
الأمير إبراهيم وقتله ، ثم جذبوا طلحة ، وصيفه ليقتلوه ، فلما اقترب من
أبي الحسن ، استل خنجرأ كان يحتفظ به ، وطعن أبا الحسن وقتله ، وقتله
الموحدون على الأثر ، ويضيف البيهقي إلى ذلك أن أبا الحسن كان قد أوثق زهاء
ألف رجل من أبناء دكالة ليقتلهم ، فلما قُتل أطلق سراحهم . وعنى عنهم (١) .

وهكذا زهق أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ،
صبيأ في السادسة عشرة من عمره ، بعد أن حكم حكمه الإسمي المنكوب مدى عامين ،
وزهق ضحية بريئة للحوادث ، دون أن يضطلع منها بشيء ، أو يعقد أو يحل
منها أمراً ذا خطر ، وقد كان حريأ برجل عظيم مثل عبد المؤمن أن يحقن دم هذا
الأمير الصغير ، لو أنه استعمل الصرامة والحزم مع أولئك الأتباع الظمئيين إلى
الدماء . وبموت إبراهيم اختتم ثبت ملوك لتونة ، وانهار عرش بني يوسف
ابن تاشفين ، بعد أن لبث منذ تأسيس مراکش في سنة ٤٦٢ هـ ، ثمانين عاما ،
ترفرف أعلامه الظافرة على أنحاء المغرب ، وخمسين عاما ترفرف فوق جنبات
الدولة المرابطية الكبرى بالمغرب والأندلس .

ويصف لنا البيهقي بعد ذلك مصير أبي بكر بن تيزميت خادم علي بن يوسف ،
وكيف أمر الخليفة بقتله ، لأنه هو الذي قبض على المهدي أيام وجوده بمراكش
وحمله إلى السجن ، وكيف غرر أبو بكر بالموحدين ، وزعم أن لديه بمنزله آنية
ملاى بالذهب ، يريد أن يسلمها للموحدين ، فبعث معه الخليفة باثني عشر رجلا
ليتسلموا الذهب فأغلق الدار عليهم وقتلهم ، وهم يشتغلون بالحفر بحثاً عن الآنية
المزعومة ، فأخذ إلى الخليفة وأمر به فقتل (٢) .

وكان عبد المؤمن قد دخل مراکش على أثر افتتاحها ، ثم عاد منها في الحال
إلى محله ، ورتب الأمناء على أبوابها . وبقيت مراکش بعد ذلك ثلاثة أيام
لا يدخلها ولا يخرج منها أحد . ذلك أن الموحدين ، كانوا يرون ، في غلواتهم
الدينية ، أن مراکش هي مدينة الجسمين وأهل اللثام ، الذين لعنهم المهدي ،
وأفنى بشرتهم وتكفيرهم ، فهي إذن مدينة نجسة ، لاتصلح لنزول الموحدين
الأطهار . وقال أشياخ الموحدين فوق ذلك إن المهدي امتنع عن سكنى مراکش ،

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٥ .

لتشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة ، والتشريق والتحرير ، لغير المسلمين من اليهود وغيرهم . فأشار الفقهاء الموحدون عندئذ بتطير المدينة ، تمهيداً لسكنائها ، ونصحوا بهدم جوامعها القائمة ، بسبب تشريقها وتحريفها عن القبلة . وهكذا هُدم جامع علي بن يوسف هدماً جزئياً ، وهدمت الجوامع الأخرى . وتولى الأمناء جمع السبي والأسلاب من الحلى والسلاح والمتاع وغيرها ، وحملت كلها إلى المخازن ، وبيع النساء في اليوم الرابع ، بعد أن تم تطهير المدينة ، وجمعت أسلابها على هذا النحو ، ودخل عبد المؤمن مراکش ، وقسم أرزاقها ودورها على الموحدين ، فسكنوها بضع أسابيع (١) .

ومما له مغزى بارز ، ما يقصه علينا المراكشي ، من أن عبد المؤمن حين دخوله مراکش ، بحث عن قبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أشد البحث ، فأخفاه الله عنه وستره ، وكان ذلك حسماً يروى المؤرخ ، دليلاً على رعاية الله وعادته الحسنى مع الصالحين المصلحين (٢) .

ويقدم إلينا الإدريسي الذي تجول في أنحاء المغرب وقواعده في أواخر عهد المرابطين (حوالي سنة ٥٣٠ هـ) وصفاً لمدينة مراکش عقب سقوطها في أيدي الموحدين ، يقول فيه ، إنها أى مراکش كانت دار إماراة لمتونة ومدار ملكهم ، وكان بها قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة ، وأزقتها واسعة ، ورحابها فسيحة ، ومبانيها سامية ، وأسواقها مختلفة ، وسلعها نافقة ، وكان بها جامع بناه أميرها يوسف بن تاشفين ، فلما كان في هذا الوقت ، وتغلب عليها المصامدة ، وصار الملك لهم ، تركوا ذلك الجامع معطلاً مغلق الأبواب ، ولا يرون الصلاة فيه ، وبنوا لأنفسهم مسجداً جامعاً يصلون فيه ، بعد أن نهبوا الأموال وسفكوا الدماء ، وأباحوا الحرم ؛ كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالاً . وشرب أهل مراکش من الآبار ، ومياهها كلها عذبة ، وآبارهم قريبة معينة . وكان علي بن يوسف قد جلب إلى مراکش ماء من عين بينها وبين المدينة أميال ، ولم يستتم ذلك ،

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٥ و ١٠٦ . والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٥ .

(٢) المعجب ص ١١٣ . ولو صححت رواية المراكشي ، فإن المرجح هو أن يكون المرابطون ،

قد اصطالحوا على إخفاء قبر يوسف وتجهيله ، حتى لا يخربه الموحدون ، ويعتدوا على رفات البطل المرابطي . ولقد أرشدت في بعض زياراتي لمراكش إلى زاوية صغيرة ، بها صبيان يقرأون ، وقيل لي إن بها قبر يوسف بن تاشفين . ولكني لم أجد أى شاهد أو نقش أو دليل يحمل على الاعتقاد في صحة هذا القول .

فلما تغاب المصامدة على الملك ، تمموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة ،
وصنعوا به سقايات بقرب دار الحجر ، وهي الحظيرة التي فيها القصر منفرداً
متحيزاً بذاته ، والمدينة بخارج هذا القصر ، وطولها أشف من ميل ، وعرضها
قرب ذلك ، وعلى ثلاثة أميال من مراکش نهر لها بسمى تانسيفت ، وليس
بالكبير لكنه دائم الجرى (١) .

وفي نفس الوقت الذي افتتحت فيه مراکش ، دخل الموحدون قصبه
تلمسان ، وذلك في الخامس عشر من شوال سنة ٥٤١ هـ ، أعنى قبل سقوط مراکش
بثلاثة أيام . ووفد على عبد المؤمن عندئذ مع أشياخ الموحدين ، يحيى بن إسحاق
المستوفى المعروف بأنجمار أمير تلمسان السابق ، وكان قد دخل في طاعة الموحدين ،
فشمله عبد المؤمن برعايته ، واحترمت داره وزوجته زينب بنت علي بن يوسف ،
وسائر أصحابه وأسره (٢) .

وحدث خلال وجود عبد المؤمن بمراكش أن قدم عليه من الأندلس وفد
إشبيلية وعلى رأسه القاضي أبو بكر بن العربي المعافى ، بعد مقتل ولده عبد الله
في حوادث إشبيلية ، والخطيب أبو عمر بن الحجاج ، وأبو بكر بن الحد الكاتب ،
وأبو الحسن الزهرى ، وأبو الحسن ابن صاحب الصلاة ، وغيرهم من زعماء إشبيلية
ووجوهها ، فاستقبلهم عبد المؤمن ، وألقى القاضي أبو بكر وبعض زملائه بين
يديه خطاباً بليغاً ، ورفعوا إليه بيعة أهل إشبيلية مكتوبة بخطوطهم ، فاستحسن
عبد المؤمن موقفهم ، وقبل طاعتهم ، وأغدق عليهم الجوائز والصلوات ، وكان
ذلك في أوائل سنة ٥٤٢ هـ . ولما عاد الوفد إلى الأندلس ، توفى القاضي ابن العربي ،
خلال الطريق ، ودفن بفاس في جمادى الآخرة من نفس السنة . وكان مقدم
هذا الوفد البارز ، وهو يمثل أعظم حواضر الأندلس ، من الدلالات الواضحة ،
على تحول ولاء الأندلس بسرعة ، إلى جانب الموحدين . وكان له أثره فيما بعد ،
في إثارة الموحدين لإشبيلية ، واتخاذها حاضرة الأندلس في عهدهم (٣) .

(١) وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق)
للإدريسي (طبعة دوزي) ص ٦٨ و ٦٩ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٢٥ .

(٣) الحلل الموشية ص ١١١ و ١١٢ ، والزركشى في تاريخ الدولتين ص ٦ .

الفصل السادس

الدولة الموحدية

في سبيل التوطد

اختتام الغزوة الموحدية الكبرى . اضطرام الثورة في بلاد السوس . زعيمها الهادي أو الماسي . اتساع نطاقها وخلع القبائل لطاعة الموحدين . مسير الموحدين لقمع الثورة بقيادة الشيخ أبي حفص عمر . لقاء الموحدين وقوات الماسي في وادي ماسة . هزيمة الماسي ومصرعه وتمزيق جموعه . الجندي الكاتب أبو جعفر بن عطية ورسالته عن الموقعة . إعجاب أبي حفص بها . إعجاب الخليفة واستدعاؤه لابن عطية ، وتقليده خطة الكتابة . مضاردة أبي حفص للقبائل الخارجة وتمزيقها . غزوه لأراضي برغواطة . نزول يحيى الصحراوي في سبتة . غدره بابن ميمون وقتله . دور القاضي عياض في حوادث سبتة . انتقاض أهل سبتة ومقتل واليها الموحدي . مسير الصحراوي من سبتة إلى سلا ثم إلى أراضي برغواطة . اجتماع برغواطة ودكالة ورجراجة وحاحة حوله . عبد المؤمن يرسل إلى برغواطة حملة جديدة بقيادة يصلان . مسير يصلان إلى سلا واقتحامها وخضوعها . ثم إلى بني وراغل وإخضاعهم . مسيره إلى طنجة واقتحامها ، ثم إلى سبتة . مبادرة أهل سبتة إلى الخضوع والعمو عنها . عبد المؤمن يجهز الحشود لمقاتلة برغواطة والصحراوي . خروجه في قواته من مراکش ومسيره صوب دكالة ، ثم أزموور . مهاجمته لحشود الثوار وتمزيقهم . فرارهم نحو البحر وغرق الكثير منهم . فرار يحيى الصحراوي وصحبه إلى السوس ثم إلى الصحراء . استيلاء عبد المؤمن على أسلاب برغواطة ودكالة . إذعان برغواطة إلى التوحيد . عودة عبد المؤمن إلى مراکش . نزعة الموحدين إلى القمع الدموي . حادث الاعتراف وقتل المارقين والمعاندين . الجرائد الدموية لمختلف القبائل وعدد القتلى من كل منها . تأملات حول موقف عبد المؤمن من هذا السفك المروع . إخماد ثورة أخرى في برغواطة . مسير عبد المؤمن في قواته إلى سلا . إنشاؤه لقصبة رباط الفتح . استقباله لوفود الأندلس . اعتزازه ففتح بجاية وبواعث هذا القرار . مسيره صوب بجاية من طريق ملتوية . استيلاءه على جزائر بني مزغنة . بنوحامد أصحاب بجاية والقلعة . قلعة بني حماد وموقعها . انتقالهم إلى بجاية . استيلاء عبد المؤمن على بجاية وما يقال في ذلك . استيلاء عبد الله بن عبد المؤمن على القلعة . سقوط بونة وقسنطينة في أيدي الموحدين . مسير يحيى بن العزيز صاحب بجاية صحبة عبد المؤمن إلى مراکش . وصف بجاية في هذا العهد . الصدام بين الموحدين والعرب في هذه المنطقة . هزيمة العرب وتمزيق حشودهم . ثورة صنهاجة قرب بجاية وإخمادها . مسير عبد المؤمن إلى تلمسان ثم إلى فاس ومكناسة وسلا فراكش . مؤامرة أخوي المهدي براكش . إخمادها وإعدام المتآمرين . قيام عبد المؤمن بحركة تطهير جديدة . عبد المؤمن يدبر مصرع القائد يصلان . ثورة جديدة في السوس . مسير أبي حفص لإخمادها . سحق القبائل الثائرة وأخذ غنائمها وتوحيد بعضها . مسير عبد المؤمن من مراکش إلى تينملل .

وهكذا اختتمت تلك الغزوة الكبرى ، التي اضطلع بها عبد المؤمن بن علي ،
مذ خرج في حشوده الموحدية الحرارة ، من تينملل في سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ،

واستمر زهاء سبعة أعوام يثخن في أنحاء المغرب ، من الجنوب إلى الشمال ، ثم إلى الشرق ثم إلى الجنوب ، ويوقع بالجيوش المرابطية مرة بعد أخرى ، ويستولى تباعاً على قواعد المغرب - اختتمت تلك الغزوة الكبرى باستيلاء الموحدين على حضرة مراکش ، والقضاء على الدولة المرابطية في المغرب .

على أن تحقيق هذه الغاية الجوهرية ، لم يكن نهاية الصراع الذي كان على الموحدين أن يضطربوا به . لتوطيد دولتهم ، والقضاء بصورة نهائية . على كل مقاومة لدعوتهم الدينية . وسلطانهم السياسي ، وذلك أولاً في المغرب . حيث قامت دعوتهم . وانتظمت دولتهم .

ثم كان عليهم بعد ذلك ، أن يتابعوا فتوحهم . فيما وراء البحر ، في الأندلس حيث كانت الدولة المرابطية ، مازالت تحتفظ ببقية من سلطانها ، في شبه الجزيرة ، وفي بعض قواعد الأندلس ، وتحتفظ في نفس الوقت ببقية من قواتها العسكرية . وتفر من أكابر قادتها وزعمائها .

وفي الوقت الذي لاح فيه أن الموحدين ، بفتح مراکش ، قد وصلوا إلى ذروة سلطانهم ، اضطربت أول ثورة خطيرة ضد دعوتهم الدينية وسلطانهم السياسي . وكان ذلك في بلاد جزولة ، غربي بلاد السوس . حيث قام ثائر يدعى محمد بن عبد الله بن هود وتسمى بالهادي . وأصل هذا الرجل من سلا ، وكان قصاراً . فلما ذاعت الدعوة الموحدية ، واستولى الموحدون على سلا ، ادعى الهداية ، وسمى نفسه بالهادي ، ثم سار جنوباً إلى أرض جزولة ونزل برباط ماسة . وذلك في شوال سنة ٥٤١ هـ ، ومن ثم اشتهر كذلك باسم الماسي^(١) ، فتبعه كثير من الناس من مختلف القبائل ، وذاعت دعوته بسرعة مددشة . وسرعان ما استولى على بلاد تامسنا ، وبلاد المصامدة ، وانضمت إليه عدة من القبائل التي كانت تدين بالتوحيد مثل حاحة ، ورجراجة ، وهزميرة وهسكورة ودكالة ، وخاعت معظم القواعد التي توحدت الطاعة ، حتى لم يبق تحت سلطان عبد المؤمن وطاعته ، في وسط المغرب وجنوبه . سوى فاس ومراكش . وكان استفحال الثورة ، واتساع نطاقها على هذا النحو ، دليلاً على أن الدعوة الموحدية ، لم تكن قد تمكنت بعد في نفوس معتنقيها ، وأنهم لم يدينوا بها إلا تحت سلطان الضغط

(١) الخلل الموشية ص ١١٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٦ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الماسي حضر فتح مراکش مع عبد المؤمن وبايعه ثم خرج عليه (ص ١٢٣) .

والإرهاب المادى . والواقع أن وسائل الموحدين فى نشر دعوتهم لم تكن حسبما رأينا مما فصلناه من قبل ، رفيقة ولا إنسانية ، بل كانت قائمة على الخضوع الأعمى للدعوة والإرهاب المطلق ، وسفك الدم السريع . ومن ثم كان ارتداد القبائل الموالية ، بمثل السرعة التى توحدت بها ، وانضمامها إلى راية الدعوى الحديد . وشعر عبد المؤمن وأشياخ الموحدين ، أن الأمر سوف يخرج من أيديهم ، إذالم لم تسحق ثورة الماسى بسرعة . فبعث عبد المؤمن لقتاله حملة بقيادة ابن يكيث ويحيى المستوفى المعروف بأنجمار ، فلقبهم الماسى فى قواته وهزمهم وأثنخ فيهم . فعندئذ جهز عبد المؤمن لقتاله حملة ضخمة مختارة ، تضم طائفة من الروم ، أى النصرانى المرتزقة ، والرماة وغيرهم ، من المقاتلة المدربين ، وعلى رأسها الشيخ أبو حفص عمر الهنتانى وعدة من أشياخ الموحدين . وكان بين الجند الرماة فى يمت إلى الأدب بصلة ، هو أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعى ، وهو من أهل مراكش ، ولكنه يرجع إلى أهل الأندلس ، وأصله القديم من طرطوشة ثم من دانية^(١) ، وقد كان ضمن كتاب على بن يوسف ، ثم كتب عن ابنه تاشفين ثم عن حفيده إبراهيم ، وكان على حداثة سنه من أحظى كتاب الدولة اللمتونية . فلما سقطت مراكش أنخى نفسه ، ودخل فى غمر الناس ، وانضم إلى كتائب الموحدين ، لا يعلم بحقيقته أحد . وكانت الحملة الموحدية تضم نحو ستة آلاف فارس ومثلهم من الرجالة . وكان جيش الماسى يضم نحو الستين ألفاً ، ليس فيهم من الفرسان سوى سبعمائة . وسار الموحدون صوب تامسنا بوادى ماسه ، والتقوا بقوات الماسى ، وذلك فى السادس عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٤٢ هـ (٧ مايو ١١٤٨ م) ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، قاتل فيها جند الماسى بشجاعة ، ولكنهم هزموا فى النهاية ، وقتل الماسى ، قتله الشيخ أبو حفص بيده ، ومزق جنده شر ممزق ، وحمل الموحدون جثته فوق بغل ، حيث صلبت على باب الشريعة بمراكش . وكان نصراً باهراً ، انهارت على أثره ثورة الماسى وانفضت حموعه^(٢) .

وحدث على أثر انتهاء المعركة بظفر الموحدين ، أن بحث الشيخ أبو حفص

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٦ ، والحلال

الموشية ص ١١٠ ، وروض القرطاس ص ١٣٤ .

عن كاتب بارع يقوم بإعلام الخليفة بما أتاه الله من نصره ، في رسالة قوية بليغة ، فأرشد إلى فتى من الجند الرماة ، بجيد الشعر والترسل ، فاستحضره ، وكان هو أبو جعفر بن عطية ، فعهد إليه بأن يكتب عنه إلى الخليفة رسالة يصف فيها المعركة ، فنزل أبو جعفر عند رغبته مرغماً ، وكتب رسالته الشهيرة ، في نصر الموحدين في ذلك اليوم ، فجاءت قطعة من البلاغة المتدفقة ، والبيان الرائع ، وهي الرسالة التي رفعت إسمه وقدره ، لدى الخليفة ، وبين سائر الموحدين ، وكانت سبيله إلى الوزارة ، وإلى النفوذ والسيادة . وقد أورد لنا ابن الخطيب نص هذه الرسالة . وإنه ليكفي أن ننقل منها هاتين الفقرتين .

جاء في الديباجة ما يأتي :

« كتبنا هذا من وادي ماسة ، بعد ما ترحلنا من أمر الله الكريم ، ونصر الله المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، فتح بمسرى الأنوار إشراقاً ، وأحدق بنشوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأمانى القائمة جفوناً وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق الألسنة كنه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع أشتات الطب والأدب ، وتقلب في النعم أكرم منقلب ، وملا دلاء الأمل إلى عقد الكرب .

فتح تفتتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة . كان أولئك الضالون المرتدون ، قد بطروا عدواناً وظلماً ، واقتطعوا الكفر معنى وإسماً ، وأملى الله لهم ليزدادوا إثمًا .

ومنها في وصف مصرع أنصار الماسي : « فامتألت تلك الجهات بأجسادهم ، وأذنت الآجال بانقراض آمالهم ، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم ، فلم يُعابن منهم إلا من خر صريعاً ، وسقى الأرض نجيعاً ، ولقى من وقع الهنديات أمراً فظيماً ، ودعت الضرورة باقبيهم إلى الترامى في الوادى ، فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ، ويسبح طامعاً في الخروج إلى ما ينجيه ، اختطفته الأسنة اختطافاً ، وأذاقته موتاً زعافاً ، ومن لجج في الترامى على لوجه ، ورام البقاء في ثجه ، قضى عليه شرقة ، وألوى فرقة غرقه » (١) .

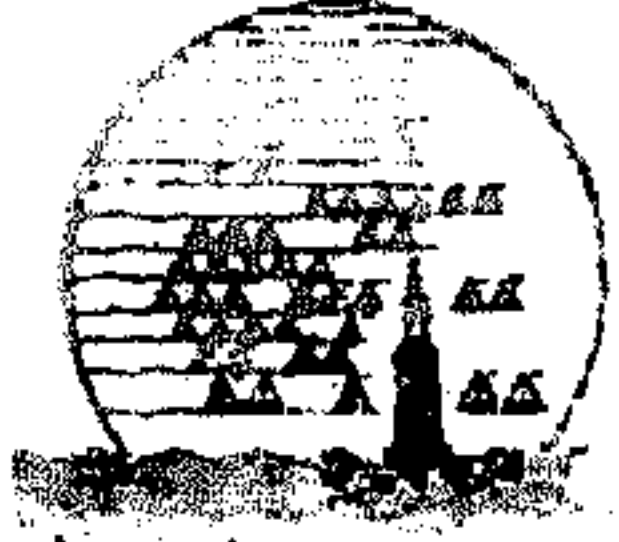
(١) ابن الخطيب في الإحاطة في ترجمة أبي جعفر بن عطية ج ١ ص ٢٧٧ .

يقول لنا ابن الخطيب ، إن الشيخ أبا حفص حين قرئت عليه رسالة هذا الحندي الأديب ، اشتد إعجابها بها ، وأحسن إلى كاتبها ، واعتقد أنه ذخيرة يتحلف به عبد المؤمن ، وأنها لما قرئت بعد ذلك على الخليفة بمحضر من أكابر الدولة عظم مقدارها ، ومقدار منشيها ، وبعث في طلبه معززاً مكرماً . ولما وفد ابن عطية على عبد المؤمن ، بالغ في إكرامه ، وقلده خطة الكتابة ، وأسند إليه وزارته ، ثم فوض إليه فيما بعد النظر في أموره كلها ، فنهض بأعباء منصبه ، خير نهوض . ولكن القدر كان يتربص به ، وكان يدخر له تلك الخاتمة المؤسسية ، التي سنقص سيرتها فيما بعد .

وعلى أثر هزيمة الماسي ومصرعه ، وانهايار حركته ، خرج الشيخ أبو حفص في قواته لمطاردة القبائل الخارجة ، فسار أولاً إلى هسكورة ، وأثنى فيها ، ومزق شملها ، وسبى أهلها ، واستاق غنائمها . ثم سار إلى أرض نفيس ، ثم أرض هبلانة ، فمزق جموعهم ، وفرض عليهم الخضوع والطاعة . وسار بعد ذلك إلى سجلماسة فاستولى عليها ، وأمن أهلها . وعاد إلى مراکش فاستراح بها قليلاً ، ثم خرج غازياً إلى أرض برغواطة ، وكانوا مازالوا على دعوة الماسي ، فنشب بينهم وبينه قتال مرير ، ومعارك متوالية ، استمرت حيناً ، وهزم الموحدون في نهايتها . واستمرت برغواطة ومن يجاورها من القبائل في ثورتهم وخروجهم فترة أخرى .

وكان يحيى بن أبي بكر بن علي الصحراوي ، أو ابن الصحراوي ، حينما فر من فاس ، عند سقوطها في أيدي الموحدين ، قد غادرها إلى سبتة ليحاول أن يجعل منها قاعدة للمقاومة ، وجمع أشتات الفلول المرابطية . وهنا تختلف الرواية في شأن ماتلا من الحوادث التي وقعت في سبتة . ذلك أن البيدق يقدم إلينا رواية خلاصتها ، أن الصحراوي حينما نزل بسبتة ، حاصره بها علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول الأندلسي في منطقة قادس ، وهو الذي انحاز إلى الموحدين حسبما تقدم ، فتودد إليه الصحراوي ، وأوهمه أنه يريد أن يبايع الموحدين ، وأن يكون توحيداً على يديه ، وفي اليوم التالي نزل ابن ميمون من سفينته إلى البر ، فاستقبله الصحراوي ثم هاجمه فجأة وطعنه برمح فأرداه ، وصلب جثته في برج المدينة ، ثم غادر الصحراوي على أثر ذلك سبتة إلى طنجة (١) .

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٧ .



بيد أن هنالك رواية أوضح تفصيلاً، هي رواية صاحب روض القرطاس،
وابن خلدون، وهي رواية تدور حول الدور الخطير الذي قام به القاضي عياض
ابن موسى اليحصبي قاضي سبته، في حوادث سبته عندئذ. وكان القاضي عياض
من أعظم فقهاء العصر وعلمائه، وكان قد ولى قضاء سبته شاباً، فاشتهر بنزاهته
وغزارة علمه، فنقل إلى قضاء غرناطة (سنة ٥٣١ هـ)، ثم أعيد بعد ذلك إلى
قضاء سبته (٥٣٩ هـ). فلما ظهر أمر الموحدين، بادر إلى الدخول في طاعتهم،
وسار إلى لقاء الخليفة عبد المؤمن، وهو بسلا في أواخر سنة ٥٤٠ هـ، فأكرمه
عبد المؤمن وأجزل صلته، فعاد إلى سبته واستمر في منصبه^(١). بيد أنه لأسباب
غير واضحة، تغير ضد الموحدين فجأة، ولم يلبث وفقاً للرواية المتقدمة، أن
حرض أهل المدينة على الانتفاض والثورة، فثاروا بوالها الموحدي يوسف
بن مخلوف التينملي، وقتلوه ومن معه من الموحدين. ثم عبر القاضي عياض
البحر إلى الأندلس، ولقي يحيى بن غانية المستوفى، وإلى الأندلس المرابطي.
وطلب منه والياً لسبته، فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي، وكان وفقاً
لنفس الرواية قد عبر البحر إلى الأندلس، وانضم إلى ابن غانية. فقام الصحراوي
بأمر سبته، ثم كتبت إليه برغواطة تستنصره على قتال عبد المؤمن، فغادر سبته،
وسار في صحبه إليهم، فبايعوه واجتمعوا تحت رايته^(٢). بيد أن البيدق، بعد
ذكر ما تقدم من اغتيال الصحراوي لابن ميمون، يقدم إلينا عن خطط
الصحراوي ومسيره إلى الجنوب، تفاصيل أخرى، خلاصتها أن الصحراوي
لما غادر سبته، سار منها إلى طنجة، وهنالك ألقي إليها يحيى بن تايشا المرابطي،
ممتنعاً بأسوارها القوية، وعلى أهبة حسنة للدفاع، فغادرها إلى سلا، وكان بها
الحياط والد الثائر الماسي، وكانت قد خرجت فيمن خرج على طاعة الموحدين.
ولكن الحياط لم يكن من أنصار المتونة، فساء التفاهم بينه وبين الصحراوي، ولم
يلبث أن وثب به الصحراوي وقتله، ووقعت هذه الحوادث كلها في أوائل
سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)^(٣).

وكان يحيى الصحراوي جندياً عظيماً، وفارساً وافر الجرأة^(٤). وكان يعترم

(١) ابن الخطيب في الإحاطة - مخطوط الإسكوريال في ترجمة القاضي عياض لوحة ٣٥٠.

(٢) روض القرطاس ص ١٢٤، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٣.

(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٧.

(٤) المراكشي في المعجب ص ١١١.

أن ينزل إلى ميدان تضطرم فيه الثورة ضد الموحدين . وكانت المنطقة الساحلية الممتدة من سلا جنوباً ، حتى أراضي برغواطة ، ودكالة ، قد غدت كلها بعد هزيمة الموحدين أمام برغواطة ، منطقة لمقاومة الدعوة الموحدية ، ومحاولة تحطيمها ، فألى هذا الميدان نزل الصحراوي في صحبه القلائل ، واجتمعت برغواطة ودكالة حول رايته ، ثم قدمت إليه حشود رجراجة وحاحة ، وانضمت إليه ، واجتمع من هؤلاء وهؤلاء ، قوة يخشى بأسها .

فلما علم عبد المؤمن باجتماع هذه الحشود الضخمة الحصينة وتأهبها لمقارعتة ، بعث لقتال الثوار حملة بقيادة يصلاسن ، أحد خاصته . فسار يصلاسن أولاً إلى تادلا ، ومنها إلى سلا لمعاينة أهلها على نكثهم ، فاقتحمها ، وغلب على قصبها بالسيف . فعاد أهلها إلى الخضوع والطاعة ، وعهد بولايتها إلى موسى بن زيري الهنتاني . ثم سار إلى أرض بني ورياغل ، فيما بين سلا ومكناسة ، وكانوا من الناكثين ، فأخضعهم واستاق غنائمهم إلى مكناسة ، فقسمت بين الموحدين ، ثم اتجه شمالاً صوب طنجة ، وكانت ما تزال من معاقل لتونة ، فاقتحمها ، وقتل واليها المرابطي يحيى بن تايشا . وسار منها بعد ذلك شرقاً إلى سبتة وحاصرها ، ولكنه لم يدخلها ، وعاد بقواته إلى مكناسة^(١) . وهنا لابد لنا أن نتساءل عن سر هذا الإغضاء عن معاينة المدينة الثائرة أعني سبتة . والجواب على ذلك هو أن القاضي عياض ، حسبما يروى لنا البيهقي ، بادر فبعث إلى القائد الموحدى ببيعتة وبيعة أهل سبتة للموحدين ، وبذلك أنقذت المدينة^(٢) . وفي رواية أخرى ، أنه لما قدم الموحدون إلى سبتة ، وشددوا في حصارها ، سعى إليهم القاضي عياض ، وتلطف في الاعتذار إليهم عما حدث ، وفي استدراار عطفهم وصفحهم ، فغفوا عنه ، وملكوا البلدة ، ولقي القاضي من القائد الموحدى يصلاسن بن المعز ، كل عطف وإكرام ، وأن القاضي عياض ، سار بعد ذلك إلى مراکش (سنة ٥٤٣ هـ) ، ليستعطف الخليفة ويلتمس صفحه ، فعفا عنه عبد المؤمن ، وأمره بلزوم مجلسه ، وأغدق عليه عطفه . ثم مرض القاضي غير بعيد ، وتوفي بمراكش في ليلة التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ ودفن بها (١١٤٩ م)^(٣) . وأخيراً يقول لنا

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٧ و ١٠٨ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٨ .

(٣) وردت هذه الراوية خلال ترجمة للقاضي عياض يتضمنها مخطوط بالمكتبة الكتانية بجزارة

الرباط. عنوانه : « كتاب في التعريف بعياض » ، ويحفظ بها برقم 553 (لوحات ٧ - ١٤) .

صاحب القرطاس « إن أهل سبته حينما رأوا ما نزل بالناكثين من صنوف الويل ،
بادروا بإعلان بيعتهم وطاعتهم ، وحمل البيعة إلى عبد المؤمن أشياخ المدينة وطلبها
فتقبلها منهم ، وعفا عنهم ، وعن القاضي عياض ، ولكنه أمره بمغادرة سبته
والإقامة بمراكش ، فصدع بالأمر وسار إلى مراكش ، وهناك توفي بعد قليل
في جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ ، وأمر عبد المؤمن كذلك بهدم أسوار سبته
فهدمت^(١) ، وأسندت ولايتها إلى حاكم موحدى هو عبد الله بن سليمان مع
طائفة من الحفاظ ، وعاد إليها الهدوء والسكينة .

واعتزم عبد المؤمن أن يخرج بنفسه ليقضى على الخارجين عليه في منطقة
برغواطة ودكالة ، التي غدت بعد حلول الصحراوي بها مركزاً للمقاومة المرابطية .
فأرسل الكتب إلى سائر الأنحاء ، وجاءت إليه الحشود تترى من كل مكان ، وكان
في مقدمتهم يوسف بن وانودين ، وقد وافاه بعساكر النواحي الشرقية ، ولكنه
توفي خلال الطريق بفاس ، فخلفه في القيادة تاشفين بن ماخوخ وآخرون من
الزعماء ، ووفدت حشود المناطق الغربية وعلى رأسها عبد الله بن خيَّار
الحيَّاني ، الذي عرفناه من قبل مشرفاً على فاس ، وقد لعب دوره في تسليمها
إلى الموحدين ، ثم حشود زناتة ، بقيادة عبد الله بن شريف وثلاثة آخرين من
الزعماء ، وحشود غمارة بقيادة عبد الله بن سليمان ، وحشود صنهاجة بقيادة أبي بكر
ابن الجبر وأبي يدّر بن ومصال ، وحشود جيراوة بقيادة عبد الله بن داود .
 واجتمعت هذه الحشود كلها تحت راية عبد المؤمن ، فخرج من مراكش في عسكر
جرار ، وسار شمالاً نحو أراضي دكالة . وكانت حشود برغواطة ودكالة وبجي
الصحراوي قد اجتمعت عندئذ على مقربة من ساحل المحيط جنوبي ثغر أزموور .
 وفي بعض الروايات أن هذه الحشوش التي اجتمعت لقتال عبد المؤمن بلغت زهاء
عشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل ، وهو تقدير يحمل طابع المبالغة . ويقدم
إلينا ابن خلدون تقديراً أكثر اعتدالاً ، فيقول إنهم كانوا في نحو ستين ألفاً من
الرجال وسبعمئة من الفرسان^(٢) . بيد أنها كانت خالية من فرق الرماة ، التي
امتازت بها الحشوش الموحدية . والظاهر أيضاً مما تذكره الرواية المذكورة أن
عبد المؤمن لجأ إلى خطة لم يحسب حسابها خصومه ، وفاجأهم بالمهجوم ، فاختل

(١) روض القرطاس ص ١٢٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

نظامهم ، وتبدد شملهم ، واضطروا إلى مغادرة مراكزهم الحصينة نحو البحر ،
ففرقت منهم جموع غفيرة ، وتمت عليهم الهزيمة الساحقة^(١) ، ومزقت بالأخص
حشود دكالة ، وفر زعمائها ومعهم يحيى الصحراوي إلى السوس ، فسار في
أثرهم يصلان حتى أراضي رجراجة ، ومزق جموعها حتى أذعنت إلى التوحيد ،
وفر يحيى إلى الصحراء . وفي رواية أخرى أنه بعث إلى عبد المؤمن يستأمنه فأمنه
وبايعه وحسنت طاعته^(٢) . واستولى عبد المؤمن على أسلاب برغواطة ودكالة ،
وسبي نساءهم وأولادهم وبيعوا رقيقاً . وأذعنت برغواطة إلى التوحيد ، واسترد
الموحدون منها ما سبق أن غنموه من أبي حفص حين هزيمته من السلاح والعتاد .
وكذلك رد إليه ولده وجاريته ، وانتشر الموحدون في تلك المنطقة ، وأحمدوا عدة
ثورات محلية صغيرة . ووقعت هذه الحوادث حسبما يقص علينا البيهقي في سنة
٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)^(٣) ، وعاد عبد المؤمن إلى مراکش ظافراً بعد أن قضى
في تلك الغزوة ستة أشهر .

وهكذا هدأت الثورة ضد الموحدين في مختلف النواحي ، وأرغمت معظم
القبائل والقواعد الثائرة ، بقوة السيف ، والسيف وحده ، على العودة إلى الخضوع
والطاعة . ولكن ما بثته هذه الثورات المضطربة ، من أقوام كان معظمهم قد
آمن بدعوة المهدي ، وانضوى تحت لوائها ، في نفوس الموحدين من المرارة
والسخط ، كان نذيراً بظهور دموية جديدة . ولقد رأينا فيما تقدم ، من مراحل
الصراع بين الموحدين والمرابطين ، كيف كان هذا الصراع يتميز في كثير من
المواطن ، بألوانه الدموية المثيرة ، وكيف كان الموحدون يتبعون نحو المهزومين
والعزل من خصومهم ، خطة التقتيل الشامل ، وسفك الدماء دون تحفظ ، وهي
خطة كانت حسبما رأينا شعار المهدي ابن تومرت في مجاربة خصومه .

والظاهر أن هذه النزعة الدموية استمرت في الموحدين أجيالاً ، حتى بعد أن
توطدت دولتهم بمدة طويلة ، فإن المراكشي مثلاً ، وهو من مؤرخي الموحدين ،

(١) الحلل الموشية ص ١١١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٤ .

(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٩ . وفي ابن خلدون أنها وقعت في سنة ٥٤٢ هـ .

كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣٣ .

بنوه في كتابه بما جبل عليه المصامدة ، وهم عماد الحيوش الموحدية ، من ميل إلى سفك الدماء ، وكيف أنه وهو في بلاد السوس (في أوائل القرن السابع) مهد المصامدة ، قد شهد من ذلك العجب (١) .

والآن نقف أمام صفحة دموية جديدة كتبها الخليفة عبد المؤمن وصحبه الموحدون ، عقب انتصارهم على القبائل الثائرة ، وهي صفحة يقدم إلينا البيدق تفاصيلها الرهيبة فيما يسميه « الاعتراف » أعني الاعتراف بطاعة التوحيد .

وذلك أن الخليفة عبد المؤمن ، عقب عوده ظافراً إلى مراکش ، عقد للموحدين مجلساً ، ووعظهم وكتب لهم الجرائد بالوعظ والاعتراف ، ووزعها على أشياخ الموحدون ، وأمرهم باستعمال السيف في تنفيذها . ومؤدى ذلك أنه عهد إلى أشياخ مختلف القبائل وزعمائها ، كل بجريدة أو قائمة ، تحتوي على مئات من أسماء المارقين ، والمشكوك في ولائهم ، أو من يصفهم البيدق « بأهل التخليط والمعاندين » ووجوب قتلهم . وتطهير القبائل والبطون منهم . ونحن نكتفي ، بأن ننقل مما يورده لنا البيدق من الأسماء والتفاصيل الكثيرة ، أسماء القبائل ، وعدد من أعدم منها ، على الوجه الآتي :

أعدم من قبيلة هزميرة خمسمائة ، وأعدم من رجراجة ثمانمائة ، وأعدم من حاحة ثمانمائة ، وأعدم من أهل السوس ستمائة من أهل إيجلي ، وستمائة من أهل إينججست ، وأعدم من أهل جزولة مائتان في تاعجيزت وثلاثمائة في هشتوكة ، وأعدم من هسكورة ثمانمائة . وهوجمت بقية بطونهم حتى بلغ عدد القتلى ألفين وخمسمائة ، وأعدم من أهل تادلا خمسمائة في محلة نظير ، ثم هوجم منهم أهل تيفسيرت وقتلوا ، وأخذت غنائمهم ونساؤهم . وقتل من صنهاجة وجرادة ألف في موضع يسمى بالعمري ، وقتل من زناتة ستة آلاف بأرض فازاز ، وقتل من صاربوه وبني ماكود اثنا عشر ألفاً ، وقتل من غمارة في تطاوين ثمانمائة ، وقتل في مكناسة مائتان ، وفي فاس تمانين ، وقتل في تامسنا ستمائة من أهل برغواطة ، وقتل من دكالة ستمائة ، ومن هيلانة ثمانمائة ، ومن وريكة وهزرجة مائتان وخمسون ، ومن لحاعة مائة وخمسون . ومن درعة ستمائة . ونجا أهل سجلماسة بدعاء عابد فيهم استجاب الله دعاءه (٢) .

(١) المعجب للمراكشي ص ١٠٦ .

(٢) أخبار المهدي ابن ثومرت ص ١٠٩ - ١١٢ .

يقول البيهقي بعد إيراد ما تقدم « تم الاعتراف بحمد الله وعونه .. فهدأ الله البلاد للموحدين ، وأعانهم على الحق ونصرهم ، وأقاموا الدين ، ولم يتفرقوا فيه . وتمهدت الدنيا ، وأزال الله ما كان فيها من التخليط . وهذا كان سبب الاعتراف » ، ثم يضع تاريخ هذه الحوادث الدموية في سنة ٥٤٤ (١١٤٩م) (١) .
وإنه لما يلفت النظر في هذا الحادث الدموي ، أولاً وقبل كل شيء : أنه وفقاً لأقوال البيهقي ، من عمل عبد المؤمن وتدبيره ، وأنه يدمغ جهود عبد المؤمن وسياسته في توطيد الدولة الموحدية ، بطابع بغيض . بيد أننا نشعر من جهة أخرى ، أن هذا العمل . وما تقدمه من تصرفات دموية عديدة ، خلال هذا الصراع الديني والسياسي العظيم ، لا يمكن أن تنسب إلى عبد المؤمن دون تحفظ . ذلك أن عبد المؤمن إذا كان باعتباره خليفة الموحدين وقائدهم الأعلى ، مسئولاً عن هذه الأعمال المثيرة أمام التاريخ ، فإنه يجب أن نذكر أيضاً أن عبد المؤمن ، لم يكن بالرغم من رفيع مركزه ، وسلطانه الظاهر . مطلق التصرف في كل ما يقوله أو يفعله ، وأنه كان بالعكس مرغماً على أن يخضع في كثير من المواطن لضغط الأسياد والقادة . فقد رأينا مثلاً . كيف أنه حينما قُتل أخوه إبراهيم بيد بعض أكابر الموحدين ، غلب على أمره . ومنع بتدخل أصحاب المهدي . من أن يقتص لمقتله من قاتله ، ثم رأيناه بعد ذلك يُغلب على أمره مرة أخرى ، حينما دخل الموحدون مراکش ، وقبض على إبراهيم بن تاشفين ، وأتى به إلى عبد المؤمن فرقاً لحدائث سنه . وأراد أن يعفو عنه وأن يفره من القتل ، فاعترض عليه بعض الأسياد ، وأخذ إبراهيم وقتل رغماً عن إرادته . ففي هذه الحوادث وأمثالها ما يدل بوضوح بأن عبد المؤمن ، لم يكن مطلق الحرية في سائر تصرفاته . وإنما لرتاب في أن يكون أمثال مذبح الإعراف ، معبرة عن خلق عبد المؤمن وميوله الحقيقية . ونعتقد أنه لا بد أن يكون وراءها ، ووراء أمثالها من التصرفات الدموية المثيرة . ضغط الأسياد والصحب . وقد كانوا في تلك المرحلة . هم أصحاب التوجيه الحقيقي ، يزاولونه أحياناً . بصورة ظاهرة ، وغالباً من وراء حجاب .

بعد أن تم لعبد المؤمن سحق الثورة الكبرى ، في أراضي برغواطة ودكالة ، وبعد أن تم له تمييز القبائل ، وقتل المارقين على النحو المتقدم ، اعترى أن يقوم

(١) أخبار المهدي بن تومرت ص ١١٢ .

بجولته الثانية لسحق ما تبقى من مواطن الثورة والمقاومة، وليتم افتتاح المغرب بافتتاح إفريقية . وكان قد قام في تلك الأثناء بتامسنا ، عقب حرب برغواطة بقليل ، نائر جديد يدعى بابن تمر كيد ، فبايعه كثير من أهل برغواطة ، وغيرها من القبائل ، ولبت حيناً يتحدى الموحدين ، ويشتبك معهم في معارك متوالية ، إلى أن هزم أخيراً ، وقتل ، وقتل معه كثير من أنصاره ، وحمل رأسه إلى مراکش (سنة ٥٤٤ هـ) .

وخرج عبد المؤمن في قواته من مراکش سنة ٥٤٥ هـ ، مستخلفاً عليها أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاني ، وسار إلى مدينة سلا ، وأمر بأن تنشأ قسبة وقصر فوق اللسان الممتد في البحر أمام سلا ، وبأن ينشأ سرب يستمد الماء من عين غبولة القريبة لإمداد المحلة الموحدية ، فتم ذلك ، وجرى الماء ، وغرست الحدائق والرياض ، وأذن الخليفة للناس في التعمير والسكنى ، فكان ذلك منشأ مدينة رباط الفتح ، التي غدت من ذلك الحين مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية الغازية .

ولبت الخليفة بسلا خمسة أشهر . وفي خلال ذلك ، وفدت عليه وفود عديدة من الأندلس بلغت زهاء خمسمائة من الفقهاء والقضاة والزعماء والقادة ، فاستقبلهم الوزير أبو إبراهيم والوزير أبو حفص ، والكاتب الوزير أبو جعفر بن عطية ، وأشياخ الموحدين . فأكرمت وفادتهم وأنزلوا خير منزل . ثم أخذوا لمقابلة الخليفة ، وكان دخولهم عليه في غرة شهر المحرم سنة ٤٤٦ هـ ، وكان أول من تقدم بين يديه وفد قرطبة ، فشرح قاضيها أبو القاسم ابن الحاج للخليفة ، ما تعانيه قرطبة ، من تهديد النصارى وضغطهم ، وتلاه الكاتب أبو بكر بن الحد بخطبة بليغة ، ثم تعاقبت الوفود في السلام والتهنئة ، فشمل الخليفة الجميع بعطفه ، وأجزل لهم الصلات كل على قدر مكانته ، ثم أمرهم بالانصراف إلى بلادهم^(١) . ولاريب أن تعاقب الوفود الأندلسية على المغرب على هذا النحو ، كان له أثره في خطط عبد المؤمن المستقبلية ، نحو افتتاح الأندلس ، وتنظيم شئونها .

وغادر عبد المؤمن سلا في أوائل سنة ٥٤٦ هـ ، وسار إلى المعمورة ، وهو يعتزم افتتاح بجاية وإفريقية . وكانت ثمة بواعث عديدة لها خطرها ، قد حملته على

(١) هذه هي رواية صاحب ررض القرطاس (ص ١٢٢) ، ويمر البيدق على هذا الحادث بالصمت . ويشير إليه الزركشى في تاريخ الدولتين (ص ٧) ، ولكنه يضع تاريخه سنة ٥٥٣ هـ ، ويقول لنا إنه كان ضمن الوفد الأندلسي ، الشاعرة الأندلسية الشهيرة حفصة بنت الحاج الركوني ، وانها أنشدت الخليفة شعراً ، أعجب به ، وأنه منحها إقطاع قرية ركانة .

اتخاذ هذا القرار ، منها اضطراب الأمور في إفريقية واختلاف أمراءها ، واستطالة العرب عليها ؛ وعيهم في أراضيها ، حتى أنهم حاصروا مدينة القيروان . وأهم من ذلك كله ما حدث من اعتداء الفرنج الصقليين على الثغور الإفريقية ، وافتتاحهم لمدينة المهديّة (سنة ٥٤٣ هـ) ، وسيطرتهم على الشاطئ الإفريقي من طرابلس حتى مياه تونس . كل ذلك حمل عبد المؤمن على أن يضع خطته لافتتاح إفريقية (١) . بيد أنه لم يسر في ذلك الاتجاه توجاً ، بل سار إلى سبته متظاهراً بقصد الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد . وهناك استدعى وجوه الأندلس وفقهاءها وقوادها ، فوفدوا إليه ، فحدثهم في مسائلهم ، وألقى عليهم توصياته ثم صرفهم ، وغادر سبته متجهاً في الظاهر إلى طريق مراکش ، ولكنه سلك طريقاً أخرى غير مطروقة ، وأمر في نفس الوقت بمنع السفر في الطرق المسلوكة ، في المغرب الأوسط ، من سلا إلى مكناسة ، ومن مكناسة إلى فاس ومن تلمسان إلى فاس . ثم اتجه نحو الشرق ، مبالغاً في إخفاء وجهته ، وسار مسرعاً صوب بجاية ، واستولى في طريقه على جزائر بني مزغنة (وهي التي صارت مدينة الجزائر فيما بعد) ، ففر منها عاملها القائم بن يحيى إلى بجاية ، ونبأ أباه يحيى بن العزيز بالله الصنهاجي ، سليل بنى حماد ، بمقدم الموحدين . وكان بالجزائر في نفس الوقت ، الحسن بن علي الصنهاجي صاحب المهديّة ، وابن عم صاحب بجاية ، وكان الفرنج الصقليون قد استولوا على المهديّة في أوائل سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) حسبما تقدم ، فخرج منها ملتجئاً إلى ابن عمه يحيى ، فأنزله بالجزائر منزلاً سيئاً ، فلما دخلها الموحدون ، بادر إلى عبد المؤمن فبايعه ، وصحبه مستظلاً برعايته .

ويجدر بنا أن نذكر هنا كلمة عن مدينة بجاية هذه ، وهي التي سوف يتردد ذكرها منذ الآن فصاعداً ، في مواطن ومناسبات تاريخية كثيرة . وكان إنشاؤها نتيجة لما حدث من الشقاق ، بين بنى زيري أمراء إفريقية . وذلك أنه قام خلاف بين تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية ، وبين ابن عمه الناصر ابن علناس ، ففارقه الناصر ، وخرج في أصحابه ، ودله بعضهم على موضع بجاية ، وقد كان به منازل قليلة للبربر ، وبين له مزاياه من المنعة ، والمرسى الذي يمكن أن يغدو مركزاً هاماً لرسو السفن ، وترويج التجارة ، فأمر باختطاط مدينة بهذا الموقع ، وهو في حماية جبل شاهق ، وكان ذلك في حدود سنة

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ .

٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) (١) . وفي رواية أخرى أن بناء بجاية جاء نتيجة لتوغل العرب في إفريقية وعيهم فيها ، وأنهم لما قاموا بتخريب القيروان ، ومعظم مدن إفريقية ، فر منهم صاحب القيروان ، وخرج لنصرته ابن عمه المنصور بن حماد ، فهزمه العرب هزيمة شديدة ، ففر إلى قاعدته بالقلعة ، ولكن العرب جدوا في أثره ، وطاردوه ، فبحث عن موضع يختط فيه لنفسه محلة جديدة لا يلحقه فيها شر العرب ، فدلّه بعض أصحابه على موقع بجاية ، وكان مرسى قديماً ، فاختطها فيه ، ونقل إليها مركز حكمه ، واتخذها دار ملكه (٢) . ومن ذلك الحين سارت بجاية في طريق التقدم ، وغدت من أغنى وأزهر الثغور الإفريقية .

وكان بنو حماد هؤلاء أصحاب بجاية والقلعة ، وما يليها من ثغور المغرب الأوسط ، بونة وقسنطينة والجزائر ، هم فرع من بني زيري بن مناد ملوك إفريقية الصنهاجيين ، الذين بسطوا عليها سيادتهم مذ غادرها بنو عبيد الفاطميون إلى مصر ، في أواخر القرن الرابع الهجري ، وكانوا يستظلون في البداية بسultan الخلافة الفاطمية ، ثم أعلنوا استقلالهم ، وضخم ملكهم بإفريقية . وفي أوائل القرن الخامس خرج حماد بن يوسف بن زيري على ابن أخيه باديس بن المنصور ابن يوسف ، واستقل بالمناطق الغربية ، أعنى الزاب والمغرب الأوسط ، وكان والياً عليها من قبل ابن أخيه ، وأسس بها إمارة جديدة عرفت بمملكة بني حماد . ولما توفي حماد في سنة ٤١٩ هـ ، تعاقب بنوه من بعده في الملك ، وكان مركزهم في البداية بالقلعة ، وهي محلة في غاية المناعة والحصانة ، اختطها منشيء دولتهم حماد في بقعة حصينة ، تقع جنوبي بجاية على مقربة من بلدة أشير ، وقد كانت وفقاً لقول الإدريسي من أكبر البلاد في تلك المنطقة وأكثرها خلقاً ، وأغزرها خيراً ، وأوسعها أموالاً ، وأحسنها قصوراً ومساجن ، وأعمها فواكه وخصباً ، وهي في سند جبل سامي العلو ، صعب الارتقاء ، وقد استدار سورها بجميع الجبل ، ويسمى تاقربست . ويقول لنا ياقوت في وصفها ، من أجهة أخرى ، « وليس لهذه القلعة منظر ولا رواء حسن ، إنما اختطها حماد للتحصن والامتناع » (٣) .

(١) ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة بجاية .

(٢) الاستبصار في عجائب الأمصار المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول (الإسكندرية

١٩٥٨) ص ١٢٨ و ١٢٩ .

(٣) الإدريسي في وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨٦ ، وراجع ياقوت

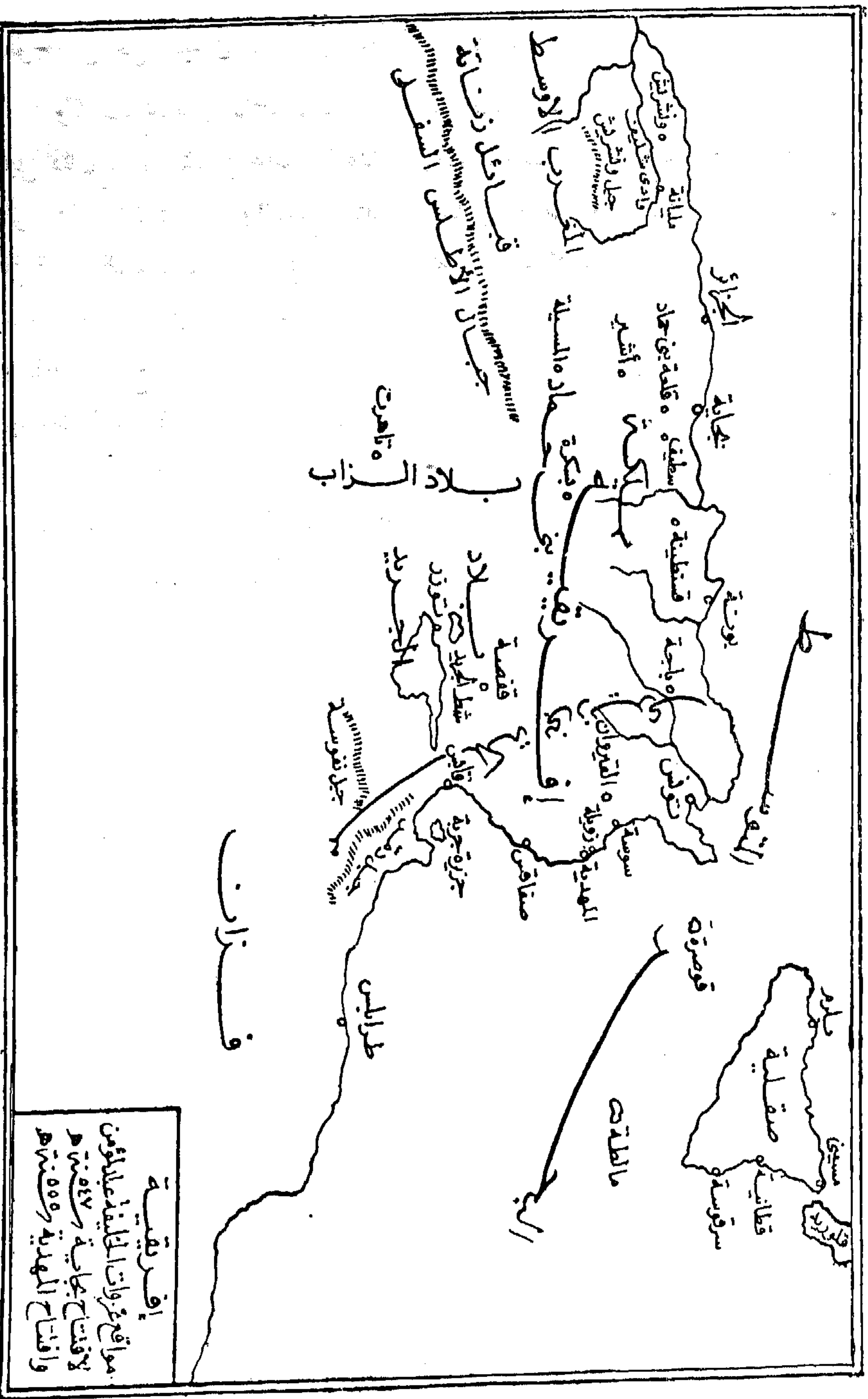
في معجم البلدان تحت كلمة « قلعة حماد » .

ثم انتقل بنو حماد ، بعد ذلك إلى بجاية منذ اختطها وأنشأها الناصر بن علناس بن حماد وذلك في سنة ٤٥٧ هـ ، وجعلوها قاعدة ملكهم . وكانت مملكة بني حماد ، حينما زحف الموحدون على بجاية في حالة اضطراب وتفكك ، وكان ملكها يحيى ابن العزيز بالله أميراً ضعيفاً يعشق اللهو والصيد . وكان وزيره القائد أبو محمد ميمون بن علي بن حمدون هو حاكمها الحقيقي ، فلما وصل الموحدون إلى بجاية ضربوا حولها الحصار . واتصل ابن حمدون سراً بعبد المؤمن ، وفتح له أبواب المدينة ، فدخلها الموحدون^(١) . وفي الوثائق الموحدية ما يؤيد هذه الرواية . ففي الرسالة ، التي وجهها عبد المؤمن بعد فتح بجاية إلى أهالي قسنطينة يدعوهم إلى التوحيد ، ما يفيد بأن القائد ابن حمدون كان ضالماً في السر مع الموحدين ، وأنه عقب فتح بجاية انضم إليهم ، وخدمهم هو وأخوه الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدون^(٢) . بيد أن هناك رواية أخرى تقول إن ابن حمدون بالعكس خرج في قوات بجاية ، وهي تزيد على العشرين ألف فارس ، واشتبك في ظاهرها مع الموحدين في معركة هزم فيها ، ودخل الموحدون المدينة على أثرها^(٣) . وزحفت في نفس الوقت قوة موحدية بقيادة عبد الله ولد الخليفة عبد المؤمن ، على القلعة - قلعة بني حماد الشهيرة - وقد كانت من أعظم وأمنع قلاع المغرب ، وكانت معقل بني حماد الأعظم ، ومهد ملكهم الأول ، فاستولت عليها ، وقتلت بها عدة ألوف من الصنهاجيين . ولما دخل الموحدون بجاية فر عنها صاحبها يحيى بن العزيز بالله إلى بونة ، وفر أخواه الحارث وعبد الله إلى صقلية حيث استظلا بحماية الفرنج . ثم سار يحيى من بونة إلى قسنطينة ، فامتنع بها مع أهله وقرابته ، وهناك حاصره الموحدون ، فلما ضاق بالحصار ذرعاً ، أرسل أخاه وشيوخ صنهاجة وقسنطينة ، إلى عبد المؤمن يعلنون خضوعه ، وإذعانه إلى التسليم ويطلبون الأمان فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوه . ولما غادر عبد المؤمن بجاية سار معه يحيى في أهله وولده إلى مراکش ، وهناك عاش في كنف الخليفة في عزة وسعة من الرزق ، ولبثوا بمراكش حتى انقرض بيتهم . وكان استيلاء

(١) روض القرطاس ص ١٢٦ .

(٢) راجع رسائل موحدية ، المنشور بعناية الأستاذ ليلى بروفسال (الرباط سنة ١٩٤١) الرسالة السابعة ص ٢٠ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٥٩ .



أفريقية
مواقع مخرجات الخليفة على الملوك
لافتتاح بجاية ٥٤٧ هـ
وافتتاح المهديّة ٥٥٥ هـ

الموحدين على بجاية في شهر ذى القعدة سنة ٥٤٧ هـ (يناير سنة ١١٥٣ م) (١). وكانت بجاية في ذلك الوقت ، حسبما يصفها لنا الإدريسي ، الذي زارها قبل ذلك بنحو عشرين عاماً ، قاعدة المغرب الأوسط ، ومينائها عامرة بالسفن الواردة والصادرة ، والبضائع تتدفق إليها براً وبحراً ، وأهلها تجار مياسير ، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد ، ولأهلها معاملات مع تجار المغرب الأقصى ، وتجار الصحراء ، وتجار المشرق ، وبها تحمل الشدود وتباع البضائع بالأموال الوفيرة ، ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعير يوجدان بها بكثرة ، وكذلك سائر الفواكه ، وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن الحربية ، بمدنها الخشب الكثير الموجود في جبالها وأوديتها ، والزفت البالغ الجودة والقطران الموجود في أقاليمها ، وبها أيضاً معدن الحديد الطيب ، وهي مركز هام للمواصلات إلى بلاد إفريقية . وهذا كله فضلاً عن حصانها الطبيعية ، سواء من ناحية البر أو البحر (٢) .

وكانت جموع من العرب من بطون أثيج وزغبة ورياح وغيرها ، تحتل المنطقة الشاسعة ، الواقعة جنوبي بجاية ، وتعيش في ظل بني حماد ، وتحت حمايتهم . فلما استولى الموحدون على مملكة بني حماد ، شعر أولئك العرب بما يهددهم من فقد أوطانهم وأرزاقهم ، فاحتشدوا لمقاومة الموحدين ، وأخذوا يغيرون على مؤخراتهم ، ويزعجون محلاتهم ، فاعتزم عبد المؤمن أن يظهر هذه المناطق من عيبتهم ، وسار في قواته إلى سطيف ، وجهاز لقتالهم حملتين ، الأولى بقيادة صهره وزوج ابنته عبد الله بن وانودين ، والثانية بقيادة يصلاسن بن المعز ، ولكن ثار بين القائدين خلاف ، تعدى فيه يصلاسن على زميله صهر الخليفة وأهانته . ثم تركه وحده في مواجهة العرب . فانتهر العرب هذه الفرصة وهاجموا قوات عبد الله بن وانودين وهزموه وأسروه ثم قتلوه . فاستشاط عبد المؤمن لذلك غضباً ، وحشد كافة الموحدين لمقاتلة العرب . فلما شعر العرب بشدة وطأة الموحدين ، افترقت كلمتهم ، وأذعن بعض زعمائهم إلى التوحيد ، وشدد عبد المؤمن

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٣ و ١١٤ ، والحلل الموشية ص ١١٢ و ١١٣ ، وروض القرطاس ص ١٢٨ و ١٢٩ ، والمعجب ص ١١٣ و ١١٤ . وراجع الرسالة الثامنة من رسائل موحدية ص ٢٤ و ٢٥ ، وكذلك المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ١١١ .

(٢) الإدريسي في وصف المغرب وأرض السوادن ومصر والأندلس ص ٩٠ و ٩١ .

في قتال من تبقى منهم ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، دامت يوماً وليلة ، وهزم العرب في نهايتها شر هزيمة ، ومزقت جموعهم ، وقتل وأسر منهم عدد جسيم . وكان في مقدمة القتلى ألمع زعمائهم هلال بن عامر . واستولى الموحدون على غنائمهم من العتاد والدواب ، وكانت وفيرة هائلة . ثم طاردوهم مدى ثلاثة أيام أو أربعة في مختلف الأنحاء ، حتى قضوا على معظم فالوهم . وحدثت هذه الموقعة الحاسمة في شهر ربيع الأول سنة ٥٤٨ هـ (يونيو ١١٥٣ م) (١) .

وبينما كان عبد المؤمن في بجاية ، إذ اجتمعت حشود غفيرة من صنهاجة يقودها زعيم يدعى أبو قصبة من بني زالدوى ، وانضمت إليها كذلك جموع كثيرة من كتامة ولواتة وغيرهما ، وسارت هذه الجموع لقتال الموحدين ، فبعث عبد المؤمن لردهم حملة قوية بقيادة أبي سعيد بخلف ، وهو من أصحاب خمسين ، فالتقوا في عرض الجبل شرقي بجاية ، فانهمزت صنهاجة وحلفاؤها ، وقتل معظمهم ، وأخذت أسلابهم ونساؤهم (٢) . ويقول لنا البيدق إن الذي قام بمدافعة صنهاجة هو عبد المؤمن نفسه ، وقد كان في قلة من جنده وحشمه ، ولكنه خرج ليردهم بنفسه ، واشترك في قتالهم ، مع أنه لم يمتشق السيف منذ موقعة البحيرة عام ٥٢٤ هـ (٣) .

وغادر عبد المؤمن بجاية ، بعد أن نظم شئونها ، وندب لولايتها ولده أبا محمد عبد الله ، وسار في جيشه الظافر ، أولاً إلى تلمسان ، ثم سار إلى فاس ، ومكناسة ، ثم إلى سلا ، ووزع الغنائم والسبي على هذه البلاد . ثم غادر سلا إلى مراکش ، وفي ركبته عدة من زعماء العرب - أو سلاطينهم حسبما يصفهم البيدق - الذين خضعوا في تلك الحركة . ولما وصلوا إلى مراکش ، زودهم بالأموال ورد إليهم نساءهم وأولادهم ، وصرفهم إلى بلادهم .

وصل عبد المؤمن إلى مراکش ليواجه آثار مؤامرة دبرت في غيبته ، وكادت أن تصدع صرح حكومته ، لو لم تخمد في مهدها .

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٤ و ١١٥ ، ورسائل موحدية ، في الرسالة التاسعة

ص ٣٢ - ٣٥ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٦٠ .

(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٥ .

وكان بطلا هذه المؤامرة أخوا المهدي ابن تومرت ، أبو موسى عيسى ، وأبو محمد عبد العزيز ، وكانا مذ ظفر عبد المؤمن بخلافة المهدي واجتناء ترائه ، يرقبان الفرص لبث الاضطراب والشغب ، ويظاهرها كثير من أهل هرغة ، قبيلة المهدي ، وكان عبد المؤمن بالرغم من وقوفه على ما يضمه الأخوان له من البغض والكيد ، وما جنحا إليه من الانحراف ، ومخالطة أهل السوء ، يغضى عن سلوكهما ، ويجزل لهما الصلات والنفقة ، برأ بذكرى المهدي وقرابتهما الوثيقة له ، ويكتفى بإسداء النصيح اليهما . فلما سار المهدي إلى غزاته لافتتاح إفريقية ، شعر الأخوان بأن الفرصة قد سنحت لتدبير الانقلاب المنشود ، وكانا يقيمان بفاس ، وياتف حولها نفر من الناقلين . فسارا في صحبهما من فاس إلى مراکش ، وهنالك استطاعا تحريك بعض الجموع ، واضطربت بالمدينة فتنة ، قتل خلالها والى المدينة عمر بن تفرّاجين حين خروجه في الفجر إلى الجامع ، وكاد يستطير شررها . وعلم عبد المؤمن بما حدث وهو في سلا (أواخر سنة ٥٤٥هـ) ، فبعث الوزير ابن عطية على عجل ليستدرك الأمر ، فوصل إلى مراکش بعد يومين ، واستطاع في الحال أن يخذ الفتنة ، وأن يقبض على زعيمها عيسى وعبد العزيز . ويقول لنا البيدق إن الخليفة ، أمر بقتل المخالفين من هرغة وأهل تينمائل ، ولكنه أبقى على حياة أخوي المهدي وبعثهما إلى فاس حيث اعتقلا هناك تحت إشراف واليها الحيّاني^(١) . ولكن صاحب البيان المغرب يقول لنا إنهما قتلا وصلبا ضمن من قتلوا وصلبوا من الخوارج ، فقتل عيسى قرب باب الدباغين ، وقتل عبد العزيز بباب أغمات^(٢) . ويؤيد هذه الرواية ما ورد في خطاب الخليفة الرسمي عن الحادث من الإشارة غير مرة إلى مصرع المخالفين ، وفتك العامة بهم وصلبهم خارج المدينة^(٣) .

وما كاد عبد المؤمن يصل إلى مراکش حتى قام بحركة تطهير شاملة ، قبض خلالها على كثير من الخوارج وأهل التخليط ، حسبما تصنفهم الرواية ، من سائر القبائل ، وألقوا إلى ظلام السجن . ثم أصدر الخليفة أمره بأن يتولى الموحدون المخلصون ، من كل قبيلة ، قتل المارقين من قبيلتهم بأنفسهم . فامتثل الموحدون

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٣٨ .

(٣) الرسالة الحادية عشرة من رسائل موحدية (ص ٣٢ و ٤٥ و ٤٦) .

لما أمروا به ، وتولوا الإجهاز بأيديهم ، كل جماعة على أبناء قبيلتها ، وكان الخليفة أثناء هذه المذبحة الحديدية ، يجلس في البرج القائم في أعلى قصره ، قصر الحجر ، ليشهد التنفيذ بنفسه . ويقول المؤرخ معلقاً على ذلك « فطرقت للموحدين في هذا الوقت وحشة من الحجبل والوجل ، ودهشة من قبيح ما ظهر من الغادرين المذكورين ، من نكوث العهد ، في السهل والحبل ، فتراموا على خليفتهم راغبين في العفو وإزالة الكدر ، وجلب ما تعودوه من الخلوص والظفر ، فقبل منهم ما أملوا ، وتعطف عليهم على عادته بما سألوا » . وبعث الخليفة بهذه المناسبة ، إلى مختلف البلدان ، رسالة من إنشاء الوزير ابن عطية ، تفيض بلاغة وبيانا ، يفصل فيها ما حدث ، ويوضح موقفه ويلتمس الأعذار لتبريره^(١) .

وكان من الحوادث البارزة في هذه الحركة الدموية مصرع القائد يصلاسن ، ابن المعز الهرغني . وكان يصلاسن أويصليتين حسبما يسمى في رواية أخرى من زعماء قبيلة هرغة ، ومن أهل الدار ، أعني من أقرباء المهدي^(٢) . وقد رأينا فيما تقدم كيف اختلف مع ميله القائد عبد الله بن وانودين صهر الخليفة ، وتركه في قواته ليواجه وحده العرب ، وكيف كان ذلك سبباً في هزيمته ومصرعه . وكان عبد المؤمن يتوق إلى معاقبة يصلاسن على سوء تصرفه . ومن جهة أخرى ، فإنه يبدو أن يصلاسن كان ضالماً مع خصوم عبد المؤمن ، وموئيداً لحركة أخوي المهدي . فإما عاد عبد المؤمن إلى مراکش ، كان يصلاسن في سبته ، فأرسل الخليفة إلى واليها عبد الله بن سليمان بأن يدبر حيلة للقبض على يصلاسن وإرساله ، فدعا عبد الله يصلاسن إلى نزهة بحرية في إحدى السفن ، في مياه سبته ، فلما توسط البحر ، انقض عليه وكبله بالحديد ، ونبأ عبد المؤمن بما تم ، فأمره بإعدام يصلاسن وصلبه بعد الإشهاد عليه بالذنب ، فقام عبد الله بما أمر به^(٣) . وفي رواية روض القرطاس ، أن عبد الله أرسل يصلاسن مكبولاً إلى مراکش ، وأنه أعدم بها وصلب على بابها تنفيذاً لأمر الخليفة^(٤) .

واضطرمت الثورة في نفس الوقت بأرض السوس ، وارتدت قبيلة جزولة

-
- (١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٨ و ٢٩ .
(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢٩ .
(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٥ و ١١٦ .
(٤) روض القرطاس ص ١٢٦ .

عن الطاعة ، وبعثوا إلى يحيى بن أبي بكر الصحراوي ، فوفد إليهم مع زعيم آخر من خصوم الموحدين يدعى الحاج بن مركونة ، وارتدت كذلك قبيلة لمطة وتزعم ثورتها محمد بن آمرجال ، ثم ارتدت قبيلة إيت ييغز ، وساروا إلى تازاجورت واقتحموها ، وقتلوا حاكمها الموحدى ، وأما زير بن حواء الهنتانى ، فاهتم عبد المؤمن لهذه الحوادث ، وسير الشيخ أبا حفص فى حملة قوية لإخماد الثورة ، فخرج إلى السوس ، وقتل بنى ييغز ، ففروا إلى حيث كان الصحراوي ، ثم سار إلى سيروان ، حيث هزم بنى واوزجيت ، وقسمهم إلى قسمين ، قسم ضمه إلى أهل تينملىل وقسم ضمه إلى هنتانة ، ثم عاد إلى مراکش حيث أمر الخليفة بحشد قوات جديدة ، وخرجت هذه القوات بقيادة أبى حفص ، وأربعة آخرين من أكابر القادة الموحدين ، هم وسنار ، وعبد الله بن أبى بكر بن ونكى ، وعبد الله بن فاطمة ، وعمر بن ميمون ، وسارت كل قوة منها إلى منطقة من المناطق الثائرة ، وهوجمت قبائل لمطة ، وهشتوكة ، وتاسريرت وآهوكار وغيرها من القبائل الثائرة ، وهزمت جميعاً ، وأذعن بعضها إلى التوحيد ، وأخذت غنائمها وسبها إلى مراکش ، وبلغ نصيب الخليفة من تلك الغنائم ، ثمانمائة ناقة^(١) ، ووقعت هذه الحوادث ، فيما يرجح فى أوائل سنة ٥٤٩ هـ (سنة ١١٥٤ م) .

ولما تم إخضاع القبائل الثائرة والمرتدة على هذا النحو ، غادر عبد المؤمن مراکش إلى تينملىل ، وهناك زار قبر المهدي ، وفرق فى أهلها أموالاً كثيرة وأمر ببناء مسجدها ، وتوسيع خططها^(٢) .

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٧ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٦ .

الفصل السابع

فتح المهديّة

وإجلاء الفرنج عن إفريقية

غزوات الفرنج النورمانيين لشغور إفريقية . استيلاؤهم على طرابلس والمهديّة . فرار الحسن الصنهاجي أمير المهديّة وآله . انتهاء مملكة بني زيري . استيلاء الفرنج على سوسة و صفاقس . التجاه الحسن إلى عبد المؤمن . إحجام عبد المؤمن حين غزوه لبجاية عن مهاجمة الفرنج . استيلاء الفرنج على بونة . وفاة الملك رجار النورمانى . بداية الثورة في إفريقية ضد الفرنج . الثورة في جزيرة جربة و صفاقس و طرابلس و قابس . انزاع الموحدين لبونة . فشل الثورة في المهديّة وزويلة . استغاثة أهل إفريقية بعبد المؤمن . تأهبه للجهاد ضد الفرنج . مسير عبد المؤمن في قواته إلى رباط الفتح . تكامل الحشود وتضخمها . مسير عبد المؤمن إلى إفريقية ومعه الحسن الصنهاجي . مسير الأسطول في البحر إلى شاطئ إفريقية . استيلاء عبد المؤمن على تونس . شروط الأمان الممنوح لها . عبد المؤمن يهاجم المهديّة ثم يحاصرها . دخول صفاقس و طرابلس و جبال نفوسة في الطاعة . افتتاح الموحدين لقابس . معركة بحرية بين الموحدين و الفرنج . تسليم المهديّة بالأمان . إتمام تحرير إفريقية من يد الفرنج . المناوشات بين عبد المؤمن وبين العرب . أصل أولئك العرب الأفارقة . نزوحهم إلى مصر . قصة نزوحهم إلى إفريقية . عبورهم إلى الغرب ونزولهم به . محاولة استمالة المعز بن باديس لهم وغيثهم بأراضيه . الحرب بينهم وبين البربر . هزيمة المعز وفراره إلى القيروان . حصار العرب للقيروان . دخولهم إياها وتخريبهم لها . تخريبهم لتونس ونهبها . نزولهم في المهديّة . قطعهم السبل وبسطهم لحكم الإرهاب في إفريقية . سيطرتهم على طرابلس و قابس و بلاد الزاب . تحويلهم إلى عنصر خطر بغيض . اعتداؤهم على قابس ، واستنقاذ عبد المؤمن لها . تفكير عبد المؤمن في حشد طوائفهم في عسكره . تظاهرهم بالتبول و غدرهم . محاصرة الموحدين لهم وفتحهم بهم . عبد المؤمن يرد حريمهم ويستميلهم بصلاته . عبور عبد المؤمن إلى الأندلس .

لما افتتح الموحدون بجاية معقل إفريقية^(١) من الغرب ، في أواخر سنة ٥٤٧ هـ ، وقضى عبد المؤمن على سائر الثورات والمؤامرات التي دبّرت ضده سنة ٥٤٩ هـ ، وقصد على أثر ذلك إلى تينملل ، وزار قبر المهدي ، كانت الظروف تهيئاً لمرحلة جديدة من الفتح الإفريقي . وكانت الحوادث في إفريقية ، قد تطورت خلال هذه الأعوام الأخيرة تطوراً سيئاً ، واستفحل عدوان الفرنج النورمانيين أصحاب صقلية ، على الشغور التونسية ، والشواطئ المجاورة . وكان الفرنج

(١) يقصد بإفريقية هنا « منطقة تونس » .

النورمان قد استولوا على جزيرة جربة الواقعة في مدخل خليج قابس منذ سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) ، بعد أن قاومهم أهلها مقاومة عنيفة ، ثم حاولوا الاستيلاء على ثغر طرابلس في سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) . فهاجموه بأسطول قوي ، ولكنهم فشلوا وردهم أهله المسلمون بخسارة فادحة ، وكانت طرابلس وقتئذ تابعة لمملكة إفريقية (تونس) ، ولكنها لم تكن تدين بالطاعة للملكها الأمير الحسن بن علي بن يحيى الصنهاجي . ثم عاد رُجَّار (روجر) ملك صقلية ، فجهز إلى طرابلس أسطولاً ضخماً ، واستطاع الفرنج هذه المرة الاستيلاء عليها (٥٤١ هـ - ١١٤٦ م) وولوا عليها رجلاً من بني مطروح . وفي العام التالي (٥٤٢ هـ) أعلن يوسف صاحب قابس المتغلب عليها طاعته للفرنج ، فبعث الأمير الحسن جيشاً لقتاله ، فنازل قابس وحاصرها ، وثار أهل البلد بيوسف ، فأسر وعذب وقتل ، وفر إخوته وأولاده إلى صقلية ، واستغاثوا بملكها رجار الثاني . وكانت الهدنة معقودة بين رجار وبين الحسن لمدة سنتين ، ولكن رجار علم ما تعانيه إفريقية والمغرب في هذه الفترة ، من الشدة الغلاء والقحط ، ولم يرد أن تفوته هذه الفرصة السانحة لمهاجمة إفريقية ، وانتزاع ما يمكن انتزاعه منها . فسير إلى مياه إفريقية أسطولاً ضخماً قوامه مائتي وخمسين سفينة مشحونة بالرجال والسلاح والأقوات ، بقيادة أمير البحر جرجي الأنطاكي ، وكان قبل التحاقه بخدمة ملك صقلية ، أميراً لأسطول إفريقية الإسلامي ، ومن ثم كان عامه بأسرار هذه الشواطئ . واستولى الأسطول في طريقه على جزيرة قوصرة (بنتلاريا) الواقعة بين صقلية ، وبين الشاطئ التونسي ، ثم سار نحو الجنوب الغربي ، وقصد إلى ثغر المهديّة ، وهي قاعدة مملكة بني زيري الصنهاجين . وكان ذلك في اليوم الثاني من صفر سنة ٥٤٣ هـ (يونيه ١١٤٨ م) . وكان أمير البحر جرجي يرجو مفاجأة المدينة ، بالوصول إليها في وقت السحر ، ولكن الرياح عاكسته ، ولم يصل إلا في الضحى ، فرآه أهل المدينة ، وانزعج الأمير الحسن الصنهاجي من قدوم الفرنج ، وبعث إليه جرجي يخاطبه باللين ، ويقول إنه مازال يحترم الهدنة المعقودة بينه وبين الملك رجار ، ولكنه يطالب بثأر صاحب قابس وردّها إلى ولده ، ويطلب أن تنضم إليه قوة من جنود الحسن ، فجمع الحسن فقهاء المدينة وأعيانها ، وشاورهم في الأمر ، وبين لهم حرج الموقف ، وتخوفه من قيام الفرنج بحصار المدينة ، وقطع الأقوات عنها ، ثم اقتحامها عنوة ، والفتك بأهلها ، ونصح بمغادرة الناس

للمدينة ، قبل أن يفوت الوقت ، ثم بادر هو بالخروج منها ومعه الأهل والولد ،
ومن صحبه من الفقهاء والأعيان ، وقد حمل معه كل ما يستطيع من المال والذخائر ،
وتبعه معظم الناس ، فخرجوا بأهلهم وأولادهم ، ومعهم ماخف حمله من أموالهم
ومتاعهم . ولم يكذب يأتى العصر حتى كان معظم أهل المهدية قد غادروها ، وأقبل
الفرنج وعلى رأسهم جرجى ودخلوا المدينة دون ممانعة ، ودخل جرجى القصر ،
وكان ما يزال غاصباً بنفيس المتاع والرياش والذخائر ، وبه عدة من جوارى
الحسن ، فاحتاط الفرنج على ما فيه ، ونهبت المدينة مدى ساعتين ، ثم نودى
بالأمان ، فظهر من استخفى من أهل المدينة ، واستدعى جرجى العرب القريبين
فأحسن إليهم ، وفرق فيهم أموالاً جزيلة ، وبعث طائفة من جند المهدية ، فى أثر
من خرج من أهلها ، ومعهم الأمان لهم ، ومعهم كذلك دواب يعودون عليها ،
فعاد معظمهم . أما الحسن ، فسار فى أهله وولده ، وكانوا اثنا عشر ولداً غير
الإناث ، والخاصة ، وقصد إلى أمير من أمراء العرب يدعى محرز ، وكان
أبو الحسن قد آثره وأحسن إليه ، فأكرم محرز وفادته ، فأقام لديه شهوراً . ثم
بعث إلى ابن عمه يحيى بن العزيز بالله صاحب بجاية ، يستأذنه فى الوفود عليه
والانضواء تحت لوائه ، والسفر من لديه إلى الخليفة عبد المؤمن ، فأذن له يحيى ،
ولكنه ما كاد يصل إلى بلاده ، حتى سيره إلى جزائر بنى مزغنة ، أو بنى مزغنان
(وهى الجزائر الحالية) وأنزله بها هو وأولاده فى حالة اعتقال ، وضيق عليه .
وهكذا انتهت باستيلاء الفرنج على المهدية ، وعزل الحسن ، مملكة بنى زيرى
ابن مناد الصنهاجيين ، بعد أن لبثت فى إفريقية منذ رحل المعز لدين الله عنها إلى مصر ،
فى سنة ٣٦١ هـ ، وتولى زيرى بن مناد حكمها ، حتى سقطت المهدية فى سنة ٥٤٣ هـ ،
مائة وثمانين سنة ، ولم تمض أيام قلائل على استيلاء الفرنج على المهدية حتى سير
أمير البحر جرجى حملة بحرية إلى سوسة ، وكان واليها الأمير على بن الحسن ،
فغادرها ، وخرج عنها أهلها ، ودخلها الفرنج دون قتال فى الثانى عشر من شهر
صفر . وسير جرجى بعد ذلك حملة أخرى إلى صفاقس ، فاستولت عليها بعد
مقاومة عنيفة من أهلها ومن حلفائهم العرب ، وذلك فى الثالث والعشرين من
صفر . ثم نودى بالأمان ، فعاد الناس إلى سوسة وصفاقس ، وافتدوا حرمتهم
وأولادهم ، وأحسن الفرنج معاملتهم . ثم وصلت بعد ذلك كتب الملك رُجَّار
بمنح الأمان لسائر أهل إفريقية . وهكذا استولى الفرنج النورمانيون على شاطئ

إفريقية من ثغر طرابلس حتى خليج تونس (١).

ولما سار الخليفة عبد المؤمن في جيوشه من سلا في أوائل سنة ٥٤٦ هـ ، متجهاً إلى بجاية بغية فتحها ، واستولى في طريقه على جزائر بني مزغنة ، خرج إليه منها الحسن بن علي الصنهاجي ، وكان معتقلاً بها كما تقدم ، وبايع عبد المؤمن بالطاعة ، ملتجئاً إليه ومستظلاً برعايته ، فأكرم عبد المؤمن مثواه ، وصاهره بأن تزوج ابنة من بناته ، واصطحبه معه إلى مراکش . وبالرغم من تقدم الفرنج والنورمانين على هذا النحو ، في امتلاك ثغور إفريقية ، فإن الظروف التي كانت تحيط بالموحدين يومئذ ، لم تكن تسمح لعبد المؤمن ، بأن يدخل في صراع مع الفرنج ، وهو مازال يعمل على توطيد أركان الدولة الجديدة ، ومطاردة أعدائها في الداخل ، ومن ثم فإنه بعد أن افتتح بجاية ، وقضى على شغب العرب المخالفين لبني حماد ، عاد إلى سلا ثم إلى مراکش ، ليواجه أحداثاً جديدة في الداخل . ولكن الفرنج الصقليين لم يقفوا عند حد . ذلك أنه لم تمض بضعة أعوام على افتتاحهم للمهدية ، وبقي ثغور إفريقية (تونس) الشرقية ، حتى سار من صقلية أسطول فرنجي جديد بقيادة أمير البحر فيليب المهدي ، وقصد إلى مدينة بونة ، الواقعة شرقي بجاية ، في منتصف المسافة بينها وبين تونس ، فحاصرها واستعان على أخذها بالعرب ، وذلك في شهر رجب سنة ٥٤٨ هـ (أكتوبر ١١٥٣ م) . وبالرغم من أن فيليب قد سبي أهل بونة ، واستصفي أموالها ، فإنه أغضى عن جماعة الفقهاء والعلماء ، فتركهم يخرجون بأهلهم وأموالهم ، فترتب على ذلك أن اتهمه بعض خصومه بأنه نصراني مارق ، وأنه يبطن الإسلام هو وفتيانه ، فقبض عليه الملك رُجار ، وحكم عليه بالموت حرقاً . وتوفي رُجار بعد ذلك بقليل (فبراير ١١٥٤ م) وخلفه في الملك ولده ، ولیم ، وهو المسمى في الرواية العربية غليالم . ولم يكن ولیم يتمتع بكثير من مقدرة أبيه وحزمه ، فلم تلبث أن اضطربت شئون المملكة ، وثار عليه بعض النواحي ، وكان لذلك أثره في تطور الحوادث في إفريقية .

ذلك أن أهل الثغور الإسلامية المفتوحة ما كادوا يشعرون باضطراب الأحوال في صقلية ، حتى بادروا بإعلان الخلاف ، ونبذ طاعة الفرنج ، وكان أول من ثار منهم أهل جزيرة جربة ، ثم تلتها مدينة صفاقس ، وكان واليها عمر بن

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٧ - ٤٩ .

أبي الحسن الفرياني ، قد ولى عليها من قبل رُجار ، وأخذ أبوه الشيخ أبو الحسن إلى صقلية رهينة بحسن طاعته ، ولكن أبا الحسن أوعز إلى ولده بأن ينتهز أول فرصة لتحطيم نير الفرنج ، ولايبالي في ذلك بمصيره . فأعلن عمر الخلاف ، ودعا أهل المدينة إلى قتل الفرنج وسائر النصارى ، ففتكوا بهم ، وقتلواهم عن آخرهم ، وكان ذلك في أوائل سنة ٥٥١ هـ (أوائل ١١٥٦ م) . واضطربت الثورة ضد الفرنج في نفس الوقت في طرابلس بقيادة شيخها أبي يحيى بن مطروح ، وكان زعيماً شهماً حازماً ، وأسرت الحامية النصرانية (أوائل ٥٥٣ هـ) ، وكذلك اضطربت الثورة ضد الفرنج ، في قابس ، وسارت قوة موحدية من بجاية إلى مدينة بونة ، وانتزعتها من الفرنج ، ولم يبق بيد الفرنج من ثغور إفريقية سوى سوسة والمهدية . وحرص عمر بن أبي الحسين والى صفاقس ، أهل بلدة زويلة الواقعة على مقربة من المهدية ، أن يقتلوا النصارى ففعلوا ، وعاونهم العرب على قطع المؤن والأقوات عن المهدية . ولما علم الملك ولیم بذلك ، حاول أن يدفع الفقيه أبي الحسن إلى نصيح ولده ، وبعث يتهدد عمراً بالويل ، إذا لم يعدل عن سلوكه ، فلم تنجح المحاولة ، وأمر ولیم بأبي الحسن فصلب أو شق وهو يتلو القرآن^(١) . واجتمع أهل زويلة وصفاقس ومن معهم من الأعراب ، وحاصروا المهدية ، وضيقوا عليها ، فبعث ولیم إلى المهدية عدداً من السفن المشحونة بالرجال والأقوات ، واستمال الفرنج الأعراب بالمال والأعطية ، فانسحبوا من المعركة وانحصر القتال بين الفرنج وأهل صفاقس وزويلة ، واستطاع أهل صفاقس الانسحاب بطريق البحر ، ووقع عبء القتال كله على أهل زويلة ، فارتدوا إلى بلدهم ، وقاتلوا تحت أسوارها حتى فنى معظمهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا بها من النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال ، واستقر الفرنج بالمهدية ، على أهبة للصراع المرتقب^(٢) .

ووفد على عبد المؤمن ، وهو يومئذ بمراكش ، وفود من زويلة ، وغيرها من الثغور المنكوبة يستغيثون به ، ويستصرخونه لرد عادية الفرنج عنهم وعن أرض الإسلام ، فأكرم وفادتهم ووعدهم خيراً . وكان الحسن بن علي الصنهاجي أمير المهدية السابق ، ما فئى منذ نزوله في كنف عبد المؤمن ، يحرصه

(١) رحلة التجاني (تونس ١٩٥٨) ص ٧٥ و ٢٤٢ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٦ و ٧٧ .

على استنقاذ إفريقية ، وتحريرها من نير الفرنج ، وكان عبد المؤمن نفسه ، يرقب تقدم الفرنج في هذا الركن من شمال إفريقية ، بكثير من التوجس ، ويخشى أن يتفاقم عدوانهم بالتوغل في أرجاء أخرى من شمالي المغرب . ومن ثم فإنه ما كاد ينتهي من تنظيم الشؤون الداخلية ، حتى أمر باتخاذ الأهبة للجهاد ، وأن تجمع الأقوات ، وتحضر الآبار في الطرق ، وبعث كاتبه عبد الملك بن عيَّاش ، بالكتب إلى سائر قبائل الموحدين ، يستنفرهم للجهاد ، وادخار المؤمن ، وكتب إلى أهل الثغور البحرية بإنشاء السفن والأجفان . وكان عبد المؤمن ، بعد أن نكب وزيره وكاتبه أبا جعفر بن عطية ، وأمر بقتله (صفر سنة ٥٥٣ هـ) حسبما تفصل في موضعه ، قد استوزر مكانه عبد السلام بن محمد الكومي ، وعين لكتابته عبد الملك بن عيَّاش القرطبي . وفي فاتحة شوال سنة ٥٥٣ هـ (نوفمبر ١١٥٨ م) ، غادر عبد المؤمن حضرة مراكش ، وسار إلى رباط الفتح ، قبالة ثغر سلا ، مستخلفاً على مراكش الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاني ومعه ولده أبو الحسن على ، وعلى فاس أبا يعقوب يوسف بن سليمان . وتوافدت عليه العساكر من كل صوب . فلما تكامل ورود الجيوش الموحدية ، تحرك عبد المؤمن من سلا في العاشر من شهر صفر سنة ٥٥٤ هـ (فبراير ١١٥٩ م) ومعه الحسن بن علي الصنهاجي أمير إفريقية السابق^(١) . وتقدر الرواية هذا الجيش الموحدى الكبير بمائة ألف مقاتل ومعهم مثل هذا العدد من الأتباع والسوقة^(٢) . وفي رواية أخرى أنه كان يضم خمسة وسبعين ألف فارس ، وخمسمائة ألف من الرجالة ، وكان يضم عدا طوائف الموحدين ومختلف القبائل من زناتة والأغزاز والرماة وغيرها ، جموعاً كبيراً من قبائل العرب . وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، لكل عسكر يوم يختص به ، مسيره في كل مرحلة من السحر إلى وقت الغداة . وتنزل الجيوش مريحة إلى يوم آخر^(٣) . واخترق هذا الجيش الحرار هضاب المغرب ، متجهاً نحو إفريقية ، واخترق بلاد الزاب من جنوبها ، وهو يفتح المعازل الممتنعة ، ويؤمن من استأمن . ثم اتجه نحو الشمال فوصل إلى أحواز مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الثانية ، ومعنى ذلك أنه قطع هذه المسافة الشاسعة ، وهي تبلغ نحو ألف

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٣٨ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٩١ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٩١ .

(٣) الحلل الموشية ص ١١٥ .

وثلاثمائة ميل في نحو أربعة أشهر ونصف ، وقد كانت يومئذ « مسيرة سبعين يوماً للفارس المحد » . وسار الأسطول الموحدى في نفس الوقت قبالة شاطئ البحر المتوسط بقيادة أبي عبد الله بن ميمون ، وكان مكوناً من سبعين سفينة حربية ، من الشوانى والطرائد والشلندرات . ولما وصل الموحدون إلى المدينة ، بعث عبد المؤمن إلى أهلها يطلب الطاعة ، فرفض أهل المدينة ، وعلى رأسهم حاكمها أحمد بن خراسان ، فبدأ الموحدون مهاجمة المدينة ، وعاقبت الرياح الأسطول عن دخولها من ناحية البحر ، فلما دخل الليل ، أقبل سبعة عشر رجلاً من أعيانها يطلبون الأمان لأهلها ، فمنحهم عبد المؤمن الأمان المطلوب لأنفسهم ، وارتضى الأمان لأهل المدينة في أنفسهم وأهلهم فقط ، على أن يقاسمهم الموحدون أملاكهم وأموالهم بحق النصف ، وأن يخرج حاكم البلد وأهله منها ، فاستقر الرأي على ذلك ، ودخل الموحدون المدينة ، ورصدت الأملاك والأموال ، وأقيم عليها الأمان لتحصيل ما يستحق منها للموحدين ، وأقام بها عبد المؤمن ثلاثة أيام ، وعرض الإسلام على من بها من النصارى واليهود ، وأمر بقتل كل ممتنع عن اعتناقه ، ثم غادر عبد المؤمن تونس في قواته ، وسار جنوباً إلى المهديّة ، والأسطول يلاحقه في البحر ، فوصل إليها في الثامن عشر من شهر رجب سنة ٥٥٤هـ (٥ أغسطس ١١٥٩ م) .

وكان الفرنج بالمهديّة على أهبة للدفاع ، وكانت حاميّها تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل ، وكانت المدينة فوق ذلك تموج بطوائف الأشراف والفرسان الفرنج^(١) ، وقد أخلى الفرنج ضاحيتها الشمالية زويلة ، فدخلها عبد المؤمن ، واحتلها الحند الموحدون والسوقة ، وانضمت إليهم جموع غفيرة من العرب وصنهاجة . وأخذ الموحدون في منازلة المدينة ، ولكنهم لم يستطيعوا خلال ثلاثة أيام من الهجوم المستمر ، أن ينالوا منها شيئاً ، وكانت بمناعة موقعها الطبيعي ، والبحر يكاد يحيط بها إلا من لسان متصل بالبر ، وبأسوارها الحصينة العالية ، ترد كل محاولة ، وكان الفرنج يخرجون منها بين آن وآخر لمقاتلة الموحدين ، فيتألون منهم ، ثم يعودون بسرعة إلى الاعتصام بالمدينة . وعندئذ أدرك عبد المؤمن أنه لا سبيل إلى اقتحام المدينة ، وأنه لا بد من أخذها بالحصار والمطاوله ، وأمر بجمع الغلال والأقوات ، فجمعت حتى صارت بين العسكر كالجبال . واستمر

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٩ ، والحلل الموشية ص ١١٧ .

الحصار زهاء ستة أشهر . وفي أثناء ذلك أعلنت مدينة صفاقس ، ومدينة
طرابلس ، وجبال نفوسة ، وقصور إفريقية ، كلها الطاعة لعبد المؤمن ، وجاء
والى صفاقس عمر بن الحسين مع جماعة من الأشياخ فقدموا طاعتهم ، وعين
لهم عبد المؤمن حافظاً من الموحدين ، وترك الشؤون الخزنية لعمر ، وكذلك جاء وفد
من أعيان طرابلس وعلى رأسه واليها أبو يحيى بن مطروح ، وبايعوا عبد المؤمن
بالطاعة فأقر عبد المؤمن أبا يحيى على ولايته ، واستمر في رياسته عصراً
وسار جيش موحدى بقيادة السيد عبد الله بن عبد المؤمن ، وقيل بقيادة الوزير
محمد بن عبد السلام الكومى إلى مدينة قابس ، فافتتحها بالرغم من خروج قاضيها
وأعيانها لطلب الأمان ، ونهبت أموالها ، وأيد من كان حولها من طوائف
العرب . وفر واليها مدافع بن رشيد بن مدافع في أهله وصحبه . ثم عاد بعد فترة
من التشريد ، فاستجار بعبد المؤمن فعفا عنه ، وأسكنه بقابس حتى توفى
وكان مدافع عالماً حافظاً وأديباً شاعراً (١) .

وجاء وفد من أعيان قفصة ، وعلى رأسهم واليها يحيى بن تميم بن المعز ،
ليقدموا طاعتهم إلى عبد المؤمن ، فتقبلها منهم ، ومدح عبد المؤمن شاعرهم
الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشى ، بقصيدة مطلعها :

ماهرٌ عطفه بين البيض والأسل مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن على

ويقال إن عبد المؤمن لما سمع هذا البيت ، أشار على الشاعر بأن يقتصر عليه ،
وأمر له بصلة قدرها ألف دينار (٢) .

ولم تمض بضعة أسابيع على بدء الحصار ، حتى قدم أسطول فرنجى كبير ،
مكون من مائة وخمسين سفينة ، مشحونة بالأقوات والمقاتلة لإمداد الفرنج .
وكان هذا الأسطول قد عاد من جزيرة يابسة ، إحدى الجزائر الشرقية بعد
ما أثنى فيها ، وسبى أهلها ، فلما قرب من صقلية ، بعثه الملك ولیم لإنجاد حامية
المهدية ، فلما اقتربوا من الخليج ، خرج إليهم الأسطول المغربى بقيادة أبى عبد الله
ابن ميمون ، ونشبت بين الأسطولين معركة بحرية عظيمة انتهت بهزيمة الفرنج ،
واستيلاء المسلمين على عدة من سفنهم . ويقال إن عبد المؤمن كان خلال المعركة

(١) رحلة التجانى ص ٧٦ و ١٠١ و ٢٤٣ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٩١ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ .

يمرغ وجهه في الأرض باكياً ، وهو يدعو للمسلمين بالنصر فحقق الله دعاءه^(١) واستمر الحصار على أشده بضعة أشهر أخرى ، حتى آخر شهر ذي الحجة من سنة ٥٤٩ هـ وقد نصبت الأقوات ، وأخذ الضيق يرهق المحصورين ، فلما رأى الفرنج ما رأوا من ضخامة جيوش عبد المؤمن وأساطيله ، وأنه لا أمل لهم في النجاة من مصيرهم المحتوم ، خرج منهم عشرة فرسان ، وقابلوا عبد المؤمن وسألوه الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ، وأن يتركهم أحراراً يخرجون من المدينة ، ويذهبون إلى ديارهم ، فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوه ، وجعل لهم السفن ليعبروا البحر فيها . وكان تصرفاً مقروناً بالحكمة ، لأن صاحب صقلية الملك ولهم ، كان قد أنذر بقتل المسلمين في بلاده وانتزاع أموالهم ، وسبي حريمهم ، إذا أقدم الموحدون على قتل الفرنج في المهديّة . ومع ذلك فقد غرق كثير من السفن التي كانت تحمل الفرنج إلى صقلية من جراء العواصف وثورّة الموج . ودخل عبد المؤمن ثغر المهديّة في صبيحة يوم عاشوراء من الحرام سنة ٥٥٥ هـ (٢١ يناير سنة ١١٦٠ م) وقد سماها عبد المؤمن سنة الأخماس . وأقام بالمهديّة عشرين يوماً يرتب شئونها ، ويصلح أسوارها ، ويشحنها بالذخائر والأقوات . ثم ندب لولايتها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي ، وجعل معه صاحبها القديم الحسن بن علي الصنهاجي ، وأقطعه بها إقطاعاً حسناً . وهكذا استطاع عبد المؤمن ، أن يقضي على عدوان الفرنج الصقليين على ثغور إفريقية ، بعد أن كاد يستقر ويتأثر ، وأن يحررها من نير النصرانية ، وأن يردّها إلى صولة الإسلام ، بعد أن خرجت عنها اثني عشر عاماً ، مذ سقطت في أيدي الفرنج في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)^(٢) . وفي فاتحة صفر سنة ٥٥٥ هـ ، غادر عبد المؤمن ثغر المهديّة ، وسار في قواته عائداً إلى المغرب . بيد أنه قبل أن يغادر أراضي إفريقية ، وقعت بينه وبين العرب بعض مناوشات ومعارك .

وكان أولئك العرب ومعظمهم من بطون هلال وسليم من مضر ، قد نزحوا إلى إفريقية منذ أوائل القرن الخامس الهجري . وكانت أحياء بني سليم بالحجاز على مقربة من المدينة ، وأحياء بني هلال في جبل غزوان عند الطائف ، ومنهم جشم

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ . وراجع مواقع غزوات المهديّة في الخريطة المنشورة في ص ٢٨٣ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ ، والحلل المشوية ص ١١٧ و ١١٨ ، والبيان المغرب

القسم الثالث ص ٣٩ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٥ و ١٥٦ .

والأثبيج وزغبة ورياح وربيعة وعدى . وكانوا يزحفون أحياناً إلى أطراف العراق والشام ، ويقطعون الطرق ، ويفسدون السابلة ، وأحياناً كان بنو سليم يعتدون على الحاج أيام موسمهم بمكة ، وأيام الزيارة بالمدينة . واستمرت البعوث والكتائب تجهز لمعاقتهم ، وحماية الحاج من شرهم ، ولكن دون جدوى . ولما ظهر القرامطة بالبحرين في أوائل القرن الرابع الهجري لحق بهم بنو سليم ، وبنو هلال ، وكثير من بطون ربيعة بن عامر . ولما تغلب القرامطة على الشام ، وأخذوا يهددون مصر ، وظفر الخليفة العزيز بالله بهزيمتهم وردهم ، استبقى أشياعهم من العرب من بنى هلال وسليم بمصر ، وأنزلهم بالصعيد وفي الصحراء الشرقية ، فأقاموا هناك ، ولكنهم لم ينقطعوا عن عيشتهم وفسادهم .

وهنا تأتي قصة نزوحهم إلى إفريقية . وكان المعز لدين الله الفاطمي ، حينما انتقل من إفريقية إلى مصر في سنة ٣٦١ هـ ، قد استخلف على إفريقية يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي ليحكم باسم الخلافة الفاطمية وتحت سيادتها . ثم تطورت الظروف وعمل آل زيري على تدعيم استقلالهم ، حتى فسد الأمر بينهم وبين الخلافة الفاطمية ، فخلعوا طاعتها الإسمية ، وأعلن المعز بن باديس الصنهاجي انضواءه تحت لواء الخلافة العباسية (سنة ٤٣٧ هـ) ، فعز ذلك على الخلافة الفاطمية ، وغضب الخليفة المستنصر بالله ، وأخذ البلاط الفاطمي يبحث عما يمكن فعله لمقابلة هذا الإجراء ، الذي اعتبر خروجاً على الخلافة الفاطمية ، واعتداء على حقوقها الشرعية .

وكان العرب من بنى سليم وهلال الذين أنزلوا بالصعيد قد تكاثروا ، وتفاقم عيشتهم وشرهم ، فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي اليازوري ، على الخليفة المستنصر باستمالة أشياخهم ، وتقليدهم أعمال إفريقية وشئونها ، ليكونوا هناك أولياء للدعوة الشيعية ، وليعملوا على نصرتها إزاء آل زيري المنتزعين عليها ، فإن نجحت الفكرة وبقي أولئك على ولائهم ، كان ذلك كسباً للخلافة الفاطمية وتقوية لجانبها ، هذا فضلاً عن انقطاع عيشتهم بنواحي مصر ، وإن كان الأمر بالعكس فهم وشأنهم . فوافق المستنصر على ذلك الرأي ، وبعث وزيره إلى العرب في سنة ٥٤١ هـ ، فسار إلى أحيائهم ، وبذل العطاء الوفير لأشياخهم ، وفرق في عامتهم بغيراً وديناراً لكل منهم ، وأباح لهم عبور النيل ، وقال لهم قد أعطيناكم ملك المغرب ، وملك المعز بن باديس .

فتارت أطماع أولئك العرب ، وأغراهم ما سوف ينالونه في إفريقية من أسباب الثراء والسلطان ، وجازت النيل من بطون سليم وهلال جموع غفيرة وساروا إلى برقة ، ونزلوا بها ، واقتحموا أمصارها ، واستباحوها ، واستولوا على أسلابها ، وبعثوا إلى إخوانهم في شرقي النيل يرغبونهم في اللحاق بهم ، فجازت منهم جموع أخرى بعد أن أعطوا دينارين لكل رأس ، واقتسموا الأراضي المفتوحة ، فحصل لبني سليم الشرق ، ولهلال الغرب ، وأقامت طوائف من سليم وأحلافها برواحة وناصره وعمرة من أرض برقة . وسارت قبائل دياب وزغبة وجميع بطون هلال إلى إفريقية ، وهم « كالجراد المنتشر لا يعمرون على شيء إلا أتوا عليه » حتى وصلوا إلى إفريقية وذلك في سنة ٤٤٣ هـ . وكان أول من وصل إليها من أشياخهم أمير رياح موسى بن يحيى الصنبري ، وكان المعز بن باديس حينما رأى تقاطر العرب نحو أراضيه ، قد فكر في استيانتهم ومخالفتهم ، فاستدعى موسى إليه وقربه وأصهر إليه ، وحثه على استدعاء العرب ، وذلك لكي يقوى جانبه بمؤازرتهم ، فاستنصرهم وجلبهم . ولكنهم عاثوا في البلاد أما عيث ، ونادوا بشعار الخلافة الفاطمية ، واهتدوا على أحياء صنهاجة ، فغضب المعز ، وقبض على أخى موسى ، وخرج بقواته إلى ظاهر القيروان ، واستعان بابن عمه حماد بن بلقين صاحب القلعة ، فبعث إليه بالأمداد ، والتفت حوله زناتة والبربر ، وصمد في حشوده الحرارة للعرب ، وكانوا وفقاً لأقوال الرواية في ثلاثين ألفاً ، وفي مقدمتهم رياح وزغبة وعدى . فلما التقى الفريقان انحذل العرب من أنصار المعز ، وخانته زناتة ، فكانت عليه الهزيمة ففر في فلوله الباقية إلى القيروان ، ونهب العرب جميع محلاته ، وقتلوا من حشوده أكثر من ثلاثة آلاف . ثم حاصر العرب مدينة القيروان ، وطال حصارها ، وخرب العرب أحوازها ، وعاثوا فيها أما عيث ، وطوقت زغبة ورياح المدينة ، ففر منها الأعيان والقراية من آل زيرى ، وفر كثير من أهلها إلى تونس . وملك العرب في نفس الوقت قسنطينة وسائر أعمالها ، واقتسموا بلاد إفريقية ، وذلك في سنة ٤٤٦ هـ ، فكان لزغبة طرابلس وأحوازها ، ولمرداس من رياح باجة وما إليها ، ثم اقتسموها مرة أخرى ، فكان لهلال من تونس إلى الغرب ، وبتونهم رياح وزغبة وجشم وقررة والأثبج وسفيان .

وغلب عائد بن أبي الغيث من شيوخهم على تونس ، ونهبها ، وملك أبو مسعود

سوسة صلحاً . ورأى المعز بن باديس ما كرهه يتصرم ، فحاول التقرب من العرب ، وصاهر بيناته الثلاث ثلاثة من أمراءهم ، هم فارس بن أبي الغيث وأخوه عائد ، والفضل بن أبي علي المرادي ، ولكن ذلك لم يحقق له ما أمل ، فسار إلى القيروان وسار العرب في أثره ، فخشى أمرهم ، وانحرف نحو الشاطئ ودخل العرب مدينة القيروان وخربوها ونهبوها ، وعاثوا فيها أما عيث واستباحوا سائر حريمها ، واستصنفوا سائر أموال المعز وآله ، وفر عنها أهلها في سائر الأنحاء . وسار العرب بعد ذلك إلى المهديّة ، فنزلوها ، وضيقوا على أهلها ، وكثر فسادهم وعيهم وتصدت زناة بعد صنهاجة لمقاومتهم ، فغلبوا عليها ، واستولوا على سائر الضواحي والأعمال في تلك المنطقة . واضطرب أمر إفريقية . وسادها الذعر والفرع ، وانهارت أركان الأمن ، وفسدت السابلة ، وبسط العرب عليها حكم عصابات مروع ، وغلبوا على صنهاجة وزناة ومغرواة وغيرها ، وسيطروا على نواحي طرابلس ، وقابس والزاب ، ومعظم أعمال إفريقية (١) .

ثم وقع التهادن والصلح بينهم وبين صنهاجة وبقية القبائل البربرية ، وتفرقوا في الضواحي والبوادي ، فتكاثروا في تلك الجهات ، وتأثّل نفوذهم وسلطانهم بمضي الزمن ، وأضحوا عاملاً بحسب حسابهم في ميزان القوى ، في إفريقية ، وفي بلاد الزاب ، والمغرب الأوسط . بيد أنهم لبثوا دائماً عنصراً من عناصر الاضطراب والفوضى ، يتنقلون بين مختلف الأحزاب والمعسكرات ، ويتدخلون في مختلف الحروب التي تنشب على مقربة من ديارهم ، لا تحذوهم في ذلك أية مثل سياسية أو دينية ، ولا هم لهم إلا اجتناء الكسب والمغانم ، من أي جانب وبأي الوسائل ، وقد رأينا ما وقع بينهم وبين الموحدّين من معارك ، على أثر افتتاح عبد المؤمن لبجاية . وقد كانوا أولياء لأمراءها من بني حماد ، يعيشون في كنفهم وتحت حمايتهم .

تلك هي قصة نزوح العرب إلى إفريقية وقصة تخريبهم لها . وقد نوه سائر الكتاب والمؤرخين المعاصرين والمتأخرين بتلك الروح العدوانية المخربة ، وتلك الخواص الذميمة التي سادت طوائف العرب النازحين ، وجعلت منهم عنصراً خطراً ، تتوق سائر السلطات وسائر العناصر الأخرى من السكان إلى سحقه

(١) ابن خلدون في كتاب العبر ج ٦ ص ١٣ وما بعدها .

وإبادته ، وإنقاذ العباد من شره وعدوانه^(١) . وسوف نرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه أولئك العرب فى حوادث إفريقية أيام نزول بنى غانية بها .
وكان عبد المؤمن حينما تم له فتح المهديّة ، وإجلاء الفرنج من إفريقية ، يتجه بكل جوارحه نحو شتون الأندلس . وكان يعتقد أنه يستطيع أن يستعين بطوائف المرتزقة من أولئك الأعراب ، فى حملات الجهاد التى يزمع تسييرها إلى شبه الجزيرة ، وكانت طائفة من بنى سليم قد اعتدت على مدينة قابس ، على أثر افتتاح الموحدين لها ، فبعث إليهم عبد المؤمن يعاتبهم ويستدنيهم ، ووجه إليهم فى ذلك شعراً من نظم القاضى ابن عمران . بيد أنهم تهادوا فى عدوانهم ، وتغلبوا على قابس ، فبعث عبد المؤمن عسكرياً لقتالهم ، وهو بالمهدية ، فهزمهم ، واستنقذ قابس من أيديهم^(٢) .

وفكر عبد المؤمن قبل عودته إلى المغرب ، أن يدعو العرب إلى الانتظام فى عسكريه ، فجمع زعماء العرب من بنى رياح وغيرهم ، وحثهم على نصره الإسلام بالأندلس ، وطلب إليهم أن يجهزوا لهذه الغاية عشرة آلاف فارس ، من أهل النجدة والشجاعة ، ليجاهدوا فى سبيل الله ، إلى جانب الجيوش الموحديّة ، فتظاهروا بالموافقة والطاعة ، وأقسموا على ذلك ، وساروا معه حتى جبل زغوان . وكان من بين زعمائهم ، زعيم يدعى يوسف بن مالك ، فاتصل بعبد المؤمن بالليل ، وأخبره بأن العرب لا يريدون المسير إلى الأندلس ، وأنهم يعتقدون أنه يريد بذلك أن يخرجهم من بلادهم ، وقد تحقق صدق ذلك فى الليلة التالية ، إذ هرب العرب تحت جنح الظلام إلى عشائهم ، ولم يبق سوى يوسف هذا ، فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق ، وسار عبد المؤمن فى قواته حتى وصل إلى مقربة من قسنطينة ، ونزل هناك فى وادى مخصب يقال له وادى النساء ، بعيداً عن أطراف العمران ، واستمر هنالك عشرين يوماً ، والسكينة ترفرف على جيوشه ، وقد انصرف العرب إلى أحيائهم التى يحتلونها . فلما علم عبد المؤمن باجتماعهم ثانية فى أحيائهم بعث إليهم جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل ، بقيادة ولديه أبى محمد وأبى عبد الله ،

(١) يشير ابن خلدون فى مواضع كثيرة إلى عيث أولئك العرب وتخريبهم لمدن إفريقية (راجع كتاب العبر ج ٦ ص ١٤ و ١٥ و ١٦) . ويشير الإدريسي إلى ذلك غير مرة (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٩٣ و ١٠٥ و ١٠٩ و ١٢٢) ، وكذلك صاحب الاستبصار فى عجائب الأمصار (ص ١٢٨ و ١٦١) ، وغيرهم .
(٢) الديان المغرب - القسم الثالث ص ٣٩ .

فسار الموحدون في هدوء ، وانعطفوا إلى الصحراء ، وراء أحياء العرب ، حتى لا يفتوا بالتوغل فيها ، وكان العرب قد احتشدوا جنوبي القيروان عند جبل القرن ، تحت إمرة بعض المشاهير من مقدميهم ، مثل أبي محفوظ محرز بن زياد ، ومسعود بن زمام ، وجبارة بن كامل بن سرحان وغيرهم ، فلما دههم الموحدون اضطربوا واختل نظامهم ، وفر مسعود وجبارة ومن معهما من العشائر ، وثبت محرز بن زياد ومن معه ، واشتبكوا مع الموحدين في معركة عنيفة ، وذلك في منتصف شهر ربيع الآخر من سنة ٥٥٥ هـ ، فقتل محرز ، وانهمت جموع العرب ، وسقط متاعهم وحریمهم وولدهم في أيدي الموحدين ، فأمر عبد المؤمن بالتحفظ عليهم ورعايتهم ، حتى أقبلت وفود رياح والأثيج ، في طلب حریمهم ، فردهن إليهم ، وفرق فيهم الصلوات ، واستمالهم بحسن صنيعه ، وانتهى بأن جهز منهم قوة لتشارك في الجهاد في الأندلس (١) . وسوف نرى فيما بعد أي دور هام يلعبه أولئك العرب ، في حوادث المغرب والأندلس ، وكيف تعتمد السياسة الموحدية إلى استمالهم والاستعانة بهم ، ولاسيما في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف ولد عبد المؤمن وخليفته .

وفي شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ (نوفمبر سنة ١١٦٠ م) عبر الخليفة عبد المؤمن البحر إلى الأندلس ، وكان عبوره إليها حادثاً هاماً من أشهر حوادث العصر ، وكانت له نتائج بعيدة المدى .

بيد أنه يجب قبل أن نتحدث عن عبور الخليفة الموحدى إلى شبه الجزيرة ، أن نستعرض ما تقدمه من الحوادث المتعلقة بموقف الموحدين من شئون الأندلس .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ ، ٩٣ .

الكتاب الثالث

ثورة القوى الوطنية بالأندلس
وتغلب الموحدين على شبه الجزيرة

الفصل الأول

الثورة في الأندلس

وانهيار سلطان المرابطين

صدي حوادث المغرب في الأندلس . اضطرام الفكرة القومية الأندلسية . قيام الثورة في غربى الأندلس . ابن قسى وأتباعه المريدون . دعوته ومزاعمه . ظهور أمره وفراره إلى ميرتلة . معاونة ابن القابلة . تخرج مركز المرابطين في الغرب . ابن قسى يدير خطة الاستيلاء على ميرتلة . مداومة ابن القابلة لحصن ميرتلة وانتزاعه . نزول ابن قسى فيه . قيام الثورة في يابرة وشلب . ابن المنذر المتغلب على شلب . تسليم المرابطين بباجة ، ومغادرتهم لها . استيلاء ابن المنذر عليها . مبايعة ابن وزير صاحب يابرة ، وابن المنذر لابن قسى . ابن قسى يرسل سفارة إلى عبد المؤمن . خروج ابن المنذر في قوات المريردين واستيلائه على ولبة وليلة . مسيره إلى إشبيلية وانتزاعه بعض ضواحيها . لقاءه بالمرابطين . هزيمته وفراره . مسير ابن غانية أمير المرابطين إلى لبة . وقوع الثورة بقرطبة وعود ابن غانية إلى إشبيلية . محاولة المريردين الزحف على قرطبة وفشلها . الخلاف بين ابن قسى وابن وزير . استيلاء ابن وزير على شلب وميرتلة . فرار ابن قسى إلى المغرب والتجاؤه إلى عبد المؤمن . إقناعه للخليفة بالتدخل في حوادث الأندلس . ابن غانية أمير المرابطين بالأندلس وموقفه . قيام الثورة في قرطبة . زعيمها القاضي ابن حمدين . مبايعته بالإمارة وتسميه بأمر المسلمين . استدعاء فريق من أهل قرطبة لسيف الدولة ابن هود . مقدمه إلى قرطبة ودخوله إياها . فرار ابن حمدين . الثورة ضد ابن هود وفراره . عودة ابن حمدين إلى حكم قرطبة . زحف ابن غانية على قرطبة . اللقاء بينه وبين ابن حمدين . هزيمة ابن حمدين وفراره . دخول ابن غانية قرطبة . تغلب ابن حمدين على حصن أندوجر وأحوازه . مسير ابن غانية لقتاله . التجاء ابن حمدين إلى ملك قشتالة . مسير ابن حمدين وحلفاؤه النصرارى إلى قرطبة . دخولهم المدينة وعيهم فيها . امتناع ابن غانية بقصبتها . ذبوع الأخبار بمقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة . التهادن بين قشتالة وابن غانية . ولاية ابن غانية لقرطبة . ما يروى في ذلك عن قيصر قشتالة . خروج ابن حمدين من قرطبة . عبوره إلى المغرب ومقابلته لعبد المؤمن . عوده إلى الأندلس والتجاؤه إلى صاحب مالقة . الثورة في غرناطة . زعيمها القاضي ابن أضحى . استنائه بابن حمدين . دعوة أهل غرناطة لسيف الدولة بن هود . تحالف ابن أضحى وابن هود ضد المرابطين . لقاء ابن هود والمرابطين خارج غرناطة . تحصن المرابطين بالقصبة . وفاة ابن أضحى وقيام ولده محمد . تعاونه مع ابن هود ضد المرابطين . مقدم عسكر مرسية لقتال المرابطين ، هزيمتهم ومقتل زعيمهم . مغادرة ابن هود لقرطبة والتجاؤه إلى جيان . رواية ابن الأبار عن مراحل الصراع في غرناطة بين المرابطين وخصومهم . الثورة في مالقة . ظاهرة تزعم القضاة للثورة ضد المرابطين وتعليلها . أبو الحكم بن حسون زعيم الثورة في مالقة . تغلبه على المرابطين وانتزاعه للرياسة . استعانته بالمرتزقة النصرارى . تدبير مؤامرة لإسقاطه . نجاح المؤامرة وانتحار ابن حسون . ثورة ابن ملحان في

وادي آش . ثورة ابن جزى في جيان . ثورة أخيل بن إدريس في رندة . ثورة ابن عزون في شريش . عبوره إلى المغرب ولقاؤه لعبد المؤمن . إنضمامه إلى الموحدين عند عبورهم . رواية أخرى عن ابن عزون وبيعتة لعبد المؤمن . قيام ابن ميمون في قانس . عبوره إلى المغرب وانضمامه إلى عبد المؤمن . ثورة ابن الحجام في بطليوس . دخوله في طاعة الموحدين .

كان من الطبيعي أن تحدث حوادث المغرب صدها القوى فيما وراء البحر ، في شبه الجزيرة الإسبانية ، حيث كانت الدولة المرابطية تبسط سلطانها على مختلف القواعد الأندلسية . وقد اتخذ هذا الصدى منذ البداية ، صورة ثورة عامة ضد المرابطين ، اجتاحت الأندلس بسرعة من غربها إلى شرقها . بيد أنه يجب أن نلاحظ بادئ ذي بدء ، أن هذه الثورة الحارفة ضد سلطان المرابطين لم تكن فقط نتيجة لحوادث المغرب ، وظهور أمر الموحدين ، وتضعف قوى الدولة المرابطية ، وعجز المرابطين عن حماية الأندلس من غزوات النصارى المخربة ، وإن كانت هذه الحوادث ، قد بثت إليها قوة واضطراباً جديدين . وإنما كانت عوامل الثورة الأندلسية ، ضد الحكم المرابطي ، تكمن منذ بعيد ، بل هي ترجع حسبنا أشرنا في مقدمة هذا الكتاب ، إلى أعقاب الفتح المرابطي ذاته ، حيث كانت الفكرة القومية تجيش بأذهان فريق كبير من أبناء الأمة الأندلسية ، وكان هذا الفريق ، يرى في المرابطين ، بعد أن تبددت آثار المديح والإعجاب الأولى ، التي تلت نصر الزلاقة ، وبعد أن انقلب الإخوة المنقذون إلى فاتحين متغلبين ، أجناب غاصبين ، يستظلون بفكرة الجهاد ، ليبسطوا سلطانهم على الأمة الأندلسية . وبالرغم من أن فترة الجهاد الأولى ، التي اضطلع بها المرابطون في الأندلس ، في أوائل عهد علي بن يوسف ، والتي أسفرت عند ظفرهم ضد الحيوش النصرانية ، في عدة وقائع ، مثل موقعة أقليمش (٥٥٠١) ، وما تلاها من الغزوات المظفرة ، حتى موقعة إفراغة (٥٥٢٨) ، كانت تغالب هذه الفكرة القومية ، وتضفي على حكم المرابطين رونقاً ومجداً ، فإن الأمة الأندلسية لم تنس الحقائق الواقعة ، ولم تنس أنها قد فقدت استقلالها وحرياتها ، في ظل الحكم المرابطي ، خصوصاً بعد أن أخذت وطأة هذا الحكم تشتد شيئاً فشيئاً . وكانت ثورة قرطبة على حكومتها المرابطية في سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، أول تعبير مادي لهذا الشعور القومي ، وأول نفثة لهذا السخط المكبوت ضد عسف الحكم المرابطي . وقد رأينا كيف أدرك أمير المساهمين علي بن يوسف يومئذ خطورة

الموقف وتذرع إزاءه بالإغضاء والتسامح . ويرى الأستاذ كوديرا ، أنه كان من أسباب سخط أهل الأندلس على المرابطين أيضاً ، مبالغة الدولة المرابطية في العطف على النصارى ، وإيثار على بن يوسف ومن بعده ولده تاشفين لهم ، وإدماجهم في الجيوش المرابطية ، وإعطائهم مراكز التفوق والقيادة^(١) . بيد أن هذا السبب ، يعتبر في نظرنا ثانوياً ، إزاء العامل القومي ، لأن الأندلسيين أنفسهم ، كانوا أيام الطوائف ، يستظهرون بالنصارى على قتال بعضهم بعضاً ، وسوف نرى أنهم يلجأون إلى مثل هذه الوسيلة في ثورتهم ضد المرابطين ، ثم الموحدين . وعلى أى حال ، فإن بذور الثورة الأندلسية ضد المرابطين ، لبثت حيناً تنمو وتختمر ، حتى أخذت الدولة المرابطية ، في أواخر عهد على بن يوسف ، ثم ولده تاشفين من بعده ، تترنح تباعاً تحت ضربات الموحدين ، ولاح عندئذ أن الفرصة قد سنحت لتقوم الأندلس بدورها الفعال في تحطيم الدولة المرابطية ، والتخلص من نيرها . بيد أنه كان من الواضح ، أن تحقيق مثل هذه الغاية ، كان يرتبط أشد الارتباط بمسألة الانضواء تحت لواء الدولة الجديدة التي غلبت على الدولة المرابطية ، ونعني دولة الموحدين ، وأن هذا الانضواء ، كانت تمليه ضرورات الموقف ، وبواعث المصلحة القومية ذاتها . ذلك أن الأندلس بالرغم مما كانت تجيش به ضد المرابطين من عوامل السخط والانتفاض ، لم تنس أن جيوشهم كانت عماد الدفاع عنها ضد إسبانيا النصرانية ، وأن مثل هذا الدفاع ، لا يمكن أن يتحقق ، بعد انهيار سلطان المرابطين ، إلا بقيام سلطان الدولة الجديدة ، وتدفع جيوشها على شبه الجزيرة ، لتقوم بنفس المهمة الدفاعية ، التي كانت تقوم بها الجيوش المرابطية من قبل .

وقد ظهرت أعراض الثورة في الأندلس ضد المرابطين ، أولاً في الطرف الغربي لولاية الغرب الأندلسية ، وهي أبعد المناطق عن سلطان الحكومة المركزية . ولنلاحظ أولاً أن هذه الأعراض الثورية ، قد ظهرت في الأندلس ، في نفس الوقت الذي بدا فيه انهيار الدولة المرابطية في المغرب أمراً محققاً ، وذلك حين جد الموحدون في مطاردة الجيوش المرابطية بقيادة الأمير تاشفين بن علي شمالاً ، ثم حين انتهت موقعة وهران بمصرع تاشفين وتبدد جيوشه ، وذلك في رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) .

F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoràvides, p. 28 & 29 (١)

في تلك الآونة ظهر أول الزعماء الثائرين بالأندلس في منطقة شلب في جنوبي البرتغال ، واضطرت أول ثورة فعلية ضد المرابطين . أما الزعيم الثائر فهو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي . وأما الثورة فهي ثورة أتباعه المريردين . وكان ابن قسي مؤلداً ، يرجع إلى أصل نصراني . وقد نشأ في أحواز شلب ، واشتغل في بداية أمره مشرفاً بشلب^(١) ، ثم اعتنق طرائق الصوفية ، وتبحر فيها حتى غدا من شيوخها ، وألف فيها طائفة من الكتب ، منها كتاب « خلع النعلين » . ثم تزهد ، أو تظاهر بالزهد وباع أمواله ، وتصدق بثمنها ، وتجول في البلاد ، ولقي بالمرية قطب الصوفية يومئذ أبا العباس بن أحمد بن محمد الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف ، ودرس عليه ، ثم عاد إلى وطنه ، واستقر بقريّة جلة من أحواز شلب ، وابتنى بها رابطة كان يجتمع فيها بصحبه ، وانكب على قراءة كتب الغزالي ، والتف حوله كثير من الصّحب والأنصار ، ينكبون على قراءة الكتب الصوفية والباطنية ، ورسائل إخوان الصفا وغيرها ، وينهمكون في مزاولة شعائر الطريقة ورسومها ، حتى ذاع أمرهم بالأخص بمنطقة شلب وميرتلة ولبلة ، وغيرها من أعمال غرب الأندلس ، وسموا بطائفة « المريردين »^(٢) . وكان ابن قسي في الواقع يتخذ الصوفية قناعاً لمشاريع يضمها ، ويدعو إلى الثورة في الباطن ، ثم لم يلبث أن ادعى الولاية والهداية ، وتسمى بالمهدى وبالإمام ، وكثرت مناريقه وشعوذته ، وزعم القدرة على الخوارق ، ومن ذلك أنه حج في ليلة واحدة ، وأنه يناجي بما يشاء ، وينفق من الكون ، فذاع أمره ، وتقاطرت إليه الوفود ، من أهل البيوتات والأجناد . وكان من صحبه جماعة ممن ظهروا فيما بعد ، في ميدان الحوادث ، مثل أبي محمد سيدراي بن وزير ، وابن عفان ، وكلاهما من زعماء يابرة ، ومحمد بن المنذر من أهل شلب ، ومحمد بن عمر ، وعبد الله بن أبي حبيب ، وغيرهم من زعماء ولاية الغرب . ولما شعر أن السلطات فطنت لأمره . وهمت بمطاردته ، وقبض على جماعة من أصحابه ، وأخذوا إلى إشبيلية ، سار هو إلى جهة ميرتلة ، واختفى هناك بقريّة الحوزة عند قوم يعرفون ببني السنة . وكان

(١) ويقول ابن الأبار إنه كان يشتغل بالأعمال الخزنية أي المالية (الحلة السيرة ص ١٩٩) .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٩٩ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٤٩ .

من أصحابه المقربين ، رجل وافر الدهاء والجرأة ، يدعى محمد بن يحيى الشلطي ، ويعرف بابن القابلة ، وكان يسميه بالمصطفى لاختصاصه به ، واطلاعه على أموره ومشاريعه ، ويعتمد عليه في تنفيذ خططه . فأوعز إليه من مقره السري ، أن يسير في صحبة المريدين إلى قلعة ميرتلة ، وأن يدهمها وفق خطة وضعها لهم ، وكان ذلك في أوائل سنة ٥٣٩ هـ .

وكانت حال المرابطين ، ولاسيما في هذا الإقليم النائي ، إقليم الغرب ، قد اضطربت وغلب عليهم الضعف والوهن بما أصاب دولتهم في المغرب من الاختلال والانحيار ، وبما افتقدوه من أمداد كانت تشد أزهرهم وقت الحاجة ، وزادت الحفوة بينهم وبين أهل الأندلس ، لما اشتد من ضغطهم ، وغيث جندهم بسبب الحاجة ، وقد استطال عليهم الناس ، وأخذوا في التعدي عليهم وإرهاقهم . وشعر الثوار في هذه الظروف التي هبطت فيها قوى المرابطين المادية والمعنوية ، بأن مشاريعهم سوف يحالفها النجاح ، وكان هذا شعور ابن قسي حينما دبر مع معاونه ابن القابلة خطة الاستيلاء على ميرتلة . فجمع ابن القابلة نحو سبعين رجلا من أولئك المريدين المتعصبين ، وسار إلى ميرتلة ، ودهم حصنها في جوف الليل ، واستولى عليه ، وذلك ليلة الخميس الثاني عشر من صفر سنة ٥٣٩ هـ ، وضبط ابن القابلة القلعة ، وأعلن بها دعوة ابن قسي . وحاول المرابطون في تلك الجهة استعادتها من المريدين ، فلم يفلحوا فتركوها ، وانقلبوا إلى تخريب تلك المنطقة . وفي غرة ربيع الأول وصل ابن قسي إلى ميرتلة في جمع حاشد من المريدين ، شعارهم التهايل والتكبير ، فصعد إلى قصبتها ، واستقر بقصرها ، وتسمى بالإمام ، وبعث إلى أعيان ولاية الغرب وزعمائها ، يدعوهم إلى الانضمام إليه ، وإلى الثورة ضد المرابطين . فاستجاب له كثير من أهل تلك الأنحاء ، وقام أهل يابرة بزعامه عميدهم سيدراى بن وزير ، ونزعوا سلطان المرابطين ، وحذا حدوهم أهل شلب ، بقيادة زعيمها محمد بن عمر بن المنذر . وكان ابن المنذر هذا ينتمي إلى بيت قديم من بيوتات المولدين بشلب ، وكان من علمائها ونبائها ، وقد درس في إشبيلية ، وبرع في الفقه والأدب ، وولى خطة الشورى ببانده ، ثم تزهد على مثل ابن قسي ، واستقر برابطة على شاطئ البحر تعرف برابطة الريحانة ، واعتنق دعوة ابن قسي وتوثقت صلاتهما . ولما قام بشاب اقتداء بابن قسي في ميرتلة ، سار إلى حصن مرجيق في شرقي شلب ، وانتزعه من المرابطين

وقتلهم . ولما علم المرابطون بباجة بما وقع ، طلبوا من أهلها الأمان ، وغادروها إلى إشبيلية . وعلى أثر خروجهم منها سار إليها ابن المنذر ، ومعه فرقة من جند يابرة أمده بها ابن وزير بقيادة أخيه أحمد ، ونحاله عبد الله بن الصميل ، واستولى عليها . ثم سار ابن المنذر وابن وزير إلى ابن قسي ، فسلم عليه بالإمارة ، وبايعاه بالطاعة (ربيع الأول سنة ٥٣٩ هـ) ، فأقر ابن وزير على حكم باجة وأحوازها ، وابن المنذر على حكم شلب وأحوازها .

والظاهر أن ابن قسي حاول في تلك الفترة بالذات ، أن يتصل بالموحدين لأول مرة . وكان لانتصار الموحدين في موقعة وهران ومصرع تاشفين بن علي سنة ٥٣٩ ، أعظم وقع في الأندلس ، وأكبر حافز للعناصر الثائرة ، على أن تمضي قدماً في ثورتها . وهنا بعث ابن قسي سفيراً إلى عبد المؤمن عاهل الموحدين ، وهو قائم على حصار تلمسان ، في أواخر سنة ٥٣٩ ، وتلقب في رسالته بالمهدي ، فأنكر ذلك عبد المؤمن ولم يجاوبه^(١) ، لما لمسه من تعاليه في الخطاب عليه . وفي خلال ذلك وقعت بولاية الغرب حوادث هامة . وكان ابن المنذر ، حين ولاه ابن قسي إمارة شلب ، قد حشد قواته وقوات أكشونة وسائر صحبه المريدين ، ثم سار إلى ابن قسي بميرتلة ، وجدد له البيعة والعزم على نصرته ونشر دعوته ، فجدد له ابن قسي عهده على ما بيده من البلاد ، وسماه العزيز بالله . وعندئذ خرج ابن المنذر في قواته ، وعبر نهر وادي يانه ، وسار إلى مدينة ولبة على مقربة من شرقيه ، فاقتحمها واستولى عليها ، ثم سار منها إلى مدينة لبلة الواقعة في شمالها الشرقي ، واستولى عليها بمعاونة يوسف بن أحمد البطروجي ، أحد أقطاب الثوار المريدين في تلك الناحية ، وأخرج من كان في قلعتها من المرابطين . وهنا شعر ابن المنذر بتضاعف قواته ، وتملكه الغرور ، واعتزم أن يسير إلى مدينة إشبيلية ، وقد شجعه ما نمي إليه من أنها كانت حينئذ دون أمير يتولى أمرها . فخرج في قواته من لبلة ، وسار إلى حصن القصر وطليباطة من مشارف إشبيلية الغربية ، واستولى عليها ، ثم تقدم حتى الحصن الزاهر ودخله . بيد أنه حينما وصل إلى طريانة ضاحية إشبيلية الغربية ، التقى بقوة من المرابطين . وكان أمير الأندلس المرابطي أبو زكريا يحيى بن غانية ، حينما وقف على حركات الثوار في غرب الأندلس ، وسيرهم من لبلة صوب إشبيلية ، قد غادر قرطبة في قواته ، وسار

(١) ابن خلدون في كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣١ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥١ .

إلى إشبيلية فوصل إليها ، في الوقت الذي كان فيه ابن المنذر يعييث في نواحيها ، فبعث لقتاله قوة عبرت نهر الوادي الكبير ، والتقت بالمريدين في طريانة ، فأوقعت بهم ، وقتلت منهم عدداً جماً ، وفر ابن المنذر في فله إلى لبلة ، ثم لحق بشلب ، وترك يوسف البطروجي للدفاع عن لبلة . وزحف ابن غانية على لبلة . وكان ذلك في قلب الشتاء وشدة قره ، فلبث على منازلة لبلة نحو ثلاثة أشهر ، وعندئذ بلغه قيام الثورة في قرطبة بزعامة القاضي ابن حمدين ، فترك لبلة وعاد إلى إشبيلية ، وقد عول على التريث وملازمة الحيلة والحذر ، إلى أن يستبين سير الحوادث .

ولما علم ابن قسي بما وقع من اضطرام الثورة في قرطبة ، ألقى الميدان ممهداً للقيام بمغامرات جديدة . فأمر ابن المنذر أن يحشد قواته ، وأن يسير ومعه ابن القابلة كاتب ابن قسي وصاحبه الأثير إلى قرطبة ، ليحاول دخولها . وبعث إلى نفر من أنصاره بقرطبة ليعملوا على بث دعوته ، وترغيب العامة في قبولها . فسار ابن المنذر وصاحبه في عسكر شلب ولبلة ، إلى قرطبة . بيد أنهما حين اقتربا منها ، علما بأن الحوادث قد تطورت ، وأن أهل قرطبة استدعوا لرياستها سيف الدولة ابن هود ، وطرردوا ابن حمدين ، فارتدا خائبين إلى الغرب ، وفشلت محاولة ابن قسي في مهدها (١) .

وكان الحو قد فسد عندئذ بين ابن قسي ، وحليفه السابق سيدراى بن وزير صاحب باجة . وكان ابن قسي ، قد دبر القبض عليه حيناً وقد عليه بميرتلة أثناء غيبة المنذر وخلعه ، ثم أطلق سراحه وردده إلى ولايته . ولما عاد ابن المنذر خائباً من حملة قرطبة ، حاول ابن قسي أن يتفاهم مع سيدراى ، ولكن سيدراى ارتاب في مقصده ، وأبى الاستجابة له ، فبعث ابن قسي ، ابن المنذر لمحاربتة ، فهزمه ابن وزير وقبض عليه ، ثم زحف على شلب وانزعها (٢) ، وانتهى بالاستيلاء على ميرتلة ، وأعلن خلع ابن قسي والدعوة لابن حمدين صاحب قرطبة ، وذلك في شعبان سنة ٥٤٠ هـ (٣) . فبادر ابن قسي إلى الفرار ، وعبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وتقدم إليه تائباً متبرئاً من دعاويه السابقة

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٠٣ و ٢٠٤ .

(٢) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥١ .

(٣) الحلة السيرة ص ٢٣٩ .

في الولاية والهداية ، فتقبل عبد المؤمن اعتذاره ، وأكرم وفادته . وهنا تختلف الرواية اختلافاً بيناً في الزمان والمكان ، اللذين التقى فيهما ابن قسي بالخليفة الموحدى . فيقول ابن الأبار ، ويتابعه ابن الخطيب ، إن ابن قسي لقي عبدالمؤمن في سلا في ربيع الآخر سنة ٥٤٠ هـ ، ثم انصرف في المحرم سنة ٥٤١ هـ (١) . هذا مع أن ابن الأبار يذكر لنا في موضع آخر أن تغلب سيدراى على ابن قسي واستيلاءه على ميرتلة كان في شعبان سنة ٥٤٠ هـ . ولا بد أن عبور ابن قسي كان عقب خلعها وفقدته لإمارته . ويقول لنا ابن خلدون إن ابن قسي عبر إلى المغرب في سنة ٥٤٠ هـ ، ثم يذكر لنا في موضع آخر أنه قدم إلى المغرب ، عقب افتتاح مراکش ، وقد كان افتتاح مراکش حسباً تقدم في شوال سنة ٥٤١ هـ (٢) . ويزيد ابن خلدون على ذلك أن ابن قسي نزل عند عبوره بسبتة ، وأن واليها ابن مخلوف هو الذى جهزه إلى عبد المؤمن . وربما كانت رواية ابن خلدون الأولى أكثر الروايات تمشياً مع سير الحوادث . وعلى أى حال ، فقد كان لمقدم ابن قسي نتائج عملية . ذلك أنه استطاع أن يحمل الخليفة الموحدى على المبادرة بالتدخل في حوادث الأندلس ، وتجهيز حملة موحدية بقيادة برآز بن محمد المستوفى ، لقتال المرابطين والثوار فيما وراء البحر ، تلتها بعد ذلك حملات أخرى حسباً تفصل بعد .

كانت غرناطة في البداية مقر الحكومة المرابطية العامة بالأندلس ، ثم رأى أمير المسلمين على بن يوسف أن ينقل مركز الحكم إلى قرطبة ، وذلك حينما أصدر مرسومه في سنة ٥٢٦ هـ بتعيين ولده الأمير تاشفين ، متولى شئون الأندلس ، والياً لقرطبة ، وأن يجعلها مقر الحكم . ثم استدعى تاشفين إلى المغرب في سنة ٥٣٢ هـ وعين لولاية العهد . ولما توفى على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، وخلفه ولده تاشفين في الملك اختار الأمير يحيى بن غانية الصحراوي والياً لقرطبة ، ومشرفاً على شئون الأندلس ، وقائداً عاماً للجيش المرابطى ، وذلك في سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) . وقد تحدثنا فيما تقدم عن أصل ابن غانية ونشأته ، وأعماله في شرقي الأندلس . ولما تجهمت الحوادث للدولة اللمتونية بالمغرب ، وتقوضت دعائمها تحت ضربات

(١) الخلة السيرة ص ٢٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ٢٥١ .

(٢) كتاب العبر ج ٤ ص ١٦٦ ، وج ٦ ص ٢٣٤ .

عبد المؤمن ، ودوت أصداء النكبة في جنبات الأندلس ، أخذ ابن غانية يواجه عواصف الثورة هنا وهناك . ولما تفاقمت حوادث الغرب ، وزحف المريدون أتباع ابن قسي على إشبيلية ، سار ابن غانية في قواته لردهم ، مستخلفاً على قرطبة أبا عمر اللمتوني ، فهزمهم في طريانة ، ثم طاردهم حتى لبلبة ، وأخذ في منازلها ، وهنا بلغته أنباء الثورة في قرطبة ، فارتد أدراجه إلى إشبيلية ، ولبث بها حيناً يدبر أمره ، ويستعد لمواجهة الحوادث .

ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر على قيام الثورة في الغرب ، وسقوط قواعده في أيدي الثوار ، حتى اضطرت قرطبة بثورة مماثلة . وكان زعيم الثورة قاضي المدينة ، ابن حمدين ، وهو أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن حمدين ، وكان يتهم من أقدم البيوتات العربية . دخل جدهم الأندلس مع الطالعة البلجية ، واستقروا في باغة ، وبها ازدهر بيتهم ، وكان ابن حمدين قد ولى قضاء قرطبة في شعبان سنة ٥٢٩ هـ ، على أثر مقتل قاضيها أبي عبد الله بن الحاج ، وهو يصلي بالمسجد الجامع في صفر من تلك السنة . ثم صُرف ابن حمدين عن القضاء في سنة ٥٣٢ هـ ، وولى مكانه أبو القاسم بن رشد فوليه نحو عامين ، ثم أعفاه الأمير علي بن يوسف من منصبه دون أن يعين خلفاً له ، ووقع بعد ذلك بقرطبة هياج اعتدى فيه العامة على المرابطين ، فخرج إليهم ابن حمدين ، وتمكن من تسكين ثورتهم ، فظهر يومئذ بوافر حكمته وشهامته ، وبقيت قرطبة دون قاض مدى عام . ثم أذن علي بن يوسف لأهلها أن يختاروا لهم قاضياً ، فأجمعوا على اختيار ابن حمدين ، فولى القضاء للمرة الثانية في سنة ٥٣٦ هـ ، واستمر في منصبه حتى أواخر سنة ٥٣٩ هـ .

وكانت حوادث المغرب من جهة ، وحوادث الثورة في الغرب ، قد أخذت تحدث أثرها ، وأخذت بدور الثورة تحتمر من جديد في أذهان الشعب القرطبي ، وقد عرفناه فيما تقدم من مراحل التاريخ الأندلسي شعباً سريع القلب ، سريع الهياج . فما كاد الحاكم المرابطي ، الأمير يحيى بن غانية ، يبتعد في قواته صوب إشبيلية لحمايتها من عيث المريدين ، حتى اضطرت قرطبة بالثورة ، وثارَت العامة بالوَالِي المرابطي الرئيس أبي عمر اللمتوني ، وأعلنوا خلعه ، وخلع دعوة المرابطين ، ونادوا برياسة القاضي أبي جعفر بن حمدين ، وبويع ابن حمدين بالإمارة في المسجد الجامع ، وبايعه الخاصة والعامة ، وذلك في الخامس من شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ . واستقر

ابن حمدين بقصر الخلافة ، وتسمى بأمر المسلمين وناصر الدين ، ووفقاً لقول ابن الأبار بأمر المسلمين المنصور بالله ، وفي بعض الروايات بأمر المؤمنين . ودعى له على منبر قرطبة ومعظم منابر القواعد الأندلسية . وكان ابن غانية قد سار عندئذ إلى لبلبة ليجهز على المريدين الذين تحصنوا بها ، فلما علم بما وقع في قرطبة ، عاد أدراجه إلى إشبيلية . ولكنه ما كاد يستقر بها حتى ثار به أهلها ، وناصبوه الحرب وجرح أثناء القتال الذي نشب بينه وبينهم ، فارتد عندئذ في قواته إلى حصن مرجانة القريب (١) .

وفي تلك الأثناء تطورت الحوادث في قرطبة ، وسعى فريق من شعبا القلّب إلى الاتصال بأبي جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بسيف الدولة المستنصر بالله . وقد فصلنا فيما تقدم سيرة هذا الأمير ، وكيف آل أمره إلى مغادرة روضة آخر قواعد بني هود في الثغر الأعلى ، وتسليمها إلى ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس مقابل أراض منحها إياه في منطقة طليطلة ، وذلك في سنة ٥٣٤ (١١٣٩ م) . وقد لبث سيف الدولة ، الذي تعرفه الرواية النصرانية باسم «سفادولا» Zafadola مقما في أراضيه الحديدية ، في كنف ملك قشتالة ، بضعة أعوام ، حتى قامت الثورة في قرطبة وفي غيرها من القواعد الشرقية . وكان فريق من أهل قرطبة يرى في هذا الأمير - آخر بني هود ملوك سرقسطة السابقين - خير ممثل للزعامة الأندلسية العريقة ، ومن ثم فقد عملوا على استدعائه ، ليتولى إمارة قرطبة . ولبي سيف الدولة هذه الدعوة ، وجاء إلى قرطبة ، فدخلها بمألة فريق كبير من أهلها ، فبادر ابن حمدين إلى الفرار ، ولحق بحصن فرنجولش المنيع ، الواقع شمال غربي قرطبة ، في سطح جبل الشراب (سيرامورينا) . بيد أن هذا الإزعاج لم يطل أمره . ذلك أنه لم يمض أيام قلائل على قيام سيف الدولة بالأمر ، حتى ثار القرطبيون مرة أخرى ، وهاجموا القصر ، وفتكوا بابن الشماخ وزير سيف الدولة ، وعدة من أصحابه ، ففر سيف الدولة ناجياً بنفسه ، ولما يمض على وجوده في قرطبة اثنا عشر يوماً ، وقصد إلى مدينة جيان ، وكان قد ثار بها القاضي ابن جزى ، فتغلب عليه وملكها منه ، ثم خاض عدة حوادث أخرى نرجى التحدث عنها ، حتى تستوفى حوادث قرطبة (٢) .

(١) ابن الأبار في التكملة رقم ١١٩ ، ج ١ ص ٣٨ و ٣٩ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٥٣ ، وفي الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٦ . وفي مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٢ .
(٢) الحلة السيرة ص ٢٢٥ .

وما كاد سيف الدولة يغادر قرطبة، حتى عاد إليها ابن حمدين من حصن فرنجولش واستأنف رياسته، واستطاع في الأشهر القلائل التي عاشتها حكومته، أن يدون الدواوين، وأن يجند الأجناد، وأن يرسم الخطط، وبعث إلى بعض زملائه الثوار في القواعد الأخرى في طلب الاعتراف برياسته، فاعترف بها بعضهم، ومن هؤلاء أبو الغمر بن عزون^(١) صاحب شريش، وأبو جعفر بن أبي جعفر صاحب مرسية. واستمرت رياسته ابن حمدين الثانية أحد عشر شهراً. ولكن فريقاً من خصومه الناقلين على حكمه، كتبوا إلى يحيى بن غانية في القدوم عليهم، واستعادة سلطانه على المدينة. فسار ابن غانية من إشبيلية قاصداً إلى قرطبة، في جمادى الآخرة سنة ٥٤٠هـ (١١٥٤م). وبرز ابن حمدين من قرطبة في قواته للقائه، فالتقيا بأحواز إستجة في جنوب غربي قرطبة، وكانت بينهما وقعة، هزم فيها ابن حمدين، وفر إلى بطليوس، ملتجئاً إلى حماية صاحبها عبدالله بن الصميل من زعماء المرينيين. ودخل ابن غانية قرطبة في الثاني عشر من شعبان من تلك السنة، ثم غادر ابن حمدين بطليوس، وسار إلى حصن أندوجر الواقع شرقي قرطبة وتحصن به، وبسط سلطانه على البلاد المجاورة، فتحرك ابن غانية إلى قتالة، وحاصره في أندوجر مدى شهر. وهنا لجأ ابن حمدين إلى تلك الوسيلة القديمة الذميمة، التي كانت عماد الطوائف في محاربة بعضهم بعضاً، وهي الاستنصار بعاهل قشتالة، القيصر ألفونسو ريمونديس. ويقول لنا ابن الخطيب إن ابن حمدين، «أطمع القيصر في قرطبة»، فاستجاب إلى دعوته، وتحرك وفقاً للرواية العربية إلى نصرته. ولكن الرواية النصرانية تقول لنا إن القيصر أرسل إلى معاونة ابن حمدين، الدوق فرناندو خوانس في بعض قواته^(٢). ولما وصل القيصر إلى أندوجر، ولم يستطع ابن غانية، دفعاً للنصارى، انصرف في قواته إلى قرطبة، فسار النصارى في أثره، ومعهم حليفهم ابن حمدين في أصحابه، ودخل النصارى وابن حمدين قرطبة في العاشر من ذي الحجة سنة ٥٤٠هـ (مايو ١١٤٥م)، وامتنع ابن غانية في المدينة، يدافع النصارى في صبر وجلد. وعاث القشتاليون في شرقي قرطبة، واستباحوا المسجد الجامع، وأخذوا ما كان فيه من النواقيس التي كانت رؤوساً للثريات، ومزقوا المصاحف، ومنها فيما زعموا مصحف عثمان، ونزعوا المنار من الصومعة، وكان من الفضة

(١) رسمت كذلك - ابن عزون - في البيان المغرب ص ٢٢، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤، وابن صاحب الصلاة (مخطوط المن بالإمامة لوحة ١٧٥ أ). ولكن ابن الأبار يرسمها ابن غرون الحلة السيراء ص ٢٢٢

(٢) F. Codera : cit. Anales Toledanes (Dec. y Disp.) p. 61.

الحالصة ، وأحرقوا الأسواق . كل ذلك وابن غانية صامد يدفع النصارى عن القصبه بمنهى الشدة والبسالة^(١) .

وحدث عندئذ أن جاءت الأخبار بأن الموحدين قد عبروا البحر إلى اسبانيا ، وأن أهل إشبيلية خلعوا طاعة المرابطين ، فاهتم القيصر لهذه الأنباء ، ورأى من الفطنة أن يهادن ابن غانية ، وأن يتركه بقرطبة « سدا بينه وبين بلاده » . وهكذا تم التفاهم بين القيصر وابن غانية ، وعقدت شروط الهدنة ، وخرج ابن غانية من القصبه ، واستحضر له القيصر أهل قرطبة بين يديه ، وقال لهم « إني قد فعلت معكم من الخير ما لم يفعله من قبلى ، وتركتكم رعية لى ، وقد وليت عليكم يحيى بن غانية ، فاسمعوا له وأطيعوا » .

ويقص علينا ابن الخطيب الذى ننقل عنه هذه التفاصيل ، أن القيصر مضى فى مخاطبة أهل قرطبة ، فقال « ولايربكم أن تكونوا تحت يدى ونظرى ، فعندى كتاب نبيكم إلى جدى » . حدث ابن أم العباد وأبو الحسن قال ، حضرت ، وأحضر حقاً من الذهب ، ففتح وأخرج منه كتاب من رسول الله (ص) إلى قيصر ملك الروم ، وهو جده بزعمه . والكتاب بخط على بن أبى طالب . قال أبو الحسن ، قرأته من أوله إلى آخره كما جاء فى حديث البخارى^(٢) .

وهكذا استقر ابن غانية بقرطبة ، وأخذ فى تحصين القصبه ، واشتد فى معاملة أهلها ، وأخذ يسومهم الحسف ، لما أثموا به فى حقه وغدروا به . وعهد بضبط المدينة ، وتدبير شئونها لمولاه فلوج العليج ، وكان حازماً شديد الوطأة ، فمال على أهل المدينة ، وأذلم وانتزع كثيراً من أموالهم .

واستمر ابن غانية على تهادنه مع القشتاليين نحو عام آخر ، تطورت الحوادث خلاله بسرعة . أما ابن حمدى فقد غادر قرطبة مع النصارى ، وسار إلى حصن فرنجولش ، ولبت به فترة قصيرة ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن أسوة بمن سار إلى لقاءه ، من زعماء الثورة فى الأندلس ، فلقه تحت أسوار مراکش ، وهو محاصر لها (أوائل سنة ٥٤١ هـ) حسبما تقدم ذكره ، فأحسن الخليفة استقباله . ثم عاد إلى الأندلس فنزل بمالقة ، فى كنف زميائه وحليفه ابن حسون الثائر بها ، وحاول مرة أخرى أن يسترد سيطرته

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن ابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة ابن غانية (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٢) .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) نفس اللوحة السابقة .

بقرطبة ، فأخفق مسعاه ، وارتد ثانية إلى مالقة ، واستقر بها حتى توفي في رجب سنة ٥٤٦ هـ (نوفمبر ١١٥١ م) ودفن بمسجدها الجامع . ولما استولى الموحدون على مالقة ، بعد ذلك بعشرين شهراً ، نبشوا قبره ، واستخرجوا جثثانه وصلبوه ، وهو وفقاً للرواية ، بحاله لم يتغير (١) .

كان من أصدقاء ثورة ابن حمدين في قرطبة أن قامت في نفس الوقت في غرناطة ثورة مماثلة ، زعيمها القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى . وكان أبو الحسن هذا من أهل ألمرية ، وبها ولد في سنة ٤٩٢ هـ ، وولى قضاءها بعد قاضيها الزاهد ابن الفراء . ولما قامت ثورة ابن حمدين بقرطبة ، كان ابن أضحى بمدينة غرناطة ، فبعث إليه ابن حمدين يدعوه إلى اتباعه والدعوة له . فاستجاب ابن أضحى لدعوته ، وآزره فريق كبير من أهل المدينة ، وتعاونوا على إخراج الملتزمين (المرابطين) منها ، فاعتصموا بالقصبة ، ونشب القتال بين الفريقين ، وكان أمير غرناطة المرابطي يومئذ ، هو علي بن أبي بكر المعروف بابن فنّو . وهو اسم أمه ، أخت علي بن يوسف . ولما شعر ابن أضحى بتفوق المرابطين ، استغاث بحليفه ابن حمدين صاحب قرطبة ، وابن جزى قاضي جيان ، فبعث إليه ابن حمدين بعض قواته بقيادة ابن أخيه علي بن أبي القاسم المعروف بابن أم العباد . ولكن حدث خلال ذلك ، أن رأى فريق من أهل غرناطة ، أن يلتجئوا إلى رئيس يولونه على أنفسهم ، ويستطيع مغالبة اللمتونيين ، واقترح البعض أن يكون هذا الرئيس هو سيف الدولة بن هود ، لقدم بيته ، وبعد صيته في الرياسة ، وتغلبه على جيان وغيرها من القواعد ، وأيدهم في ذلك ابن أضحى وأصحابه . وبعث أهل المدينة برغبتهم إلى ابن هود ، فلباها ، وقدم إلى غرناطة في عسكر « من أوباش النصارى وسقاط الحند » . فلما رأى ابن أم العباد تطور الأمور على هذا النحو ، ارتد في قواته ثانية إلى قرطبة . وتعاهد ابن أضحى وابن هود على مدافعة اللمتونيين . وكان اللمتونيون حين مقدم ابن هود ، قد أنسوا ضعف عسكره ، وانحلال جنده ، فبرزوا للقاءه خارج غرناطة ، ونشب بينهما قتال شديد ، فهزم ابن هود ، وقتل كثير من أصحابه ، وكان ذلك في اليوم

(١) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥٤ . ويقول الضبي إن وفاته كانت في سنة ٥٤٣ هـ (بغية الملتمس ص ٢٦١) ، ويقول ابن الأبار إنها كانت في سنة ٥٤٨ هـ (التكملة رقم ١١٩) .

التاسع عشر من ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ . ولم يستطع ابن هود أن يدخل غرناطة إلا بشق النفس ، فدخلها مع من بقي من رجاله ، من فوق الأسوار ، ومن أعلى التلال ، ثم جاز إليها من باب مورور ، بعد أن اشتبك في معركة أخرى مع قوة مرابطية ثانية ، وفقد عدداً آخر من جنده (١) . وفي رواية ابن الأبار أن ابن هود وابن أضحى لبثا على قتال المرابطين بالقصبة شهراً ، وفي خلال ذلك جرح ولد ابن هود عماد الدولة وأسر ومات بالقصبة ، فدفع المرابطون بنعشه إلى أبيه . ثم توفي القاضي ابن أضحى ، فتقدم ولده محمد مكانه ، واستمر على التعاون مع ابن هود في مدافعة اللمتونيين . وقدم في نفس الوقت عسكري من مرسية قوامه نحو ألفي فارس بقيادة قاضيهما الثالث بها ابن أبي جعفر ، فخرج إليه اللمتونيون ، فهزموه وقتلوه ومعظم عسكريه ، واستباحوا البلد - غرناطة - استباحة قهر وغلبة ، وفر معظم الناس عن منازلهم ، ثم ارتدوا إلى القصبة واعتصموا بها . فلما رأى ابن هود تفاقم الأمور على هذا النحو ، وأنه لا طاقة له بمقاومة اللمتونيين ، غادر غرناطة ، وفر إلى قاعدته جيان ، وكان قد ترك بها ابن عمه نائباً عنه . وقد أورد لنا ابن الأبار ، في ترتيب هذه الحوادث ، رواية أخرى خلاصتها ، أن ابن أضحى لما قام بثورته ، دعا أولاً لابن حمدين وذلك في رمضان سنة ٥٣٩ هـ ، فامتنع الملتزمون بالقصبة ، إلى أن وصل من جيان مع بعض قواد الثغر مدد لابن أضحى ، وانضم إليه جمع وافر من أهل غرناطة ، فخرج إليهم الملتزمون ، وهزموهم شر هزيمة ، ثم عادوا إلى القصبة . ودامت الحرب بين الفريقين مدة داخل غرناطة وخارجها ، إلى أن قدم ابن أبي جعفر القائم بمرسية في عسكري قيل إنه كان يبلغ اثني عشر الفاً بين خيل ورجل ، فخرج إليهم الملتزمون مرة أخرى وهزموهم ، وقتلوا ابن أبي جعفر ، ثم عادوا إلى الاعتصام بالقصبة مرة أخرى . وهنا قدم ابن هود في قواته ودخل غرناطة من باب مورور ، فاستقبله ابن أضحى وأنزله ، واستسقى ابن هود ، فأمر له بقدر من الماء المسموم ، فصاحت به العامة محذرة ، فخرج ابن أضحى ، وتناول القدح وشرب منه ، لكنى يدفع مظنة الاتهام ، فمات من ليلته ، وانتقل ابن هود إلى القاعة الحمراء ، والقتال متصل بين الملتزمين وأهل غرناطة ، حتى كان ذات يوم تمكن الملتزمون فيه من

(١) نقلنا التفاصيل المتقدمة عن كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، وقد وردت في

ترجمة علي بن عبد الله بن ثابت الأنصاري (عن نسخة خزائن الرباط المصورة عن نسخة باريس) .

ابنه وقتلوه . وبقى ابن هود بعد ذلك نحو شهر في غرناطة ، والصعاب تكتنفه من كل صوب ، ثم هم أهل غرناطة بمنأواته ففر عنها ليلاً وقصد إلى مرسية ، أو إلى جيان . وقام من بعده بأمر غرناطة أبو بكر محمد بن أبي الحسن بن أضحى ، ولكنه لم يلبث بها سوى أيام قلائل ، وهو يدافع خصومه ، ثم فر بعد ذلك إلى المنكب ناجياً بنفسه (أول سنة ٥٥٤٠) واضطر أهل غرناطة إلى التفاهم مع حاكمها المرابطي ميمون بن بدر بن ورقاء ، وكان قد خلف أميرها السابق علي بن فنو بعد وفاته ، وهكذا استعاد اللمتونيون سيطرتهم على غرناطة (١) .

وكان القاضي أبو الحسن بن أضحى فقيهاً بارعاً ، وأديباً ، وشاعراً جزلاً ، وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من نظمه ، ومن ذلك قوله :

ياساكن القلب رفقاكم تقطعه الله في منزل قد ظل مثواكا
يشيد الناس للتحصين منزلهم وأنت تهدمه بالعنف عيناكا (٢)

- ٤ -

وحدث في مالقة نفس ما حدث في قرطبة وغرناطة ، وانقلب قاضيها إلى تزعم الثورة بها ضد المرابطين . وإنه لما يلفت النظر في هذه الأحداث المشابهة ، تلك الظاهرة العجيبة ، وهى أن قادة الثورة ضد المرابطين لم يكونوا زعماء الحند ، وإنما كان معظمهم قضاة من رجال القلم . ففي قرطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية ، وبلنسية ، وغيرها ، كان زعماء الثورة قضاة ، فقهاء أدباء وشعراء ، من أعلام التفكير في ذلك العصر . وقد نجد تعليلاً لتلك الظاهرة ، فيما كان يتمتع بها الفقهاء والقضاة ، في ظل الدولة اللمتونية من واسع الجاه والنفوذ ، حتى تركزت فيهم عناصر الزعامة المحلية ، التي كان يتمتع بها من قبل جيل الأمراء والقادة ، الذين اختفى معظمهم حينما قضت الدولة اللمتونية على دول الطوائف ، وإلى أنه لما أخذ نجم الدولة اللمتونية في الأفول ، وانهار سلطان أولئك القضاة بانهيار الدولة ، التي أظلم سلطانها ونفوذها ، حاولوا بإضرام نار الثورات المحلية ، وتولى زعامة مدائنهم ، أولاً أن يحتفظوا بسابق رياستهم ، وثانياً أن يستردوا سلطانهم القومي ، بعد ما تحطم نير الدولة الغالبة . وسوف نرى فيما بعد ، أنه بعد أن تختفى هذه الثورات المحلية الصغيرة ، سواء بالقضاء

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٠٩ .

(٢) الحلة السيرة ص ١٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ ، وقد وردت بها مقطوعات شعرية أخرى لابن أضحى .

عليها ، أوبانضواء قادتها تحت لواء الدولة الموحدية الجديدة ، تبقى عناصر الثورة القومية الأندلسية العسكرية والسياسية ، مستمرة مدى جيل آخر ، على يد بعض الزعماء ، الذين لم يجدوا في قيام الدولة الموحدية بالأندلس ، مكان الدولة المرابطية ، تحقيقاً للغاية القومية التحريرية ، التي كانت تبتغيها الأندلس ، من تحطيم نير أولئك الغزاة البربر ، الذين جاءوا إليها من وراء البحر ، باسم الجهاد في سبيل الله ، ثم استقروا فيها سادة حاكمين .

في الوقت الذي قام فيه ابن حمدين بقرطبة ، وابن أضحى بغرناطة ، نهض بمالقة قاضيها أبو الحكم بن حسون ، ليتزعم ثورة مماثلة . وهو الحسين بن الحسن ابن عبد الله بن الحسين الكلبي بن حسون ، ويكنى بأبي الحكم ، وكان ينتمي إلى بيت من أعرق بيوتات مالقة ، اشتهر بالعلم والجاه والسراوة . ولى قضاء مالقة في سنة ٥٣٨ هـ ، مكان قاضيها أبي محمد الوحيدى حينما استقال لفقد بصره ؛ ولما وقعت الثورة بقرطبة وغرناطة ، وغيرها من القواعد ، في هذا الوقت بالذات ، وتكاتب القضاة ، أعلن أبو الحكم الثورة في مالقة ، ودعا لنفسه ، وقام بأمر المدينة ، وحاصر اللمتونيين في القصبية ، ولبث على منازلهم ستة أشهر ، حتى أخرجهم منها ، وملك القصبية ، واستقر بها وتسمى بالقباب الإمارة ، وعين أخاه أبا الحسن قائداً لقواته ، وأسند إليه ولاية قرطمة وما إليها .

ولكن المرابطين في أنتقيره وغيرها من الحصون المجاورة ، استمروا في مهاجمته ومضايقته ، حتى اضطر أخيراً ، أن يستعين بالمرتزقة النصارى ، واضطر من أجل دفع أجورهم ، أن يرهق أهل المدينة بالمطالب والمغارم المختلفة ، فنقموا عليه مسلكه ، وداخل فريق منهم رجلاً من خاصته ، كان قائد الحرس ببابه يدعى اللوشى ، واثتمروا معه على الإيقاع بأبي الحكم . ونجحت المؤامرة ، واستطاع المتآمرون بمعاونة اللوشى ، أن يخترقوا الأبواب ، وأن يملكوا القصبية ، فامتنع ابن حسون داخل القصر ، ودافع عن نفسه بأعنف ما استطاع ، فلما نفذت جهوده ، وقتل أخوه وأيقن بالهلاك ، نفذ إلى داخل داره ، وأراد أن يقتل نساءه وبناته صوتاً لهن ، فاعتصمن منه بالغرف والبيوت الداخلية ، فعمد عندئذ إلى إحراق كتبه وذخائره ، ثم تناول سما فلم يقتله لفوره ، فتحامل على نفسه ، وطعن نفسه برمح نفذ إلى ظهره ، ولكنه لم يمت وارتمى وهو يحتضر متخبطاً في دمه ، ودخل أعداؤه القصر فألفوه على تلك الحالة ، ومات بعد يومين في الحادى عشر

من ربيع الأول سنة ٥٤٧ هـ (يونيه سنة ١١٥٢ م). فصلبت جثته ، واحترق رأسه وأرسل إلى مراکش . ولما استولى الموحدون على مالقة بعد ذلك بنحو عام ، في أوائل سنة ٥٤٨ هـ ، قبض على أهله وولده ، وبيع بناته ، واشترى بعضهن بعض أكابر الدولة الجديدة . فكانت نهايته المحزنة من أتعس ما لقي ثوار النواحي في تلك الفترة (١) .

وقام في وادى آش ، على مقربة من غرناطة ، في الوقت الذى قام فيه ابن حمدين في قرطبة ، وابن أضحى في غرناطة ، أحمد بن محمد بن مملحان الطائى ، فاستولى على القصبه وحصنها ، ودعا لنفسه ، وتلقب بالمتأيد بالله ، وعمل على تعزيز مركزه بكل الوسائل ، واشتد في تحصيل المال والدخائر ، واقتنى الضياع الواسعة ، وتولى فلاحها وحرثها ، حتى غدا من أغنى أهل زمانه . وتغلب على بعض القواعد القريبة ، مثل بسطة وضمها إلى إمارته ، واستخدم في بلاطه الصغير عدة من مشاهير العلم والأدب في ذلك العصر ، مثل أبى بكر بن طفيل الفيلسوف الطبيب ، وأبى الحكم هرودس . واستطال عهده عدة أعوام . ولما قام محمد بن سعد بن مردنيش بثورته في شرقى الأندلس ، وزحف على القواعد الوسطى والجنوبية ، قاصداً توسيع أملاكه ، ومحاربة الموحدين في نفس الوقت ، سار إلى وادى آش تعاونه فرقة من النصارى ، فلما رأى ابن مملحان أنه لا طاقة له به أعلن طاعته للموحدين ، وكانوا في ذلك الوقت قد استولوا على غرناطة ، بيد أنه لم يستطع الاحتفاظ بوادى آش فخرج عنها ، واستولى عليها ابن مردنيش كما استولى على بسطة وغيرها ، وذلك في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) . وعبر ابن مملحان البحر إلى المغرب ، ودخل في خدمة الموحدين ، واستعمل بمراكش في بعض الأعمال الهندسية في إقامة البحيرة وإجراء مائها ، ثم نكب بعد ذلك لأسباب لانعرفها ، ونزعت أمواله ، وتوفى في بوئس وضعة (٢) .

وثار في جيان قاضيا يوسف بن عبدالرحمن بن جزى ، وأنشأ بها حكومة مستقلة ،

(١) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥٥ .

(٢) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٦٤ ، والإحاطة ج ٢ (القاهرة) ص ٨٩ .

اقتداء بزملائه القضاة في قرطبة ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية وغيرها . وليست لدينا عن حكمه وأيامه ببيان تفاصيل شافية . بيد أن رياسته لم تطل فيما يبدو ، لأن سيف الدولة بن هود استطاع التغلب على جيان وانتزاعها منه ، قبيل مسيره إلى قرطبة في أواخر سنة ٥٣٩ هـ (أوائل سنة ١١٤٥ م) (١) .

وشملت الثورة أراضي مثلث الأندلس الجنوبي ، فقامت في رندة ، وشريش وقادس حكومات مستقلة ، وقضى فيها على سيادة المرابطين . ففي رندة قام رجل من رجال القلم ، وهو أخيل بن إدريس الرندي ، وأنشأ بها حكومة مستقلة . وكان أخيل هذا ، وهو في الأصل من أهل رندة ، كما يدل على ذلك اسمه ، كاتباً أديباً شاعراً ، وكتب في بداية حياته للملثمين . ولما قام ابن حمدين في قرطبة ، استخدمه في بطانته ، وكتب له ، وكان وثيق الصلة به مذ كان متولياً قضاء قرطبة . فلما استرد الملثمون قرطبة على يد ابن غانية ، وسقطت حكومة ابن حمدين ، سار أخيل إلى بلده رندة ، وكانت أمورها فوضى لا ضابط لها ، فدعا لنفسه ، واستطاع أن يقوم بحكمها وضبطها ، ولكن فريقاً من خصومه سعوا إلى إسقاطه ، وخاطبوا أبا الغمر بن السائب بن عزون ، صاحب شريش ، في القدوم إلى رندة ، والتغلب عليها . فاستجاب لهم ، وقدم إلى رندة ، واستطاع بمخادعة أخيل ، أن يستولى على القصبة دون قتال ، وانتزع أموال أخيل وأموال أصحابه ، وفر أخيل ناجياً بنفسه إلى مالقة ، ثم عبر البحر منها إلى المغرب ، واتصل في مراکش بالوزير ابن عطية ، فأكرم وفادته ، وساعده فيما بعد على استرداد أمواله . ولما استولى الموحدون على الأندلس ، ولى قضاء قرطبة ، ثم قضاء إشبيلية ، وتوفي بإشبيلية سنة ٥٦١ هـ (١١٦٦ م) ، وكان أديباً مطبوعاً وشاعراً جزلاً (٢) .

وكان ابن عزون في مقدمة الثوار الذين خلعوا طاعة المرابطين ، فقام في بلده شريش ، وأنشأ حكومة مستقلة ، في نفس الوقت الذي قام فيه أحمد ابن قسي في الغرب . وقوى أمر ابن عزون بسرعة ، وبسط سلطانه على أركش ، ثم على رندة حسبما تقدم ، وأعلن انضواءه في البداية تحت طاعة ابن حمدين صاحب

(١) أشار ابن الخطيب في أعمال الأعلام إلى ثورة ابن جزي في جيان إشارة عابرة ص ٢٥٩ .

(٢) الحلة السيرة ص ٢٢٢ .

قرطبة . فلما تطورت الحوادث وانهارت حكومة ابن حمدين ، واضطر إلى مغادرة قرطبة ، نادى بخلق طاعته ، والاستقلال بدعوته . وفي أوائل سنة ٥٤١ هـ ، عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى لقاء الخليفة عبد المؤمن ، وهو يومئذ يعسكر بمحلتة تحت أسوار مراکش وبايعه بالطاعة ، وكان من الوافدين على عبد المؤمن في نفس الوقت ابن حمدين زعيم قرطبة السابق (١) . ولما عبر الموحدون إلى الأندلس ، كان ابن عزون وجند شريش أول من لقيهم ، وانضم إليهم . ويقدم إلينا صاحب روض القرطاس ، رواية أخرى ، خلاصتها أن أبا الغمر (ويسميه محرفاً أبا القمر) وهو من بني غانية ، كان هو القائد المرابطي لشريش ، وأنه لما عبر الموحدون البحر إلى الأندلس لأول مرة في سنة ٥٣٩ هـ ، وفتحوا مدينة شريش صلحاً ، انضم إليهم أبو الغمر في قواته ، وكانت ثلاثمائة فارس ، وأعلن بيعة عبد المؤمن ، فكانت شريش بذلك أول قاعدة أندلسية دخلت في طاعة الموحدين ، وكان الموحدون لذلك يسمون أهلها بالسابقين الأولين ، ومن أجل ذلك حررت أملاكهم من المغارم ، وكانت وفود الأندلس إذا قدمت للسلام على الخليفة الموحدى ، كان وفد شريش أول الداخلين . وتم فتح شريش وفقاً لهذه الرواية في شهر ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) (٢) . على أننا نؤثر الأخذ بالرواية المتقدمة : وهى تقدم إلينا ابن عزون ضمن ثوار الأندلس ، ثم تفصل لنا أعماله وحركاته في منطقة الفُرنْتيرة ، ووفوده على عبد المؤمن بما يتفق مع باقى الحوادث التى وقعت فى تلك المنطقة فى تلك الفترة ، وهى رواية يؤيدها ابن الأبار ، وابن عذارى ، وابن خلدون ، وهى بذلك فى نظرنا أوثق وأكثر قبولا (٣) .

ونختتم هذا الثبت من ثوار غربى الأندلس ضد المرابطين بذكر زعيمين آخرين ، أولهما على بن عيسى بن ميمون والى ثغر قادس ، وقائد الأسطول المرابطى بهذه المنطقة ، وقد كان فى مقدمة الزعماء الذين خلعوا طاعة المرابطين ؛ وفى سنة ٥٤٠ هـ عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى لقاء عبد المؤمن ، وكان يومئذ قائماً على حصار فاس ، فقدم إليه طاعته ، ثم عاد إلى قادس ، وأقام بها الخطبة

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٣٢ .

(٣) راجع الخلة السراء ص ٢٢٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ ، وابن خلدون

للموحدين . وهو الذى عاون ابن قسى على العبور إلى المغرب ، ودفعه إلى مقابلة عبد المؤمن بنفسه ، ليناشده الجواز إلى الأندلس . ثم كان بعد ذلك ممن ثاروا على الموحدين ، وخلعوا طاعتهم من زعماء الغرب ، وذلك حينما ارتد ابن قسى عن الطاعة ، وتبعه زعماء لبله وبطليوس وطبيرة وغيرهم ، إلى أن عبرت عساكر الموحدين بعد ذلك بقليل بقيادة يوسف بن سليمان ، وأخضعت أولئك الزعماء الثائرين بمختلف قواعد الغرب .

والثانى هو محمد بن على الحجام الثائر ببطليوس ، وقد ذكره ابن الخطيب فى ثبت زعماء الثورة ضد المرابطين ، ولكنه لم يقدم لنا عنه أى تفصيل آخر^(١) . وذكره ابن خلدون ضمن الزعماء الذين خلعوا طاعة الموحدين ، ثم ذكر لنا بعد ذلك أنه حينما عبر يوسف بن سليمان بعساكر الموحدين ، وسار إلى مقاتلة ثوار الغرب ، عاد ابن الحجام (ويسميه هنا محرفاً ابن الحاج) إلى الطاعة ، وبعث إلى عبد المؤمن بهدية كان لها وقع حسن^(٢) . ونحن نعرف مما تقدم أن بطليوس كانت من القواعد التى بسط ابن وزير عليها سلطانه ، وندب خاله عبد الله بن الصميل والياً عليها^(٣) . ولم تذكر لنا الرواية بعد ذلك ، متى ولا فى أى ظروف ، آلت بطليوس إلى محمد بن الحجام .

(١) أعمال الأعلام ص ٢٤٨ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ و ٢٣٥ .

(٣) الحلة السيرة ص ٢٠٤ .

الفصل الثاني

عبد المؤمن وشئون الأندلس

وافتح إشبيلية وقرطبة وقرطبة وقرطبة وقرطبة

اهتمام عبد المؤمن بشئون الأندلس . مقدم الوفود الأندلسية على عبد المؤمن . متى تدخل الموحدون في شئون الأندلس . عبور الجيوش الموحدية الأولى إلى شبه الجزيرة وأعمالها . زحفها على إشبيلية ، وافتتاحها إياها . أخوا المهدي وحكهما لإشبيلية . تطور الحوادث وخروج الزعماء الأندلسيين على الموحدين . عبد المؤمن يرسل جيشاً آخر إلى الأندلس . إخضاع الموحدين للبلدة وطللياطة وطبيرة وبطليوس . التجاء ابن قسى إلى ملك البرتغال . سحق أهل شلب وتأميرهم ضده بزعامة ابن المنذر . مصرع ابن قسى وعودة شلب إلى طاعة الموحدين . استيلاء ابن وزير على شلب . اعتقال الموحدين لابن المنذر . شعر ابن قسى وابن المنذر . رياسة ابن غانية في قرطبة . ضغط ملك قشتالة عليه . تنازله عن رياسة وأبدة . مطالبته بالتنازل عن جيان . مقاضة ابن غانية لبراز والى إشبيلية الموحدى . الاتفاق على تسليم قرطبة وقرمونة للموحدين . مغادرة ابن غانية قرطبة إلى قرطبة . فكرته في التفاهم مع الموحدين . مرضه ووفاته وخلاله . زحف القشتاليين على قرطبة واحتلالهم إياها . مبادرة الحشود الموحدية لإنقاذها . انسحاب القشتاليين منها . احتلال الموحدين لقرطبة وجيان وأبدة ورياسة . قيام ابن مردنيش في شرق الأندلس . امتداد أملاكه حتى جيان . قيام الثورة ضده في بلنسية . اقتحامه لبلنسية واستعادته لسلطانه . معاقبته لأهل بلنسية ولورقة . رسالة عبد المؤمن لابن مردنيش . استيلاء الموحدين على مالقة . اختيار عبد المؤمن لولده محمد لولاية العهد . ظروف هذا الاختيار حسبما يعرضها عبد المؤمن في رسالته . رواية أخرى عن ذلك . عبد المؤمن يولى أولاده حكم البلاد . مهاجمة الوهيبى لمدينة لبلدة . مسير ابن يومور والى إشبيلية إليها . احتلاله لبلدة وفتكه بأهلها . القبض على ابن يومور ومعاقبته . الشكوى إلى الخليفة من ابن الرنق . إنشاء عبد المؤمن لبستان شنطلولية . طوافه بنواحي الأطلس والسوس . زيارته لتينملل . المصحف العثماني ونقله من قرطبة إلى مراكش . إنشاء عبد المؤمن لمسجد مراكش الجامع . نذب ابن يكيث لولاية قرطبة وعبد الله بن أبي حفص لولاية إشبيلية . غزو ابن يكيث لأرض قشتالة . غزو عبد الله بن أبي حفص لأراضى البرتغال . تسليم الوالى المرابطى قرطبة للموحدين . التأهب لاسترداد المرية من النصارى . مسير السيد أبو سعيد والى قرطبة إليها . مسير الأسطول الموحدى إلى مياها . محاصرة الموحدين للمرية . مبادرة ملك قشتالة وحليفه ابن مردنيش لإنجاد الحامية النصرانية . استمرار الحصار وفشل كل محاولة لإنجاد الحامية . مقدم الوزير ابن عطية ومعالجته للموقف . تسليم النصارى وعودة المرية إلى المسلمين . انسحاب ملك قشتالة وحليفه ابن مردنيش . وفاة ملك قشتالة ألفونسو السابع . حوادث الغرب . امتناع الوهيبى بئخر طبيرة . مسير الموحدين إلى طبيرة ومحاصرتها . إتفاق الموحدين مع الوهيبى . تغل ابن وزير عن باجة وميرتلة وشلب ، وعبوره إلى المغرب . الوزير ابن عطية . توليه الوزارة وتوطد مكانته . إرساله إلى الأندلس . تولية عبد السلام الكومى الوزارة في غيابه . سعى خصومه

إلى التشهير به . مروان بن عبد العزيز وتحريضه للخليفة عليه . عود ابن عطية إلى المغرب . اعتزام عبد المؤمن التنكيل به . القبض عليه وعقد مجلس لاتهامه . القبض على أخيه عقيل بن عطية . توسل ابن عطية إلى الخليفة لهنو عنه . إعراض الخليفة عن توسله والسرفى ذلك . مسير الخليفة إلى تينملل ومعه الأخوان . إعدامهما خلال عوده إلى مراکش . تأملات عن هذا الحادث .

لم يكن عبد المؤمن بغافل عن أهمية الأندلس ، والعمل على تحريرها من أيدي المرابطين باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية المرابطية ، التي نذر الموحدون أنفسهم للقضاء عليها ، واستخلاص ترابها ، ولم تكن تعوقه عن العناية بشئون الأندلس ، أية حوادث أو مشاغل داخلية ، مهما بلغت من الخطورة ، ففراه في أدق المراحل من الصراع بينه وبين المرابطين ، يستقبل وفود الأندلس ، ويزودها بنصحه وعونه ، ثم هو بعد ذلك ينتهز أول فرصة لتوجيه جيوشه إلى شبه الجزيرة ، لتأخذ بنصيبها من حوادث الأندلس ، ولتمهد السبيل لسيطرة الموحدين عليها .

وكان في مقدمة من وفد على عبد المؤمن من زعماء الثورة في الأندلس ضد المرابطين ، أبو الغمر بن السائب بن عزون زعيم شريش وأركش ورندة ، وأبو جعفر بن حمد بن زعيم قرطبة المعزول ، وفدا عليه في أوائل سنة ٥٤١ هـ وهو على حصار مراکش ، لاستنهاض همته للتدخل في حوادث الأندلس ، وإنجاد زعمائها الثائرين ضد المرابطين . ووفد في نفس الوقت أو بعده بقليل على عبد المؤمن زعيم الثورة في غرب الأندلس ، أو زعيم ثورة المرينيين أحمد بن قسى ، عقب خلعه وفقده لإمارته في شلب وميرتلة على يد خصمه ومنافسه سيدراى بن وزير صاحب باجة . وقد سبق أن فصلنا في موضعه ظروف مقدمه على عبد المؤمن ، وما يحيط بذلك من خلاف على تاريخ مقدمه ، ومكان لقائه به . ثم وفد على عبد المؤمن في أوائل سنة ٥٤٢ هـ عقب افتتاح مراکش ، وفد كبير من إشبيلية ، وعلى رأسه القاضي أبو بكر بن العربي وعدة من زعماء إشبيلية ، يحملون إليه بيعة أهل إشبيلية ، وذلك على أثر افتتاح الموحدين لها . وفي أواخر سنة ٥٤٥ هـ وأوائل سنة ٥٤٦ هـ ، وفد على عبد المؤمن ، وهو بسلا يعد عدته لافتتاح إفريقية ، وفود أندلسية عديدة من مختلف حواضر الأندلس ، ومن بينها كثير من رجالات الأندلس البارزين ، من الفقهاء والقضاة والزعماء والقواد ، بلغوا نحو خمسمائة ، وشرح له خطباؤهم خطورة عدوان النصارى على الأندلس ،

واستطالهم على قرطبة ، وما يقتضيه ذلك من مزيد العون والجهاد ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل في موضعه^(١) .

كان لمقدم هذه الوفود الأندلسية المتوالية أثرها في إذكاء العزم ، الذي تكون لدى عبد المؤمن من قبل ، نحو شئون الأندلس ، ومبادرته إلى التدخل الفعلي في حوادثها ، ومضاعفة جهوده في توجيه البعوث العسكرية إليها . وقد اختلفت الرواية في تحديد تاريخ تدخل الموحدين في شئون الأندلس ، وفي كيفية هذا التدخل . ففي رواية صاحب روض القرطاس ومن روى عنهم ، أن هذا التدخل يرجع إلى أواخر سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) عقب افتتاح عبد المؤمن لتلمسان ، ففي هذا التاريخ بعث عبد المؤمن إلى الأندلس جيشاً موحدياً من عشرة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبي عمران موسى بن سعيد ، ونزل هذا الجيش بساحل الجزيرة الخضراء ، وكان أول بلد افتتحوه هو مدينة شريش ، افتتحوها صلحاً ، إذ خرج صاحبها أبو الغمر بن عزون ، وهو من بني غانية المرابطين ، في حامية المرابطين ، وقوامها ثلاثمائة فارس ، وبأيع لعبد المؤمن ، وأعلن دخوله في طاعته . وكان الموحدون لذلك يسمون أهل شريش بالسابقين الأولين ، وحررت أملاكهم من المغارم ، وكان خلفاء الموحدين إذا قدمت عليهم وفود الأندلس للسلام ، يقدمون وفد شريش ، ويُنادى عليهم ابن السابقون ، ثم تتلوهم بقية الوفود . ويحدد لنا صاحب روض القرطاس ، نقلاً عن ابن فرحون ، دخول الموحدين شريش بشهر ذي الحجة سنة ٥٣٩ هـ . ودخل الموحدون بلدة طريف والجزيرة الخضراء قبل ذلك بقليل ، وفر المرابطون منها إلى إشبيلية^(٢) . بيد أن هذه الرواية التي ينفرد بها صاحب روض القرطاس ، تعارضها رواية أخرى هي رواية ابن الأبار وابن خلدون ، وهي تدل على أن تدخل الموحدين في شئون الأندلس يرجع إلى سنة ٥٤٠ هـ ، وأن أول جيش موحدى وُجه إلى الأندلس ، دخلها في أوائل سنة ٥٤١ هـ . وتفصيل ذلك هو أنه حينما كان عبد المؤمن يعسكر بجيشه تحت أسوار فاس في سنة ٥٤٠ هـ ، وقد عليه على بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي في مياه قادس ، وقدم إليه طاعته ، ثم عاد إلى الأندلس ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ ، والحلل الموشية

ص ١١١ ، وروض القرطاس ص ١٢٥ ، والحلة السيرة ص ٢٠٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٢ و ١٢٣ .

وأقام الخطبة للموحدين بجامع قادس^(١) ، وفي وسعنا أن نرجع بداية تدخل
الموحدين في شئون الأندلس إلى هذا التاريخ ، أعنى إلى سنة ٥٤٠ هـ . وأما تدخل
الموحدين العسكري في شئون الأندلس فيرجع وفقاً لقول ابن الأبار إلى أوائل
سنة ٥٤١ هـ . وذلك أنه حينما وفد ابن قسي زعيم ثورة الغرب ، على عبد المؤمن
في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ ، ليحثه على إخراج ثوار الغرب ، واستخلاص الأندلس
من أيدي المرابطين ، بعث عبد المؤمن في المحرم سنة ٥٤١ هـ جيشاً إلى الأندلس ،
ومعه ابن قسي . وهذا الجيش هو الذي افتتح طريف والجزيرة الخضراء ، ثم
سار بعد ذلك إلى شلب ليفتحها من يد ابن وزير المتغلب عليها ، وليعيدها إلى
صاحبها ابن قسي^(٢) . بيد أننا قد بينا من قبل ، أن عبور ابن قسي إلى المغرب ،
لا بد أنه وقع بعد التاريخ الذي يحدده ابن الأبار بقليل ، وذلك عقب فقد ابن قسي
لحاضرتة ميرتلة في شعبان سنة ٥٤٠ هـ ، وأن هذا العبور قد وقع حسبما يرجح في
أواخر سنة ٥٤٠ هـ^(٣) ، فهنا وجه عبد المؤمن أول جيش موحدى إلى الأندلس
بقيادة برّاز بن محمد المستوفى ، وكان قبل من قاده الأمير تاشفين ، ثم انحاز بعد
مصرعه إلى الموحدين ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد ، ثم
بجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجى ، وكانت مهمة الموحدين في شبه
الجزيرة ، أن يقاتلوا اللمتونيين ، والثوار معاً . وكان عبور هذا الجيش
الموحدى إلى الأندلس في شهر المحرم سنة ٥٤١ هـ . وبعد أن استولى الموحدون
على طريف والجزيرة الخضراء ، ساروا إلى مدينة شريش حيث انضم إليهم
صاحبها أبو الغمر بن عزون وولده . ثم ساروا إلى مدينة لّسّبة ، فأعلن صاحبها
يوسف بن أحمد البطروجى الطاعة . وقصد الموحدون بعد ذلك إلى ميرتلة ،
حاضرة ابن قسي من قبل ، وكانت عندئذ تحت سلطان منافسه سيدراى بن وزير
فاستولوا عليها . ثم استولوا على شلب ، وردوا أمرها إلى ابن قسي . وساروا
بعد ذلك إلى باجة ثم إلى بطليوس ، وكانا لنظر ابن وزير ، وعلى بطليوس
من قبله خاله عبد الله بن الصميل ، فأعلن ابن وزير الطاعة ، وأطلق سجينه
محمد بن عمر بن المنذر أحد زعماء المريردين ، وكان قد تغلب عليه وسجنه

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٣ .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٠٠ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ ، و ج ٦ ص ٢٣٤ .

حسبنا ذكرنا من قبل في موضعه ، ثم سُملت عيناه وهو في السجن ، فقصد إلى شلب واستقر بها إلى جانب زميله وحليفه السابق ابن قسي^(١) . وسيطر الموحدون في هذه الجولة الأولى على قواعد الغرب ، التي كانت بأيدي المرينيين ، ولم تستغرق منهم سوى بضعة أشهر . بيد أنها لم تكن سوى مقدمة ، لغاية أهم وأخطر ، هي الاستيلاء على حاضرة إشبيلية .

وسار الموحدون في سائر قواتهم إلى إشبيلية ، وانضم إليهم زعماء المرينيين ، أحمد بن قسي وسيدراى بن وزير ويوسف البطروجي كل في قواته ، واستولوا في طريقهم صلحاً على طلياطة وحصن القصر ، وهما قلعتا إشبيلية من الغرب ، وقد أعلنت كلتاها الطاعة ، ثم ضربوا الحصار حول إشبيلية . وحاصرتها من البحر سفن الأسطول الأندلسي ، بقيادة علي بن عيسى بن ميمون ، صاحب قادس . ولم يطل أمد هذا الحصار ، إذ لم يكن بإشبيلية سوى حامية مرابطية ضعيفة ، تدافع في ظروف دقيقة ، ومن حولها شعب خضيم متربص ، وسرعان ما اقتحم الموحدون المدينة ، ففر منها المرابطون إلى قرمونة ، وقتل الموحدون من أدرنكوه منهم ، وقتل في تلك المعركة عبد الله بن العربي ، ولد القاضي أبي بكر ابن العربي ، عميد فقهاء المدينة وزعمائها . وتم فتح إشبيلية في اليوم الثاني عشر من شعبان سنة ٥٤١ هـ (١٨ يناير سنة ١١٤٧ م)^(٢) وكتب بالفتح إلى عبد المؤمن ، فعلم به ، وهو على وشك دخول مراکش ، ثم قدم إليها بعد افتتاحها بقليل ، وفد إشبيلية برياسة القاضي ابن العربي ، يحمل إليه بيعة أهلها ، حسبنا ذكرنا من قبل ، وذلك في أوائل سنة ٥٤٢ هـ .

وكان بين مشيخة عسكر الموحدين بإشبيلية ، عبد العزيز وعيسى ، أخوا المهدي ابن تومرت . ولما كانت إشبيلية ، عند فتحها دون أمير يتولى حكمها ، فقد توليا هذه المهمة ، فساء سلوكهما ، وبغى كلاهما وطغى ، واستحلا سفك الدماء ونهب الأموال ، وغدت المدينة في ظلها مسرحاً لشر ضروب الفوضى ، وناهضهما في ذلك يوسف البطروجي صاحب لبلبة ، فاعتزما الفتك به ، فغادر

(١) ابن الأبار ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٣٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ ، وابن الأثير .

ج ١١ ص ٤٤٣ و٤٤٤ . ويقول صاحب روض القرطاس ان افتتاح الموحدين لإشبيلية كان في سنة ٥٤٠ هـ (ص ١٢٣) وهي رواية ضعيفة .

إشبيلية إلى بلده ، وأخرج الموحدين منها ، ونقض الطاعة ، وتحالف مع فلول المرابطين . وكذا فعل أهل طلياطة ، وحصن القصر . ثم خرج على الطاعة ابن قسى صاحب شلب ، وابن ميمون صاحب قادس ، ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس ، ولم يثبت على طاعة الموحدين سوى ابن عزون صاحب شريش وولده . ولناحظ أن خروج أولئك الزعماء عن طاعة الموحدين ، قد وقع في نفس الوقت الذي اضطرت فيه بالمغرب ثورة الماسي ضد الموحدين (٥٤٢ هـ) ، ولاحمدي حين أنها تهدد ساطانهم ودولتهم . وانتهز يحيى بن غانية فرصة هذا الاضطراب الذين ترتب على سوء تصرف الموحدين ، وسخط زعماء الغرب على حكمهم ، فبعث قوة من المرابطين ، تغلبت على الجزيرة الخضراء ، مدخل شبه الجزيرة ، وتردد صدى ذلك في سبتة ، فخلع أهلها الطاعة ، بزعامة عميدها القاضي عياض السبتي ، وقتلوا إليها يوسف بن مخلوف التينمالي ومن معه من الموحدين ، وتولى أمرها يحيى بن أبي بكر الصحراوي ، وذلك حسبما فصلناه في موضعه . وفي خلال ذلك ساءت الأحوال في إشبيلية وغادرها عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي ومن معهما من الموحدين ، ولحقا بحصن ببشر من معاقل ابن عزون ، ثم سارا ومعهما ابن عزون في قواته ، وحاصروا الجزيرة حتى افتتحوها ، وقتلوا من بها من المرابطين . ثم عبر عبد العزيز وعيسى البحر بعد ذلك إلى المغرب ولحقا بمراكش حيث كان من أمرهما ومصيرهما ما سبق ذكره في أخبار الخوارج على عبدالمؤمن (١)

ولما علم عبد المؤمن بما حدث في إشبيلية وغربي الأندلس ، بادر فبعث جيشاً من الموحدين إلى شبه الجزيرة ، بقيادة يوسف بن سليمان ، وندب برازاً ابن محمد المسوّفي لشئون الحباية بالأندلس . وسار يوسف في قواته أولاً إلى لبله ، حيث قضى على ثورة البطروجي وأخضعه ، وتلا ذلك إخضاعه لطلاطة ، وحصن القصر . ثم سار إلى قاصية الغرب ، فأخضع مدينة طبيرة ، وأعلن صاحبها عامل ابن مهيب الطاعة ، وأعلن على بن عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية الغرب وقادس كذلك عودته إلى الطاعة ، وحذا حذوه محمد بن علي بن الحجام صاحب بطليوس ، وبعث بطائفة من الهدايا الفخمة برسم الخليفة عبد المؤمن ، فقبلت وكان لها وقع حسن . ولما دعيت وفود الأندلس إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وهو بسلا في سنة ٥٤٥ هـ ، سار زعماء الغرب ، الذين تقدم ذكرهم وفي مقدمتهم سيدراي

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

ابن وزير صاحب باجة ويابرة ، إلى لقائه ، ولم يتخلف منهم سوى ابن قسي صاحب شلب وميرتلة^(١) . وكان ابن قسي ، حينما رأى تقدم الموحدين في أنحاء الغرب ، وانضواء زعمائه تحت لوأهم ، قد خشي البادرة على نفسه ، وهو لم يكن حين أعلن طاعته للموحدين لأول مرة ، مخلصاً لهم ، ولا مؤمناً بدعوتهم ، وإنما كان مقصده فقط أن يستعين بهم ، وأن يأمن سطوتهم ، فلما رأى أنه عاجز عن مقاومتهم ، بعد أن خضع كل زملائه زعماء الغرب ، تحول إلى النصارى ، وبعث إلى ألفونسو هنريكز ملك البرتغال ، وهو الذي تسميه الرواية العربية بابن الرنق وابن الرنك^(٢) يناشده التحالف والعون ، فاستجاب ألفونسو إلى دعوته ، وبعث إليه بفرس من أفراسه ، وترس ورمح ، ووعدته بالعون المنشود ، فلما رأى أهل شلب تحول ابن قسي إلى النصارى ، سخطوا عليه ، ودبروا مؤامرة للتخلص منه ، بزعامة ابن المنذر الأعمى ، زميل ابن قسي وحليفه السابق ، وكان الموحدون قد أطلقوا سراجه من سجن بطليوس ، فعاد إلى شلب وأقام بها ، حسبما تقدم ، وشغل المتآمرون الحسين ولد ابن قسي بنزهة أعدوها له ، ثم احتالوا على دخول القصر ، وهو المسمى بقصر الشراجب ، واقتحمت طائفة منهم الحصن ، وفتكوا بابن قسي ، ورفعوا رأسه على الرمح المهدي إليه من ملك النصارى ، ونصبوا مكانه لرياستهم ابن المنذر ، معلنين ولاءهم للدعوة الموحدية ، وذلك في جمادى الأولى من سنة ٥٤٦ هـ (سبتمبر ١١٥١ م) ، وبذلك انتهت رئاسة ابن قسي ، ورئاسة المريدين الذين كانوا أول من أعلن الخروج والثورة على المرابطين في ولاية الغرب .

وكان ابن قسي عالماً ضليعاً ، ولاسيما في علم الكلام والتصوف ، وشاعراً جزلاً . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من نظمه . فمن ذلك قوله يشيد بثورته :

وما تدفع الأبطال بالوعظ عن حمى ولا الحرب تطفأ بالرقا والتماثم
ولكن ببيض مرهقات وذبيل موازدها ماء الطلى والغلاصم
ولا صلح حتى نطعن الخيل بالقننا ونضرب بالبيض الرقاق الصوارم

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ .

(٢) ويسميه ابن الأبار بابن الرنيق (الحلة السيرة ص ٢٠٠) . ويسميه ابن الخطيب بصاحب

قلمرية Coimbra ، وقد كانت يومئذ عاصمة إمارة البرتغال الناشئة (أعمال الأعلام ص ٢٥١) .

ونحن أناس قد حمتنا سيوفنا عن الظلم لما جرتتم بالمظالم^(١)
وكان ابن المنذر ، وقد فصلنا أخباره فيما تقدم ، رجلاً قوى الشكيمة لا تؤمن
عواقبه ، وكان الموحدون بالرغم من تمسكه بدعوتهم ، يخشون انتقاضه وتقلباته ،
وكان سيدراى بن وزير من جهة أخرى يطمح بعد مصرع ابن قسى إلى احتلال
شلب وضمها إلى أملاكه ، ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل على ولاية ابن المنذر ،
حتى سار إلى شلب وتغلب عليها ، وذلك حسبما فصله ابن صاحب الصلاة في
كتابه « ثورة المريردين » ، وهو مؤلف لم يصل إلينا . ولم يعترض الموحدون على
هذا التغيير في رياسة شلب ، ولكنهم خشوا أن يعود ابن المنذر الأعمى ، إلى
الثورة مرة أخرى ، فنقلوه إلى إشبيلية ليقم بها تحت رقابتهم . وبعد حين غادرها
ابن المنذر ، وعبر البحر إلى المغرب ، وقصد إلى سلا ، وأقام بها حتى توفي
في سنة ٥٥٨ هـ .

وكذا كان ابن المنذر ، مثل زميله ابن قسى ، عالماً وأديباً شاعراً ، وقد
نقل إلينا ابن الأبار طائفة من نظمه ، فمن ذلك قوله يخاطب وزيره أبا بكر
ابن المنخل ، وقد كان أيضاً من شعراء الغرب في هذا العصر :

لئن غض منك الدهر يوماً بأزمة فحسبك أن تلقى وانت مبور
فليس أسأ يبتى وإن جل مثل ما على كل حال لا يدوم سرور
أوجد في الدنيا من الناس صاحب إذا عرضت أبتى لداك عسير
طلبت عزيزاً لا ينال فإن يكن فإن أبا بكر بذاك جدير
رضيت به حظاً من الناس كلهم فما بعده حرٌّ إليه نُشير^(٢)

نعود الآن بعد أن استعرضنا تطور الحوادث في غربي الأندلس ، وما انتهت
إليه من بسط الموحدين لسلطانهم عليه ، منذ إشبيلية حتى شلب في قاصية ولاية
الغرب ، إلى تتبع الحوادث في وسط الأندلس .

تركنا قرطبة ، وقد استعاد الأمير يحيى بن غانية المرابطى سلطانه عليها ،
بمؤازرة القيصر ألفونسو السابع ملك قشتالة ، وغادرها زعيمها السابق القاضي

(١) راجع الحلة السيرة ص ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٠٤ ، وأعمال الأعلام ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

(٢) الحلة السيرة ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

بن حمدين ، بعد أن تخلى عن مؤازرته النصارى لما رأوه من تقدم الموحدين في ولاية الغرب ، واستيلائهم على إشبيلية ، واضطرارهم بذلك إلى مهادنة ابن غانية ، وحماية سلطانه على قرطبة (أوائل سنة ٥٤١ هـ) . وكان ألفونسو السابع يرى بحق ، أن ابن غانية يمثل آخر ماتبقى من سلطان المرابطين في شبه الجزيرة ، وأنه أضحى رمز المقاومة لزحف الموحدين إلى أواسط الأندلس ، وكان ابن غانية يشعر في كثير من المرات ، أنه أضحى في الواقع تابعاً لملك قشتالة ، وأن مصيره في قرطبة وفي الأندلس أضحى رهيناً بمشيئته . واستمر ابن غانية عدة أشهر أخرى يصانع النصارى ، وملك قشتالة يشتط في مطالبه ورغباته ، ويضيق عليه في تصرفاته . وأخيراً استدعاه ألفونسو إلى حصن أندوجر ، وكان حاكمه ، وهو رجل يعرف بالعربي ، منضوياً تحت لواء النصارى ، فسار ابن غانية إلى أندوجر ، وهناك طالبه ملك قشتاله ، بالتنازل له عن بياسة وأبده ، لقاء الاستمرار في مخالفته وحمايته ، فاضطر ابن غانية إلى القبول والتخلي عن هاتين القاعدتين الهامتين . ثم عاد ملك قشتالة فطالب ابن غانية ، بالتخلي له عن مدينة جيان ، أو مضاعفة الجزية المفروضة عليه . والظاهر أن ابن غانية وعد ملك قشتالة ، بإجابة مطله واستمهله بعض الوقت . واتصل في نفس الوقت سرّاً ، ببراز بن محمد المسوفي والى إشبيلية الموحدى ، وكان حسبما تقدم من القادة المرابطين السابقين ، واجتمع الإثنان خفية بمدينة إستجة ، واتفقا على أن يقوم ابن غانية بتسليم قرطبة وقرمونة للموحدين . ويقول لنا ابن الخطيب بأن ابن غانية وصله خطاب عبد المؤمن « بما أحب » دون أن يوضح لنا ما الذى طلبه ابن غانية مقابل هذا التخلي ، وربما كان ذلك هو معاونة الموحدين له على الاحتفاظ بجيان . ومن ثم فإنه لما بعث ملك قشتالة سفراءه إليه يطالبونه بالتعجيل بتسليم جيان ، قبض عليهم وبعثهم إلى قلعة بنى سعيد (قلعة محصب) فاعتقلوا بها تحت حراسة شديدة ، واضطر النصارى إلى الإفراج عن جيان (١) . وعلى أثر ذلك غادر ابن غانية قرطبة إلى غرناطة ، وهى آخر ما بقى للمرابطين من القواعد في شبه الجزيرة ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٥٤٣ هـ ، وكان يمتنع بها واليا ميمون بن يدر اللنتمونى مع جماعة من قادة المرابطين .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، والإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر)

لوحة ٢٧٢ في ترجمة عبد الملك بن سعيد . ولوحة ٣٩٢ في ترجمة ابن غانية .

وكان ابن غانية يرمى وفقاً لرواية صاحب القرطاس إلى ان يحمل بدر اللمتوفى على أن يسلم غرناطة للموحدين ، على غرار قرطبة وقرمونة ، ووفقاً لرواية ابن خلدون على أن يحمله على « مثل حاله مع الموحدين » . ويزيد ابن الخطيب الأمر وضوحاً ، فيقول لنا إن ابن غانية كان يرمى إلى أن يجتمع في غرناطة بأعيان لمتونة ومستوفه ، في شأن تصريح الأمر إلى الموحدين . وقد يفهم من ذلك أن ابن غانية انتهى بإعلان طاعته للموحدين وانضوى تحت لوأهم^(١) . بيد أنه مما ينقض هذه الرواية ما يذكره لنا ابن الخطيب في موضع آخر من أن ابن غانية ، بعد أن حل بغرناطة ، أقام بها شهرين ثم مرض وتوفى ، وكان يقول للمرابطين ، في مرض موته ، وقد عول على جعل غرناطة معقلاً للدعوة المرابطية : « الأندلس درقة وغرناطة قبضتها ، فإذا جشتمت يا معشر المرابطين القبضة لم تخرج الدرقة من أيديكم » . وهو ما ينسب عن ابن غانية أية شبهة في الانحراف عن الدعوة المرابطية^(٢) .

وكانت وفاة يحيى بن غانية في الرابع والعشرين من شعبان سنة ٥٤٣ هـ (٧ يناير ١١٤٩ م) . ودفن بداخل قصبها بالمسجد المتصل بقصر بانيس ابن حبوس ، ومجاوراً له في مدفنه ، وكان قبره مزاراً معروفاً يتبرك به حتى أيام ابن الخطيب (أواسط القرن الرابع عشر)^(٣) .

وعلى أثر وفاة ابن غانية ، غادر مولاة العليج فلتوج غرناطة إلى حصن بني بشير ، وكان سيده قد ولاه إياه ، وأودع فيه أمواله وذخائره ، وكانت مقادير طائلة واستعان على حفظه بجماعة من النصارى . ثم خطر له أن يلحق بابن أخى مولاة إسحق بن غانية . واستخلف على الحصن رجلاً من أهل سرقسطة يعرف بابن مالك ، فقبض عليه وعذبه حتى مات . ولما علم الموحدون بما حدث ، سارت منهم سرية من مدينة لوشة القريبة ، وغلبوا على الحصن ، واستولوا على سائر ما كان فيه من الأموال والحلى والثياب وكان منها ذخائر جليله^(٤) .

وكان يحيى بن علي بن غانية أميراً نابهاً ، وجندياً وافر الجرأة والشجاعة ، والخبرة بأساليب الحروب ، وكان في نفس الوقت سياسياً فطناً ، وحاكماً وافر

(١) روض القرطاس ص ١٢٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، وابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٩٢ .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٩٢ .

(٤) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٦٠ .

الكفاية والمقدرة ، وقد استعرضنا فيما تقدم مراحل حياته ، وما وليه من مختلف المناصب ، وما ساهم به في محاربة النصارى ، ولاسيما موقعة إفراغة (٥٥٢٨) التي أحرز فيها المرابطون نصرهم الباهر على ألفونسو المحارب . ويلخص لنا ابن الخطيب خلاله في قوله : « كان بطلاً شهماً ، حازماً ، كثير الدهاء والإقدام ، والمعرفة بالحروب ، مجمعاً على تقدمه » . أما أخوه الأصغر محمد بن علي بن غانية ، فقد ولى حكم الجزائر الشرقية منذ سنة ٥٢٠ هـ ، أيام علي بن يوسف ، ولبث على ولايتها مدة طويلة حتى تعثرت أحوال الدولة المرابطية ، وانهارت دعائمها ، فاستقل بحكم الجزائر . وكان لعقبه بها دولة ، استمرت دهرأ حصناً للدعوة المرابطية ، ومركزاً للكفاح المرير ضد الدولة الموحدية .

وكان ملك قشتالة في تلك الأثناء ، يرقب الحوادث ، ويتربص الفرص . فما كاد ابن غانية ، يتخلى للموحدين عن قرطبة ، ويغادرها إلى غرناطة ، حتى زحف القشتاليون على عاصمة الخلافة القديمة ، والظاهر أنها كانت عندئذ بلا دفاع ، أو كانت لديها حامية صغيرة ، لا تستطيع دفعاً للنصارى ، فدخلها القشتاليون للمرة الثانية خلال عامين ، وذلك فيما يبدو في جمادى الثانية أو رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر أو ديسمبر سنة ١١٤٨ م) . بيد أنه كان احتلالاً قصيراً الأمد ، ذلك أن الموحدين مذ حصلوا على موافقة ابن غانية ، على التخلي لهم عن قرطبة ، لم يفتهم أن النصارى ، وهم على مقربة منها في حصن أندوجر ، يرقبون الفرصة لاحتلالها ، ومن ثم ، فإن برآزاً المستوفى والى إشبيلية ، جهز في الحال حملة موحدية بقيادة أبي الغمر بن عزون صاحب شريش ، توأزرها قوة أخرى بقيادة يوسف البطروجي صاحب لبلة ، وكتب إلى الخليفة عبد المؤمن في نفس الوقت لإمداده بالعساكر ، فبعث إلى الأندلس على وجه السرعة ، جيشاً موحدياً بقيادة أبي زكريا يحيى يومور . وزحفت العساكر الموحدية صوب قرطبة ، فلما شعر ملك قشتالة بوفرة القوات الموحدية الزاحفة ، لم يرد أن يشتبك وهو بعيد عن قواعده ومملكته ، في معارك لا تؤمن عواقبها ، فغادر قرطبة في قواته لأيام قلائل من احتلالها ، ودخل الموحدون قرطبة ، وبسطوا سلطانهم عليها ، وذلك في شهر رجب أو شعبان سنة ٥٤٣ هـ . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى احتلوا مدينة جيان ، بعد أن لبث القشتاليون يهددون فيها حيناً ، ويحاولون احتلالها^(١) . تم استولوا

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، وروض القرطاس ص ١٢٥ .

على بياسة وأبدة من النصارى ، وبذلك امتد سلطان الموحدين إلى أواسط الأندلس ، ولم يبق بيد المرابطين سوى مدينة غرناطة ، التي استطاعوا أن يحتفظوا بها بضعة أعوام أخرى .

وفي تلك الآونة بالذات ، حدثت في شرقي الأندلس عدة حوادث هامة ، أولها قيام محمد بن سعد بن مردنيش في بلنسية ومرسية ، وبسطه لسيادته على شرقي الأندلس (٥٤٢ هـ) ، ومحالفته للنصارى ؛ وثانيها سقوط القواعد الإسلامية الباقية من الثغر الأعلى في أيدي النصارى ، وهي طرطوشة ولاردة وإفراغة ومكناسة (٥٤٣ - ٥٤٤ هـ) . وقد كان من الواضح منذ البداية ، ان ابن مردنيش ، وهو يمثل الفكرة القومية الأندلسية ، سرف يخوض مع الموحدين صراعاً لاهوادة فيه ، وهو قد بدأ هذا الصراع بالفعل ، مذ شعر بتوطد سلطانه واجتماع قواته ، فسار إلى بسطة ، ووادي آش ، وانزعجها من صاحبهما ابن ملحان الطائي في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥٣ م) وذلك حسبما فصلنا من قبل . وهكذا امتد أملاك ابن مردنيش إلى مقربة من جيان ، التي كانت يومئذ قاعدة موحدية . بيد أنه وقعت في نفس هذا العام في بلنسية وابن مردنيش بعيد عنها ، ثورة داخلية ، انتهت بقيام زعيم يدعى أبا مروان عبد الملك بن شلبان في حكمها . فارتد ابن مردنيش بقواته ليحاصر بلنسية مدى حين . ولم يشر إلى قيام هذه الثورة ، ويقدم إلينا بعض تفاصيلها سوى ابن الأبار^(١) . بيد أن هنالك نص آخر يشير إليها من زاوية أخرى ، وهو عبارة عن رسالة موحدية ، بعث بها الخليفة عبد المؤمن إلى « الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد » من حضرة مراکش مؤرخه في ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ . والظاهر من نص هذه الرسالة ، أن هذه الثورة التي كانت في بلنسية ضد محمد بن سعد ، كانت تعلن « التوحيد » شعاراً لها ، وأن ابن مردنيش ، حينما تم له اقتحام بلنسية ، وإخضاع الثورة ، قد نكل بالثوار ، ولا سيما الذين أبدوا ميلهم للدعوة الموحدية . كذلك يبدو من هذا النص أن أهل مدينة لورقة قد أبدوا نفس الميل إلى الدعوة الموحدية ، وأن ابن سعد قد نكل بهم أسوة بما فعله بأهل بلنسية ، ويدعو الخليفة عبد المؤمن في رسالته ابن سعد إلى اعتناق أمر المهدي ، والدخول في الدعوة الموحدية ، ويلفت نظره

(١) هذا ما ورد في التكملة (القاهرة) - الجزء الثاني - رقم ١٣١٣ و١٣٩٤ .

إلى أنه لم يفر أحد من زعماء الأندلس ببيغيته إلا من دخل في هذه الدعوة ، وأن من خرج عليها منهم ، كان جزاؤه سوء المنقلب ، ثم يدعو إلى المبادرة إلى الاعتبار ، ويلومه بما كان منه في حق أهل بلنسية « حينما أظهروا كلمة التوحيد » وكذلك أهل لورقة « حينما ظهر أخلاصهم » (١) .

وقد كان هذا فيما يبدو ، أول احتكاك بين ابن سعد وبين الموحدين . وقد كان الموحدون يعتقدون أنهم سوف يجدون في شرقي الأندلس ، نفس الطراز من الزعماء الثائرين ، الذي لقوا في غربي الأندلس ، يعبرون البحر إليهم ، ويلتمسون إلى خليفتهم العون والإمداد ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق في ابن مردنيش ، وهو سوف يغدو منذ الآن فصاعداً ، ألد خصومهم ، وأصلبهم عوداً ، وأرسخهم عزمًا ، في مقاومة الدعوة الموحدية في شبه الجزيرة .

وفي أواخر سنة ٥٤٧ هـ (أواخر ١١٥٢ م) تقدمت القوات الموحدية من أنتقيرة ، وكذلك من الفرنتيرة نحو مالقة ، واستولت عليها ، وذلك عقب مصرع صاحبها المتغلب عليها القاضي أبي الحكم بن حسون ، وتم لهم بذلك الاستيلاء على كورة رية كلها .

وكانت سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٥ م) سنة مليئة بالأحداث الهامة بالنسبة للموحدين والدولة الموحدية . ويمكننا أن نعتبر أن أهم حادث وقع فيها ، هو إسناد عبد المؤمن ولاية عهده لولده البكر محمد . ونحن نعرف أن الدولة الموحدية ، قامت على أسس دعوة دينية ، وأن عبد المؤمن ، حينما أتيج له أن يجتني تراث المهدي ابن تومرت ، لم يكن قيامه في الخلافة نتيجة وراثية أو ولاية عهد ، وإنما كان في الظاهر على الأقل نتيجة لاختيار مختلف القبائل والطوائف الموحدية ، وتفضيلها لعبد المؤمن ، بالرغم من كونه لم يكن من قبيلة المهدي ، لجلاله ومقدرته ، ولأنه كان بالنسبة للمهدي ، أوثق أصحابه وتلاميذه صلة به ، وآثرهم لديه . ولكن الحوادث تطورت منذ وفاة المهدي ، تطوراً عميقاً ، وقام عبد المؤمن في قيادة الدولة الموحدية الناشئة بأعظم دور ، وأبدى في مصارعة خصومها وفي توطيد دعائمها مقدره فائقة ، وأضحى عاقلها القوى يقود مصايرها بعزم لامثيل له ، وحوله تلتف سائر الزعامات الموحدية ، تحبوه بمطلق تأييدها وطاعتها .

(١) راجع رسائل موحدية التي سبقت الإشارة إليها ، الرسالة العاشرة ص ٣٦ و ٣٧ . وقد

نشرت هذه الرسالة أيضاً في صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٤٣ .

ونحن نذكر أن عبد المؤمن ، بعد أن أتم فتح بجاية ، وقضى على ثورة العرب في إفريقية ، وعلى ثورة القبائل الخارجة في أرض السوس وغيرها ، غادر مراکش إلى تينملت ، فزار قبر المهدي ، وأمر ببناء مسجد لها وتوسيع خططها ، ثم سار منها إلى سلا ، لإصلاح خططها أيضاً ، وليتم المنشآت التي بدأها في عدوتها الرباط ، وكان ذلك في أوائل أواسط سنة ٥٤٩ هـ . في تلك الفترة ، وقعت تولية عبد المؤمن لولده أبي عبد الله محمد لولاية العهد . ولم يقدم لنا البيهقي وهو المؤرخ المعاصر وشاهد العيان ، أى تفصيل عن هذا الحادث الجلل ، في تاريخ الدولة الموحدية ، مكتفياً بالإشارة إليه في بضع كلمات^(١) . بيد أنه يستفاد من مختلف التفاصيل ، التي وردت في رسائل الخليفة عبد المؤمن ذاته ، أن هذا التعمين قد اتخذ سبيل الشورى والاختيار من جانب الموحدين ، فهو يقول في رسالته التي وجهها عن هذا الموضوع إلى أهالي سبتة وطنجة ، ومن بها من الطلبة والأشياخ والموحدين ، إن أولياء هذه الدعوة من القبائل والعشائر الشرقية المختلفة ، العربية والصنهاجية ، تقدموا باقتراحهم ورجبتهم في هذه البيعة بولاية العهد ، وبعثوا إليه بذلك مراراً وتكراراً ، وأنهم لما وفدوا عليه بسلا ، أبدوا رغبتهم صراحة ، واختاروا لذلك ولده محمداً بالذات ، ورغبوا إليه في أن يتولى هو حكم بلادهم ، وأنه أى عبد المؤمن لم يكن له في ذلك كله قصد ينويه ، وأنه رأى بعد استخارة الله تعالى ، أن يجمع حوله بسلا شيوخ الموحدين وطلبهم وعمالم ، وأن يشاورهم في هذا الأمر . وتقدمهم الشيخ الأجل أبو حفص عمر ابن يحيى ، وأكد أنهم هم المتقدمون بذلك ، وأنهم يرون وجوبه وتنفيذه ، وأنهم هم السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه ، وأكد سائر الطلبة والفقهاء ما تقدم ، واتفقوا جميعاً على وجوب تحقيقه ، « لأن فيه من إبقاء الأمر في نصابه ، وإتيان الحق من أبوابه ، واتباع الدين من أخلائه وأحبابه ، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وارتياحه ، والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ، ويضم شمل المؤمنين ، بأوائل هذا القصد الصالح وأعقابه ، ما ابتنى عليه اتفاقهم وإصفاقهم ، واسترسل فيه تعيينهم وإطلاقهم » . ثم يزيد عبد المؤمن على ذلك ، بأن ذلك لم يكن له في نفسه « عقد سابق ، ولا نظر لاحق ، وأنه لما رأى اتفاق كلمة الموحدين على ربط هذا الأمر وعقده ، استخار الله في الاتفاق

(١) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٨ .

معهم على إنفاذه ؛ وبدأ البيعة الشيخ الأجل أبو حفص ، وتتابع من بعده الأشياخ والطلبة ، ومن حضر من قبائل الموحدين ، قبلاً بعد قبيل^(١) ، وكتب بولاية العهد إلى سائر البلاد .

وإنه لما يلفت النظر ، أن الخليفة عبد المؤمن يؤكد في رسالته غير مرة ، أنه لم يفكر ولم يكن له قصد سابق في هذا التعيين لولده ، ثم هو يعود فيؤكد في رسالة ثانية وجهها إلى أهل سبتة ، وإلى الطلبة والأشياخ ، أنه لم يكن عنده في ذلك « قصد متقدم ، ولا عهد متوهم ، لكنه أمر الله أراد فآتمه ، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعممه »^(٢) . نقول إن في هذا التنصل من جانب الخليفة الموحدى ، ما يدل بأنه كان يشعر بخطورة هذه الخطوة التي عمد إليها في اختيار ولده لولاية العهد ، ونحشى أن يبدو في اتخاذها ملكاً دنيوياً ، يعمل لتخليد السلطان في عقبه ، وليخلق منهم أسرة ملوكية . وقد رأينا فيما تقدم كيف أنه حينما توفي المهدي ابن تومرت في رمضان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) استطاع عبد المؤمن دون غيره من أشياخ الموحدين ، أن يفوز بالخلافة ، وأن يجتني تراث المهدي الدينى والسياسى ، وأن يتم بعد جهود طويلة شاقة ، مهمته الأساسية في القضاء على الدولة المرابطية ، وفي توطيد سلطان الدولة الموحدية ، ولم يكن ثمة شك في أن تحقيق هذه المهمة الكبرى ، يرجع في معظم نواحيه إلى عبقرية عبد المؤمن ، ومقدرته العسكرية والسياسية ، وإذن فقد كان من الطبيعى أن يتطلع عبد المؤمن إلى الاحتفاظ بثمار جهاده ، وإلى أن يورثها لبنيه وعقبه .

بيد أن هناك رواية تقول لنا إن عبد المؤمن لم يحقق ولاية العهد لولده ، نتيجة للشورى ونزولا على رغبة الأشياخ والقبائل ، حسبما يؤكد لنا في رسائله ، ولكن تحقيقها كان بالعكس نتيجة لترتيب سابق ، دبره عبد المؤمن بالتفاهم مع بعض أنصاره . وذلك أن عبد المؤمن حينما شعر بتوطد مركزه ، وكثر أولاده من حوله ، قرر أن يستبقى الملك في عقبه ، واستدعى أمراء العرب من بنى هلال وزغبة وعدى وغيرهم ، ووصلهم وأحسن إليهم ، ودفع إليهم من يقول لهم ، أن يطلبوا إلى عبد المؤمن أن يختار لهم ولي عهد من بنيه ، يرجع الناس إليه من بعده ، ففعلوا ما طلب إليهم ، فلم يجبههم عبد المؤمن في بادئ الأمر ، إكراماً لأبي حفص

(١) مجموعة الرسائل الموحدية السالفة الذكر - الرسالة الثالثة عشرة ، ص ٥٦ - ٦٠ .

(٢) الرسائل الموحدية - الرسالة الرابعة عشرة ، ص ٦٢ .

عمر بن يحيى الهنتاني ، لعلو منزلته بين الموحدين ، وكان يعتبر ثاني رجل في الدولة بعد عبد المؤمن ، وكان من المتفق ، يوم تولى عبد المؤمن الخلافة ، أن يلي عمر الأمر من بعده ، ومن ثم فإن عبد المؤمن أجاب من طالبوه بترشيح ولده ، أن الأمر ليس له ، وإنما هو لأبي حفص عمر . فلما وقف أبو حفص على ذلك ، خشى عاقبة هذا التوريط ، فمثل أمام عبد المؤمن وأعلن خلع نفسه من الولاية ، فعندئذ بويع لمحمد بن عبد المؤمن بولاية العهد ، وكتب بذلك إلى جميع الجهات ، وذكر اسمه في الخطبة إلى جانب اسم أبيه (١) .

ولم يكتف عبد المؤمن بهذه الخطوة الحاسمة في تحقيق ولاية العهد لولده ولكنه قرنها في نفس الوقت (سنة ٥٤٩ هـ) بخطوة أخرى ، هي تولية أولاده حكم البلاد ، فندب ولده ووليّ عهده السيد أبا عبد الله محمد ، لحكم بجاية وأعمالها ، واستوزر له يخلف بن الحسين ؛ وولده السيد أبا الحسين لحكم فاس وأعمالها ، واستوزر له يوسف بن سليمان ؛ وولده السيد أبا حفص لحكم تلمسان واستوزر له أبا محمد بن وانودين ، وعين لكتابته الفقيه أبا الحسن بن عبد الملك ابن عياش ؛ وولده السيد أبا سعيد لحكم سبتة ومالقة والجزيرة الخضراء ، واستوزر له محمد بن سليمان وسعيد بن ميمون الصنهاجي ، ومن الكتاب الفقيه أبا الحكم ابن هرودس ، والفيلسوف أبا بكر بن طفيل . ويضع البيدق تاريخ هذه التولية في سنة ٥٤٨ هـ : ويزيد على ذلك بأن الخليفة أعطى ولده يوسف حكم إشبيلية . ولكن سنرى أن هذه التولية تمت بعد هذا التاريخ . وولي ولده أبا الربيع حكم تادلا ، وولده أبا زيد أرض السوس ، ويقدم إلينا البيدق بهذه المناسبة بعض البيانات عن أولاد الخليفة وأمهاتهم ، فيقول لنا إن عمر ويوسف شقيقان وأمهما صفية بنت أبي عمران . وفي هذا العام أعنى في سنة ٥٤٨ هـ ، وُلد للخليفة ولده يعقوب بقصر عبد الكريم ، وأمه جارية أهداها إليه ابن وزير ، وولد عمر الرشيد في عرض البحر ، وأمه من قادس ، وكان أبو زيد عند ولايته صبياً صغيراً ، وأمه لمطية من قبيلة لمطة . ومن أولاد عبد المؤمن أيضاً السيد اسماعيل ، وأمه بنت ما كسن بن المعز ، وعلى وأمه فاسية تدعى فاطمة ، ومحمد وأخوه موسى وأمهما من بلاد السوس (٢) .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٩ .

(٢) زاجع أخبار ابن تومرت ص ١١٦ و١١٧ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٧٩ ، وابن خلدون

ج ٦ ص ٢٣٦ ، وروض القرطاس ص ١٣٦ و١٣٧ .

وبعد أن انتهى عبد المؤمن من عقد البيعة بولاية العهد لولده محمد ، وتولية أولاده الآخرين حكم البلاد ، أخذ في النظر في شئون الأندلس ، وتوجيه البعوث إلى حمايتها وضبط أمورها . وكانت قد حدثت في ذلك الحين في ولاية الغرب بعض الحوادث المقلقة . ومن ذلك أن علياً الوهبي أحد ثوار الغرب ، هاجم في صحبة مدينة لبلبة ليلاً ، وأخذ أهلها على غرة وفتك بكثير منهم ، فلجأ الناس إلى قصبة الموحدين . فحاصر الوهبي القصبة ، وأرهب من بها ، فلما وقف يحيى بن يومور والى قرطبة وإشبيلية الموحدى على ما حدث ، غادر من فوره قرطبة في عسكر من الموحدين ، وسار إلى لبلبة ، فبادر الوهبي بالفرار ، وخرج أهل لبلبة في اليوم التالى ، معتذرين طائعين ، فلم يقبل لهم عذراً ، واعتبرهم جميعاً مذنبين ، وأوقع السيف فيهم أجمعين ، ولم يرحم منهم أحداً ، وكان ممن قتل من أعيان فقهاءهم ، الفقيه أبو الحكم بن بطال المحدث ، وأبو عامر بن الحد . وتقدر الرواية من قتل من أهل لبلبة في ذلك اليوم بثمانية آلاف ، ومن أحوازها بأربعة آلاف ، ثم بيع نساؤهم وأولادهم . وكان مع ابن يومور في تلك الواقعة أبو الغمر بن عزون ، وهو الذى أشار عليه بارتكاب هذا الجرم . ووقع الفتك بأهل لبلبة ، على هذا النحو في الرابع عشر من شعبان سنة ٥٤٩ هـ . فلما بلغ عبد المؤمن ما فعله ابن يومور ، وما ارتكبه من شنيع السفك بأهل لبلبة بمحض رأيه واستبداده ، بعث أبا محمد عبد الله بن أبي حفص إلى إشبيلية ومعه أمر باعتقال ابن يومور ، فاعتقله بمعاونة برّاز بن محمد ، وأخذاه يوم الفطر مكبلاً ، وبعثا به إلى مراکش في صحبة عبد الله بن سليمان ، فاعتقل بمنزله ، واستمر على ذلك حيناً إلى أن زار الخليفة قبر المهدي ، وسار ابن يومور في ركبته ، فعفا عنه وأمنه ، وأبقى عليه حساب الآخرة ، ثم بعثه إلى تلمسان صحبة ابنه السيد أبي حفص ضمن أشياخ الموحدين الذى ساروا في رفقته (١) .

وفي آخر هذا العام ، وفد ابن وزير صاحب باجة وياطرة إلى مراکش ، مستغيثاً بالخليفة من أعمال ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز ، وهو المسمى في الرواية العربية ابن الرنك ، أو ابن الرنق ، وتفاقم عدوانه على الثغور ودأبه على غزو أراضيهم والعيث في بساطهم ، وإتلاف زروعهم ، وتشتيت شملهم ، فوعده الخليفة

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٩ و ٣٠ ، وروض القرطاس ص ١٢٧ ، وابن خلدون

بالعون ، وردع العدو وتحقيق النصر الذي يؤمل ، وأمر بالكتب بذلك إلى أهل يابرة وباجة ، فوجهت إليهم الكتب في الثالث والعشرين من المحرم سنة ٥٥٥٠هـ^(١).

* * *

وزار عبد المؤمن قبر المهدي في هذه السنة ، ثم غادر تينملل إلى سلا ، وبقى بها حسبما يحدثنا البيدق مدى عامين ، ثم عاد إلى مراکش ، وأمر بأن يغرس في خارجها بستان عظيم ، أطلق عليه اسم « شنطلوليه »^(٢) ، وعنى بتخطيط هذا البستان (أو البحيرة كما كانت تسمى الحديقة يومئذ) أحمد بن ملحان صاحب وادي آش السابق ، وأجرى إليه الماء من أغوات ، ومن عيون كثيرة أنشأها ، وكان قد وفد على مراکش بعد استيلاء ابن مردنيش على أراضيه في سنة ٥٤٦ هـ ، واستعمل في إنشاء البستان وغرسه ، لما له في ذلك من خبرة هندسية فائقة^(٣). وزود هذا البستان الضخم ، بسائر الغروس من الفواكه والأزهار والرياحين ، والأشجار النادرة ، ولم يمض سوى قليل حتى غدا بجمال تنسيقه ، وروعة نضرتة ، وكأنه قطعة من الحنان . ويقول ابن اليسع إن هذا البستان كان يشغل مساحة قدرها ثلاثة أميال في مثلها ، وأنه بعد عامين أو ثلاثة من غرسه كان إيراد زيتونه وفواكهه ، يبلغ ثلاثين ألف دينار مؤمنة على رخص أثمان الفواكه^(٤) . ويقص علينا صاحب المعجب ، أن الوزير أبا جعفر بن عطية ، دخل على عبد المؤمن ذات يوم ، وهو جالس في قبة مشرفة على البستان ، فسحره جمال البستان وروعته ، ولاحظ ذلك عبد المؤمن ، فأبدى له أن المنظر الحسن إنما هو شيء آخر ، وبعد ذلك بأيام قلائل أجرى الخليفة عرضاً لعسكره ، ومرت الكتاب ، متوالية في أكمل هيئة ونظام ، وكان إلى جانبه وزيره ، فالتفت إليه قائلاً « إن هذا هو المنظر الحسن يا أبا جعفر لا ثمارك وأشجارك »^(٥).

وقضى عبد المؤمن بقية هذا العام (سنة ٥٥٢ هـ) في الطواف بنواحي الأطلس وبلاد السوس ، ومعه طائفة من أشياخ الموحدين وطلبهم وحفاظهم ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٠ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٦٤ .

(٤) الخلل الموشية ص ١١٠ .

(٥) المراكش في المعجب ص ١١٢ .

وكان يرمى بهذا الطواف إلى الاتصال بالقبائل المنضوية تحت لواء التوحيد ، فاجتمع خلال طوافه بأبناء جدميوة ، ومصمودة ، وجنفيسة ، ورجراجة ، وحاحة ، كل قبيلة منهم في مكانها ، وأمر بأن تلقى عليهم المواعظ والتعريف بمقاصد التوحيد ، تذكيراً لهم ، وتوطيداً لعقائدهم ، وفرق فيهم الصلوات . ثم وفد عليه جملة من قبائل جزولة ، طالبين الأمان ، ومؤكدين ولاءهم وإيمانهم ، وصادق توبتهم ، فحذروا من العود إلى الخلاف ، وما يترتب على ذلك من الهلكة ، وشملهم العفو والرحمة . وسار الخليفة بعد ذلك إلى تارودانت واجتمع فيها بقبائل السوس ، فأكدوا له عهد الولاء والطاعة ، وشملتهم رعايته ومنته . ولما وصل إلى آنسا ، وهي طرف بلاد السوس ، اجتمعت حوله قبائل تينملل وهنتاتة ، فناههم ما نال اخوانهم من أسباب الخير والبركة . وكان فصل الحريف قد انصرم يومئذ ، وأقبل الشتاء ، فسار عبد المؤمن إلى تينملل ليختم جولته بزيارة قبر المهدي مرة أخرى ، وقصد إليها ، « والنفوس قد حفزها الشوق إلى مقامه ، وسارع بها الحرص إلى معاملة المقدسة وأعلامه » ، وذلك حسبما يقول لنا في رسالته المستفيضه التي أمر بكتبتها عن رحلته . وهناك تقاطرت عليه وفود القبائل من سائر تلك الأقطار ، وازدحمت بهم الوديان والربى ، وشملوا جميعاً بالرعاية والإكرام ، « وأفهموا في أثناء ذلك من مقاصد الحق المبين ، وعقائد الدين المتين ، ما شرح صدورهم ، وضاعف سرورهم » ، وتأكد ولاؤهم ، وتمسكهم بدعوة التوحيد .

وانتهت رحلة الخليفة ، بعد أن تحققت مقاصدها ، في العمل على إحياء الدعوة الموحدية في مهادها ، وتذكير مختلف القبائل بما يجب عليهم نحوها من الولاء والإخلاص ، وتحذيرهم من عواقب الخروج والردة ، وتنقية النفوس من الشوائب . وعاد عبد المؤمن إلى مراکش في أواخر رمضان سنة ٥٥٢ هـ ، وصدرت عن رحلته بتاريخ الثامن من شوال رسالة مستفيضة ، من إنشاء كاتبه أبي عقيل بن عطية ، أخى الوزير أبي جعفر ، وهي رسالة ممتعة كتبت بأسلوب بليغ مشرق^(١) .

وكان هذا العام - ٥٥٢ هـ - عام الأحداث المباركة ، فكان بعد الحج إلى تينملل ، أن أحضر المصحف العثماني من قرطبة إلى مراکش ، تحقيقاً لرغبة الخليفة عبد المؤمن . وكان هذا المصحف أحد المصاحف الأربعة المشهورة التي

(١) راجع هذه الرسالة ضمن مجموعة الرسائل الموحدية ، وهي الرسالة السابعة عشرة (ص ٨١ - ٩٢) .

بعث بها الخليفة عثمان إلى الأمصار - مكة والبصرة والكوفة والشام - وكان من ذخائر بني أمية بالأندلس ، يودعونه بجامع قرطبة الأعظم . وقد وصفه لنا الإدريسي عند حديثه عن جامع قرطبة في الفقرة الآتية : « وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطشوت ذهب وفضة وحسك ، وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة من شهر رمضان المعظم . ومع ذلك في هذا الخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضى الله عنه ، وفيه نقط من دمه . وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد ، وأمامهم رجل ثالث بشمعة . وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع انصلي كرسي يوضع عليه ، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ، ثم يرد إلى موضعه » (١) . فلما استولى الموحدون على قرطبة ، كان من أجل أمانى عبد المؤمن أن ينقل هذا المصحف إلى مراکش ، ويقال إن أهل قرطبة هم الذين عملوا على أهدائه إلى الخليفة الموحدى ، وكان إخراجه من جامع قرطبة في اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٥٥٢ هـ ، وحمله إلى المغرب السيدان أبو سعيد وأبو يعقوب ولدا الخليفة ، فلما وصل إلى مراکش استقبله الخليفة بأعظم آيات التبجيل والإجلال ، وصنع له كسوة عظيمة مرصعة بأنواع اليواقيت والأحجار النفيسة ، وتابوتاً من صفائح الذهب المرصع بالياقوت الأحمر ، وعمل لحمله كرسي فاخر كذلك ، وكان عبد المؤمن يحمله بعد ذلك في مقدمة جيشه في حملاته تبركاً به ، وقد حمله معه في غزوة المهديّة سنة ٥٥٤ هـ (٢) . ولبت هذا المصحف النفيس لدى الخلفاء الموحدين زهاء قرن آخر حتى أواخر دولتهم .

وأمر عبد المؤمن في نفس العام ، بإنشاء المسجد الجامع بمراكش ، وبدئ بإنشائه في أوائل ربيع الآخر سنة ٥٥٣ هـ ، وأنشأ له «ساباطا» يوصل إليه من القصر مباشرة ، وزوده بمنبر فخم أمر بصنعه في الأندلس ، من خشب العود والصندل ، المغطى بصفائح الذهب والفضة ، وصنع له مقصورة من الخشب

(١) الإدريسي في « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٢١٠ و ٢١١ .

(٢) نقل إلينا المقرئ رواية ابن طفيل عن قصة هذا المصحف وحمله إلى المغرب كاملة مفصلة ،

ووصف كسوته الفاخرة ، وما زينت به من روائع التحف والذخائر (نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٤ -

٢٨٨) . وراجع أيضاً الحلل الموشية ص ١١٥ و ١١٦ ، والمعجب ص ١٤٢ .

ذات ستة أضلاع ، تفتح أبوابها دفعة واحدة بطريقة آلية ، وكذا المنبر لا يفتح إلا عند صعود الخطيب ، بطريقة آلية كذلك . وكان الذى قام على صنع المنبر والمقصورة على هذا النحو المبتكر ، رجل فنان من أهل مالقة هو الحاج يعيش الملقى ، وهو الذى قام فيما بعد على تخطيط مدينة جبل طارق ، وصنع منارة الجامع بإشبيلية ، فى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، حفيد عبد المؤمن . وكمل بناء المسجد الجامع فى نحو أربعة أشهر ، فى منتصف شعبان من نفس السنة ، وبذلت فى بنائه وتجميله وزخرفته جهود عظيمة وأموال جمة^(١) .

لما أقبل ابن يومور عقب مذبح لبلبة ، من ولاية قرطبة وإشبيلية على النحو المتقدم ، ندب الخليفة عبد المؤمن مكانه لولاية قرطبة أبا زيد عبد الرحمن بن يكيث أو يخيث ، ولولاية إشبيلية أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن على التينملى ، فوصلا إلى الأندلس فى أوائل سنة ٥٥٠ (١٥٥ م) ، وذهب كل منهما إلى مقر ولايته . وماكاد ابن يكيث يستقر فى قرطبة ، حتى خرج فى بعض القوات الموحدية ، وسار إلى مهاجمة الحصون النصرانية فى المناطق القريبة ، وكان القشتاليون بقيادة ملكهم ألفونسو السابع ، قد استولوا على حصن أندوجر ، وحصن البطروج القريب منه ، قبل ذلك بقليل ، فهاجم ابن يكيث ، حصن البطروج^(٢) وما يليه من حصون النصرارى ، وتغلب على الحصن المذكور ، وأسر قائده القشتالى ، وبعث به إلى مراکش ، ثم عاد فجهز حملة ثانية ، وسار إلى مهاجمة الحصون النصرانية ، واستولى منها فى تلك المرة على حصنين منيعين ، هما حصن منتور وحصن المدور^(٣) ، وهما يقعان جنوبى قرطبة ، وبعض حصون أخرى .

وكان مثل ابن يكيث حافزاً لزميله عبد الله بن أبي حفص والى إشبيلية ، فحشد قواته بمعاونة برآز صاحب المخزن ، وكتب إلى ابن الحجام صاحب بطليوس بأن يحشد جند الثغر ، وخرج عبد الله فى قواته من إشبيلية وهى تزداد كل يوم ، بمن ينضم إليها من المتطوعين والمجاهدين ، حتى وصل إلى بطليوس

(١) الخلل الموشية ص ١٠٩ .

(٢) وهو بالإسبانية حصن Pedroche

(٣) وهما بالإسبانية Almodóvar, Montoro

فانضمت إليه حشودها ، فاستقر الرأي على غزو أراضي البرتغال انتقاماً من ملكها ألفونسو هنريكيز (ابن الرنك) . فسارت القوات الموحدية وحلفاؤها نحو الشمال الغربي ، حتى عبرت نهر التاجه ، وهاجمت حصن أطرونكس (١) وتغلبت عليه وقتلت حاميه ، وعاثت في تلك المنطقة قتلا وسبياً ، وامتألت أيدي الغزاة من الغنائم والأموال والأسرى ، وبادر النصارى في تلك المنطقة فاحتشدوا وقدموا مسرعين لمقاتلة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى ، واستولى المسلمون على أسلابهم ، وعاد الموحدون وقائدهم ظافرين إلى إشبيلية . ولما وصلت أنباء هذه الفتوحات إلى مراکش ، بعث الخليفة إلى عبد الرحمن ابن يكيث وعبدالله بن أبي حفص بالقدوم إلى الحضرة (مراكش) فقدا إليها ، وقدما إلى الخليفة خضوعهما ، وعرفاه بما فتح الله على عسكره من النصر ، وما تحقق للأندلس من رعاية أحوالها ، والتفاف أهلها حول رايته ، ودعائهم له بالتأييد ودوام النصر (٢) .

وكان لهذه الانتصارات الموحدية بالأندلس ، تأثير حاسم في سير الحوادث بمدينة غرناطة . وكانت غرناطة ، قد بقيت بأيدي المرابطين ، من بعد وفاة عميدهم الأمير يحيى بن غانية في شعبان سنة ٥٤٣ ، واستطاع إليها ميمون بن يدر اللمتوني ، أن يصمد بها طوال هذه الأعوام السبعة . فلما تتابعت الحوادث ، وامتد سلطان الموحدين إلى معظم قواعد الأندلس الغربية والوسطى ، وتوالت انتصاراتهم في منطقة قرطبة وما إليها ، شعر المرابطون في غرناطة بتخرج مركزهم ، وتضاؤل قواتهم ومواردهم ، فبعث إليها ميمون بن يدر إلى عبد المؤمن يعرض تسليمها ، ويلتمس العفو والأمان ، فأجابه عبد المؤمن إلى طلبه ، وأمر عبد الله بن سليمان صاحب الأسطول بسبته ، وولده السيد أبا سعيد وإلى سبته والحزيرة الخضراء بالسير إلى غرناطة ، فسارا إليها ، واستقبلهما ميمون وحاميته المرابطية بترحاب ، وتسلم الموحدون المدينة ، وعاد ميمون وصحبه مع عبد الله ابن سليمان ، إلى العدو ، ووصلوا في صحبته إلى مراكش ، حيث أنزلوا منازل حسنة ، وأغدقت عليهم الصلات والأرزاق . وندب عبد المؤمن ولده السيد أبا سعيد لولاية غرناطة بالإضافة إلى سبته والحزيرة ، فاستقر بها مع حاميه

(١) وهو بالإفريقية Trancoso .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٣١ و ٣٢ .

موحدية . وكان استيلاء الموحدين على غرناطة في سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) (١).
وتلا استيلاء الموحدين على غرناطة ، استيلاؤهم على المرية . وكان النصارى
قد انتهزوا فرصة الاضطراب العام الذي ساد الأندلس ، عقب انهيار سلطان
المرابطين ، وجهزوا حملة صليبية برية وبحرية ، اشتركت فيها ممالك اسبانيا
النصرانية قشتالة ونافار (نبرة) ، وأراجون وقطلونية ، ومعها أمداد من جنوة وبيزة
وبعض حشود من وراء البرنيه وذلك لافتتاح ثغر المرية ، وحاصروا المرية
براً وبحراً ، مدى ثلاثة أشهر ، واستولوا عليها حسبما ذكر في موضعه في شهر
أكتوبر سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) . وكان الموحدون مذعبروا إلى شبه الجزيرة ،
واستقروا في قرطبة في أواسط الأندلس ، يتوقون إلى استرداد هذا الثغر
الإسلامي العظيم ، خصوصاً وقد كان وجود النصارى فيه يهدد مواصلاتهم البحرية
شرقي بحر الزقاق ، فيما بين شاطيء المغرب الأوسط ، وجنوبي الأندلس .
فلما تم استيلاؤهم على غرناطة ، شعروا بأن الفرصة قد سنحت لتحقيق هذا
المشروع ، الذي كان الخليفة عبد المؤمن ، يحبوه بمزيد من عنايته واهتمامه .
فحشد السيد أبو سعيد والى غرناطة قواته ، وبعث إلى المرية بادئ ذي بدء حملة
استطلاعية ، وصلت إلى أسوار المرية ، وقتلت عدداً من النصارى ، ثم ارتدت
إلى حصن برجة الواقع شمال غربي المرية ، وعلمت من أهله أن النصارى بقصبة
المرية في عدد قليل ، ولا يستطيعون دفاعاً عن المدينة . وعلى أثر ذلك سار السيد
أبو سعيد إلى المرية في جيش ضخم من الموحدين ، ومعهم قوة أندلسية بقيادة
أحمد بن ملحان صاحب وادي آش السابق ، بينما قصد إليها من البحر أسطول
سبته الموحدى بقيادة أمير البحر عبد الله بن سليمان . وضرب الموحدون حول
المرية حصاراً محكماً ، ونصبوا حولها المجانيق ، وأبنتى السيد أبو سعيد فوق الجبل
الذى احتله الموحدون إزاء المدينة ، سوراً يمتد إلى البحر ، وأمامه خندق عميق ،
وذلك حتى يعوق وصول النجدات إلى المدينة . وشعر النصارى بالقصبة منذ
البداية بخطورة الموقف ، فبعثوا يستغيثون بعاهلهم ، وهرع ألفونسو السابع أو
السليطين حسبما تسميه الرواية الإسلامية ، لإنجاد المحصورين في جيش قوامه
إثنا عشر ألف فارس ، وقدم معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقي
الأندلس في جيش من ستة آلاف من المسلمين . وكان مقدم الأمير المسلم في هذا

(١) روض القرطاس ص ١٢٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٣ .

الموطن ، ليحارب إلى جانب النصارى ، أبناء دينه ووطنه ، وليحول دون تحرير الثغر المسلم ، من أشنع المواقف التي يمكن تصورها ، مهما كان وراءه من الإعتبارات القومية والوطنية . وحدث أثناء الحصار بين ابن ملحان وبين عبد الله ابن سليمان نزاع ، انسحب ابن ملحان على أثره مع قواته إلى معسكر ابن مردنيش ، ليشاطره خزي موقفه . واستمر حصار الموحدين لألمرية بضعة أشهر ، حاول النصارى وحليفهم ابن مردنيش خلالها غير مرة ، أن يقتحموا الحصار لإنجاد المحصورين ، فذهبت كل جهودهم عبثاً . وتقول الزواية النصرانية ، إنه نشبت خلال ذلك بين الموحدين والنصارى موقعة عنيفة ، فقد فيها الموحدون زهرة جندهم ، وتفرقوا في غير نظام^(١) . بيد أنه مما ينقض هذه الرواية ، أن القشتاليين لم يفلحوا في خرق الحصار ، وأن حامية ألمرية النصرانية ، لم تلبث أن أرغمت على التسليم . وكان السيد أبو سعيد قد بعث إلى أبيه الخليفة يستمده العون ، فبعث الخليفة وزيره أبا جعفر بن عطية القضاعي إلى الأندلس صحبة ولده السيد أبي يعقوب يوسف ، الذي ندبه لولاية إشبيلية ، وأمر بعد استقرار ولده بإشبيلية ، أن يتوجه أبو جعفر إلى ألمرية ليعالج أمرها ، ووصل ابن عطية إلى ألمرية ، وقد تخرج مركز النصارى بقصبتها ، وأرهقهم الحصار ، ففاوضهم ، ونجح في إقناعهم بالتسليم على الأمان . ودخل الموحدون ألمرية في أواخر سنة ١١٥٧ م (ذوالقعدة أو ذو الحجة سنة ٥٥٢ هـ) بعد حصار دام سبعة أشهر ، وعاد الثغر الإسلامي إلى سلطان المسلمين بعد أن احتله النصارى زهاء عشرة أعوام . وكان السيد أبو سعيد يتوق إلى العود مسرعاً بقواته إلى غرناطة خشية عدوان القشتاليين . ولكن الواقع أن ملك قشتالة وحليفة ابن مردنيش اضطرا إلى الانسحاب خائبين ، تاركين المدينة المحصورة لمصيرها ، ومرض ألفونسو السابع في طريق العود إلى عاصمته طليطلة ، وتوفي قبل أن يصل إليها في بلدة مورتلة (مورادال) وذلك في ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ م . وارتد ابن مردنيش في قواته إلى بلاده^(٢) .

وحدثت في نفس الوقت في ولاية المغرب تطورات جديدة . وذلك أن عليا الوهبي حينما فر من لبلة عندما دهمها الموحدون ، سار إلى ثغر طبيرة الصغير ،

(١) La Fuente: Historia General de Espana (Ed. 1889) T, III. p. 300

(٢) يراجع في استرجاع الموحدين لألمرية : ابن الأثير ج ١١ ص ٨٤ ، والبيان المغرب

القسم الثالث ص ٣٣ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ .

الواقع على شاطئ المحيط قرب مصب نهر وادي يانه ، وامتنع به . وكان الخليفة عبد المؤمن قد ندب ولده السيد أبا يعقوب يوسف لولاية إشبيلية ، تحقيقاً لرغبة أشياخها حينما وفدوا عليه بمراكش في سنة ٥٥١ هـ ، وذلك بالرغم من صغر سنه ، وبعث معه الوزير ابن عطية حسبما تقدم . فلما فرغ ابن عطية من تحقيق مهمته بالمرية ، عاد إلى إشبيلية ، ثم خرج منها مع السيد أبي يعقوب في حملة موحدية سارت لغزو طبيرة ، فامتنع بها الوهبي ، واضطر الموحدون إلى حصارها برآ وبحراً ، وأقاموا على حصارها زهاء شهرين ، ثم رأى ابن عطية مفاوضة الوهبي ، وقنع منه بذكر الخليفة في الخطبة ، على أن يبقى محتفظاً بطبيرة . واستولى الموحدون في هذه الغزوة على بلاد أبي محمد سيدراى بن وزير ، وهى شلب وميرتلة ، وباجة وأحوازها ، تخلى عنها ابن وزيرها طوعاً (١) ، وعبر البحر إلى المغرب . ولسنا نعرف سبباً لهذا التخلي ، إلا أن يكون ما يذكره ابن عذارى من أنه حينما كان السيد أبو يعقوب في جيشه تحت أسوار طبيرة ، وفد عليه أشياخ بلاد ابن وزير ، ومدحه شاعرهم الأديب أبو بكر بن المنخل بقصيدة طويلة ، والظاهر أن أولئك الأشياخ قد طلبوا إلى السيد أبي يعقوب إقالة ابن وزير ، وتعيين حاكم موحدى لبلادهم ، ومن ثم فقد عين لولاية شلب وبلاد الغرب حاكم موحدى هو يعقوب بن جبون الهزرجى ، وبعض الحفاظ الموحدين . ويضع ابن عذارى تاريخ هذه الحوادث في النصف الأول من سنة ٥٥٢ هـ ، وهو ما يحمل على الاعتقاد بأن الوزير ابن عطية قد قام بمهمته في المرية بعد أن اشترك في حوادث الغرب المتقدمة ، وليس من الممكن أن يكون اشترآكه فيها بعد عودته من المرية إلى إشبيلية ، إذ سقطت المرية كما رأينا في أيدي الموحدين في أواخر سنة ٥٥٢ هـ (٢) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع بمراكش حادث مخزن ، هو نكبة الوزير أبي جعفر بن عطية ، وأخيه الكاتب أبي عقيل بن عطية .
وقد سبق أن أشرنا إلى نشأة أبي جعفر ، وظهوره خلال المعركة التى

(١) ابن الأبار فى الحلة السراء ص ٢٣٩ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٣٤ .

اضطرت بين الموحدين وبين الماسي ، برسالته التي كتبها بتكليف الشيخ أبي حفص
الهنثاني إلى الخليفة ، وصفاً لهذه المعركة ، وما كان من حظوته لدى الخليفة
بسببها ، وتولية الوزارة ، وتوطد سلطانه ونفوذه ، حتى غدا من أقرب أعوان
الخليفة ، وآثرهم لديه ، وأكثرهم فوزاً بثقتهم . وكان أبو جعفر في الواقع من
أقدر وزراء الدولة المؤمنية ، وأوفرهم كفاية ، وأبرعهم خللاً ، وكان رضي
النفس قريب المنال ، خدوماً يعمل على قضاء الحوائج ، فأحبه الناس ، وقدروا
مروءته ، ومكانته .

وكان يبدو أن ابن عطية ، ما يزال متمتعاً برفع مكانته ونفوذه ، حينما بعثه الخليفة
إلى الأندلس ليكون إلى جانب ولده السيد أبي يعقوب ، وليعالج قضية ألمرية .
بيد أنه كان ثمة طائفة من تيارات خفية تعمل ضده ، وتسعى إلى تفويض نفوذه ،
والقضاء عليه ، وكان ابتعاده عن مراكش فرصة سانحة لخصومه ، يحكمون فيها
تدبير خططهم ودسائسهم . وفي خلال ذلك استوزر عبد المؤمن ، عبد السلام
ابن محمد الكومي ، من قرابته وأبناء قبيلته كومية^(١) ، فزعم خصوم ابن عطية ،
واشتد في مطاردته ، والحملة عليه والتشهير به ، وتبع عوراته وسقطاته « وأغرى
صناعه ، وشحن عليه حاشيته » حسبما يقول لنا ابن الخطيب « فبروا وراشوا
وانقلبوا » . وكان في مقدمة مانسب إلى أبي جعفر ، مما لاته اللمتونيين ، وإسرافه
في اصطناعهم ، وتوليتهم الأعمال والوظائف ، وفوق ذلك ، فقد كانت زوجته
لمتونية ، أبوها يحيى الحمار من أمراءهم ، وأمها ابنة زينب بنت علي بن يوسف^(٢) ،
فكانت هذه الظروف ، تثير من حوله الريب ، وتدمغه في نظر المتعصبين من
أشياخ الموحدين . وكان يعمل لإهلاكه إلى جانب الوزير عبد السلام الكومي ، رجل
ممن شملتهم حمايته ورعايته ، فكفر بشكر الصنعية ، هو القاضي مروان بن عبدالعزيز ،
أمير بلنسية السابق ، وكان ابن عطية قد سعى في إطلاق سراحه من سجنه الطويل
بميورقة ، واستغل في ذلك نفوذه لدى واليها إسحق بن محمد بن غانية ، فعبر
البحر إلى بجاية ، ثم إلى مراكش ، فأسعفه ابن عطية ، وعاونه على الانضمام في

(١) ذكر لنا البيهقي نوع هذه القرابة ، فقال إن والدة عبد المؤمن « تملو » لما توفي زوجها
الأول علي والد عبد المؤمن ، تزوجت من بعده ، والد عبد السلام الكومي ، ورزقت منه بابنة سميت
فندة ، فكانت فندة هذه أخت عبد المؤمن لأمه وعبد السلام الكومي لأبيه (أخبار المهدي ابن تومرت
ص ٢٤) .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٣ .

مجلس الخليفة^(١) . بيد أنه ما لبث أن انقلب عليه ، وكفر بصنيعته ، وأخذ يحرض عليه ، ومن ذلك أبيات نظمها ضده وخرجت بمجلس عبد المؤمن يقول فيها :

قل للإمام أطال الله مدته قولاً تبين لذي لب حقائقه
ان الزرايين قوم قد وترتهم وطالب النار لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل لذلك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم في إطفاء نارهم فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كهمهم فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أني ناصح لكم والحق أبلج لا تخفى طرائقه^(٢)

والظاهر أن هذه الأبيات ، قد تركت أثرها في نفس الخليفة ، وقد كانت مستعدة بما أوحى إليه من مختلف المصادر للتنكيل بأبي جعفر . وكان أبو جعفر قد ترامت إليه وهو في شبه الخزيرة ، أنباء مقلقة عما يدور حوله من دسائس ، وما يرمى به من التهم ، فعجل بالعودة ، ليرد هجوم خصومه ، ولكن الخليفة ، كان عندئذ قد اعتزم أمره ، فما كاد يصل إلى مراکش ، حتى أمر عبد المؤمن بالقبض عليه واعتقاله ، ثم اقتيد بعد أيام قلائل إلى الجامع مهانا حاسر الرأس كسير الفؤاد ، واستحضر الناس على طبقاتهم ليعلموا ما يعلمونه من أمر الوزير المنكوب ، ومنهم أشياخ الموحدين والطلبة ، ووفود الأندلس ، وطلب إليهم ابن عمر باسم الخليفة أن يقول كل منهم ما يعلمه عن ابن عطية من سوء ، وما إذا كان قد أعطاه شيئاً أو صناعه ، وكان الوزير عبد السلام الكومي ، قد رتب أعوانه وصنائه لهذا اليوم . فأجاب كل من الحضور بما اقتضاه هواه . ولم يرتفع لسان بالدفاع عن ابن عطية سوى ابن وزير صاحب شلب وباجة السابق ، حيث أكد أنه لم يعط ابن عطية يوماً شيئاً إلا رده إليه مضاعفاً ، وأنه لو عين الخليفة للوساطة بينه وبين رعاياه ، عبداً حبشياً ، لكان من واجهم أن يعظموه وأن يهادوه . فلما انتهى المجلس أعيد ابن عطية إلى سجنه ، وسجن معه أخوه الكاتب أبو عقيل بن عطية ، ولبت الأخوان في المطبق بضعة أشهر ، وأبو جعفر ، يتوسل إلى الخليفة

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢١٥ ، و ٢١٦ ، وفي التكملة (القاهرة) رقم ١٧٥٠ .

(٢) الحلة السيرة ص ٢١٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٤ .

لا التماس عفوه برسائل وقصائد تذيب الحجاد إشفاقاً وتأثراً ، ومنها الأبيات الآتية :
فغفواً أمير المؤمنين فمن لنا يحمل قابض هدها الخفقان
عظفاً علينا أمير المؤمنين فقد بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لحج وعطفة منكم أنجي من السفن
وصادفتنا سهام كلها غرض لها ورحمتكم أوفى من الحنن
هيات للخطب أن تسطو حوادثه بمن أجارته رحماكم من الحنن
أنتم بذاتم حياة الخلق كلهم من دون من عليهم لا ، ولا ممن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم تلك الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفرأخ الورق من صغر لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سابقة والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

ولكن عبد المؤمن لم يتأثر لضراعة وزيره ، ولم تجد الرحمة إلى قلبه سبيلاً .
وقيل في سبب قسوة عبد المؤمن على وزيره ، أنه أفضى إليه بسر خطير فأفشاه .
ويوضح لنا المراكشي ماهية هذا السر ، فيقول لنا إن يحيى بن أبي بكر
الصحراوي أو ابن الصحراوي فارس المرابطين ، الذي فصلنا أخباره فيما تقدم ،
كان قد استأمن إلى عبد المؤمن ، فأمنه وأكرمه وفادته ، وحظي لديه ، وجعله
قائداً على من بقي من لمتونة ، وكانت زوجة ابن عطية ، زينب بنت أبي بكر أخت
يحيى المذكور ، وحدث أن ترامت إلى عبد المؤمن أشياء وأقوال نسبت إلى
يحيى الصحراوي غضب منها ، ونقمها عليه ، وقرر أن ينكل به ، وصدر عنه
في بعض مجالسه ، ما يفصح عن هذا العزم ، فكان من ابن عطية أن قال لزوجته
أخت يحيى أن تحذر أخاها ، وأن يمارض إذا دعى إلى مجلس الخليفة ، وأن
يلوذ بالفرار إذا استطاع إلى ميورقة ، ففعلت زينب ما طلب إليها ، وتمارض
يحيى ، وزاره بعض صحبه في مرضه ، فأفضى إلى بعضهم بما بلغه عن الوزير ،
وما نصح به ، فنقل هذا الصديق ما سمعه إلى بعض ولد عبد المؤمن . ووقف
عبد المؤمن على ذلك ، فكان هذا هو أعظم سبب في نكبة ابن عطية^(١) . ولما توجه
عبد المؤمن بعد ذلك ، في أوائل سنة ٥٥٣ هـ إلى تينملل لزيارة قبر المهدي ،

(١) المراكشي في المعجب ص ١١١ . وقد ذكرنا فيما تقدم نقلاً عن ابن الخطيب ، أن زوجة

ابن عطية كانت حفيدة زينب بنت علي بن يوسف .

حمل معه أبا جعفر وأخاه أبا عقيل يرسفان في أغلالهما . قال ابن الخطيب :
« وصدرت عن أبي جعفر في هذه الحركة من لطايف الأدب ، نظماً ونثراً ، في سبيل
التوسل بتربة المهدي ، أمامهم ، عجائب لم تجد ، مع نفوذ قدر الله فيه » . ولما
غادر عبد المؤمن تينملل ، عائداً إلى مراکش ، حمل الأخوين معه ، فلما وصل
إلى موضع يقال له تغمرت ، على مقربة من الملاحه ، أصدر أمره بإعدامهما
واستصفاء أموالهما ، فأعدما على الأثر ، وكان إعدامهما في التاسع والعشرين من
شهر صفر سنة ٥٥٣ هـ (أول أبريل سنة ١١٥٨ م) ، وكان أبو جعفر عند مصرعه
فتى في نحو السادسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بمراكش وفقاً
لابن الخطيب سنة ٥٢٧ هـ (١) .

وهكذا زهق الوزير الكاتب الشاعر ابن عطية ، ضحية نزعة دموية من
الخليفة ، أثارها الأهواء والشايات ، ودون ما خطير جريرة واضحة يسجلها
لنا التاريخ ، وأضاف عبد المؤمن بذلك صفحة دموية جديدة إلى صفحاته العديدة
السابقة . ومما يدل على أن عبد المؤمن كان متسرعاً في قراره إزاء وزيره المنكود ،
ما يقصه علينا صاحب البيان المغرب من أن عبد المؤمن ندم أشد الندم على مقتل
وزيره ، وذرف عليه الدموع . وإنه لما يؤسف له ، أن يضطر المؤرخ إلى أن
يحصي مثل هذه النزوات الدموية المتوالية ، في سيرة رجل عظيم مثل عبد المؤمن
أقامت عبقريته دولة من أعظم الدول الإسلامية في المغرب والأندلس ، وامتازت
بطائفة من أبداع الخلال التي تزدان بها البطولة ، ولكننا ربما استطعنا أن نلتمس
في روح العصر ، وروح الصراع الذي كانت تضطلع به الدولة الموحدية الفتية ،
كثيراً من العوامل الملطفة ، لما تثيره هذه الصفحات القائمة من سبب على سيرة
الرجل العظيم .

(١) راجع في نكبة الوزير ابن عطية : ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٣ -
٢٧٦ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ٣٥ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٤ . ونود
أن نلاحظ هنا أن تاريخ مولد ابن عطية الذي يقدمه لنا ابن الخطيب ، وهو سنة ٥٢٧ هـ - لا يتفق
مع ما يقوله لنا عن مراحل حياته ، ومن أنه كتب عن علي بن يوسف ثم عن ولده تاشفين ثم عن حفيده
إبراهيم . ومن الواضح أن هذا لا يستقيم من الناحية الزمنية ، إذ يكون عمره حين كتب عن علي
ابن يوسف نحو عشرة أعوام فقط . وربما يستقيم الأمر إذا قيل لنا إنه كتب عن الأمير إبراهيم ،
إذ يكون عندئذ في نحو الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره .

الفصل الثالث

الثورة في شرقي الأندلس

وظهور محمد بن سعد بن مردنيش

خواص الثورة في شرقي الأندلس . بلنسية مركز الثورة في الشرق . فرار واليها عبد الله بن غانية . اختيار القاضي ابن عبد العزيز لولايتها . القتال بين المرابطين وأهل بلنسية . استيلاء ابن عبد العزيز على شاطبة . استيلاء ابن عياض على مرسية . تمرد الجند . فرار ابن عبد العزيز وسقوطه في يد ابن غانية . ولاية ابن عياض لبلنسية وعبد الله بن سعد لمرسية . مصير ابن عبد العزيز ووفاته . حوادث مرسية . تدخل ابن هود في شئونها . قيام القاضي ابن أبي جعفر بولايتها . مسيره لإنجاد ابن حمدين . ومصرعه . تطور شئون الرياسة في مرسية . تقديم أبي عبد الرحمن بن طاهر لولايتها . السعي إلى خلعه . دخول ابن عياض مرسية . اعتزال ابن طاهر وعبوره إلى المغرب . دعوة ابن عياض لرياسة ابن هود في بلنسية ومرسية . مقدم ابن هود إلى مرسية . خروجه وابن عياض لمقاتلة النصارى . مقتل ابن هود وعبد الله ابن سعد . موقعة البسيط . ظروفها وبواعثها حسبما تصورها الرواية النصرانية . سيف الدولة بن هود . شخصيته وأعماله . خضوعه لتوجيه ملك قشتاله . أدبه وشعره . ابن عياض يدعو لنفسه في بلنسية . نائبه محمد بن سعد بمرسية . القائد عبد الله الثغري . نجاحه في انتزاع مرسية . استرداد ابن عياض لمرسية ومصرع الثغري . إمارة ابن عياض بمرسية وبلنسية . مصرعه والخلاف حول ذلك . محمد بن سعد ابن مردنيش يخلفه في بلنسية ثم في مرسية . محمد بن سعد وحقيقة أصله . ولعه بمصادقة النصارى والتشبه بهم . يبسط سلطانه على شرقي الأندلس . سياسته نحو الممالك النصرانية . عقده لمعاهدات صلح مع أمير برشلونة وجمهوريتي بيزة وچنوة . إقدامه وشجاعته . حليفه ابن همشك . أصله ونشأته . أعماله وظهوره . تغلبه على مدينة شقورة . محالفته ومصاهرته لمحمد بن سعد . استيلاء النصارى على قواعد الثغر الأعلى . موقف ابن مردنيش من ذلك الحادث . استيلاء النصارى على المرية وقلعة رباح . استيلاء ابن همشك على شقورة . بيعة ابن مردنيش ببلنسية ومرسية استيلائه على بسطة ووادي آش . مواجهته للموحدين في أواسط الأندلس .

لم تكن تلك الثورات التي نشبت ضد المرابطين في أواسط الأندلس وفي غربها ، سوى جانب فقط من الثورة العامة ، التي اضطرت بها الأندلس من أقصاها إلى أقصاها . ذلك أن ربح الثورة قد اجتاحت في الوقت نفسه شرقي الأندلس كله ، من بلنسية إلى المرية ، وكانت الثورة في شرقي الأندلس ، أعرق مثلاً ، وأعمق جذوراً . وأشد مراساً منها في الغرب ، وكانت تُسيرها منذ البداية فكرة قومية عميقة ، هي الفكرة الأندلسية الخالصة ، فكانت تضطرم ضد

المرابطين والموحدين معاً ، بنفس العنف والإصرار ، وكانت العوامل الجغرافية والعسكرية ، تشد من أزرها ، وتضاعف مقدرتها على المقاومة ، فقد كانت قواعدها الرئيسية ، بعيدة عن متناول الجيوش الموحدية ، وكان اتصالها بالبحر يمدّها بوسائل وموارد خاصة ، وكان وقوعها على مقربة من الممالك النصرانية ، يفتح لها باب الاتصال المستمر بالملوك النصارى ، ومخالفهم ، والاستنصار بهم ، وكانت هذه الوسيلة بالرغم مما يحيط بها من ملاسبات ذميمة ، تعتبر في تلك الآونة من الخطط المشروعة ، في مقاومة الغزاة المحتلين ، مرابطين كانوا أو موحدين . وثمة عامل آخر ، في استفحال الثورة وصمودها في شرقي الأندلس ، هو انحصار زعامتها ، وتركيزها مدى أعوام طويلة ، في شخصية واحدة قوية ، كانت تجتمع حولها خيوط المقاومة ، وكان يحدها إيمان عميق بالفكرة الأندلسية ، تتحطم عليه سائر الاعتبارات الدينية : تلك هي شخصية محمد بن سعد بن مردنيش ، أعظم ثوار الأندلس ضد الموحدين ، وأشدّهم مراساً ، وأعنفهم كفاحاً .

وكانت بلنسية تحتل في شرقي الأندلس ، نفس المكانة ، التي تحتلها قرطبة في الوسط ، وإشبيلية في الغرب ، باعتبارها قاعدة لسلطان المرابطين ، ومركزهم الدفاعي في هذا القطاع من الأندلس . وكان للمرابطين عناية خاصة بتأمين ثغر بلنسية ، لموقعه الدقيق على مقربة من الثغر ، والممالك النصرانية ، يولونه الصفوة من القرابة والخاصة ، فكان ضمن ولايتها الأمير مزدلي بن تيولتكان ، محررها من الغزاة النصارى ، والأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف ، ومحمد بن يوسف ابن يدّر ، والأمير أبو زكريا يحيى بن غانية . وكان على ولايتها حينما اضطرمت الثورة في غربي الأندلس ، وفي قرطبة ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي أخى يحيى بن غانية ، وقاضيا يومئذ أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان ابن عبد العزيز ، وكان قد ولاه منصب القضاء الأمير تاشفين بن علي في ذي الحجة سنة ٥٣٨ هـ .

فلما نشبت الثورة في قرطبة ، بعد نشوبها في الغرب ، ونادى ابن حمّدين بخلع نير المرابطين ، طافت ربيع الثورة بقواعد شرقي الأندلس ، وهاجمت الخواطر في بلنسية وغيرها ، واجتمع إليها عبد الله بن محمد بن غانية ، وقاضيا

أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز ، وتفاهما ، بالرغم مما كان بينهما من المنافسة الباطنية ، على الائتلاف والتعاون على حفظ النظام وضبط المدينة ، واجتمع الناس في المسجد الجامع في أواسط رمضان سنة ٥٣٩ هـ ، فخطب فيهم مروان ، وذكرهم بجهاد اللمتونيين ضد النصارى ، ونصرهم لقضية الأندلس ، وتحريرهم لبلنسية من أيدي القشتاليين ، وحثهم على التمسك بدعوتهم والوفاء لهم . وتكلم الوالى بمثل ذلك ، وذكرهم بأيام عمه يحيى بن غانية ، وبما انعقد بينهم وبينه من التعاطف والمودة . بيد أن هذا التفاهم الظاهر بين زعيمى المدينة ، لم يكن سوى ستار لما يضطرم في الأنفس الثائرة ، وسرعان ماتوجس الوالى عبد الله ابن غانية من نيات زميله وحليفه القاضى ، ومما قد يجيش به الشعب نحوه ونحو اللمتونيين من المقاصد الخطرة ، فبعث أهله وأمواله خفية إلى شاطبة ، ثم لحق بهم في صحبه في اليوم التالى ، واستطاع ، بالرغم مما وقع بينه وبين جند بلنسية من مناوشة ، أن يلوذ بالفرار ، وأن يصل إلى شاطبة . فلما استقر بها ، أخذت سرياته اللمتونية تغير على أحواز بلنسية ، وتثخن فيها ، وتعتدى على الأموال والأنفس ، فتقدم الحند والعرب وأعيان المدينة إلى ابن عبد العزيز ، بأن يتولى أمرهم ، فأبى ، وقال لهم اختاروا لولايتكم من ترون من شيوخكم ، فوقع الاختيار على بعض زعماء لمتونة ، ممن بقى منهم بالمدينة ، وأراد هذا الزعيم الحديد أن يقبض على ابن عبد العزيز ، فلم يستطع ، ثم تولاة الخوف والروع ، ففر إلى شاطبة ، ومعه بقية أشياخ لمتونة ، ووقع إجماع الناس على اختيار القاضى ابن عبد العزيز للولاية ، فاستتر منهم ، فسعى إلى الانفراد به ، أبو محمد عبد الله ابن عياض قائد الثغر ، وعبد الله بن مردنيش ، وأقنعاه بقبول الإمارة ، فقبلاهما مكرها وبويع له في اليوم الثالث من شوال من نفس السنة ، وولى عبد الله بن عياض الثغر وما والاها ، واستمر المرابطون خلال ذلك في غاراتهم وغيثهم في أحواز المدينة ، فحشد ابن عبد العزيز جنود الثغر وسار إلى شاطبة ، فخرج المرابطون من قصبها إلى المدينة ، وعاثوا فيها وسبوا النساء ، والتقى جند بلنسية بالمرابطين ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها المرابطون ، فعادوا إلى الامتناع بالقصبة ، وقدم عسكر من مرسية بقيادة قاضيا ابن أبى جعفر محمد بن عبد الله لإنجاد ابن عبد العزيز ، وتعاونوا على حصار شاطبة ، وكلاهما يضمير في نفسه أن يفوز بها ، ثم وصل ابن عياض في جند الثغر ، وأدرك عبد الله بن محمد بن غانية ، الوالى

السابق ، أنه لا طاقة له بهذه القوى ، ففر من شاطبة في نفر من خاصته ، واستطاع أن يلحق بالمرية ، وهناك لقي محمد بن ميمون قائد الأسطول في تلك المنطقة وكان قد بقي على طاعة المرابطين ، فجهزه إلى ميورقة ، حيث كان أبوه محمد ابن غانية يتولى أمن الجزائر ، فاستقر إلى جانبه ، وكان من أمر بني غانية ، ودولتهم بالجزائر الشرقية أيام الموحدين ، ماسوف نذكره في موضعه^(١) . واستولى ابن عبد العزيز على شاطبة صلحاً ، وحصنها وعين لها قائداً ، وانضمت إليه لتقنت وما يجاورها ، فاتسعت إمارته ، وضحخم أمره ، ثم عاد إلى بلنسية حيث جددت له البيعة ، وذلك في شهر صفر سنة ٥٤٠ هـ . وانصرف ابن أبي جعفر إلى مرسية ، ثم خرج منها بعد ذلك لإنجاد ابن أضحى في غرناطة ، وقتل حسباً تقدم ، في المعركة التي نشبت بينه وبين المرابطين . ولكن ابن عبد العزيز لم يلبث أن آنس متاعب جمّة من تمرد الجند ، وعجز الحباية ، وقصوره عن الوفاء بأجور الجند ، وما تتطلبه المصالح العامة ، فخاطب الجند ابن عياض ، يستعجلونه في الوصول إليهم للاضطلاع بزمام الأمور ، وكان عندئذ بمرسية ، بعد استيلائه عليها ، من واليها السابق أبي عبد الرحمن بن طاهر ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) . وفي أثناء ذلك ، أحاط الجند بقصر الإمارة فشرع ابن عبد العزيز بالخطر ، وغادر القصر خفية ، وتدلى من سور بلنسية ليلاً ، وسار حتى لحق بالمرية ، وهناك قبض عليه ابن ميمون أمير البحر ، ودفعه إلى عدوه السابق عبد الله بن غانية ، وكان ما يزال بالمرية ، فاحتمله معه عبد الله مصفداً إلى ميورقة .

وعلى أثر اختفاء ابن عبد العزيز ، قدّم الجند للرياسة عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض نائباً عنه ، وأسكنوه قصر بلنسية . وفي آخر جمادى الأولى ، قدم ابن عياض إلى المدينة ، وقد وصلته بيعة أهلها ، وهو في طريقه إليها ، فأقام بها حيناً ينظم شئونها ويحصن ثغورها . ثم عاد إلى مرسية ، وترك صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش أميراً عليها من قبله ، وهو عم محمد ابن سعد بن مردنيش زعيم الشرق فيما بعد ، ويعرف بصاحب البسيط ، لأنه استشهد ، في موقعة البسيط مع ابن هود حسباً نذكر بعد^(٢) .

(١) ابن الأبار في الحلة السراء ص ٢١٢ - ٢١٤ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٥٦ .

(٢) الحلة السراء ص ٢١٥ .

ولما ابن عبد العزيز ، فقد لبث يرسف في سجنه بميوزقة لدى بني غانية نحو عشرة أعوام ، وهو يعاني أمر ضروب العذاب والمهانة ، حتى قيص الله له الخلاص في النهاية ، بواسطة الوزير أبي جعفر بن عطية ، وكان والى ميوزقة يومئذ إسحق بن محمد بن غانية ، ولها بعد مقتل أبيه محمد وأخيه عبد الله ، وجنح إلى مهادنة الموحدين ، فأطلق سراحه ، وبعث به إلى ثغر بجاية ، وذلك في سنة ٥٤٨ هـ فسار إلى مراکش ، وهناك عاونه ابن عطية على أن ينتظم في مجلس الخليفة العلمي . بيد أنه لم يرع لابن عطية ، شكر الصنيعة ، ونظم في حقه أبياته المشهورة في التحريض عليه ، ومطلعها :

قل للإمام أطال الله مدته قولا تبين لذي لب حقائقه
فكانت هذه الأبيات حسبا نذكر بعد ، من أقوى الأسباب في نكبة
ابن عطية ، وظل ابن عبد العزيز مقبلا بمراكش في خول ونسيان حتى توفي سنة
٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) في الثالثة والسبعين من عمره (١) .

ونود قبل أن نمضي في تتبع مصابير الثورة في بلنسية وتطوراتها ، أن نتناول ما وقع من الأحداث في مرسية ، وباقي أعمال الشرق . كانت مرسية ثاني قواعد الشرق بعد بلنسية ، وكانت تحتل في النصف الجنوبي من شرقي الأندلس ، نفس المركز الدفاعي ، الذي تحتله بلنسية في النصف الشمالي ، ومن ثم فإننا نجد في فترات الثورة ، واضطراب الأحداث السياسية والعسكرية ، دائماً صلة وثيقة بين ما يقع في هاتين القاعدتين من أحداث وتطورات ، وقد كان هذا شأنهما أيام الطوائف ، ثم كان شأنهما حينما اجتاحت ربح الثورة ضد المرابطين سائر قواعد الأندلس في الغرب والشرق معاً . وقد رأينا كيف نشبت الثورة في بلنسية في الوقت الذي اضطرت فيه بقرطبة ، وقام القاضي ابن حمدين بدعوته ، في هذه الآونة بالذات تضطرم الثورة أيضاً في مرسية ، ويختار أهلها لرياستهم زعيماً منهم ، يدعى أبو محمد بن الحاج اللورقي ، ودعا اللورقي لابن حمدين ، ولكنه لم يلبث في رياسته سوى بضعة أسابيع ، خلال شهرى رمضان وشوال سنة ٥٣٩ هـ ، ثم رغب في التخلي عن منصبه لما آنسه من صعاب ومتاعب لا قبل له بها . وكان سيف الدولة بن هود ، قد غادر عندئذ

(١) ابن الأبار في الحلة السراء ص ٢١٥ و ٢١٦ ، وكذلك في التكملة (القاهرة) رقم ١٧٥١ .

مقره على مقربة من طليطلة ، وأخذ يترقب فرص الحوادث هنا وهناك . فلما نعى إليه ما وقع في مرسية ، بعث إليها قائداً من قواده يدعى بعبد الله بن فتوح الثغرى ، فأخرج منها ابن الحاج ودعا لابن هود ، ولكنه لم يلبث أن أخرج منها بدوره ، وقدم الفقيه القاضى أبو جعفر محمد بن عبد الله بن أبى جعفر الحشنى ، وذلك في آخر شوال من السنة المذكورة ، فلبث في منصبه حتى أوائل سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) : وكان يتبرم بالإمارة ويقول : إنها « ليست تصلح لى ، ولست بأهل لها ، واكنى أريد أن أمسك الناس بعضهم عن بعض حتى يجيء من يكون لها أهلاً » . ولما سار القاضى مروان بن عبد العزيز أمير بلنسية إلى شاطبة لمقاتلة من امتنع بها من اللمتونيين ، سار الفقيه ابن أبى جعفر فى بعض قواته لمعاونته ، ثم سار من مرسية فى قواته مرة أخرى لمعاونة القاضى ابن أضحى زعيم الثورة فى غرناطة على قتال المثلثين ويقال إن قوات أبى جعفر ، بلغت فى هذه الحملة اثنى عشر ألفاً من خيل ورجل ، فخرج المثلثون إلى لقائه فى جموع كثيفة ، ونشبت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة ، موقعة عنيفة ، هزم فيها ابن أبى جعفر وقتل ، وذلك حسبما فصلنا من قبل فى أخبار الثورة فى غرناطة . ونقل إلينا ابن الأبار عن ابن صاحب الصلاة رواية أخرى ، خلاصتها ، أن عبد الله الثغرى كان قائداً بمدينة كونكة ، فلما سمع بقيام ابن حمدىن بقرطبة ، سار إليه والتحق بخدمته ، وفى خلال ذلك جاءت الأنباء من مرسية بقيام ابن الحاج ثم تبرمه من الرياسة ، فبعث ابن حمدىن إليهم الثغرى واليا ، فقدم الفقيه ابن أبى جعفر قاضياً ، وذلك فى منتصف شهر شوال سنة ٥٣٩ ، فأبدى شغفاً شديداً بالظهور والتعلق بالرياسة ، وحشد الناس لقتال المرابطين فى أوريولة ، وغدر بهم عند نزولهم بالأمان ، وقتلهم ، فداع صيته . ثم داخل أهل مرسية فى أن يؤمروه ، وأن يُقدم للقضاء أبو العباس ابن الحلال ، ولقيادة الحيل عبد الله الثغرى ، فوافقوه على ذلك . ولما عقدت له البيعة ، نبذ طاعة ابن حمدىن ، ودعا لنفسه وتلقب بالأمير الناصر لدين الله ، ثم قبض على الثغرى وعلى صهره ، ابنى مسلوقة ، وعين لقيادة الحيل زعنون أحد وجوه الحند ، ثم سار إلى شاطبة لنصرة ابن عبد العزيز فى مقاتلة المرابطين بها ، فثارت العامة خلال غيبته بمرسية ، وأطلقوا سراح الثغرى وصهره . فسار إلى مرسية على عجل ، وأخذ الهياج ، وفر الثغرى إلى كونكة . وعاد ابن أبى جعفر إلى متابعة القتال فى شاطبة . ثم عاد بعد هزيمة المثلثين ، وفرار أميرهم عبد الله بن غانية إلى

مرسية ، وذلك في صفر سنة ٥٤٠ هـ . ثم غادرها مرة أخرى في قواته إلى غرناطة لإنجاد ابن أضحى وقتل حسبما تقدم في الموقعة التي نشبت بينه وبين المرابطين (١) . ولما عادت فلول عسكر مرسية بعد مقتل أميرها ، أجمع أهل مرسية على تقديم أبي عبد الرحمن بن طاهر للرياسة ، وذلك في أواخر شهر ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ ، فانتقل إلى القصر ، ودعا لابن هود ثم لنفسه . وأبو عبد الرحمن هذا ، هو محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي ، سليل بني طاهر أمراء مرسية أيام الطوائف . وقد سبق أن تحدثنا في أخبار مملكة مرسية عن أصلهم وعراقة بيتهم ، في الوجاهة والسراوة والعلم . وكان جده أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية ، من أعظم علماء عصر الطوائف وكتابه ، وقد أشاد بذكره وروعة أدبه ابن بسام صاحب الذخيرة (٢) ، وكان هو أي أبو عبد الرحمن بن طاهر الحفيد ، صنو جده في العلم والأدب والبراعة في الترسل .

تولى أبو عبد الرحمن بن طاهر الإمارة ، وقدم أخاه أبا بكر على الخيل . وكان ابن حمدين حينما اضطربت الأحوال في مرسية ، قد وجه إليها قوة بقيادة ابن عمه المعروف بالقلفل ، ومعه أبو محمد بن الحاج وغيره من أعيان مرسية اللاجئين إلى قرطبة ، فردت هذه القوة كسابقتها . وهكذا بدأ ابن طاهر إمارته ، في جو مكفهر ، والدسائس تضطرم من حوله . ولم تمض أيام قلائل على رياسته ، حتى خاطب بعض أهل مرسية ، أبا محمد عبد الرحمن بن عياض قائد جند الثغر في بلنسية في القدوم إليهم وتقلد الرياسة ، فبادر بالسير إلى مرسية ، وتلقاه في طريقه وإلى أوريولة ، وهو القائد زعنون الذي تقدم ذكره ، وسلمه إياها ، ثم سار إلى مرسية ، ومعه عدة من وجوه أهل مرسية ، الذين خرجوا إلى لقائه والسير في ركابه ، كل ذلك وابن طاهر يعمل هادئاً في قصره ، ولا يدري بما يدور حوله من الأحداث . ثم دخل ابن عياض مرسية ، وقد برز الناس إلى لقائه ، وابن طاهر ، مستمر على سكوته وعلى حسن ظنه ، ودخل ابن عياض القصر ، لا يدفعه عند أحد ، فلم يشعر ابن طاهر ، إلا وقد نُزع من رياسته ، فانتقل إلى داره ، وعف ابن عياض عن دمه ، توقيراً له ، وإشفاقاً لضعفه . وتم هذا الانقلاب في العاشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (أكتوبر سنة ١١٤٥ م) .

(١) الحلة السيرة ص ٢١٨ .

(٢) راجع كتابي « دول الطوائف » ص ١٧٥ .

ولم تمض أيام قلائل على ذلك حتى تطورت الحوادث في بلنسية ، ونخلع مروان ابن عبد العزيز من الإمارة ، واستدعى الحند ابن عياض لتولى الرياسة مكانه ، فسار ابن عياض إلى بلنسية في آخر شهر جمادى ، وقد فر عنها ابن عبد العزيز مخاوفاً ، وبويع بالإمارة ، ودعا لابن هود ، وأقام بها حيناً ينظم شئونها ، ثم غادرها إلى مرسية ، بعد أن أقر عليها صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش عنه في رياستها حسبما تقدم من قبل .

أما ابن طاهر ، فإنه لزم داره ، وعاش في عزلة وهو يشهد تطور الحوادث في مرسية ، وفي شرق الأندلس ، في ظل زعيمه وأميره فيما بعد محمد بن سعد ابن مردنيش ، ويشهد صراعه المرير مع الموحدين ، وهو يزداد ، توجساً وحذراً ، كلما تطورت الحوادث ، وكلما تقدمت به السن ، إلى أن توفي ابن مردنيش في سنة ٥٦٧ هـ ، فعندئذ دخل في طاعة الموحدين ، وعبر البحر إلى المغرب ، وتوفي بمراكش في سنة ٥٧٤ هـ (١) .

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كان من مقدم سيف الدولة بن هود إلى قرطبة ، بدعوة أهلها ، ثم تحولهم إلى خصومته ، وقتلهم وزيره ابن الشماخ وطائفة من أصحابه ، ومغادرته عندئذ قرطبة إلى جيان ، وكان قد ثار بها قاضيا ابن جزى واستقل بحكمها ، فتغلب عليه وانتزعها منه . ثم سار إلى غرناطة بدعوة أهلها ، ونحاض هناك بعض الوقائع إلى جانب القاضي ابن أضحى ، ولكنه لم يوفق إلى الاستقرار بها ، فغادرها في أواخر سنة ٥٣٩ هـ عائداً إلى جيان . وسرعان ما ألقى في حوادث مرسية فرصة جديدة للتدخل والمغامرة ، فبعث إليها أولاً قائده عبد الله الثغرى ، فتغلب عليها ، ولكنه أخرج منها بعد أيام قلائل ، ثم توالى الحوادث على النحو الذى فصلناه من قبل ، واستولى ابن عياض قائد جنود الثغرى على مرسية ، ثم على بلنسية ، ودعا لابن هود في كلتا الحاضرتين . فبعث إليه ابن هود بولده أبى بكر ، فخرج للقائه واحتفى به ، واصطحبه معه إلى بلنسية ، ثم سار ابن هود نفسه إلى مرسية ، ودخلها ونزل بقصرها ، فعجل ابن عياض فى اللحاق به ، وأعلن طاعته ، والامتثال لأوامره ، ونزل بالقصر الصغير ، فعهد إليه ابن هود بالأمور كلها ، وأسبغ عليه لقب الرئيس مكتفياً بلقب الإمارة ومظاهرها ، وكان ذلك فى أواخر رجب سنة ٥٤٠ هـ (أوائل سنة ١١٤٦ م) .

وكان ابن عياض جندياً عظيماً ، وفارساً ذا نجدة ، ورئيساً وافر الحزم ، وكان فوق ذلك رجلاً صالحاً ورعاً ، رقيق الحس والعاطفة ، وكان النصارى يقدرون فروسيته وشدة مراسه ، ويعدون له وحده بمائة فارس (١) . وكان يقظاً لحركات النصارى في شرقي الأندلس ، فلم تمض أيام قلائل ، على مقدم ابن هود ، حتى جاءت الأنباء باعتداء النصارى على أحواز شاطبة ، ومبادرة عبد الله ابن سعد بعسكر بلنسية لقتالهم . فأسرع ابن عياض وابن هود في قواتهما لنجدته . والتقى المسلمون والنصارى في موضع يسمى « باليج » في ظاهر بلدة البسيط (٢) على مقربة من جنجالة ، في يوم الجمعة العشرين من شهر شعبان سنة ٥٤٠ هـ (فبراير سنة ١١٤٦ م) ف وقعت الهزيمة على المسلمين ، وقتل في الموقعة عبد الله ابن سعد بن مردنيش ، وسيف الدولة ابن هود ، ونجا ابن عياض . وكانت ضربة شديدة للمسلمين في شرقي الأندلس (٣) .

هكذا تصور لنا الرواية الإسلامية موقعة البسيط . بيد أنه يوجد ثمة شيء من الغموض في تلك الرواية الموجزة . ذلك أننا نعرف أن سيف الدولة بن هود ، هو حليف النصارى ، وصنيعة عاهلهم القيصر ألفونسو السابع أو ألفونسو ريمونديس وهم الذين دفعوه إلى خوض غمار الحوادث في الأندلس ، وأمدوه بعونهم ، فكيف انقلب إلى محاربتهم بين عشية وضحاها ؟ والجواب على ذلك نجده في الرواية النصرانية المعاصرة ، وهي المسماة « رواية ألفونسو السابع » فهي تقول لنا إن سيف الدولة ، بعد أن فشلت محاولته في قرطبة بعث إلى ألفونسو السابع ملك قشالة ، يخبره بأن أراضى أبدة ، وبياسة وقلاعها ، وهي من أملاكه التي تغلب عليها ، قد ثارت عليه ورفضت أداء الضرائب المطلوبة ، فندب ألفونسو أربعة من الأشراف القشتاليين هم الكونتات ما نريكى ، وأرمنجود ، وبانسيو ، ومارتن فرنانديث ، وأمرهم بأن يقوموا بإخضاع أراضى أبدة ، وبياسة ، وجيان وغيرها ، لطاعته وطاعة سيف الدولة ، فسار الكونتات في قواتهم ، وأغاروا على تلك الجهات وأثنخوا فيها ، وافتتحوا جيان وأبدة وبياسة ، ونكلوا بسكانها المسلمين ، وعندئذ استغاث المسلمون بسيف الدولة ، وأعلنوا بطاعته ، فاستجاب لدعوتهم ، وسار

(١) المراكشي في المعجب ص ١١٥ .

(٢) وهي بالإسبانية Albacete

(٣) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٢٦

إليهم في جيش ضخم ، وطلب إلى الكونتات النصارى أن يرفعوا أيديهم عن المسلمين ، وأن يكفوا عن غزواتهم المخربة التي قاموا بها في الأراضي الإسلامية ، بالتحالف مع القاضي الطموح عبد الله الطغرثي والى قوننقة ، فيما بين شاطبة وأبدة ، وأخيراً أن يسلموا إليه الغنائم والأسرى . فرفض الكونتات مطالب سيف الدولة ، وأجابوا بأنهم لم يفعلوا إلا ما أمر به عاهلهم ، وما طلبه سيف الدولة ذاته . وطال الحدل بين الفريقين ، وعندئذ قرر سيف الدولة أن يلجأ إلى السيف ، وسار الكونتات النصارى وحليفهم القاضي الطغرثي ، بعد أن امتنعت عليهم شاطبة غربا ، وسارت قوات بلنسية ومرسية وسيف الدولة لقتالهم في نفس الوقت . والتقى المسلمون والنصارى في سهل البسيط على مقربة من جنجالة ، فهزم المسلمون شر هزيمة ، وقتل عبد الله بن سعد قائد جند بلنسية وأسر سيف الدولة ، وقتله بعض الحند النصارى دون معرفة لشخصه ، وارتد ابن عياض في فلول الجيش إلى بلنسية . ولما علم ألفونسو السابع بمصرع صديقه القديم سيف الدولة أسف كل الأسف وأعلن أنه برىء من دمه (١) .

وكان أحمد بن يوسف بن هود ، الملقب بسيف الدولة وبالمستنصر ، شخصية غامضة . وبالرغم من أنه كان سليل أسرة بني هود أصحاب الثغر الأعلى ، وحماة والمتفانين في الذود عنه ضد النصارى ، فإنه لم يكن يتمتع بشيء من خلال أسرته المملوكية العريقة . وقد رأينا كيف تخلى عن روطة ، آخروا عهد مملكة سرقسطة القديمة ، لملك قشتالة ، ألفونسو ريمونديس ، وآثر أن يعيش في أراضيه وتحت كنفه ، وأن يغدو آلة لخطته ودسائسه ضد المسلمين ، يحقق بها إذا استطاع بعض مآربه في الضرب والتفريق بين أبناء الأمة الأندلسية ، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أراضيه . ولم يكن اشتراك سيف الدولة في حوادث الثورة ضد المرابطين ، وتدخله في شئون الرياسة بالقواعد الثائرة ، مثل قرطبة وغرناطة وجيان ومرسية ، محاوله اختيارية يشق بها طريقه إلى الرياسة ، ولكنه كان يقوم بها بوحى ملك قشتالة ، ومعاونته الفعلية بالمال والحند ، لانتهاز الفرص السانحة ، خلال هذا الاضطراب العام ، الذي كان يسود الأمة الأندلسية ، ولم تكن دعوات

(١) M. Gaspar Remiro, cit. Crónica del Emperador Alfonso (Murcia) p. 180 & 181 Musulmana . وراجع أيضاً تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح (وترجمة محمد عبد الله عنان) الطبعة الثانية ص ٢١٦ .

الزعماء الثائرين له ليقدم عليهم ، أو ليستظلوا بصفته الملوكية السابقة ، إلا سراياً وخذية لمواطنيهم ، بتنصيب شخصية لا تخلص لقضيتهم . ولقد كان من رحمة القدر بذكرى هذا الأمير المنكود - صنيعة القشتاليين وخدمهم - أن قتل في غمرة الدفاع عن أمته ودينه ، ضد حلفائه القدماء ، في ظروف طارئة ، لم تكن من تدبيره ، وإنما استدرج إليها فكانت فيها خاتمة .

بيد أن سيف الدولة كان يتمتع بخلة العلم والتأدب شيمة آباءه وأجداده ، وكان شاعراً ينظم الشعر الجيد ، وقد أورد لنا ابن الآبار شيئاً من نظمه فمن ذلك قوله :

يا باكيما عمر الطلول بدمعه أسفا على ذاك الدم المطلول
أودت بلبك لوعة صديت لها صفحات ذاك الخاطر المصقول
وقوله من قصيدة طويلة :

خطرت خطرة الغرام على القلب وحسب الفتى لها يستكين
أذكرتني بلجاء ورق تجساوين بنجد حديثهن شجون
أطربتني أصواتهن على الأبيكة قد يطرب الحزين الحزين
ياممة القوم والمنا يضع المرء إذا ما استقل يوماً قطين
إن تكوني قد استقر بك الربيع فقلبي مع الرفاق رهين
أو تكوني سلوت عنا فلا والله تسلك الأطباء العين
أين للشمس أن تنال محيا ك وتعزى لمعطيك الغصون
غرر لحن من دجى الشعر بيض ما تجلت عن مثلهن الدجون (١)

* * *

وعلى أثر مقتل ابن هود ، أعلن ابن عياض الدعوة لنفسه ببلنسية ، وكان قد ترك في مرسية محمد بن سعد بن مردنيش نائباً عنه بها ، وكان قد عهد في نفس الوقت إلى عبد الله الثغري الذي شهدناه من قبل ، يشترك في حوادث مرسية باسم ابن هود ، بأن يكون سفيره لدى الإمبراطور ألفونسو ريمونديس ليعقد معه السلم والتحالف ضد أمير برشلونة ، فعاد من سفارته هذه ، وزعم أن الإمبراطور قد منحه إمارة مرسية ، واستعان على دخولها بطائفة من الخوارج

(٢) راجع الحلة السراء ص ٢٢٦ و ٢٢٧ .

المشايخين له ، فنجح في محاولته ، وفر محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض
بمرسية ، ولحق بثر لقت ، وذلك في أوائل شهر ذي الحجة سنة ٥٤٠ هـ ،
(مايو سنة ١١٤٦ م) . ولم تمض بضعة أشهر على ذلك ، حتى زحف ابن عياض
على مرسية لاستخلاصها من الثغرى ، وقتل الثغرى في المعركة التي نشبت بينهما ،
وذلك في السابع من رجب سنة ٥٤١ هـ (ديسمبر ١١٤٦ م) . ويقدم إلينا الضبي
تفاصيل مصرع الثغرى ، فيقول إنه لما نجح ابن عياض في دخول مرسية ، وقع
القتال بينه وبين ابن عياض في شوارع المدينة حتى هزم الثغرى ، وركن إلى
الفرار ، وخرج من الباب المسمى باب الفارقة ، فألقى عليه من فوق السور حجر
أصاب رأس جواده ، فوثب الجواد جاغماً براكبه نحو مجرى النهر ، وهناك
قتله رجل ممن كانوا يرابطون في هذا المكان .

وهكذا استعاد ابن عياض إمارته على مرسية ، وأضحى ييسط سلطانه على
سائر قواعد الشرق من بلنسية شمالاً حتى أحواز قرطاجنة ، جنوباً . واستمر
في إمارته على تلك المنطقة بلا منازع مدى عام وتسعة أشهر وعشرين يوماً ،
إلى أن لقي مصرعه في اليوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ
(٢١ أغسطس ١١٤٧ م) . ويقول لنا ابن الأبار إنه توفي قتيلاً من جراء سهم
أصابه في بعض حروبه مع القشتاليين^(١) . ويقول الضبي إنه قتل بالعكس خلال
معركة نشبت بينه وبين بني جميل على مقربة من بلش وحمل جثمانه إلى بلنسية ودفن
بها . وقام على مواراته صهره ونائبه في بلنسية محمد بن سعد بن مردنيش ، وأعلن
للناس أن ابن عياض قد أولاه عهده بالإمارة من بعده ، فبايعوه على ذلك . ويقول
المراكشي إن ابن عياض حين حضرته الوفاة ، أشار إلى من اجتمع إليه من الأعيان
والجند بتقديم محمد بن سعد للرياسة ، وأبى أن يوصى برياسة ولده لأنه كان يشرب
الخمير ويغفل الصلاة . وقيل أيضاً إن أهل بلنسية بايعوا ابن سعد ، ونصبوه أميراً
عليهم دون عهد سابق . وأما في مرسية فقد اختار أهلها للإمارة عليهم نائب
ابن عياض أبا الحسن علي بن عبيد ، ولكنه لم يمكث في الإمارة سوى فترة يسيرة
حتى أواخر جمادى الأولى ، ثم تخلى عنها لابن سعد أمير بلنسية . وهكذا نجح
محمد بن سعد بن مردنيش في اجتناء تراث ابن عياض بأكمله ، وخلفه في إمارة شرق
الأندلس كله ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ (أكتوبر ١١٤٧ م)

(١) المراكشي في المعجب ص « ١١٥ » ، وابن الأبار في الحلة السيراد ص ٢٢٠ .

وبقيام ابن مردنيش ، في إمارة شرقي الأندلس ، تهباً الظروف لصفحة جديدة من الصراع بين الأندلس الثائرة وبين الموحدين ، وهو صراع عنيف يضطرم زهاء عشرين عاماً ، وتخوضه منطقة الشرق كلها ، بسائر مواردها وقواتها ، تحت زعامة قوية موحدة ، ويقضى لمدافعتهم معظم جهود الموحدين في شبه الجزيرة ، ثم لا تهدأ ثائرته وتطوى صفحاته ، إلا باختفاء مثير ضرامه من الميدان .

- ٣ -

إن ابن مردنيش ، الذي حمل لواء هذا الصراع الشهير ضد الموحدين ، ولبت طيلة اضطرامه صامداً ، كالصخرة الصلدة ، لا تفر له همة ، ولا يهادن ، ولا تلين قنانه ، حتى طواه الموت ، هو شخصية من أغرب شخصيات التاريخ الأندلسي ، تمثل كل خلال العصر ، وذرائله في نفس الوقت ، ولو لم يبالغ ابن مردنيش في مداخلة النصارى ، وربط قضيته بعونهم ، لكان في وسعنا أن نعتبره بطل الوطنية الأندلسية ، وحامل لوائها ضد الموحدين .

وهو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الحذامي بن مردنيش . أصله من الثغر الأعلى ، وولد في قلعة من قلاع طرطوشة المنيعه تسمى بِنُشْكَلَّة ، *Peniscola* (١) وذلك في سنة ٥١٨ هـ (٢) وإذن فقد كان حينما تولى إمارة شرقي الأندلس ، فتى في نحو الرابعة والعشرين من عمره . وقد كان أبوه سعد بن محمد ابن مردنيش والياً لإفراغة أيام المرابطين ، حينما حاصرها ألفونسو المحارب ملك أراجون في أواخر سنة ٥٢٧ هـ (يونيه سنة ١١٣٣ م) ، وأبدى في مدافعة النصارى بسالة رائعة ، واضطر المحاصرين أن يرفعوا الحصار غير مرة ، إلى أن وفدت الأمداد المرابطية ، ومعها الأمير يحيى بن غانية ، وكان ما كان من انتصار المسلمين الباهر على النصارى وذلك حسباً فصلناه من قبل في موضعه ، وعمه عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض ، ونائبه في بلنسية ، وهو الذي سبقت الإشارة إليه فيما تقدم غير مرة .

وقد لفت محمد بن سعد أنظار الباحثين باسمه ولقبه ، وصفاته الغريبة الفذة ، وتسائل بعضهم عن حقيقة أصله ونسبه ، فهو وفقاً لاسمه المدون جذامي ، أو

(١) ومكانها اليوم نضر *Peniscola* الصغير الواقع جنوبي طرطوشة .

(٢) ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٢ ، في ترجمة أبي يوسف يعقوب المنصور .

وهو يضبط « مردنيش » وفقاً للشكل الموضوع عليها .

تجبي وفقاً للبعض الآخر^(١) ، أو بعبارة أخرى عربي الأرومة . بيد أن في لقبه ، وهو ابن مردنيش وفي صفاته وسلوكه أيضاً ، ما يحمل على الريب في هذه النسبة . وأغلب الظن أنه ينتمي إلى المولدين أو بعبارة أخرى أنه إسباني الأصل ، دخل أجداده في الإسلام ، فأصبح من ذلك العنصر المسلم الدخيل ، الذي كان يؤلف شطراً له خطرته من الأمة الأندلسية ، والذي لعب في تاريخها أعظم دور ، ولاسيما في أيام الفتن والثورات القومية . ويرى البحث الحديث . أن مردنيش ، هو تحريف الاسم الإسباني « مرتنيث » Martinez أو Martinizi أي (ابن مرتين) ، وربما تحريف لاسم Mardonius وهو سليل البيزنطيين القدماء في منطقة قرطاجنة^(٢) . ومن جهة أخرى فإن صفات ابن مردنيش وسلوكه حسبما تصورهما لنا الرواية العربية ، تؤيد هذا الظن في انتمائه إلى عنصر المولدين . فقد كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى (القشتاليين) في الزي والملابس والسلاح واللجم والسروج ، وكان يجيد اللغة القشتالية ، ويؤثر التحدث بها ، وكان يدعو إلى جيشه كثيراً من النصارى المرتزقة ، من القشتاليين والقطلان والبشكنس ، يبتني لهم الأحياء والمعسكرات ، ويزودها بأسباب الرفاهية والحانات ، وكان يصدق عليهم الصلوات الوفيرة من المال والإقطاعات ، وذهب في ذلك إلى حد أنه أقطع أحد أكابر فرسان البشكنس ، وهو المسمى بيدرو دى أناجرا مدينة شنتمرية ابن رزين مع سائر مرافقها وأراضيها ، وقد أنشأ بها هذا الفارس مركزاً لأسقفية^(٣) . وقد كان من جراء هذا الإغداق الفياض على النصارى أن اشتط ابن سعد في فرض المغارم والرسوم المختلفة على رعاياه المسلمين^(٤) . وكان النصارى يسمونه الملك لوبي (لب) Rey Lope أو Lobo أعني « الذئب » . وفي بعض الروايات النصرانية ان هذا الاسم الأخير أطلقه عليه النصارى لما أثر من إقدامه وشجاعته^(٥) .

(١) ابن الخطيب في الإحاطة (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) Dozy : Recherches (1881) V.I. p. 365-Codera : Decad. y Desp. de los Almoravides p. 113 & 311

(٣) وهي شنتمرية الشرق المسماة بالإسبانية Albarracin . وقد كانت أيام عصر الطوائف قاعدة لمملكة بني رزين .

(٤) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٦١ ؛ وكذلك . Dozy: Recherches.

V.I. p. 366

(٥) A. Piles Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 516

وأضحى محمد بن سعد بن مردنيش بتغلبه على بلنسية ، ومرسية ، سيد المنطقة الشرقية كلها ، وامتد سيطرته من أحواز طرطوشة شمالاً حتى قرطاجنة ولورقة جنوباً . ولما كان من الواضح أنه لا يستطيع أن ينصرف إلى توطيد سلطانه في تلك المنطقة الشاسعة إلا إذا أمن جانب النصارى ، وهم جيرانه من الشمال والغرب واستطاع بذلك أن ينصرف إلى مقارعة الموحدين ، الذين جازت جيوشهم الأولى إلى شبه الجزيرة ، فقد رأى أن تكون مسألة المالك النصرانية ، شعاره الذي لا يجيد عنه ، وأن يعقد معها التحالف كلما سمحت بذلك الفرص ودعت الضرورات .

ومن ثم فقد عقد لأول ولايته مع أمير برشلونة الكونت رامون برنجر الرابع صلحاً لمدة أربعة أعوام ، وعقد معاهدة صلح أخرى مع ملك قشتالة الإمبراطور ألفونسو السابع (ألفونسو ريمونديس) . وكان يؤدي لكل منهما في السنة جزية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب . ولم تقف هذه السياسة في مصانعة النصارى ومصادقتهم ، عند حدود شبه الجزيرة ، بل شملت الدول النصرانية في خارجها . ففي العام الثاني من حكمه ، أعنى في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٩ م) عقد ابن مردنيش مع جمهورية بيزة معاهدة صلح مدتها عشرة أعوام ، ثم عقد معاهدة أخرى مع جمهورية جنوة ، يتعهد فيها بأن يؤدي إليها إتاوة قدرها عشرة آلاف دينار مرابطية خلال عامين ، وأن يبني للرعايا الحنوبيين الذين يقطنون في بلنسية ودانية فندقاً يزاولون فيه تجارتهم ، وأن يمنحهم حماماً مجانياً في كل أسبوع ، وتعهدت جمهورية جنوة من جانبها بأن لا تحدث أضراراً لأحد من رعايا الملك لوبو في طرطوشة وألمرية . وكان ابن مردنيش فضلاً عما تقدم يرسل كثيراً من الملوك النصارى في مختلف أنحاء القارة ، ويبعث إليهم بالهدايا القيمة . ومن ذلك أنه أرسل إلى هنري الثاني ملك إنجلترا ، هدية قيمة من الذهب والحلير والجمال ، وبعث إليه ملك إنجلترا هدية جليلة^(١)

وظهر ابن مردنيش منذ البداية بفائق عزمه وشجاعته وإقدامه ، كما ظهر بوافر شهامته وجوده . ويقول لنا ابن الخطيب إنه « كان له يومان في الأسبوع ، يوم الاثنين والحميس ، يشرب مع ندمائه ، ويجود على قواده وخاصته وأجناده ، ويذبح الأبقار في المواسم ، ويفرق لحومها على الأجناد ، ويتخلل ذلك لهو كثير ،

(١) F. Codera: Decad. y Desp. de de los Almoravides, p. 115 & 120-123

حتى ملك القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النصح، وربما وهب المال في مجالس أنسه»^(١).
وينوه المقرئ بشجاعة ابن مردنيش، ويقول إنه كان من أبطال عصره،
وأنه كان يدفع في المواكب ويشقها شقاً، يميناً وشمالاً، منشداً :
أكرت على الكتيبة لا أبالي أحتفى كان فيها أم سواها^(٢)
وجمعت الأقدار بين ابن مردنيش وزعيم يشبهه في كثير من صفاته وميوله،
وكان له أكبر عضد في مضاعفة صولته، وتوطيد سلطانه، وهو إبراهيم
ابن محمد بن مفرج بن همشك، وهو مثل ابن مردنيش شخصية تتميز
بصفات الخاصة، وهو من أصل نصراني صريح، فجدده مفرج أو همشك
نصراني نزح إلى سرقسطة، وأسلم على يد أحد ملوك بني هود في أواخر
أيامهم، وكان مقطوع إحدى الأذنين، فكان النصراني إذا رأوه في القتال
عرفوه وقالوا «هامشك»، ويقول لنا ابن الخطيب أن معنى هذه العبارة في
لغتهم «ترى المقطوع الأذن»^(٣) وأصل العبارة في القشتالية هو He Mochico
وبالتفصيل He aqui el Mocho pequeño, El desorejado menor. ومعناها
مقطوع الذيل الصغير، ومقطوع الأذن^(٤). ولما سقطت سرقسطة في أيدي النصارى،
وغادرها بنو هود، تحول إبراهيم بن همشك إلى قشتالة، وخدم ملكها حيناً،
ثم ترك خدمة النصارى، ونزح إلى الأندلس، وخدم اللمتونيين بعد أن أعلن
توبته، وشفع فيه بعض الأكابر. ولما ندب يحيى بن غانية لولاية قرطبة
من قبل تاشفين بن علي بن يوسف في سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) التحق بخدمته.
ولما ثار القاضي ابن حمدين بقرطبة في العالم التالي، وتسمى بأمير المسلمين، وكان
ابن غانية يومئذ في منطقة الغرب بطارد ثوارها، بعثه ابن غانية رسولا إلى قرطبة
لمحاولة عقد الصلح بينه وبين ابن حمدين. ولكن الحوادث اتخذت يومئذ في قرطبة
وجهة أخرى، ثم اتسع نطاق الثورة بالأندلس، وتوالت الانقلابات في قواعد
الشرق، فاتصل ابن همشك بابن عياض، وقد تغلب يومئذ على بلنسية، ولم يمض
وقت طويل على ذلك حتى سنحت لابن همشك فرصة لاحتلال حصن شقوبش،

(١) ابن الخطيب في الإحاطة ج ٢ ص ٨٣.

(٢) نفع الطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٣٢٢.

(٣) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٥.

(٤) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 166

ثم تغلب بعد ذلك على مدينة شقورة^(١) الواقعة على مقربة من شمال شرقي أبدة ،
فقوى أمره : وفي رواية أخرى أنه تغلب على شقورة فيما بعد حينما ندبه لذلك
ابن مردنيش ، ولما آلت بلنسية ومرسية إلى محمد بن سعد اتصل به ، وعقد معه
ابن سعد صهراً على ابنته ، فتوثقت بينهما العلائق ، وغدا ابن همشك من أعظم
أعوان ابن سعد وقادته : وكان ابن همشك في الواقع من أقدر قواد العصر ،
وأوفرهم جرأة وشجاعة وإقداماً ، وقد خاض ضد الموحدين فيما بعد ، عدة
من الحروب والوقائع الهامة^(٢) .

ليست لدينا تفاصيل شافية عن حوادث شرقي الأندلس في الأعوام الأولى لحكم
ابن مردنيش ، بيد أنه وقع عقب تولى ابن مردنيش حكم بلنسية ومرسية بقليل ،
حادثان خطيران ، الأول في شمال شرقي الأندلس ، والثاني في جنوبي شرقها .
أما الحادث الأول ، فهو استيلاء النصارى على ما بقي بأيدي المسلمين من
قواعد الثغر الأعلى . ونحن نعرف أن النصارى ، منذ استولوا على سرقسطة في
سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) لبثوا يتربصون الفرص لانتزاع القواعد القليلة الباقية
في هذا الركن النائي من الأندلس . وقد صدتهم هزيمة إفراغة المروعة (٥٢٨ هـ)
عن مشاريعهم حيناً . فلما انفجر بركان الثورة في الأندلس ضد المرابطين ، وشغلت
الحاميات المرابطية في كل قاعدة ، بالدود عن نفسها ، وشغل الزعماء الثائرون
كل بتوطيد سلطانه ، شعر النصارى في الثغر الأعلى ، بأن الفرصة قد سنحت
لتحقيق مشروعهم . وكانت القواعد الباقية ، داخل الثغر الأعلى تنحصر في لاردة
وإفراغة ومكنسة (مكناسة) ثم في ثغر طرطوشة الواقع عند مصب نهر إيبرو
(إبرة) ، وكانت جميعها تقع على حدود إمارة برشلونة . وكانت طرطوشة أولى
القواعد التي سقطت عندئذ في أيدي النصارى . وكانت قد غدت في أواخر
عهدنا الإسلامي مثوى للمجاهدين والمغامرين من رواد الحملات البحرية ، التي
تشخن في شواطئ الأمم النصرانية المجاورة ، فدعا البابا أوجين الثالث إلى حملة
صليبية لفتحها ، واجتمعت قوات النصارى من الأرجونيين والقطلان والبيزيين
والحنويين وفرسان المعبد بقيادة الكونت رامون برنجير أمير برشلونة « وضربت

(١) وهي بالإسبانية Segura de Sierra .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٦ و ٣٠٧ .

الحصار حول طرطوشة من البر والبحر ، ودافع المسلمون عن المدينة بمنتهى البسالة ، وصمدوا للحصار أربعين يوماً ، مؤمليين أن ترد إليهم أمداد من بلنسية أو غيرها : فلما يئسوا من كل عون ، اضطروا إلى تسليم المدينة صلحاً في آخر سنة ١١٤٨ م (١٦ شعبان سنة ٥٤٣ هـ) . مشرطين الاحتفاظ بأماكنهم ومساجدهم . بيد أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمساجدهم أكثر من ثلاثين أو أربعين عاماً : وهاجمت القوات النصرانية المتحالفة وعلى رأسها الكونت رامون برنجير مدينة لاردة بعد ذلك بقليل وكان طبيعياً ألا تصمد طويلاً بعد سقوط طرطوشة ، فسقطت في أيدي المهاجمين وذلك في ٢٤ أكتوبر سنة ١١٤٩ م (٥٤٤ هـ) وعبر إليها المرابطي ابن هلال البحر ملتجئاً إلى أمير ميورقة محمد بن غانية ، وسقطت معها في نفس الوقت ، بل وفي نفس اليوم حسبما تروى التواريخ القطلانية ، مدينتا إفراغة ومكناسة . ويقول لنا ابن الخطيب إن القشتاليين استولوا في نفس الوقت على حصن أقليش وحصن سرانية (سنة ٥٤٣ هـ) (١) .

سقطت هذه القواعد الإسلامية الشمالية الأخيرة في أيدي النصارى ، وانتهت بذلك سيادة المسلمين في الثغر الأعلى . وقد كانت هذه القواعد ، تابعة من قبل لمملكة سرقسطة ، فلما سقطت سرقسطة في أيدي الأرجونيين ، أصبحت تابعة لولاية بانسية ، كما كانت منذ بداية العهد المرابطي ، وإذن فقد كانت هذه القواعد خاضعة لسيادة ابن مردنيش ، من الناحية الإسمية على الأقل . بيد أن ابن مردنيش لم يكن في وسعه أن يحميها أو أن ينجدها ، وكان ارتباطه برباط الصداقة والمهادنة مع الكونت برنجير أمير برشلونة ، يحول دون أية محاولة لإنقاذها ، تفسد علائقه مع الممالك النصرانية ، ومن جهة أخرى فقد كان الدفاع عن هذه القواعد النائية الواقعة في قلب الأراضي النصرانية عملاً غير ميسور . ومن ثم فإن ابن مردنيش لم يحرك ساكناً ، إزاء هذا الحدث المؤلم ، وإن كان قد لبث يعتبر نفسه حامياً للرعايا المسلمين ، في تلك القواعد المنزوعة ، يدل على ذلك أنه حينما عقد معاهدة الصداقة مع جمهورية جنوة ، قد اشترط فيها أن تتعهد جنوة بالاتوقع أية أضرار برعايا الملك لوبو في طرطوشة وألمرية ، وقد كانت جنوة ضمن البلاد التي اشتركت في افتتاح طرطوشة .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ . وراجع روض القرطاس ص ١٧٦ ، والإحاطة ج ٢

ص ٨٩ . وراجع أيضاً : Codera : Ibid ; p. 124 - 126

وأما الحادث الثاني فقد وقع في نفس الوقت ، الذي ظفر فيه ابن مردنيش بولاية بلنسية ومرسية ، وهو استيلاء النصارى على ثغر ألمرية . وكانت ألمرية في الواقع شجى في عيون الدول النصرانية القريبة مثل قطلونية وچنوة وبيزة ، بما كانت تقوم به الحملات البحرية الخارجة منها في شواطئ هذه الدول من ضروب العيث والتخريب . ففي غمرة الإضطراب العام ، الذي شمل الأندلس عقب انهيار سلطان المرابطين ، رأت الدول النصرانية ، وعلى رأسها البابا ، أن تقوم بانتزاع هذا الثغر الغنى الحصين من أيدي المسلمين ، وبادر ألفونسو السابع ملك قشتالة بانتهاز الفرقة السانحة ، ونظمت حملة برية وبحرية مشتركة من قوات قشتالة ، وقطلونية ، ونافار ، وچنوة ، وبيزة ، وبعض حشود فرنسية من وراء البرنيه ، وسارت هذه الحملة الصليبية المشتركة إلى ألمرية ، وحاصرتها من البر والبحر بقوات كثيفة ، واستمر الحصار ثلاثة أشهر ، حتى نصبت موارد المدينة ، واضطر المسلمون في النهاية إلى تسليمها للنصارى ، وذلك في العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ (١٧ أكتوبر سنة ١١٤٧ م)^(١) . وقد كان سقوط هذا الثغر الأندلسي الهام في أيدي النصارى حادثاً جليلاً ، بيد أن أصداءه الحزنة قد تبددت خلال المحنة العامة التي كانت تعانها الأندلس يومئذ ، من تفرق كلمتها وتبدد قواها ومواردها ، وكان استردادها من أهم ما عني به الموحدون ، مذ ثبتت أقدامهم في شبه الجزيرة .

وكان ألفونسو السابع ملك قشتالة قد استولى في نفس الوقت على معقل من أهم معاقل الأندلس الوسطى ، وهو قلعة رباح ، وذلك في أواخر سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) ، وذلك قبل استيلائه على ثغر ألمرية بأشهر قلائل . وقد أحدث القشتاليون باستيلائهم على هذا المعقل المنيع ثغرة خطيرة في خطوط الدفاع الأندلسية . وسرى فيما بعد أي دور خطير تلعبه هذه القلعة الشهيرة في جوادث الصراع بين الموحدين والنصارى .

في ذلك الحين كان ابن مردنيش يعمل على توطيد سلطانه . وقد كان حريصاً على ألا ينتقص من أطرافه معتد خارجي أو داخلي ، حتى لقد بلغه خلال سيره إلى بلنسية ليتولى سلطانه بها ، أن النصارى هاجموا حصن « حلال » ففكر إليه ،

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦ ، وروض القرطاس ص ١٧٦ . راجع : Lafuente : Hist

واسترده من أيديهم ، ثم عاد إلى بلنسية فتلقى بها البيعة^(١) . ولما سار إلى مرسية ليستخلصها من يد تائها ابن عبيد ، بعث قائده ابن همشك إلى مدينة شقورة ، وقد كان يعتبرها من متعلقات بلنسية ، لينتزعها من صاحبها ابن سوار ، فاستولى ابن همشك عليها^(٢) ، ثم عاد إلى مرسية لمعاونة ابن مردنيش على السيطرة على مرسية وتلقى بيعتها . فلما تم له الأمر غادرها إلى بلنسية ، وترك ابن همشك نائباً عليها . وكان ابن مردنيش ، قد عين أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد ، منذ البداية نائباً له ببلنسية .

ولسنا نعلم الكثير عن أعمال ابن مردنيش في الأعوام الأولى لولايته . وأول ما تحدثنا عنه الرواية من ذلك هو استيلاؤه في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) على مدينتي بسطة ووادي آش . وقد سبق أن ذكرنا ما كان من قيام ابن ملحان الطائي بوادي آش ، وتغلبه عليها وعلى بسطة . وكان الموحدون قد عبروا إلى شبه الجزيرة قبل ذلك ببضعة أعوام ، واستولوا على إشبيلية ، في شهر شعبان سنة ٥٤١ ، وذلك بعد أن استولوا على شريش ، وقواعد الغرب ، التي كانت أولى القواعد الثائرة ضد المرابطين ، ثم استولوا على قرطبة سنة ٥٤٣ هـ ، ثم على جيان وبياسة وأبدة . وهكذا وصلت طلائع الموحدين إلى أواسط الأندلس ، وأضحت تشرف من ناحية الشرق على أملاك ابن مردنيش . والظاهر أن ابن مردنيش كان يستعين في حملته ضد بسطة ووادي آش بجنود من القشتاليين أرسلها ألفونسو السابع لمعاونته^(٣) . ولما رأى ابن ملحان أنه لا طاقة له بمقاومة الغزاة أعلن طاعته للموحدين ، ثم غادر وادي آش في أهله وأمواله ، وعبر البحر إلى المغرب حسبما ذكرنا من قبل في موضعه . وأضحى ابن مردنيش باستيلائه على بسطة ووادي آش يواجه القواعد الموحدية في جيان وبياسة وأبدة من الجنوب كما يواجهها من الشرق ، وهكذا أخذت تجتمع عناصر ذلك الصراع المضطرم الذي لبث ابن مردنيش ، ومن ورائه قوى الأندلس الشرقية كلها ، يضطلع به ضد الموحدين أعواماً طويلاً ، والذي كان يمثل في كثير من نواحيه ثورة الأندلس القومية ضد غزاتها من وراء البحر ، أعنى المرابطين والموحدين .

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmann p. 188 . وقد سبق أن أشرنا إلى

رواية ابن الخطيب في تغلب ابن همشك على شقورة قبل اتصاله بابن مردنيش .

(٣) F. Codera : Ibid ; p. 133

الفصل الرابع

أعوام عبد المؤمن الأخيرة

وفاته وخلاله

ابن مردنيش ينتزع جيان ويحاصر قرطبة . خديعته ومسيره إلى إشبيلية . إخفاقه وارتداده . غزو ابن همشك لأراضي قرطبة . هزيمة الموحيدين ومقتل قائدهم . مسير ابن همشك إلى قرمونة وتغلبه عليها . الوزير ابن عبد السلام الكومي . سوء مسلكه وطغيانه . مصرعه . تكسير الإمبراطورية الموحدية . كتب عبد المؤمن بالفتح . اهتمامه بشئون الأندلس . مشروعه لتحصين جبل طارق وإنشاء مدينته . بناء المدينة ووصفها وفقاً لرواية ابن صاحب الصلاة . عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق . الاحتفال بافتتاح المدينة . وفود الأعيان والكبراء . مدائح الشعراء . عبد المؤمن ينظم شئون الأندلس . عبوره إلى المغرب وعوده إلى مراكش . استرداد الموحيدين لقرمونة . مهاجمة ابن همشك لغرناطة ودخوله إيها . محاصرته للموحيدين بالقصبة . مقدم الأمداد الموحدية . موقعة مرج الرقاد . هزيمة الموحيدين وفرارهم . عبد المؤمن يرسل جيشاً إلى الأندلس . مسير ابن مردنيش لإمداد ابن همشك . موقعة السبيكة . هزيمة ابن همشك وحلفائه النصاري . استرداد الموحيدين لغرناطة . ارتداد ابن همشك وابن مردنيش . تحصين الموحيدين لغرناطة . نقل قاعدة الحكم الموحدى إلى قرطبة . إصلاح قرطبة وتنظيم شؤونها . استعداد عبد المؤمن للجهاد بالأندلس . زيارته لتينملل . مسيره إلى رباط الفتح . اجتماع الجيوش الموحدية . بحث خطة الغزو بالأندلس . مرض عبد المؤمن . تنحيته لولده محمد عن ولاية العهد واختياره لولده يوسف . . وفاة عبد المؤمن . عقد البيعة لولده يوسف . تولى أخيه أبي حفص الوزارة . روايات أخرى عن تولية يوسف . عبقرية عبد المؤمن . إنشاؤه للدولة الموحدية الكبرى . إنشاؤه للخلافة الزمنية . عبد المؤمن أعظم خلفاء الغرب الإسلامى . قائد من أعظم قواد عصره . نظام حركة الجيوش الموحدية . تنظيم عبد المؤمن لطبقات الموحيدين . تنظيمه للجيوش الموحدية . طوائف العرب وتقليبها . نظم الحكم والإدارة الموحدية حسبما وردت في رسالة لعبد المؤمن . حبه للعلم والعلماء . عنايته بأمر الطلبة وتدريبهم . علمه وأدبه . الجراوى الشاعر . صرامة عبد المؤمن الدينية . تشدده في معاملة النصاري واليهود . قسوته وسفكه للدماء . قواده وكتابه ووزراؤه وقضاته . سياسته في فرض الضرائب والجبايات . مسحه لبلاد المغرب . أولاده . صفة شخصه .

لما تم لعبد المؤمن فتح المهديّة في العاشر من المحرم سنة ٥٥٥ هـ ، وإجلاء الفرنج الصقليين عن إفريقية ، ثم القضاء عقب ذلك على طوائف العرب الذين تصدوا لمقاومته ، كانت حوادث الأندلس ، قد أخذت تشغل معظم تفكيره ،

وكانت حوادث شرقي الأندلس بالأخص ، قد تطورت خلال ذلك ، بصورة تدعو إلى القلق . ذلك أنه في الوقت الذي كانت جيوش عبد المؤمن ، تعسكر فيه تحت أسوار المهديّة ، كان زعيم الشرق محمد بن سعد بن مردّنيش ، قد خرج من مدينة مرسية ، بجيش مختلط من قواته ، ومن حلفائه القشتاليين ، وسار إلى مدينة جيان ، فلم يبد واليها الموحدى محمد بن علي الكومى أية مقاومة ، وسلمها إليه ، وانضوى تحت لوائه ، وهو ما تعتبره الرواية الموحدية خيانة منه ، ونكثاً لبيعتة للموحدين . ثم سار ابن مردنيش من جيان إلى قرطبة ، ونازلها بشدة ، وعاث في ربوعها ، وأتلف زروعها ، فخرج إليه واليها أبو زيد عبد الرحمن ابن يكيث (أو ينجيث) في قواته ، واشتبك معه في معركة شديدة ، ثم ارتد إلى المدينة ، وامتنع بها ، فضرب ابن مردنيش الحصار حول قرطبة ، ولبت يرقب فرصة الاستيلاء عليها ، ولكن ابن يكيث ، وقاضى المدينة أخيل ابن إدريس لحآ إلى حيلة أو خدعة حربية ، فكتبوا على لسان سيدراى بن وزير إلى ابن مردنيش كتاباً ، وبعثوا به إلى ابن مردنيش ، على يد رسول متنكر في صفة زيات من أهل الشرق ، وفيه يحث ابن وزير ، ابن مردنيش ، بأن يسرع بالإقلاع عن قرطبة ، والسير إلى إشبيلية لأنها دون دفاع . فأمن ابن مردنيش بالخدعة وبادر في الحال بالسير إلى إشبيلية ، وسبقه من قرطبة جاسوس موحدى إلى إشبيلية ، فأخطر ولاة الأمر بما حدث ، واعتقد هؤلاء في صحة مانسب إلى ابن وزير ، فقبض عليه واعتقل . ووصل ابن مردنيش بقواته إلى إشبيلية ، ونزل بظاهرها بموضع يعرف بالفونت ، ونازلها ببعض قواته حتى وصل إلى باب قرمونة في شمالها الشرقي ، وأقام أمامها ثلاثة أيام ، وقد شاع الاضطراب في المدينة ، وتوجس الناس شراً ، وأبدى واليها السيد أبو يعقوب منتهى الحزم واليقظة في الدفاع عن المدينة ، بمعاونة الأشياخ والطلبة والحفاظ الموحدين ، ومعهم طائفة من جند الأندلس بقيادة أبى العلاء بن عزون صاحب شريش ، وكان أشياخ إشبيلية وأعيانها يسهرون طول الليل فوق الأسوار ، ويحرصون كل الحرص على ثقاف أبواب المدينة . واتخذ الموحدون داخل المدينة اجراءات صارمة ، فقتلوا عدداً ممن لحقت بهم ريبة الغدر ، واعتقلوا الكثير من الناس . وأدرك ابن مردنيش أمام ذلك كله ، أنه قد خدع بما جاء في الخطاب المزور ، وأن إشبيلية ليست بغية هينة ، فغادرها وارتد على عقبه ، دون أن يفوز بطائل .

ووقعت هذه الأحداث التي نستقيها من رواية كاتب معاصر ، وشاهد عيان ، هو عبد الملك بن صاحب الصلاة : مؤرخ الدولة الموحدية^(١) ، في سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) .

بيد أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عاد ابن مردنيش إلى مهاجمة الموحدين ، فبعث جيشاً (في أوائل سنة ٥٥٥ هـ) تحت إمرة قائده وصهره إبراهيم بن همشك ، فسار إلى قرطبة واجتاح أراضيها ، وانتسف زروعها ، ونازلها وقتاً ، ثم أقلع عنها ، ورتب كمائنه على مقربة منها في قرية تسمى « أطابة » ، فخرج الموحدون من قرطبة بقيادة واليها عبد الرحمن بن يكيث لاستطلاع الأحوال ، فخرجت عليهم كمائن ابن همشك ، وأثخنت فيهم ، وقتل ابن يكيث فيمن قتل ، وارتد الموحدون إلى المدينة فاعتصموا بها . وسار ابن همشك بعد ذلك في قواته إلى مدينة قرمونة ، وهي حصن إشبيلية من الشمال الشرقي ، فهاجمها ، واستولى عليها بمعاونة زعيم من زعمائها يدعى عبد الله بن شراحيل وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ (مارس ١١٦٠ م) . وامتنع الموحدون الذين بها بقصبتها . ولما وقف السيد أبو يعقوب والي إشبيلية على ذلك ، وكان على أهبة السفر لملاقاة والده الخليفة ، بادر فارسل عسكرياً إلى قرمونة لإنجاد حاميتها ، وانتظر حيناً يرقب الحوادث^(٢) .

وفي خلال ذلك ، وعقب اتمام فتح المهديّة ، وقع في المعسكر الموحدى حادث يتصل بصميم الشؤون الموحدية الداخلية ، وهو مصرع الوزير محمد ابن عبد السلام الكومي . ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أن عبد المؤمن ندب هذا الوزير لخدمته في شهر شوال سنة ٥٥٣ هـ ، عند خروجه إلى غزو إفريقية وافتتاح المهديّة^(٣) . ولكننا قد رأينا مما تقدم ، أن هذا الوزير قد لعب وفقاً لرواية ابن عذارى وابن الخطيب^(٤) ، دوراً كبيراً في مصرع الوزير

(١) في كتابه « تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة ، وجعلهم الوارثين » ، (السفر الثاني) وهو المخطوط الذي سبق التعريف به في بيان المصادر لوحدة ١٢ وب . وسوف يكون هذا المخطوط منذ الآن فصاعداً من أئمن مصادرنا . وراجع أيضاً البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٤٠ .

(٢) تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين - المخطوط سالف الذكر لوحدة (١٤٥) ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٤٣ و ٤٥ .

(٣) تاريخ المن بالإمامة - المخطوط السابق ذكره (لوحة ١٢٠) .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٣٥ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٣ .

ابن عطية ، وأنه في الوقت الذي كان فيه ابن عطية ، يقوم بمهمته في الأندلس ، كان ابن عبد السلام ، يتولى الوزارة ، ويتزعم خصوم ابن عطية ، في مطاردته ، وتدبير الوسائل الكفيلة بسحقه ، وأنه لما عاد ابن عطية من الأندلس مسرعاً لمناهضة سعي خصومه ، انتهى الأمر باعتقاله ، ثم إعدامه مع أخيه وذلك في شهر صفر سنة ٥٥٣ هـ . وإذن فمن المرجح أن يكون ابن عبد السلام ، قد تولى الوزارة لعبد المؤمن قبل هذا التاريخ ببضعة أشهر . وعلى أي حال ، فقد شاء القدر أن يلقي ابن عبد السلام نفس المصير الذي لقيه زميله ابن عطية . وذلك أنه لما خرج عبد المؤمن إلى غزوة المهديّة ، وعرج في طريقه على سلا ، كان ابن عبد السلام في ركابه ، فوجهه عبد المؤمن إلى الأندلس ليستطلع أحوالها بسرعة . فسار الوزير إلى إشبيلية ، ثم إلى قرطبة وغرناطة ، وتفقد أحوالها ، وأبلغ إلى الأشياخ والطلبة ما كان لديه من الأوامر والتوجيهات ثم عاد إلى الخليفة ، وكان ما يزال بمحلته في سلا ، وأبلغه نتيجة مهمته . ثم تحرك عبد المؤمن إلى تلمسان ، واستدعى معه واليها وهو ولده السيد أبو حفص ، ثم سار إلى بجاية ، واستدعى معه كذلك واليها ، وهو ولده السيد أبو محمد عبد الله . وكان الوزير ابن عبد السلام ، عندئذ في ذورة سلطانه ونفوذه يهيمن على سائر الشئون ، ويراقب أحوال السادة أبناء الخليفة ، وينقل أخبارهم إليه ، فكان مما نقل إليه أنهم يشربون الخمر ، ويعكفون على اللهو ، ويأتون فعلا قبيحة ، فتأثر الخليفة لذلك ، وعهد إلى بعض أشياخ الموحدين بتحقيق هذا الأمر ، فقاموا بالمهمة ، وراقبوا السادة ، وانتهوا إلى التحقق من بطلان التهم الموجهة إليهم ، فأدرك عبد المؤمن عندئذ تحامل وزيره ، وأسرها له . ولما حدث أثناء حصار المهديّة من زحف الموحدين على قابس ، كان ابن عبد السلام ، على رأس الجيش المهاجم . فلما افتتحها الموحدون ، استأثر الوزير بجمع الأسلاب والغنائم والأموال ، واحتجز وأخفى منها ما شاء . وفي أثناء غيبته تكلم أشياخ الموحدين في حقه ، وشكوا من استعلائه عليهم ، ورجبوا إلى الخليفة أن يكون ابنه أبا حفص ، هو صلة الوصل بينه وبينهم ، فاستجاب الخليفة إلى رغبتهم . ولما تم فتح المهديّة ، وتمزيق طوائف العرب في إفريقية ، ارتد عبد المؤمن في قواته إلى تلمسان ومعه وزيره ابن عبد السلام . وهناك ارتفعت الشكوى للخليفة من عمال ابن عبد السلام ، وظلمهم ، وتعديهم على الرعية ، ومن قرابته كوميه ، وتجرئهم على سلب

الأموال ، ومضاعفة الحباية ، وغير ذلك من المظالم الفادحة بمالأة ابن عبد السلام وتشجيعه ، وحمايته ، فأمر الخليفة بجمع المتظلمين وأشياخ الموحدين وطلبة الحضر والقاضي ، لسماع أقوالهم ، فأفاضوا في التظلم والشكوى ، وكرروا اتهاماتهم ، ونقلت أقوالهم إلى عبد المؤمن ، فأبدى دهشته مما يحدث ، ومن كثرة الأموال التي تجمع ، وكونها لاتصل إليه ، وقلة ما بيده منها ، وعجزه عن أن يمد أجناده الموحدين بالعطاء المحزى ، هذا مع أن لمتونة التي لم تكن تملك مثل إمبراطوريته الشاسعة ، كانت بالنسبة لأجنادها أكثر بدلا وإنصافاً . وغادر الخليفة مجلسه مغضباً ، وكان ابن عبد السلام حاضراً ذلك المجلس ، فتوجس شراً ، ولم يأت ظهر ذلك اليوم حتى تحققت مخاوفه ، وقبض عليه في مجلسه ، وسيق إلى المطبق . ولما غادر الخليفة تلمسان ، أوعز بقتل ابن عبد السلام ، فقدم إليه طعام مسموم توفي عقب تناوله ، وكفّر بذلك عما أثم به في حق زميله الوزير ابن عطية ، وكان ذلك فيما يرجح في أواسط سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) (١) .

وكان من الأعمال البارزة التي قام بها عبد المؤمن ، عقب افتتاح المهديّة ، وتوطد سلطانه في سائر نواحي إفريقية والمغرب ، البدء بتكسير الإمبراطورية الموحدية أعني مسحها من برقة إلى السوس الأقصى ، ومن شاطئ البحر المتوسط إلى مشارف الصحراء ، على أن يسقط من التكسير الثلث في الجبال والوهاد والأنهار والسبخات والطرق ، وما تبقى يفرض عليه الخراج ، وأن تلزم كل قبيلة بأداء قسطها من الزرع والورق أي المال ، وكان عبد المؤمن هو أول من قام بمثل هذا الإجراء من ملوك المغرب (٢) .

وهكذا شعر عبد المؤمن بعد افتتاح المهديّة ، واستكمال سيادة الموحدين على سائر نواحي إفريقية ، أن الأندلس تتطلب مزيداً من عنايته واهتمامه . ولم ينس أن الحركة التي قام بها ابن مردنيش بالاستيلاء على جيان ، وتهديد قرطبة وإشبيلية ، قد تتفاقم وتقضى على سيادة الموحدين الفتية في شبه الجزيرة . ومن ثم فقد حزم أمره على أن يعبر البحر إلى الأندلس ، لينظر في شئونها ، ولينظم وسائل الدفاع عنها .

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين - المخطوط المشار إليه لوحة ١٢٢ ، والبيان المغرب

القسم الثالث - ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٩ .

وكان عبد المؤمن عقب افتتاح المهديّة ، قد أرسل إلى الأندلس كتبه بالفتح ، وفي مقدمتها كتابه إلى ولده السيد أبي يعقوب وإلى إشبيلية ، وفيه يشرح حوادث الفتح ، وما وقع من إجلاء النصارى ، وما قام به العرب ، من ضروب التمرد والمقاومة ، ثم يقرنه بقصيدة يوردها لنا ابن صاحب الصلاة ومما جاء فيها :

ولما قضينا بالمشارك أمرنا وتم مراد الله في كل مطلب
وأشرقت الشمس المنيرة فوقنا وأصبح وجه الجو غير محجب
وطهر هذا الصقع من كل كافر وعاد به الإسلام بعد تغيب
وكسرت الصليبان في كل بيعة ونادى منادى الحق في كل مرقب
أشرنا بأعناق المطى إليكم فطار بها شأو السرور بمغرب

ووصل كتاب عبد المؤمن بالفتح إلى إشبيلية في صفر سنة ٥٥٥ هـ ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، إن السيد أبا يعقوب أمر أن يكتبه الناس والطلبة ، وأن يحفظوه ، وأن يتلى من فوق المنابر ، وأمر كذلك بقرع الطبول ، وإقامة المآدب للأجناد والناس كافة ، واستمر قرع الطبول ، والإطعام ثلاثين يوماً ، والبشر يعم أنحاء المدينة ، والشعراء ينشدون قصائدهم بالتهنئة ، في مختلف المناسبات والمواطن (١) .

ولم يكدر صفو هذا البشر الشامل ، سوى ما وقع في هذه الآونة بالذات من منازل ابن همشك لقرطبة ، ومصرع واليها ابن يكيث ، ومحاصرة قسبة قرمونة ، ومن ثم فقد كان رد السيد أبي يعقوب على كتاب الفتح ، يتضمن شرحاً لهذه الحوادث ، وتضرعاً إلى والده الخليفة ، بأن يعجل بالإنجاد والغوث . وكانت خطة عبد المؤمن لتنظيم شئون الأندلس وإتمام فتحها ، وإذكاء حركة الجهاد بها ، تتضمن فضلاً عن مضاعفة البعوث العسكرية إلى شبه الجزيرة ، تحصين قاعدة جبل طارق ، وإنشاء مدينة كبرى بها . ومن حسن الحظ أننا نجد أدق شرح وأوفى تفصيل لهذا المشروع الضخم ، في رواية ابن صاحب الصلاة ، وقد كان فضلاً عن اطلاعه على الكتب والوثائق المتعلقة بذلك ، شاهد عيان وثيق الصلة ببلاط الخليفة ، وبالسيد أبي يعقوب وإلى إشبيلية ، والسيد أبي سعيد وإلى غرناطة ، وهما اللذان عنيا بتنفيذ المشروع . وبالرغم من أنه يقرن روايته في معظم

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين - المخطوط السالف الذكر ، لوحة ٢٥ .



جبل طارق والمضيق

الأحيان ، بكثير من عبارات الدعاء والتبجيل والملق ، التي تفصح عن طبيعة علائقه بالبلاط الموحدى ، فإنه يقدم إلينا فى نفس الوقت كثيراً من المعلومات والتفاصيل النفسية ، التي لا توجد فى أى مصدر آخر .

أرسل السيد أبو يعقوب رسالة بطلب الإنجاد إلى والده الخليفة ، وإشبيلية تسودها ربح التوجس والقلق ، فسرعان ما وصل رد الخليفة من معسكره المظفر ، على مقربة من قسنطينة ، بتاريخ ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ « يعرف فيه بصحيح الآيات ، وما ثنى فيه من أعنة خيل الله لهذه الأصقاع ، وحماية ذلك الجناب » ، فأطمأن الموحدون لما وعد به الخليفة ، من سريع العون وبالغه ، واستبشروا بالنصر القريب ، وقرىء كتاب الخليفة على المنابر ، وساد البشرين الناس .

ووصل فى نفس الوقت كتاب آخر من الخليفة ، مؤرخ فى التاسع من ربيع الأول من نفس العام ، ومتضمن « للأمر العزيز » ، بإنشاء مدينة كبرى فى جبل طارق ، ذلك الجبل الذى يصفه ابن صاحب الصلاة « بالجبل الميمون القديم البركة ، على جزيرة الأندلس السامق الشاهق ، المفتتح منه دانيها وقاصيها ، وطايعها وعاصيها » ، ولتكون هذه المدينة منزلاً للأمر عند إجازته بالعساكر ، ومستقراً تتقدم منه « الرايات المظفرة ، والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم » . وكان الكتاب

يتضمن أمراً مشدداً من الخليفة إلى ولده السيد أبي سعيد عثمان وإلى غرناطة ، بأن يسير بنفسه من غرناطة مع صحبه وبعض عسكره إلى جبل طارق ، وأن يجتمع فيه بالطلبة الوافدين من إشبيلية ، وبالشيخ أبي حفص عمر ، وأبي إسحق برآز ابن محمد ، والحاج يعيش المالقي ، والقائد عبد الله بن جيار ، وأن يدرس الجميع خطط المدينة الجديدة ، وأين يكون موقعها من الجبل . فصدع السيد أبو سعيد بأمر الخليفة ونهض في صحبه إلى جبل طارق ، للعمل على تنفيذ الخطة المطلوبة ، وطُلب في الكتاب إلى السيد أبي يعقوب وإلى إشبيلية أن يحشد جميع العمال البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء ، من جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين ، وأن يعجلوا بالسير إلى الجبل ، لتنفيذ الأمر الكريم ، فهض السيد أبو يعقوب بما طلب إليه ، وسار من إشبيلية العريف أحمد بن باسئه ، ومعه حشد كبير من العمال من بنائين وغيرهم من مختلف الحرف إلى جبل طارق ، ووصل إليه في نفس الوقت جمهرة من القواد والكتاب وأهل الحساب ، لتنظيم النفقة على الأعمال المطلوبة ، ورصدها ، وتم ذلك كله في سرعة ونظام وحزم .

قال ابن صاحب الصلاة : « وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع الجميع عليه ، والاتفاق من نواحيه ، بسيف البحر ، مما يلاصقه ويليه ، وزادت الآمال بأهل الأندلس إلى ما تقدم إليهم من الأمل ، وتحققوا اليمن والسعد والفتح في بنيان هذا الجبل ، وكان من اشغال السيد الأعلى أبي يعقوب بإشبيلية في إزعاج الفعلة والرجال للبناء المذكور ، وأحكم البناءون فيه بناء من القصور المشيدة والديار ، واخترعوا في أسسها طيقاناً وحنايا ، لتعندل بها الأرض ، مبنية بالحجر المنجور والجيار ، بما هو عجيب في الآثار . . وهذا شريف البقعة كريم التربة ، عظيم المنعة ، باسق مع أعشار السماء ، تكاد في المسامته إلى الحوزاء ، وكل ما استودع في أرضه من البطحة المنبسطة ، من بعضه ، مما زكى وفضل وجل ، وأثمر عن قرب لغرسه وأكل ، وأستقل من جميع الفواكه ، كشجر التين والعنب والتفاح والكمثرى والسفرجل والمشموم والأجاص والأترج والحوز وغير ذلك ، على ضيق ضفته المددة كالجبل ، المستمدة من الظل والوبل ، وماؤه عذب زلال ، مروق سلسال . وكان الحاج يعيش المهندس مدة إقامته للبناء على ما ذكرته فيه ، فوضع في أعلاه رحي تطحن الأقوات بالريح ، عاينها الثقات مدة البناء المذكور ، فلما رجع إلى مراکش عند إكمال ما أمر به فسدت الرحي ، لعدم الاهتبال بها ،

واتصل بهذا العمل من بناء الدور القصور ، بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح في الفرجة التي كان يدخل منها إلى الجبل ، بين البحر المحرق به من كلا جانبيه ، فجاء فرداً في المعقل التي لا يتمكن أطامع فيه طمع ، ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع ، من بر ولا بحر» (١) .

واستمر العمل شهوراً مهمة مضاعفة ، والسيد أبو يعقوب والى إشبيلية ، يشرف على تنفيذ أوامر الخليفة ، دون هوادة ولا كلل ، والمهندسون والعرفاء ، والعمال من كل ضرب ، يبذلون أقصى جهدهم في إتمام المشروع ، حتى كمل على أحسن وجه ، وتم بناء المدينة الحديدية في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ (ديسمبر سنة ١١٦٠ م) وابتنى بها جامع ، وقصر للخليفة ، ودور لأبنائه وحاشيته ، وغرست الحدائق على طولها حذاء البحر ، وجلب إليها الماء العذب ، وجدد الحصن والأسوار القديمة ، وعنى بتحصين الصخرة ، أكمل عناية ، وسمى الجبل بأمر الخليفة جبل الفتح أو مدينة الفتح ، وكانت المراسلات أثناء ذلك تتردد بين السيد أبي يعقوب ووالده الخليفة ، بتحديد موعد عبوره ، واستعداداً للاحتفال بهذا الحادث الجلل . وكان السيد أبو يعقوب يعتزم العبور إلى المغرب ، وليعاين أثناء مسيره ماتم من الأعمال في جبل طارق ، ولكنه ما كاد يركب السفينة التي أعدت بالنهر لعبوره ، حتى وصلته أبناء استيلاء ابن همشك على قرمونة ، وامتناع حاميتها الموحدية بالقصبة ، فارتد من فوره إلى المدينة ، وقد اضطربت بها الأحوال ، ووجه فرقة من العسكر لإنقاذ الحامية ، ومقاتلة أهل قرمونة ، وكان ذلك حسباً تقدم ، في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ (مارس سنة ١١٦٠ م) ، وهو الشهر الذي وصلت فيه رسالة الخليفة بإنشاء مدينة جبل طارق .

وكان عبد المؤمن يرتقب إتمام المدينة الحديدية بجبل طارق ، ليعبر إلى شبه الجزيرة ، فلما كملت ، وكان عنده في أحواز فاس ، سار إلى سبتة في جموع ضخمة من الموحدين والعرب من بني رياح ، وبني جشم ، وبني عدى وغيرهم . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مناظر احتشاد الناس على الشاطئ لرؤية موكب الخليفة ، وجيشه في ذلك اليوم المشهود ، في قوله : « وبرز إليه يوم إجازته

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين - المخطوط السالف الذكر لوحة ١٣ و ١٤ .

البحر من الناس ، النظارة على سيف البحر عالم لا يحصيهم إلا خالفهم . وكان يوماً
مذكوراً مشهوداً ، ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ، ما لم يتقدم في سالف
الأزمان ، ولا تخيل مرآه في الأذهان .

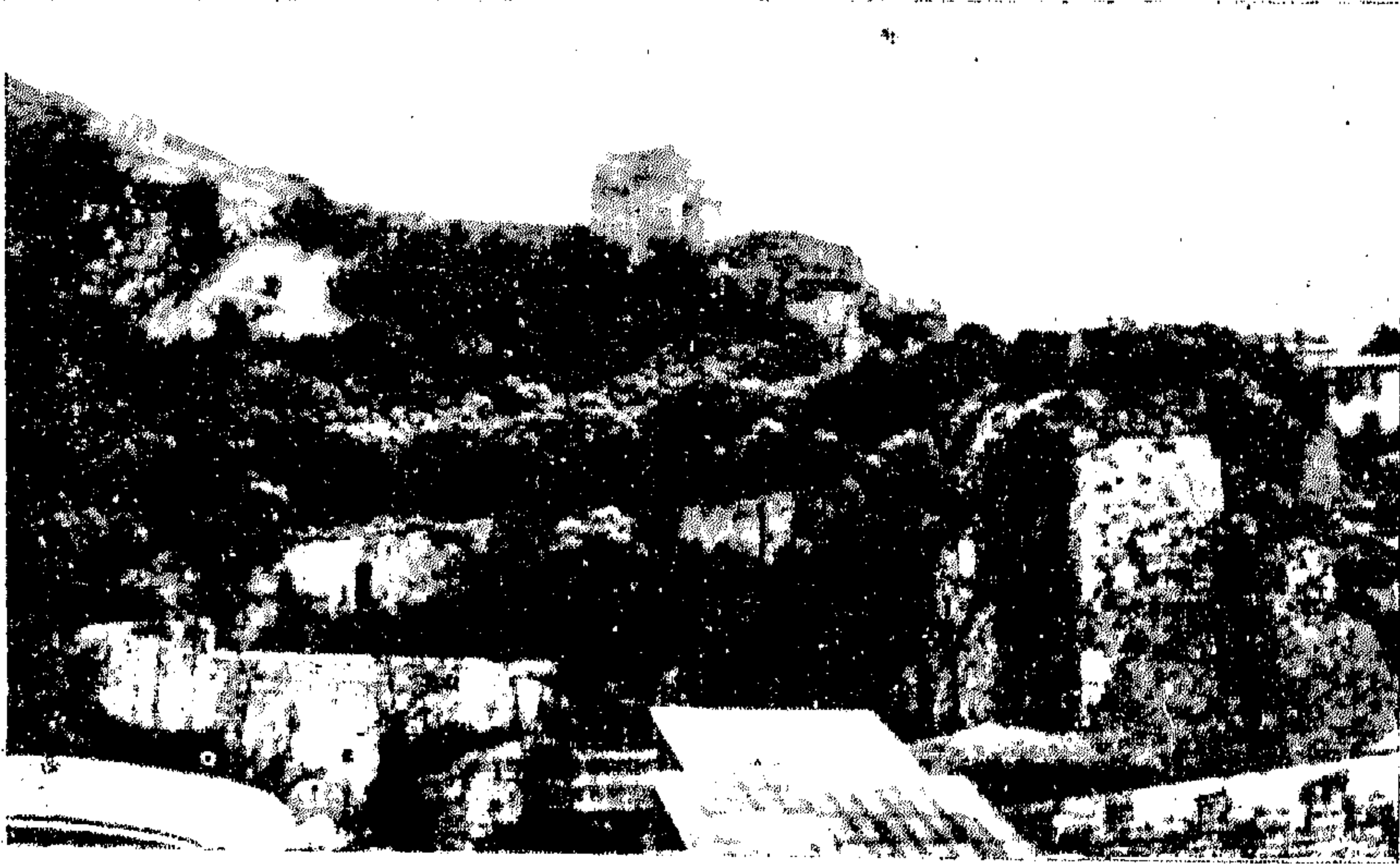
وكان عبور عبد المؤمن إلى شبه الجزيرة ، ونزوله في جبل طارق ، في شهر
ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ (يناير سنة ١١٦١ م) . وكان في استقباله في الجبل ،
ولداه السيد أبو يعقوب والى إشبيلية ، وقد غادرها مع وفد كبير من أشياخ
الموحدين ، ورؤساء الأندلس وقادتها وعلى رأسهم أبو العلاء بن عزون ، وأعيان
إشبيلية وشيوخها وقاضيها أبو بكر الغافقي ، وكبير علمائها الحافظ أبو بكر
ابن الجند ، وسائر من بها من الكبراء والشعراء ؛ والسيد أبو سعيد والى غرناطة ،
مع من بها من أشياخ الموحدين والحفاظ ، وأكابر غرناطة وعلماؤها ؛ وكذلك
أعيان قرطبة وعلماؤها ، وأعيان غرب الأندلس وعلماؤها ، وأعيان مالقة ورندة ،
وشريش ، وعلى الحملة سائر أعيان الأندلس الموحدية وكبرائها ، وعلماؤها وأدباؤها
وشعراؤها . وندب عبد المؤمن ولده وزيره السيد أبا حفص لكي يتولى أمر
الوفود ، ويقودها إلى مجلسه للسلام وتجديد البيعة ، فأدخلوا بترتيب معين ،
وأدوا التحية للخليفة الموحدى ، وأكدوا له البيعة والطاعة ، وكان القضاة
يتقدمون الوفود . وتعاقب الخطباء بين يدي الخليفة ، فخطب أبو الحسين
ابن الإشبيلي وصاحبه أبو محمد بن جبل ، وأبو محمد الملقب وغيرهم ، وكانت خطبهم
تدور كلها حول وجوب البيعة ، وما يوجبه الشرع من العهود والرسوم ،
والوفاء بالطاعة لولى الأمر ، ثم أذن لهم « بتقبيل اليد المباركة » (١) .

وجاء بعد ذلك دور الشعر ، فأمر عبد المؤمن باستدعاء الشعراء ، ولم يكن
يستدعيهم قبل ذلك اليوم ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم . وكان يوماً عظيماً
من أيام الشعر والشعراء . وكان بين هذه الوفود الحاشدة ، عدة من أقطاب
الشعر بالمغرب والأندلس ، ذكر لنا ابن صاحب الصلاة ، وصاحب المعجب
أسماءهم ، فكان منهم شاعر المغرب أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل فاس ،
والوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى المعروف بالرُّصافي ، نزيل
مالقة ، وأحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى ، والقرشى القرطبي المعروف
بالطليق ، وأبو الحسن عبيد الله محمد بن صاحب الصلاة الباجي ، وأبو بكر

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين - المخطوط - لوحة ١٥ و ١٦ .



منظر جبل طارق من البحر الإسباني (من الجزيرة الخضراء)



بقايا الحصن الأنطاسي قائمة فوق سطح صخرة طارق

ابن المنخل الشلبي ، وابن سيد الإشبيلي المعروف باللص وغيرهم .
وكان أول من أنشد شعره بين يدي الخليفة ، أبو عبد الله بن حبوس ،
وهو الذي يشبهه صاحب المعجب في طريقته بابن هانيء الأندلسي في تخير الألفاظ
الرائعة ، فأنشد قصيدة هذا مطلعها :

بلغ الزمان بكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه ان كان شيئاً قابلاً وجد الهداية صورة فتشكلا

وأنشد القرشي المعروف بالطلق قصيدة مطلعها :

ما للعدى جنة أوقى من الهرب كيف المفر وخيل الله في الطلب
لو بدلوا قدمازلت بقادمه لأصبح الكل طياراً من الرعب

وأنشد أبو الحسن عبيد الله بن صاحب الصلاة الباجي قصيدة هذا أولها :

تلاً من نور الخلافة بارق أضاءت به الآفاق والليل غاسق
وأشرق الدنيا به فكأنها من البشر في كل الجهات مشارق

بسعدك يبرى السيف ما عز قطعه وينفذ حد السهم ما هو راتق
ولا زال أمر الله للدين هادياً وأنت للدين الكفر ماح وماحق

وأنشد الوزير الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلسني

قصيدة طويلة في نيف وستين بيتاً هذا مطلعها :

لوجئت نار الهدى من جانب الطور قبست ماشئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوائبها ليلا لسارٍ ولم تثبت لمغرور
فيضية القدح من نور النبوة أو نور الهداية تجلو ظلمة الزور

ومنها وصف مدينة الجبل :

يادار دار أمير المؤمنين بسف ح الطود طود الهدى بوركت في الدور
ذات العمادين من عز ومملكة على الأساسين من قدس وتطهير
ماكان يأتيك الواني الكرامة عن قصر على مجمع البحرين مقصور

وفي وصف الجبل :

لله ما جبل المفتحين من جبل معظم القدر في الأجيال مذكور
من شامخ القدر في سحنائه طلس له من القيم جيب غير مزور

معبراً بذراه عن ذرى ملك مستمطر الكف والأكناف ممطور
تمشى النجوم على أكليل مفرقة في الجو حائمة مثل الدنانير (١)
بيد أنه قد ظهر في هذا اليوم ، إلى جانب أكابر الشعراء ، شاعر حدث ،
لم يبلغ العشرين من عمره ، هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ،
سليل بني سعيد أصحاب قلعة يحصب من أعمال غرناطة (٢) ، وكان قد حضر
إلى جبل طارق مع أبيه وإخوته وقومه ضمن وفد غرناطة ، ومثل بين يدي
الخليفة ضمن الشعراء . ولما جاء دوره ، أنشد قصيدة لفتت الأنظار بروعتها ،
وكانت فاتحة مجده الشعري ، وقد نقل إلينا ابن الخطيب منها الأبيات الآتية :

تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر
ورم كل ما قد شئت فهو كائن
وحسبك هذا البحر فإلاً فإنه
وما صوته إلا سلام مردد
بجيش لكى يلقى أمامك من غدا
أطل على أرض الجزيرة سعدها
فما طارق إلا لذلك هطرق
هما سهداها لكى تحل بأرضها
وما لسواك اليوم نهي ولا أمر
وحاول فلا بر يفوت ولا بحر
يقبل تُرباً داسه جيشك الغمر
عليك وعن بشر بقربك يفتر
يعاند أمراً لا يقوم له أمر
وجد فيها ذلك الحبر الخبير
ولا بن نصير لم يكن ذلك النصر
كما حل عند التم بالهالة البدر

فوقعت هذه القصيدة من الخليفة أجهل موقع ، وأثنى على ناظمها الفتى ،
وهناً به والده عبد الملك . وحظى أبو جعفر هذا فيما بعد لدى السيد أبي سعيد والى
غرناطة ، فاستوزره حيناً إلى أن فسد ما بينهما ، بسبب تنافسهما في حب الشاعرة
الأندلسية الحميلة حفصة بنت الحاج الركوني ، فقبض عليه ، واتهم بالاشترك
في فتنة ابن مردنيش ، وأعدم وذلك في سنة ٥٥٩ هـ (٣) .

ولبت عبد المؤمن في جبل طارق زهاء شهرين ، وسماه « جبل الفتح »
حسباً تقدم ، واستمرت إقامة الوفود والاحتفال بها ، وغمرها بالضيافات وقضاء

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها في المعجب للمراكشي ص ١١٩ - ١٢٢ ، وفي أعمال الأعلام
لابن الخطيب ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

(٢) وهو أحد مؤلفي كتاب « المغرب » الشهير الذي تعاقب في تأليفه بنوسعيد ، واختتم
تصنيفه ابن أخيه موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد . وقلعة يحصب أو قلعة بني سعيد هي اليوم القرية
المسماة القلعة الملكية Alcalá la Real الواقعة شمال غرناطة .

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٣ و ٢٢٥ و ٢٢٦ .

الحوائج ، عشرين يوماً ، حتى ختام عيد الأضحى لسنة ٥٥٥ هـ ، وعندئذ أذن للوفود بالانصراف ، فانصرف الناس إلى مواطنهم . وكان عبد المؤمن خلال ذلك يدرس شئون الأندلس مع الأشياخ والقادة ، وينظر في المظالم ويقضى فيها ، ويبذل مختلف الوفود وعوده ببذل كل معونة لحماية الأندلس ومجاهدة أعدائها ، وقد خصص لإنجادها بالغعل جيشاً مختلطاً من الموحدين والأندلسيين قوامه ثمانية عشرة ألف فارس ، وجعل على قيادة الموحدين ابن الشرقي وعلى قيادة الأندلسيين ابن صناديد^(١) ، وأعاد تعيين ولده السيد أبي يعقوب والياً لإشبيلية ، وندب لمعاونته جماعة من أشياخ الموحدين ذوي المكانة والرأى ، وولده السيد أبي سعيد والياً لغرناطة ، وندب لولاية قرطبة الشيخ أبا حفص عمر اينتى ، وأومر ابن يحيى الهنتاني^(٢) . ولما فرغ من تنظيم شئون الأندلس على هذا النحو ، عبر البحر إلى سبتة ، عائداً إلى المغرب ، وذلك في فاتحة سنة ٥٥٦ هـ (فبراير سنة ١١٦١ م) وسار توطاً إلى حاضرتة مراکش . وكانت هذه الفترة القصيرة التي قضاهها عبد المؤمن في جبل طارق ، أو جبل الفتح ، من مواسم الأندلس وأيامها المشهودة ، بما تخللها من روعة السلطان ، وعظائم الأمور .

على أثر مغادرة الخليفة لجبل طارق ، عائداً إلى المغرب ، غادره السيد أبو سعيد إلى غرناطة ، والسيد أبو يعقوب إلى إشبيلية .

وكان الموقف ما يزال في منطقة إشبيلية على خطورته ، وأهل قرمونة على تمردهم بزعامة عبد الله بن شراحيل ، ومخالفتهم لابن همشك ، ومحاصرتهم للحامية الموحدية بقصبتها ، فجهز السيد أبو يعقوب لمحاربتهم حملة من الموحدين بقيادة الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي . وسار الموحدون بقيادة ابن أبي حفص من قلعة جابر شمالاً إلى قرمونة ، ومعه أبو العلاء بن عزون في قوة من الحند الأندلسيين ، و ضربوا الحصار حول قرمونة . وكان ابراهيم بن همشك ، خلال ذلك قد غادر قرمونة إلى جيان ولم يعبأ بأمرها . وضيق الموحدون على قرمونة ، وأرهقوها بالغارات المتوالية ، حتى استطاعوا التفاهم سرّاً مع رجل من أهلها ، على أن يفتح لهم باب البرج الأكبر ، فتم ذلك ، ودخل الموحدون

(١) الحلل الموشية ص ١١٨ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ٤٦ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٢٤ .

قرمونة بغنة ، وذلك في المحرم سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر سنة ١١٥١ م) (١) ، وقبض على عبد الله بن شراحيل ، وأخذ مكبولاً إلى إشبيلية مع نفر من أتباعه ، وصلبوا هنالك في الميدان العام تحت قصر ابن عياد .

وهكذا عادت قرمونة إلى سلطان الموحدين بعد أن اثبت على خروجها نحو عامين منذ اقتحمها ابن همشك في ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ .

وفي نفس الوقت وصل إلى إشبيلية ، جيش موحدى جديد ، بقيادة يوسف ابن سليمان ، فاطمأنت الخواطر ، وساد الهدوء في إشبيلية ومنطقة الغرب كلها ، وسارت منه قوة تحمل العتاد والأقوات إلى قرطبة لشد أزرها ، وتقوية وسائل دفاعها (٢) .

وكان ابراهيم بن همشك ، حينما شعر بأن الجبهة الموحدية في إشبيلية وقرطبة ، قد عززت ، وأضحى من العسير مهاجمتها ، قد اتجه وجهة أخرى ودبر خطة لمهاجمة غرناطة ، وقد كانت أقرب إلى قواعده في جيان وهي التي عينه صهره ابن مردنيش لولايتها . ومن جهة أخرى فقد استطاع ابن همشك ، أن يتفاهم سراً مع جماعة من يهود غرناطة ، الذين أسلموا رغم إرادتهم ، ومع حليفهم المسمى ابن دهرى ، وأن يتفق معهم على أن يسهلوا له دخول المدينة في ليلة معينة . وكانت غرناطة في الواقع دون دفاع قوى ، وقد غادرها واليها السيد أبو سعيد إلى المغرب حسبما تقدم ، ولم تبق بها سوى الحامية الموحدية . فسار إليها ابن همشك في بعض قواته ، وفي ليلة من ليالي جمادى الأولى سنة ٥٥٥ هـ ، تمت الخيانة المدبرة ، وكسر اليهود بإيعاز ابن دهرى ، باب الربض بغرناطة ، وتنادوا بالصياح « يا للأصحاب » ، فدخل ابن همشك وأصحابه المدينة ، وفر أنصار الموحدين إلى القصبة ، وكانت تموج بمن بها من جنود الموحدين . ولما رأى ابن همشك حصانة القصبة ، وقوة الحامية الموحدية ، بعث إلى صهره محمد بن سعد ابن مردنيش ، وكان عندئذ بمرسية ، يطلب إليه الإنجاد ويطمعه في أخذ غرناطة ، فحشد ابن مردنيش قوة من جنده ، وانضمت إليهم فرقة من الحند النصراني بقيادة ألبار ردريجس الأصلع أو الأقرع حسبما تسميه الرواية العربية ، وهو حفيد القائد

(١) أخذنا في تاريخ استرداد قرمونة برواية صاحب البيان المغرب (القسم الثالث ص ٤٦) .
ويضع ابن صاحب الصلاة تاريخ أخذها في أوائل سنة ٥٥٦ هـ ، وهو لا يتفق مع منطلق الحوادث حيث طال حصار قرمونة نحو عام .

(٢) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة - المخطوط - لوحة ٢٤ ا و ب .

الشهير أبارهانيس . وسار هذا الجيش إلى غرناطة لإمداد ابن همشك . وكان ابن همشك قد نزل بالقلعة الحمراء القائمة فوق تل السبيكة في مواجهة القصبية ، وشرع في منازلها ، وضربها بالمخانيق . وكان ابن همشك جباراً قاسياً ، فظاً غليظاً في حربه ، فكان يعذب من يقع في يده من الموحدين بأروع نكال ، ويلقيهم في أفواه المخانيق ، ويقذفهم من الشواهدق ، ويحرقهم بالنار ، ولكن الموحدين صمدوا بالقصبية ، وكانت لديهم مؤن وافرة ، وبعثوا إلى الخليفة في طلب الإنجاد ، وكذلك إلى الموحدين في إشبيلية . وكان الخليفة عبد المؤمن ، قد خرج كعادته من مراکش إلى سلا ، لتنظيم شؤون الجهاد ، فبلغته حوادث غرناطة ، وهو في طريقه ، فلما وصل إلى سلا بعث ولده السيد أبا سعيد فيمن معه على جناح السرعة ، وعبر السيد البحر إلى مالقة ، وبعث منها يستدعى الشيخ أبا محمد بن عبد الله ابن أبي حفص القائم على ولاية إشبيلية ليوافيه عند غرناطة ، بجيش إشبيلية . واجتمعت القوات الموحدية ، في فحص غرناطة^(١) وتقدمت حتى الموضع المسمى « بمرج الرقاد » على قيد أربعة أميال من غرناطة^(٢) ، وعندئذ خرج لقاتلها ابن همشك في قواته وقوات مرسية من الأندلسيين والنصارى ، وكانت تبلغ ألفي فارس . وليس في رواية ابن صاحب الصلاة ما يدل على أن ابن مردنيش قد اشترك في الموقعة التي تلت ، ولكن ابن الخطيب يقول لنا إن ابن مردنيش قد مثل بنفسه في الموقعة ، وكانت محلته قائمة فوق الربوة العالية المتصلة بربض البيازين ، وهي التي عرفت فيما بعد بكدية ابن مردنيش^(٣) . واضطرم القتال في الحال بين الفريقين ، وسرعان ما ظهر تفوق ابن همشك وحالفائه النصارى ، فاختل نظام القوات الموحدية ودارت عليها الدائرة ، وكثر القتل فيهم ، وغرق منهم في سواقي المرج ومياهه عدد جم ، وكان بين القتلى الشيخ أبو محمد عبد الله ابن أبي حفص والى إشبيلية ، وعدة من أشياخ الموحدين ، وأكابر الأندلسيين . وفر السيد أبو سعيد في نفر من صحبه إلى مالقة . وكانت نكبة موحدية بالغة الخطورة . وارتد ابن همشك في قواته المظفرة إلى القلعة الحمراء ، ومعه جملة من أسرى الموحدين أفحش في تعذيبهم ، والتنكيل بهم ، وازهاقهم بمرأى

(١) وهو المرج أو مرج غرناطة الشهير La Vega .

(٢) كان هذا الاسم يطلق على موضع يقع على بضعة كيلومترات من قرية الطرف Atarfe في

سفح جبل البيرة على مقربة من نهر شنيل ويطلق عليه اليوم اسم Majorrocal

(٣) الإحاطة ج ٢ ص ٨٩ .

من إخوانهم المحصورين ، وقد استمروا على حالم من الاعتصام بالقصبة .
ووصلت أنباء هذه النكبة إلى عبد المؤمن ، وهو ما يزال بسلا ، وكانت
الجيوش قد توافدت عليه في تلك الأثناء ، فجهز جيشاً منتخباً من أنجاد الفرسان
والخند ، يضم زهاء عشرين ألف مقاتل ، وجمهرة من أشياخ الموحدين^(١)
تحت إمرة ولده السيد أبي يعقوب يوسف ، ومعه الشيخ أبو يعقوب يوسف
ابن سليمان ، زعيم أشياخ الموحدين ، ومستشار عبد المؤمن الأثير في العظام
والخطوب ، وهو الذي يصفه ابن الخطيب « بزعم وقته وداهية زمانه » . وعبر
هذا الجيش الموحدى البحر إلى الجزيرة الخضراء ، ثم سار إلى مالقة حيث انضم
إليه السيد أبو سعيد فيمن معه ، وزود بالعلوفات والمؤن الكافية ، وخرج
الموحدون بعد ذلك من مالقة ، وساروا إلى غرناطة . وكان ابن مردنيش قد وقف
على تلك الأهبة الموحدية الضخمة ، فسار في قواته ، ومعه فرقة من حلفائه
النصارى لإنجاد صهره ابن همشك ، ونزل فوق الجبل المتصل بقصبة غرناطة
على الضفة الأخرى لنهر حدره ، وبقي ابن همشك بقواته بالقصبة الحمراء فوق
جبل السبيكة ، ومعه حلفاؤه النصارى تحت إمرة قائدهم ألبار ردريجس الأصلع
حفيد ألبار هانيس ، ومعه ابن كونت أورقلة (أرخل) وهم يبلغون نحو ثمانية
آلاف مقاتل ، وكان نهر حدره يفصل بين محلة ابن همشك ومحلة صهره
ابن مردنيش . واستمر الموحدون في سيرهم حتى وصلوا إلى قرية دالر على مقربة
من غرناطة ، ثم صعدوا إلى الجبل المطل على وادى شنيل ، قبالة جبل السبيكة
والحمراء . وفي يوم الخميس السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٥٧ هـ
(١٢ يولييه سنة ١١٦٢ م) جمع يوسف بن سليمان قائد الجيش الموحدى أشياخ
الموحدين ، وأشياخ الأجناد ، من مختلف القبائل ، ووعظهم وذكرهم بأن اللجنة
مشوى المجاهدين . وحثهم على التفانى في سبيل الله . وفي مساء هذا اليوم ركب
الموحدون خيولهم ، وساروا فوق الجبل وأمامهم المشاة والطلائع من المصامدة ،
وعلى ناصية ضفة شنيل المحاذية للسبيكة ، وكانت ليلة منيرة صافية الأديم ، وعند
الفجر وصلوا إلى مقربة من محلات ابن همشك وحلفائه النصارى فوق جبل
السبيكة ، وفي الحال انقض الموحدون على أعدائهم على غرة ، قبل أن يتم
استعدادهم ، بل وقبل أن يركب معظمهم خيولهم ، واضطربت بين الفريقين

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦ .

موقعة عنيفة هائلة ، وأبلى الموحدون في قتال ابن همشك وحلفائه النصارى أعظم البلاء ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة ، ولم يأت الصباح ، حتى مزق الموحدون أعداءهم تمزيقاً وشتتوا في كل ناحية ، وقتل معظم قادتهم ، وفي مقدمتهم ألبار ردريجس الأصلع وزميله ولد كونت أورقلة ، ورفعت رأس الأصلع بعد أيام بمدينة قرطبة على باب القنطرة ، وقتل كذلك معظم القادة الأندلسيين ، ومنهم ابن عبيد صهر ابن مردنيش . وكان مما حز في نفس ابن مردنيش ، وانفطر له فؤاده ، أنه لم يستطع ، وهو بقواته على الضفة الأخرى من نهر حدره ، أن يبادر لإيجاد صهره ابن همشك ، فلبث يرقب تمزيق قواته جامداً ، حتى تم الظفر للموحدين ، وتمت الهزيمة الساحقة على ابن همشك . وتعرف هذه الموقعة بموقعة السيكة . ودخل الموحدون غرناطة ظافرين ، في ظهر ذلك اليوم - يوم الجمعة الثامن والعشرين من رجب سنة ٥٥٧ (١٣ يولييه ١١٦٢ م) ، وخرج الموحدون المحصورون من القصبة ، وقتلوا سائر خصومهم والمتحالفين مع أعدائهم من أهل غرناطة ، وارتد ابن مردنيش وابن همشك كل بقواته ، وسار الأول صوب مرسية ، وسار الثاني في فلوله صوب جيان ، والموحدون في أثره . وكان من أثر هذا النصر الموحدي ، أن سارعت سائر النواحي في منطقة غرناطة ، إلى إعلان الطاعة والتوحيد . وعنى السيد أبو يعقوب يوسف والقائد يوسف بن سليمان بالنظر في شئون غرناطة ، وإصلاح قصبتها وأسوارها ، وإثابة من كان بها من الموحدين المحصورين والإنعام عليهم . واستقرت الأمور بها ، وسادتها السكينة والهدوء (١) .

وسار الموحدون في أثر ابن همشك إلى قاعدته جيان ، ولكنه لم يقف بها ، بل ترك أمر الدفاع عنها إلى وزيره أبي جعفر الوقشي ، فامتنع بها ، وحاصرها الموحدون حيناً دون جدوى ، وعاثوا فيما حولها من الأراضي ، وانتسفوا زروعها ، ودمروا قراها ، حتى أصبحت خراباً مطلقاً ، ثم غادروها عائدين إلى قواعدهم (٢) وبعث السيد أبو يعقوب يوسف ، والقائد ابن سليمان بأنباء النصر يوم الواقعة ، الى الخليفة عبد المؤمن ، وكان ما يزال برباط الفتح قبالة سلا ،

(١) نقلنا تفاصيل هذه الموقعة الكبيرة عن ابن صاحب الصلاة في كتاب « المن بالإمامة » اللوحات ٢٩ إلى ٣٢ . ويراجع ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، وج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٢ و ٥٣ ، وهو يلخص أقوال ابن صاحب الصلاة .

(٢) ابن الأبار في الحلة السراء ص ٢٣٠ .

فسر بها أيما سرور ، وصدرت أوامره فيما يتعلق بشئون الأندلس بتحقيق أمرين ، الأول أن يجعل من غرناطة وقصبتها مركز دفاع قوى ، وأن تشحن بالعتاد والأقوات ، والثانى أن ينقل مركز الحكم الموحدى بالأندلس من إشبيلية إلى قرطبة ، وأرسلت لتحقيق الأمر الأول ، من شواطئ العدو إلى ثغر المنكب عدة سفن ، مشحونة بالأقوات والسلاح ، ونقلت حمولتها إلى غرناطة ، وزودت قصبتها من ذلك بكميات كبيرة ، وندب لتنظيم شئون الدفاع عن المدينة إلى جانب الموحدين ، عدة من الزعماء الأندلسيين الموثوق بهم من أهلها ، وكان القصد من ذلك أن تغدو غرناطة مركز الدفاع الرئيسى فى جنوبى الأندلس ، أو تغدو « سنام » الأندلس حسبما يقول ابن صاحب الصلاة .

وأما فيما يتعلق بنقل مركز الحكم إلى قرطبة ، فقد بعث عبد المؤمن إلى ولده السيد أبى يعقوب يوسف ، والشيخ أبى يعقوب سليمان « الأمر العزيز » باستيطان قرطبة ، وأن تكون مقر الأمير ، ومقر الحكم بالأندلس ، إذ هى « مؤسّطة الأندلس » كما تغدو مستقر الجيوش الموحدية . ووصل بهذا الأمر أبو اسحق برّاز بن محمد اللمتونى . وعلى أثر ذلك سار السيدان أبو يعقوب يوسف ، وأبو سعيد ، ولدا الخليفة ، ومعهما القائد يوسف بن سليمان ، إلى قرطبة فوصلوا إليها فى الخامس عشر من شهر شوال سنة ٥٥٧ هـ ، وخرج أهل قرطبة لاستقبالهم فى جموع حاشدة حافلة ، واستدعى إليها من إشبيلية عدة من أشياخها وأعيانها وكتابها ، ومنهم أبو القاسم بن عساكر ، وأبوبكر الخطار ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة ، أنه كان من بين أولئك الكتاب المدعويين إلى العمل . وطُلب كذلك أن تُنقل من إشبيلية إلى قرطبة سائر الدواوين والأموال ، التى جمعت من القواعد المنزوعة من الثوار . وهكذا غدت قرطبة ، بعد إشبيلية قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس ، واستردت قرطبة بذلك رياستها وأهميتها وحيويتها القديمة ، ورتبت بها الإدارات ، واستعمل الكتاب والأشياخ فى مختلف الأعمال ، واختار أبو اسحق لحكم إشبيلية بعض أصحابه ، وقام هو على النظر فى شئون المخازن (الشئون المالية) فى قرطبة وسائر البلاد الخاضعة للموحدين ، ولم يزل قائماً بهذه المهمة حتى توفى فى سنة ٥٥٩ هـ (١) .

واستقر السيدان أبو يعقوب وأبو سعيد حيناً بقرطبة ، ومعهما القائد الشيخ

(١) ابن صاحب الصلاة فى كتاب المن بالإمامة لوحة ٣٣ و ٣٤ .

أبو يعقوب . وقامت هذه الحكومة الجديدة لعاصمة الخلافة القديمة ، بتنظيم شئونها المختلفة ، وتعمير قصورها ودورها المهتمة ، وإصلاح حصونها وأسوارها ، وتأمين أهلها ، فساد الهدوء والطمأنينة في أرجائها ، بعد أن لبثت أعواماً طويلة ، مسرحاً للفتن المخربة ، والفورات المزعجة ، وعاد إليها الكثير من أهلها الذين غادروها ، مستبشرين بالعهد الجديد . ثم انصرف الشيخ أبو يعقوب عائداً إلى العدو ، واستمر السيدان من بعده فترة يسيرة ، حتى فاتحة الحرم من سنة ٥٥٥٨ هـ ، وعندئذ وردت دعوة الخليفة إلى ولده السيد أبي يعقوب يوسف بالمثل إلى حضرته ، فبادر بالسير إلى إشبيلية ، ولم يبق بها سوى أيام قلائل ، ثم غادرها إلى العدو ، ولحق بأبيه الخليفة ، وبقى السيد أبو سعيد بقرطبة ، قائماً على شئونها ، متعهداً لمصالحها ، وأضيف إليه النظر على إشبيلية ، وكان يعاونه القائد القدير أبو إسحق براز ابن محمد المسوفي ، وندب للنيابة على إشبيلية أبو داود بلول ابن جلداسن ، وتولى شئون المخزن بها محمد بن المعلم ، واستمر الأمر على ذلك فترة يسيرة أخرى .

في خلال ذلك كانت حوادث المغرب تنذر بتطورات خطيرة . وكان عبد المؤمن حينما تلقى نبأ انتصار الموحدين في موقعة السيكة ، وهو بعدو سلا (الرباط) قد اعزم أن يعد العدة لاستئناف الجهاد بالأندلس ، في البر والبحر على أوسع نطاق ممكن ، فأمر بكتب الكتب إلى سائر الجهات والقبائل ، لاستنفار الناس ، وحثهم على الجهاد في سبيل الله ، وأمر بإنشاء الأساطيل (القطائع) ، فأُنشئ منها مائتا قطعة ، وقيل أربعائة ، أعد منها في مرسى المعمورة على شاطئ وادي سبو ، شمالي ثغر سلا ، مائة وعشرون قطعة ، وأعد الباقي في مختلف ثغور العدو والأندلس ، وأمر بإعداد الوفير من العتاد والمؤن والعلوفات ، وكان قد أعد منها خلال سنة ٥٥٧ هـ ، أكداًس هائلة في وادي سبو ، في حمى الجبال المشرفة عليه ، وجلبت الخيل من سائر أنحاء إفريقية والمغرب ، وجلبت كذلك مقادير وفيرة من السهام والرماح الطوال ، والدروع ، والبيضات ، والتروس ، والبنود ، والكسي ، ووزع ذلك كله على طوائف الموحدين والعرب الموالين من سائر القبائل^(١) ، وأذكى هذا العزم على الجهاد في الأندلس ، وأكدته ما وقع

(١) ابن صاحب الصلاة في كتاب المن بالإمامة لوحة ٣٩ والمراكشي في المعجب ص ١٣١ .

في أواخر سنة ٥٥٧ ، من غزو نصارى مدينة شنترين بالبرتغال لمدينة باجة ، واستباحتها ، واحتلالها في ٢٢ شهر ذى الحجة هذا العام (أول ديسمبر ١١٦٢ م) ، ومكثهم بها نحو أربعة أشهر ، قبل أن يغادروها ، بعد أن دمروا ربوعها ، وخرّبوا أسوارها (١) .

وأقام عبد المؤمن بمراكش فترة يسيرة ، حتى أول عام سنة ٥٥٨ هـ ، وهو يتابع بعناية تلك الاستعدادات الضخمة للجهاد في الأندلس . ثم خرج من حضرته ليزور قبر المهدي في تينمائل ، وكان الفصل شتاء ، والبرد قارساً ، والأمطار والثلوج تنهمر بشدة ، حتى غمرت سائر السهول والربى ، ومع ذلك فقد شق الخليفة طريقة إلى تينمائل بعزم ، وجاز المياه والثلوج الغامرة ، ولم يبال بما أصابه من البلل ، وتبعه أشياخ الموحدين بصعوبة ، ثم أدى زيارته الماثورة لقبر المهدي ، وعاد إلى حضرته ، ليستأنف الاستعداد للجهاد .

وفي اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٥٥٨ هـ (١٩ فبراير سنة ١١٦٣ م) خرج عبد المؤمن من مراكش ، وسار إلى رباط الفتح ، تتقدمه الجيوش الموحدية الحرارة ، في تودة وهوادة ، فلما وصل إلى رباط الفتح ، كانت البقاع المجاورة فيما بين سلا والمعمورة ، قد ضاقت بهذه الجيوش الضخمة التي يقدرها المؤرخ المعاصر بأكثر من مائة ألف فارس ، ومائة ألف راجل (٢) . وتقدرها بعض الروايات الأخرى بأكثر من ثلاثمائة ألف فارس ، من الموحدين والمرترقة العرب والبربر . ومن المتطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل (٣) ، وزعت عليهم جميعاً الأعطية والصلوات السخية . وما كاد الخليفة يستقر في محلته ، حتى استدعى إليه سائر القادة والأشياخ من الموحدين والعرب ، وأهل الرأي ، وعقد مجلساً حربياً عاماً ، ليبحث خير الوسائل لتنفيذ الغزوة الأندلسية الكبرى وتوجيهها ، سواء في البر أو البحر ، وكان من بين الحاضرين أبو محمد سيدراى بن وزير ، فشرح للخليفة أحوال الأندلس وما يحسن أن يعمله ، واقترح ابن وزير ووافقه الأشياخ ، أن تقسم الحملة الكبرى إلى أربعة جيوش ، يسير أولها إلى البرتغال لمقاتلة ابن الرنك صاحب قلمرية (ألفونسو هنريكز) ، والثاني يسير إلى مملكة ليون ، وملكها

(١) كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة في كتاب المن بالإمامة لوحة ٤١ .

(٣) الاستقصاء ج ١ ص ١٥٨ .

يومئذ فرناندو الثاني ولد القيصر ألفونسو ريمونديس ، وهو الذي تعرفه الرواية العربية « بالبيوج » ، والثالث يسير إلى قشتالة ، وملكها يومئذ ألفونسو الثامن طفل تحت الوصاية ، والرابع يسير صوب مملكة أراجون وبرشاونة ، وملكها يومئذ ألفونسو الثاني . واستحسن الخليفة اقتراح ابن وزير ووافق عليه .

ولم تمض أيام قلائل على ذلك حتى مرض عبد المؤمن مرضه الذي لم يبرأ منه . ولم توضح لنا الرواية نوع هذا المرض الذي حمل الخليفة إلى القبر ، والذي يقتصر ابن صاحب الصلاة على وصفه ، « بالوجع » ، بيد أنه لبث يشتد ويتفاقم ، حتى كان يوم الجمعة الثاني من جمادى الآخرة ، وقد شعر الخليفة بدنو أجله ، فأمر بإسقاط اسم ولده وولى عهده محمد من الخطبة ، وكان هذا القرار يخفى مأساة عائلية ، كان الخليفة يود أن يتلافى آثارها قبل موته . وذلك أنه نوى إليه أن محمداً يشرب الخمر ، ويبدو مخموراً أمام الأشياخ والقادة في هيئة زرية ، ويرتكب أموراً طائشة مخلة بالكرامة ، وأنه يغلب عليه الخور وجبن النفس ، وقيل أيضاً إنه كان مصاباً بالحدام (١) . ومن ثم فقد رأى أنه لا يصلح للخلافة ، وأنه يجب تنحيته وإبعاده ، ودعا الأشياخ إلى سريره ، وأخطرهم بتنحية ولده محمد وتولية يوسف ، باعتباره أصح من يتولى الخلافة ، وأوصاهم بتنفيذ إرادته ومبايعته ، ولاسيما الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني عميد الأشياخ ، واستوثق من ولده أبي حفص بتقديم شقيقه الأصغر يوسف ، وكان أبو حفص يتولى الوزارة والحجابة لأبيه حسبما تقدم ذكره . وفي الأيام القلائل التالية تفاقم مرض الخليفة واشتد به الألم ، وفي فجر يوم الثلاثاء الثامن من جمادى الثانية - وفقاً لرواية السيدق - توفي الخليفة عبد المؤمن بن علي . بيد أنه إذا أخذنا بهذه الرواية فلا بد أن الوفاة كانت في فجر اليوم السادس وهو الموافق ليوم الثلاثاء ، حيث كان اليوم الثاني من جمادى الآخرة يوافق يوم الجمعة ، وهو اليوم الذي أسقط فيه اسم محمد من الخطبة . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة إن عبد المؤمن توفي ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣ م) ، وهي رواية تبدو أرجح لانطباقها مع تسلسل الأيام والتواريخ (٢) . وكانت وفاته بمحلته في سلا ، وكان عند وفاته في الثالثة والستين من عمره ، وقيل في الرابعة والستين ، وكانت

(١) المراكشي في المعجب ص ١٣١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٢) كتاب المن بالإمامة لوحة ١٤٥ .

ولايته ، منذ وفاة المهدي في ٢٥ رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، ثلاث وثلاثون سنة ،
 وخمسة أشهر ، وثلاثة وعشرون يوماً^(١) .

ولما توفي عبد المؤمن كتمت وفاته وقتاً ، واستأثر ولده السيد أبو حفص
بتدبير الأمور ، وبادر إلى تنفيذ وصية أبيه في عقد البيعة بالخلافة لأخيه يوسف ،
 وكان قد قدم من قرطبة ، استجابة لدعوة أبيه ، وبقي إلى جانبه حتى توفي .
 والظاهر أن عبد المؤمن ، كان عندئذ قد قرر أمره نحو مسألة الخلافة ، وترشيح
 ولده يوسف لها ، واستدعاه لهذا الغرض وأبلغ السيد أبو حفص ، والشيخ
 أبو حفص الهنتاني وصية الخليفة الراحل لأشياخ الموحدين ، فأقروها جميعاً ،
 وبايعوا للسيد أبي يعقوب يوسف بالخلافة . ويقول لنا البيذق إن بيعة الخليفة
 الحديد ، تمت في مدى يومين ، في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ
 وارتضى أبو عبد الله محمد ما تقرر من أمر خلعه ، وبايع لأخيه راضياً ، وتمت
 هذه البيعة في سلا في محلة الخليفة الراحل ، ونفذ الأمر إلى الجيوش المحتشدة ،
 بالانصراف إلى بلادها ، في انتظار أوامر تصدر في فرصة أخرى . وتولى الشيخ
 أبو حفص عمر الهنتاني وعظ الموحدين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، وذكرهم
 بما يجب عليهم من اتباع أوامر دينهم ، واكتمال ولائهم وطاعتهم واشتغالهم
 بأمورهم عن الأحاديث العقيمة والحزبيلات . ولما تمت البيعة حسبما تقدم ، سار
 الخليفة الحديد مع أشياخ الموحدين إلى مراکش ، ونزل في دار الخلافة ، وتولى
 أخوه السيد أبو حفص الأمور السلطانية والحجابة على نحو ما كان مع أبيه ،
 وعن رضى من أخيه الخليفة الحديد . وحمل جثمان الخليفة الراحل إلى تينمائل ،
 في يوم الجمعة أول شعبان ، حيث دفن إلى جانب أستاذه وأمامه المهدي ، وفقاً
 لوصيته^(٢) .

تلك هي الرواية الراجحة في شأن تولية السيد أبي يعقوب يوسف للخلافة .

(١) ينقل صاحب روض القرطاس عن تاريخ وفاة عبد المؤمن ، روايتي البيذق وابن صاحب
 الصلاة (الثامن من جمادى الآخرة والعاشر منه) ، ويضعها ابن الأثير في العشرين من جمادى الآخرة
 سنة ٥٥٨ هـ (ج ١١ ص ١٠٩) . ويضعها ابن خلكان في العشر الأخيرة من جمادى الآخرة (ج ١
 ص ٣٩١) ، ويضعها المراكشي في السابع والعشرين من جمادى الآخرة (المعجب ص ١٣١) .
 ويضعها الزركشي في ليلة العاشر من جمادى الآخرة متفقاً مع ابن صاحب الصلاة . تاريخ الدولتين ص ٢٩ .
 (٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٣ ، وابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ٤٥
 والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٨ و ٥٩ .

وهي الرواية الموحدية التي يقول بها مؤرخا الموحدين المعاصران ، البيذق ، وابن صاحب الصلاة . بيد أن هناك رواية أخرى ، يقدمها إلينا ابن الأثير ، وهي أنه لما توفي عبد المؤمن بسلا ، كتبت وفاته ، وحمل من سلا إلى مراکش فوق محفة ، وكأنه مريض ، ولما وصل إلى مراکش استبد ابنه أبو حفص بشئون الحجابة ، وكان يصدر أوامره باسم أبيه ، ويقول للناس أمير المؤمنين أمر بكذا ، واستمر على ذلك حتى كملت البيعة لأخيه يوسف ، في سائر البلاد والنواحي ، واستقرت الأمور ، وعندئذ أظهر موت أبيه^(١) . وينقل إلينا ابن خلكان رواية أخرى ، ينفرد بها في شأن محمد وأخيه يوسف فيقول إنه لما توفي عبد المؤمن خلفه ولده محمد ، وتولى الأمر مدة خمسة وأربعين يوماً حتى شعبان سنة ٥٥٨ هـ ، ولكن سرعان ما اضطربت الأمور ، وظهر منه من اختلال الرأي ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ، ما أدى إلى خلعه ، وكان الذي سعى في خلعه أخواه أبو حفص عمر ويوسف . ولما تم خلعه ، انحصر الأمر بين أخويه المذكورين ، فتأخر عمر ، وسلم الأمر إلى أخيه يوسف فبايعه الناس ، واتفقت عليه الكلمة^(٢) . وينقل إلينا المراكشي هذه الرواية في المعجب^(٣) . بيد أنه يبدو ، إزاء ما توّكده لنا الرواية الموحدية المعاصرة ، أنها رواية ضعيفة لاسند لها .

كان الخليفة عبد المؤمن بن علي ، عبقرية فذة ، تنطوى على طائفة من أبداع الحلال التي تصاغ منها العظمة والبطولة ، وقد شادت هذه العبقرية دولة من أعظم الدول الإسلامية ، تمتد من أواسط شبه الجزيرة الإسبانية شمالاً حتى مشارف الصحراء الإفريقية الكبرى جنوباً ، ومن طرابلس الغرب شرقاً حتى شواطئ المحيط الأطلنطي غرباً ، وشادتها في ظروف صعبة ، وفي غمر الكفاح المضني ، من إمارات وقبائل بربرية متنازعة مفترقة الكلمة ، لم تعرف خلال حياتها الطويلة معنى للنظام والاتحاد ، ولم تأنس لأي نوع من الخضوع والطاعة ،

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ . ويقول لنا ابن خلكان إنه نقل هذه الرواية من كتاب بخط العماد بن جبريل أخى المعلم المصرى ناظر بيت المال بالديار المصرية ، فيه فوائد من أخبار المغاربة وغيرهم .

(٣) المعجب ص ١٣١ .

فصاغ عبد المؤمن بعزمه ، وقوة نفسه ، وبراعته العسكرية والسياسية ، من هذه العناصر المضطربة الحصيمة ، كتلة متناسقة متعاونة متحدة ، وأنشأ منها ، الدولة الموحدية الكبرى ، أعظم الدول المغربية إطلاقاً ، واستطاع أن يجعل من الدعوة المهدية أو الدعوة الموحدية ، ناموساً دينياً ، ودستوراً نظامياً ، تقوم عليه وتستمد منه ، مقوماتها السياسية والعسكرية .

وقد رأينا أن عبد المؤمن ، نشأ طالب علم متواضع ، تجتمع آماله حول التقدم في هذا المضمار ، والتقى بالمهدي ابن تومرت ، في بداية أمره ، وقبل أن تلوح لدعوته وتعاليمه أية بارقة أمل ، في التقدم أو الرسوخ . ومع ذلك فقد ثبت إلى جانبه وشاطرته كل آلامه ومحنه ، وكل آماله ومشاريعه ، وغدا ساعده الأيمن في كفاحه . وكان هذا الاختصاص بالمهدي وإيثار المهدي لتلميذه الوفي ، من أهم العوامل ، التي مهدت لعبد المؤمن ، عند وفاة أستاذه وإمامه ، سبيل الاحتواء على تراثه ونخلافته . ولم تخب فراسة المهدي في تلميذه ، حينما قال لصحبه وهو في مرض موته عقب هزيمة البحيرة الساحقة ، إنه مادام عبد المؤمن قد سلم ، فسوف يبقى أمرهم . وقد شاء القدر أن يقوم عبد المؤمن بالمهمة الكبرى ، مهمة سحق الدولة المرابطية ، وإنشاء الدولة الموحدية الكبرى على أنقاضها ، وأنقاض الإمارات الإفريقية . وقد استمرت الدولة الموحدية حيناً ، تحتفظ بطابعها الروحي ، وأساسها الديني ، حتى عمده عبد المؤمن بعد أن تضخم ملكه ، وتوطد سلطانه ونفوذه ، بين سائر الطوائف والقبائل ، إلى إنشاء السلطة الزمنية الوراثة ، بتعيين ولده لولاية العهد . وكانت هذه الخطوة أعظم تطور حدث في طبيعة الدولة الموحدية ، التي تغدو من ذلك الحين ، خلافة زمنية سياسية ، ويتضاءل أساسها الروحي . ويمكننا أن نعتبر الخلافة الموحدية المؤمنية ، أعظم خلافة قامت في الغرب الإسلامي ، وإن كانت خلافة قرطبة الأموية تتفوق عليها بنحوها التمدنية والحضارية ، وأن نعتبر عبد المؤمن أعظم خلفاء الغرب الإسلامي ، وإن كان عبد الرحمن الناصر يتفوق عليه بنحوه المصقولة وخلالاله الإنسانية ، بل نستطيع أن نعتبر أن عظمة الدولة الموحدية الكبرى تنحصر في عصر عبد المؤمن ، وولده أبي يعقوب يوسف ، وحفيده أبي يوسف يعقوب المنصور (٥٢٤ - ٥٥٩٥) ، وهي حقبة من سبعين عاماً ، تستنفد الدولة الموحدية فيها كل مصادر قوتها ، وعظمتها .

هذا وربما كان عبد المؤمن بخلاله العلمية ، وحياته العسكرية الحافلة بالغزوات

والفتوحات المظفرة ، أكثر الرؤساء شهماً بالمنصور بن أبي عامر ، فإن هاتين الصفتين هما أبرز ما في حياة كل من هذين الرجلين العظيمين ، وإن كانت غزوات المنصور تتسم قبل كل شيء بطابع الجهاد في سبيل الله .

ولم تحل نشأة عبد المؤمن العلمية دون تحوله في ميدان الحرب ، إلى قائد من أعظم قواد عصره ، وأشدهم فروسة ، وأوفرهم شجاعة ، وإقداماً . كان عبد المؤمن بصيراً بطرائق الحرب ، وأساليب القتال ، وقد أنفق في غزواته وحروبه أكثر من ربع قرن ، ذرع فيها وهاد المغرب وقفاره ، من أقصاه إلى أقصاه ، شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، وخرج مكللاً بغار الظفر في معظم هذه الغزوات والحروب ، ولم يجتمع لملك من ملوك المغرب أو خليفة من خلفائه ، مثل ما اجتمع لعبد المؤمن من الحيوش الحرارة ، التي كانت تضم مئات الألوف من الفرسان والرجالة ، من مختلف القبائل البربرية والعربية ، وكان عبد المؤمن خلال الحروب والغزوات جندياً بمعنى الكلمة ، يشاطر جنده مشاق السير الوعر ، وتقشف حياة الميدان ، وكانت عادته في أسفاره أن يرحل بعد صلاة الصبح ، بعد أن يُضرب طبل ضخم ثلاث ضربات إيداناً بالرحيل ، وكانت حركة الحيوش الموحدية تجرى عندئذ وفق النظام الذي رسمه المهدي لمسيرها ، فيتقدمها اللواء الموحدى الأبيض مع فرقة من الرجالة يكون بينها وبين الأمير نحو ربع ميل ، ثم يسير الأمير أو الخليفة خلف اللواء المذكور تحف به خاصته ووزراؤه ، ثم تتبعهم الرايات الكبار والطبول وجند الساقة ، ثم جند كل قبيل بترتيب خاص (١) . وكان عبد المؤمن في معظم الأحيان يرسم خطط المعارك بنفسه ، وربما قاد جنده ، واشترك معهم في القتال .

وكان عبد المؤمن إلى جانب هذه الصفات العسكرية البارزة ، من أعقل أهل عصره وأوفرهم ذكاء وحكمة ، وكان حازماً سديد الرأي حسن السياسة ، واسع الخيلة ، يعالج الأمور الصعبة بكثير من الفطنة والكياسة .

وكان مما فعله عبد المؤمن لتنظيم أصحاب المهدي وطوائف الموحدين ، بعد تعاقب الحوادث ، وفقد الكثير من أهل الجماعة وأهل خمسين وأهل سبعين ، أن استدعى أشياخ القبائل الموحدية من المصامدة وغيرهم إلى مراکش ، ولما اكتمل دورهم ، أعلن تصنيف الموحدين إلى ثلاث طوائف أو طبقات ، الأولى ،

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ٤٣ ب) .

هم « السابقون الأولون » الذين بايعوا الإمام المهدي وصحبوه وغزوا معه ، وصلوا خلفه ، والذين شاهدوا واقعة البحيرة واشتركوا فيها ، ويتلو هذه الطبقة من آمن بالتوحيد ، ودخل في زمرة الموحدين من بعد البحيرة إلى فتح وهران (سنة ٥٣٩ هـ) ، وتتكون الطبقة الثالثة ممن انتظم في سلك الموحدين من فتح وهران إلى ما هلم جرا ، وقد تم هذا التصنيف الجديد بعد أن روعيت فيه كل الاعتبارات ، من الزلف والقرب والعدالة وغيرها ، لتعرف كل طبقة مكانتها ومركزها (١) .

وقد أسبغ عبد المؤمن سياسته في تأليف القبائل المختلفة ، وإدماجها في الجيش الموحدى الضخم ، على هذا الجيش وحدة وتناسقاً ، لم تعرفها الجيوش المغربية من قبل . بيد أنه لم يكن موفقاً في سياسته لتأليف القبائل العربية ، وضمها للقوات الموحدية . ذلك أن هذه الفرق العربية التي استمرت عصراً تكون جناحاً هاماً في الجيوش الموحدية بالمغرب والأندلس ، كانت متعيرة الولاء كثيرة القلب ، لا تدين بمبدأ ولا عقيدة ، سوى انتهاز الفرص ، والكسب المادى الرخيص ، وكان تقاعسها وتقلبها في حروب إفريقية ، فيما بعد أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف وولده يعقوب المنصور من أهم الأسباب ، في نجاح ثورة بنى غانية في إفريقية ، وتغلبهم على معظم نواحيها ، وفي تحاذل الجيوش الموحدية ، في معظم المعارك التي خاضتها إلى جانبها .

وأما عن نظم الحكم والإدارة ، فقد كان عبد المؤمن ، وهو مؤسس الدولة الموحدية الحقيقى ، أول من وضع القواعد والنظم التي يسترشد بها في تسيير دفة الحكم ، وفي تطبيق السياسة الشرعية ، وفي جباية الأموال . وقد انتهت إلينا في ذلك رسالة هامة من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية ، وجهها الخليفة من تينمائل في السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ ، إلى الطلبة والمشايخ والأعيان والكافة بالأندلس ، وفيها يبسط ما يمكن أن يسمى بالأسس الدستورية لنظم الحكم الموحدى ، ونحن نورد فيما يلي ملخصاً لما احتوته هذه الرسالة الدستورية الهامة ، التي ينفرد ابن القطان بإيرادها .

١ - يقول الخليفة ، إنه اتصل به أن بعض العمال ممن لا يخافون الله ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والإبشار ، ويستحلون حرمة المسلمين ، وينقضون

(١) راجع الرسالة الثانية عشرة من « رسائل موحدية » ص ٥٣ و ٥٤ .

أحكام الشرع ، ويبتدعون مظالم شنيعة ، ويستنبطون من فواحش الآثام صنوفاً فظيعة ، ويتسببون في قتل المسلمين ، فضلاً عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبسات سيئونها ، ويمدون أيديهم بضرب الناس بالسياط وسيلة إلى أخذ أموالهم . وهو ينذر هولاء بشر العقاب ، ويقول ، إن لمن يستوجب الضرب أو يستحقه حدود معلومة ، ومواقف مرسومة ، تقابل كلا بمقتضى جرمه .

٢ - وأنه قد ذكر له في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها ، مظالم وكبائر عظيمة ، ثم يتساءل ألم يقم الأمر العالِي لقطع أسباب الظلم وإجراء العدل .

ومن ذلك ما ذكر في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم ، فإن بعض هولاء الظلمة ، يزعمون لهم أن للمخزن حقوق تمتد إلى جميع ما أتى به ، ثم يضطروه بالوعيد إلى الخروج عن جزء كبير من ماله ، ويسائل الخليفة الموحدين والطلبة ، كيف تقع هذه الأمور ، وهم يرصدون الشئون ، وكيف تسفك الدماء على هذه الصورة ، وتنهك الحرمات ، وهم لا يمتعضون .

٣ - وأنه ليَجول بخاطره ، أن أسباب تلك المنكرات ، هو أن قوماً يتوسطون بينهم وبين الناس ، وينقلون الأمور إليهم بطريق التدليس ، وذلك لبعدهم عن مباشرة الأمور ، ثم ينصحهم بأن لا يتركوا مباشرة الأمور إلى أحد سواهم ، وأنه يجب عليهم أن يباشروا الأحكام مباشرة تعهد وتفقد ، وأنهم في ذلك يجب أن يتذرعوا بالحزم والاعتدال وسلوك الطريق الوسط ، والتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وعليهم أن يبحثوا عن المتسببين في وقوع تلك القبائح ، وأن يعرفوه بأمرهم ليقوم بعقابهم .

٤ - ثم يقول الخليفة : « وقد استخرننا الله في سد تلك الدريرة ، وصد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر ، وتعلمونا بنبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بعمله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولا سبيل لكم إلى قتل أحد من كل من هو في بلاد الموحدين وأنظارهم ، ومن هو معهم داخل في مضارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر في أمر الله تعالى والختل ، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه ، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه ، لينفذ فيه من قبلنا ما يوجب الحق ويقتضيه ، ونمضي في عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه . فإياكم من مخالفة أمرنا

هذا في قتل أحد من ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا إلى إعلاننا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه لنقابله بما نراه ، ونجري الحق فيه مجراه .
٥ - وأنه قد بلغه أن يقع بيع النساء بصورة تخالف حكم الشرع ، وأنه يوجد من يبتاع المرأة ثم يبيعه دون استبراء ، وأنه لا يتحفظ في ذلك من موافقة الزنا المحض ، وأنه يجب ألا يتولى أمر يبيع النساء إلا من اتصف بالدين والأمانة ، فهو الذي يشرف على أسواق بيعهن . ثم إنه يجب التوقف عن بيع النساء في جميع من يغنمن منهن ، حتى يخاطب بأصل أمرهن وكيفية ، ليرسم لهم فيها ما يجب اتباعه .
٦ - ومحض الخليفة على مطاردة الحمر ، والاجتهاد في إراقها وكسر دنائها ، واختيار الأتماء الذين يسهرون على ذلك ، وتعهدهم لمواضع « الرُّب » واعتصامه ، وأن لا يبيحوا من ذلك إلا ما تجوز إباحته شرعاً .

٧ - وأنه قد ذكر له أن الراقصين (الرسل) الذين يردون بالكتب . ويصدرون ، يأخذون الناس بالنظر في كلفهم ، ويلزبونهم بزادهم وعلفهم في كل موضع ، ويحلون بأفنية الناس حلولاً شنيعاً ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، ويطلب إليهم المسارعة في قطع تلك العادة الذميمة ، وتزويد الرسل بما يقوم بأودهم في الحجى والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وتحذيرهم من تكليف أحد من الناس بأى شيء .

٨ - وأنه قد ذكر له ما يقع من التحكم في الأموال ، وعدم المبالاة بالتفريق فيها بين الحرام والحلال ، وأن هناك من يفعلون بأموال الناس ما تقدم ، وتمتد أيديهم إلى الخازن فيعيثون بها ، ويجروئون في التعدي عليها ، ويطلب إليهم أن يتقوا الله في أموال « الخزن » ووجوب السهر على صونها ، وحمايتها من التعدي عليها ، إذ هي أموال الله المخزونة في أرضه ، وأنه يجب عليهم ألا ينفذوا منها قليلاً ولا كثيراً إلا بعد استئذانه وتعريفه .

٩ - هذا ، وأنه يجب عليهم اتباع كل ما جاء في هذا الكتاب بدقة وأن يجمعوا لقراءاته والاطلاع ، عليه سائر الطلبة والعمال ، وكافة المقدمين للأعمال ، وأن تكتب منه نسخ اكل قبيلة من قبائل أقطار الموحديين ، وكل كورة من الكور ، وينذر من لم يتبع ما جاء فيه بشر العقاب .

ويختتم الخليفة كتابه بقوله ، إنه لا غرض له إلا أن يحقق دعة المسلمين وأمانهم ، وأنه يجب أن يعلموا أن الموحديين ، مسئولون عن هذه الرعاية ، وأنهم يجب أن

يكونوا إخواناً فضلاء ، اعباد الله ، وأن يعاملوا الناس بالحسنى ، وأن يغدقوا عليهم المبرات ، وأن هذا هو واجبهم ، وأن هذه نصيحته ، فليقبلوها .

وأنه كان مما دعاه إلى تنبيههم وتذكيرهم بما تقدم ، ما وجدته بحضرة مراکش من تلك الأنواع التي أحدثها أهل الابتداع مثل القبالة وما يجري مجراها ، وأنه لم يكن يدور بخلده أن يسلك أحد مثل هذا المسلك ، وأنه أنكر ما وجدته منه ، وقام بإزالة ما يحظره الشرع (١) .

وقد لبث عبد المؤمن بالرغم من غلبة الحرب والجهاد على حياته ، محتفظاً بسمته وخلاله العلمية . كان عبد المؤمن فقيهاً بارعاً حافظاً للسنة ، وعالمياً متمكناً من علوم الدين ، ولا سيما علم الأصول الذي تلقاه عن المهدي ابن تومرت ، وكان يقوم بإملاء علوم المهدي وقراءة العقائد ، وكتاب الموطأ ، وكان محباً للعلماء مؤثراً لهم ، مقبلاً على مجالستهم ، محسناً إليهم ، يستدعيهم من سائر البلاد ليسكنوا بالحضرة إلى جواره ، وابتنظموا في مجلسه ، ويجري عليهم الأرزاق السخية ، ويعظم من شأنهم ومكانتهم . وكان في الوقت نفسه يعنى أشد العناية بأمر الطلبة والحفاظ ، ويقسمهم إلى طائفتين ، طلبة الموحدين ، وطلبة الحضرة ، والطائفة الأولى هي طلبة المصامدة ، بعد أن سمي المهدي المصامدة بالموحدين ، لخوضهم في علم الأصول ، الذي لم يكن أحد من أهل هذه الأندلس يخوض فيه (٢) . واستقدم عبد المؤمن في نفس الوقت صغار الصبيان النجباء من مختلف قواعد المغرب ، والأندلس ، من إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان وغيرها - إلى حضرته ، وكان منهم من إشبيلية وحدها خمسون صبياً ، حضروا إلى مراکش مع أستاذهم أبي الحسن وأبي بكر الحصار ، وعنى الخليفة بأمر هؤلاء التلاميذ الصغار أتم عناية ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأمر بأن يحفظوا القرآن ، وكتب التوحيد وموطأ المهدي وصحيح مسلم وغيرها (٣) . . . وعنى عبد المؤمن بأمر الحفاظ أشد عناية ، وأمر بأن يحفظوا كتابي الموطأ ، وأعز ما يطلب ، وغيرهما من آثار المهدي ، وكان يستدعيهم في كل يوم جمعة إلى داخل القصر ، وهم نحو ثلاثة آلاف حافظ ،

(١) أورد لنا ابن القطان نص هذه الرسالة كاملاً في « نظم الجمان » وهي تقع في عدة صفحات المخطوط لوحة ٥٦ ب إلى ١٦٥ . وسوف ننشرها في باب الوثائق .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١١٢ ، وروض القرطاس ص ١٣٣ .

(٣) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٥٣) .

فيوجههم إلى ما يبغيه من سرعة الحفظ والتدريب ، فيأخذهم يوماً بتعلم الركوب ،
ويوماً بالرمي بالقسي ، ويوماً بالسباحة في بحيرة أنشأها لهم خارج بستانه ، في
مربع ضلعه نحو ثلاثمائة ذراع ، ويوماً بالتدريب على إصابة الهدف ، على قوار
وخوازيق صنعها لهم بتلك البحيرة ، وذلك لكي يجعل منهم رجالاً مثقفين ،
مدربين مقتدرين . وكانت نفقتهم وسائر مؤثمتهم وخيلهم ، وعُددهم ، كلها من
عنده . وفضلا عن ذلك ، فقد قرر عبد المؤمن ، بموافقة أشياخ الموحدين ، أن يدفع
لكل طالب من هؤلاء قرضاً يتجر به إسعافاً لهم ، وصرف لكل منهم من مال
المخزن قرضاً قدره ألف دينار ، فتاجروا وأثروا ، ولم يسترد منهم هذا القرض
قط (١) . ولما أكمل تدريبهم ، وأصبحوا طائفة يعتمد على علمها ودربتها وخبرتها ،
ندبهم لمختلف الأعمال والرياسة بدلا من أشياخ الموحدين ، وقال لهم إن العلماء
أولى منكم ، واستبقي الأشياخ لمشورته (٢) . وقد رأينا فيما تقدم كيف ندب كثير
من أولئك الحفاظ لأعمال الإدارة والرياسة ، في كثير من القواعد الأندلسية
المفتوحة ، وهم سوف يشغلون من الآن فصاعداً حيزاً كبيراً ، في أعمال الولاية
والرياسة ، في أنحاء الدولة الموحدية .

وكان عبد المؤمن فوق ذلك ، كاتباً بليغاً ، وأديباً ضليعاً ، إماماً في النحو
واللغة ، حافظاً للتاريخ وأيام الناس ، وشاعراً ينظم الشعر الجيد ، وقد أورد لنا
صاحب روض القرطاس له مطارحة شعرية مع وزيره ابن عطية (٣) ، وذكر
صاحب الحلل الموشية ، أن عبد المؤمن حينما هنأه أبو عبد الله الحياتي يوم انتصاره
على المرابطين بفحص مراکش بقصيدة أولها :

أضاءت لنا الأيام واتصل النجح وكانت وجوه الدهر مسودة كلح
أجابه عبد المؤمن بقوله :

هو الفتح لا يجلو غرائب الشرح أصاب بني التجسيم من بأسه طرح
اتنسا به البشرى على حين غفلة بمهلك قوم كان وعدهم الصبح

وكان ممن وفد على عبد المؤمن من أدباء العصر وشعرائه ، أبو العباس أحمد

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط لوحة ٥٢ ب) .

(٢) الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٣) روض القرطاس ص ١٣٣ .

ابن عبد السلام الجراوى الشاعر ، وهو ينتمى إلى قبيلة جرّاوة البربرية ، التى توجد منازلها على مقربة من مليلة ، وكان أديباً بارعاً وشاعراً جزلاً فحظى لديه ، ثم لدى أولاده من بعده ، وغدا شاعر البلاط الموحدى الأثير ، وظهر بمدائحهم للخلفاء المتعاقبين حتى عهد الناصر ، وألف للخليفة المنصور كتابه « صفوة الأدب » حسبما نذكر بعد :

ووجه أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية المخلوع إلى عبد المؤمن رسالته الشهيرة « الكافية » فى إثبات أمر المهدي بالدليل والبرهان فى صورة مناقشة بين النفس مطمئنة ، والنفس الأمارة بالسوء . وقد أورد لنا ابن القطان نص هذه الرسالة ، وسوف نعود إلى ذكرها .

وكان عبد المؤمن شديداً صارماً ، فى تطبيق أحكام الدين ، ولاسيما فى تأدية الصلاة فى أوقاتها ، وفى إيتاء الزكاة ، وتحريم الخمر ، وإقامة الحد على شاربيها ، وكان يذهب فى صرامته إلى قتل تارك الصلاة أو شارب الخمر ، وكان فوق ذلك ورعاً ، كثير التلاوة والحشوع .

وكان متمزماً صارماً فى سياسته نحو النصارى واليهود . ونحن نعرف أن الدولة الموحدية قامت على أسس دينية خالصة ، وكان من الطبيعى ، وهى تحارب خصومها من المسلمين الخارجين على عقيدة التوحيد ، أن تكون شديدة الوطأة على النصارى واليهود . ولما توطدت الدولة الموحدية بالمغرب ، وبسطت سيادتها على معظم قواعد الأندلس ، أصدر عبد المؤمن قراراً بوجوب خروج النصارى واليهود من أراضى الدولة الموحدية ، وحدد لهم فيه أجلاً لمغادرة البلاد ، إلا من أسلم منهم ، فهؤلاء يصبحون رعايا ، لهم ما للمسلمين الخالص وعليهم ما عليهم ؛ ومن بقى من النصارى أو اليهود بعد الأجل المضروب ولم يعتنق الإسلام ، فقد حل دمه وماله . وكان من جراء هذا القرار أن غادر المغرب والأندلس كثير من النصارى واليهود الخائفين أى الذين لا تثقلهم أعباء الأسرة والأعمال ، وبقى منهم من ثقلت أعباؤه ، وتظاهروا باعتناق الإسلام إنقاذاً لأنفسهم وأموالهم ، ومما يذكر أنه كان بين هؤلاء العلامة الفيلسوف والطبيب اليهودى الكبير موسى بن ميمون ، وكان من أهل قرطبة ، فتظاهر عند صدور القرار باعتناق الإسلام ، والقيام بأداء شعائره ، حتى مكنته الفرصة من مغادرة الأندلس مع أهله ، فقصده إلى مصر ،

وخدم في بلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م)^(١)

وكان عبد المؤمن بالرغم من نشأته وسمته الفقهية المتواضعة ، رئيساً وافر الهيبة والحلال ، وهو ما يشير إليه المراكشي في قوله : « كان عبد المؤمن في نفسه سرى الهمة ، نزيه النفس ، شديد الملوكية ، وكأنه كان ورثها كابراً عن كابر ، لا يرضى إلا بمعالي الأمور »^(٢) .

* * *

ولكن عبد المؤمن كان إلى جانب هذه الحلال البديعة كلها ، يتسم بالقسوة وسفك الدماء . وهذا ما ينوه به مؤرخ ناقد مثل ابن الأثير ، إذ يقول لنا : إن عبد المؤمن كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير^(٣) . وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الصفة القائمة من صفات عبد المؤمن ، وسردنا خلال استعراضنا لمراحل حياته ، كثيراً من الحوادث الدموية التي سالت فيها الدماء غزيرة على يديه ، وقد كان أروع ما وقع منها حادثة الاعتراف الشهيرة ، التي تم فيها تطهير القبائل ، وفقاً لجرائد أعداء عبد المؤمن بنفسه ، وتضمنت ألوفاً مؤلفة من الضحايا ، التي أعدمت تنفيذاً لأوامره (سنة ٥٥٤ هـ) . وقد سبق أن علقنا على هذه الحادثة وأمثالها ، من الصفحات الدموية ، التي توالى في عهد عبد المؤمن وعلى يديه . ونود أن نضيف هنا ، أن هذه الظاهرة الدموية ، كانت أصلاً راسخاً من أصول الدعوة المهدية ، وأن المهدي ابن تومرت ، كان من أشد الدعاة دعوة إلى سفك دماء خصومه ، وقد أبدى في تطبيقها قسوة تدنو إلى الوحشية . ومن وجهة أخرى فإنه يمكن القول بأن سفك الدماء وسيلة ماثورة من وسائل تدعيم الطغيان ، يلجأ إليها الطغاة في كل عصر ، وكل قطر ، وقد كان عبد المؤمن طاغية من أعظم طغاة العصور الوسطى ، فليس بمستغرب أن يكون القتل الذريع وسيلة لتأييد سلطانه المطلق ، وإن يكن قد ذهب في ذلك إلى حدود مثيرة مروعة .

* * *

(١) القفطى في بأخبار العلماء بأخبار الحكماء في ترجمة موسى بن ميمون (القاهرة ١٣٢٦ هـ)

ص ٢٠٩ .

(٢) راجع المعجب ص ١١٢

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٩ .

وقد اعتمد عبد المؤمن في تنظيم دولته ، وتسيير حكومته ، وقيادة عسكره ، على طائفة مختلطة من الكتاب والقادة من مختلف القبائل ، وأهل المغرب والأندلس . وقد كان من الواضح أن أصحاب المهدي وأشياخ الموحدين من المصاهمة ، وغيرهم من القبائل البدائية الموالية ، وإن كان يمكن الاعتماد عليهم في شئون الدعوة وفي بعض القيادات العسكرية ، فإنه لا يمكن أن يعتمد عليهم وحدهم في بناء الدولة الموحدية ، وتوطيد قواعدها . ومن ثم فإن عبد المؤمن لم يتردد في أن يستخدم في حكومته وفي قيادته ، كثيراً من أولياء الدولة المرابطية السابقة من لمتونة ومستوفة ، ومن أهل الأندلس ، مثل علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي السابق ، وبراز بن محمد المستوفي ، وقد كان من أبرز القادة المرابطين ، ومثل الكاتب أبي جعفر بن عطية وأخيه عقيل بن عطية ، وقد كانا من كتاب الدولة اللمتونية ، وميمون الهواري . واستخدم عبد المؤمن من أهل الأندلس كتابته أخيل بن إدريس الرندي صاحب رندة السابق ، وقد كان أيضاً من كتاب الدولة اللمتونية ، وأبا الحسن بن عياش القرطبي ، وأبا بكر بن ميمون القرطبي ، والخطيب أبا الحسن بن الإشبيلي ، وصاحبه الخطيب أبا محمد عبد الله بن جبل . وقد كان الاعتماد على معاونة الوزراء والكتاب الأندلسيين ، في بلاط مراکش ، مبدأ مقررأ منذ أوائل الدولة المرابطية ، وذلك لما كانوا يمتازون به في هذا الميدان من المواهب والصفات المصقولة ، ولما كان لأعمال الوزارة وشئون الكتابة بالأندلس من التقاليد الحليّة الراسخة ، والأساليب المشرقة العالية . وسوف نرى فيما بعد ، كيف يمثل أقطاب الكتاب والعلماء والمفكرين بالأندلس ، بقية القرن السادس الهجري ، بين وزراء الدولة الموحدية وكتابها البارزين .

وقد وزر لعبد المؤمن الكاتب أبو جعفر بن عطية ، ثم أبو محمد عبد السلام ابن محمد الكومي ، ثم ولده السيد أبو حفص ، ومعاونه أبو العلا إدريس ابن ابراهيم بن جامع ، وهو الذي تولى الوزارة بعد وفاته ، لولده الخليفة الحديد أبي يعقوب يوسف .

وتولى القضاء في عهده ، صهره أبو عمران موسى بن سليمان الضرير من أهل تينملل ومن أصحاب خمسين ، وأبو الحجاج يوسف بن عمر .

وعنى عبد المؤمن بالشئون المالية بنوع خاص ، ولقى في تنظيمها صعاباً ومتاعب . وكانت مسألة الفروض أو « الجبايات » التي يتكون منها دخل الحكومة

الموحدية من المسائل الدقيقة ، التي واجهت عبد المؤمن . وقد كانت مسألة المكوس والمغارم التي تفرضها الدولة المرابطية على رعاياها ، من المسائل التي شهت بها المهدي ابن تومرت ، وعددها بين مثالب المرابطين ، باعتبارها مغارم غير شرعية يحرمها الكتاب والسنة . وكانت الدولة الموحدية في البداية تحرص على ألا تمجد عن تطبيق هذا المبدأ في فرض الجبايات ، وتلغى سائر المغارم المحرمة ، وتكتفي بتحصيل الزكاة والأعشار ، وهذا ما سجله الخليفة عبد المؤمن في رسالته التي بعث بها عقب فتح بجاية سنة ٤٤٧ هـ ، إلى أهل قسنطينة ، يدعوهم إلى الطاعة ، ويذكرهم بما هو مفروض عليهم منذ أيام « أهل الاختلاق والابتداع » من « القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع » ، وأن الله قد أراح الناس بالتوحيد ، من تلك المغارم ، وأنه سوف لا يطلب إليهم إلا ما أوجب الله ، وما توجبه السنة من « الزكوات ، والأعشار »^(١) . وقد كان ما استولى عليه الموحدون من ثروات الدولة المرابطية وذخائرها ، في المغرب والأندلس ، وما كانوا يحصلونه من غنائم خصومهم المهزومين ، يكفي في البداية لمواجهة نفقات الحرب والإدارة . بيد أنه لما اتسع نطاق الغزوات والفتوحات في المغرب والأندلس ، وتضاعف عدد الجيوش الموحدية الغازية ، اضطر عبد المؤمن إلى التماس مصادر أخرى للنفقة ، فكان مما استحدثه ، مانقله إلينا صاحب روض القرطاس ، من أنه أمر بمسح بلاد إفريقية والمغرب من برقة ، إلى السوس الأقصى ، بالفراسخ ، والأميال ، طولا وعرضا ، وأسقط من هذه المساحة مقدار الثلث مقابل الجبال والأنهار والطرق وغيرها من التوالف ، وما بقي فرض عليه الخراج ، وألزم كل قبيلة بأن تؤدي قسطها من الزرع والمال ، وهكذا تحررت السياسة المالية الموحدية ، من الحمود الذي فرضته عليها تعاليم المهدي ، ولتتطور مع مقتضيات ما تحتاج إليه الدولة من ضروب النفقة العسكرية والإدارية .

* * *

وترك عبد المؤمن من الولد ستة عشر من البنين ، وهم أبو يعقوب يوسف الخليفة من بعده ، وأبو حفص عمر ، وأبو عبد الله محمد المخلوع من ولاية العهد ، وأبو محمد عبد الله والي بجاية ، وأبو سعيد عثمان والي غرناطة وقرطبة ، وأبو علي الحسن ، وأبو علي الحسين ، وأبو الربيع سليمان ، وأبو زكريا يحيى ،

(١) مجموعة الرسائل الموحدية - الرسالة السادسة - ص ٢١ و ٢٢ .

وأبو إبراهيم اسماعيل ، وأبو إسحق إبراهيم ، وأبو يوسف يعقوب ، وأبو زيد
عبد الرحمن ، وأبو سليمان داود ، وأبو موسى عيسى ، وأبو العباس أحمد ،
وترك من البنات اثنتين هما صفية وعائشة^(١) .

هذا ولدينا عن أوصاف شخص عبد المؤمن ، فقرتان ، نقل إلينا أولاهما ،
ابن خلكان عن مؤلف في سيرة عبد المؤمن ، وفيها أن عبد المؤمن ، « كان شيخاً
معتدل القامة ، عظيم الهامة ، أشهل العينين ، كث اللحية ، شثن الكفين ، طويل
القعدة ، واضح بياض الأسنان ، بنحده الأيمن نجال »^(٢) .

ويقول في الثانية صاحب روض القرطاس : « كان أبيض اللون شرباً بحمرة ،
أكحل العينين ، أجعد ، تام القد ، له وفرة تبلغ شمة أذنه ، أزج الحاجبين ،
ملائم الأنف ، عريضه ، مستدير اللحية »^(٣) .

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ٤٢ ب ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٦ .

(٢) ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) روض القرطاس ص ١٣٣ .

الكتاب الرابع

نظم الدولة المرابطة
وخواص العهد المرابطة

الفصل الأول

طبيعة الحكم المرابطي

وأوضاعه العسكرية والإدارية والمالية

الطابع الديني للدولة المرابطية . استئثار الفقهاء بالنفوذ . ما ترتب على ذلك من الفساد . ضعف الفقهاء وانصرافهم إلى علم الفروع . الطابع العسكري للدولة المرابطية . نزعتها إلى الجهاد . تساؤل منعتها العسكرية . الدولة المرابطية إمارة ملكية . طابعها الملك الوراثي . عمالات المغرب والأندلس في عهد المرابطين . قرطبة مركز الحكم المرابطي . ولايات الأندلس لذوى القربى . تولى الأندلسيين لمناصب القضاء . القضاة زعماء الثورة فيما بعد . استئثارهم بمناصب الكتابة . لمتونة وشجاعتها في القتال . الجيش عماد الدولة المرابطية . تنظيمه وتكوينه . النصراني المرتزقة . ترتيب المعركة عند المرابطين . القوات الأندلسية . النزعة الجهادية وتضامها . الجيش المرابطي بالأندلس . الأساطيل المرابطية . السياسة المالية ونظم الجباية . الضغط على اليهود . التوسع في الجبايات والقبالات أيام على . الدولة المرابطية ووسائلها في الحكم . جملة العلامة دوزي على المرابطين . ما يطبع هذه الحملة من تحامل . رأى العلامة كوديرا . أقوال المراكشي . قول في مديح المرابطين وعهدهم . شرح لاسباب هذه الحملة ضد المرابطين . الفتح المرابطي الأندلسي وما تحلله من فظائع . قسوة أمير المسلمين نحو المعتمد . مطاردة كتب الدين والفلسفة . حملة المهدي ابن تومرت . فضل المرابطين في الجهاد وإنقاذ الأندلس . تقاعسهم في حرب الإسترداد . مسئوليتهم في سقوط سرقسطة . حكم المرابطين للأندلس . طابعه العسكري الحشن . وثائق رسمية تؤيد اهتمام على بن يوسف بشئون الأندلس والدود عنها . توصياته بشأن الحكم . اهتمامه بتجنب الاستبداد ، واتباع الرفق والعدل . اهتمامه بأمر القضاء . توصيته بحسن اختيار القضاة . حجب المرابطين على حرية الفكر . مطاردتهم لكتب الأصول وكتب الغزالي . إصرارهم على هذه المطاردة حتى أواخر عهدهم . مطاردتهم لكتب الكلام والفلسفة . عيث الجند والعبيد المرابطين . ملاحظات ابن عبدون على ذلك . اشتداد وطأة الحكم المرابطي وأسباب ذلك . الحكم على العصر المرابطي والمبالغة في ذلك . تعليق الأستاذ كوديرا . أحوال الشعب في ظل الحكم المرابطي . الأمة الأندلسية وتحريرها من مظالم الجباية . تمتعها بنوع من الاستقرار والرخاء . وحدة المغرب واستقراره . ما شمله من تعمير ورخاء . الاضطراب والفوضى منذ حركة المهدي .

كان مصرع الدولة المرابطية ، حادثاً من أهم الحوادث ، الحاسمة في تاريخ المغرب والأندلس ، وكان نتيجة لعوامل عديدة ، عسكرية وسياسية واجتماعية . وسوف نحاول في هذا الفصل ، أن نستعرض هذه العوامل ، التي أدت إلى سقوط هذه الدولة العظيمة الشامخة ، التي شادتها عبقرية يوسف بن تاشفين ، وهي ما تزال في عنقوان فتوتها ، ولما يمض على قيامها وتوطدها أكثر من نصف قرن ،

وأن نستعرض في نفس الوقت ، طرفاً من المبادئ والنظم التي سار عليها بنو تاشفين في حكم إمبراطوريتهم العظيمة بالمغرب والأندلس ، ومن الظروف والأحوال الحضارية التي عاشت في ظلها .

قامت الدولة المرابطية ، حسب رأينا على أساس من العقيدة الدينية ، وكان منشؤها الروحي فقيه متعصب ، هو عبد الله بن ياسين الجزولي . واحتفظت هذا الطابع الديني معظم حياتها ، وكان يتخذ منذ البداية صورته العملية ، في سيطرة الفقهاء على شئون الدولة وتوجيهها ، وفي اتجاه الجيوش المرابطية ، في المراحل الأولى من حياة الدولة إلى أعمال الجهاد ، سواء في المغرب أو الأندلس . وكان نفوذ الفقهاء في تسيير الدولة المرابطية ، يتخذ أيام يوسف بن تاشفين ، صورة الشورى ، فكان العاهل المغربي يستفتيهم في الخطير من الأمور ، لا استفتاء المستسلم الخانع ، ولكن استفتاء الحذر المستنير ، الذي يحاول أن يطمئن على سلامة تصرفاته ، وأن يلمس لها السند الشرعي . ولكن هذا النفوذ لم يلبث أن غدا في عهد ولده علي ، نوعاً من الدكتاتورية الدينية (ثيوقراطية) . ولم يكن لعلي بن يوسف ، بالرغم من ذكائه وجميل صفاته ، وبالرغم من ورعه وتقواه ، من العزم والحزم ، ما يكفي لمغالبة هذا النفوذ الحارف . وهذا ما يصوره لنا المراكشي ، عند حديثه عن علي بن يوسف ، في تلك الفترة التي تبرز لنا روح الحكم المرابطي على حقيقتها :

« وكان (أي علي بن يوسف) حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس ، بعيداً عن الظلم ، كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين ، أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين . واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولي أحداً من قضاته ، كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً ، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس . ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، واحكامهم صغيرها وكبيرها ، موقوفة عليهم ، طول مدته . فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم » .

وفي ذلك أيضاً يقول شاعر من شعراء العصر ، هو أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النبي ، من أهل مدينة جيان :

أهل الديار لبستموا ناموسكم كالذئب أولج في الظلام العاتم
فلكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الأموال بابن القاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشهب وبأصبغ صبغت لكم في العالم (١)
كانت هذه الشيوقراطية أو الدكتاتورية الدينية ، وما ترتب عليها من مثالب
وأهواء لا مفر منها ، أهم عامل في ضعف الحكم المرابطي وفساده ، وكان من
جراء ذلك أن تحولت المزية الرئيسية ، لصفة الدولة المرابطية ، وهي الأساس
الديني المغرق ، إلى عنصر من عناصر الانحلال الخطر ، واستحالت فضائل التقى
والزهد والورع ، لدى الأمير ، إلى نوع من الخضوع الأعمى ، لطائفة ، لا تؤمن
مطامعها وأهواؤها ، هي طائفة الفقهاء ، الذين غدوا يسيطرون على الأمير ،
ويحكمون الدولة ، لامن وراء ستار فقط ، ولكن كذلك في نوع من الجهر ،
وفقاً لهذه المطامع والأهواء . أضف إلى ذلك أن هذه الطائفة كانت إلى جانب
هذا الاستغلال لنفوذها الديني ، تتسم خلال العهد المرابطي بالقصور وضيق
الأفق ، ولم تكن على شيء من ذلك التعمق العلمي ، الذي كان يمتاز به جيل
الفقهاء القدامى ، أيام الدولة الأموية ، في دراسة الشريعة وأصول الدين ، وذلك
حينما كان فقهاء أقطاب مثل عيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى ، وعبد الله
ابن حبيب ، وبقى بن مخلد ، يتبأون ذورة النفوذ العلمي ، ولكن يقف نفوذهم
عند حدود الفتيا والشورى ومزاولة القضاء . بل كان الفقهاء أيام الدولة المرابطية ،
يقتصرون حسبنا أشرنا من قبل على دراسة علم الفروع من العبادات والمعاملات
والحدود والأقضية ، وعلى مذهب مالك دون غيره . وهذا ما ينوه به المراكشي
في قوله : « لم يكن يقرب من أمير المسلمين ، ويحظى عنده ، إلا من علم علم
الفروع أعنى فروع مذهب مالك ، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل
بمقتضاه ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث
رسول الله (ص) ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعنى بها كل
الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من
علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين ، تقبيح علم الكلام ، وكراهة
السلف له ، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين» (٢) . وقد

(١) المراكشي في المعجب ص ٩٥ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ٩٦ .

ترتب على ذلك ما عمدت إليه الدولة المرابطية بإيعاز فقهاءها ، من مطاردة العلماء الذين يعنون بعلم الكلام والأصول ، ومطاردة الكتب المتعلقة بذلك ، وفي مقدمتها كتب الغزالي ، وجاء ابن تومرت فاتخذة أيضاً مادة لدعايته الدينية ضد الدولة المرابطية ، حسبما فصلنا من قبل في موضعه .

إلى جانب هذا العامل الخطير في تصدع أسس الدولة المرابطية ، كان ثمة عامل آخر ، يحدث أثره السيء في تحطيم قواها المادية والأدبية ، هو انهيار منعها العسكرية . ذلك أن الدولة المرابطية نشأت في مهاد التمشف والبدعوة ، واستمدت من بدوتها ومن حماسها الدينية ، صلابتها الحربية ، وكانت هذه المنفعة التي تمتاز بها جيوش لمتونة وزميلاتها من القبائل المختلفة ، تذكها وتضاعفها ، نزعة الجهاد في سبيل الله . وفي ظل هذه النزعة الجهادية استطاع المرابطون عند مطلع نهضتهم في مشارف الصحراء الكبرى ، أن ينشروا بجهادهم وغزواتهم المستمرة تعاليم الإسلام ، في غانة ومالي وموريتانيا . ولما عبرت الجيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة لتتقد الأندلس مما يهددها من خطر الفناء ، على يد اسبانيا النصرانية ، كانت هذه النزعة إلى الجهاد ، أخص ما يميزها ، إلى جانب ما اشتهرت به من المنعة والبرسالة . وحتى بعد أن تحولت الجيوش المرابطية ، من مهمتها في إنجاز الأندلس ، إلى جيوش غازية ، وأصبحت الأندلس جزءاً من الدولة المرابطية الكبرى ، فإن هذه النزعة إلى الجهاد في سبيل الله ، لبثت حيناً آخر شعار الجيوش المرابطية في شبه الجزيرة ، فكانت موقعة أقليمش ، وكانت موقعة إفراغة ، وكانت ثمة مواقع محلية أخرى ، ظهرت فيها الجيوش المرابطية ، ببسالتها ، ونفانها في الجهاد في سبيل الله .

بيد أنه سرعان ما خبت هذه الروح ، وخصوصاً بعد أن اختفى من الميدان أقطاب القادة المرابطين ، الذين امتازوا بالجرأة والشجاعة والبراعة العسكرية ، أمثال سيرين أبي بكر اللمتوني ، وأبي محمد مزدلي ، ومحمد بن الحاج ، ومحمد ابن فاطمة ، وسرعان ما تأثر الأمراء والقادة المرابطون ، بما انغمسوا فيه من ثروات الأندلس ، ونعمائها ، وحياتها المرفهة ، وتأثر الحند المرابطون ، أبناء الصحراء والقفرة ، بحياتهم الحديدية الرغدة ، في هذه القواعد العظيمة ، والوديان النضرة ، والعيش الرخص ، وفت ذلك في مقدرة الجيوش المرابطية ، ومنعها القديمة ، فأضحت عاجزة عن أن تقوم بمهمتها الأساسية في حماية الأندلس ، ورد عادية

النصارى عنها ، كما غدت في نفس الوقت عاجزة عن أن تعنل على توطيد سلطان الدولة المرابطية وهيبتها ، بين شعب أضحي يتبرم بحكمها ، ويتمنى زوال نيرها ، بعد أن ثقلت وطأته ، وكثرت مثالبه . وقد كان هذا عاملاً له خطره في تحطيم هيبة الدولة المرابطية وسيادتها بالأندلس :

- ١ -

كانت الدولة المرابطية أو الدولة اللمتونية في عهدها الأول ، حينما انتهى يوسف بن تاشفين من إنشائها ، وتوطيد قواعدها ، وتخطيط عاصمتها مراكش ، إمارة يتسمى منشؤها بالأمير . وعقب انتصار الزلافة ، تسمى يوسف « بأمير المسلمين وناصر الدين » وهو اللقب الذي أصبح من بعده لقباً للملوك لمتونة : وهذا إلى اعتراف العاهل المرابطي بطاعة الخليفة العباسي . وهو إجراء لم يتعد الحدود الشكلية ، من الدعوة للخليفة العباسي في الخطبة مع الأمير ، وذكر اسمه في السكة .

ثم غدت الدولة المرابطية ، مملكة وراثية ، منذ اختار يوسف ولده علياً لولاية عهده في سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) ، وحذا حذوه في ذلك علي ، فاختار ولده تاشفين لولاية عهده في سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . واختار تاشفين ولده إبراهيم لولاية عهده في سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) ، وهو في وهران بخوض مع الموحدين آخر المعارك الحاسمة ، وقد شاء القدر أن يكون إبراهيم خاتمة ملوك الدولة المرابطية .

ولم يكن العاهل المرابطي ، يتقيد في هذا الاختيار لولاية العهد ، بشروط وتقاليد معينة ، ولم يكن يؤثر به الابن البكر ، وإنما كان يجري وفقاً لمشيئة الملك القائم ، فيختار من ولده من يراه أهلاً لخلافته . وكانت ولاية الأندلس ، وقيادة الجيوش المرابطية بها ، تمنحان للابن البكر ، إذا نحي عن ولاية العهد ، وذلك حسبما حدث في شأن الأمير أبي الطاهر تميم ولد يوسف الأكبر ، حينما انتخب أخوه الأصغر علي لولاية العهد ، فقد لبث والياً للأندلس وقائداً عاماً للجيوش المرابطية بها حتى وفاته في سنة ٥٥٢٠ هـ ، وخلفه في منصبه الأمير تاشفين بن علي ، في الوقت الذي كان فيه أخوه الأكبر سير بن علي يتشح بولاية العهد ، فلما توفي سير في سنة ٥٣٣ هـ ، استدعى تاشفين من الأندلس ، ومنح ولاية العهد :

وكانت عمالات المغرب أو ولاياته ، وهي نحو ثمانية ، مراکش ويتبعها أغمات وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة ، وفاس ، وسجلماصة ودرعة ، ومكناسة ، وبلاد فازاز ، وتلمسان ، وطنجة ، وسبتة ، تخصص ، لأبناء الأمير وقرابته . وقد بدأ يوسف بن تاشفين في ذلك بتقسيم عمالات المغرب على «بنيه وأمراء قومه وذويه» (١) . أما الأندلس فكانت تنقسم في عهد الدولة المرابطية ، إلى خمس ولايات ، هي إشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية ومرسية . وكانت سرقسطة قبل سقوطها في أيدي النصارى في سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) تعتبر ولاية سادسة . واتخذ المرابطون في البداية قرطبة مركزاً لحكومتهم بالأندلس ، وفيها أصدر يوسف بن تاشفين عهده بولاية عهده لولده علي . ولما تولى على الملك ، أمر بنقل قاعدة الحكم إلى غرناطة ، فلبث كذلك حتى سنة ٥٢٦ هـ ، وفي هذا العام عين أمير المسلمين على بن يوسف ، ولده الأمير تاشفين والياً لقرطبة ، وأمره أن يجعل منها « داره وسكناه ومقر مثواه » . وهكذا غدت قرطبة مركز الحكم المرابطي مرة أخرى ، واستمرت كذلك حتى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، وهي السنة التي اضطرت فيها قواعد الأندلس ، ومنها قرطبة ، بالثورة على المرابطين ، وكان والى الأندلس يومئذ الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية ، آخر ولايتها المرابطين .

وكانت مناصب الولاية المحلية بالأندلس ، وفقاً على الأمراء والقادة المرابطين ولاسيما ذوى القربى منهم ، وقد ذكرنا فيما تقدم أسماء عدد عديد من هؤلاء الأمراء والقادة ، الذين تولوا حكم القواعد الأندلسية ، منذ الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين ، حتى نهاية العهد المرابطي ، وكان في مقدمة هؤلاء بعض أقطاب القادة المرابطين الأوائل ، مثل الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني فاتح إشبيلية ثم واليها ، ومحمد بن الحاج والى بلنسية ، ثم سرقسطة ، ومن بعده يحيى بن غانية ، والأمير أبو محمد مزدي والى قرطبة وهو من أبناء عمومة يوسف ، وولده محمد وعبد الله ، والأمير محمد بن عائشة ولد يوسف ، ومحمد بن فاطمة والى إشبيلية ، وعبد الله بن تينغمر والى قرطبة ، وهو ابن أخت علي بن يوسف ، والأمير إبراهيم والى إشبيلية ، وهو أخو علي بن يوسف ، وأبو بكر بن علي بن يوسف ، وقد ولي أيضاً إشبيلية وغيرهم . أما مناصب

(١) روض القرطاس ص ٩١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ .

القضاء في القواعد الكبرى ، فقد تركها المرابطون للأندلسيين ، وذلك لسبب واضح ، هو أنه لم يكن بين العلماء المرابطين ، من يستطيع الاضطلاع بهذه المناصب ، في بلد كالأندلس ، امتاز قضاته بغزير علمهم ، وقد كان أولئك القضاة الأندلسيون يتمتعون لدى العاهل المرابطي ، بكثير من النفوذ ، ولهم كلمة مسموعة في كثير من الشؤون الهامة ، وكانوا في نفس الوقت رسلة لتدعيم هيئته ونفوذه ، لدى الشعب الأندلسي ، وكان من أبرز نماذج أولئك القضاة رجال مثل أبي الوليد بن رشد ، وأبي القاسم بن حمدين ، وقد تولى كلاهما قضاء قرطبة . وقد رأينا فيما تقدم ، كيف أخذ بفتوى القاضي أبي القاسم ابن حمدين في حرق كتاب الأحياء للإمام الغزالي (سنة ٥٠٣) ، وكيف استطاع القاضي ابن رشد ، أن يقنع أمير المسلمين علي بن يوسف بتغريب النصارى المعاهدين (٥٢٠ هـ) . ثم كان أولئك القضاة فيما بعد ، حينما اضطربت شئون الدولة المرابطية ، هم قادة الثورة ضد المرابطين في مختلف القواعد ، وهم الذين تولوا حكم المدن الثائرة ، حتى مقدم الموحدين .

ونود أن نلفت النظر هنا إلى تلك الظاهرة التي جعلت من قادة الثورة ضد المرابطين أما كتابا وشعراء ، أو قضاة . ففي الغرب كانت ثورة المريردين ، وزعمائها قبل كل شيء ، رجال مثل ابن قسي ، وابن المنذر ، وأبو بكر بن المنخل ، يمتازون إلى جانب دعوتهم الثورية ، بمواهبهم الأدبية والشعرية . وفي أواسط الأندلس وفي شرقها ، كان زعماء الثورة كلهم تقريبا من القضاة . ففي قرطبة ، كان زعيم الثورة قاضيها أبو جعفر بن حمدين ، وفي غرناطة كان هو القاضي أبو الحسن علي بن أضحى ، وفي مالقة كان قاضيها ابن حسون ، وفي بلنسية كان قاضيها مروان بن عبد العزيز ، وفي مرسية كان قاضيها أبو جعفر الحشني ، وكان خلفه في الرياسة بعد مصرعه ، قطب بن أقطاب الكتاب والشعر ، هو أبو جعفر عبد الرحمن ابن طاهر . وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل ، ويمكن أن نرجعها من بعض الوجوه ، إلى أن المرابطين استطاعوا خلال حكمهم بالأندلس ، أن يقضوا على معظم الزعامات الملوكية والعسكرية القديمة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على الزعامات الفكرية ، ولم يستطيعوا بالأخص ، أن يقضوا على نفوذ الفقهاء ، بالأندلس ، وكان نفوذهم المستمر ، حسبما تقدم من خواص الحكم المرابطي ذاته . أما عن الكتابة ، فإن الدولة اللمتونية ، كانت منذ بدايتها تعتمد في شئون

الكتابة على الكتاب الأندلسيين . فكان كاتب يوسف بن تاشفين ، حتى قبل أن يعبر إلى الأندلس ، أندلسي من أهل المرية هو عبد الرحمن بن أسباط . ولما توفي خلفه في منصب الكتابة أبو بكر بن القصيرة ، وهو يومئذ من أئمة البلاغة بالأندلس ، ثم كتب بعد وفاة يوسف عن ولده علي . وكان بلاط مراکش عهد علي بن يوسف ، يضم إلى جانب ابن القصيرة ، طائفة من أقدر الكتاب الأندلسيين في هذا العصر ، مثل أبي القاسم بن الحد ، وأبي بكر بن عبد العزيز البطليوسي المعروف بابن القبطرنة ، وابن عبدون وزير بني الألفطس السابق ، وأبي عبد الله بن أبي الحصال ، وغيرهم . وقد كان من الطبيعي ، أن تعتمد الدولة اللمتونية ، التي نشأت في مهاد البداوة والتقف ، في شئون الكتابة ، ولاسيما بعد افتتاح الأندلس ، على أقطاب البلاغة من الكتاب الأندلسيين ، وأن يكون أولئك الكتاب ألسنتها لدى الشعب الأندلسي ، الذي اعتاد على أساليب الكتابة العالية ، وقد شهد المرابطون كيف كان ملوك الطوائف ، يحشدون في قصورهم ، أئمة البلاغة والرسول يومئذ ، سواء في سلك الوزارة أو الكتابة ، فكانت لهم في ذلك أسوة ، فاستخدموا معظم أولئك الكتاب في بلاط مراکش .

وكان الجيش هو أهم أجهزة الدولة المرابطية ، ودعامتها الأولى ، وكانت الدولة المرابطية بالرغم من انضوائها تحت لواء الدعوة الدينية الإصلاحية ، التي نظمها عبد الله بن ياسين ، قبل كل شيء دولة عسكرية ، نشأت في مهاد المعارك التي اضطرت بين لمتونة وبين القبائل الحصيمة من وثنية وغيرها ، وخرجت منها لمتونة ظافرة ، واستطاعت أن تبسط سلطانها على أنحاء المغرب ، وأن تقيم الدولة المرابطية الكبرى ، وكان أولئك البربر الصحريون جنوداً يمتازون بوافر الحرارة والشجاعة . وقد نوه بشجاعة لمتونة في القتال كاتب معاصر هو الجغرافي المؤرخ ، أبو عبيد البكري ، فوصف لنا لمتونة وشجاعته وطرائقها في القتال فيما يأتي : « وكان للمتونة ، في قتالهم شدة وبأس ليست لغيرهم . وكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل ، وكان معظم قتالهم مرتجلين ، يقفون على أقدامهم صفاف بعد صف ، يكون بأيدي الصف الأول منهم القنا الطوال ، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة ، يزرقتها فلا يكاد يخطئ ولا يشوي ، ولهم رجل قدموه أمام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منصبه ، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعاً ، فكانوا أثبت من الهضاب ، ومن فر أمامهم لم

يتبعوه ، وكانوا يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف»^(١) ، وقد تطورت أساليب لتونة في القتال فيما بعد ، ولكن هذه الصفة العسكرية لبثت تغلب على الدولة المرابطية ، حتى بعد أن استقرت وتوطدت ، وقامت بها نظم الحكم المدنية ، فكان الجيش هو قوام حياتها الأولى ، وكان أمير المسلمين هو القائد الأعلى لهذا الجيش ، وكان معظم الولاة في المغرب والأندلس ، من قادة الجيش البارزين . وكان من مشيئة الدولة المرابطية الكبرى يوسف بن تاشفين جندياً وقائداً من أعظم قواد عصره ، وقد بذل هذا البطل الشيخ في تنظيم الجيش المرابطي ، وفي تزويده بالعتاد والسلاح ، جهوداً رائعة ، حتى غدا من أعظم جيوش العصر . وكانت قوته الرئيسية تتألف من الفرسان ، وقد بلغت في عهد يوسف نحو مائة ألف فارس من مختلف القبائل^(٢) هذا غير المشاة من الرماة وغيرهم . وأنشأ يوسف فضلاً عن ذلك حرسه الخاص الأسود ، من عبيد الصحراء من غانة ، من نحو ألبى مقاتل ، دربوا أعظم دربة ، وزودوا بأجود الأسلحة ، حتى غدوا قوة ضاربة لها خطرها^(٣) . وقد رأينا كيف أبلى هذا الحرس الأسود الخاص ليوسف ، في معركة الزلاقة عند تخرج الموقف ، أعظم البلاء ، وساعد ببسالته على تحول مصاير المعركة . وأنشأ يوسف قوة كبيرة خاصة من فرسان جزولة ولمطة وزناتة سميت بالحشم^(٤) . وأنشأ كذلك فرقة خاصة لحرسه من النصاري ، معظمهم من المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام ، وقد نمت هذه الفرقة في عهد ولده علي ، حتى غدت جناحاً كبيراً من الجيش المرابطي ، يتألف من النصاري المرتزقة ، ويقوده القائد القشتالي الذي تسميه الرواية العربية « بالبربير » والذي تحدثنا عنه فيما تقدم ، وقد اشتركت هذه الفرقة الأجنبية التي تسميها الرواية العربية « بالحنند الروم مع الجيش المرابطي ، في معارك عديدة ، وكانت تمتاز دائماً ببسالتها ، وفائق دربتها . وكان ترتيب المعركة عند المرابطين يقوم على نظام خماسي . فيتقدم الجيش ، الحنند المشاة ووحدات الفرسان الخفيفة ، وحملة القسي ، والرماة ، ويترتبون في

(١) أبو عبيد البكري في كتاب « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » المشتق من كتاب « المسالك والممالك » (طبعة دي سلان) ص ١٦٦ ، ونقل بعضه الحنند الموشية ص ١٠ و ١١ .
(٢) روض القرطاس ص ٨٩ .
(٣) الحنند الموشية ص ١٣ .
(٤) الحنند الموشية ص ٢٠ .

الجناحين . ويتكون القلب من وحدات الفرسان الثقيلة ، وهي التي كان لها على الأغلب القول الفصل في المعارك . وكانت قوات المؤخرة ، أو القوات الاحتياطية يقودها أمير المسلمين بنفسه ، إذا كان مصاحباً للجيش ، وتتألف من صفوة الحند ، وقوى الحرس المختلفة من العبيد والنصارى المرتزقة . وكان لكل قسم من القوات المقاتلة قائده الخاص ، ويجتمع القادة جميعاً في مجلس الحرب الذي يعقد قبل المعركة ، وترتب فيه خطط الهجوم والدفاع ، وفقاً لأوامر القائد الأعلى . وكان الحند يحشدون وفقاً لمختلف القبائل والأقاليم . ويؤلف جند الأندلس في الجيش المرابطي المخصص لشبه الجزيرة وحدات خاصة ، تحمل أعلام المدن التي تنتمي إليها ، مثل إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ومرسية وغيرها . بيد أن القوات الأندلسية لم يكن لها في الجيش المرابطي كبير شأن ، وكانت القيادة العليا بنوع خاص ، تركز في أيدي القادة المرابطين . وكانت هذه سياسة مرسومة واضحة القصد والمرمى .

وكانت نزعة الجهاد ، تغلب في البداية على الجيش المرابطي ، وكانت تحدوه هذه النزعة المضطربة حينما عبر إلى شبه الجزيرة لأول مرة ، وانتصر في موقعة الزلاقة ، ضد الجيوش النصرانية المتحدة ، واستمر يجيش بهذه النزعة إلى الجهاد ، طوال عهد يوسف ، وفي أوائل عهد ولده علي . ثم خبت هذه النزعة حينما اضطربت أحوال الدولة المرابطية ، منذ فورة المهدي ابن تومرت ، وأضحى الجيش المرابطي في المغرب ، أداة دفاعية عن كيان الدولة التي أنشأته ، ولم يعد له في الأندلس تلك الهيبة القديمة ، التي كانت تتوجها غزواته الجهادية ضد النصارى ، ولم يلبث أن اضطر غير بعيد أن يشغل بأمر الدفاع عن نفسه في مختلف القواعد الأندلسية .

وكان الجيش المرابطي يستعمل البنود والطبول^(١) . وقد لعبت طبواه في الزلاقة دوراً كبيراً في إزعاج الحند النصارى ، وبث الرعب في قلوبهم . وكان الجيش المرابطي الدائم بالأندلس يتكون من سبعة عشر ألف فارس ، منها سبعة آلاف ياشبيلية وقواعد الغرب ، وبقرطبة ألف فارس ، وبغرناطة مثلها ، وأربعة آلاف بشرقي الأندلس ، والأربعة آلاف الباقية موزعة على مختلف القواعد والثغور الأخرى . وكان يعهد بالدفاع عن الحدود والقواعد المتاخمة

(١) روض القرطاس ص ٨٩ .

للنصارى إلى الأندلسيين ، لما لم في مقاتلة النصارى ومدافعهم من خبرة خاصة ، وكان الفارس المرابطى فى الأندلس يتقاضى خمسة دنانير فى الشهر ، غير نفقته الخاصة ، وعلف فرسه ، ومن ظهر منهم بشجاعته وتفوقه ، يُعهد إليه بولاية موضع ينتفع بفوائده^(١) .

ولم ينس المرابطون أهمية الأساطيل ، ولا سيما منذ افتتحوا الأندلس ، وغدت الأندلس ولاية مغربية ، فكانت لهم فى سبتة وقادس وألمرية أساطيل دائمة . وكانت قطائع النقل ، تجتمع بنوع خاص فى مياه سبتة وطنجة ، والجزيرة الخضراء وطريف ، لتتنقل الجيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة ، ومن شبه الجزيرة إلى المغرب ، وكانت الدولة المرابطية تمتلك فى أواخر أيامها أسطولا ضخماً من القطائع والسفن المقاتلة ، حتى أن الأمير تاشفين بن على ، كان وهو بجوز معركة وهران الفاصلة ضد الموحدين ، يعلق أمله فى النجاة على الأسطول ، وقد استدعاه فعلاً إلى مياه بجاية . وقد اختصت أسرة بنى ميمون عصرأ بقيادة الأساطيل المرابطية ، وانتقلت هذه الأساطيل على يدهم ، إلى خدمة الدولة الموحدية حينما دالت دولة المرابطين .

وأما فيما يتعلق بالنظم المالية فقد اتبعت الدولة المرابطية ، فى البداية ، نظراً لنشأتها الدينية ، حكم الشرع فى شئون الجباية ، فكان يوسف بن تاشفين يقتصر أولاً على تحصيل ما تجيزه الشريعة من الفروض ، مثل الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم وجزية أهل الذمة . بيد أنه لما ضخمت الدولة المرابطية ، وتضاعفت جيوشها وهشولياتها ، ولا سيما بعد افتتاح الأندلس ، واتساع نطاق أعمال الجهاد ، فى شبه الجزيرة ، لم تعد هذه الموارد الشرعية المتواضعة تكفى لمواجهة مسئولياتها العظيمة ، واضطر يوسف بن تاشفين إلى فرض الإتاوات على أهل المغرب والأندلس ، للمساهمة فى أعمال الجهاد ، ولحأ أيضاً إلى تحصيل الأموال من اليهود ، ولا سيما يهود بلدة أليسانة^(٢) ، بمختلف الطرق والوسائل . وكان يوسف بن تاشفين يبغض اليهود ، ويرى إرغامهم على اعتناق الإسلام ، وشجعه على ذلك بالنسبة لليهود الأندلس ، فقيه قرطبي زعم أنه وقع فى أحد الكتب ، على حديث منسوب إلى النبي ، مفاده أن اليهود تعهدوا بأن يؤمنوا بالنبي العربى ، وأن يعتنقوا الإسلام ،

(١) الحلل الموشية ص ٥٧ و ٥٩ .

(٢) تقع بلدة أليسانة أو اللسانة Lucena ، شمال غربى لوشة بولاية غرناطة .

إذا حلت الخمسمائة عام من الهجرة ، ولم يظهر لهم النبي الرسول ، الذي بشر به موسى في التوراة ، وبأنه سوف يكون منهم ، وأن نبيهم يكون عندئذ هو نفسه نبي المسلمين ، ويتحتم عليهم اعتناق الإسلام وكان يهود الأندلس يجتمعون بالأخص في مدينة أليسانة المتقدمة ، وهي مدينة يهودية خالصة ، بها ربح واحد يسكنه المسلمون ، ولا يختلطون بأحد منهم ، وأهلها أغنياء مياسير ، ومن أغني يهود العالم . وكان أمير المسلمين حين مر بتلك المدينة ، يريد أن يرغم أهلها اليهود على اعتناق الإسلام وفقاً لما تقدم ، ولكن فقياً آخر ، أفتى بأنه يجوز تركهم على وجه الافتداء ، فدفع اليهود مبالغ طائلة لأمر المسلمين ليحتفظوا بدينهم (١) . ثم تمادت هذه السياسة في عهد ولده علي ، ولجأ علي في نفس الوقت إلى فرض القبالات والإتاوات ، على مختلف الصنائع والسلع ، فكانت القبالات تفرض على الصابون والعطور والذخاس والمغازل ، كما تفرض على كل شيء يباع جل أو صغر ، كل شيء على قدر قيمته (٢) ، كما لجأ علي إلى استخدام النصاري والروم في تحصيل الجبايات (٣) . ولما اضطرت أحوال الدولة المرابطية ، على أثر قيام حركة المهدي ، اشتد نفود النصاري في الجيش ، وفي شئون الجبايات ، لما كان يجهوم به علي بن يوسف من ثقة وحماية ، وأساءوا معاملة المسلمين ، واشتطوا في تحصيل المغارم والفروض ، وغلبت الفوضى على شئون الدولة المالية ، كما غلبت على غيرها .

وقد اختلفت الآراء حول طبيعة الدولة المرابطية ، وطبيعة وسائلها في الحكم ، واشتد بعض المؤرخين في الحكم عليها ، ورميها بأقصى النعوت والصفات ، وجنح البعض بالعكس إلى امتداحها ، وامتداح عهدها وحكمها .

وكانت تعليقات العلامة المستشرق دوزي ، وحملته على المرابطين ، والدولة المرابطية ، من أشد ما صدر من الأحكام في هذا الموضوع . ومن الأسف أن هذه الحملة التي شنها دوزي على المرابطين ، وعلى عهدهم بالأندلس ، قد تناقلها

(١) الحلل الموشية ص ٥٨ . وراجع في وصف مدينة أليسانة « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » المأخوذ من نزهة المشتاق للإدريسى (طبعة دوزي) ص ٢٠٥ .

(٢) الإدريسى في المرجع السابق ص ٧٠

(٣) الحلل الموشية ص ٦١ .

معظم الكتاب والنقده المحدثين ، واعتبروها حكماً مبرماً ، لا يقبل جدلاً ولا نقصاً .
ومن ثم فإنه لا بد لنا أن ننقل أولاً ما تضمنته أقوال دوزى من وجوه الطعن
والنقد ، ثم نعود بعد ذلك إلى تحليلها ومناقشتها .

يقول دوزى بادىء ذى بدء : « إن الشعب (الأندلسي) لم يكن له أن يهني
نفسه بالانقلاب الذي وقع (يعني تحول الأندلس إلى سلطان المرابطين) . ذلك
أن الحكومة والقادة والحند ، جميعاً قد فسدوا بسرعة مذهلة .

إن قواد يوسف حينما قدموا إلى اسبانيا ، كانوا حقاً أميين ، ولكنهم كانوا
أتقياء شجعاناً أمناء ، وقد اعتادوا على حياة الصحراء البسيطة المتقشفة . فلما
أغنهم كنوز الأمراء الأندلسيين التي أغدقها عليهم يوسف ، فقدوا فضائلهم بسرعة ،
ولم يعودوا يفكرون إلا في أن يتمتعوا في سلام بهذه الثروات التي غنموها .
ولقد كانت حضارة الأندلس بالنسبة لهم مشهداً جديداً ، ولما كانوا ينجلون من
بربريتهم ، فقد أرادوا أن يندمجوا فيها ، واتخذوا لهم مثلاً من الأمراء الذين
خاعوهم . بيد أنهم كانوا لسوء الحظ من ذوى الحلد الخشن ، ولم يكن بوسعهم
أن يتمشوا مع النعومة ، والكياسة ، والرقة الأندلسية ، وكان كل شيء لديهم
يحمل طابع التقليد الخانع القاصر . »

ثم يقول : « ولم يكن الحند (أعنى المرابطين) ، بالرغم من كوتهم أكثر
محافظة ، أفضل من رؤسائهم ، وقد كانوا يمتازون بالقحة نحو الأندلسيين ،
وبالجبن إزاء العدو . والواقع أن جبنهم كان فادحاً ، حتى أن الأمير على ، اضطر
أن يتغلب على بغضه للنصارى ، وأن يحشد في جيشه أولئك الذين كان قائد
أسطوله ابن ميمون يجيء بهم من شواطئ جليقية ، وقطلونية وإيطاليا ، وبلاد
بزنطية . وأما عن قحتهم ، فإنه لم يكن لها احد . فقد كانوا يعاملون الأندلس
كبلاد مفتوح ، ويأخذون منها كل ما راق لهم ، من نقد ومال ونساء . وكانت
الحكومة تركهم يفعلون ذلك ، ولاتستطيع ضدهم شيئاً . وكان ضعفها في ذلك
يدعو إلى الرثاء . وقد اضطر الفقهاء إلى ترك السلطان للنساء ، أو على الأقل إلى
أن يشاطروهن هذا السلطان . وكان الأمير على يترك لزوجته قمر كل شيء ،
وثمة نسوة أخريات كن يحكمن وفقاً لأهوائهن كبار الأعيان ، ومادام في وسعهم
أن يحققوا جشعهن ، ففي وسعهم أن يفعلوا ما شاءوا . بل لقد كان في وسع قطاع

الطريق أن يؤملوا النجاة، إذا استطاعوا أن يشتروا حماية أولئك السيدات»^(١) :

هذا ما يقوله دوزى في « تاريخه » . وإليك ما يقوله في « بحوثه » :

« في نحو أواخر القرن الحادى عشر ، حينما استبدلت الأندلس أمراءها الوطنيين ، بمملكة إفريقية ، جاءت كحليفة ، ثم انتهت بأن فرضت سيادتها ، حدثت في هذا البلد ثورة سريعة محزنة . فقد حلت البربرية مكان المدن ، وحل التخريف مكان الذكاء ، وحل التعصب مكان التسامح . وأضحت البلاد تن تحت النير المرهق الذى يفرضه رجال الدين والحند ، فلم يعد يسمع مكان المناقشات العلمية الروحية فى المعاهد ، وأحاديث الفلاسفة العميقة ، وأناشيد الشعراء ، سوى صوت الفقهاء الرتيب ، وضحيج السيوف تجر على الإفريز»^(٢) .

ونكتفى بنقل ما تقدم من أقوال دوزى وتعليقاته عن المرابطين بالأندلس . والواقع أنه يشهر مثل هذه الحملة ، فى مواطن كثيرة من تاريخه^(٣) . وهو بصفة عامة شديد الوطأة على المرابطين ، وعلى عاهلهم يوسف ، ينتقص منهم كأمة ، وكدولة وحكومة ، وهو قد يكون على حق فى بعض الأحيان ، وقد يجد سنداً لحملة فى بعض الوقائع . ولكن حملته تم على الأغلب عن روح واضح من التحامل .

ولقد رمى من قبل ، دوزى هذا التحامل العلامة المستشرق كوديرا ، فهو يقول معلقاً ، على تلك الأحكام التى أصدرها دوزى فى حق المرابطين :

« لقد صيغت أحكام قاطعة جداً ، مجحفة بالنسبة لحكم المرابطين . ولما كنا نعتقد أنه لا مبرر لهذه الأحكام ، بالرغم من مكانة دوزى العظيمة ، الذى حذا حذوه معظم الكتاب المتأخرين ، فإننا نعتقد أنه يجب علينا أن نقول شيئاً من عندنا ، لأنه إذا كان يبدو أن العلامة الهولندى يستند فى أقواله إلى وقائع مأخوذة من الكتاب المسلمين والنصارى ، فإنى أشعر أنه يجيش بكثير من التحامل ، وهذا يرجع بالأخص إلى تعصبه ضد رجال الدين ، وإلى تطبيق هذا التعصب بالنسبة للأمة الإسلامية ، وإلى ميله الواضح إلى التعميم ، وإلى أن يستخرج النتائج بالاستناد إلى قليل من الوقائع»^(٤) .

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne (1932) V. III. p.162 - 164

(٢) Dozy : Recherches (Ed. 1881) Vol. I. p. 348

(٣) انظر مثلاً : تاريخه (ج ٣ ص ١٥٥ و ١٥٧ و ١٦٨)

(٤) F. Codera : Decad. y Desp. de los Almorávides p. 190 & 191

والواقع أن دوزي لا يجد أقوال الرواية العربية كثيراً من الأسانيد المؤيدة لحملته ، ولا يعتمد في ذلك إلا على ملخص لفقرتين أوردهما المراكشي في « المعجب » ، يقول في أولهما ما يأتي :

« واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله (مشيراً إلى علي بن يوسف) بعد الخمسةائة اختلالاً شديداً ، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا في ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح ، بأنه خير من أمير المسامين ، وأحق بالأمر منه ، واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لتونة ومستوفة تشتمل على كل مفسد وشريد وقاطع طريق ، وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين في ذلك كله يزيد تغافله ، ويقوى ضعفه ، وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهراً عنه ذلك . وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأولى ، ولاسيما مذ قامت دعوة ابن تومرت بالنسوس » (١) .

ويقول في الثانية : « وكان (أي علي بن يوسف) رجلاً صالحاً مجاب الدعوة ، يعد في قوام الليل ، وصوام النهار ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ، ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال ، واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له وزراً على ما تقدم » (٢) .

هذا ما يقوله المراكشي . ولنلاحظ أولاً أن المراكشي يجانب الدقة التاريخية في أحيان كثيرة ، وهو ما يعترف به ويعتذر عنه في مقدمته ، ثم هو بعد ذلك كاتب ومؤرخ موحدى من أولياء الدولة الموحدية وصنيعة بعض أمرائها ، ومن ثم فإنه يصعب علينا أن نتخذ من أقواله دائماً حجة قاطعة ، ومن جهة أخرى فإنه يوجد إلى جانب هذه الأقوال ، أقوال أخرى لمؤرخين وكتاب ، عاش بعضهم في العهد المرابطى أو قريباً منه ، تشيد بحكم المرابطين وأيامهم ، فمن ذلك ما يقوله صاحب الحلل الموشية ، معلقاً على عهد يوسف بن تاشفين :

(١) المعجب ص ٩٨ و ٩٩ .

(٢) المعجب ص ١٠٣ .

« أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة ، في رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته ، وقد كان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة من مدة آل عامر إلى حين دخوله إليها . قدم أشياخ المرابطين فيها وكانوا أقواماً ربّتهم الصحراء ، نيتهم صالحته لم تفسدها الحضارة ، ولا مخالطة الأسافل » (١) .

وما ينقله إلينا عن القاضي أبي بكر بن العربي ، وهو ماجاء في كتابه في شرح الرمذى ، وهو قوله :

« المرابطون قاموا بدعوة الحق ، ونصرة الدين ، وهم حماة المسلمين ، الذابون والمجاهدون دونهم ، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة لولا تقدم إلا وقيعة الزلافة التي أنسى ذكرها حروب الأوائل ، وحروب داحس والغبراء مع بني وائل ، لكان ذلك من أعظم فخرهم ، وأربح تجرهم » (٢) .

والقاضي ابن العربي من أعلام فقهاء الأندلس في العصر المرابطى ، وقد توفى في سنة ٥٤٢ هـ ، على أثر عوده من لقاء عبد المؤمن ، عقب افتتاحه لمراكش ، وكان قد وفد إليه على رأس زعماء إشبيلية ، ليقدّم إليه بيعة أهلها ، حسبما أشرنا إليه في موضعه . هذا وينقل إلينا صاحب روض القرطاس عن ابن جنّون الفقرة الآتية : « كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة ، وصحة مذهب ، ملكوا بالأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربي المحيط ، ومن مدينة بجاية من بلاد العدو ، إلى جبال الذهب من بلاد السودان . لم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكروه ، معونة ولاخراج في بادية ولا في حاضرة ، وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر . وكانت أيامهم دعة ورفاهية ورخاء متصل ، وعافية وأمن . . . كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم ، ولم يكن في بلد من أعمالهم خراج ولا معونة ، ولا تقسيط ، ولا وظيف من الوظائف الخزنية ، حاشا الزكاة والعشر ، وكثرت الخيرات في دولتهم ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة ، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع طريق ، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة » (٣) .

(١) الحلل الموشية ص ٥٩ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٠٥ .

(٣) راجع روض القرطاس ص ١٠٨ ، ونقله أيضاً السلاوى في الإستقصاء ج ١ ص ١٢٨ .

ويبدو من كل ما تقدم أن الحكم على العهد المرابطي ، كالحكم على أي عهد آخر من عهود التاريخ ، يتردد بين القدر والمديح . ونحن لانود أن نقف اعتباراً عند إحدى الوجهتين . بيد أنه يلوح لنا أنه إذا كان حكم المرابطين ، ولاسيما في الأندلس ، قد ينطوي من بعض نواحيه على أخطاء ومثالب ، فإنه من الناحية الأخرى ، قد أغمط حقه وبولغ في انتقاصه والحملة عليه .

ولنقف هنا لحظة لنحاول أن نستعرض بعض العوامل والأسباب التي هيأت ذلك الجو المحفف بسمعة المرابطين ، وأذكت ضدهم حملة الانتقاص والتشهير التي ما زال صداها يتردد حتى يومنا . ويلوح لنا أن هذه العوامل ترجع إلى ثلاثة أمور يمكن أن نأخصها فيما يلي :

الأول ، هو ما اقترن بالفتح المرابطي لممالك الطوائف الأندلسية من مظاهر القسوة البالغة ، ومن قتل عدد من أمراء الطوائف بصورة مثيرة ، مثل بعض أبناء المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الألفس وولده وغيرهم من الأمراء والأكابر ، ونهب الأموال ، ومعاملة الحند المرابطين لقواعد الأندلس معاملة المدن المفتوحة ، والعيث فيها دون وازع . وقد كان المسئول الأول في ذلك هو سير بن أبي بكر اللمتوني كبير القادة المرابطين وفتح إشبيلية وبطليوس . وفي اعتقادنا أنه لو كان عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين موجوداً في شبه الجزيرة في تلك الفترة ، لأمكن اجتناب كثير من هذه الحوادث الدموية ، وهذا العيث الفظيع . على أنه يمكن أن نقول من جهة أخرى أن قسوة أمير المسلمين في معاملة المعتمد بن عباد وهلاكه في سجنه بأغاث ، على النحو المؤسئ الذي وقع ، كانت أيضاً مادة خصبة لتغذية هذه الحملة المرة على المرابطين . وقد كان لما صدر من المعتمد في سجنه من النظم المبكى ، أعمق وقع وأبعد صدى في تصوير هذا الأمير الشاعر ، بالرغم من كل ما أحاق بسيرته وسلوكه من أخطاء ومثالب ، في صورة الشهيد الذي يستحق أبلغ عطف . ونحن نجد ذلك الصدى بالأخص ، فضلاً عن الأدب والشعر الأندلسي ، ماثلاً لدى الكتاب والمؤرخين المشاركة . وقد كان لحملاهم العنيفة على أمير المسلمين وعلى المرابطين ، أكبر الأثر في إذكاء هذه الحملة التي صعدت من هيبة المرابطين وهيبة عاهلهم حتى عصرنا .

والأمر الثاني ، هو ما وقع منذ بداية عهد علي بن يوسف من مطاردة كتب بالدين والفلسفة وغيرها ، ولاسيما كتب الأصول وفي مقدمتها كتب الغزالي . وقد

أشرنا فيما تقدم إلى ما كان من تأثير الفقهاء على أمير المسلمين علي بن يوسف . ولم يك ثمة شك في أن مطاردة الحركة الفكرية على هذا النحو يرجع قبل كل شيء إلى وحي الفقهاء وتدبيرهم . وقد كان لهذه السياسة ، أثر بالغ في إذكاء عاطفة السخط ضد المرابطين بالأندلس ، ولا سيما في البيئة الفكرية ، وفي توجيه الأقلام ضدهم أو على الأقل في حرمانهم من عطف هذه الأقلام . ومما هو جدير بالذكر أنه فيما عدا أمثلة قليلة ، يندر أن نجد في الأدب الأندلسي من نظم أو نثر خلال العهد المرابطي ، مدائح شعرية أو رسائل نثرية تشيد بالمرابطين أو أمرائهم .

والأمر الثالث ، هو الحملة العنيفة المضطربة التي شنها المهدي ابن تومرت ضد المرابطين ، ونحن نعتقد أن هذه الحملة كانت أخطر عامل في القضاء على هيبة الدولة المرابطية ، وسمعتها الدينية ، وهي الدعامة التي قامت عليها . والواقع أن ابن تومرت قد لمس في دعايته ضد المرابطين أشد النواحي حساسية وتأثيراً ، وذلك حينما صور المرابطين بأنهم كفار خوارج على شريعة الإسلام ، وأنهم قد ارتكبوا كثيراً من المناكر المشيرة ، من إباحة للمحرمات من ذبوع الخمر ، والقصف والفسق ، واغتصاب أموال الناس بالباطل ، وغير ذلك مما كانت مظاهر العاصمة المرابطية ، وأحوال الدولة المرابطية ، والمجتمع المرابطي ، تؤيده في ذلك الوقت بصفة فعلية . وقد استمرت هذه الدعاية الملتهبة التي شنها المهدي ضد المرابطين طول حياته ، واستمرت من بعده ، وحتى بعد أن سقطت الدولة المرابطية ومحيت آثارها ، وكان لها أبلغ الأثر في القضاء على هيبة المرابطين وسمعتهم بصفة نهائية . تلك هي العوامل التي اجتمعت لتصدع من هيبة الدولة المرابطية ، ولتسبغ على سيرتها ، وعلى ذكرياتها لدى الأجيال اللاحقة ، ذلك اللون القاتم ، الذي تأثّل بمضى الزمن ، وبما جنحت إليه التواريخ والكتابات المتعاقبة ، من الأخذ به دون تمحيص أو تفنيد .

وما من شك في أن الدولة المرابطية قد لبثت طوال عهد مؤسسها العظيم يوسف بن تاشفين ، وهو نصف حياتها ، دولة مجاهدة ، تحتفظ بكثير من فضائلها الأولى ، من التقشف والمنسعة والعدالة والتمسك بأحكام الكتاب والسنة . وقد كان افتتاح المرابطين للأندلس على النحو الذي تقدم ، بعد عبورهم إليها إخوة منقذين ، أول سحابة قائمة أسبلت على دولتهم ، وعلى سياستهم ومراميمهم . وقد ناقشنا هذه المسألة في موضعها من كتابنا « دول الطوائف » ، وأوضحنا مالها وما عليها ، على ضوء

الظروف التي أحاطت بها . بيد أنه مهما قيل في هذه المسألة ، فإن الفتح المرابطي للأندلس ، فضلا عن كونه حدث يتفق مع روح العصر الذي وقع فيه ، لا يمكن أن يُمحي ما تقدمه ، وما أعقبه من فضل المرابطين في الجهاد ، وسحقهم لجيوش اسبانيا النصرانية ، في موقعة الزلاقة العظيمة ، التي كانت أروع مثل لبطولتهم ، وجهادهم في سبيل الله ، وإنقاذهم الأندلس بذلك من خطر الفناء الداهم . ولا يمكن أن يمحي فضلهم بعد ذلك في الذود عن الأندلس ، وحمايتها من مطامع ألفونسو المحارب ملك أراجون ، وألفونسو ريمونديس ملك قشتالة . ويكفي أن نستعرض في تلك الحقبة ، مراحل جهادهم وغزواتهم في أراضي اسبانيا النصرانية ، منذ موقعة أقاليش (٥٠١ هـ) حتى موقعة إفراغة (٥٢٨ هـ) ، وهي تنطوي على صفحات مشرقة من الجهاد في سبيل الله ، والذود عن الدين والوطن ، وفيها تبدو بسالة هذه الجمهرة الممتازة من القادة المرابطين ، الذين سبق أن ذكرناهم غير مرة فيما تقدم .

ومن المسلم به أن هذه الصفحات من جهاد المرابطين في سبيل إنقاذ الأندلس والذود عنها ، هي أنصع ما في تاريخهم من تلك الفترة التي حكموا فيها الأندلس . على أنه يجب من جهة أخرى ألا نبالغ في تقدير هذه النزعة الجهادية ، وهذه الصفحة من الجهاد المرابطي في الأندلس ، فإنه يوجد ثمة ما يغشى صفاءها ، وينتقص من عظمتها . ذلك أن المرابطين كانت لديهم بعد نصر الزلاقة الحاسم ، أكثر من فرصة لمهاجمة اسبانيا النصرانية وضربها في الصميم ، وكان بوسعهم ، لو صدقوا العزم ، وضاعفوا الهمة ، أن يستردوا مدينة طليطلة العظيمة ، قبل أن تنتعش قوى اسبانيا النصرانية من ضربة الزلاقة . ولكنهم لم يبذلوا هذه المحاولة في وقتها . وقد ناقشنا هذه المسألة في موضعها عند الكلام على نتائج موقعة الزلاقة . أجل إن المرابطين ، حاولوا في بداية عهد علي بن يوسف ، استرداد طليطلة ، وهاجموها وحاصروها مرتين ، الأولى في سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) ، والثانية في سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) ، ولكنهم أخفقوا في المرتين ، بالرغم مما بذلوه في كل مرة من الجهود العنيفة . ذلك أن الفرصة كانت قد ولت ، والوقت قد فات . ولما اضطربت شئون اسبانيا النصرانية بعد ذلك بقليل ، وشغلت بحروبها الأهلية ، لم يكن بوسع المرابطين أن يستغلوا هذه الفرصة ، لما دههم بالمغرب من ثورة المهدي ابن تومرت ، وعجزهم عن أن يبعثوا إلى شبه الجزيرة بقوات كبيرة .

وثمة سقطة أخرى تصدع من قيمة جهاد المرابطين بالأندلس ، هي موقفهم من الدفاع عن مدينة سرقسطة . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف تجلّى المرابطون ، وأميرهم أبو الطاهر تميم بن يوسف ، عن الاستجابة إلى صريخ المدينة المنكوبة ، ورفضوا بذل أية محاولة لإنقاذها ، وآثروا الانسحاب والسلامة ، مع أنهم كانوا يرابطون في ظاهرها على مقربة من النصارى المحاصرين لها ، وترتب على ذلك أن اضطرت المدينة العظيمة المسلمة إلى التسليم (سنة ٥١٢ هـ) . وتنوه الرواية الإسلامية بما ينطوى عليه هذا الموقف من الجبن والخزي ، وهو موقف كان له أكبر الأثر في النيل من هيبة المرابطين العسكرية .

أما حكم المرابطين للأندلس ، فإنه يبقى من الناحيتين الإدارية والاجتماعية ، عرضة لكثير من وجوه المواقظة والنقد . ومن الواضح أن المرابطين وضعوا الأندلس ، عقب افتتاحها ، تحت حكم عسكري مطلق ، ونزعوا أبناءها كل سلطة فعلية في حكم بلادهم ، واحتفظوا للمرابطين بسائر المناصب العليا من ولاية وقيادة ، وبالرغم من أن أولئك الولاة والقادة المرابطين ، كانوا على الأغلب رجالات ، من ذوى الحزم والبراعة العسكرية ، والصفات البدوية النقية ، فإنه كان ينقصهم المرونة والكياسة في حكم أمة متمدنة كالأمة الأندلسية ، وكانت أساليبهم العنيفة الحشنة في ذلك ، تجافي ما طبعت عليه الأمة الأندلسية من الأساليب الرفيعة المصقولة . ولم تظهر آثار هذا الحكم المطلق في صورها البغيضة ، أيام يوسف بن تاشفين ، حيث كانت هيبة البطل المرابطي ، وحزمه وبعد نظره ، وميله إلى تحقيق العدالة ، ورفع المظالم ، تلتطف كثيراً من وقع الحكم الحديد ، على الأمة التي كانت تشعر نحوه بشكر الصنيعة . واستطاع ولده علي في أوائل حكمه ، أن يحتفظ بقسط من محبة أهل الأندلس وتقديرهم . وقد كان في الواقع أميراً صالحاً ، محباً للخير ، يضمّر أحسن النيات بالنسبة للأندلس ، والذود عنها ، وبالنسبة لطرائق حكمها ، وذلك حسبما تدل عليه عدة من الرسائل الرسمية ، التي صدرت عن ديوانه في شئون الأندلس ، والتي وفق البحث أخيراً إلى نشرها ، لتلقى ضوءاً جديداً ، على كثير من النواحي السياسية والنظامية المتعلقة بتاريخ العهد المرابطي في الأندلس (١) .

(١) عنى بتحقيق هذه الرسائل ونشرها الدكتور محمود علي مكي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، وذلك عن مخطوط مغربي كان ضمن تركة المرحوم الأستاذ ليثي بروفنسال ، وحصل عليه معهد =

ففي إحدى هذه الرسائل ، وهي المؤرخة في شوال سنة ٥٥٠٧ هـ ، ينوه على ابن يوسف ، بالحركة التي يعدها للجهاد ، وبكونه قد بالغ في الاحتشاد والاستعداد ، ويؤكد لمن وجهت إليهم الرسالة ، إخلاص نيته ، وصدق حبه « في نصر دين الإسلام ، ومنع جانبه أن يضام ، أو يناله من عدوه اهتضام »^(١) . وفي رسالة أخرى ، وهي التي يشير فيها إلى ما عرضه عليه القاضي أبو الوليد ابن رشد ، عن شتون الأندلس (والمرجح أنها وجهت في أوائل سنة ٥٢٠ هـ) يبدى على عطفه وإشفاقه على الأندلس ، ويؤكد أنه لن يدخر وسعاً « في الذود عن حوزة الملة »^(٢) . وتوجد ثمة رسائل أخرى ، تم عن يقظة الأمير واهتمامه بشتون الأندلس ، وتنبيه لما يدبره أعداؤها ضدها^(٣) . وإلى جانب ذلك توجد عدة رسائل تم عن صفة الحكم المرابطي وطبيعته الدكتاتورية المطلقة . من ذلك ما ورد في الرسالتين السادسة والسابعة ، من حث الأمير على طاعة الحاكم ، واعتباره في كل ما يصدر عنه متحكماً باسمه ، ومنفذ لرأيه^(٤) ، لبس لأحد معه في ذلك من يد ، ولا مصدر ولا مورد ، « قد فوضنا إليه ذلك كله ، وأفردناه النظر في دقه وجله ، وكثره وقه ، وحكمناه في جميعكم ، يثيب من استحق الثواب ، ويعاقب من استحق العقاب »^(٥) ، وكذا في الرسالة الثالثة عشرة ، وهي الصادرة في شهر المحرم سنة ٥٥٠٠ هـ ، ولعلها أول رسالة وجهها على بن يوسف عقب توليه الملك ، وفيها يوصى بالطاعة والولاء للوالي أبي محمد ابن فاطمة « ما أمركم به أتتموه ، وما نهاكم عنه تركتموه »^(٦) .

بيد أنه توجد طائفة أخرى من هذه الرسائل ، تدل على أن الأمير كان يعنى في نفس الوقت بالعمل على تجنب الاستبداد ، واتباع الشورى ، وعدم الاستئثار بالرأى . وهذا ما يوصى به ولده أبا بكر في الرسالة التي يوجهها إليه بتاريخ

= الدراسات الإسلامية ، وقد نشرت بالمجلدين السابع والثامن في الصحيفة المذكورة ، تحت عنوان « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » (ص ١٠٩ - ١٩٨) .

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (المجلد المشار إليه ص ١٦٨) .

(٢) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (المجلد السالف) ص ١٦٧ .

(٣) راجع بالأخص الرسالة الثانية عشرة (ص ١٨٠ و ١٨١) .

(٤) راجع الرسالة السادسة ص ١٧٥ .

(٥) راجع الرسالة السابعة ص ١٧٦ .

(٦) الرسالة الثالثة عشرة ص ١٨٢ .

صفر سنة ٥٢٠ هـ ، بمناسبة تعيينه قائداً عاماً للجيش المرابطية بالأندلس (١) .
وثمة رسالة موجهة من الأمير إلى محمد بن فاطمة ، يحثه فيها على أن يستعمل
من العمال ، من يتبع الرفق والعدل ، وأن يعزل منهم من ينحرف عن الأحكام
ومن يأخذ أموال الرعية ظالماً ، وأن يعاقبه على ذلك ويلزمه برد ما أخذ (٢) .

هذا وتوجد ثمة رسالة هامة ، تدل على عناية عليّ بأمر القضاء ، وحسن
تنظيمه ، وبإقامة العدل واستتبابه ، وهي رسالة موجهة منه إلى الوحيدى قاضى
مالقة ، فى شهر ذى الحجة سنة ٥٢٣ هـ ، وذلك على أثر ما قام بعض
المرافعين (المتقاضين) من السفر إلى مراکش ، والتظلم لدى الأمير ، وفيها
يعرف موضوع القضاء بأنه « رفع المشكلات ، وتمييز الحقائق من المتشابهات
والفصل بعد التبرم فى الدعاوى والمنازعات » ، ويطلب أن تنظر « شكاوى
العامة فى اللطيف والجليل » ، وأن يجرى التعرف على شئون الرعية ، وأن يجرى
الحق فى كل ما رفع من أحوالها ، وما وقع فيه التظلم من عمالها ، وأن الأمر
فى ذلك معلق على حسن اختيار النواب فى الأقطار ، وأنه يجب أن يتوفر فى
هؤلاء « الثقة والديانة والصون والأمانة » ، فإذا وقع من أحدهم تعد أو جور ،
كان له أن يطلب عزله إلى الحاكم الذى يتبعه ، فإن تولى فى ذلك ، فله أن يرفع
الأمر إلى الأمير مباشرة . وفى الرسالة بعد ذلك حث على تحصيل الزكوات ،
على تباين أنواعها ، وموجب فريضتها دون تحريف ولا تبديل (٣) .

هذا مجمل ما تدلى به هذه المجموعة من الرسائل المرابطية : فهى من جهة تدلى
بما كانت تنطوى عليه نفس أمير المسلمين من نيات صادقة فى الأخذ بيد الأنداس ،
والذود عنها ، وتدلى من جهة أخرى بما كانت تحرص عليه الحكومة المرابطية
من جمع سائر السلطات بين يديها .

وكان الحجر على حرية الفكر من أسوأ صور الحكم المرابطى المطلق . ونحن
نعرف ما عمد إليه أمير المسلمين على بن يوسف ، بتحريض فقهاءه : من مطاردة
كتب الأصول ، وفى مقدمتها كتب الإمام الغزالى ، ولا سيما كتاب « إحياء
علوم الدين » (سنة ٥٠٧ هـ) . وقد لبثت هذه المطاردة طوال العهد المرابطى ،

(١) راجع الرسالة الثالثة ص ١٦٩ .

(٢) الرسالة الخامسة عشرة ص ١٨٣ و ١٨٤ .

(٣) تراجع هذه الرسالة الهامة وهى الرابعة من المجموعة فى ص ١٧٠ - ١٧٤ .

ففرى مثلاً في الرسالة التي وجهها أمير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف ، إلى فقهاء بلنسية وأعيانها وأهلها ، في جمادى الأولى سنة ٥٣٨ هـ ، إلى جانب ما تحض عليه من وجوب الرفق بالرعية ، وإجراء العدل ، وتحقيق المساواة بين الناس ، والأخذ بمذهب مالك ، دون غيره ، في الفتيا وسائر الأحكام ، حثاً على مطاردة كتب البدعة ، «وخاصة كتب أبي حامد الغزالي» ، وأنه يجب «أن يتبع أثرها ، ويقطع بالحرق المتتابع خبرها ، ويبحث عليها ، وتغلظ الأيمان على من ينهم بكتابها» (١) .

ومن الواضح أن هذه المطاردة الفكرية لم تكن تقف عند كتب الأصول وكتب الغزالي ، ولكنها كانت تشمل سائر المصنفات الكلامية والفلسفية ، التي تنكرها التعاليم المرابطية ، وغيرها مما تصفه الرسالة « بكتب البدعة » . وكان من ضحايا هذه المطاردة ، عدة من المفكرين الأندلسيين ، ومنهم العلامة الصوفي أبو العباس أحمد بن محمد الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف ، حيث نفاه أمير المسلمين علي بن يوسف من بلده ألمرية إلى مراكش (٢) .

ثم إنه يبدو من جهة أخرى أن الحكام المرابطين بالأندلس ، لم يبدو حزماً كافياً في قمع طغيان الحند والعبيد التابعين لهم ، وأن هؤلاء كانوا يرتكبون ضد أبناء الشعب الآمنين ، ضروباً مثيرة من التعدي والأذى . وهذا ما يسجله لنا وزير وكاتب أندلسي كبير معاصر ، هو أبو محمد عبد الحميد بن عبدون ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ، (١١٢٦ م) وقد كان من كتاب الأندلس الذين خدموا في بلاط علي بن يوسف ، يسجله لنا في رسالته التي وضعها عن القضاء والحسبة ، حيث يقول عند « ذكر المرابطين » :

« يجب ألا يُلثم إلا صنهاجي أو ملتوني أو لمطي ، فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يُلثم ، يلثمون على الناس ويهيبونهم ، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة ، بسبب اللثام ، وهمماً ، ويكلم في ذلك مع السلطان ، فإنهم عتاة . ويمتاز بذلك من عسى أن يُكرم أو يُوقر ، أو تُقضى له حاجة من المرابطين ، لأن العبيد

(١) وردت هذه الرسالة في المخطوط رقم ٥٣٨ الغزيري بالإسكوريال وقام بنشرها الدكتور حسين مؤنس ضمن مجموع النصوص السياسية المرابطية ، وذلك في مجلة المعهد المصري بمدريد (العدد الثالث سنة ١٩٥٥) ص ١١٠ - ١١٣ . وقد نشرناها نحن في باب الوثائق .

(٢) راجع في ترجمة ابن العريف ابن خلكان ج ١ ص ٦٧ ، والصلة لابن بشكوال (القاهرة)

الترجمة رقم ١٧٦ .

أو الحشم إذا تلثم وغير شكله ، حسبته رجلا مثيلا ، فتجري إلى برّه وإكرامه ، وهو لا يتأهل لذلك . يجب ألا يمشی أحد في المدينة^(١) بسلاح ، فإن ذلك داعية إلى الفساد ، ولا سيما البربر ، فإنهم قوم إذا غضبوا ، قتلوا أو جرحوا .

عبيد المرابطين إن تلثموا ، فتكون علامة يعرفون بها ، مثل أن يتلمثوا بخمار أو بمزرو وشبه ذلك . وكذلك الحشم والأتباع ، يكون شكلهم غير شكل المرابطين ، وهذا أحسن إن قُدر عليه ، وفيه منافع كثيرة . يجب أن يُحمل مكان السلاح التي يحبسونها ، إما أسواط لدوابهم ، وإما أقفال ، وهو الرمح الصغير^(٢) .

فهذه الأقوال ، تدل على أن طوائف الحشم والعبيد التابعة للحكام والسادة المرابطين ، كانت تعتدى على الناس ، وتعبث بالأمن ، تحت ستار اللثام الوهمي . كما تدل على أن الجند البربر كانوا يتسمون بالنزق وتوتر الأعصاب ، مما يدفعهم إلى القتل والجرح بسهولة ودون تحوط .

وكذلك ليس ثمة شك في أن الحكم المرابطي بالأندلس ، أخذت تشتد وطأته شيئاً فشيئاً ، ولا سيما مذ بدأ اضطراب أحوال الدولة المرابطية بالمغرب ، على أثر ظهور المهدي ابن تومرت ، واشتداد حركته في أواخر عهد علي بن يوسف ، وعمد الحكام المرابطون عندئذ إلى تشديد قبضتهم في مختلف القواعد ، واشتدوا في معاملة الأندلسيين ، وكانت بوادر الحصومة والحفاء ، قد ظهرت قبل ذلك بين الفريقين ، وكان أخص مظاهرها ثورة قرطبة التي اضطرمت ضد المرابطين منذ سنة ٥١٤ هـ ، ودلت بعنفها على حالة الأندلسيين النفسية ، وما يضمرونه من بغض للحكم المرابطي ووسائله . وكان انشغال حكومة مراکش بحركة المهدي ، وتضاؤل رقابتها ، على شئون الأندلس ، عاملاً له أثره في ازدياد مطالب الحكم المرابطي بالأندلس ، وترك حبله على الغارب ، إلى الحكام المحليين ، وكان من أثر ذلك أن ازداد سخط الشعب الأندلسي وحفيظته ، وشعوره باقتراب الفرصة السانحة ، للتحرر من نير حكم أجنبي ، أضحي يرهقه ، وأضحى يتوق هو إلى تحطيمه .

ونحسب أننا بهذا الاستعراض الموجز لظروف الحكم المرابطي وأحواله

(١) وهو يقصد هنا مدينة إشبيلية ، حسبما يبدو من سياق ما سبق .

(٢) رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة المنشورة بعناية الأستاذ ليثي بروثنسال ص ٢٨ .

بالأندلس ، قد أوضحنا ما ينطوي عليه هذا الحكم من مختلف نواحيه الحسنة والسيئة . وإذا كانت حسنات الحكم المرابطي تتلخص قبل كل شيء في أعمال الجهاد التي اقترنت بحقبة الأولى ، فإن مثالبه تتلخص في استثثار المرابطين بالسلطان ، وفرضهم على الأندلس حكم طغيان مطاق ، شديد الوطأة ، لم تألفه الأمة الأندلسية ، ويزيد من وطأته عدوان الحند والعبيد ، ثم حجرهم على العقائد والفكر . بيد أنه يبتى من المبالغة والتحامل ، أن يقال إنه بقيام الحكم المرابطي بالأندلس « قد حلت البربرية مكان التمدن ، وحل التخريف مكان الذكاء ، وحل التعصب مكان التسامح »^(١) . ذلك أن مثل هذا الحكم الدامغ ، لا يسوغ إصداره عن عصر كالعصر المرابطي ، تراوح أحواله وظروفه بين مختلف الظواهر اللامعة والقائمة . وإذا كان المرابطون ، ينتمون إلى القبائل البربرية البدوية ، فقد كانوا على بداوتهم وتقشفهم يتمتعون بكثير من الفضائل والحلال الحسنة ، من الشجاعة والفروسة والورع ، والتعلق بالجهاد في سبيل الله ، وقد أتيح لهم بهذه الفضائل ، أن يشيدوا دولة من أعظم الدول التي قامت في الغرب الإسلامي ، وإن لم يتح لهم أن يشيدوا مدينة خاصة . أجل لقد فقد المرابطون بتعصبهم الجنسي ، وتزمتهم الديني ، حب الشعب الأندلسي ، ولكنهم لم يحاولوا تغيير أساليبه في الحياة الخاصة ، ولم يحاولوا وقف تيار الحركة الفكرية والأدبية ، بل بالعكس حاولوا أن يوجهوها لمعاونتهم وخدمة قضيتهم ، فكان معظم وزراء الدولة المرابطية وكتابها ، منذ البداية ، من أكابر كتاب الأندلس وأدبائها ، وكان بلاط مراکش البربري ، يصدر كتبه ومراسيمه لأهل الأندلس ، مدبجة بأقلام أقطاب البلاغة في ذلك العصر ، مثل أبي بكر بن القصيرة ، وأبي القاسم بن الحد ، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون ، وأبي عبد الله بن أبي الحصال ، وغيرهم . وإذن فإنه يكون من التعسف المحض أن يقال إنه بقيام الحكم المرابطي بالأندلس « قد حلت البربرية مكان التمدن » .

ويقول الأستاذ كوديرا معلقاً على ذلك : « إن ذلك لم يحدث بأي حال . فإن حياة المسلمين الإسبان سارت كما كانت تسير حتى يومئذ . وإنه يمكن أن نتحدث أي شخص يقوم بدراسة سير الشخصيات التي تضمنها معاجم التراجم ، وأن يجد فيها خلافاً في طريقة تكوين الأدباء ، أو بعبارة أخرى ، فإن رجال

(١) راجع أقوال دوزي السالفة الذكر .

الأدب حتى عصر الطوائف ومن بعده ، كانوا يدرسون ما يشاءون ، ومع الأساتذة الذين يختارونهم ، إذ كان التعليم بين المسلمين حراً تماماً ، إلا في العصور الأخيرة .

« في تراجم الشخصيات الكثيرة التي تبدو في ذلك العصر ، ومعظمهم من المسلمين الإسبان ، وقليل منهم من المرابطين ، لانجد شيئاً أو نجد قليلاً مما يدل على حدوث تغيير . وإن أولئك الذين عرفوا بحكومات الطوائف ، رأوا أنفسهم مرغمين أن يغيروا طريقة حياتهم ، ورأى رجال البطانة المداهنون والعاطلون ، أن التغيير سوف يسوءهم ، إذا لم يملقوا السادة الجدد ، بيد أن ذلك يحدث دائماً حينما يتغير أهل السلطان »^(١) .

وإنه ليبدو من الصعب أن نقدم صورة واضحة عن حياة الشعبين المغربي والأندلسي ، في العهد المرابطي . بيد أننا نستطيع على ضوء بعض الإشارات القليلة التي انتهت إلينا ، أن نعرف عن هذه الحياة بعض الشيء .

ومن المعروف أن العهد المرابطي لم يطل بالأندلس أكثر من أربعين عاماً ، وهو قد بدأ بالمغرب قبل ذلك بنحو عشرين عاماً ، فالدولة المرابطية لم تعش في حالة انتظام واستقرار ، أكثر من جيلين ، هما عصر يوسف بن تاشفين ، وعصر ولده علي ، وحتى فترة الاستقرار في عهد علي لم تطل ، ومذ ظهر محمد ابن تومرت ، في سنة ٥١٥ هـ ، اضطرب أحوال الدولة المرابطية بالمغرب ، ثم تسوء شيئاً فشيئاً ، حتى تنهى بالانهيار .

في خلال تلك الفترة القصيرة - فترة الاستقرار - مذ أتم يوسف بن تاشفين فتوح المغرب ، والتغلب على سائر الإمارات والقبائل الحصيمة ، وتأسيس مدينة مراكش ، تجوز الأمة المغربية فترة سكينه ورخاء ، بعد أن هدأت فترة الحروب الأهلية ، وأقبل الناس على الأعمال السلمية . وتمتعت الأندلس ، منذ الزلافة ، ثم بعد ذلك مذ سقطت دول الطوائف ، بمثل هذه الفترة من السكينه والرخاء . وكانت الأمة الأندلسية ، أيام الطوائف ، تعاني من حكم أولئك الطغاة الأصاغر ، كثيراً من ضروب الظلم والإرهاق ، ولاتكاد تفيق من الحروب الأهلية التي يشهرها أولئك الأمراء كل على الآخر ، والغزوات المتوالية التي

(١) F. Codera . Decad. y Desp. de los Almoràvides p. 199 & 200

كان يشهرها النصارى ، والتي كانت تعصف بوجدانها النضرة ، وتبث إليها الخراب والحدب . فلما قضى المرابطون على دول الطوائف ، ووضعوا حداً مؤقتاً لعدوان النصارى ، ولما شغلت اسبانيا النصرانية ، بحروبها الأهلية ، عقب وفاة ألفونسو السادس ، استطاعت الأمة الأندلسية ، أن تتنفس الصعداء ، وأن تستأنف نوعاً من حياة السلم والدعة . وهناك ما يدل أيضاً على أنها تحررت في ظل العهد المرابطى ، أو على الأقل في نصفه الأول ، من كثير من المكوس والمغارم الظالمة ، التي كانت تفرض عليها أيام الطوائف ، لتغذية قصور أوائلك الطغاة الأصاغر ، بما كانت تنعم به من ضروب الإسراف والبذخ .

على ضوء هذه القرائن والظروف ، نستطيع أن نقول إن الأمة الأندلسية ، كانت في أعوام يوسف بن تاشفين الأخيرة ، وفي أوائل عهد ولده على ، تتمتع بفترة من السكينة والرخاء ، لم تعرفها منذ أيام الدولة العامرية ، وقبل انهيار الخلافة الأندلسية . وإذا استثنينا ما فرضه المرابطون على الحياة العقلية ، وعلى الطبقة المفكرة ، من ضروب الحجر ، فإنه يبدو أن طبقات الشعب العادية ، كانت تشعر بتحسّن مادي في حياتها ، وكانت بعد أن خفت عنها وطأة الأعباء المالية والعسكرية ، بعد اضطلاع المرابطين بشئون الجهاد والدفاع ، تستطيع أن تنصرف إلى الأعمال السلمية ، وإلى تحصيل أرزاقها وأقواتها ، في هدوء وسلام ، وأن تتمتع من جراء ذلك بشيء من الرخاء الذي كان ينقصها من قبل .

ومن ثم فإنه يسوغ لنا ، بالرغم مما يمكن أن ينسب إلى الحكم المرابطى من صفات العسف والطغيان ، أن نصف العهد المرابطى ، بأنه كان بالنسبة للأمة الأندلسية عهد استقرار نسبي ، تمتعت فيه بنوع من الدعة والرخاء . وهذا ما يؤيده قول المؤرخ معلقاً على حكم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : « أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة ، في رفاهة عيش ، وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته » (١) .

ومن جهة أخرى ، فإنه ليس ثمة ريب في أن المغرب ، كان يتمتع بمثل هذا الرخاء والدعة ، في عهد يوسف بن تاشفين ، وأوائل عهد ولده على ، أعني قبل أن تضطرب أحواله من جراء ثورة ابن تومرت . وإنه ليكنى أن نستعرض ما كان عليه المغرب ، في أواسط القرن الخامس الهجرى قبل قيام

الدولة المرابطية بقليل ، من ضروب التفكك والفوضى ، والحروب الأهلية المتوالية ، لندرك أن قيام الدولة المرابطية كان بالنسبة للمغرب نوعاً من الإنقاذ القومى ، وأن الأمة المغربية استطاعت أن تعيش فى ظل الحكم المرابطى ، عزيزة الجانب ، موحدة الكلمة ، وأن تتمتع بكثير من الأمن والرخاء ، وأن تتحرر من كثير من المظالم ، وضروب الفوضى ، التى كانت تعانيها من قبل . ولدينا ما يؤيد ذلك من النصوص الصريحة . فمن ذلك ما ينقله إلينا صاحب روض القرطاس عن ابن جنون وهو ما سبق أن اقتبسنا بعضه :

« كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة ، وصحة مذهب . وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل ، وعافية وأمن ، تناهى القمح فى أيامهم إلى أن يباع أربع أوسق بنصف مثقال ، والتامر ثمان وأسق بنصف مثقال ، والقطنى لاتباع ولا تشتري . كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم ، ولم يكن فى بلد من أعمالهم خراج ، ولا معونة ، ولا تقسيط ، ولا وظيفة من الوظائف الخزنية حاشا الزكاة والعشر . وكثرت الحيرات فى دولتهم ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة . ولم يكن فى أيامهم نفاق ولا قطاع ، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس ، إلى أن خرج عليهم مهدي الموحدين فى سنة خمس عشرة وخمس مائة »^(١) .

ومن الواضح أن ذلك كله ينصرف إلى عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد ولده على . فلما اضطربت الأمور عقب قيام حركة المهدي ابن تومرت تبدلت الأحوال ، وغلبت الفوضى ، وكثر الفساد ، وغاض الأمن والرخاء ، على نحو ما يحدثنا المراكشى فى قوله ، إنه فى آخر عهد على « ظهرت مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال ، واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها له ماجاً وزراً على ما تقدم»^(٢) . ومهما يكن من مبالغة فى هذا التصوير ، فإن الذى لا ريب فيه هو أن حركة المهدي ابن تومرت كانت ضربة قاضية ، لكل ما حملته الدولة المرابطية إلى المغرب من أسباب الاستقرار والأمن والرخاء ، وأن المغرب لبث خلال المعركة التى اضطرمت بين المرابطين والموحدين ، يعانى كثيراً من أسباب الاضطراب والفوضى ، إلى أن تم الظفر للموحدين . وتوطدت دعائم الدولة الجديدة .

(١) روض القرطاس ص ١٠٨ .

(٢) المعجب ص ١٠٣ .

الفصل الثاني

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العهد المرابطي

القسم الأول

المرابطون والحركة الفكرية . إزدهار التفكير الأندلسي أيام الطوائف ، احتفاظه بنشاطه أيام المرابطين . رعاية الدولة المرابطية لكتاب الأندلس . استخدامهم في البلاط المرابطي . أبو بكر بن القصيرة . بنو القبطرنة . ابن عبدون . ابن الجدي الفهري . أبو عبد الله بن أبي الحصال ، أدبه ونثره وشعره . أبو جعفر بن عطية . ابن خاقان . ابن الصيرفي . أخيل بن إدريس . علي بن عبد العزيز الأنصاري . الحركة الفكرية في ظل المرابطين امتداد لها منذ الطوائف . العلماء والأدباء والشعراء في هذه الفترة . أبو عبد الرحمن بن طاهر . رسالة الكافية . مروان بن عبد العزيز وشعره . أبو جعفر الوقشي . تنويه ابن الأبار بمكانته . شيء من شعره . ابن الأزرق . علي بن أحمد الشلطي . علي بن مسعود الحولاني . الأدباء المؤرخون . ابن بسام الشنتريني وكتابه الذخيرة . الحجاري صاحب المسهب . أبو محمد عبد الله الرشاطي . أبو عامر الطرطوشي . أبو بكر الشلبي . أبو القاسم بن بشكوال . بعض الشعراء المتخصصين . أحمد بن عبد الملك بن سعيد . محمد بن عبد الرحمن العقيلي . ابن سيد اللص . أمير الزجل أبو بكر بن قزمان .

لم بطل عهد المرابطين بالأندلس أكثر من نصف قرن ، أنفق معظمه في أعمال الجهاد ، ومدافعة النصارى . ولم تكن الدولة المرابطية ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، سوى دولة دينية عسكرية قبل كل شيء ، ولم تكن بطبيعتها البدوية الخشنة ، تميل إلى الأخذ بأساليب التمدن الرفيعة ، أوتتجه إلى رعاية العلوم والآداب ، أو أن عهدها القصير لم يفسح لها مجالاً للأخذ بمثل هذه الأساليب ، وبذل مثل هذه الرعاية ، ومن ثم فإنه يمكن القول ، بأن الحركة الفكرية ، بالأندلس ، لبثت خلال العهد المرابطي ، في حالة ركود نسبي ، ولم تحظ باندفاع خاص ، أو بازدهار يلفت النظر ، بل يمكن أن يقال أيضاً ، إن ما عمدت إليه الحكومة المرابطية من مطاردة البحوث الكلامية والفلسفية ، كان له أثره في صد الحركة الفكرية ، وفي تأخرها .

بيد أنه يجب ألا ننسى ، أن الحركة الفكرية بالأندلس ، كانت في عهد دول الطوائف ، وقبل مقدم المرابطين ، تجوز حركة اندفاع قوى ، وأن العلوم

والآداب قد ازدهرت في ظل قصور الطوائف ، ورعاية ملوكها ، ازدهاراً يدعو إلى الإعجاب ، وإذا فقد كان من الطبيعي . أن يستمر هذا الاندفاع وقتاً آخر قبل أن ينحبو ، وأن تحتفظ الحركة الفكرية بقوتها مدى حين ، وذلك بالرغم مما فقدته في ظل العهد الجديد - العهد المرابطي - من عوامل الرعاية والتشجيع ، التي كانت تغذيها أيام الطوائف .

وهذا ما يمكن أن نفسر به تلك الظاهرة ، وهي أن الحركة العلمية والأدبية بالأندلس ، لبثت خلال العهد المرابطي ، تحتفظ بكثير مما كان لها أيام الطوائف من قوة وحيوية ، وأن النصف الأول من القرن السادس الهجري ، وهو الذي يستغرق عهد المرابطين ، يحفل بجمهرة كبيرة من رجال العلم والأدب ، ومنهم بعض الأقطاب البارزين .

ثم إنه يجب ألا ننسى إلى جانب ذلك ، أن الدولة المرابطية ، قد بذلت رعايتها لطائفة كبيرة من العلماء والأدباء الأندلسيين ، واستخدم بلاط مراکش ، والأمراء والحكام المرابطون بالأندلس ، كثيراً منهم في مناصب الوزارة والكتابة ، أسوة بما كانت تجرى عليه قصور الطوائف من حشد أعلام التفكير والبلاغة بها ، ليزدان بهم بلاط الأمير ، وليكونوا لسانه البليغ في تدبير الأوامر والمراسيم ، وفي مخاطبة الكافة . بيد أنه مما تجب ملاحظته ، هو أن الدولة المرابطية ، إذا كانت في حاجة لأن تستخدم كتاب الأندلس البلغاء ، للإعراب عن رغباتها ومخاطباتها ، فإنها لم تكن تعنى بأمر الشعر أو تقدره قدره ، ولم يستهوها رنينه وروعته ، اللهم إلا في أواخر عهدها ، حيث بدأ الشعراء ينظمون مدائحهم لعلی بن يوسف وولده تاشفين ، ومما يذكر في ذلك ما لاحظته الشقندي في رسالته عن يوسف بن تاشفين من أنه « لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ، ما أجرؤا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه قدراً ، وأنه حينما أنشده الشعراء مدائحهم سأله المعتمد أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ، قال لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخير » (١) .

وسنحاول في هذا الفصل ، أن نستعرض تلك الجمهرة من العلماء والأدباء الأندلسيين ، الذين ظهرُوا في تلك الفترة القصيرة - فترة العصر المرابطي - ويأتي في مقدمة هؤلاء تلك الصفوة من الكتاب والأدباء ، الذين ظهرُوا في أواخر عهد

(١) راجع رسالة الشقندي في فضائل الأندلس ، وقد نشرها المقرئ في نفح الطيب (القاهرة ،

الطوائف ، واستدعهم الدولة المرابطية لخدماتها ، بعد أن زالت قصور الطوائف ، وأصبحت الأندلس جزءاً من الإمبراطورية المرابطية الكبرى .

- ١ -

بدأ استخدام البلاط المرابطي للكتاب الأندلسيين ، منذ عهد يوسف بن تاشفين ذاته ، فكان كاتبه قبل أن يعبر إلى شبه الجزيرة ، أديب أندلسي من أهل المرية ، هو عبد الرحمن بن أسباط ، حسبنا أشرنا إلى ذلك في موضعه . فلما توفي سنة ٤٨٧ هـ ، وكان يوسف قد افتتح ممالك الطوائف يومئذ ، خلفه في منصب الكتابة ، كاتب من أعظم كتاب الأندلس يومئذ ، هو محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي ، ويكنى أبا بكر ، ويعرف بابن القصيرة . فكان مثوله في البلاط المرابطي بداية لاحتشاد أعلام الكتابة الأندلسيين للخدمة فيه . وكان ابن القصيرة من وزراء بني عباد وكتابهم ، خدم المعتضد ثم ولده المعتد ، وحظي لديه حتى غدا في أواخر عهده أعظم وزرائه نفوذاً وسلطاناً . ولما تخرجت الأمور ، واشتد ألفونسو السادس ملك قشتالة في إرهاب الطوائف ، كان ابن القصيرة ضمن سفراء الأندلس ، الذين وفدوا إلى المغرب ، لطلب الإنجاد والغوث من يوسف بن تاشفين . ولما استولى يوسف على دول الطوائف ، اعتزل ابن القصيرة وقتاً حتى استدعاه يوسف لكتابته ، حسبنا تقدم . وكان ابن القصيرة كاتباً بليغاً مبدعاً ، ويصفه ابن الصيرفي بقوله « الوزير الكاتب الناظم ، الناثر ، القائم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، اجتمع له براعة النثر وجزالة النظم » . ويصفه ابن بشكوال في الصلة بأنه « كان من أهل الأدب البارع ، والتفنن في أنواع العلم » . وقد انتهت إلينا من آثار ابن القصيرة المنشورة ، قطع عديدة ، منها أولانص المرسوم الصادر عن يوسف ابن تاشفين بإسناد ولاية العهد لولده ، علي ، وهو مدبج بقلمه ، وقد أوردناه من قبل في موضعه ، ورسائل مختلفة أوردناها لنا صاحب القلائد ، وهي جميعاً تدل على قوة أسلوبه ، وروعة بيانه . وكان ابن القصيرة شاعراً جزلاً في نفس الوقت ، وقد أورد لنا ابن الخطيب من شعره قصيدة في هجو ابن ذي النون ، ومدح ابن عباد حينما استولى على قرطبة . وتوفي ابن القصيرة في جمادى الآخرة سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م)^(١)

(١) راجع في ترجمة ابن القصيرة . الصلة لابن بشكوال (القاهرة) رقم ١٢٥٣ ، وقلائد العقيان ص ١٠٤ - ١٠٦ ، والإحاطة في مخطوط الإسكوريال السالف ذكره لوحة ٦٤ و ٦٥ .

واحتشد في البلاط المرابطي إلى جانب ابن القصيرة ، عدة من أعلام الكتاب وأئمة البلاغة في ذلك العصر ، منهم بنو القبطرنة وهم أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسي ، وأخواه أبو الحسن وأبو محمد ، وقد كانوا من أهل بطليوس ، ومن كتاب دوله بنى الأفطس ، وقد كتب ثلاثهم بعد ذهابها عن أمير السلمين علي ابن يوسف ، وكانوا جميعاً من أكابر الكتاب والشعراء . وكان أبو بكر المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) فيما يبدو عميدهم في النباهة والبلاغة ، أو حسبما يصنفه ابن بسام « علم بردهم ، وواسطة عقدهم » . وقد ذكرهم صاحب القلائد ، وأورد لنا طرفاً من منظومهم ومنتورهم ، وكذا ابن الخطيب في الإحاطة ، وابن سعيد في المغرب (١) .

ومنهم وزير بنى الأفطس وكاتبهم وصاحب مرثيتهم الغراء ، أبو محمد عبد الحميد بن عبدون ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، وقد سبق أن أتينا على ترجمته في « دول الطوائف » (٢) .

وأبو القاسم محمد بن عبد الله بن الحمد الفهري ، وهو من أهل لبلة ، برع في الفقه والأدب ، وسكن إشبيلية ، وخدم في بداية أمره دولة بنى عباد . ولما ذهبت دولتهم ، تولى خطة الإفتاء بلبلة ، ثم استدعى للكتابة في بلاط علي ابن يوسف ، واستمر في منصبه حتى توفي في سنة ٥١٥ هـ . وقد أورد لنا صاحب القلائد طرفاً من نظمه ورسائله ، ومنها رسالة عن أمير المسلمين إلى أهل سبتة ، بولاية الأمير يحيى بن أبي بكر الصحراوي لفاس وسبتة ، ورسالة إلى أبي محمد عبد الله بن فاطمة والي إشبيلية ، يدعوها فيها إلى التزام الحق واتباع العدل ، والرفق بالرعية ، ورسالة إلى أهل إشبيلية يحثهم فيها على نبذ الشقاق والتطاحن (٣) . وكان منهم أخيراً ، أبو عبد الله بن أبي الخصال ، وأخوه أبو مروان عبد الملك . وأبو عبد الله هو محمد بن مسعود بن خلصة ، ابن أبي الخصال الغافقي ، أصله من كورة جيان ، من أهل شقورة ، ولد في سنة ٤٦٥ هـ ، وسكن قرطبة وغرناطة ، وبرع في الحديث وعلوم اللغة والسير ، وبرع في الكتابة والنظم ،

(١) راجع قلائد العقيان ص ١٤٨ - ١٥٥ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٨ - ٥٣١ ،

والمغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٣٦٧ و ٣٦٨ .

(٢) راجع كتابنا دول الطوائف ص ٤١١ .

(٣) ترجم ابن بشكوال لابن الجدي في الصلة (القاهرة) رقم ١٢٦٧ ، وقلائد العقيان .

ص ١٠٩ - ١١٥ .

حتى نعت بإمام البلاغة ، ووصفه ابن بشكوال بأنه « كان مفخرة وقته ، وجمال
جماعته » . وقال أبو القاسم الملاحى لم يكن في عصره مثله . اتصل برجال الدولة
اللمتونية ، وتولى الوزارة والكتابة لعلى بن يوسف ، وحظى لديه ، حتى غدا أنه
كتابه ، وأعلام مكانة ، وآثرهم لديه ، وكان يعاونه في ديوان الكتابة أخوه
أبو مروان عبد الملك . وصدرت بقلم ابن أبي الحصال عن على بن يوسف رسائل كثيرة
في مختلف الأغراض ، وانتهى إلينا الكثير منها ، وهي تدل جميعاً على روعة أسلوبه
وفيض بلاغته ، واستمر على مكانه في البلاط المرابطى ، حتى صدرت عنه بأمر
على بن يوسف رسالة موجهة الى الجند المرابطين ببلنسية ، يلومهم فيها على تخاذلهم
أمام العدو ، فجاءت رسالة قاسية تفيض بالسباب المقذع ، والظعن المهين^(١) ،
فكانت سبباً في الوحشة بينه وبين الأمير ، وترتب على ذلك أن استعفى أبو عبد الله
من منصبه ، فأعفاه على بن يوسف ، وعاد إلى قرطبة ، ثم توفى بها بعد قليل
في شهر ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) ، وتوفى أخوه عبد الملك قبله
بمراكش في سنة ٥٣٩ هـ^(٢) .

وقد كتب أبو عبد الله بن أبي الحصال عدة مؤلفات قيمة منها كتاب « سراج
الأدب » الذى صنفه على طريقة كتاب النوادر لأبى على القالى ، وزهر الآداب
للحصرى ، وكتاب « ظل الغمامة وطوق الحمامة » ، وهو فى مناقب الصحابة .
وقصيدته الموسومة « بمعراج المناقب ، ومنهاج الحسب الثاقب » فى نسب رسول
الله . وجمعت رسائله فى غير مجموع . وله أيضاً آثار شعرية كثيرة . وقد سبق
أن أوردنا شيئاً من نظمه فى مديح الأمير تاشفين^(٣) .

(١) وردت هذه الرسالة فى مجموعة الإسكوريال المخطوطة رقم ٥٣٨ الغزيرى ، ونشر المراكشى
فى المعجب جزءاً منها (ص ٩٨) . ونشرها الدكتور حسين مؤنس كاملة فى مجلة المعهد المصرى بمدريد
فى العدد الثالث سنة ١٩٥٥ ص ١١٦ - ١١٨ .

(٢) راجع فى ترجمة ابن أبي الحصال : الصلة لابن بشكوال (القاهرة) رقم ١٢٩٤ . والإحاطة
مخطوط الإسكوريال السالف الذكر - لوحة ٣٩ ، والمعجب ص ٩٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ ،
وكذلك P. Boignes : Historiadores y Geograficos Arabigo - Espanoles No 165

ونشر الدكتور محمود على مكى عدة من رسائل ابن أبي الحصال الصادرة عن على بن يوسف فى
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (المجلدان السابع والثامن) ص ١٦٧ - ١٧٤ .

(٣) أورد لنا ابن دحية فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » شيئاً من نظمه ص

ومن شعره :

وافى وقد عظمت على ذنوبه
فحى إساءته لنا إحسانه
في غيبة قبحت بها آثاره
واستغفرت لذنوبه أوتاره
وقوله يتشوق إلى قرطبة :

أسمت لهم بالغور والشمل جامع
فباحث بأسرار الضمير المدامع
بروقاً بأعلام العذيب لسوامع
ورب غرام لم تنله المسامع

ويجب ألا ننسى ، أنه كان يوجد إلى جانب هذه الصفوة من الكتاب الأندلسيين ، وزير وكاتب نابه من أصل أندلسي ، ومن أعلام البلاغة وأئمة البيان في ذلك العصر ، هو الوزير الكاتب ، الناثر الشاعر ، أبو جعفر أحمد بن عطية ، الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم ، مذ خدم الدولة اللمتونية حتى سقوطها ، ثم انتقل إلى خدمة الموحدين في الظروف التى شرحناها ، حتى كانت نكبته على يد الخليفة عبد المؤمن بن على .

وكتب عن أمراء الدولة اللمتونية أيضاً ، كاتبان أندلسيان آخران هما أبو نصر الفتح بن خاقان ، وابن الصيرفي . فأما الفتح بن خاقان ، فهو إشبيلي من كتاب الطوائف الأعلام . وقد اشتهر بأسلوبه الأدبي البليغ المسجع ، وهو الذى اتبعه في كتابيه « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » . طاف في أول أمره بقصور الطوائف ، واتصل بمعظم أمراءها . ثم خدم الأمير أبا إبراهيم إسحق بن يوسف بن تاشفين ، أنحا أمير المسلمين على بن يوسف ، وكتب له كتابه « القلائد » مشتملا على تراجم أمراء الطوائف ، وأعيان العصر وفقهائه وكتابه . وانتقل في أواخر حياته إلى مراکش وعاش بها ، وكان خليعاً مدمناً ، منحرف السلوك ، فانتهى بأن توفي قتيلا في الفندق الذى يسكنه ، وقيل إن الذى أشار بقتله هو على بن يوسف (١) .

وأما ابن الصيرفي ، فهو يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى ، يكنى أبا بكر ، ويعرف بابن الصيرفي . كان من أعلام العصر المرابطى في البلاغة والأدب والتاريخ ، وكان من الكتاب المحيدين ، والشعراء المطبوعين ، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين بن على ، أيام أن كان والياً للأندلس ، وألف في تاريخ الأندلس في العصر المرابطى كتاباً سماه « الأنوار الحلية في أخبار الدولة

(١) راجع ترجمة الفتح بن خاقان في ابن خلكان (ج ١ ص ٥١٥) .

وكذلك : P. Boigues : ibid ; No 162

المرابطية » . وكتاباً آخر سماه « قصص الأنبياء وسياسة الرؤساء » . وهما مؤلفان . لم يصل إلينا مع الأسف . ولم يصل إلينا من مؤلفه الأول سوى شذور نقلها المتأخرون ، مثل ابن الخطيب وغيره ، ومن ذلك روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للأندلس ، وهي واقعة كان من معاصريها وشهودها ، وقد فصلنا حوادثها في موضعها . وتوفي ابن الصيرفي بغرناطة في سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) (١) .

ومن الكتاب الذين اتصلوا بالدولة الامتونية ، وكتبوا عنها أخيل بن إدريس الرندي ، الذي تتبعنا مصايره من قبل خلال حديثنا عن حوادث الثورة بالأندلس ، فقد كتب في بداية حياته للمرابطين ، ولما قام القاضي ابن حمدين بقرطبة تولى الكتابة عنه ، ثم لحق ببلده رندة ، واستبد بحكمها حيناً ، فلما انتزعها منه ابن عزون صاحب شريش ، عبر البحر إلى مراكش واتصل بحكومة الموحدين ، ثم ولى بعد ذلك قضاء قرطبة ، فقبضاء إشبيلية ، حيث توفي بها في سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) . وكان أخيل كاتباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً . وقد ورد لنا ابن الأبار شيئاً من شعره (٢) .

وكان من هؤلاء الوزراء الكتاب أيضاً ، علي بن عبد العزيز بن الإمام الأنصاري ، وهو سرقسطي الأصل ، سكن غرناطة ، وكان من الكتاب المحبدين وأهل البلاغة والفصاحة . وزير للأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف أيام ولايته لغرناطة ، ثم كتب من بعده لأخيه الأمير علي بن يوسف (٣) .

كان اجتماع هذه الصفوة الممتازة من كتاب الأندلس في البلاط المرابطي ، ظاهرة تدل بأن المرابطين لم تفهم أهمية القيم العلمية والأدبية ، وأهمية الأساليب البليغة العالية ، في عرض مراسم الدولة ، وأوامرها ، والإفصاح عن رغباتها ، ووجهات نظرها ، بيد أنها كانت رعاية محدودة المدى ، مقصورة على المجال الرسمي ، ولم تكن تسيرها تلك النزعة المستنيرة ، التي تعتبر الحركة العلمية والأدبية ، من المقومات الحيوية ، لأمة عريقة متمدنة ، كالأمة الأندلسية .

يمكننا أن نعتبر الحركة الفكرية والأدبية بالأندلس ، في العصر المرابطي ،

(١) ترجمة ابن الصيرفي في الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٤١٥ . وقد سبق أن نقلناها في ص ١١٠ من هذا الكتاب (الحاشية) .

(٢) راجع ترجمة أخيل بن إدريس في الحلة السيرة ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

(٣) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٣١ .

هي امتداد لها منذ أيام الطوائف . ومع ذلك فإن هذه الحركة لم تخل من بعض عناصر القوة ، التي نبتت وتأثلت في العصر المرابطي ذاته . وقد يرجع ذلك إلى أن الضغط الذي عانته الحركة الفكرية من الحكم المرابطي ، لم يكن شاملاً ، ولم يكن بالأخص طويل الأمد .

وبالرغم من أن الحركة الفكرية الأندلسية لم تصل خلال العصر المرابطي ، إلى ذلك المدى من الازدهار والضحامة والتنوع ، الذي باغته في ظل دول الطوائف ، فإننا نستطيع مع ذلك أن نستعرض إلى جانب هذه الجمهرة من أكابر الكتاب الذين خدموا في البلاط المرابطي ، جمهرة كبيرة أخرى من العلماء والأدباء والشعراء الذين ظهوروا في تلك الفترة ، ومنهم بالفعل عبقريات فذة ، يمكن أن تزهر بها أية حركة عقلية .

ولنبداً بذكر أعلام الأدباء من كتاب وشعراء ، ولدينا منهم ثبت حاشد . فمنهم أولاً ، أميران من أمراء بلنسية ، هما أبو عبد الرحمن بن طاهر القيسي ، وأبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز . وقد سبق أن أتينا على سيرة كل منهما في الحكم ، وما تقلب فيه من أحداث السياسة . فأما أولهما أبو عبد الرحمن بن طاهر ، فقد كان صنو جده أبي عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية أيام الطوائف ، وأحد أمراء البيان المبرزين في عصره ، كان صنوه في العلم والأدب ، وفي سحر البيان وروعته ، وكان إلى جانب ذلك شاعراً مطبوعاً . عاش بعد خلعته من الإمارة على يد ابن عياض ، حيناً بمرسية ، في عزلة مطبقة ، وهو يشهد تطور الحوادث في شرقي الأندلس . ولما توفي محمد بن سعد بن مردنيش زعيم الشرق ، وانهارت بوفاته جبهة الثورة ضد الموحدين ، دخل ابن طاهر في الدعوة الموحدية ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، واستقر بمراكش ، وتوفي بها في سنة ٥٧٤ هـ (١) .

ومن آثاره النثرية ، رسالة يخاطب بها الخليفة عبد المؤمن ، ويحاول فيها أن يثبت أمر الإمام المهدي بالأدلة التاريخية والمنطقية . وقد وضعها على طريقة المساجلة بالدليل والبرهان ، بين النفس المطمئنة المؤمنة الراضية ، والنفس النزوعية الثائرة . وتحمل النفس المطمئنة خلال حديثها على عهد المرابطين ، وتصفه بعهد الضلال والفسق ، وتحاول أن تؤيد صدق قضية المهدي وشرعية إمامته ، وصحيح نسبته إلى آل البيت . وقد اقتنعت النفس النزوعية الأمارة بالسوء في النهاية بصدق

(١) أورد لنا ابن الأبار في الحلة السيرة ترجمة ضافية لابن طاهر (ص ٢١٦ - ٢٢٢) .

تدليل خصيمتها النفس المطمئنة . ويختتم ابن طاهر رسالته ، وهي المسماة «بالكافية» بمدح الخليفة عبد المؤمن والدعاء له ، والإشادة بمآثره (١) .

ومن نظمه قوله :

هجرت من الدنيا لذيذ نعيمها لأنك لا ترصاه إلا مخلدا
وقضيت شهر الصوم بالنية التي رقيت بها في رتبة القدس مصعدا
وودع عن شوق إليك مبرح فلو كان ذا جفن لبات مسهدا

وأما مروان بن عبد العزيز ، فقد كان فقيهاً عالماً وأديباً كبيراً ، وشاعراً جزلاً ، وكان قبل توليه إمارة بلنسية ، يلي قضاءها . وقد تتبعنا فيما تقدم أطوار حياته السياسية ، ثم محنته بعد أن خُلع من الإمارة ، وأُلقي إلى ظلام السجن أعواماً طوالاً . وذكر لنا ابن الأبار أنه نظم في محنته قصيدة هذا مطلعها :

يا نفس دونك فاجزعي أو فاصبري طاع الزمان بوجهه المتممّر

ولما أطلق سراحه بواسطة الوزير أبي جعفر بن عطية ، وانتظم في مجلس الخليفة عبد المؤمن ، نظم في حق الوزير المحسن إليه ، وفي التحريض على نكبته ، تلك القصيدة التي أوردناها فيما تقدم والتي مطلعها :

قل للإمام أطال الله مدته قولاً تبين لذي لب حقائقه

ومن شعره في وصف بلنسية :

كأن بلنسية كاعب وملبسها السندس الأخضر
إذا جثتها سترت نفسها بأكامها فهي لا تظهر

وتوفي ابن عبد العزيز بمراكش سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) .

وكان من الوزراء الأدباء الشعراء ، أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشي (٢) وزير ابن هـمّشك وكاتبه ونائبه بمدينة جيان . وكان ابن هـمّشك حينما هزم في موقعة السبيكة بأراضي غرناطة (سنة ٥٥٧ هـ) ، قد فر منسحباً إلى الشرق ، وطارده الموحدون ، وحاصروا مدينة جيان ، وكان بها الوزير الوقشي فامتنع بها ودافع

(١) تسمى هذه الرسالة باسمها الكامل «الكافية في براهين الإمام المهدي رضى الله عنه تعالى عقلاً ونقلاً» ، وقد أورد لنا ابن القطان نصها الكامل في «نظم الجمان» وهي تستغرق منه عدة صفحات (المخطوط لوحة ٢٠ إلى ٣٠ ب) .

(٢) راجع ترجمة مروان بن العزيز في الحلة السيرة ص ٢١٢ - ٢١٦ ، والتكلمة (القاهرة) رقم ١٧٥١ . وزاجع أيضاً المغرب من أشعار أهل المغرب ص ٨٠ و ١٠٨ .

عنها ، حتى أقلع الموحدون عنها دون طائل . ولما وقع الشقاق بين ابن همشك ، وبين حليفه وصهره محمد بن سعد بن مردنيش ، ودخل ابن همشك في دعوة الموحدين (٥٦٢ هـ) ، بعث وزيره الوقشي إلى بلاط مراکش ليسعى في إنجاده ضد صهره . وينوه ابن الأبار بمكانة الوقشي الأدبية ، ويقول لنا إن له « تحقق بالإحسان ، وتصرف في أفانين البيان » ويشير إلى أن الشاعر ابن غالب الرصافي ، قد مدحه في ديوانه « وأعرب عن جلاله شأنه » ثم يقارنه بأبي جعفر بن عطية ، وقد كان كلاهما ، من مفاخر الأندلس « وكانا متعاصرين في الكفاية متكافئين ، ولذلك في النثر مزية هذا في الشعر » . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من شعر الوقشي ، ومن ذلك قوله يصف الشقائق :

وشقائق لاحت على الأغصان مثل الحدود تزان بالخيولان
يهفو النسيم مع الأصائل والضحي فيز منها معطف النشوان
فكأنها قضب الزمرد ألصقت بالمسك فيها أكؤس العقيان^(١)

وذكر ابن عبد الملك في التكملة ، أن الوقشي مدح الأمير أبا يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن بقصيدة مطلعها :

أبت غير ماء النخيل وورودا وهاجت به عذب الحمام مرودا
وقالت لحادها أتم زيادة على العشر في وردى له فأزيدا
ومنها في الحث على الجهاد :

ألا ليت شعري هل يُمَدُّ لي المدى فأبصر نخيل المشركين طريدا
وهل بعد يقضى في النصارى بنصرة تغادرهم للمرهقات حصيدا
ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب يعيد عميد الكافرين عبيدا^(٢)

وتوفي الوقشي بمالقة في سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) .

ومن أعلام الأدب الذين ظهرُوا في العصر المرابطي ، أبو الحسن عبد الملك ابن عباس بن فرج بن عبد الملك المعروف بابن الأزرق ، وهو من أهل قرطبة ، وكان كاتباً بليغاً وشاعراً مقتدرًا ، كتب عن قاضي الجماعة أبي القاسم بن حمدان في أواخر عهد المرابطين ، ولما ثار أبو جعفر بن حمدان وانتزع الرياسة لنفسه ، خشي ابن الأزرق العاقبة ، وفر إلى إشبيلية ، وانقطع إلى العبادة ، في بعض

(١) أورد لنا ابن الأبار في الحلة السيرة ترجمة ضافية للوقشي (ص ٢٣٠ - ٢٣٦) .

(٢) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (الجزء الأول من مخطوط باريس لوحة ١٦) .

قرى إشبيلية . ثم استدعاه أبو إسحق برّاز بن محمد المسوّفي عامل إشبيلية الموحدى للكتابة ، فتولى منصبه على كره منه ، ثم كتب من بعده للأمير أبي حفص ابن عبد المؤمن ، ثم كتب عن عبد المؤمن نفسه ، بعد مقتل كاتبه ابن عطية ، ثم عن ولده أبي يعقوب يوسف ، وقت ولايته لإشبيلية ، وتوفى في سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢) (١) .

ومنهم على بن أحمد بن محمد بن عثمان الكلبي الشلطيشي ، من أهل الغرب ، سكن قرطبة ، وكان فقيهاً متمكناً ، وكاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً . ولما ثار أخوه أبو بكر محمد داعية المريردين بمرتلة ، سنة ٥٣٩ هـ ، خاف على نفسه ، واختفى أشهراً ، ثم غادر قرطبة وتجوّل حيناً في مختلف القواعد الأندلسية ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بمراكش ، وأقام بها حتى توفى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) (٢) .
ومنهم أبو الحسن على بن مسعود بن إسحق بن عصام الحولاني ، من أهل سرقسطة ، وكان فقيهاً بارعاً ، حافظاً للمدونة ، وله حظ وافر من الأدب ، ولى قضاء ميورقة . ولما دهم النصارى سرقسطة في سنة ٥١٢ هـ ، وبعث قاضياً بصريخه إلى الأمير أبي الطاهر تميم المرابط بجيشه على مقربة منها ، كان أبو الحسن الحولاني ، وزميله الخطيب أبو زيد بن منتيال ، هما اللذان خرجا لمخاطبة الأمير تميم بالنيابة عن أهل سرقسطة ، وناشدها الغوث والإنجاد ، ولكنه لم يستجب إلى هذا الصريخ ، وانتهت سرقسطة إلى التسليم (٣) .

ولم في العصر المرابطي عدة من الأدباء المؤرخين ، وأعلام الرواية المحققين ، الذين ما زالت آثارهم من أقيم مصادرنا في تاريخ الأندلس ، وتاريخ الأدب الأندلسي .

وكان في مقدمة هؤلاء قطبهم وعميدهم ، أبو الحسن على بن بسّام الشنتريني ، صاحب كتاب « الذخيرة » ، وهو من أقيم وأشهر كتب الأدب والتاريخ في هذا العصر ، إن لم يكن أقيمها وأشهرها جميعاً . وابن بسّام من أهل غربي الأندلس من مدينة شنترين البرتغالية ، ولكنه غادرها في شبابه إلى إشبيلية حينما اضطربت

(١) الذيل والتكملة المخطوط سالف الذكر .

(٢) الذيل والتكملة المخطوط سالف الذكر .

(٣) الذيل والتكملة المخطوط سالف الذكر . وراجع ص ٩٦ من هذا الكتاب .

بها الأحوال ، واشتد خطر سقوطها في أيدي النصارى . ودرس ابن بسام في إشبيلية وقرطبة ، وكتب مؤلفه الضخم « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » بقرطبة ، وانتهى من كتابته في سنة ٥٥٠٣ هـ . ويصارحنا ابن بسام في مقدمته بالدافع النفسى ، الذى دفعه إلى تصنيف كتاب « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره ، إلى أدب المشرق ، والتزود منه والإعجاب به ، وإهمال آداب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة ، وجميع ما تضمنته من رائق المنثور والمنظوم ، أن يبصر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأن من حقهم أن يزهوا بأدبهم وأن يتذوقوه ، وأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق^(١) . وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية الذخيرة كمصدر من أنفس مصادرنا التاريخية والأدبية والاجتماعية ، ولا سيما عن عهد الطوائف وأمرائه وأدبائه وشعرائه^(٢) . وإذ لما يدعو إلى الغبطة أن البحث قد استطاع أخيراً ، أن يضع يده على النص الكامل لكتاب « الذخيرة » بأقسامه أو مجلداته الأربعة ، بعد أن لبث مدة طويلة مفتقداً لبعض أجزائه . وكتب ابن بسام غير « الذخيرة » عدة مصنفات أخرى ، منها كتاب في شعر المعتمد بن عباد ، وكتاب في شعر ابن وهبون ، ورسالة عنوانها « سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر » ومجموعة مختارة من شعر أبى بكر بن عمار . ويمتاز ابن بسام بأسلوبه المشرق ، الذى يغلب عليه السجع ، دون أن ينتقص من قوته وإشراقه ، كما يمتاز بملاحظاته النقدية القوية ، التاريخية والاجتماعية . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يُعرف عن ابن بسام أنه خدم أحداً من أمراء عصره ، أو تطفل على موائدهم أسوة بمعظم زملائه ، كتاب العصر وأدبائه . وكانت وفاته بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)^(٣) .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجارى ، صاحب كتاب « المسهب » الشهير . وأصله من وادى الحجارة حسبما يدل على ذلك اسمه . ولما سقطت وادى الحجارة في أيدي النصارى ، غادرها مع أهله ، وطاف بعدة من بلاد الأندلس ، ثم نزل مدينة غرناطة ، وسار منها إلى قلعة بنى سعيد (أو قلعة يحصب) ، وهناك استقبله صاحبها عبد الملك بن سعيد ، وهو من أقطاب علماء

(١) راجع مقدمة الذخيرة (المجلد الأول القسم الأول) طبعة جامعة القاهرة ص ٣٠٢ .

(٢) كتاب دول الطوائف ص ٤١٨ .

(٣) راجع في ترجمة ابن بسام ، مقدمة كتاب الذخيرة ، وكذلك No 171 ; ibid ; Pons Boigues

عصره ، وأكرم وفادته ، وقدر علمه وأدبه . وكان الحجاري أديباً كبيراً وشاعراً مطبوعاً ، وكان يشتهر بنظمه في كل بلد نزل فيه . ثم غادر قلعة محصب ، وقصد إلى المستنصر بن هود بروطة ، ومدحه ، وسار معه في بعض وقائعه مع البشكنس ، فوقع أسيراً ضمن الأسرى . ولما قيض له الخلاص من أسره ، عاد إلى قلعة محصب ، وعاش في كنف حاميه عبد الملك بن سعيد . وأشهر آثار الحجاري كتابه « المسهب في فضائل (أوغرائب) المغرب » في ستة أجزاء . وقد ألفه تحقيقاً لرغبة ابن سعيد ، وكان فيما بعد مستقياً لأسرة بني سعيد في تأليف كتابها الشهير « المغرب في حلى المغرب » ومن أنخصب وأقيم مصادرها ، وفيه يتناول الحجاري تراجم رجال الأندلس وحوادثها منذ الفتح إلى سنة ٥٣٠ هـ . وقد نقل إلينا المتأخرون منه الكثير ولاسيما المقرئ في نفع الطيب ، حيث ينقل منه عشرات الشذور ، في مختلف المواطن . وتوفي الحجاري في سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) (١) .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي المعروف بالرشاطي ، أصله من أهل أوريولة من شرقي الأندلس ، وبها ولد سنة ٤٦٦ هـ . ودرس على عدة من أعلام العصر ومنهم الحافظ أبو علي الصديقي . ثم انتقل إلى ألمرية ، وعاش بها . ونبغ الرشاطي في الحديث والرواية والتاريخ والأنساب . وكتب كتابه الشهير « اقتباس الأنوار ، والتماس الأزهار ، في أنساب الصحابة ورواة الآثار » . وأخذ عنه كثير من علماء عصره . وتوفي بألمرية شهيداً حينما دخلها النصارى في يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ (أكتوبر سنة ١١٤٧ م) (٢) .

ومنهم أبو عامر محمد بن أحمد بن عامر الطرطوشي السالمي ، من أهل طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى ، وسكن مرسية ، وكان متقدماً في فنون عديدة من الأدب والشعر والتاريخ وغيرها . وكتب عدة مؤلفات أشهرها كتابه « درر القلائد وغرر الفوائد » . وهو كتاب تاريخي جغرافي . وكتاب « السالك المنظوم والمسك المختوم » . وتوفي في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م) (٣) .

(١) راجع ترجمة الحجاري في « المغرب في حلى المغرب » ج ٢ ص ٣٥ و ٣٦ ، والمقرئ ج ٢ ص ٤٠٦ ، وكذلك Pons Boigues : ibid : No 178

(٢) ترجمة الرشاطي في ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٧ ، والصلة رقم ٦٥١ ، وكذلك :

P. Boigues : ibid ; No 169

(٣) ترجمته في التكملة لابن الأبار رقم ٧٢٥ . وكذلك في P. Boigues : ibid ; No. 187

ومنهم أبو بكر محمد بن يوسف بن قاسم الشلبي ، وهو أديب ومؤرخ من أهل الغرب ، ومن مدينة شلب ، وكان تلميذاً للكاتب أبي بكر بن القصيرة . ألف كتاباً في تاريخ المعتمد بن عباد لم يصل إلينا . وتوفي أوائل القرن السادس الهجري (١) .
ومن الرواة وعلماء الأخبار الذين ظهرُوا في العصر المرابطي ، محمد بن عبد الله ابن سيّداله التجيبي من أهل شاطبة ، روى عن جمهرة من أعلام عصره . وكان عارفاً بالأخبار ، حافظاً لأسماء الرواة . وقد ألف مجموعاً في رجال الأندلس ، وصل به كتاب الصلة لابن بشكوال ، وتوفي في سنة ٥٥٨ هـ .

ونذكر أخيراً عالماً من أعلام المؤرخين وأصحاب الأخبار المحققين ، في العصر المرابطي ، هو العلامة المؤرخ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال القرطبي ، ولد بقرطبة سنة ٤٩٤ هـ ، ودرس بها على أشهر أساتذة العصر ، وكان حافظاً ، شغوفاً بالأخبار والسير ، ولاسيما أخبار الأندلس ، محققاً واسع الرواية ، حجة في تحقيقها ، كتب عدة مؤلفات ، أشهرها كتابه « الصلة » الذي جعله تنمة لكتاب ابن الفرضي في « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » ، والذي يضم أكثر من ألف وخمسمائة ترجمة لعلماء الأندلس ورواتها ، ولاسيما علماء قرطبة ، وقد فرغ من تأليفه بقرطبة في سنة ٥٣٤ هـ ، وجاء ابن الأبار بعده ، فوضع له ذيلاً سماه التكملة في مجلدين كبيرين . ثم جاء أبو جعفر بن الزبير فوضع له ذيلاً آخر سماه « صلة الصلة » . ويعتبر كتاب « الصلة » إلى يومنا من أنفس وأوثق مصادر التاريخ الأندلسي . وكتب ابن بشكوال غير « الصلة » عدة مؤلفات أخرى ، منها « كتاب الغوامض والمهمات » وكتاب « الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة » « وكتاب المحاسن والفضائل » « وكتاب المستغيثين بالله تعالى عن المهمات والحاجات » ، وغير ذلك من مصنفات بلغت نحو الخمسين مؤلفاً . وتوفي ابن بشكوال بقرطبة بعد حياة علمية حافلة ، في رمضان سنة ٥٧٨ هـ (أو آخر سنة ١١٨٢ م) (٢) .

ولقد تحدثنا فيما تقدم عن علماء وأدباء لم يكن الشعر خاصتهم الأولى ، وإن كانوا

(١) راجع ترجمته في P. Biogues : ibid ; No. 137

(٢) راجع ترجمة ابن بشكوال في التكملة لابن الأبار (القاهرة) رقم ٨٣١ ، وفي وفيات

الأعيان ج ١ ص ٢١٥ .

مع ذلك قد لمعوا في ميدان الشعر ، وكانت لهم فيه آثار طيبة . ونود الآن أن نذكر بعض الشعراء الذين نبغوا في العصر المرابطي ، وكان الشعر خاصتهم الأولى .
فمن هؤلاء أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد ، من بني سعيد العنسي سادة قلعة بني محصب من أعمال غرناطة ، وهو بيت من بيوتات الأندلس المشهورة ، وينتمي إليه قواد ووزراء وقضاة وكتاب وشعراء ، ومنهم مؤلفو كتاب « المغرب في حلى المغرب » . وشغف أبو جعفر بالأدب والشعر منذ حداثة ، وحفظ الكثير من أشعار القدماء ، وظهرت مواهبه الشعرية لأول مرة حينما وفد مع أبيه وأهله لمقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وهو بجبل طارق في سنة ٥٥٦ هـ ، وألقى بين يديه قصيدته التي مطلعها :

تكلم فقد أصغى إليك الدهر وما لسواك اليوم نهى ولا أمر
وقد كانت هذه القصيدة التي نقلناها فيما تقدم ، فاتحة مجده الشعرى . ولما ولى غرناطة السيد أبو سعيد ولد عبد المؤمن ، استوزر أبا جعفر ، وحظى لديه . ثم فسد ما بينهما بسبب تنافسهما في حب الشاعرة الحسنة حفصة بنت الحاج الركوني ، وأخذ السيد أبو سعيد يترقب الفرص لانكبه ، وأبو جعفر يتحفظ كل التحفظ ، وفي حالته تلك يقول :

من يشتري منى الحياة وطيبها ووزارتي وتأدبني وتهذبني
بمحل راع في ذرى ملمومة زويت عن الدنيا بأقصى مرتب
فلقد سئمت من الحياة مع امرئ متغضب متغلب مترتب
الموت يا حظني إذا لاحظته ويقوم في فكري أوان تجنبي

وانتهى الأمر بأبي جعفر إلى أن ائتمر مع أخيه وبعض أقاربه على الانضمام إلى ابن مردنيش ، ولحق أخوه وأقاربه بقلعتهم في بني محصب . ولكنه جن وتأخر ، ثم فر إلى مالقة ، ليركب منها البحر إلى بلنسية ، ولكن عمال السيد اكتشفوا أمره وقبضوا عليه ، فأمر بقتله صبراً ، وكان مصرعه في جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) .

ولأبي جعفر كثير من الشعر الرقيق الجيد . فمن ذلك قوله :

أتاني كتاب منك يحسده الدهر أما حبره ليل ، أما طرسه فجر
به جمع الله الأمانى لناظري وسمعى وفكري فهو سحر ولا سحر

ولا غرو أن أبدى العجايب ربه وفي ثوبه بر ، وفي كفه بحر (١)

ومنهم محمد بن عبد الرحمن العقيلي الجراوى من أهل وادى آش . سكن
غرناطة ، وكان أديباً مشاركاً فى علوم حمة ، ولاسيما الطب ، كما كان شاعراً
جزلاً مطبوعاً . ومن قوله يمتدح أمير المسلمين على بن يوسف :

رحلوا الركائب موهنا فأذاع عرفهم السننا

والحلى قد أغرى بهم لما ترغم معاننا

كم دب حول حمهم من كل خطار القنا (٢)

ومنهم أحمد بن على بن محمد بن عبد الملك بن سليمان بن سيد الكنانى النحوى ،
من أهل إشبيلية ، وقد عرف « باللص » لما نسب إليه فى صغره من إغارته على أشعار
الآخرين . وكان أديباً ، متقناً للعربية ، شاعراً جزلاً مجيداً . ولد سنة ٥٠٣ هـ ،
وتوفى فى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) . ومن نظمه قوله :

وقائلة والضنا شاملى على م سهرت ولم ترقد

وقد ذاب جسمك فوق الفراش حتى خفيت عن العود

فقلت وكيف أرى نأما وراعى المنية بالمرصد (٣)

ومنهم أبو بكر بن قزمان ، أمير الزجل الأندلسى ، وهو محمد بن عيسى
ابن عبد الملك بن قزمان الزهرى من أهل قرطبة ، برع فى الشعر والأدب ، وبرع
بنوع خاص فى نظم القصائد الخزلية بلغة عوام الأندلس أوبعبارة أخرى فى نظم
الزجل . يقول ابن الخطيب « وهذه الطريقة بديعة يتحكم فيها ألقاب البديع ،
وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر ، وبلغ فيها أبو بكر مبلغاً حجره الله
عن سواه فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وحارسها المعلم ، والمبتدى فيها
والمتمم » . ويصفه ابن خلدون بأنه « إمام الزجالين على الإطلاق » . وخدم ابن
قزمان فى شبابه المتوكل بن الإفطس صاحب بطليوس ونال لديه حظوة وجاها .
فلما انتهت دولتهم ، عاد إلى قرطبة وتردد بينها وبين غرناطة . ولما قام ابن
حمدين فى قرطبة ، تعرض ابن قزمان لمطاردته ونكاله ، وذلك بسبب « شكاسة

(١) راجع ترجمته فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٧ .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال رقم (١٦٧٣ الغزيرى) لوحة ٥٦ .

(٣) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ٢١٢ .

أخلاق كان موصوفاً بها ، وحدة شتى بسببها » . وتوفي ابن قزمان بقرطبة في رمضان سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

وقد اشتهرت أزجال ابن قزمان في الأندلس والمغرب ، وجمعت في ديوان خاص متداول ، وترجم الكثير منها فيما بعد إلى القشتالية ، وكان لها أثر عميق في صوغ الأناشيد الشعبية القشتالية ، ثم الأناشيد البروفنسية . وقد أبدى البحث الحديث ، أن كثيراً من الأغاني الشعبية في إسبانيا وغيرها من الأمم النصرانية المجاورة ، اشتق من أزجال ابن قزمان .

وتحتمل نكتني بأن نورد هذين النموذجين من أزجال ابن قزمان :

قدر الله وساق الحناس
إلى وادى على عيون الناس
ولعبنا طول النهار بالكاس
وجاء الليل وامتد مثل القليل

وقوله يصف عريشاً أمامه تمثال أسد من رخام يصب الماء من فمه على صفائح مدرجة من الحجر :

وعريش قد قام على دكان بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان في غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان فيه الفواق
وانطلق يجرى على الصفاح ولقى الصباح^(١)

(١) راجع في ترجمة ابن قزمان : فلانند العقبيان ص ١٨٧ ، والإحاطة في مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٥٩ - ٦١ . وقد أورد لنا ابن الخطيب كثيراً من أزجاله ورسائله النثرية . وكذلك ابن خلدون في المقدمة ص ٥٢٤ .

الفصل الثالث

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العهد المرابطي

القسم الثاني

أعلام المحدثين والفقهاء . الحافظ أبو علي الصدي . القاضي ابن العربي . أبو الوليد بن رشد الجدي . ابن ورد التيمي . أبو العباس أحمد بن الصقر الأنصاري . أبو محمد بن عطية المحاربي . مديحه للمرابطين . عبد الرحمن بن عبد الله المعافري . عبد الله بن محمد المرسي . ابن الحلال . ابن أبي مروان . أبو جعفر البطروجي . ابن الدباغ . سفيان بن أحمد العاصي . أحمد بن عبدالعزيز الأزدي . علي بن صالح بن عز الناس . عبد الله بن خلف القرشي . ابن الباذش . القاضي عياض السبتي ، حياته وتراثه . ابن بركة . ابن صاحب الصلاة . ابن أشكندر . ابن صنعون . ابن هذيل . ابن سيد الجراوي . العلامة الصوفي أبو العباس ابن العريف . نموذج من شعره الروحي . دعوة المريدين وتطورها على يد ابن قسي . ابن المنذر . أبو بكر ابن المنخل . ابن سفيان الخزومي . ابن الإقليشي . علماء اللغة . ابن السيد البطليوسي . يونس بن مغيث . العلوم . ابن باجة . شيء من شعره . ابن يحيى الخزرجي . أبو القاسم خلف بن عباس . أمية بن أبي الصلت . حياته ومؤلفاته . بنو زهر . أبو العلاء بن زهر . ابنه عبد الملك . ولده أبو بكر . أبو عبد الله الطغزلي . تأملات .

- ١ -

ظهر في شبه الجزيرة الأندلسية ، من أعلام المحدثين والفقهاء ، في العصر المرابطي ، جمهرة كبيرة ، بلغ بعضهم في ميدانه أرفع مكانة . وكان في مقدمة هؤلاء اثنان لمع أحدهما في شرقي الأندلس ، ولمع الثاني في غربي الأندلس ، وكان لهما أكبر أثر في ازدهار علوم السنة والفقهاء في ذلك العصر .

أولها العلامة الحافظ أبو علي حسين بن محمد بن فبره الصدي . أصله من سرقسطة من أهل الثغر الأعلى ، وبها كان مولده ونشأته ، ودرس في سرقسطة وبلنسية وألمرية ، وكان من أساتذته أبو اليد الباجي ، وأبو العباس العذري ، وأبو عبد الله بن المرابط . ثم رحل إلى الشرق في سنة ٤٨١ هـ ، وحج ودرس بمكة وبغداد ودمشق والقاهرة ، على أشهر علماء العصر . ثم عاد إلى الأندلس سنة ٤٩٠ هـ ، واستوطن مرسية ، وقد ذاع صيته العلمي ، واشتهر بالأخص بتبحره في علوم السنة . وولى قضاء مرسية مدة ، ولكنه استعفى فأعفى ، وانقطع لنشر

العلم وتدريسه ، فهرع الناس لسماعه والأخذ عليه ، وكان أعظم حفاظ عصره .
وكتب عدة كتب في الحديث . وفي سنة ٥١٤ هـ ذهب إلى شاطبة وأقام بها ، وكان
دائب الحث على الجهاد . ولما سار الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين غازياً
إلى الثغر الأعلى لإنقاذ دورقة وقلعة أيوب ، كان أبو علي ضمن العلماء الذين
ساروا في ركبته . وكان ممن أستشهد في موقعة كتندة ، التي نشبت على أثر ذلك
بين المرابطين وبين الأرجونيين ، بقيادة ألفونسو المحارب ، في ربيع الأول
سنة ٥١٤ هـ (يونيو ١١٢٠ م) وذلك حسبما فصلناه من قبل في موضعه (١) .

والثاني هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي
المعافري ، وهو من أعظم فقهاء العصر المرابطي وحفاظه . ولد بإشبيلية سنة ٤٦٨ هـ
وبرع في الحديث والأدب ، ورحل إلى المشرق مع ابنه حينما أرسله يوسف بن
تاشفين سفيراً عنه إلى الخليفة المستظهر والإمام الغزالي ، وذلك في سنة ٤٨٥ هـ ،
ودرس بمكة والقاهرة وبغداد ودمشق . وقرأ في بغداد على أبي بكر الشاشي ،
وأبي حامد الغزالي ، وبلد دمشق على أبي بكر الطرطوشي ، ثم عاد إلى الأندلس
سنة ٤٩٣ هـ ، يسبقه صيته العلمي . ويصفه تلميذه ابن بشكوال « بالإمام العالم
الحافظ ، المستبجر ، ختام علماء الأندلس ، وآخر أئمتها وحفاظها » . وتولى
ابن العربي قضاء بلده إشبيلية لأول مرة في سنة ٥٠٨ هـ ، ولبت به مدة وعرف
بحزمه ونزاهته ، وتحريه العدل والحق والتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
حتى أودى بسبب ذلك وانتهبت أمواله وكتبه . ثم صرف عن القضاء وانقطع للتدريس
ونشر العلم . وكتب عدة مؤلفات منها « كتاب ترتيب الرحلة » ، وكتاب « العواصم
والقواصم » ، وكتاب « أنوار الفجر » في مدح الرسول ، وكتاب « قانون التأويل » ،
وكتاب « التلخيص في النحو » ، وكتاب « القبس في شرح موطأ مالك » وبلغت
مؤلفاته نحو الأربعين كتاباً . ولما اضطربت أمور الدولة المرابطية بالأندلس ،
وغلب الموحدون على إشبيلية ، عبر القاضي ابن العربي البحر إلى المغرب ، على
رأس وفد كبير من علماء إشبيلية وأعيانها ، ولقي الخليفة عبد المؤمن بمراكش في
أوائل سنة ٥٤٢ هـ ، وذلك عقب افتتاحها ، وقدم إليه بيعة أهل إشبيلية ، ولما
غادر الوفد مراكش عائداً إلى الأندلس ، توفي القاضي ابن العربي خلال الطريق ،
ودفن بفاس وذلك في جمادى الآخرة من نفس السنة (١١٤٧ م) . ومما تجدر ملاحظته

(١) راجع الصلة لابن بشكوال الترجمة رقم ٣٣٠ . وكذلك : Pons Boigues : ibid; No 143

أن ابن العربي بالرغم من تحوله إلى جانب الموحدين حينما قامت دولتهم ، لم يضمن
بمدحه للمرابطين وعهدهم ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل (١) .

وكان من أعلام الفقهاء في العصر المرابطي ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن
رشد الحد ، قاضي الجماعة بقرطبة ، وقد برع بالأخص في الفقه المالكي ، وألف
فيه عدة مصنفات جليلة ، منها « كتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من
التوجيه والتعليل » و « كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة » ، واختصار كتاب
المبسوطة ، واختصار مشتمل الآثار لأبي جعفر الطحاوي . وكان ابن رشد بجلال
بيته ، ورفيع خلاله ، ورياسته العلمية ، من الرؤساء ذوى المكانة والنفوذ ،
لدى البلاط المرابطي ، وقد رأينا فيما تقدم خطورة الدور الذى اضطلع به ، في
إقناع أمير المسلمين على بن يوسف بتغريب النصارى المعاهدين . ولد بقرطبة
سنة ٤٥٠ هـ ، وتوفى بها في شهر ذى القعدة سنة ٥٢٠ هـ (أواخر ١١٢٦ م) (٢) .

ومن أشهر الفقهاء المحدثين والحفاظ ، في ذلك العصر ، أبو القاسم أحمد بن
عمر بن يوسف بن ورد التيمى من أهل ألمرية . وكان متمكناً أيضاً من الأدب
والنحو والتاريخ ، وامتقناً لعلم الأصول والتفسير . انتهت إليه ، وإلى زميله القاضي
ابن العربي رياسة الفقه المالكي في عصرهما ، ولى قضاء غرناطة ، فظهر فيه بكفايته
وعدله وحسن سيرته ؛ وتوفى بألمرية في رمضان سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) (٣) .

ومن أعلام المحدثين والفقهاء أيضاً ، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد
ابن الصقر الأنصارى الحزرى ، أصله سرقسطة ، ومولده بألمرية سنة ٥٠٢ هـ ،
وكان محدثاً بارعاً ، وفقهاً متمكناً متقدماً في علم الكلام ، وكاتباً بليغاً وشاعراً
محسناً ، استدعاه أبو عبد الله بن حسون قاضي مراکش المرابطي إلى كتابته ،
فلما صرف عن القضاء ، تولى أبو العباس خطة الإمامة ، واستمر بها ، حتى
سقطت مراکش وآل الأمر إلى الموحدين . ولما وقعت النكبة ، واستباح
الموحدون دماء أهل المدينة ، اختفى أبو العباس حيناً ، وكتب له النجاة ، حتى
نودى بالعفو ، ثم استنقذ من الرق ، واتصل بالسادة الحدد ، أعنى الموحدين .

(١) راجع الصلة الترجمة رقم ١٢٩٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٣٣٥ - ٣٣٧ ، وكذلك :

Pons Boigues: ibid ; No 172

(٢) ترجمته في الصلة رقم ١٢٧٠

(٣) ترجمته في الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٧٥ - ١٧٧

فنظمه عبد المؤمن بن طلبة العلم ، وأضفى عليه رعايته ، ثم ولاه قضاء غرناطة ، ثم قضاء إشبيلية . وهناك توثقت صلاته بجاره وصديقه العلامة أبي بكر بن طفيل . ولما تولى أبو يعقوب يوسف الخلافة ، عينه للنظر على الخزانة (المكتبة) وهي عندهم من الخطط الحليلة ، لا يتولاها إلا أكابر العلماء . وكتب أبو العباس عدة مصنفات منها « شرح الشهاب » وكتاب « أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار » . وله شعر جيد معظمه في الإلهيات والزهد . فمن ذلك قوله :

إلهى لك الملك العظيم حقيقة وما للورى مهما منعت نقير
تجافى بنو الدنيا مكاني فسررتي وما قدر مخلوق جداه حقير
وقالوا فقير وهم عندي جلالة نعم صدقوا إني إليك فقير

وتوفي أبو العباس بمراكش في جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) .
ورثاه صديقه العلامة ابن طفيل بقصيدة بعث بها إلى ولده عمراكش مطلعها :

لأمر ما تغيرت الدهور وأظلمت الكواكب والبدور
وطال على العيون الليل حتى كأن النجم فيه لا يغور (١)

ومنهم الفقيه الحافظ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الحاربي ، من أهل غرناطة ، برع في علوم القرآن والسنة وكان فقيهاً متبحراً ، وأديباً واسع المعرفة ، متقدماً في فنون عديدة . وتولى القضاء بغرناطة وألمرية ، وألف في التفسير كتاباً ضخماً لخص فيه كل ما تقدمه من كتب التفسير ، واشتهر بالمغرب والأندلس ، وألف كتاباً في « الأنساب » ، وانتهى إلينا من مؤلفاته « معجم شيوخه » وهو محفوظ بمكتبة الإسكوريال .

ولد سنة ٥٤١٨ هـ ، وتوفي بلورقة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) (٢) . وكان فوق ذلك أديباً ينظم الشعر ، ومن قوله في مدح المرابطين :

إذا لثموا بالريط خات وجوههم أزاهر تبدو من فنوق كرائم
وإن لثموا بالسابرية أظهروا عيون الأفاعي من جلود الأرقام (٣)

(١) أورد لنا ابن الخطيب في الإحاطة ترجمة ضافية لأبي العباس ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٣ ، وكذا ابن عبد الملك في الذيل والتكملة . ويقول ابن عبد الملك إن مولد أبي العباس كان بالمريّة سنة ٤٩٢ هـ ووفاته سنة ٥٦٩ هـ ، وبذلك يختلف معه ابن الخطيب في التاريخين . وراجع التكملة لابن الأبار رقم ٢٠١ .

(٢) راجع بغية الملتبس للضبى (المكتبة الأندلسية) ترجمة رقم ١١٠٣ .

(٣) راجع الصلة الترجمة رقم ٨٢٩ ، وكذلك P. Boigues; ibid; No 109 ، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ص ٩١ .

وهذا المديح للمرابطين من الأمور النادرة في الشعر الأندلسي . وقد نجد شاعراً يمدح أميراً منهم لصلة خاصة . ولكن يندر أن نجد شعراً في مدح المرابطين بصفة عامة .

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المعافري ، وكان من الفقهاء الوزراء . كان متمكناً من الفقه والحديث ، بارعاً في الأدب ، محسناً للنظم ، كاتباً بليغاً ، ولى أيام الأمير علي بن يوسف مستخلص غرناطة وإشبيلية (الأملاك السلطانية) فقام على إدارتها بحزم وكفاية ، ثم ندبه الأمير إلى طرطوشة ليشرّف على أهلها وتجديد مبانيها ، فأدى مهمته خير أداء ، وكان جواداً كثير البذل ، وتوفى في سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) (١) .

ومنهم عبد الله بن محمد عبد الله النفزي المعروف بالمرسي ، ولد بمرسية سنة ٤٥٣ هـ ، ودرس بها ثم انتقل إلى سبته ، وتولى الخطابة بجامعها مدة ، وكان متفوقاً في علم الحديث ، وأخذ الناس عنه ، ومنهم صاحب الصلة ، وكتب عدة مؤلفات ، وتوفى بقرطبة سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) (٢) .

ومنهم قاضي قضاة الشرق أبو العباس أحمد بن محمد بن زيادة الله الثقفي المعروف بابن الحلال . درس الفقه والحديث والأدب ، وولى خطة الشورى ، ثم ولى قضاء أوريولة ، ثم نقل إلى مرسية حيث تولى بها قضاء الجماعة ، وعلت مكانته لدى محمد بن سعد أمير الشرق ، ولكنه كان سيئ التصرف ، كثير الرعونة ، ووشى به إلى الأمير ، فقبض عليه واستصنف أمواله ، واعتقله ببلدة أندة على مقربة من بلنسية ، ثم أمر به فقتل ، وكان مقتله في سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) (٣) .

ومنهم أحمد بن عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الأنصاري ، ويعرف بابن أبي مروان ، من أهل إشبيلية ، كان حافظاً متقناً ، فقيهاً ظاهرى المذهب على طريقة ابن حزم القرطبي ، وله مؤلف في الحديث عنوانه « المنتخب المتقى » جمع فيه ما افرق في أمهات المسندات من نوازل الشرع . توفى قتيلاً ببلدة خلال ثورة أهلها وتغلب الموحدين عليهم ، وذلك في شعبان سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) (٤) .

(١) الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٢٥٦ .

(٢) ترجمته في الصلة رقم ٦٤٩ ، وكذلك في P. Boigues: ibid; No 164 .

(٣) ترجمته في التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٧٤ .

(٤) ترجمته في التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٦٢ .

وأبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن البطروجي ، وقد نبغ في الفقه والحديث ،
وكتابة السير ، وكان من أشهر حفاظ عصره ، وتوفي بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ
(١١٤٧ م) (١) .

ويوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن فيرثه الليثي ، ويعرف بابن الدباغ ،
أصله من أهل أندة ، وسكن مرسية ، ودرس على أبي علي الصدفي ، وكان من
أبيه تلاميذه . ونبغ في الحديث والرواية ، وكتب عدة مصنفات منها « كتاب
طبقات المحدثين » و« طبقات أئمة الفقهاء » ، ورسالته في الحفاظ ، وغيرها . وتوفي
سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) (٢) .

وأبو بحر سفيان بن أحمد العاصي الأسدي ، أصله من شرقي الأندلس من
مدينة مريبطر من أعمال بلنسية ، برع في الحديث والأدب والرواية ، وكان
حسباً يصفه ابن بشكوال من جلة العلماء ، وكبار الأدباء ، سمع منه وحدث عنه
كثير من أهل عصره . وكان من شيوخ ابن بشكوال . وتوفي بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ
(١١٤٧ م) (٣) .

ومنهم أحمد بن عبد العزيز بن محمد الأزدي ، وهو شقوري الأصل ، نشأ
ودرس بمرسية . وكان فقيهاً متمكناً ، حافظاً ، بصيراً بالفتوى . ولى قضاء شاطبة
مدة ، أيام الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ، ثم ولى إلى جانبه قضاء أوريولة ،
ولما نكب قاضي الجماعة أبو العباس بن الحلال ، نكب معه ، واعتقل شهوراً ،
ثم أطلق سراحه ، وأعيد إلى قضاء أوريولة ، ومنصب الشورى بها ، إلى أن توفي
في سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) (٤) .

وعلى بن صالح بن أبي الليث الأسعد بن الفرغ ، أبو الحسن بن عز الناس ،
أصله من طرطوشة ، ونشأ بميورقة ، وتجول في بلاد الأندلس يدرس أينما حل ،
ويتلقى العلم عن أقطاب عصره ، وكان من أساتذته أبو بكر بن العربي ،
وأبو القاسم بن ورد ، وأبو الوليد بن رشد ، وبرع في الفقه والأصول والحديث ،
وكان في نفس الوقت أديباً شاعراً ، خدم الأمير أبي زكريا بن غانية ، أيام إمارته

(١) ترجمة في الصلة رقم ١٧٩ ، وكذلك في P. Boignes : ibid; No 168

(٢) ترجمة في الصلة رقم ١٥١٠ وكذلك في P. Boignes : ibid; No 176

(٣) ترجمة في الصلة رقم ٥٢٦ ، وكذلك في P. Biogues : ibid; No 147

(٤) التكملة لابن عبد الملك - مخطوط خزانة الرباط المصور ، السفر الأول لوحة ٤٤ ،
والتكملة لابن الأبار رقم ١٨٩ .

لبانسية ، ثم صحبه إلى قرطبة ، ولازمه إلى أن توفي بغرناطة في سنة ٥٤٣ هـ ،
فانتقل إلى شرقي الأندلس ، واستقر بدانية ، ومن مؤلفاته كتاب « العزلة » ،
« وشرح معاني التحية » . ولد بطرطوشة سنة ٥٠٨ هـ ؛ وقتل بدانية بأمر محمد
ابن سعد في رمضان سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م)^(١) .

وعبد الله بن خلف بن محمد القرشي ، من أهل مورور ، وسكن إشبيلية
ودرس بها وبقرطبة على أقطاب عصره ، ومنهم ابن حمدين ، وأبو محمد بن عتاب ،
وأبو الوليد بن رشد ، وكان فقيهاً حافظاً متقناً لفروع المذهب المالكي ، ماهراً في
استنباط الأحكام ، بصيراً بالفتوى ، تولى قضاء بلده مورور حيناً ، ولد في
سنة ٤٩٣ هـ ، وتوفي سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م)^(٢) .

ومنهم محمد بن خلف بن صاعد الغساني ، من أهل شلب ، يكنى أبا الحسين
ويعرف باللبلي لأن أصله من لبلة ، درس على أقطاب عصره مثل أبي الوليد
ابن رشد ، وأبي محمد بن عتاب ، وأبي عبد الله بن الحاج ، وبرع في الفقه ،
ورحل إلى المشرق ودرس هنالك على طائفة من أعلامه ، ثم عاد إلى الأندلس ،
فغنى بتدريس الفقه والحديث وعقد الشروط ، ثم ولي قضاء شلب ، وتوفي في
سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م)^(٣) .

وكان من أشهر أئمة القراءات في ذلك العصر ، أحمد بن علي بن أحمد بن خلف
الأنصاري المعروف بابن الباذش ، وأصله من جيان ، وكان إلى جانب ذلك أديباً
متقناً للنحو ، بصيراً بالأسانيد ، ومن مؤلفاته « كتاب الإقناع » وهو من أجل
كتب القراءات ، وكتاب « الطرق المتداولة » وهو في القراءات أيضاً ، وكانت
وفاته في سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)^(٤) .

ونستطيع أخيراً أن نذكر من أكابر الفقهاء والحفاظ ، القاضي الأجل ،
والعلامة الفقيه الحافظ ، عياض بن موسى اليحصبي السبتي ، وهو إن كان أكثر
نسبة إلى المغرب ، إلا أنه درس بالأندلس ، وشارك في الحياة العقلية الأندلسية
مشاركة قوية .

ولد بثغر سبتة في منتصف شعبان سنة ٤٧٦ هـ ، وتلقى العلم حدثاً عن أشياخ

(١) التكملة لابن عبد الملك - مخطوط المتحف البريطاني - السفر الرابع لوحه ٤٨ ا .

(٢) التكملة لابن عبد الملك - مخطوط الإسكوريال (١٦٨٢ الغزيري) .

(٣) ترجمته في التكملة لابن الأبار رقم ٦٧١ .

(٤) ترجمته في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

بلده ، ثم عبر البحر إلى الأندلس في أوائل سنة ٥٠٧ هـ ، ودرس أولاً بقرطبة ، وأخذ فيها عن ابن عتاب وابن حمدان وابن الحاج وغيرهم . وقصد بعد ذلك إلى مرسية ، وسمع بها على حافظها أبي علي الصدفي ولازمه حيناً . ثم عاد إلى سبتة بعد أن قضى بالأندلس نحو عام ونصف ، وجلس للدرس والمناظرة ثم الشورى . وفي سنة ٥١٥ هـ ، ولي القضاء ، وكان ما يزال شاباً في الثلاثين من عمره ، فسلك فيه طريقة مشكورة ، وأبدى حزمًا في تطبيق الأحكام والحدود ، واشتهر بغزير علمه وحفظه ، وصدق طريقته ، ودقة فتياه . ثم ولي قضاء غرناطة في سنة ٥٣١ هـ ، فقام به خير قيام ، وأعرض عن الشفاعات والمؤثرات ، وصد أهل السلطان عن الباطل ، وتسبب في تشريدهم عن الأعمال ، فاستاء الأمير تاشفين بن علي ، لمسلكه ، وضاق به ذرعا ، وسعى في صرفه عن قضاء غرناطة . فصرف عنه في رمضان سنة ٥٣٢ هـ ، وعاد إلى سبتة ، ولبت بها مدة وهو عاكف على التدريس والفتيا . ثم ولي قضاء سبتة للمرة الثانية في سنة ٥٣٩ هـ . ولما ظهر أمر الموحدين ، بادر بالدخول في طاعتهم ، فأقره عبد المؤمن على ما كان عليه ، وصرف إليه شئون سبتة ، وحظى لديه بالتأييد والتقدير ، ثم رحل إليه ولقيه في سلا ، وهو يتأهب للسير لحصار مراکش (سنة ٥٤٠ هـ) ، فأجزل الخليفة صلته وعاد إلى سبتة ، وهنا وقع الاضطراب بسبتة ونخلع أهلها طاعة الموحدين ، وقتلوا عاملها الموحدى ، ونسب التحريض في ذلك إلى القاضي عياض . وكان القاضي قد اتصل بيحيى بن غانية ، وانقلب على الموحدين ، فلما قدم الموحدون إلى سبتة ، وشددوا في حصارها ، عاد القاضي فسعى في الاعتذار إليهم ، واستدرار عطفهم ، فصفحوا عنه ، وعن أهل سبتة ، وسار القاضي بعد ذلك إلى مراکش (سنة ٥٤٣ هـ) ليستعطف الخليفة ويلتمس صفحه ، فعفى عنه عبد المؤمن ، وأكرم وفادته ، وعينه بمجلسه ، ثم مرض عياض بعد ذلك وتوفي بمراكش ، في الليلة التاسعة من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه في موضعه .

وكان القاضي عياض من أكابر الحفاظ ، ومن أعظم أئمة عصره في الحديث ، وفي فهم غريبه ومشكله ومختلفه ، بارعاً في علم الأصول والكلام ، حافظاً للمختصر والمدونة ، متمكناً من الشروط والأحكام ، أبرع أهل زمانه في الفتيا ، متقناً للنحو واللغة ، أديباً كبيراً ، وشاعراً مجيداً ، حسن التصرف في النظم ،

كاتباً بليغاً ، وخطيباً مفوها ، عالماً بالسير والأخبار ، ولا سيما سير العرب وأيامها وحروبها ، وأخبار الصالحين والصوفية ، مشاركاً في علوم كثيرة أخرى ، وكان حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، فصيح اللسان ، حلو المداعبة ، بساماً مشرقاً ، جم التواضع ، يمتق الإطراء والملق ، معترفاً بنفسه ومكانته ، محباً لأهل العلم ، معاوناً لهم على طلبه ، جواداً ، سميحاً ، من أكرم أهل زمانه ، كثير الصدقة ، والمواساة^(١) .

وللقاضي عياض ثبت حافل من المؤلفات الحليمة منها كتاب « الشفاء بتعريف حقوق المصطفى » وهو أشهر كتبه . و « مشارق الأنوار » ، في تفسير غريب الحديث . وكتاب « التنبيهات » . وكتاب « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة المالكية » وكتاب « الإكمال » وكتاب « العيون الستة في أخبار سبته » وغيرها ، من كتب الدين واللغة والأنساب والتاريخ . ويعتبر القاضي عياض أعظم حفاظ المغرب وعلمائها في عصره ، وقد خصه حافظ المغرب ومؤرخ الأندلس الكبير شهاب الدين المقرئ بكتابه الضخم « أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض »^(٢) .

وهناك جمهرة من الفقهاء والمحدثين ، الذين ظهوروا في العصر المرابطي ، وتجاوزوه الى العصر الموحدى ، نذكر بعضهم فيما يلي :

كان من هؤلاء ، محمد بن سليمان بن خلف النفزى من أهل شاطية ويعرف بابن بركة ، كان فقيهاً متمكناً ، حافظاً للمسائل ، بصيراً بالفتوى ، خبيراً بعقد الشروط ، حافظاً لمتون الأحاديث ، مستظهِراً لمقدمات ابن رشد ، ولى خطة الشورى^(٣) بشاطية ، واشتهر بكفايته وورعه ، وزهده ، وتوفى في جمادى الأولى سنة ٥٥٣ هـ^(٤) .

وأحمد بن يوسف بن اسماعيل بن صاحب الصلاة من أهل باجة ، وكان

(١) من ترجمة للقاضي عياض بمخطوط المكتبة الكتانية المحفوظ بخزانة الرباط ، برقم 558 ، وعنوانه « كتاب في التعريف بعياض » (لوحة ٧ - ١٤) .

(٢) ترجمة القاضي عياض في الصلاة ، رقم ٩٧٥ ، ووفيات الأعيان ج ١ ص ٤٦٩ ، وقلائد العقيان من ٢٢٢ - ٢٢٦ ، وابن الخطيب في الإحاطة - مخطوط الإسكوريال السالف الذكر ، لوحة ٣٥٠ .

(٣) سوف نتحدث عن خطة الشورى فيما بعد عند الكلام على نظم الحكم الموحدى .

(٤) ترجمته في التكملة (القاهرة) رقم ١٣٤٣ .

من رواية الحديث ، وأهل العناية به ، وقد توفي شهيداً ، حينما دهم النصارى مدينة باجة في ليلة السبت ٢٢ من ذى الحجة سنة ٥٥٧ هـ (١) .

وأبو جعفر أحمد بن مسعود بن إبراهيم بن يحيى القيسي المعروف بابن اشكندر ، أصله من سرقسطة بالثغر الأعلى ، وولد بشاطبة ، ودرس بها ، وتبع في الحديث والرواية ، وكان من أكثر حفاظ عصره علماً بأسماء الرجال ، وموالدهم ووفياتهم ، حتى شبه في ذلك بالقاضي عياض ، تولى خطة الشورى بشاطبة ، وحدث وأخذ عنه بعض علماء عصره ، وكان ورعاً متقبضاً زاهداً ، وتوفي بالمهدية وهو في طريقه إلى الحج في رمضان سنة ٥٥٨ هـ (٢) .

ومحمد بن أحمد بن محمد بن أبي العافية ، من أهل مرسية ، ويعرف بالقسطلي لأن أصله من قسطلونة ، درس الفقه ، وبرع في الفقه المالكي ، وقام بتدريسه ، وتولى الشورى ببلده ، وكان موصوفاً بالحفظ ، والعدالة والنزاهة وتوفي في شهر ذى الحجة سنة ٥٥٨ هـ (٣) .

ومحمد بن عبد الله بن أحمد بن مسعود بن صنعون بن شعبان ، وهو من أهل شلب ، ويعرف بالقنطري ، نسبة إلى قنطرة السيف من أعمال الغرب ، وهي دار سلفه . درس بإشبيلية وقرطبة وألمرية على جماعة من أقطاب العصر مثل أبي بكر بن العربي ، وابن مغيث ، وابن أبي الخصال ، وغيرهم ، وبرع في الحديث واشتهر بالحفظ والضبط ، وبرع كذلك في الفقه ، وتولى خطة الشورى ، وكتب ذيلاً لكتاب « الصلة » لابن بشكوال ، نقلها ابن الأبار كلها ، وتوفي بمراكش في شهر ذى الحجة سنة ٥٦١ هـ (٤) .

وأحمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي من أهل مرسية . درس على أبيه وعلى أبي علي الصديقي وغيره من شيوخ العصر ، وبرز في الفقه ، وعلوم القرآن ، مع مشاركة في الأدب ، وتقلد خطة الشورى وأحكام القضاء بمرسية مدة طويلة ، ثم ولي قضاء شاطبة ، وعرف بالكفاية والنزاهة ، وتوفي بمرسية ثاني عيد الأضحى سنة ٥٦٣ هـ (٥) .

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٧٦ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٧٧ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٣٦٣ .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ١٣٧٧ .

(٥) ترجمته في التكملة رقم ١٨٨ .

ومن الفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والأدب ، أحمد بن محمد بن هذيل الأنصارى من أهل بلنسية . درس بها وبقرطبة ، وبرع في الفقه ، وتولى خطة الشورى ببلنسية ، ثم تولى قضاء بعض مدن ولاية قرطبة مثل إستجة وباجة . وكان فوق ذلك شغوفاً بالأدب ، بارعاً في الكتابة ، محسناً للنظم ، وولى في أواخر حياته خطة المواريث ببلنسية في إمارة محمد بن سعد ، ثم اضطهد ، ونفى إلى جزيرة شُقر ، وهناك توفي في سنة ٥٥٨ هـ (١) .

ومنهم أحمد بن حسن بن سيد الجراوى من أهل مالقة ، ويعرف بابن سيد . درس الحديث واللغة والأدب على أقطاب عصره ، وكان بارعاً في اللغة ، وفي النحو ، وله حظ من قرض الشعر الجيد ، وقد أورد لنا صاحب التكملة ، من شعره هذين البيتين :

وبين ضلوعى للصبابة لوعدة بحكم الهوى تقضى على ولا أقضى
جنى ناظرى منها على القلب ما جنى فيا من رأى بعضاً يُعين على بعض
وتوفى ابن سيد في نحو سنة ٥٦٠ هـ (٢) .

وظهرت بالأندلس في العصر المرابطى ، حركة دينية خاصة ، اتخذت طابع التصوف ، وهى التى أسفرت عن قيام طائفة المريدين في غربى الأندلس . وكان إمام هذه المدرسة العلامة الصوفى أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى المعروف بابن العريف . وهو من أهل ألمرية ، وبها ولد سنة ٥٤٨١ هـ . ودرس علوم القرآن والسير ، وغلب عليه الزهد والورع ، ومال إلى طرق الصوفية ، حتى غدا من أقطاب نحلهم . وألف عدة تصانيف منها « كتاب المجالس » ، وكتب رسالة يحمل فيها على الفيلسوف ابن حزم ، وكانت بينه وبين القاضى عياض السبتي ، مراسلات ومجادلات فقهية . والظاهر أنه قد أثار بكتاباتهِ وتعاليمه سخط الفقهاء المرابطين ، فسعوا به إلى على بن يوسف ، فاستدعاه إلى مراکش وبقى بها بحالة اعتقال حتى توفي ، وذلك في صفر سنة ٥٥٣٦ هـ (١١٤١ م) ، واحتفل الناس بجنائزته ، وندم أمير المسلمين على ما كان منه في حقهِ (٣) .

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٧٩ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٨٢ .

(٣) راجع ترجمة ابن العريف في وفيات الأعيان (ج ١ ص ٦٧) . وكذلك في الصلة لابن

يشكوال ترجمة رقم ١٧٦ .

وكان ابن العريف ينظم الشعر الروحي الحيد ومن ذلك قوله .
سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم أدنى إلى النفس من وهمي ومن نفسي
مازلت مذ سكنوا قلبي أصون لهم لحظي وشمعي ونطقي إذ هموا أنسي
وفي الحشا نزلوا والوهم يجرحهم فكيف قروا على أذكي من القبس
حلوا الفؤاد ، فما أندی ولو وطئوا صخراً لجاد بماء فيه منبجس
لا تنهض إلى حشرى بحبهم لا بارك الله فيمن خانهم فنسي

وقد ذكرنا فيما تقدم أن أحمد بن قسيّ زعيم الثورة في غرب الأندلس .
كان من تلاميذ ابن العريف ، وأنه أخذ عليه بالمرية تعاليمه وطريقته ، وهي التي
عرفت بطريقة « المريرين » ، واتخذها ابن قسيّ وأصحابه شعاراً لثورتهم في الغرب .
والظاهر أن ابن قسيّ ، هو المسئول عن تطور الدعوة ، إلى هذا الاتجاه الذي
اتخذته في الغرب ، والذي أسبغ عليها هذا الطابع الثوري الخاص ، وأن ابن
العريف لم يكن له في صوغها سوى العنصر الروحي . وعلى أي حال فإنه لا توجد
لدينا عن دعوة « المريرين » معلومات كافية ، تفصح عن مبادئها الحقيقية ، وكل
ما يقدمه إلينا ابن الأبار في ذلك أنها كانت دعوة شعارها « التهليل والتكبير »^(١) .
وقد كتب عبد الملك بن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين عن « ثورة المريرين »
كتاباً يشير إليه في مواضع كثيرة من تاريخه المسمى « المن بالإمامة » ، ولكن هذا
الكتاب لم يصل إلينا . وما نود أن نشير إليه هنا ، هو أن ابن قسيّ كان جانباً إلى
جانب زعامته الثورية ، من علماء الدين والكلام ، وكان أديباً وشاعراً من شعراء
العصر . وقد أوردنا فيما تقدم شيئاً من نظمه .

وكان من زملاء ابن قسيّ في حمل لواء دعوة المريرين ، محمد بن عمر
ابن المنذر الذي تتبعنا أخباره فيما تقدم . وكان فقيهاً متمكناً ، وأديباً بارعاً ،
وشاعراً مقتدرًا ، وقد أوردنا كذلك فيما تقدم شيئاً من نظمه .

وكان من أدباء المريرين وشعرائهم ، أبو بكر بن المنخّل الشلبي ، وزير
ابن المنذر المتقدم وكاتبه . وكان شاعراً جزلاً ، وقد انضم بعد انهيار الثورة في
الغرب . إلى الدعوة الموحدية ، وكان ممن مدح الخليفة عبد المؤمن خلال وجوده
في جبل طارق . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من نظمه ، ومن ذلك قوله مخاطباً
ابن المنذر :

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٩٩ .

تجاف عن الدنيا وعن برد ظلها
فديتك لا تأسف لدنيا تقلصت
وإن عريت جرد المذاكي وذلت
وغودرت الرايات تهفو كأنها
وكانت ولم تذعر عليك كأنها
طلبت وفاء والوفاء سجية
رأيتك تبغى مثل نفسك في العلا
فإن بروداً لا يلدوم حرور
وأوحش يوماً منبر وسرير
أسود فلم يسمع لمن زئير
جوانح من ذعر عليك تطير
إذا رفرفت يوم الهياج نسور
ولكنها أم الوفاء نزور
طيلاب لعمرى ما أردت عسير^(١)

وظهر من علماء المتصوفة في شرقي الأندلس ، أحمد بن محمد بن سفيان الخزومي ، أصله من جزيرة شقر من أعمال بلنسية ، ودرس الأدب ، ونظم الشعر ، ثم مال إلى التصوف والزهد ، وكان يعرف بالعابد . وكان ثرياً ، ينفق على الفقراء والمعوزين أموالاً جليلاً . وأدركته وحشة من أمير الشرق ، محمد بن سعد بن مردنيش ، فخلع طاعته ، ودعا للموحدين ، وامتنع بالجزيرة ، وذلك في أواخر سنة ٥٦٦ هـ فأدى ذلك إلى محاصرته حيناً ، ولم ينفس عن أهله إلا وفاة ابن سعد بعد ذلك بنحو عام ، في رجب سنة ٥٦٧ هـ .

ولابن سفيان شعر يقتصر على الزهد . ومن ذلك قوله من قصيدة :

كل عطاء فإلى علّة
لاشك يقضى ولوجه السقم
إلا الذي منك بلا علة
ياخالق العرش ومجرى القلم
كل الوري لا بس ثوب الدجا
لولا سنى منك يجلتى الظلم^(٢)

ومن أقطاب المحدثين والمتصوفة بالشرق أيضاً أبو العباس أحمد بن معد ابن عيسى بن وكيل التجيبي المتزهد ، ويعرف بابن الأقليشي ، أصلهم من أقليش ، ونزحوا إلى دانية ، وبها ولد أبو العباس ونشأ . ودرس بلنسية ، وإشبيلية ، وألمرية ، وبرع في الحديث واللغة والأدب ، وكان من أساتذته أبو محمد البطليوسى ، وأبو بكر بن العربي ، وأبو القاسم بن ورد ، وغيرهم من أقطاب العصر . ورحل إلى المشرق في سنة ٥٣٢ هـ ، فحج وجاور بمكة . وحدث

(١) راجع الحلة السيرة ص ٢٠٦ و ٢٠٧ .

(٢) ترجمته في التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ٢٠٠ ، وفي الذيل والتكملة لابن عبد الملك ،

اخطوط السالف الذكر .

بالأندلس والمشرق ، وكان متصوفاً زاهداً ، أديباً شاعراً ، وله عدة تصانيف منها كتاب « الكواكب » وكتاب « النجم من كلام سيد العرب والعجم » وكتاب « الغرر من كلام سيد البشر » وكتاب « ضياء الأولياء » . وغيرها ومن نظمه في الزهد قوله :

أسير الخطايا عند بابك واقف له عن طريق الحق قلب مخالف
قدماً عصي عمداً وجهلاً وغرّة ولم ينه قلب من الله خائف
ثلاثون عاماً قد تولت كأنها حلوم تقضت أو بروق خواطف
وجاء المشيب المنذر المرء أنه إذا رحلت عنه الشيبة تالف
فجد بالدموع الحمر حزناً وحسرة فدمعك يبني أن قلبك آسف

وتوفي أبو العباس عند عودته من المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر في سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) (١) .

ومنهم محمد بن يوسف بن سعادة ، من أهل مرسية ، وسكن شاطبة . برع في الفقه والحديث ، وأخذ عن جمهرة من أعلام عصره ، منهم أبو علي الصديقي ، وأبو محمد بن عتاب ، وأبو بكر بن العربي وغيرهم . ثم رحل إلى المشرق ، وسمع بالإسكندرية ومكة ، وعاد إلى مرسية ، وكان فوق براعته في علوم القرآن والتفسير ، والحديث ، بصيراً باللغة ، شغوفاً بالتصوف مؤثراً له . ولى القضاء بمرسية ، ثم شاطبة ، وعرف بمقدرته ونزاهته ، وكان حافظاً متقناً ، ثقة ؛ وتوفي مصروفاً عن القضاء في آخر سنة ٥٦٥ هـ (٢) .

ونبغ في العصر المرابطي ، من أئمة اللغة ، أو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي . وأصله من بطليوس ، من غربي الأندلس ، كما يدل على ذلك اسمه . ولد بها سنة ٤٤٤ هـ ، وسكن بلنسية ، ودرس بها ، وكان فضلاً عن أدبه البارع ، أمام عصره في النحو وعلوم اللغة ، يجتمع إليه الناس من كل فج ، ليقرأوا عليه ، وليقتبسوا من غزير علمه ، وكان حجة ثقة ضابطاً . وله عدة مؤلفات قيمة ، أشهرها بالأخص شرحه لكتاب « سقط الزند » (٣) لأبي العلاء المعري ، وهو شرح يصفه ابن خلكان بأنه أجود من شرح أبي العلاء صاحب

(١) ترجمته في التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٦٧ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم رقم ١٣٩٠ .

(٣) نشر هذا الشرح بالقاهرة بعناية « لجنة إحياء تراث أبي العلاء المعري » وأصدرته وزارة

المعارف المصرية (سنة ١٩٤٥) .

الديوان الذي سماه « ضوء السقط » . ومنها كتاب « الإقتضاب في شرح أدب الكتاب » وكتاب في الحروف الخمسة « السين والصاد والضاد والطاء والذال » ، وكتاب « الحلل في شرح أبيات الحمل » و « الحلل في أغاليط الحمل » ، وكتاب « شرح المطأ » . وله أيضاً « كتاب التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة » . وكان ابن السيد فوق ذلك شاعراً مقتدرأ ، وله نظم حسن ، فمن ذلك قوله :

أخو العلم حتى خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
ذوالجهل ميت وهو ماش على الثرى يُظن من الأحياء وهو عديم
وله من قصيدة يمدح فيها المستعين بن هود :

سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم ينازعها مزن من الدمع هتسان
أأجابنا هل ذلك العهد راجع وهل لى عنكم آخر الدهر سلوان
ولى مقلة عبرى وبين نجوانحى فؤاد إلى لقياكم الدهر حنان
تنكرت الدنيا لنا بعد بعدكم وحلت بنا من معضل الخطب ألوان
وحلنا سوام الحمد عنها لغيرها فلا ماؤها صدا ولا النبت سعدان
إلى ملك حاباه بالحسن يوسف وشاء له البيت الرفيع سليمان
من نفر الشم الذين أكفهم غيوث ولكن الحواطر نيران
وتوفى ابن السيد بمدينة بلنسية في منتصف رجب سنة ٥٢١ هـ (يونيو

١١٢٧ م) (١)

وكان من أعلام اللغويين أيضاً يونس بن محمد بن مغيث . وقد ولد بقرطبة سنة ٤٤٧ هـ ، ودرس بها وبرع في علوم اللغة ، وكذلك في الرواية وعلم الأنساب ، وفي الأدب ، وكان من أساتذة ابن بشكوال حسبما يحدثنا في « الصلة » . وتوفى بقرطبة سنة ٥٣٢ (١١٣٧ م) (٢) .

ومنهم أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله ، ويعرف بالتدميرى لأن أصله منه كورة تدمير ، ونشأ بالمرية ، وبرع في الآداب العربية واللغات ، وكان له حظ من قرص الشعر ، وسكن بجاية وقتنا في ظل بنى حماد . وله عدة مؤلفات قيمة منها كتاب التوطئة في العربية ، وشرح على كتاب الفصيح لثعلب ، وشرح

(١) راجع ترجمة البطلوسى في وفيات الأعيان (ج ١ ص ٢٣٢ و ٢٣٣) ، وفي الصلة لابن بشكوال الترجمة رقم ٦٤٣ .

(٢) ترجمته في الصلة رقم ١٥٥٨ ، وكذلك في Pons Boigues : ibid; No 161

لأبيات جمل الزجاجي ، وكتاب الفوائد والفرائد وغيرها . وتوفي بفاس سنة ٥٥٥ هـ (١) .

ومنهم عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن يزيد السعدي ، من أهل قلعة محصب ، أبو محمد ، درس على أبي جعفر البطروجي ، وأبي الحسن بن الباذش ، وكان متمكناً من الفقه ومن علم القراءات ، بارعاً في اللغة والأدب ، متبحراً في النحو ، مستظهِراً لكتاب سيويه ، مشاركاً في عدة فنون أخرى . غادر موطنه الأصلي إلى بلدة القبذاق (٢) من أعمال جيان ، فاستوطنها ، وتوفي بها في سنة ٥٥٩ هـ ، (١١٦٤ م) (٣) .

وأما عن العلوم ، فنستطيع أن نقول إنها حظيت في العهد المرابطي بنهضة زاهرة ، وإن لم تكن هذه النهضة في الواقع سوى امتداد للنهضة الفكرية في عصر الطوائف . وظهر في العهد المرابطي عدد من الشخصيات اللامعة التي تعتبر من أقطاب العلم الأندلسي ، بل من أقطاب العلم في سائر العصور والأمم .

أولهم الفيلسوف أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ التجيبي المشهور بابن باجة ، وهو سرقسطي ، نشأ في أواخر دولة بني هود ، ونبغ في الرياضة والفلك والطبيعة والفلسفة ، في ظل تلك المدرسة الرياضية ، التي ازدهرت في ظل المقتدر ابن هود وولده المؤمن . ولما ولي الأمير أبو بكر بن إبراهيم المستوفي ، وهو ابن عم أمير المسلمين علي بن يوسف وصهره ، حكم سرقسطة في سنة ٥٠٨ هـ ، استوزر أبا بكر ، واختص به ، وأغدق عليه ثقته ورعايته ، بالرغم مما كان ينسب إليه من الآراء الإلحادية . وقد حمل عليه معاصره الفتح بن خاقان في كتابه المطمح ، ورماه بالإلحاد وانحلال العقيدة ، وقال في حقه : « نظرت في تلك التعاليم ، وفكرت في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفضت كتاب الله الحكيم » . ولما سقطت سرقسطة في أيدي الإسبان في سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، غادرها ابن باجة إلى إشبيلية ، ثم إلى شاطبة ، ثم نرح إلى المغرب ، وتوفي بفاس سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . ويعتبر ابن باجة من أعظم فلاسفة الأندلس ومفكريها . وقد كتب

(١) ترجمة في التكملة رقم ١٧٥ .

(٢) القبذاق هي بلدة Alcaudete الحديثة ، وهي تقع على مقربة من جنوب غربي جيان .

(٣) التكملة لابن عبد الملك ، مخطوط الإسكوريال (رقم ١٦٨٢ الغزيري) .

نحو خمسة وعشرين كتاباً لم يصلنا منها سوى القليل ، وكان ابن باجة فضلاً عن ذلك أديباً شاعراً ، وله طائفة من الشعر الرصين الجيد ، فمن ذلك قوله في رثاء حاميه الأمير أبي بكر :

سلام وإلمام ووسمى منزلة على الحدث الثاني الذي لا أزوره
أحق أبو بكر تقضى فلاترى ترد جماهر الوفود ستوره
لئن أنست تلك اللحود بلحده لقد أوحشت أقصاره وقصوره
وقوله :

ضربوا القباب على أقاصى روضة خطر النسيم بها ففاح عبرا
وتركت قلبي سار بين حوهم داعى الكلوم سيوف تلك العيرا
لا وافد جعل الغصون معاطفا لهم وصاغ الأقحوان ثغورا
ما مربى ريح الصبا من بعدهم إلا سهرت له فعاد سعيرا^(١)

ومتهم على بن عبد الرحمن بن يوسف بن مروان بن يحيى الخزر جي الطبيب ، أصله من طليطلة ، ونشأ بها ودرس ، وبرع إلى جانب تمكنه من الفقه ، في علم الطب ، درسه على أبي المطرف بن وافد ، وهو يومئذ من أشهر أطباء الأندلس وعلمائها . واشتهر بمهارته ، في طرق العلاج . ولما استولى القشتاليون على طليطلة في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) غادرها ، وتجول في مختلف ربوع الأندلس ، ونزل بطليوس ثم إشبيلية ، ثم قرطبة ، وبها توفي سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م)^(٢) .
ومنهم العلامة الطبيب والفلكي أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت . وقد ولد بثغر دانية سنة ٤٦٠ هـ ، ودرس على أقطاب عصره ، ولا سيما أبي الوليد الوقشي قاضي دانية . وبرع في الأدب والفلسفة والطب والفلك . غادر وطنه دانية ، وقد اضطربت بها الأمور ، ونزح إلى مصر في سنة ٤٨٩ هـ ، في خلافة المستعلي الفاطمي ولد المستنصر ، ووزيره الأفضل شاهنشاه ، تحذوه آمال كبيرة في الظفر بحياة أكثر استقراراً ، وأوفر رزقاً ورغداً ، ونزل بثغر الإسكندرية ، وعاش به حيناً ، ثم قدم إلى القاهرة ، واتصل بالأفضل بواسطة بعض حاشيته ، فلم يفز بشيء مما كان يؤمل ، وأدركته خيبة أمل يعبر عنها في شعره :

(١) راجع الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٢-٤١٦ . وقد سبق أن تحدثنا عن ابن باجة في تاريخ مملكة سرقسطة في كتابنا « دول الطوائف » . ويعرف ابن باجة في البحث الغربي باسمه اللاتيني *Avempace* .
(٢) ترجمته في الذيل والتكملة لابن عبد الملك - مخطوط المتحف البريطاني - السفر الرابع .

وكم تمتيت أن ألقى بها أحداً يسلى من الهم أو يعدى على النوب
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا كانت مواعيدهم كالآل في الكذب

وفي قوله : « ولم تطل مدة اللبث حتى تبينت بما شاهدته أنى فيها مبخوس
البضاعة ، موكوس الصناعة ، مخصوص بالإهانة والاضاعة » . وأكثر من ذلك
أن الأفضل أمر باعتقاله ، لأسباب لم توضحها لنا الرواية توضيحاً كافياً . وأمضى
في هذا الاعتقال بضعة أعوام ، وكتب في معتقله عدة من مؤلفاته ، منها رسالة في
العمل بالاصطرلاب ، وكتاب الوجيز في علم الهيئة ، وكتاب الأدوية المفردة ،
وكتاب تقويم الذهن ، وهو في المنطق . وفي سنة ٥٠٥ هـ ، أفرج عنه ، وأمر
الأفضل بنفيه من مصر ، فسار إلى الإسكندرية ومنها إلى إفريقية ، حيث نزل
بالمهدية ضيفاً على أميرها أبي الطاهر يحيى بن تميم الصنهاجى ، فأكرم وفادته ،
وعلت لديه منزله ، وكتب له عن مصر رسالة الموسومة « بالرسالة المصرية » ،
وفيها يصف « ما عاينه من أرض مصر ، وما عاناه » ، ويصف جغرافية مصر ،
ونيلها ، وسكانها ، وآثارها ، ويحمل على سكان مصر ، وينعتهم « باتباع الشهوات ،
والانهماك اللذات ، والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمخالات ، وضعف
المرائز والعزمات » ، ويحمل على علماءها المعاصرين ، وينعتهم بأنهم « رعاع
وغثاء ، وجهلة ودهماء »^(١) . ولما توفى الأمير يحيى بن تميم ، استمرت حظوته
ومكانته لدى ولده على بن يحيى . وكتب له كتاب الحديقة أو « حديقة شعراء
الأندلس » على نمط كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبي . وكان أمية ابن أبي الصلت ،
فوق علمه الغزير ، أديباً ممتازاً وشاعراً جزلاً . وله ديوان شعر أشار إليه ابن
خلكان ، وأورد لنا طرفاً من نظمه ، ومنها تلك الأبيات التي قالها قبيل وفاته ،
وأوصى بأن تكتب على قبره :

سكنتك يا دار الفناء مصدقا
وأعظم مافى الأمر أنى صائر
فياليت شعري كيف ألقاه عندها
فإن أك مجزياً بذنبي فإننى
وإن يك عفو عنى ورحمة
بأنى إلى دار البقاء أصير
إلى عادل فى الحكم ليس يجور
وزادى قليل والذنوب كثير
بشر عقاب المذنبين جدير
فتم نعيم دائم وسرور

(١) راجع الرسالة المصرية ، وقد نشرت بعناية الأستاذ عبد السلام هارون ، ص ٢٤ و٣٠ .

وتوفى ابن أبي الصلت سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) أو في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) وفق رواية أخرى (١).

ومنهم بنو زهر ، وهي الأسرة الشهيرة التي لمعت في ميدان الطب والعلوم الطبيعية والكيميائية . وأصلهم من إشبيلية ، ولكن عميدهم الأكبر ، وهو عبد الملك ابن محمد بن مروان بن زهر الأيادي ، نزع من إشبيلية إلى دانية . وكان فقيهاً حافظاً ، روى بالأندلس عن طائفة من أهلها ، ثم رحل إلى المشرق ، وحج ، ودرس بمصر والقبروان ، ثم عاد إلى الأندلس ، واستوطن دانية . وكان متفنتاً في علوم كثيرة ، ولا سيما الطب ، الذي عنى بدراسته في المشرق على يد أقطابه ، حتى نبغ فيه ؛ وكان ذلك بداية هذه البراعة الطبية الفائقة ، التي شملت أسرته الشهيرة ، وامتدت إلى أبنائه واحفاده . وتوفى عبد الملك بدانية ، وجاء من بعده والده أبو العلاء زهر بن عبد الملك ، فكان صنو أبيه في دراسة الطب ، والنبوغ فيه ، وبدأ حياته بدراسة الحديث في قرطبة ، ثم مال إلى علم الطب ، فتلقاه عن أبيه ، وبرع فيه براعة غلبت لديه على كل صفة أخرى ، حتى غدا عمدة عصره في الطب والعلوم الطبيعية ؛ ومن مؤلفاته «كتاب الطرر» ، الذي كُتب عنه ، و«كتاب في الأدوية» . وكان مع براعته في الطب أديباً ، وشاعراً مقتدرًا ، ومن نظمه قوله :

ياراشقى بسهام ما لها غرض إلا الفؤاد وما منه لها عوض
ومرضى بجفون كلها غنج صحت وفي طبيعتها التريض والمرض
جد لي ولو بخيال منك يطرقني فقد يسد مسدّ الجوهر العرض
وتوفى زهر بن عبد الملك ، منكبواً على قول ابن الأبار ، بقرطبة في سنة ٥٢٥ هـ (١١٣١ م) ، ثم احتمل رفاقته ودفن في إشبيلية .

وجاء من بعده ولده أبو مروان عبد الملك بن زهر ، وهو المعروف في الغرب باسم Avenzoar . وقد برع عبد الملك في الطب براعة أبيه وجدده ، وذاع صيته في الأندلس والمغرب . ويعتبر عبد الملك بن زهر أعظم طبيب في العصور الوسطى بعد أبي بكر الرازي ، ويعتبره تلميذه ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس . وقد عاش ابن زهر في إشبيلية ، واتصل بالمرابطين وصنف

(١) ترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٩٩ ، والقفطي في أخبار العلماء ص ٥٧ ، وكذلك في

للأمير أبي إسحاق بن يوسف بن تاشفين كتابه المسمى «الاقتصار في صلاح الأجساد». على أن أعظم مؤلفات ابن زهر هو كتابه «التيسير» وهو من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى، وقد ترجم إلى اللاتينية في عصر مبكر. ووُشي به إلى أمير المسلمين علي بن يوسف، فاستدعى إلى مراکش وسجن بها مدة ثم أفرج عنه، وعاد إلى بلده إشبيلية وتوفي بها سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م). وخلفه في مهنته ولده الطبيب الأشهر أبو بكر بن زهر، وحظي لدى حكومة الموحدين وهو أكثر انتساباً إلى عصر الموحدين، ومن ثم فسوف نعود إلى ذكره في موضعه المناسب (١).
ومنهم العلامة الزراعي أبو عبد الله محمد بن مالك التغزري، أصله من قرية تغز من أعمال غرناطة. عاش في أوائل القرن السادس الهجري، وسكن إشبيلية، ودرس العلوم الزراعية على ابن بصّال الطليطلي، وبرع فيها، وكتب عنها كتابه المسمى «زهر البستان ونزهة الأذهان» وهو يسمى أحياناً باسم الحاج الغرناطي، وابن حمدون الإشبيلي.

إن هذا الثابت الحافل من المفكرين والعلماء الأندلسيين، الذين ازدهروا في العصر المرابطي، في مختلف ميادين العلوم والآداب، ومنهم عبقریات بارزة يزدان بها تاريخ الحركة العقلية الأندلسية، يحمل على كثير من التأمل. وإنه ليغدو من الصعب علينا إذا ما استعرضناه في شيء من الروية، أن نقول إن الحكم المرابطي، قد جنى بأساليبه الرجعية على سير الحركة الفكرية الأندلسية، وعاقها عن التقدم والازدهار. وكل ما يمكن أن يقال في ذلك هو أن ما اتخذ المرابطون من إجراءات للحجر على الدراسات الكلامية والشرعية والفلسفية، وتوجيهها إلى وجهاتهم الخاصة، ومطاردة كتب الأصول، قد يكون له أثره في سير هذه الدراسات، وإن كان لا يحق لنا أن نبالغ في تقدير هذا الأثر. أولاً لأن هذه الدراسات كانت كغيرها من الدراسات العلمية والأدبية، قد تأثلت جذورها منذ بعيد، وثانياً لأن العهد المرابطي لم يطل أمدته بالأندلس، ولم يلبث أن زالت بزواله السريع، كل ضروب الحجر والمطاردة التي اتخذت، ثم جاءت ثورة الأندلس ضد الحكم المرابطي، فكانت عاملاً له أثره في إذكاء الحركة العقلية، ومدتها بعناصر جديدة من القوة والاندفاع.

(١) وردت في الذيل والتكملة ترجمة حسنة لابن زهر وجده عبد الملك - مخطوط المتحف البريطاني السفر الرابع. ووردت في التكملة لابن الأبار ترجمة لزهر بن عبد الملك رقم ٩٠٧. وراجع عن بني زهر أيضاً «المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية ص ٢٠٣، وفي نفع الطبيب ج ١ ص ٤٣٧-٤٣٩.

الكتاب الخامس

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر المرابطي

وأوائل العصر الموحدى

الفصل الأول

ألفونسو المحارب وأوراكا ملكة قشتالة

وبداية عهد ألفونسو ريمونديس

الممالك الإسبانية النصرانية عند مقدم المرابطين . ألفونسو السادس بعد الزلادة . إفتتاحه لشترين .
موقعة أقليتس ومصرع الإنفانت سانشو . موت ألفونسو السادس . الكونت ريمون البرجوني وأخوه
الكونت هنرى . زواج الأول من أوراكا ابنة ألفونسو الشرعية . زواج الثانى من تريسا ابنته غير
الشرعية . وصية ألفونسو السادس عن وراثة العرش وما يقترن بذلك من الشروط . موافقة الكورتيس
عليها . أوراكا ملكة قشتالة ، زواج ألفونسو المحارب من أوراكا . التنافس والشقاق بين الزوجين .
أوراكا وصفاتها وموقفها . ألفونسو وأهله . محاصرته لأوراكا . هنرى البرجوني وموقفه . الأمير الطفل
ألفونسو ريمونديس . الدسائس من حوله . فرار أوراكا وتصرفاتها . الحرب بين الفريسيين وهزيمة قوات
قشتالة . ألفونسو ريمونديس ملك جليقية . الحرب بين أهل جليقية وألفونسو . فرار الأسقف خلمايث
بالأمير الطفل . حشده لقوات جليقية ، وانضمام الكونت هنرى إليه . انسحاب ملك أراجون .
الأسقف خلمايث وصفاته وأطباعه . انقسام اسبانيا النصرانية . تفاقم الخلاف بين أوراكا وألفونسو .
محاولة الصلح ومعارضة الأسقف خلمايث . إعلان بطلان الزواج . معارضة ألفونسو فى ذلك .
استتار الملكة أوراكا . الأسقف يؤيد ألفونسو ريمونديس فى جليقية . استياء أوراكا من مسلكه
وسيرها لمحاربه . تدخل الملكة تريسا . ثورة أهل شنت ياقب ضد الأسقف . التجاؤه إلى حماية
أوراكا . الصلح بين الأم وولدها . مسير أوراكا إلى شنت ياقب ومقاومتها . عودها إلى مهاجمة المدينة
بقوات مجتمعة . تغلبها على المدينة وإخضاعها . عودة الأسقف وارتقاؤه إلى المطرانية . الحرب بين أوراكا
وتريسا . الصلح بينهما . أوراكا تقبض على المطران دييجو وإخوته . غضب الشعب والبابا . أوراكا
تطلق سراحه . الحرب بين المطران وبين الملكة . الصلح بين الملكة وابنها والمطران . سعى البابا إلى
تحقيقه . وفاة أوراكا . صفاتها واختلاف المؤرخين فى الحكم عليها . ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة
وليون . الصراع بينه وبين ألفونسو المحارب . اهتمامه بالقضاء على سلطان الأشراف . أسرة لارا
ومطاردتها . مسيره لمحاربة الملكة تريسا . خضوع البرتغال . زواج ألفونسو ريمونديس من ابنة رامون
برنجير . اهتمامه بمحاربة الأندلس . الغزوات المتبادلة بين المسلمين والنصارى .

تبعنا فيما تقدم ، فى كتابنا « دول الطوائف » ، تاريخ الممالك الإسبانية
النصرانية خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، حتى وفاة ألفونسو السادس ملك
قشتالة ، عقب موقعة أقليش فى يونيه سنة ١١٠٨ (شوال سنة ٥٠١ هـ) .
ونود الآن أن نستأنف تاريخ هذه الممالك النصرانية ، خلال العصر المرابطى ،
وحتى مقدم الموحدىين إلى شبه الجزيرة .

حينما قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة لإنجاد دول الطوائف ، ورد عدوان اسبانيا النصرانية عنها ، كانت الممالك الإسبانية النصرانية ثلاث ، هي مملكة قشتالة ، وهي أكبرها رقعة ، وأوفرها قوة وموارد ، ومملكة أراجون ، وإمارة برشلونة أوقطلونية ، وهي أصغرها . وكانت مملكة ناغارا القديمة (نبرة) ، قد اختفت يومئذ ، مذ تأمر على اقتسامها سانشو راميريس ملك أراجون ، وألفونسو السادس ملك قشتالة ، واستولى الأول على نصفها الشرقي مما يلي جبال البرنيه واستولى الثاني على نصفها الغربي مما يلي نهر إيبرو ، وذلك في سنة ١٠٧٦ م ، ولم تظفر باسترداد استقلالها ، والعود إلى استئناف دورها في شبه الجزيرة كمملكة مستقلة إلا بعد ذلك بنحو نصف قرن ، وذلك عقب وفاة ألفونسو المحارب ملك أراجون في سنة ١١٣٤ م .

وكان ألفونسو السادس ، عميد الممالك الإسبانية النصرانية وقطبها ، حين قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة ، وحين اشتبك معهم في موقعة الزلاقة العظيمة ، على رأس الجيوش النصرانية المتحدة ، ولفي فيها هزيمته الساحقة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) ، بيد أنه نهض من غمار الهزيمة ، وعاد يقود الجيوش القشتالية مرة أخرى ، لمقاتلة المسلمين وغزو أراضيهم . ولبثت قواته في حصن لبيط حيناً تعيث في أحواز مرسية ولورقة ، إلى أن حاصره المرابطون وقوات الطوائف ، ولم تستطع اقتحامه ، حتى عاد ألفونسو لإنجاد فلول حاميته ، ثم أخلاه (١٠٨٩ م) . ثم غزا شذرين من قواعد ولاية الغرب واستولى عليها سنة ١٠٩٣ . واشترك بعد ذلك في حوادث بلنسية ، عقب وفاة السيد الكمبيادور ، وعاث في أنحاءها ، ثم غادرها حينما شعر بتفوق القوات المرابطية المتأهبة لاستردادها (١١٠٢ م) .

ولما توفي يوسف بن تاشفين ، وخلفه ولده علي ، عبر إلى شبه الجزيرة ، معزماً أن يستأنف عهد الجهاد ، وعبرت معه قوات مرابطية ضخمة ، ونفذت الجيوش المرابطية مرة أخرى إلى أراضي قشتالة ، يقودها الأمير أبو الطاهر تميم ابن يوسف ، والتقت في ظاهر أقليمش بقوات قشتالة ، وكان الملك الشيخ - ألفونسو - قد تخلف عن قيادتها لضعفه ، وبعث معها ولده الطفل سانشو لبيث فيها روح الإقدام والحماسة . وشاء القدر أن تكون موقعة أقليمش « زلاقة » أخرى سحقت فيها الجيوش القشتالية ، وقتل فيها الإنفانت الصبي سانشو ، وحيد ألفونسو وولي عهده ، وعدة من قادة قشتالة وأكابرها (٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م) وذلك كله حسبما فصلناه في مواضعه . ولم يعش ألفونسو بعد هذه الضربة طويلاً ،

وتوفى في ٢٩ يونيه من العام التالي ، وقد أشرف على الثمانين من عمره ، بعد حكم دام أربعة وأربعين عاما ، ودفن بدير ساهاجون .
وقد تحدثنا من قبل عن أعمال ألفونسو السادس وإصلاحاته الداخلية ، وعن تكوين المجتمع القشتالي في عصره ، وعن سير التشريع ، وما تميز به عهده من ظهور نفوذ البابوية ، وبدأ مزاوله رياستها الروحية على الملوكية الإسبانية^(١) ، فلا محل لأن نعود هنا إلى ذكر هذه الموضوعات. بيد أن الذي يهمنا هنا هو ما انتهى إليه أمر وراثة العرش . ذلك أن ألفونسو السادس توفى دون وارث للعرش ، بعد مقتل ولده الوحيد سانشو في معركة أقليمش . وكان مما تميز به عهد ألفونسو ، مقدم كثير من الفرسان القرنسيين الذين تحذوهم الروح الصليبية إلى اسبانيا ، ليشاركوا مع القوات القشتالية في محاربة المسلمين . وكان من بين هؤلاء إثنان من الأشراف من أقارب الملكة كونستانس زوجة ألفونسو الأولى ، هما الكونت ريمون البرجوني ، وابن عمه الكونت هنري ، وقد اشترك كلاهما ، إلى جانب ألفونسو ، في كثير من المعارك التي خاضها ضد المسلمين ، وظهر فيها بإقدامه وبسالته ، فرأى ألفونسو إثابة لهما أن يزوجهما من ابنتيه أورآكا وتريسا (سنة ١٠٩٢ م) ، فتزوج الكونت ريمون بأورآكا ، وهي ابنة الملك الشرعية من زوجته الملكة كونستانس ، وتزوج الكونت هنري بتريسا ، وهي ابنة غير شرعية لألفونسو من خليلته خمينا نونيس ، ومنح ألفونسو أورآكا وريمون إمارة ولاية جليقية ، ومنح تريسا وهنري إمارة الأراضى التي انتزعها من المسلمين في ولاية لوزيتانيا (شمالى البرتغال) ، وهي التي غدت فيما بعد مهداً لقيام مملكة البرتغال الجديدة في شبه الجزيرة . وهكذا بدأ النفوذ الفرنسى يتسرب إلى شئون قشتالة السياسية ، بعد أن تسرب إلى شئونها الدينية على يد الرهبان الدومنيكانيين ، وعميدهم المطران برنار ، مطران طليطلة ورئيس الكنيسة الإسبانية .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن الملك فى قشتالة كان وراثياً . وقد واجهت ألفونسو بعد مصرع ولده الوحيد سانشو فى موقعة أقليمش مشكلة صعبة ، هى مشكلة وراثة العرش . ومن ثم فقد عنى نخلها فى وصيته التى وضعها قبيل وفاته . وكان الكونت ريمون البرجوني ، قد توفى منذ سنة ١١٠٧ م ، بعد أن أنجب

(١) راجع كتاب دول الطوائف ص ٣٨٧ - ٣٩٠ .

من زوجه أورাকা ولدين ، هما ألفونسو وسانشا . وقد نصت وصية ألفونسو أن تتولى عرش قشتالة بعد وفاته إبنته أورাকা ، أرملة الكونت ، ورأى في الوقت نفسه تقوية لحانب العرش وسعيًا إلى توحيد اسبانيا النصرانية ، أن تزوج أورাকা من ألفونسو الأول المحارب ملك أراجون وناقارا . وعلى أثر وفاة الملك الشيخ اجتمع نواب المملكة (الكورتيس) من الأشراف والأساقفة ورجال الدين وحكام الولايات والفرسان في مدينة ليون ، وأقروا وصية الملك الراحل : وكان أشراف قشتالة ، بالرغم من تخوفهم من جرأة ملك أراجون ، يخشون ألا تقوى أوركا وحدها على تحمل أعباء الملك ، والدفاع عن المملكة ، وأنه لا بد أن يكون إلى جانبها أمير قوى يستطيع أن يرد هجمات المسلمين ، ومن ثم فقد وافقوا على هذا الزواج . ووافقت أورাকা رغم ارادتها تنفيذاً لوصية أبيها ، وتقرر أن تحل مسألة العرش على النحو الآتي : أن تكون أورাকা ملكة قشتالة وليون وأشتوريش وأن يمنح ولدها الطفل ألفونسو ريمونديس (أى ابن ريمون) مملكة جليقية مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى زوج أختها تريسا إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة . فإذا لم تعقب أورাকা من زوجها بألفونسو ملك أراجون ، فإن المملكة كلها توول بعد وفاتها ، إلى ولدها ألفونسو ريمونديس ، أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس .

وتم زواج ألفونسو الأول وأورাকা في حصن منيون في أكتوبر سنة ١١٠٩ م . وفي العام التالي (١١١٠ م) ، سارت الملكة في قوات قشتالة مع زوجها الملك ، إلى أراضي ناجرة وسرقسطة الإسلامية . وكان المرابطون قد احتلوا عندئذ سرقسطة ، فعاث ألفونسو في تلك المنطقة ولكنه لم ينل مأرباً . وسرعان ما دب الشقاق بينه وبين زوجه أورাকা ، وظهر الخلاف واضحاً بين الزوجين في كل شيء . وكان التنافس بين الزوجين على السلطان مصدر الخلاف الرئيسي . وكانت أورাকা امرأة وافرة الكبرياء والطموح ، فحاولت أن تستأثر بجميع السلطات في قشتالة والأراضي التابعة لها ، وعمدت إلى إبعاد سائر الرجال الذين يشك في ولائهم المطلق لها ، ورفعت من اصطفتهم إلى أرفع مناصب الدولة . فثار ألفونسو غضباً لذلك ، وصمم على ألا يتنازل عن حق من حقوقه الملكية . يقول المؤرخ لافونتي : «لقد اقترنا دون حنان ، وكان الأمير الأرجوني موهوباً يتمتع بصفات الجندی الحشنة ، أكثر منه بالجلال التي تجعل سنه زوجاً رقيقاً . وكانت الملكة من جانبها لاتراعى

العناية والحزم في بعض أعمالها الخارجية ، فانتهى الأمر ، بأن نبذ الملك كل اعتبار
لزوجته ، وأخذ يسيئ معاملتها ، لا بالكلم فقط ، ولكن بالفعل أيضاً ، فكان
يصفعها ويركلها برجليه . ورأى الأساقفة الذين لم يرقهم هذا الزواج منذ البداية ،
أن أفضل مخرج من هذا الموقف المزرى هو الطلاق ، وأصغت الملكة إلى هذا
الاقتراح ، لأنها كانت فضلاً عما تلقاه من سوء المعاملة ، تشك في صحة هذا الزواج .
وكانت من جهة أخرى ترنو إلى الزواج من الكونت جومث دي كاند سينا ،
وكان أيام حياة أبيها يتطلع إلى ذلك ، وكانت بينه وبينها علائق مربية^(١) .

- ١ -

وهنا تبدأ تلك الحرب الأهلية الشهيرة ، التي لبثت أعواماً طويلاً ، تمزق
اسبانيا النصرانية ، والتي كان بطلاها الرئيسيان ، ألفونسو ملك أراجون ،
وأوراكا ملكة قشتالة .

أدرك ألفونسو منذ البداية ما تنطوي عليه زوجه من رياء وخديعة ، وما يشين
سمعتها الأخلاقية من شائعات مربية ، فاعزم أمره واتخذ من حجة الدفاع عن
ظليظة ذريعة ، ووضع في معظم قلاع قشتالة ومدنها الرئيسية حاميات أراجونية .
ولم يحجم عن محاصرة الملكة ذاتها في قلعة كاستلار (سنة ١١١١ م) بحجة أنها
تحاول بث الثورة ، وأنها بسوء سلوكها تصدع من هيبة العرش .

وكانت عناصر أخرى تتأهب لدخول المعركة . ذلك أن الأمير هنري
البرجوني أمير البرتغال ، وزوج تريسا أخت أوراكا ، كان يطمح إلى عرش
قشتالة ، ويأتمر بها ، ومن أجل ذلك عبر إلى فرنسا ليجت عم يساعده في
محاربه لأوراكا ، ثم عاد إلى اسبانيا بطريق أراجون ، واتفق مع ألفونسو على
أن يعمل معه لاتحاد أراضي ليون وقشتالة ثم يقسمانها فيما بعد .

وكانت المؤامرات تحاك في نفس الوقت حول الأمير الطفل ألفونسو
ريمونديس ، وكان يعيش في ضيعة صغيرة في جليقية تحت رعاية وصيه الكونت
بيدور دي ترافا . فلما تزوجت أمه أوراكا بملك أراجون ، أراد الوصي أن يعلن
الأمير الصغير ملكاً على جليقية وفقاً لوصية جده . وكان هنري أمير البرتغال يؤيد هذا
المشروع . ولكن أوراكا حينما سمحت في قلعة كاستيلار ، بادرت فأرسلت رسلها إلى
جليقية يطالبون إعلانها ملكة لها . ولكن أشرف جليقية خشوا من انتقام ملك أراجون .

وكثرت الأهواء والفسائس ، وحاول بعض أشراف جليقية الثوار أن يختطفوا الملك الطفل من مقامه في قلعة «سانتاماريا» ، حيث كانت الكونتيسة دي ترافا تسهر على حمايته . ولكن الكونتيسة دافعت عنه ببسالة ، وعاونها في ذلك ديجو خلمريث أسقف شنت ياقب ، وفشلت المحاولة . وفي تلك الأثناء نجحت أورাকা في الفرار من معتقلها بقلعة كاستلار ، فالتف حولها معظم أشراف قشتالة ، وقد ساءهم عنف ملك أراجون وتحديه . وأطلقت أورাকা العنان لأهوائها ، وحببت باصطفاءها اثنين من الأشراف هما جومث جونثالث . وبيدرو جونثالث دي لارا ، وكان كلاهما من عشاقها ، وكلاهما يؤمل الوصول إلى العرش متى تم طلاقها . وكان ملك أراجون يضطرم سخطاً لهذا الاصطفاء المريب ، ويبث عيونه على الملكة الخئون في كل خطواتها . وهكذا أضجى من المتعذر التوفيق بين زوجين يمقت كل منهما صاحبه ، ولم يلبث أن تحول النزاع المستمر بينهما إلى حرب عننية . وكان هنري أمير البرتغال ، يوازر ملك أراجون في هذا النزاع ، تحقيقاً لأطماعه . وكان ألفونسو قد استولى خلال ذلك على طليطلة ، وحاكمها يومئذ ألبار هانيس . وهكذا دوت صيحة الحرب الأهلية ، وتحركت قوات ليون وقشتالة لموازة أورাকা ، وتحركت قوات أراجون والبرتغال ، والتقى الفريقان في « كامبودي سبينا » بالقرب من سيبولفيدا من أعمال ولاية شقوبية . وكان يقود قوات قشتالة الكونت بيدرو دي لارا ، ولكنه ما لبث إزاء عنف هجوم الأراجونيين أن تخلى عن المعركة ، وفر إلى برغش ، وخلفه في القيادة زميله الكونت جومث . وأسفرت المعركة في النهاية عن فوز قوات أراجون ، وكان الكونت وكثير من أشراف قشتالة بين القتلى (نوفمبر سنة ١١١١ م) .

وعلى أثر ذلك اخترق الجيش الأراجوني قشتالة ، وهو يعيث في أراضيها نهباً وتخريباً ، وعُزل الأساقفة من أنصار الملكة ، واعتدى الحند على الكنائس . وعندئذ خشى أشراف جليقية العاقبة ، فانضموا إلى الملكة ، وأعلنوا الأمير الطفل ألفونسو ريمونديس ملكاً على جليقية ، وقرروا أن ينقلوه لدى أمه في قشتالة ، صحبة وصيه الكونت دي ترافا والأسقف خلمريث ، ومعهم فرقة قوية من الحند . وعلم ملك أراجون بذلك ، فخرج لصددهم ، ونشبت بين الفريقين على مقربة من أسترقة معركة حامية ، وكل يحاول أن ينزع الملك الطفل . وهزم الحلالقة ، ولكن الأسقف خلمريث استطاع خلال المعركة أن يحمل الطفل وأن يفر به ناجياً

إلى حصن « أوسيون » حيث كانت أمه ، ثم حمله الإثنان خلال الجبال إلى شنت ياقب .

وغدا الأسقف خلمريت عندئذ روح كل مقاومة ضد ملك أراجون ، وأصدر نداء إلى أهل جليقية المخلصين ، واستطاع أن يضم إليه المنشقين منهم في جهة واحدة ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع هو والملكة أن يجمعوا قوة كبيرة ، ونجح الأسقف أيضاً في أن يستميل إلى جانبه هنري أمير البرتغال ، وكان قد بدأ يخشى سطوة ملك أراجون . وسارت القوات المشتركة إلى أسترة لإنقاذ الحلالقة المحصورين بها . فلما شعر ملك أراجون بتفوق خصومه ، غادر أسترة ، وارتد في قواته صوب بلد الوليد ، وهناك حاول القشتاليون والحلالقة والبرتغاليون محاصرته ، ولكنه استطاع أن يقضي على محاولتهم ، وأن يرتد ظافراً إلى بلاده (أبريل سنة ١١١٢ م) .

ولا بد لنا أن نذكر كلمة عن هذا الأسقف المغامر المحارب ، ديجو خلمريث ، فقد كان أسقفاً لشنت ياقب منذ سنة ١١٠١ م ، وكانت سيادته لهذه الأسقفية الهامة المتمدنة ، واحتكامه على ما بها من ثروات وموارد طائلة وأتباع عديدين ، تجعل منه عاملاً هاماً في ذلك الصراع السياسي الذي تجوزه قشتالة . وكان الأسقف فوق ذلك رجلاً رفيع المواهب ، شديد الحزم ، كثير الأطماع ، متحفزاً ، شغوفاً بتوسيع سلطانه وحقوق كنيسته ، قليل الاكتراث بالوسيلة ، وهو ما كان يتفق مع ضعف الخلق السياسي في هذا العصر ، الذي كان ينتقل فيه الناس بسهولة ودون حرج من حزب إلى حزب ، ويحشون في كل وقت بالعهد أو بالصدقة المعقودة . وهكذا كان دون ديجو ممثلاً بارزاً لأهل عصره ، وللطبقة السائدة التي كانت تضم الأشراف ورجال الدين ، وهكذا ، سوف نراه صديقاً للملك أوركا ثم عدواً لها ، وصديقاً لريسا ملكة البرتغال ثم عدواً لها ، وصديقاً للملك الصبي ألفونسو ، ثم خصماً له . وسوف نراه يحارب إلى جانبهم ثم يحارب ضدهم طوراً بعد طور^(١)

وتعاقبت الحوادث والقلقل في الأعوام التالية ، وانقسمت اسبانيا النصرانية إلى ثلاثة أحزاب ، كان أولها وأقواها من حيث البلاد والموارد حزب ملك أراجون ،

R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola (١)
(Barcelona (1900) V. I. p. 357 & 858

وثانيها حزب قشتالة الذي ينضوي تحت لواء الملكة أورাকা ، ويؤازره رجال الدين في قشتاله وليون وجليقية ومن ورأهم الشعب ، وثالثها حزب الأشراف ، وهو يعارض حكم الملكة وحكم ملك أراجون ، ويعقد آماله على الملك الطفل ألفونسو ريمونديس ملك جليقية ، ويؤازره معظم الفرسان في سائر أنحاء المملكة . وكان من الواضح أن الخلاف بين الملكة وزوجها قد وصل إلى حدود لم تعد تنجح معها أية محاولة للتوفيق ، وقد بذلت مثل هذه المحاولة بالفعل على يد كبار قشتالة ، وعقد صلح اتفق فيه على توزيع البلاد والحصون على الملكين . ولكن ألفونسو ما لبث أن استولى على كثير من الحصون التي أعطيت للملكة . وعندئذ غضب القشتاليون لذلك ، وأعلنوا أن أورাকা هي ملكة قشتالة الشرعية . ونهضت الملكة ، وسارت في قواتها وقوات جليقية لمحاربة ألفونسو . وبعث ألفونسو سفراءه في طلب الصلح من جديد . ومال الأشراف إلى ذلك حقنا للدماء . ولكن الأسقف ديجو خلمريث ، عارض في عقد الصلح أشد معارضة ، وأعلن بطلان الزواج المعقود بين الملك والملكة ، وخصوصاً بعد أن أعلن البابا أنه « عشرة محارم » وذلك بسبب القرابة الشديدة بين الزوجين . ولم تمض أشهر قلائل حتى أعلن رسول البابا في مجلس عقد في بالنسيا بطلان الزواج بصفة رسمية ، واغتبطت الملكة لذلك القرار . ولكن ملك أراجون أعلن بطلان القرار البابوي ، ثم قرنه بإعلان الحرب على قشتالة ، والاستيلاء على ولاية ريونخا . وفي خلال ذلك ، كانت الفتن والقتال تتعاقب ، أحياناً في صف أورركا ، وأحياناً ضدها . وكانت أورাকা ماضية في مسلكها المشين لاتبى على شيء ، وقد فاق استهتارها كل حد ، وتركت لتحليلها الكونت بيدرو دي لارا كل الشئون ، وأضحت علائقها الغرامية فضيحة عامة ، يجري ذكرها على كل لسان . وكان الأسقف ديجو من جهة أخرى يعمل بكل ماوسع لتوطيد مركز ألفونسو ريمونديس في جليقية ، وذلك بالتعاون مع الكونت دي ترافا مؤدب الملك وزملائه الثوار من أشراف جليقية . فثارت الملكة لمسلكه ، وسارت في بعض قواتها إلى شنت ياقب التي غدت عندئذ مركزاً لهذه المحاولات ، فاضطر الأسقف إلى إعلان توبته وطاعته . ولكن حدث عندئذ ، أن سار الكونت دي ترافا ، وتريسا ملكة البرتغال في قواتهما إلى شنت ياقب ، وحاصرا الملكة أورাকা . وكانت تريسا ، قد كسبت بانضمامها إلى الثوار ، دفع حدودها إلى أراضي مدينتي

توى ، وأورنسى . ولم تستطع أوراكا مغادرة شنت ياقب إلا بصعوبة ، فسارت منها إلى مدينة ليون . وبقيت تريساً في جليقية حيناً ، حتى علمت بأن المسلمين يرحفون على أراضيها الجنوبية فعادت إلى البرتغال لتعنى بمدافعهم .
وفي تلك الأثناء ثار أهل شنت ياقب بالأسقف ديجو ، ففر إلى قشتالة ، والتجأ إلى حماية الملكة ، فاستقبلته بعطف ، وعهدت إليه بأن يقوم بالسعى في عقد الصلح بينها وبين ولدها ومن يؤيدونه من أشرف جليقية ، فدعا الأسقف إلى اجتماع عقد في ساهاجون يمثل مختلف الأطراف المتنازعة (كورتيس) ، ووضع اتفاق بين الأم والإبن ، وقعه ثلاثون شريفاً من كل من الفريقين ، يقضى بأن تتولى الأم وولدها الحكم معاً في جليقية وليون وأشتوريش ، وأن تنهرد الأم بالحكم حال حياتها في قشتالة ، على أن يخلفها ولدها وفقاً لوصية أفونسو السادس (سنة ١١١٧ م) .

ولما تم توقيع الصلح على هذا النحو سارت الملكة إلى جليقية لزيارة ولدها ، ثم سارت إلى شنت ياقب لتعاقب أهلها على مناوأتهم للأسقف ديجو . فقاومها أهل المدينة بشدة ، وهاجموها ومن معها بعنف ، حتى اضطرت أن تلتجئ مع حاشيتها إلى الكنيسة الكبرى ، فأضرم الثوار فيها النار غير مكترئين بصفتها المقدسة ، ولما هرعت الملكة إلى الخارج طلباً للنجاة ، تطاول عليها الثوار وأهانوها ، ولم تستطع النجاة إلا بعد أن تعهدت لهم بأن تعين لهم أسقفاً آخر يوافق الملك على تعيينه ، وأن تحكم البلدة وفقاً لرغبات أهلها . أما الأسقف ديجو ، فاستطاع أن يفر متنكراً ، ولكن أتباعه هلكوا في الكنيسة حرقاً .

وما كادت الملكة تغادر شنت ياقب حتى زحفت على المدينة قوات جليقية ، وقوات الملكة وأصحاب الأسقف ، واعتزمت الملكة عندئذ أن تعاقب أهلها على جرأتهم عقاباً رادعاً . فارتاع أهل المدينة ، وخرج كبراًؤها من قساوسة ومدنيين ، وتضرعوا إلى الملكة وإلى الأسقف بأن تصفح عنهم ، وأن يُرفع عنهم النبي الكنسى الذى أعلنه الأسقف . وانتهى الأمر بأن اشترطت الملكة ، أن يُنزع سلاح الجماعة الثائرة المسماة «جماعة الإخوة» ، وأن يقسم الكبراء يمين الطاعة للملكة والأسقف ، وأن يقدموا خمسين فتى من أبنائهم وأقاربهم رهينة ، وقررت الملكة نزع أملاك خمسين من الثوار ، وفرضت على المدينة غرامة فادحة . ثم دخلت إلى المدينة يصحبها الأسقف ، وأعيد الأسقف إلى منصبه ، وردت

التحف المهوبة ، وأصاحت الكنيسة والقصر الأسقى المجاور لها على نفقة الثوار . واستطاع الأسقف ديجو فوق ذلك أن ينال من البابا كالستوس الثاني رتبة المطرانية (الكردينال) ، والبابا كالستوس هو أخو الكونت ريمون والد الملك الصبي ألفونسو ، وكان منح الأسقف هذا اللقب ثمناً لمؤازرته للملك ، واشتُرط في منحه أن يستمر الأسقف في مؤازرته .

خرجت الملكة أورাকা بعد ذلك في قواتها ، ومعها قوات شنت ياقب تحت تحت قيادة المطران ديجو ، لمحاربة أختها تريسا ملكة البرتغال واسترداد أراضي توى وأورنسى منها ، ونفذت إلى أراضي البرتغال ، وحاصرت تريسا في حصن لا نيوسو ، ولكن تريسا استطاعت الفرار بمعاونة بعض الأشراف الحلالقة ، وربما أيضاً بمعاونة المطران الماكر ، وقد أبدى رغبته فجأة في أن يعود بقواته إلى شنت ياقب ، وهو ما حمل أورাকা على الشك في ولائه . وانتهت المفاوضات التي تلت بين الأختين عن نتيجة لم تكن متوقعة ، هي أن تنازل أورাকা لأختها عن أراضي من أحواز سمورة وطورو وشلمنقة ، في نظر أن تتعهد تريسا بمعاونتها ضد جميع خصومها ، مسلمين كانوا أو نصارى ، وألا تعاون أحداً من الأشراف الثائرين ضدها . وعلى أثر ذلك عادت أورাকা على رأس حملتها الغازية إلى جليقية . ولكنها دبرت أن تعبر قوات شنت ياقب النهر أولاً ، وما كاد يتم عبورها ، حتى أمرت بالقبض على المطران ديجو ، وزججه إلى أحد الحصون ، وقبض كذلك على إخوته الثلاثة ، وعلى صديقيه مطران براجا وأسقف أورنسى ، وكانوا جميعاً مع الجيش . وكان لهذه الإجراءات العنيفة أعمق وقع في شنت ياقب وفي رومة . ففي شنت ياقب ثار الشعب سخطاً ، وبدا غضبه بأجلى مظاهره حينما قدمت الملكة إلى المدينة المقدسة لتشهد الاحتفال بعيد القديس ياقب . وأما عن موقف رومة ، فقد أرسل البابا كالستوس إلى سائر مطارنة اسبانيا ، بأن يعقدوا مجلساً دينياً ، وأن يصدروا قراراً بنفي الملكة من الكنيسة ، إذا لم تفرج عن المطران خلمريث ، وترد إلى الكنيسة أملاكها المغصوبة . ومن جهة أخرى فقد ثار شعب شنت ياقب ، وهدد الملكة بالويل إذا لم تفرج عن المطران ، وزاد في حماسهم وثورتهم مقدم الملك الفتي ألفونسو ريمونديس على رأس قواته . وعندئذ اضطرت أورাকা ، أن تطلق سراح المطران وزملائه المعتقلين . ولكنها لم تقم برد أملاك الكنيسة ، وأملاك المطران المنزوعة .

وهنا نهض المطران لمحاربة الملكة ، ومن الغريب أن أهل شنت ياقب الذين خرجوا من قبل على المطران وكادوا يفتكون به ، انضموا عندئذ إليه . وانضمت إليه كذلك قوات ألفونسو ريمونديس الجليقية . وسارت الملكة في قواتها لمقاتلة المطران الثائر وحلفائه ، والتقى الفريقان في مكان يسمى « مونسا كرو » ووقعت بينهما بعض المصادمات الدموية ، وصدر في تلك الأثناء قرار المطارنة بنى الملكة من الكنيسة تحقيقاً لرغبة البابا ، وعندئذ لم تر الملكة مناصباً من الإذعان . وفي رواية أخرى أنه لم يقع قتال بين الفريقين ، وأن المطران ديجو اقترح على الملكة أن تجرى مفاوضات لعقد الصلح بينها وبين ابنها حقناً للدماء . وانتهت هذه المفاوضات إلى معاهدة صلح ، قدمت الملكة لضمان تنفيذها ستين من فرسانها رهينة ، وتعهدت بأن ترد سائر أملاك الكنيسة ، وأن ترد إلى المطران سائر أملاكه ورواتبه .

وحاول البابا كالستوس الثاني أن يضع بتدخله حداً لتلك الحرب الأهلية التي طال أمدها ، فأوفد إلى شبه الجزيرة سفيراً بعد سفير ، وعقدت بدعوته عدة اجتماعات كنسية ونيابية للعمل على رد السكينة والنظام ، والتوفيق بين الأحزاب المتنازعة . وانتهى الاجتماع الذي عقد في بلد الوليد في سنة ١١٢٤ م ، بعقد الصلح بين الملكة وولدها على أن يحكما سوياً كل الأراضي التي ورثتها أوركاكا عن أبيها . ولكن النزاع بين الأشراف استمر على حاله ، ولم تثمر في حسمه أية وسيلة ، إذ كانت أهواء الملكة الشخصية تحول دون كل توفيق ، وتذكي عوامل الخصومة والبغضاء في مختلف النفوس . وكان ولدها الملك الفتي ، قد سار قبل ذلك ببضعة أعوام إلى قشتالة في فرقة قوية من فرسانه واستطاع أن يقبض على الكونت بيدرو دي لارا عشيق أمه ، وأن يلقي به إلى السجن . ولكن الكونت فر من معتقله ، والتجأ إلى حماية أمير برشلونة ، ورفع هذا الحادث من سمعة الملكة وهيبته مدى حين ، وهدأت ثورة أشراف قشتالة ، الذين كانوا ينقمون على أوركاكا اصطفاها الشائن لخليلها . ومع ذلك فإن هذه الملكة الماجنة استمرت على سلوكها الوضيع ، وعلائقها الغرامية المشينة ، حتى نهاية حياتها .

وقد جاءت النهاية أخيراً لتضع حداً لحياة ذميمة ، فياضة بالفجور والفضائح والأهواء الجامحة ، والخصومات المضطربة ، وتوفيت أوركاكا ملكة قشتالة في سنة ١١٢٦ م . فتنفس الجميع الصعداء في سائر أنحاء اسبانيا النصرانية ، ملوكاً ، وأجباراً وأشرافاً ، وفرساناً ، وشعوباً ، واختفت من حياة قشتالة العامة ، شخصية

بغیضة لم تحظ خلال حياتها ، بشيء من الولاء الحقیقی ، أو العطف الصادق أو التوقیر والاحترام .

لبث أوراکا مدى عشرين عاما ملكة لقشتالة ، وخلفت على العرش أباهما العظيم ألفونسو السادس ، فكان التباين في الوسائل والحلال من أبشع ما يمكن تصوره ، وتحول الحكم القوي الحازم ، إلى معترك من الشهوات والأهواء الخطرة . وبدلاً من أن يغدو زواجها بألفونسو المحارب دعامة لتوطيد العرش ، وتسيير دفة الحكم ، أصبح مصدرراً خطراً للتنافس والشقاق المستمر ، وعاملاً في ضعف المملكة ، واستنزاف مواردها التي كانت تدخرها لغزو الأندلس ، وتخريب ربوعها في حروب أهلية منهكة . وكان وجود امرأة على رأس الحكم في ممثلة قشتالة العريقة ، في ذاته مظهراً جديداً لم يألفه الشعب القشتالي ، الذي اعتاد أن يرى حكامه من الملوك الأقوياء ، وأذكى من وقع هذا المظهر في نفوس الأشراف و نفوس الشعب ، مسلك أوراکا المشين كملكة وامرأة معا ، لا تحرص على صون هبة الملك ، ولا كرامة المرأة المصونة .

ومع ذلك فإن المؤرخين الإسبان مختلفون في الحكم على أوراکا ، وعلى حقيقة تبعاتها التاريخية . ففريق يحكم عليها ، ويدمغها بأقسى النعوت . ومن هؤلاء الأسقف ساندوفال . إذ يحمل عليها في تاريخه^(١) بشدة ، ويقول : « يجب علينا أن نسقط مثل هذه العصور من سلسلة تاريخنا القومي » . ويضع لوقا التويي ، وأسقف طليطلة ، وماريانا ، مسئولية سائر المحن والحلقات التي حدثت على رأس ملكة قشتالة ، ويصفونها بأنها « امرأة متهورة وشجاعة » ويتحدثون عن « خدعاتها المشينة المشبعة بالخيانة » . هذا بينما يرفض الأب فلورس^(٢) وغيره ، كل ما نسب إلى أوراکا من « أعمال الطيش التي نسبت إليها » ويرجعون المسئولية في كل ما حدث من الشقاق والاضطرابات إلى الملك ألفونسو المحارب ، وينسبون إليه أخبث النيات ، وأشنع الأعمال اللادينية ، ويصفونه بأنه زوج همجي ومسيء لزوجته ، ومضطهد ومستبد للأساقفة ورجال الدين ، وملوث ومخرب للمعابد ، وناهب للأموال والآنية المقدسة ، وبأنه لم يتورع عن محاولة اغتيال الأمير الصبي^(٣) .

(١) Sandoval : Historia de los Reyes de Castilla y de León

(٢) Flórez : Historia de la Reinas Católicas في تاريخه

(٣) M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 215

لما توفيت الملكة أوراكا ، أعلن ولدها ألفونسو ريمونديس ملكاً لقشتالة وليون وسائر الأراضي التي حكمها جده ألفونسو السادس ، باسم ألفونسو السابع ، وكان ألفونسو منذ وفاة جده ، وفي حياة أمه ملكاً لخليقية حسبا تقدم . وكان هذا الملك الفتي الذي لم يجاوز الحادية والعشرين من عمره ، قد نشأ وترعرع في نهمار الخطوب والمحن التي توالى على المملكة أيام حكم والدته ، وكان يشعر بكل ما يواجه من تبعات خطيرة ، وما يستلزمه ذلك من يقظة وحزم . وكان أشرف قشتالة وليون يشعرون ويشعر الشعب القشتالي نفسه ، بأن تولى ألفونسو ريمونديس الملك يبشر بإنهاء عهد الاضطراب والفوضى ، وقيام عهد جديد من السلام والرخاء . على أنه كان واجباً قبل أن يتحقق هذا الأمل ، في عود السكينة والسلام ، أن يتحقق أمران ، الأول أن تسوى المسائل المتعلقة بين قشتالة وأراجون ، والثاني أن يتم إخضاع الأشراف والحوارج في بعض أنحاء المملكة بصورة نهائية .

فأما عن الأمر الأول ، فإن ألفونسو ملك أراجون ، كان ما يزال يتمسك ببقية من دعاويه القديمة ، وكانت جنوده ، ما تزال تحتل عدداً من الحصون داخل أراضي قشتالة . فلما توفيت أوراكا زوجه القديمة ، وقام ولدها في الملك ، أخذ يتطلع إلى مهاجمة قشتالة والمحافظة على ما بيده من حصونها ، وأخذ ألفونسو ريمونديس من جانبه يتطاع إلى القضاء على دعاوى ملك أراجون ، وتحرير أرض قشتالة من هذا الاحتلال ، وأخذ كل من الملكين يتأهب لمقاومة خصيمه . وكان ملك أراجون هو البادئ بالعدوان ، فنفذ بقواته إلى أراضي قشتالة حتى صار على مقربة من بالنسيا ، وهناك التقى بقوات قشتالة وكان يقودها الكونت دي لارا . ولكن لم يقع بين الفريقين التحام ولاقتال . وسرعان ما تدخل بينهما الأساقفة ، وعقدت الهدنة ، وتعهد ملك أراجون بأن يسلم الحصون التي تحتلها قواته في مهلة معينة ، ثم عاد إلى أراضيه (١١٢٧ م) .

ولكن ملك أراجون لم ينفذ ما وعده به ، ولم يمض عامان آخران حتى عاد إلى غزو قشتالة . وسار ألفونسو ريمونديس في قواته إلى لقائه . والتقى الجيشان على مقربة من « ألماسان » . وهنا تدخل الأساقفة مرة أخرى ، وتكرر السعي القديم في عقد الهدنة ، وكان التعهد هذه المرة من جانب ملك قشتالة ، في أن يرد إلى المحارب الحصون التي كانت له في قشتالة .

على أن هذه المحاولة لم تنجح أيضاً ، ولم يمض سوى قليل ، حتى عاد النزاع ، وعاد لقاء الفريقين في ميدان الحرب ، واستولى ملك قشتالة في تلك الحملة على قلعة كاسترو شريش ، وهي أهم القلاع التي كان يحتلها أنصار ملك أراجون ، واستمر هذا الصدام وقتاً ، وكلما هم الفريقان بالاشتباك ، هرع الأساقفة بالتدخل ودعوا إلى حقن دماء النصاري ، وتحويل تيار الحرب إلى وجهة أخرى هي محاربة المسلمين . وأخيراً وفق الأبحار في جهودهم ، وعقدت بين الملكين هدنة ، نزل بمقتضاها ملك أراجون عن سائر الحصون التي كانت له في قشتالة ، ونزل ألفونسو ريمونديس نظير ذلك عن ولاية « ريوخا » التي كانت من قبل من أراضي نافارا ، وانتزعها منها ألفونسو السادس (سنة ١١٣٠ م) .

وشغل ألفونسو المحارب من ذلك الحين أولاً بحرب صغيرة تشبثت فيما وراء البرنيه بين بعض الأمراء الفرنسيين . والظاهر أن ألفونسو تدخل في هذه الحرب ليحمي بعض الكونتات من أتباعه في ولايتي بيارن وبيجور ، من بعض خصومهم من أمراء الشمال ، ومن ثم فقد حاصر ألفونسو مدينة بيونة واستولى عليها (سنة ١١٣١) . ثم شغل بعد ذلك بمحاربة الأمراء المسلمين في طرطوشة ومكناسة وإفراغة ، وفي موقعة إفراغة كانت هزيمته الساحقة ، ثم مصرعه في يولييه سنة ١١٣٤ م ، وذلك حسبما فصلناه من قبل في موضعه .

وأما الأمر الثاني الذي شغل به ألفونسو ريمونديس في مستهل حكمه ، فهو القضاء على سلطان الأشراف الخوارج وثوراتهم التي توالى منذ عهد أمه أوراكا . وكان أشد الخوارج بأساً في قشتالة أسرة لارا ، التي كانت تناهض العرش أحياناً ، وأحياناً تعضده بقواتها و ثرائها ، ونفوذها البالغ . وكان عميدها بيدرو جونثالث دي لارا عشيق الملكة أوراكا أو زوجها السرى ، وأخوه ردريجو ، وكان ألفونسو ريمونديس قد استطاع من قبل أن يقبض على عشيق أمه ، وأن يعتقله ، ولكنه فر إلى قطلونية ، ثم عاد إلى قشتالة عقب موت أوراكا ، واستطاع أن يستولى على بالنسيا بمعاونة ملك أراجون ، فبادر ألفونسو بالسير إلى بالنسيا ، واستولى عليها ، وقبض على الأشراف الثائرين ، وفي مقدمتهم الكونت بيدرو دي لارا ، ولكن أخاه ردريجو تمكن من الفرار إلى منطقة الأسترياس (أشتوريش) . وأفرج ألفونسو بعد ذلك عن الكونت بيدرو ، فغادر قشتالة مرة أخرى إلى أراجون ، شاعراً بأنه فقد كل مكانته ونفوذه السابق ، واشترك مع ملك أراجون

في حملته إلى بيونة ، وقتل أمام أسوارها . أما أخوه الكونت ردرنجو ، فقد طارده ألفونسو ، وضيق عليه ، حتى أدعن إلى طلب الأمان والعفو ، وأقسم أنه سوف يلتزم منتهى الولاء والإخلاص ، فعفا عنه ألفونسو وعينه حاكما لطليطلة ، وأبدى الكونت غيرة في خدمة العرش . وتتبع ألفونسو في نفس الوقت باقى الأشراف الثائرين فأخضعهم ، واحتل حصونهم تباعاً ، وأبدى في معاملتهم إغضاء ورفقاً . وبذلك استطاع أن يحقق السكينة والسلام في ربوع قشتالة .

ولم يبق أمام ألفونسو لاستكمال سلطانه ، سوى استرداد الأراضى والحصون التى انتزعتها خالته دونيا تريسا ملكة البرتغال ، وكانت ما تزال متمسكة بما اقتطعته من أراضى جليقية وحصونها ، بل كانت تحاول الاستيلاء على أرض أخرى ، وكانت عندئذ قد وثقت علاقتها الغرامية بالكونت فرناندو بيرث ولد الكونت دى ترافا مؤدب ألفونسو السابق ، وأضحت هذه العلائق فصيحة ملكية على نحو ما كانت علائق الملكة أوراكا بخليلها الكونت دى لارا ، وكان لها أسوأ الأثر . فسار ألفونسو ريمونديس في قواته ومعه خلمريث مطران شنت ياقب ، ونفذ إلى أراضى جليقية والبرتغال ، وقضى على كل مقاومة ومعارضة ، سواء من جانب أشراف جليقيه أو من جانب قوات تريسا . وكان البرتغاليون بنقمون على ملكتهم تهورها واستهتارها ، وتركها أمور المملكة لخليلها الكونت بيرث ، ويطالبون بتقديم ولدها الأمير الصبى ألفونسو هنريكز . ولما آنس القواد البرتغاليون ضعفهم ، وخرج مركزهم أمام ضغط ملك قشتالة ، أعلنوا باسم ألفونسو هنريكز ، أنهم يعتبرون البرتغال مستقلة بحاية ليون ، ومليكة ألفونسو ريمونديس ، وهكذا عاد ألفونسو ريمونديس ظافراً ، بعد أن قضى على مشاريع خالته تريسا العدوانية .

وكان ألفونسو ريمونديس قد تزوج أثناء ذلك من دونيا برنجيلا ، ابنة رامون برنجير الثالث أمير برشلونة (سنة ١١٢٨ م) ، وكان هذا الزواج عاملاً في توثيق علائق المودة والتحالف بين قشتالة وإمارة برشلونة ، واستطاعت هذه الأميرة الحسنة الموهوبة ، أن تحرز برقتها وذكائها فى بلاط قشتالة ، أعظم نفوذ ، وأن تغدو لزوجها الملك الشاب مستشاره الأول ، يصغى إلى نصحتها فى سائر شئون المملكة والحكم ، معتمداً فى ذلك على ذكائها وحسن إدراكها للأمور^(١) .

وفى سنة ١١٣٣ م ، قام ألفونسو بإخضاع بعض ثورات محلية فى منطقة

الأسترياس ، وفي خلال هذه الحملة ، علق بحب فتاة حسناء تدعى كونترودا هي ابنة الكونت بيدرو دياث ، وأعقب منها فيما بعد ابنة سميت أورাকা ، عهد بتربيتها إلى أخته دونيا سانشا . وهكذا غدت هذه المغامرات الغرامية الملوكية تقليداً راسخاً في بلاط قشتالة في هذا العصر .

وفي خلال ذلك لم ينس ألفونسو ريمونديس مهمته الأولى ، كملك لقشتالة أولاً ، وعميد لملوك اسبانيا النصرانية ثانياً ، وهي متابعة الحرب ضد اسبانيا المسلمة . وكانت هذه المهمة التي يحيطها ملوك قشتالة ، بنوع من التقديس ، قد تراخت نوعاً أيام والدته أورাকা ، بسبب ما شغل قشتالة عندئذ من منازعات وحروب أهلية متوالية . وشغلت الحياوش المرابطية من جانبها بمدافعة ألفونسو المحارب ملك أراجون ، والاشتباك معه في معارك متوالية في شرقي الأندلس ، وفي جنوبها ، وفي الثغر الأعلى ، وكان ملك أراجون ، بعد وفاة ملك قشتالة القوي ألفونسو السادس ، هو الذي يضطلع يومئذ بمهمة الصراع الذي تشهره اسبانيا النصرانية على اسبانيا المسلمة .

على أن ملك قشتالة الفتي ألفونسو ريمونديس ، ما كاد يسوى نزاعه مع ملك أراجون ، وما كاد يطمئن إلى استقرار السكينة والسلام في مملكته ، حتى استدعى مجلساً في بالنسيا (كورتيس) لكي يبحث خطط الحرب ضد المسلمين (سنة ١١٣٠ م) . وكانت الغزوات المرابطية ، قد أخذت قبل ذلك بقليل تتوالى في أراضي قشتالة ، ولاسيما مذولى الأمير تاشفين بن علي بن يوسف شتون الأندلس في سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) . وقد فصلنا نحن من قبل تفاصيل الغزوات التي قام بها المرابطون يومئذ في أراضي قشتالة ، والغزوات التي قام بها القشتاليون في أراضي الأندلس ، فلا حاجة بنا إلى أن نعود إلى ذكرها هنا . بيد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الفترة التي توالى فيها غزوات القشتاليين لأراضي الأندلس الوسطى ، هي نفس الفترة التي اشتدت فيها وطأة ألفونسو المحارب ملك أراجون على شرقي الأندلس والثغر الأعلى . وقد سبق أن فصلنا كيف أحرز ألفونسو نصره على المرابطين في موقعة القلاعة جنوبي بلنسية في سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) وكيف غزا ألفونسو بعد ذلك أراضي بلنسية ، وعاث فيها ، ثم عاد فهاجم مكناسة من قواعد الثغر الأعلى ، واستولى عليها في سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٣ م) ثم كان حصاره لإفراغة ونكبته تحت أسوارها ، وموته على أثر تلك النكبة ، وذلك في شهر يولييه سنة ١١٣٤ م (رمضان سنة ٥٢٨ هـ)

الفصل الثاني

الممالك الإسبانية النصرانية

في عصر القيصر ألفونسو ريمونديس

وقيام مملكة أراجون الكبرى

ألفونسو المحارب. أعماله وخلالها. وصيته. رفض الشعبين الأراجونى والنافارى لها. انفصال ناافارا واستقلالها. اختيار أراجون الراهب راميرو ملكاً لها. غزو ملك قشتالة لناافارا. احتلاله لسرقسطة. اعتراف راميرو بطاعته. ألفونسو ريمونديس يتخذ لقب الإمبراطور. قرارات مجلس ليون. ما يحققه اللقب الإمبراطورى لملك قشتالة. محالفة راميرو لملك قشتالة. ألفونسو ريمونديس يغزو ناافارا. ارتداده لمحاربة البرتغاليين. زواج الكونت رامون أمير برشلونة من إبنة راميرو. تنازل راميرو عن العرش. الكونت رامون أمير أراجون. الكونت رامون برنجير الثالث وجهوده في سبيل التعاون مع أراجون. رامون برنجير الرابع وإتمام الوحدة بين أراجون وقطلونية. مسير ألفونسو ريمونديس لمحاربة البرتغال. الصلح المفاجئ بين الملكين. مسير ألفونسو لغزو الأندلس. فتك المرابطين بأحدى فرقته. مسيره لافتتاح حصن أورينجا. إسراع المرابطين إلى نجدهته. تسليم الحصن بالأمان. تحالف ألفونسو ريمونديس ورامون برنجير على غزو ناافارا. مدافعة غرسية راميريس ملكها للغزاة. سعيه إلى طلب الصلح. اعترافه بسيادة الإمبراطور. استمرار الحرب بين أراجون وناافارا. عقد الصلح بينهما. غزو ألفونسو ريمونديس للأندلس. استيلاؤه على قورية. غزوة قشتالة للأندلس. موقعه بين المسلمين والنصارى هزيمة النصارى ومصرع قائدهم. ملك قشتالة يغزو الأندلس مرة أخرى. معاونته للشوارضد المرابطين. احتلاله قرطبة. استيلاء النصارى على ألمرية. سقوط القواعد الإسلامية بالشغر الأعلى. غزو ناافارا لأراجون ومراميه. المؤتمر الكهنوتى. وفاة الملكة برنجيلا. وفاة غرسية راميريس ملك ناافارا. تجديد التحالف ضد ناافارا بين أراجون وقشتالة. تطور الحوادث. الزيجات الملكية. الحرب بين ناافارا وأراجون. تجديد الاتفاق بين أراجون وقشتالة على تقسيم ناافارا. عود ملك قشتالة إلى غزو الأندلس. استيلاؤه على حصنى أندوجر والبطروج. استردادهما على يد الموحدين. استرداد الموحدين لألمرية، وفشل القيصر فى إنجازها. وفاة ألفونسو ريمونديس. خلاله وأعماله. برناجه فى مهاجمة الإسلام. مواظبته على غزو الأندلس. الكونت رامون برنجير وأعماله الأخيرة. وفاته وخلالها. تقسيم قشتالة بين ولدى القيصر سانشو وفرناندو. الحرب بين الأخوين. هزيمة فرناندو و اعترافه بسيادة أخيه. أطماع سانشو ووفاته. ولده الطفل ألفونسو. الوصى جوتيرو دى كاسترو. سحق آل لارا. تسليم الأمير للكونت غرسية دى آينا. الكونت يسلمه لآل لارا. مطالبة آل كاسترو بإعادة الطفل. التجاؤهم إلى فرناندو ملك ليون. غزو فرناندو لقشتالة. إعلانه لوصايته على ابن أخيه. تسليم آل لارا للملك الطفل. اصطفاء فرناندو لآل كاسترو. الحرب بين الأسرتين. هزيمة آل لارا. اختطافهم للملك الطفل. تذرعههم بحماية قشتالة من أطماع فرناندو. استمرار الحرب الأهلية بين الفريقين. مقتل عميد آل لارا. تحول أهل قشتالة إلى محاصمة فرناندو. استيلاء آل لارا على طليطلة. إعلانهم

لولاية الملك الطفل ألفونسو . تأييد قشتالة ورجال الدين لتلك الحركة . انسحاب فرناندو من قشتالة . قيام جماعات الفرسان الدينية في إسبانيا . جمعية فرسان المعبد . استقرارها في أراجون وقطلونية . قيام جمعية فرسان قلعة ربلح . جماعة القديس ياقب .

١ - وفاه ألفونسو المحارب وولاية أخيه الراهب راميرو

كان مصرع ألفونسو المحارب على ذلك النحو المفاجئ الذي حدث عقب موقعة إفراغة ، نذيراً بوقوع تطورات هامة في مصائر اسبانيا النصرانية ، على نحو ما كانت وفاة ألفونسو السادس ملك قشتالة قبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً . فقد توفي كلاهما دون وارث للعرش . وقد رأينا كيف تولت أوركا عرش قشتالة تنفيذاً لوصية أبيها ، وما ترتب على ذلك من الحوادث والخطوب ، وكذلك فقد كانت وفاة ألفونسو المحارب دون عقب ، ماثراً لأحداث وتطورات جديدة حول عرش أراجون .

وكان ألفونسو المحارب من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية في العصور الوسطى ، وقد استطاع خلال الأعوام الثلاثين التي حكمها منذ وفاة أخيه الملك بيدرو في سنة ١١٠٥ م ، أن يجعل من أراجون أعظم ممالك اسبانيا النصرانية وأقواها ، وإن لم تكن أضخمها رقعة ، وغدا بزواجه من أوركا ملكة قشتالة ، أعظم عاهل لإسبانيا النصرانية كلها . وانفق ألفونسو معظم جهوده الحربية في محاربة المسلمين ، وانتزع قواعد مملكة سرقسطة الباقية من بني هود ، ثم انتزع سرقسطة ذاتها من أيدي المرابطين ، وقام بغزوته الشهيرة في قلب الأندلس ، واخترقها من أقصاها إلى أقصاها ، وأطل بقواته على شاطئها الجنوبي (٥٢٠ هـ - ١١٢٧ م) . وقد أظهرت هذه الغزوة الحريثة التي فصلنا حوادثها فيما تقدم ، ضعف وسائل الدفاع عن الأندلس . وحقق المحارب بافتتاحه سرقسطة ، والقضاء عليها كحاجز دفاعي للمسلمين في الثغر الأعلى ، ما حققه ألفونسو السادس بافتتاح طليطلة ، من فتح طريق التاج ، فأصبحت الأندلس معرضة للغزو النصراني من الشمال الشرقي ، ومن الوسط ، وسارت سياسة الإسترداد النصرانية *La Reconquista* من ذلك الحين في الاتجاهين دون عائق قوى ، وتنوه الرواية الإسلامية ذاتها بشجاعة ألفونسو المحارب ، وشديد بأسه . فيقول لنا ابن الأثير في وصفه : « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين ،

وأعظمهم صبراً ، وكان ينام على طارقتة بغير وطاء» (١) . وأما عن خلال ألفونسو الشخصية ، فتختلف الرواية النصرانية ، فنراه يوصف في التواريخ الأرجونية بالإيمان والتقوى ، والفروسية ، ورعاية الكنائس والأخبار ، ولكن التواريخ القشتالية تصفه بالعكس بالجبروت والغدر والإلحاد ، وشغف العدوان على حرمة الكنائس والأديار ، وعلى محتوياتها المقدسة ، وأنه في حروبه مع النصارى لم يكن يفر الأخبار ولا النساء من عدوانه ، ولم يكن يكبح جماح جنده عن ارتكاب مختلف ضروب الإثم والمنكر (٢) .

وكان ألفونسو المحارب ، قبيل وفاته بثلاثة أعوام قد كتب وصيته حول مصر مملكته ، وكانت أغرب وصية يمكن تصورها . ذلك أنه أوصى فيها بأن تقسم مملكته الكبيرة إلى ثلاثة أقسام ، الأول يخصص لسلام روح والده ووالدته ، وللتكفير عن زلاته ، ولكي يظفر بمكان في جنة الله ، وللقبر المقدس وسدنته وخدمه ، والثاني يخصص للفقراء وفرسان الأستارية بيت المقدس ، والثالث يخصص لفرسان المعبد (الداوية) باعتبارهم حماة النصرانية في معبد المسيح (٣) . وقد ظهر فرسان الداوية قبل ذلك بأعوام قلائل في إمارة برشلونة ، وكان أميرها رامون برنجير الثالث ، أول من شجعهم على القيام في إمارته ، وحاول ألفونسو المحارب قبل وفاته بقليل أن ينشئ جمعية فرسان دينية على غرار جماعة بيت المقدس ، فلم ينجح لمعارضة الأشراف ، ولكنه لبث يحتضن مشروعه حتى توفي حسبما بدا ذلك في وصيته .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٣ .

(٢) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشياخ . (الترجمة العربية ، الطبعة الثانية

ص ١٦٦ و ١٦٧) .

(١) كان فرسان المعبد **Templares** ، وفرسان الأستارية **Hospitallers** من أشهر جماعات الفرسان الدينية التي قامت في العصور الوسطى في بداية الحروب الصليبية . والجماعة الأولى هي التي تعرف في الرواية الإسلامية بجماعة «الداوية» وقد أنشئت سنة ١١١٩م في بيت المقدس عقب سقوطها في يد الفرنج الصليبيين وذلك لحماية الحاج إلى قبر المسيح ، وأفرد لهم ملك بيت المقدس جناحاً في قصره ، ثم سلم إليهم المعبد المجاور له ، ومنه اشتقوا اسمهم «فرسان المعبد» . ونمت هذه الجماعة بسرعة ، واشتد ساعدها بمن انضم إليها من النصارى من سائر الأمم ، ولعبت دوراً هاماً في حوادث الحروب الصليبية ، واستمرت قائمة عصوراً ، والأستارية هم أيضاً جماعة دينية من الفرسان ، أنشئت عقب الجماعة الأولى ، وخاضت أيضاً حوادث الحروب الصليبية ، ولكنها كانت أضعف شأناً من جماعة «الداوية» .

على أن الشعبين الأرجونى والنافارى أبى كلاهما ، أن يحترم وصية ترمى إلى التصرف فى مصايرهم ، ومصاير بلادهم ، على هذا النحو الغريب . وقد انتهز النافاريون بالأخص هذه الفرصة ليعملوا على استرداد استقلالهم القومى ، الذى فقدوه منذ استولى سانشو راميريس ملك أراجوان ، ووالد ألفونسو المحارب على بلادهم فى سنة ١٠٧٦ م أعنى منذ ستين عاما ، وكان من المتفق عليه منذ البداية بين الأرجونيين والنافارين أن يرفضوا أية دعوى لملك قشتالة فى السيادة على بلادهم ، وقد كان بوسع ألفونسو ريمونديس أن يشهر مثل هذه الدعوى باعتباره سليل سانشو الكبير من ناحية أمه . ومن ثم فإن الأرجونيين والنافارين بعد أن أعلنوا رفضهم لوصية الملك المتوفى ، قرروا أن يجتمع ممثلو الشعبين من الطبقات الثلاث ، أعنى رجال الدين والأشراف ونواب الشعب ، لاختيار الملك الجديد . واجتمع النواب فى بلدة چاقة فى مؤتمر وطنى ، وقر رأى الأرجونيين على أن يختاروا للعرش أخا الملك المتوفى دون راميرو الراهب ، وكان قد انتظم فى سلك الكهنوت قبل ذلك بمدة طويلة ، وأقام فى دير منعزل على مقربة من ثغرأربونة ، ولكن النافاريين لم يوافقوا على هذا الاختيار ، فانفصلوا عن الأرجونيين ، وأعلنوا فى بنبلونة عاصمتهم القديمة ، استقلالهم ، واختاروا لهم ملكاً ، هو غرسية راميريس حفيد ملكهم سانشو ، الذى قتل غيلة فى سنة ١٠٧٦ ، وبذا انفصلت نافارا عن أراجون ، وعادت تشغل مركزها القديم ، كدولة مستقلة من دول اسبانيا النصرانية .

واجتمع ممثلو أراجون من جهة أخرى ، فى مونتسون ، فى مجلس نيابى (كورتيس) وقرروا الموافقة على اختيار الراهب راميرو ملكاً لأراجون ، وقبل راميرو هذا العرض ، وحصل على إذن بتحريره من عهد الرهبنة ، وتولى العرش ، وتزوج بموافقة البابا من الأميرة إنيس ابنة كونت بواتيه وأخت دوق أكويتين . وهكذا استحال مملكة أراجون ، بعد أن كانت فى عهد ألفونسو المحارب مملكة مترامية الأطراف ، إلى مملكة صغيرة محدودة الموارد والقوى ، وزادت الممالك الإسبانية النصرانية مملكة جديدة هى مملكة نافارا المستقلة .

وكان ملك قشتالة يرقب هذه التطورات الجديدة بمنتهى الاهتمام ، ويدبر خطته ليخرج منها بأوفر غنم . فما كاد الوضع الجديد يستقر فى أراجون ونافارا ، حتى خرج من قشتالة ، فى جيش صخم ، واتجه نحو ضفاف الإيرو ، واستولى على إناجرة وقلهرة ، ثم سار إلى سرقسطة بحجة حمايتها من المرابطين ، ولم يجرؤ

ملكاً نافارا وأراجون على المقاومة لما آتاه من عزم ملك قشتالة، وضخامة قواته . ودخل ألفونسو ريمونديس سرقسطة دون مقاومة ، وكان بها الملك الراهب راميرو . فسلمه المدينة وكل أراضي أراجون الواقعة على ضفة الأيبرو اليسرى ، وأعلن اعترافه بأنه بحكم أراجون في ظل قشتالة ، ثم انسحب إلى وشقة ، مكتفياً بلقب ملك أراجون وسوبرابي وريباجورسا . واجتمع بألفونسو ريمونديس في سرقسطة صهره رامون برنجير الرابع أمير برشلونة ، وكونت أورقلة ، وعدة من كونتات ولايات البرنيه الفرنسية ، وعقد الجميع معه عهود الصداقة والتحالف ، ثم غادر ألفونسو ريمونديس سرقسطة بعد أن ترك بها حامية ، وعاد إلى ليون ، وهناك وفد عاياه غرسية راميريس ملك نافارا ، ينشد عونه ومخالفته ، ويعترف بحمايته (١) .

وأضحى ملك قشتالة ، بعد أن بسط سيادته أو حمايته السياسية على بقية الممالك النصرانية المتاخمة لقشتالة ، سيد إسبانيا النصرانية كلها ، على نحو ما كان عليه جده ألفونسو السادس ، ومن ثم فقد اتخذ مثله لقب الإمبراطور ، ومنح هذا اللقب بصفة رسمية في مجلس قومي (كورتيس) عقد في ليون في ربيع سنة ١١٣٥ م ، ثم توج بالتاج الإمبراطوري في الكنيسة الكبرى ، وأضحى ألفونسو ريمونديس من ذلك الحين يلقب بالإمبراطور ، أو القيصر ألفونسو ريمونديس أو ألفونسو السابع . وصدرت في مجلس ليون هذا ، عدة قرارات هامة ، منها موافقة الإمبراطور على تأييد سائر الحقوق والامتيازات التي منحت للكنيسة على يد الملوك السابقين ، وتمت هذه الموافقة بمسعى المطران ريمون الذي حل محل المطران برنار في رياسته للكنيسة ، ومنها قرار يقضي بتطبيق القوانين والحقوق البلدية Buenos Fueros في جميع أنحاء قشتالة والولايات التابعة لها ، وهي القوانين والحقوق التي كانت في عصر ألفونسو السادس ، وترتب على هذا القرار إلغاء كثير من التصرفات السابقة ، وإلغاء بعض الامتيازات التي انتزعها الأشراف لأنفسهم دون حق ، كذلك صدر قرار بإنشاء نوع من الحند الاحتياطي من بين سكان الحدود ، يحشد فيه كل رجل قادر على حمل السلاح ، وذلك لرد غارات المسلمين ، وقرار آخر يقضي بعقاب كل مجرم مهما كان شخصه ومقامه ؛ بيد أنه لم يكن من الميسور أن تطبق مثل هذه القرارات العادلة ، في عصر كان

(١) راجع تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشياخ (الطبعة الثانية) ص ١٧٦ ،

وكذلك : Lafuente : ibid ; T. III. p. 251 ; R. Altamira : ibid ; Vol. I. p. 361 & 362

يسود فيه حكم القوة ، ويعتبر الأشراف أنفسهم سلطة خاصة ، تقرر ما تشاء وفق أهوائها ، متى كان لها سند من القوة والإرغام ، ولم يكن في مقدور العرش دائماً ، أن ينفذ من جانبه بالقوة سائر القوانين والقرارات التي يصدرها .

ويعلق الأستاذ ألتاميرا على اتخاذ ألفونسو السابع للقب الإمبراطور بقوله ، إنه كان يرمى بالاتشاح بهذا اللقب إلى مثل ما كان يرمى إليه امبراطرة الدولة الرومانية المقدسة منذ كارل الأكبر (شارلمان) والإمبراطور أوتو الألماني ، من بسط سيادته على باقي ملوك شبه الجزيرة ، كما كان أولئك الأمبراطرة يدعون بسط سيادتهم على باقي ملوك القارة الأوروبية . والواقع أن ألفونسو السابع ، استطاع بواسطة انتصاراته في ناغارا (نبرة) وأراجون أن يبسط سيادته على ملوك هاتين الدولتين ، وقد اعترف له بالتبعية إلى جانبهم كونتات برشلونة وتولوشه وغيرهما ، وكانت هذه الصفة الإمبراطورية تختلف عن مثيلها الأوربية ، بانحصارها في شبه الجزيرة الإسبانية^(١) .

وهكذا حققت قشتالة بارتفاع ملكها إلى مرتبة القيصر ، سيادتها الأدبية ، والفعلية ، في معنى من المعاني ، على ممالك اسبانيا النصرانية . بيد أن الخلاف لبث على أشده بين مملكتي أراجون وناغارا ، ولاسيما على الحدود والألقاب الملوكية ، وكاد الأمر بينهما يصل إلى الحرب . وفكر ملك أراجون الراهب بأن يعوض ضعفه بالاستعانة بملك قشتالة ضد ناغارا ، ونزل له عن قلعة أيوب ومواقع أخرى من التي كان ألفونسو المحارب قد افتتحها من المسلمين ، واقترح أن يقدم ابنته الطفلة ، برونيللا ، عروساً لسانشو ولي عهد قشتالة . وكانت سياسة راميرو هذه تلقى أشد معارضة من أشراف أراجون ، إذ كانوا يرون فيها خطراً على استقلال بلادهم . وقيل إن راميرو استدعى نفراً من هؤلاء المعارضين ذات يوم إلى قصره ، ودبر مصرعهم بطريقة غادرة ، وهي رواية يشك في صحتها . وكان ملك ناغارا ، من جهة أخرى ينظر إلى مشاريع راميرو بعين التوجس والغضب ، إذ كان يطمح أن يوول إليه عرش أراجون ، وكان ملك قشتالة من جانبه نحشى أن يشدد ساعد ناغارا ، وأن تغدو عاملاً يهدد سيادته . ومن ثم فقد اعتمز ألفونسو ريمونديس أن يشهر الحرب على ناغارا ، وزحف عليها بالفعل في جيش ضخم ، وذلك في سنة ١١٣٦ م . وانتهز ملك البرتغال الفتى ألفونسو هنريكز هذه الفرصة ،

R. Altamira : ibid ; Vol. I. p. 361 & 362 (١)

فزحف في قواته على جليقية ، ونشبت الحرب في الناحية الأخرى من مملكة قشتالة . وبالرغم مما أحرزه ألفونسو ريمونديس من انتصارات محلية على الناغارين ، فإنه رأى نفسه مرغماً على الانسحاب والارتداد إلى الناحية الأخرى ، ليرد القوات البرتغالية عن جليقية . هذا إلى أن المسلمين كانوا في نفس الوقت يهددون حدود قشتالة الجنوبية . وهكذا قبض لناقارا أن تنجو من الخطر المحدق بها وأن تحافظ على استقلالها .

وفي تلك الأثناء كانت الأمور في أراجون تسير إلى وجهة جديدة . ذلك أن الملك راميرو برم بمتاعب الملك واعتزم أن يرتد إلى حياة العزلة والدير ، لاسيما وقد أصبح لعرش أراجون وريث هي ابنته الطفلة بترونيلا ، ومن الممكن أن يكون لها زوج يضطلع بدوره بأعباء الملك ومشاقه . ومن ثم فقد دعا كبراء المملكة إلى اجتماع عقد في بربشتر (في أغسطس سنة ١١٣٧) وتقرر فيه أن تزوج بترونيلا من الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة . وكان معظم أشرف أراجون يحبذون هذا الاختيار ، أولاً لتجاوز الشعبين الأراجوني والقطلوني وتقاربهما في العوايد والتقاليد ، وثانياً لما يتصف به الكونت رامون من الخلال الماوكية الرفيعة ، وثالثاً لأن هذا الاختيار لا يمكن أن يلقى معارضة من قشتالة نظراً لما يربط الكونت بملكها من رباط المصاهرة . ورحب الكونت رامون بهذا العرض الذي يتيح له الفرصة لاعتلاء عرش أراجون ، وعقد القران الملكي في بربشتر بالرغم من أن الأميرة لم تكن تجاوز العامين من عمرها ، وأعطى الكونت بمقتضى هذا القران حق السيادة على مملكة أراجون ، وتلقب رامون برنجير الرابع بكونت برشلونة وأمير أراجون ، وأقسم كبراء المماكة يمين الطاعة للملك الجديد .

وأعلن راميرو تنازله عن الملك بمدينة سرقسطة أمام كبراء المملكة . ووافق ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس على هذه التصرفات كلها . وقدم دليلاً على تأييده ورضاه بإخلاء مدينة سرقسطة وسائر الحصون التي كان يحتلها على ضفة الإيبرو لملك أراجون الجديد . وأقسم الكونت رامون من جانبه يمين الطاعة لألفونسو . وارتد الملك الراهب راميرو إلى عزلة الدير مرة أخرى ، وأقام بدير سان بيدرو بوشقة حتى توفي في سنة ١١٥٤ م .

وهكذا اختتمت مملكة أراجون الكبرى حياتها القصيرة ، بعد أن لمعت حيناً

في عهد ألفونسو المحارب، وغدت كبرى الممالك النصرانية الإسبانية، واختتمت بوفاة المحارب عهد الملوك الأقوياء الذين قضوا على سلطان المسلمين في الثغر الأعلى، وانتزعوا قواعد مملكة سرقسطة. ولكن شاء القدر أن تعود مملكة أراجون فتنهض من عثارها الذي أصابها على يد الراهب راميرو، وتغدو باندماجها مع إمارة قطلونية، مملكة قوية كبرى.

٢ - اتحاد أراجون وقطلونية

والواقع أن إمارة برشلونة أو قطلونية الصغيرة، بموقعها على البحر، وثغرها العظيم، كانت تبدو من الناحية الجغرافية بالنسبة لأراجون، عضداً طبيعياً، وشطراً مكملًا، أبلغ خطراً وأهمية من مملكة نافارا. وكان سير الحوادث في قطلونية وأراجون بالنسبة للكفاح ضد المسلمين يتخذ وجهة مماثلة، ويرمى إلى هدف واحد، هو القضاء على مملكة سرقسطة الإسلامية. وقد اضطلعت قطلونية في هذا الكفاح بنصيب بارز، ولاسيما منذ عهد أميرها رامون برنجير الثالث المعروف «بالكبير» وهو الذي ولي الحكم منذ سنة ١٠٩٢ م. ورأى الكونت رامون أن يقوى نفسه ضد المرابطين بالتحالف مع كونت أرقلة، وكونت باليارش، وكونت أربونة وغيرهم من الأمراء المجاورين. ولما غزا ابن الحاج والى سرقسطة المرابطى أراضى قطلونية في سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) فاجأته قوات الكونت رامون وحلفائه في جبال قطلونية، واشتبكت معه في معركة دامية قتل فيها ابن الحاج ومعظم جنده^(١). فعندئذ بعث أمير المسلمين على بن يوسف صهره الأمير أبا بكر بن إبراهيم والى مرسية في جيش كبير، لغزو برشلونة والانتقام لمصرع ابن الحاج، فاخترق أبو بكر أراضى قطلونية وهو يشحن فيها، وحاصر ثغر برشلونة، فخرج إليه أميرها الكونت رامون وحلفاؤه الفرنج، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة، قتل فيها كثير من الفريقين، وارتد المرابطون دون أن يحققوا نتائج حاسمة.

وفي سنة ١١١٢ م تزوج الكونت رامون، عقب وفاة زوجته الأولى،

(١) سبق أن أشرنا إلى رواية ابن عذارى التى تقول إن ابن الحاج لم يقتل في هذه الموقعة وإنما قتل بعد ذلك بعام في موقعة نشبت بين المرابطين والقشتاليين على مقربة من قرطبة في سنة ٥٠٩ هـ (راجع ص ٧٢ و ٧٥ من هذا الكتاب).

من دونيا دولثيا وارثة ولاية بروقانس الفرنسية ، وكان لانضمام هذه الولاية الفرنجية القديمة المتمدنة ، إلى إمارة قطلونية ، أثر كبير في حضارتها ، وفي تقدمها الفكري . وكذلك ضمت إلى قطلونة بضعة إمارات صغيرة أخرى فيما وراء البرنيه ، سواء بموت أصحابها أو باتفاقات سابقة ، وكان منها أتونة ، وقرقشونة ، وبذلك اتسعت رقعة مملكة قطلونية اتساعاً كبيراً .

واشترك الكونت رامون برنجير الثالث في حملة الغزو الكبرى إلى الجزائر الشرقية (١١١٤ م) ، وهي التي جهزتها جمهوريتا بيزة وچنوة ، وتم استيلاء النصارى على ميورقة في العام التالي . ولكن أمير المسلمين علي بن يوسف بعث لاسترداد الجزائر أسطولا ضخماً ، فاضطر النصارى إلى مغادرتها ، واحتلها المرابطون وذلك في أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) ، وعادت الجزائر الشرقية إلى حظيرة الإسلام ، وذلك كله حسبما فصلناه في موضعه .

واستمر الكونت حيناً في صراعه ضد المرابطين ، وقام بمعاونة البيزيين ، والجنوبيين بمحاولات فاشلة لافتتاح ثغر طرطوشة ، ومدينة لاردة . ولما شغل ألفونسو المحارب بغزواته الكبرى للأندلس ، وصراعه المتصل بعد ذلك مع المرابطين ، اشتد ضغط المرابطين على إمارة برشلونة ، ولقي الكونت في مدافعهم متاعب شديدة . وتحدث الرواية عن هزيمة شنيعة لحقت بالقطلان على أيدي المرابطين أمام حصن « كورتيس » على مقربة من لاردة . ثم تفاقمت الأمور على الكونت برنجير بقيام أمير تولوشة بمهاجمة مقاطعة « بروقانس » التي كانت من أقاليم قطلونية فيما وراء البرنيه ، واضطر الكونت أن ينزل عن سيادة نصف الولاية ، وأن يوئل سيادة النصف الآخر إذا مات أحد الشريكين دون وارث ، إلى الشريك الذي بقي على الحياة .

كان الكونت برنجير يرى دائماً أن يوحد جهوده مع ملك أراجون القوي ، كلما سنحت الفرص . وكان ألفونسو المحارب يؤمن من جانبه بفائدة هذا التعاون . وقد التقي الإثنين بالفعل ، واتفقا على أن يعقدا نوعاً من التحالف يكون خطوة تمهيدية لعمل اتحاد فعلي أتم وأوثق بين المملكتين . وكان لكل من المملكتين فائدة محققة من عقد مثل هذا الاتحاد . فقد كانت مملكة أراجون بالأخص مملكة برية ، تعتمد في قوتها على الحيوش البرية ، ومن ثم فقد كان في وسعها أن تتفرغ لمقاومة ملك قشتالة القوي ألفونسو ريمونديس ، وكبح جماح أطماعه . وكانت قطلونية

تعتمد بالأخص على قواتها البحرية ، وكان بوسع الكونت برنجير ، اعتماداً على هذه القوات ، أن يؤمن مركز بلاده في البحر ، وأن يقاوم في بعض الأحيان مطامع جمهورية جنوة . وفي سنة ١١٢٧ م عقد الكونت تحالفاً مع الدوق روجر (رجّار) ملك صقلية نعهد فيه بأن يمد الدوق بخمسين سفينة من أسطوله ، وهو ما يدل على ما كانت تتمتع به إمارة قطلونية يومئذ ، من قوى بحرية لها خطرها في تلك المياه .

ثم تطورت الحوادث ، وتغير موقف قطلونية فجأة من مملكتي أراجون وقشتالة ، وذلك بزواج ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس من الأميرة برنجيلا ابنة الكونت رامون برنجير الثالث (سنة ١١٢٨ م) . وقد كان لذلك أثره في تقوية مركز قطلونية من جهة ، وفي علاقتها بمملكة قشتالة من جهة أخرى . وكان الكونت رامون قد شاخ يومئذ ، ولحقته أوصاب الشيخوخة ، فجنح إلى الزهد والورع ، واعتنق مبادئ فرسان المعبد (الداوية) . وكان بعض أقطاب الداوية قد وفدوا قبل ذلك بقليل من المشرق إلى برشلونة لبعثوا في إنشاء فرع للجماعة في قطلونية ، فرحب الكونت بمقدمهم ، ومنحهم حصن « جرانينا » على مقربة من لاردة ، وذلك ليعاون الفرسان في افتتاح هذه المدينة من أيدي المسلمين . ثم توفي الكونت بعد ذلك بقليل في يولييه سنة ١١٣١ ، بعد أن حكم مملكة قطلونية زهاء أربعين عاماً .

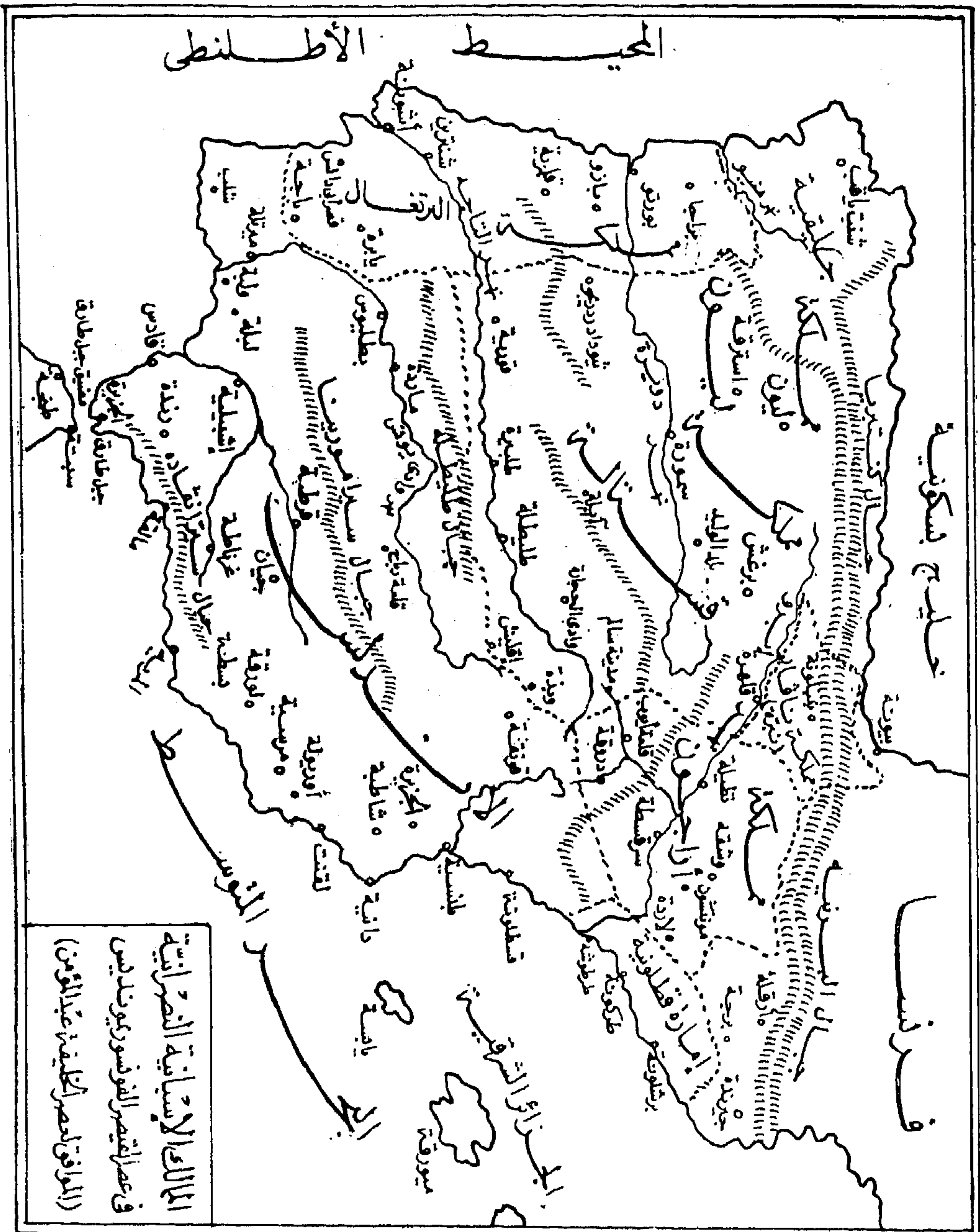
وكان الكونت رامون برنجير الثالث ، أعظم أمراء تلك الأسرة التي حكمت قطلونية دهرأ ، مذ بدأت إمارة صغيرة تضم برشلونة ، وأحوازها ، وفي عهده نمت قوة قطلونية البحرية نمواً عظيماً ، وازدهرت تجارتها ، وعم بها اليسر ، والرخاء ، وازدهرت بها في نفس الوقت حركة تمدنية وفكرية ملحوظة ، وكانت مملكة قطلونية تضم عند وفاته ، ولايات برشلونة ، وقيش ، ومزيسه ، وجيرنده (جبرونه) وسردانية ، وقرقشونة ، وبروقانص ، وكانت حدودها الغربية تمتد حتى ريباجورسا .

وخلفه في إمارة قطلونية وسائر ممتلكاتها ، ولده الأمير رامون برنجير الرابع ، ما عدا ولاية بروقانص فقد منحت لولده الثاني برنجير رامون . وكان الأمير الحديد قرين أبيه كفاية وعزماً ، فسار في نفس الطريق الذي رسمه أبوه ، وبدأ بأن عمل على تحقيق فكرته في إقامة جمعية فرسان المعبد (الداوية) بقطلونية ، وتقرر

ذلك بصفة رسمية في مجلس ديني عقد برياسة المطران أولاجير ، وأعطى الفرسان حصن بربره ، في جبال براديس المشرفة على لاردة وطرطوشة (سنة ١١٣٣ م) . وسنعود فيما بعد إلى التحدث عن قيام هذه الجماعات الحربية الدينية في إسبانيا . وفي العام التالي ، أي في سنة ١١٣٤ م (٥٢٨ هـ) نشبت موقعة إفراغة بين المرابطين وألفونسو المحارب ، تحت أسوار إفراغة ، وشاء القدر أن يسحق فيها النصراني ، وأن يموت المحارب بعد وقوعها بأيام قلائل ، وترتب على ذلك ما سبق أن فصلناه من انقسام مملكة أراجون الكبرى ، عقب ارتقاء الراهب راميرو عرش أراجون ، وعودة ناأارا ، إلى استقلالها القديم ، ثم ما حدث بعد ذلك من زواج برنجير الرابع أمير قطلونية من الأميرة الطفلة بترونيلا إبنة راميرو ، وانضمام مملكة أراجون إلى قطلونية ، بعد أن تنازل عن عرشها راميرو ، وارتد إلى عزلة الدير ، وقيام مملكة قطلونية وأراجون المتحدة بموافقة ملك قشتالة وتأييدها وما كان يحدو ذلك المشروع من عوامل الانسجام والنجاح ، وذلك كله في سنة ١١٣٧ م .

٣ - غزوات القيصر ألفونسو ريمونديس وحروبه

أخذت مملكة قشتالة في عهد ملكها الفتي ألفونسو ريمونديس أو ألفونسو السابع ، تجوز عهداً من القوة والسلطان ، كذلك الذي عرفته في عهد جده ألفونسو السادس . وكان ملك قشتالة ، مذ صفا له الجو ، ووضع على رأسه تاج الإمبراطور ، يتطلع إلى إخماد كل نزعة إلى الخروج على سلطانه ، وكان هذا موقف ناأارا والبرتغال ، حيث كانت كلتاها تحرص على استقلالها ، وتعرض عن كل اعتراف بسلطانه . وكانت البرتغال بالأخص ، وهي المملكة التي نشأت إمارة متواضعة ، في ظل قشتالة ، وتحت حمايتها ، ثم أخذت بمساعي خالته تريسا ، في تحدى قشتالة ، والإغارة على أراضيها ، وتوسيع رقعتها شيئاً فشيئاً . وكان ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال وهو ابن تريسا ، كأمه في تحدى سلطان قشتالة ، وفي الحرص على استقلال مملكته . وكان لما يشغل ألفونسو ريمونديس ، انصبال ملك البرتغال بالثوار الحلالقة ، واعتداؤه بمعاونتهم على بعض أراضي جليقية . وقد وقع بالفعل حادث من هذا النوع في أوائل سنة ١١٣٧ م ، حينما ثار اثنان من أشرف جليقية ، هما جومث تونيو ، ودرريجو بيريث فيوزو ، وكانا يحكمان « توى » فسلباها إلى ملك البرتغال ، وتمكن ملك البرتغال فضلا عن ذلك من



السيطرة على مناطق جليقية الجنوبية ، فعندئذ تآهب ألفونسو ريمونديس لغزو البرتغال ووضع حد لعدوان ملكها ، ولكن حدث في نفس الوقت الذي تمت فيه أهبة الغزو ، واجتمع القادة والزعماء ومنهم المطران خلمريث حول ملك قشتالة ، أن وقعت مفاوضات سريعة بين الملكين ، انتهت فجأة بعقد الصلح بينهما ، وتعهد ألفونسو هنريكز في هذا الصلح أن يكون صديقاً مخلصاً للقيصر ، وأن يحترم أراضي الإمبراطورية ، وأن يعاون القيصر في غزواته سواء ضد المسلمين أو النصارى ، وأبرم هذا الاتفاق في مدينة توي في يوليه سنة ١١٣٧ م ، وكان واضحاً من نصوصه أن البرتغال أصبحت تحت حماية قشتالة . ويمكننا أن نفسر خضوع ملك البرتغال على هذا النحو الفجائي ، بما كان يعانيه يومئذ من اشتداد ضغط المسلمين على أراضيه ، وتوالي غزواتهم المخربة فيها . بيد أن ألفونسو هنريكز لم يكن ينظر إلى ذلك الصلح ، إلا على اعتبار أنه ضرورة موقته ، أملت الظروف القاهرة ، وأنه سوف ينقضه عاجلاً أو آجلاً .

وعندئذ اتجه ألفونسو ريمونديس إلى غزو الأندلس ، فسار في قواته إلى منطقة جيان وبياسة وأبدة وأندوجر ، وهو يعيث فيها تخريباً وقتلاً وسبياً ونهباً . ولم يلق النصارى من المرابطين مقاومة شديدة في البداية ، ولكن حدث أن فرقة من النصارى عبرت نهر الوادي الكبير لتتابع النهب والسبي ، ولكنها لم تستطع العود إلى اقتحام النهر لهطل الأمطار الغزيرة ، وفيضان الماء ، ففتك بها الجند المرابطون وأبادوها جميعاً أمام أعين الإمبراطور وجنده (سنة ١١٣٨ م) ، فارتد القيصر إلى طليطلة وهو يضطرم سخطاً . وحاول بعد ذلك بقليل أن ينتقم لهذا الحادث بمحاصرة قورية ، فدافع عنها المسلمون أشد دفاع ، وكان فشلاً آخر حز في نفس الإمبراطور (١) .

وفي العام التالي ، خرج ألفونسو لغزو حصن أورليا أو أوريجا Oreja وهو الذي تسميه الرواية العربية بحصن « أرنة » على مقربة من طليطلة ، وكان أمنع الحصون الإسلامية في منطقة الحدود ، فهرعت القوات المرابطية من قرطبة ومن مرسية وإشبيلية لإنجاده بقيادة الأمير يحيى بن غانية ، وكان ألفونسو ريمونديس يربط بقواته إزاء الحصن المحصور ، في انتظار القوات الإسلامية ، وكانت زوجته الملكة برنجيلا تشرف في غيابه على الحامية الموكلة بالدفاع عن طليطلة .

فحدث ، حسبنا تقص علينا الرواية النصرانية ، أن الجنود المرابطية حينما وصلت في طريقها إلى ظاهر طليطلة ، أن أطلت عليها الملكة برنجيلا ووصيفاتها من شرفة القصر ، وبعثت إلى ابن غانية رسولا ، يؤنبه بلسانها على أنه يحاول أن يهاجم مكاناً تدافع عنه امرأة ، في حين أن القوات القشتالية تنتظره بقيادة الإمبراطور عند حصن أورينجا ، فارتد القواد المسلمون أمام هذا التأييد ، ولم يقوموا بأية محاولة لإزعاج القشتاليين ، وسقط حصن أورينجا في يد الإمبراطور بالأمان ، وذلك كله حسبنا فصلناه من قبل في موضعه . ولم تشر الرواية الإسلامية إلى هذا الحادث الذي يتسم بالفروسية ، بيد أنها تضع حصار حصن أورينجا وسقوطه في سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) ، بينما تصنعه الرواية النصرانية ، في سنة ١١٣٧ م ، أو سنة ١١٣٩ م (١) .

وكانت الخطوة التالية تفاهم ألفونسو ريمونديس وصهره رامون برنجير الرابع أمير قطلونية وأراجون ، على الإيقاع بمملكة ناغارا . وعقد الملكان اتفاقاً بهذا الشأن في كريون ، يقضى بتحالفهما على محاربة غرسية راميريس ، واقتسام أراضي ناغارا ، وأن يختص ملك قشتالة بولاية ريوخا وكل الأراضي الواقعة شرقي نهر إيبرو ، وهي التي كان يملكها جده ألفونسو السادس ، وأن يستولى أمير قطلونية على سائر أراضي أراجون ، التي كان يملكها سانشو وبيدرو ملكا أراجون من قبل . أما منطقة بنبلونة فإن القيصر يستولى على ثلثها ، ويستولى رامون برنجير على باقىها مع اعترافه بسيادة قشتالة على هذا الجزء ، على نحو ما كان عليه الشأن أيام ألفونسو السادس . وتنفيذاً لهذا الاتفاق زحف الكونت رامون بقواته على ناغارا من ناحيتها الجنوبية ، وزحف عليها القيصر في قواته من ناحية الشمال الغربى ، ولكن غرسية راميريس ملك ناغارا استطاع في كثير من الشجاعة ، والبراعة ، أن يرد القوات الأرجونية ، أما القوات القشتالية فقد استطاعت أن تخترق ناغارا ، وأن تطوق عاصمتها بنبلونة ، واكتفى غرسية راميريس بأن يلتزم خطة الدفاع ، حتى يطيل أمد المعركة وينهك قوى خصومه . وكان غرسية راميريس أعقل من أن يغامر بالدخول في معارك حاسمة مع القوات القشتالية ، فلجأ إلى رجال الدين في طلب الإنجاد بالمفاوضة وعقد الصلح ، وعاون في اتخاذ

(١) Lafuente : ibid; T. III. p. 228 - Ibars: Valencia Arabe p. 482 - 484

وراجع ما سبق أن أوردناه عن هذا الحادث (ص ١٥١ من هذا الكتاب)

هذه الخطوة الكونت چوردان أمير تولوشه ، الذي جاء حاجا إلى شنت ياغب . وعقدت معاهدة الصلح بين غرسية راميريس والإمبراطور في قلهرّة في أكتوبر سنة ١١٤٠ م ، وهي تقضى بأن يعترف ملك ناافارا بسيادة الإمبراطور ، وأن تزوج الأميرة بلانكا ابنة غرسية من الأمير سانشو ولد الإمبراطور الكبير ، وأن تُسلم نظراً لصغرهما إلى الإمبراطور ، حتى تربى وتكبر في بلاط قشتالة . وهكذا أنقذت ناافارا إلى حين .

غير أن هذا التصرف لم يرق الكونت رامون ، وسخط الشعب الأرجوني على الإمبراطور لأنه لم يحسب حسابا لاتفاق كريون . ومن ثم فقد عول الكونت أن يعمل لحساب نفسه ، وأن يشهر الحرب وحده على ناافارا بقوات أراجون وقطلونية . واضطرت الحرب ضد ناافارا من جديد . ولكن غرسية هزم الأرجونيين ، وتوغل في أراضي أراجون ، واستولى على عدة من البلاد ، والحصون ، وأخذ يفكر في خلع طاعته للإمبراطور . وعندئذ خشى ألفونسو ريمونديس عاقبة هذا الظفر الذي أحرزه غرسية ، وسار في قواته لإنجاد الكونت رامون ، وزحفت القوات المشتركة على ناافارا كرة أخرى (سنة ١١٤٣ م) . وهنا تذرغ غرسية بالحكمة ، وبأدر بالإذعان والتسليم ، وأخلى سائر الأماكن التي انتزعها من أراجون ، وعقد الصلح بين الفريقين من جديد ، واتفق أن يتزوج غرسية ، الذي توفيت زوجته منذ أعوام ، بالأميرة أورাকা ابنة القيصر غير الشرعية ، وعقد هذا الزواج الملكي بالفعل في مدينة ليون في يونيه سنة ١١٤٤ م في حفلات باذخة ، اشتهرت بين أحداث هذا العصر ، ووضع بذلك حد للنزاع بين ناافارا وجارتها أراجون وقشتالة .

وفي خلال ذلك كانت قشتالة تتابع كفاحها ضد المسلمين ، وذلك سواء بالعمل على صد غزواتهم ، والقيام في أراضيهم بغزوات مماثلة ، أو محاولة انتزاع ما يمكن انتزاعه من قواعد الحدود . وكان المرابطون قد استولوا على قلعة « مورة » المنيعة الواقعة جنوبي طليطلة ، وذلك في سنة ١١٤٠ م ، واتخذوها قاعدة للإغارة على أراضي قشتالة المجاورة ، فحشد ألفونسو ريمونديس جيشاً ضخماً ، وبعث حاكم طليطلة رديجو فرنانديث على رأس بعض قواته إلى منطقة وادي يانة « فعانت في أحواز قرطبة وإشبيلية . وسار الإمبراطور بنفسه في حملة أخرى إلى قلعة قورية ، وحاصرها مدى شهرين حتى سقطت في يده في يونيه سنة

١١٤٢م (٥٣٦هـ) وذلك بعد أن بثت حاميتها المسلمة من تلقى أية نجدة .
وتقص علينا الرواية النصرانية ، قصة غزوة قام بها القشتاليون بقيادة نونيو
ألفونسو حاكم مورة السابق ، في الأراضى الإسلامية ، وأسفرت المعركة التي
نشبت بين القشتاليين وبين قوات إشبيلية وقرطبة ، عن هزيمة المسلمين هزيمة
ساحقة ، ومصرع والى إشبيلية وقرطبة ، ورفع رأسهما في طليطلة على
رمحين ، واستولى القشتاليون على كثير من الغنائم والأسرى ، وذلك في أواخر
سنة ١١٤٢م (٥٣٧هـ) . ولم نجد في المراجع الإسلامية أى ذكر لمثل هذه الواقعة .
وكذلك لم نجد بها أى ذكر لما تقصه الرواية النصرانية بعد ذلك من أن القيصر
أرسل في العام التالى أعنى في سنة ١١٤٣ (٥٢٨هـ) حملة جديدة بقيادة مارتن
فرنانديث ونونيو ألفونسو ، لتحول دون قيام المسلمين بتحصين قلعة مورة ،
فخرج والى قلعة رباح في قواته - وتسميه الرواية النصرانية فرج - واشتبك مع
القشتاليين في معركة هزم فيها القشتاليون ، وفر مارتن فرنانديث جريحاً ، وقتل
نونيو فوق تل قريب يسمى « صخرة الوعل » مدافعاً عن نفسه ، فاحتز رأسه ،
وقطعت ذراعه اليمنى ، ورجله اليمنى ، وأرسلنا إلى قرطبة وإشبيلية ، لتعرضا
على أرملى الوالين القتيلين تعزية لهما ، ثم أرسلت بعد ذلك إلى أمير المسلمين
تاشفين بن على بمراكش (١) .

فأثارت هذه الهزيمة في نفس الإمبراطور أما ألم وسخط ، وأقسم بالانتقام
لمصرع قائده ، فخرج في العام التالى (١١٤٤م) في قواته إلى أراضى الأندلس ،
وأثنى في أحواز قرطبة وإشبيلية ، وانتسف الزروع وأحرق القرى ، ووصل
في سيره المخرب حتى أراضى غرناطة ، وألمرية ، ثم عاد إلى بلاده ، مثقلاً
بالغنائم والأسرى .

ثم كانت ثورة القواعد الأندلسية على المرابطين ، وكان من الواضح أن هذه
الغزوات النصرانية المخربة ، وما يقترن بها من القتل والسبي والنهب ، وعجز
المرابطين عن ردها ، كانت من العوامل التى أذكت سخط الأمة الأندلسية على
المرابطين ، ورغبتها في التخلص من نيرهم ، وقد رأينا كيف استغل القيصر ألفونسو
ريمونديس هذه الفرصة السانحة ، في بسط عونه لمن لحأ إليه من الثوار الأندلسيين

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح ص ١٨٢ و ١٨٤ وكذلك :

أمثال ابن حمدين ، وابن هود ، ثم قدم عون لزعيم المرابطين ابن غانية ، حينما علم بعبور الموحدين إلى الأندلس ، وعاونه على الاحتفاظ بسلطانه على قرطبة ، ووصل الأمر بعد ذلك إلى أن أحل القيصر عاصمة الخلافة القديمة لأمد قصير ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل في موضعه .

وكانت أعظم ضربة نزلت بالأندلس يومئذ ، واشترك فيها القيصر ألفونسو ريمونديس ، افتتح ثغر ألمرية العظيم ، على يد الحملة الصليبية البرية والبحرية التي اشتركت في تجهيزها ممالك اسبانيا النصرانية ، قشتالة وناقارا وأراجون ومعها جنوة وبيزة ، ونجحت خلال الاضطراب العام الذي أصاب الأندلس يومئذ ، في الاستيلاء على ألمرية ، وذلك في شهر أكتوبر سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) ، وقد بقي الثغر الإسلامي في أيدي النصارى عشرة أعوام كاملة ، وكانت للقيصر وحاميته القشتالية فيه اليد العليا ، حتى افتتحه الموحدون في أواخر سنة ١١٥٧ م .

ونكبت الأندلس في نفس الوقت بفقد قواعدها الباقية في الثغر الأعلى . واستولت عليها كذلك حملة صليبية من جنود قطلونية وأراجون وبيزة وجنوة بقيادة الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة ، فاستولت أولاً على ثغر طرطوشة ، وذلك في آخر سنة ١١٤٨ م (شعبان ٥٤٣ هـ) ، ثم استولت على مدينة لاردة في أكتوبر من العام التالي (٥٤٤ هـ) ، واستولت كذلك ، على إفراغة ، ومكناسة وبذلك انتهت سيادة المسلمين في الثغر الأعلى ، وقد سبق أن تناولنا هذه الحوادث كلها تفصيلاً .

وانتهز غرسية راميريس ملك ناقارا فرصة انشغال خصمه القديم الكونت رامون بافتتاح قواعد الثغر الأعلى ، فغزا ولايات أراجون المجاورة . وتفسر لنا الرواية النصرانية سر هذا العدوان بقولها إن غرسية كان يرمى إلى إرغام الكونت على أن يتزوج من ابنته بلانكا ، وأن يجعل ذلك شرطاً لعقد السلام بين أراجون وناقارا ، وذلك بالرغم من أن دونيا بلانكا كان قد تقرر زواجها من سانشو ولي عهد قشتالة . وأن الكونت رامون كان قد عقد زواجه التمهيدى بالأمرأة الطفلة بترونيلا ابنة الملك الراهب راميرو ، وقد اضطر الكونت رامون أن يشتري سلام بلاده بالخضوع لهذه الرغبة ، وأن يتعهد في معاهدة الصلح التي عقدت بأن يتزوج من ابنة ملك ناقارا (يولييه سنة ١١٤٩) . بيد أنه ما كاد يشعر بانقشاع الخطر عن أراجون ، حتى هرع إلى الكنيسة يجثو أمام هيكلها مع عروسه

يترونيلا ، يجدد العهد بارتباطه معها برباط الزواج المقدس . وتصف الرواية القطلونية هذا التصرف بأنه عمل فريد من الحتل والحديعة يذكر في حياة الكونت . وشغل القيصر ألفونسو ريمونديس ، أو ألفونسو السابع ، في ذلك الوقت بحادثين داخليين ، أولهما عقد المؤتمر الكهنوتي في بالنسيا في سنة ١١٤٨ م ، ليغنى ببحث المسائل الدينية والكنسية ، وثانيهما وفاة زوجها الملكة برنجيلا ، في سنة ١١٤٩ م . وكانت وفاة هذه الملكة الموهوبة الحازمة ضربة أليمة للقيصر أثارت في نفسه أيما حزن وشجن . وكان القيصر منذ حين قد فوض لولديه سانشو الذي خصه بلقب ملك قشتالة ، وفرناندو الذي خصه بلقب ملك ليون ، توقيع الأوامر والمراسيم العامة ، متشبهاً في ذلك بجديه ألفونسو السادس ، وسانشو الكبير ، في تقسيم كل منهما المملكة بين أولاده ، حال حياته ، ثم بعد مماته ، وهي السياسة التي كانت تنتهي دائماً باضطرام الحرب الأهلية بين الممالك النصرانية . وفي سنة ١١٥٠ م توفي غرسية راميريس ملك ناغارا ، وخلفه ولده سانشو الملقب بالعالم ، فرأى القيصر في ذلك فرصة جديدة للإيقاع بناغارا ، وفي الحال اجتمع بحليفه القديم الكونت رامون برنجير في تطيلة ، وجددت بينهما معاهدة التقسيم التي عقدت من قبل في كريون ، ولم يكتف المملكان بالاتفاق على تقسيم ناغارا ، ولكنهما اتفقا في نفس الوقت على تقسيم القواعد والأراضي الإسلامية التي لم تفتح بعد ، فاختص منها ملك أراجون بكل أراضي بلنسية ، ومرسية ، وتعهد دون سانشو ولد القيصر ، أن يعاون الكونت في افتتاح ناغارا ، وتعهد الكونت من جانبه بأنه في حالة موت القيصر ، يعترف بكل ما يحكمه سانشو ، وإذا توفي الأب والابن ، فإنه يعترف لأخيه فرناندو بسيادته على أراضي المساكنة .

بيد أن تطور الحوادث قضى بنجاة ناغارا من هذه المؤامرة إلى حين . ذلك أنه قد تم زواج دونيا بلانكا أخت ملك ناغارا بالدون سانشو ملك قشتالة في العام التالي (١١٥١ م) ، واحتفل بعقدته بمدينة قلهرّة بحضور الملوك الثلاثة ، ملوك قشتالة وأراجون وناغارا . وفي نفس العام عقد زواج القيصر الأرمل ألفونسو ريمونديس من الأميرة ريكا ابنة لادسلاو ملك بولونيا ، وقدمت إلى قشتالة في العام التالي ، واستقبلها زوجها القيصر في بلد الوليد في مظاهر واحتفالات باذخة . وتم زواج سانشو ملك ناغارا من دونيا سانشا ابنة القيصر من زوجته الملكة برنجيلا (سنة ١١٥٣) . وفي العام التالي تزوجت ابنة القيصر الثانية ، دونيا

كونستنزا من لويس السابع ملك فرنسا ، وكاى قد طلق زوجته الأولى إليونور دى جيان . وحدث بعد عقد هذا الزواج أن ثارت بعض الريب حول أرومة الملكة كنيستزا ، وقيل بأنها ليست ابنة شرعية للقيصر من زوجها الملكة برنجيلا ، وأنها بالعكس ابنة غير شرعية من خليلته كوندرا دا . ورأى الملك لويس أن يتحقق بنفسه من الأمر ، فسافر إلى اسبانيا محتجاً بزيارة قبر القديس ياقب في شنت ياقب (سنة ١١٥٥ م) . ولم يكن القيصر يجهل السبب الحقيقي لمقدم صهره ، فرتب لاستقباله في برغش ، ثم في طليطلة حفلات باذخة ، ظهر فيها البلاط القشتالي في أفخم مظاهره وأروعها ، وحضرها ملك ناغارا ، والكونت رامون برنجير ملك أراجون ، وأثار القيصر أمام الملوك مسألة ابنته كونيستزا ، وخاطب لويس بقوله : لقد زوجتك ابنتى كونيستزا ابنة الملكة برنجيلا أخت هذا الأمير الكونت رامون . والتفت رامون إلى لويس قائلاً : أجل إن زوجتك هي ابنة أختي ، فعاملها بالاحترام والتكريم ، والا فانتظر مقدمي في باريس مع القيصر كعدوين . وعندئذ اقتنع لويس بأصل زوجته الملكى الرفيع ، وعاد إلى بلاده مغتبطاً راضياً^(١) .

وكان الكونت رامون برنجير ، قد عقد في نفس الوقت زواجه الفعلى بالأميرة برونيللا الأرجونية ، وكانت قد بلغت عندئذ الثامنة عشرة من عمرها ، ولما شعرت هذه الأميرة باقتراب وضعها الأول ، عملت وصية مفادها ، أنه إذا كان المولود ذكراً ، فإنه يرث مملكة أراجون على نحو ما كانت عليه في عهد ألفونسو المحارب ، وأن يكون لزوجها الكونت رامون إدارة المملكة خلال حياته ، وإذا مات الولد ، وبقي الكونت حياً ، فإنه يغدو الملك المطلق للمملكة كلها . أما إذا كان المولود أنثى ، فكل ما ترغبه بشأنها هو أن يعنى والدها بأن يزوجه وأن يمهرها بسخاء . وبعد ذلك وضعت الأميرة ولداً سمي رامون طول حياة والده ، ثم غير اسمه بعد وفاته ، إلى ألفونسو ، فكان هو وارث المملكتين قطلونية وأراجون .

ولم يمض قليل على ذلك حتى شهر سانشو ملك ناغارا الحديد الحرب على أراجون يبغي تحقيق أطماع والده غرسية راميريس ، واضطر الكونت رامون ،

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ص ٢٣٣ و ٢٣٤ وكذلك :

أن يعود مسرعاً من غزوة كان يقوم بها في بيارن ، فيما وراء البرنيه ، وعندئذ سار القيصر ألفونسو ريمونديس إلى لاردة ، وذلك ليقوم بالتدخل بين الملكين المتحاربين في الظاهر ، ولكنه اجتمع بالكونت رامون ، وجدد معه الاتفاق القديم على تقسيم نافارا ، ولم تمنعه وشائج المصاهرة الوثيقة بينه وبين ملك نافارا زوج ابنته ، وأخ زوجة ولده سانشو ، من الاثمار به على هذا النحو ، وتم الاتفاق في الوقت نفسه بين القيصر والكونت على تزويج دون رامون الصغير ولد الكونت ، وكان في الرابعة من عمره ، من دونيا سانشا ابنة القيصر من زوجته الحديدية الملكة ريكا ، وكانت في الثانية من عمرها .

٤ - أعوام القيصر الأخيرة ووفاته

وفاة رامون برنجير الرابع

ومما هو جدير بالذكر ، أن هذه الفترة من الحفلات والزيجات الملوكية المتوالية ، قد عاقت عاهل قشتالة فترة قصيرة ، عن متابعة غزواته لأراضي الأندلس ، فهو مذ قام في سنة ١١٥١ م (٥٤٦ هـ) بغزوته لمدينة جيان ونهبها ، وقد كانت يومئذ بأيدي الموحدين ، لم يعد إلى مهاجمة الأندلس إلا في سنة ١١٥٥ م (٥٥٠ هـ) ، وذلك حينما نجح في الاستيلاء على أندوجر وحصن البطروج ، واحتلتهما القوات القشتالية لفترة يسيرة ، ثم عاد الموحدون بقيادة ابن يكيث والى قرطبة ، فاستردوهما ، واستولوا على بعض الحصون النصرانية المجاورة ، وذلك حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل في موضعه .

وكانت آخر المعارك الخطيرة التي خاضها القيصر مع الموحدين ، هي معركة ألمرية . وكان الموحدون بعد استيلائهم على قرطبة وغرناطة ، قد وضعوا خططهم لاسترداد ألمرية ، التي افتتحها النصارى منذ سنة ١١٤٧ م ، (٥٤٢ هـ) . وقد سبق أن فصلنا حوادث افتتاح النصارى لهذا الثغر الإسلامي العظيم ، ثم حوادث استرداده على أيدي الموحدين . وكان القيصر ألفونسو ريمونديس قد سار لإنجاد حاميته النصرانية في جيش كثيف ، وسار معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقي الأندلس في قواته ، واكن جهود القيصر وحليفه المسلم ذهبت عبثاً ، واضطر النصارى إلى تسليم ألمرية إلى الموحدين ، بعد حصار دام سبعة أشهر ، وذلك في أواخر سنة ١١٥٧ م (أواخر سنة ٥٥٢ هـ) . وارتد القيصر في قواته

إلى بلاده ، وقد حطم هذا الفشل الأخير قواه المعنوية . وفي طريق العودة أصابته حمى شديدة ، فاضطر إلى التوقف في مكان بالقرب من بلدة مورتلة (موردال) ، وهناك تلقى القديس ، وأسلم الروح ، وذلك في ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ م ، وهو في سن الحادية والخمسين .

وكان القيصر ألفونسو ريمونديس ، أو ألفونسو السابع ، أو ألفونسو الثامن إذا اعتبرنا أن ألفونسو المحارب ملك أراجون ، كان أيضاً وقت زواجه بالملكة أورাকা ملكاً لقشتالة ، من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، وكان هو أول ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة ، الذين ينتمون إلى الأسرة البرجونية الملوكية ، والذين حكموا قشتالة حتى القرن الخامس عشر . وكان يتسم بكثير من الحزم والقوة ، وقد أمدته التجارب القاسية التي شهد لها خلال صباه ، أيام الحصومات والحروب الأهلية التي اضطرت بين أمه أورাকা وزوجها ألفونسو المحارب من جهة ، وبين أمه وبين الأشراف الخوارج من جهة أخرى ، بكثير من الخبرة والمقدرة على معالجة شئون الملك ، والذود عن العرش ، ومن ثم فقد استطاع أن يقمع ثورات الأشراف الخارجين ، وأن يحد من سلطانهم ونزعاتهم الثورية ، واستطاع منذ وفاة ألفونسو المحارب أن يحتل مركز السيادة والصدارة بين ملوك اسبانيا النصرانية . وقد رأينا كيف كان ألفونسو ريمونديس يعلق ، على صفة الإمبراطورية نتائج ضخمة ، وبالرغم من أن هذه الصفة لم يكن لها بالنسبة لباقي ممالك اسبانيا النصرانية سوى طابع أدبي ، فإنه كان يحرص على سلطانه كإمبراطور ، وكان (وفقاً لقول النقد الإسباني) « يحلم بإمبراطورية حقيقية ، تشمل على كل إمكانات التوسع الإسباني ، وكل العوامل التاريخية للوطن الإسباني ، وتمتد جذورها إلى تراث العالم الروماني ، وإلى وحدة العرش القوطي ، وكان منذ اتشح بالثوب الإمبراطوري في سنة ١١٣٥ م ، يسير وفق برنامج مدروس راسخ ، وكان هذا البرنامج يقوم على شقين ، الأول الإصلاح الداخلي في الناحيتين الإدارية والقضائية ، والثاني ، وهو ناحية السياسة الخارجية يقوم على المحافظة على سمعة الإمبراطورية ، بكافة الوسائل السلمية والعسكرية » .

« وغاية هذا البرنامج النهائية ، هو الهجوم العام على الإسلام ، وكان الاندفاع نحو فتوح الاسترداد Reconquista يستمد قوته من مصادر كثيرة ، من نفس النظرية الإمبراطورية ، ومن توحيد مختلف الأراضي والجهود ،

والخلاف القائم بين المسلمين في شبه الجزيرة ، وضرورة حماية هيبة الإمبراطورية ومكانتها إزاء البابوية والعالم الخارجي ، كل ذلك كان يخلق اندفاعاً قوياً ومستمراً ، يضع الإسلام في شبه الجزيرة في موقف من أدق مواقفه . وقد أكد ألفونسو السابع نيته في متابعة هذه الحرب المستمرة على الإسلام ، عقب التتويج الإمبراطوري مباشرة ، في إخطاره لأهل مملكته ولسكان الحدود ، بأن يشهروا الحرب على المسالمين في كل سنة ، وأن يزعموهم بلا هوادة ، وألا يفروا بلادهم أو حصونهم ، وأن ينتزعوا منهم كل شيء في سبيل الله ، ومن أجل الدين المسيحي^(١) .

وتشيد الرواية النصرانية بخلال ألفونسو ريمونديس ، وتقول لنا إنه من القلائل من ملوك اسبانيا النصرانية ، الذين يستحقون صفة القيصر بجدارة ، وتشيد كذلك بفروسته وشجاعته وعدله وتقواه ، ورعايته للكنائس والأديار . بيد أنه ليس من ريب في أن ألفونسو ريمونديس كان ملكاً جشعاً ، وافر الأطماع ، وكان لا يفرق في تحقيق أطماعه بين الوسائل المشروعة ، وغير المشروعة ، وقد رأينا موقفه من مملكة ناغارا الصغيرة الشجاعة الأبية ، وكيف أن وشائج القربى والمصاهرة لم تمنعه من الاثمار باستقلالها غير مرة . أما سياسة ألفونسو ريمونديس نحو الأندلس المسلمة ، وهي السياسة التي صورها لنا النقد الإسباني فيما تقدم ، فلم تكن تختلف في شيء عن سياسة أسلافه : سياسة التربص والغدر والعدوان المستمر ، وسياسة الضرب والتفريق بين المتوثبين والمتخاذلين من زعمائها ، وانتهاز الفرص للإيقاع بها ، وانتزاع أراضيها بكل الوسائل . والواقع أن الجيوش القشتالية أيام ألفونسو ريمونديس لم تترك للمسلمين في شبه الجزيرة أية هدنة . ففي سنة ١١٣٣ م ، قام ألفونسو بغزوته الكبرى خلال الأندلس ، ووصل في زحفه إلى شريش وأرض الفرنتيرة ، ولم تستطع الجيوش المرابطية أن تقف في سبيله . وهو منذ تقاد التاج الإمبراطوري في سنة ١١٣٥ ، دأب الغزو لأراضي الأندلس ، فإذا لم تكن ثمة غزوة كبيرة ، فقد كانت ثمة غارات مخربة على الحدود . وفي سنة ١١٣٩ افتتح حصن أورينجا (أرنية) . وفي سنة ١١٤٢ ، افتتح قورية . وفي سنة ١١٤٦ ، دخل قرطبة استجابة لدعوة ابن حمدين ،

(١) وردت هذه الملاحظات ، ضمن تصوير لعهد ألفونسو السابع ، قدم به الأستاذ العميد

S. Montero Diaz لمحاضراته La Orden de Calatrava y su perspectiva universal

المنشورة في كتاب : La Orden de Calatrava (Cuidad Real 1959) p. 8

ثم نذب لحكمها ابن غانية . وفي سنة ١١٤٧ استولى على قلعة رباح ، واشترك مع الجيوش النصرانية الأخرى في الاستيلاء على ألمرية ، وهكذا استمر الصراع على أشده بين الجيوش القشتالية الغازية والجيوش المسلمة ، مرابطية أو غيرها ، طوال أيام ألفونسو السابع .

ويعرف ألفونسو ريمونديس في الرواية الإسلامية بالفنش بن رمند أى ألفونسو بن ريموند وهو اسم أبيه الكونت ريموند البرجونى ، ويعرف كذلك بالسليطين أى الملك الصغير لأنه حكم منذ طفولته .

وحكم الكونت رامون برنجير الرابع بضعة أعوام أخرى ، وشغل في الأعوام الأخيرة من حكمه بمنازعات ومعارك مختلفة فيما وراء البرنيه ، في ولاية بروقانس ، وهى التى كان يحكمها أخوه الكونت برنجير رامون ، حتى نازعه فيها بعض الأمراء المحليين ، وقتل مدافعاً عن ولايته . وقد نجح الكونت يومئذ في إرغام أشراف بروقانس على الاعتراف بطاعته وتلقب بلقب كونت دى بروقانس مضافاً إلى ألقابه . ولكن بعض الأمراء المحليين عادوا فأثاروا الاضطراب في بروقانس ، منضوين تحت حماية القيصر فردريك الأول امبراطور ألمانيا . وأخيراً تحول القيصر إلى مناصرة الكونت رامون ، ومنحه عهد الجزية على بروقانس وعلى عاصمتها آرل ، كما كان الأمر من قبل . ثم سافر الكونت رامون وابن أخيه برنجير إلى تورينو حيث كان يقيم القيصر ، ليتلقيا منه عهد الجزية ، فرض الكونت وتوفى خلال الطريق ، وذلك في السادس من أغسطس سنة ١١٦٢ م .

وكان رامون برنجير الرابع ، من أعظم أمراء اسبانيا النصرانية في ذلك العصر ، الذى تعددت فيه الممالك الإسبانية ، ومن أوفرهم ذكاء وعزماً ومقدرة . وفى وسعنا أن نعتبره مؤسس عظمة مملكة أراجون الحقيقي . وكان سبيله إلى ذلك إدماج قطلونية وأراجون في مملكة قوية موحدة ، وكان حكمه يتسم بالقوة والحكمة والعدل ، وقد استطاع بسياسته المستنيرة أن يتقى كثيراً من الحروب والمنازعات ، وأن يحافظ على سلام مملكته ورخائها . بيد أنه كان كسائر أقرانه ملوك اسبانيا النصرانية يضطرم تعصبا ضد المسلمين ، ولا يدخر جهداً في محاربتهم ، وقد استطاع أن ينتزع آخر القواعد الإسلامية في الثغر الأعلى ، وأن يقضى بذلك نهائياً على سلطان المسلمين ، في هذا الركن من اسبانيا .

٥ - قشتالة بعد وفاة ألفونسو ريمونديس
والحرب الأهلية بين أسرتي كاسترو ولارا

لما توفي القيصر ألفونسو ريمونديس في أغسطس سنة ١١٥٧ م ، قسمت مملكته بين ولديه ، وذلك وفقاً للنظام الذي وضعه في أواخر حياته ، فاختص ولده سانشو الثالث بعرش قشتالة والأراضي التابعة لها في أعلى التاجه ، وعاصمتها طليطلة ، مع حق الجزية على مملكتي نافارا وأراجون . واختص ولده الصغير فرناندو بمملكة ليون وجليقية وأشتوريش ، مع حق السيادة على مملكة البرتغال ، وبهذا التقسم الحديد لمملكة قشتالة الكبرى ، أصبحت الممالك الإسبانية النصرانية خمساً هي مملكة أراجون وقطلونية المتحدة ، ونافارا ، وقشتالة ، وليون والبرتغال .

وكان هذا الوضع الحديد للملك الإسبانية النصرانية نذيراً بتطور الحوادث ، وبانهيار سيادة قشتالة ، التي استطاع القيصر ألفونسو ريمونديس ، أن يفرضها على باقي الممالك الإسبانية ، وبدأت الأمور كالعادة بنشوب الحرب الأهلية بين الأخوين ، ملكي قشتالة وليون . وذلك أن فرناندو ملك ليون بدأ حكمه ، باضطهاد سائر الكبراء والأشراف الخلفين لقشتالة ، فجردهم من مناصبهم وأملاكهم ، وأخرجهم من مملكته اتقاء لمؤامراتهم ودسائسهم ، فالتجأ هؤلاء إلى أخيه سانشو ملك قشتالة ، فسار سانشو في قواته ومعه الأشراف المبعدون ، وغزا ليون ، وأرغم أخاه على أن يرد المبعدين ، إلى مناصبهم ، وأن يرد إليهم أملاكهم ومكانتهم ، وأرغمه فوق ذلك على أن يعترف بسيادته وأن يؤدى له الجزية .

وفي خلال ذلك حاول سانشو ملك نافارا ، أن يرفع نير قشتالة عن مملكته ، وأن يسترد ولاية ريونخا القديمة ، ولكن سانشو الثالث بادر بإرسال حملة قوية إلى نافارا ، فخشى ملكها العاقبة ، وآثر أن يعقد الصلح على أن تبقى الأوضاع القديمة على حالها .

وكان سانشو الثالث يجيش بأطماع كثيرة ، وكان يطمح بالأخص إلى أن ينظم مع باقي الممالك الإسبانية حلفاً مشتركاً لمحاربة الموحدين ، الذين سيطروا على غرب الأندلس وأواسطها ، وأضحوا يهددون أرض قشتالة ، ولكن هذه

الآمال تحطمت كلها ، إذ توفي سانشو فجأة في آخر أغسطس سنة ١١٥٨ ، بعد أن حكم عاما فقط ، ولم يترك لوراثته عرشه سوى طفل في الثالثة من عمره ، هو ألفونسو الذي لقب فيما بعد بالنبيل ، واختار في وصيته للولاية على ولده والقيام بمهام الحكم ، مؤدبه الكونت جوتيرو فرنانديث سليل أسرة كاسترو القوية ، وكان لهذا الاختيار أثره في مجتمع الأشراف ، وفي اضطراب المنافسة بين أسرة كاسترو ، وخصماتها من الأسر الشريفة ، وعلى رأسها أسرة لارا ، وقد كانت تضارع آل كاسترو ، قوة وعصية ومحتدأ .

سخطت أسرة لارا لما خصت به أسرة كاسترو من الوصاية على الملك الطفل ، ونخشى الكونت جوتيرو عاقبة سخطها ووعيدها ، فعهد بتربية الملك الطفل إلى الكونت غرسية دي أنيا قريب آل لارا ، والمتصل بهم بأوثق الصلات ، وذلك كوسيلة لتجنب الخصام والمحافظة على السلم ، ولكن غرسية مالبت أن برم بهذه التبعة الثقيلة ، فسلم الطفل إلى الكونت ألمايريش كبير آل لارا ، فنار الكونت جوتيرو لهذا التصرف ، وأصر أن يعاد إليه الطفل ، وهدد بالحرب ، ولكنه لم يلبث أن توفي ، فتابع أبناء أخيه المطالبة ، وأصروا على استعادة الملك الطفل استناداً إلى الوصية الملكية ، فلما أصر آل لارا على موقفهم ، لجأ آل كاسترو إلى فرناندو ملك ليون ، عم الملك الطفل ، لكي يحمي ابن أخيه ، فسار ملك ليون في الحال إلى قشتالة في جيش ضخم ، واحتل معظم قواعدها ، وأعلن أنه يتولى الحكم والوصاية على ابن أخيه ، واعترف بطاعته معظم الشعب القشتالي (سنة ١١٥٩ م) . واشتد فرناندو في مطاردة آل لارا ، حتى أرغموا أخيراً على تسليم الملك الطفل . وعمد فرناندو بعد ذلك إلى اصطفاء آل كاسترو ، وتجريد آل لارا من أملاكهم ومناصبهم وألقابهم ، وترتب على ذلك أن ثارت بين الفريقين حرب دموية ، خربت فيها الضياع ، وأحرقت القرى ، وقاتل ملك ليون إلى جانب آل كاسترو ، حتى أرغمت أسرة لارا أخيراً على التسليم ، وأعلنوا أنهم يعودون إلى الطاعة ، وأنهم يقسمون بالتزامها إذا أعيد إليهم الطفل الملكي قبل ذلك . واتفق الفريقان على أن يجتمع لذلك الغرض مجلس في بلدة « سُرِيَة » يشهده آل لارا والملك فرناندو ، ومعه ابن أخيه الطفل . ولكن حدث خلال انعقاد هذا المجلس ، أن اختطف الطفل فارس جرىء من رجال آل لارا ، وسرعان ما عمد زعماء آل لارا وفي مقدمتهم الكونت ألمايريش إلى الفرار من

المجلس دون أن يقسموا يمين الطاعة ، وأدرك فرناندو ، بعد فوات الوقت ، ما دبره خصومه من غدر وخديعة .

ووضع آل لارا الطفل الملكي في قلعة إستيبان دي جورمت المنيعة ، وأذاعوا في طول البلاد ، وعرضها أنهم يعملون على حماية الملك الطفل ، وحماية استقلال قشتالة من مطامع الملك فرناندو ، وانضم إليهم فريق كبير من أهل قشتالة . ومع ذلك فقد بقي التفوق إلى جانب فرناندو وأنصاره آل كاسترو ، وكان يؤيده بالأخص رجال الدين ، وعلى رأسهم مطران طليطلة . واستمرت هذه الحرب الأهلية بين الفريقين أعواماً ، وبذل فيها آل لارا جهوداً عنيفة ، وقتل زعيمهم الكونت ألمايريش في إحدى المعارك . وكان وجود الملك الطفل في أيديهم ، يساعدهم على حشد الأنصار والموارد . وأخيراً رجحت كفتهم على قوات ليون ، واضطر الملك فرناندو ، إلى أن يطلب العون من خصميه القديمين ، ملك ناغارا ، وملك البرتغال . وكانت الأحوال خلال ذلك تتطور في قشتالة ، وأخذ الشعب يتحول عن آل كاسترو وعن قضيتهم ، ويرى في بقاء ملك ليون وجنوده خطراً على استقلال البلاد . ومن جهة أخرى ، فإن ملك ليون لم يحظ بالعون المنشود من محالفة البرتغال وناغارا ، وزاد في متاعبه أن قامت ثورة محلية في أراضي استرامادوره ، وثارَت مدينتا آبله وشلمنقة على سلطانه ، وأخذ آل كاسترو في نفس الوقت يفقدون هيبتهم ونفوذهم ، لما ارتكبوه من عسف ومظالم . وانتهزت أسرة لارا فرصة هذا التحول ، فسارت في أنصارها إلى طليطلة عاصمة قشتالة ، واستولت عليها عنوة ، ونادت بقيام حكم الملك الطفل ألفونسو ، وكان قد بلغ عندئذ الحادية عشرة من عمره ، ودعت جميع القشتاليين إلى الالتفاف حول الملك الشرعي ، ومقاومة الليونيين وآل كاسترو . وكان ذلك في سنة ١١٦٦ م .

واتجهت قشتالة كلها عندئذ إلى تأييد ملكها الصبي ، الذي لقب بألفونسو النبيل ، واستأثر آل لارا بجميع السلطات ، وتحول رجال الدين أخيراً عن ملك ليون ، ليؤيدوا الملك الشرعي ، وعقدت قشتالة الهدنة مع ناغارا ، وعقدت حلفاً مع أراجون . وأيقن فرناندو ملك ليون أخيراً أنه لا أمل في مثل هذا الموقف وأثر أن ينسحب من أراضي قشتالة ، وأن يترك حلفاءه آل كاسترو لمصيرهم ، واضطر آل كاسترو وعندئذ إلى مغادرة قشتالة ، والالتجاء إلى أراضي المسلمين ، وهناك أخذوا يرقبون الفرص للعودة والانتقام ، وأسدل الستار بذلك مدى

حين على صراع هاتين الأسرتين القشتاليتين الكبيرتين (١).

٦ - قيام جماعات الفرسان الدينية

وقد امتاز هذا العصر - النصف الأول من القرن الثاني عشر - وهو عصر ألفونسو المحارب ، وألفونسو ريمونديس ، بظهور قوة جديدة في ميدان الصراع بين اسبانيا النصرانية واسبانيا المسلمة ، هي جماعات الفرسان الدينية . وكانت هذه الجماعات قد ظهرت في المشرق على أثر اضطرام الحروب الصليبية ، وسقوط بيت المقدس في أيدي الفرنج الصليبيين ، وظهرت ثلاثها في اسبانيا ، في عصر ألفونسو المحارب . وكانت أول جماعة قامت في أراجون من هذا النوع هي جمعية الفرسان الدينية التي أنشأها ألفونسو المحارب في سنة ١١٢٠م ، على أثر موقعة كنتندة ، في قلعة « مونريال » على مقربة من دروكة ، وظهر فرسان الداوية أوفرسان المعبد بعد ذلك في إمارة برشلونة ، وشجعهم أميرها الكونت رامون برنجير الثالث على القيام في مملكته ، ومنحهم حصن « جرانينا » على مقربة من لاردة ، ليكون مقرآ لهم ، ثم انتظم في سلكهم قبيل وفاته في سنة ١١٣١م . ولما توفي ألفونسو المحارب ، خص فرسان المعبد في وصيته بثلاث مملكته ، باعتبارهم حماة النصرانية في بيت المقدس ، كما خص فرسان الأستبارية ، كذلك بنصيب آخر من مملكته . وقد رأينا فيما تقدم كيف رفض الشعب الأرجوني أن ينفذ هذه الوصية حرصاً على سلامة الوطن الأرجوني . وقد رأى الفرسان أنفسهم استحالة تنفيذ مثل هذه الوصية ، لأنها مسألة لا تحل إلا بقوة السلاح ، ومن ثم فقد نبذوا باختيارهم هذه الحقوق ، واكتفوا بالمطالبة ، بأن يعوضوا عنها بما يعاونهم على الاستقرار ، وتأدية مهمتهم في حماية الدين . ومن ثم فقد رأى أمير أراجون فيما بعد الكونت رامون برنجير الرابع ، تعويضاً لفرسان المعبد (الداوية) أن يمنحهم عدة حصون في أراجون ومنتشون وكلامير وغيرها مع ما يلزم لها من المرافق والغلات التي تساعد على العيش ، وكذلك حصل الفرسان على حق الإعفاء من الخضوع لقضاء الملك ، وعلى أن يعطوا نصيباً معيناً في المدن التي انتزعت من المسلمين مثل وشقة وبربشتر وسرقسطة ، وقلعة أيوب وغيرها ، وفي مقابل ذلك يتعهد الفرسان بأن يكرسوا حياتهم لحماية النصرانية في تلك

الأنحاء ، وتم هذا الاتفاق في اجتماع عقد في مدينة جرنده^(١) في سنة ١١٤٣ م ، وشهده مندوب عن البابا ، وكثير من الأساقفة وأشراف أراجون وقطلونية . وهكذا تم لجمعية فرسان المعبد الشهيرة أن تستقر في أراجون وقطلونية . وسرعان ما نمت واشتد ساعدها ، وظهرت أهمية العون الذي يبذله أعضاؤها في محاربة المسلمين ، ولاسيما في الدفاع عن القواعد والحصون الواقعة على الحدود . وألنى هذا المثل صداه في قشتالة ، عقب وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس ، وقيام ولده سانشو . وكانت قلعة رباح ، في مقدمة هذه المعازل الأمامية التي تحمي مداخل قشتالة ، وكانت فضلا عن أهميتها الدفاعية ، تسيطر على مقاطعة جيان الأندلسية ، وكان ألفونسو السابع قد عهد بالدفاع عنها إلى فرسان الداوية ، وكانت القوات الموحدية تزحف على هذه القلعة من آن لآخر وترهقها بهجمات العنيفة . ولما استولى الموحدون على المرية ، جددوا هجومهم في سنة ١١٥٨ م على قلعة رباح ، ولم يستطع فرسان الداوية إنقاذها من السقوط الا بشق الأنفس ، فلما أيقنوا بعجزهم عن القيام بمهمتهم الفادحة ، غادورا القلعة وسلموها إلى سانشو ملك قشتالة ، ليعنى هو بأمر الدفاع عنها . وألنى سانشو نفسه في مأزق حرج . وكان ثمة في طليطلة راهب ورع هو ريموندو أو رامون رئيس دير قتيرو ، ومعه راهب ورع من أسرة نبيلة يدعى ديجو بلاسكيث ، وكان فارساً مقداما ظهر في ميدان الحرب ، فتقدم الراهبان إلى الملك سانشو ، بأن يعهد إليهما بمهمة الدفاع عن قلعة رباح ، فأجابهما الملك إلى ما طلبا . وأيد مشروعهما يوحنا مطران طليطلة ، وألنى عطات وعد فيها بالغفران لكل من يتقدم للدفاع عن القلعة ، فلم يمض سوى قليل حتى استطاع الراهب ريموندو أن يجمع حوله في قلعة رباح عشرين ألف مقاتل ، وأمدته كثيرون ممن لم يشتركوا في الدفاع بالخيال والدواب والمال . وكان لهذه الحركة القوية أثرها في رد الموحدين عن مهاجمة القلعة . وفي الحال رأى الراهب رامون أن يؤلف من أولئك الذين يرغبون أن يكرسوا حياتهم للدفاع عن النصرانية جمعية من الإخوة . وهكذا قامت جمعية « فرسان قلعة رباح » (سنة ١١٦١ م) . وانتخب الراهب ريموندو أول رئيس لها ، وصادق البابا على قيامها ، وطبقت عليها النظم الحربية ، وأخذت تنمو باضطراد ، وتؤدي مهمتها في مدافعة المسلمين بهمة وحماسة . ولما توفي أستاذ الجمعية الأول ، ريموندو دي قتيرو في سنة ١١٦٣ م

(٢) هي بالإسبانية Gerona ، وهي تقع شمال شرق برشلونة على مقربة من البرنيه .

خلفه في رياستها الراهب غرسية الناغاري ، ووضع للجمعية نظاماً جديداً ، أقره البابا اسكندر الثالث . ثم وضع البابا إنوسان الثالث بعد ذلك الجمعية تحت حمايته ، وذلك في سنة ١١٩٩ م (١) .

وقامت في جليقية ، بعد قيام جمعية قلعة رباح بثلاثة أعوام جمعية محاربة جديدة باسم « جماعة القديس ياقب » وشعارها محاربة أعداء الدين ، والدفاع عن الحاج الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب ، ونظمت على منهج القديس أوغسطين ، واتخذت طابعاً حربياً ، وأبيح الزواج لأعضائها ، خلافاً لفرسان قلعة رباح ، وتوالت عليها الهبات ، وسرعان ما نمت واشتد ساعدها .

وسوف تضطلع هذه الجمعيات الدينية المحاربة منذ الآن فصاعداً بدور بارز في الصراع بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة .

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح (الترجمة العربية ص ٢٦٨)
والاستاذ S. Montero في مجموعة 17 & 16 p. La Orden de Calatrava

الفصل الثالث

قيام مملكة البرتغال

وبداية عصر ملكها ألفونسو هنريكي

ولاية لوزيتانيا أصل مملكة البرتغال . تداولها بين الفاتحين ، وضعها عند افتتاح الأندلس . ولاية الغرب الأندلسية . شمال لوزيتانيا وسقوطه في يد النصارى . ولاية البرتغال . البرتغاليون أهل هذه الولاية . أصل الملوكية البرتغالية . الكونت ريمون البرجوني وابن عمه الكونت هنرى . زواج الكونت ريمون بأوراكا ابنة ألفونسو السادس . اختياره لحكم إمارة البرتغال . وفاته وخلافة الكونت هنرى له . ولاية البرتغال ومدنها عندئذ . الكونت هنرى أمير وراثى للبرتغال . موقفه من الحرب الأهلية في قشتالة . وفاته . ولده الطفل ألفونسو وأمه تريسا الوصية عليه . تقلبها في محالفة الفريقين المتحاربين في قشتالة . غزو المرابطين لأراضيها وانسحابهم . سحق الشعب على حكمها . مؤامرة الأشراف عليها واعتقالها . تولى ولدها الفتى ألفونسو هنريكي الحكم . إعلانه لاستقلال البرتغال . سحق القيصر ألفونسو ريمونديس لذلك . الحرب بين قشتالة والبرتغال . التحالف بين ناغارا والبرتغال . غزو البرتغال بلخيقية . الحرب بين البرتغال والقيصر . توسط مطران براجا وعقد الهدنة بينهما . غزوة برتغالية لأراضى المسلمين . مجلس لاميجو واتخاذ ألفونسو هنريكي لقب الملك . قانون وراثه العرش . القوانين الجديدة . تنظيم القضاء . قيام مملكة البرتغال . جماعات الفرسان الدينية . ألفونسو هنريكي في الرواية العربية .

نقف الآن قليلا في تتبع أخبار الممالك النصرانية الإسبانية ، لنلم بأخبار مملكة نصرانية أخرى ، من ممالك شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يكن لها قبل أوائل القرن الحادى عشر ذكر بين هذه الممالك ، ونعنى بذلك مملكة البرتغال الناشئة ، التى بدأت تحتل مكانتها إلى جانب باقى الممالك النصرانية ، وتأخذ معها بنصيب بارز في الكفاح بينها وبين إسبانيا المسلمة .

إن مملكة البرتغال ترجع من حيث رقعتها الإقليمية ، أو من حيث أرومتها الملوكية ، إلى أصول متواضعة . فأما من حيث الرقعة الإقليمية ، فإنه يجب أن نعلم أن القسم الغربى من شبه الجزيرة الإسبانية ، كان منذ العصر القديم ، يتميز بسكانه وخواصه الجغرافية ، وكان سكانه يعرفون بأهل لوزيتانيا ، وهم جنس يتميز بخصائصه من الإسبان الذين كانوا يحتلون شرقى الجزيرة وأواسطها ، وكانت

ولاية لوزيتانيا في العصر القديم تشمل الرقعة الغربية الواقعة جنوبي جليقية المحاذية للشاطيء فيما بين مصب نهر دويرة ومصب نهر وادي يانة . وكانت لوزيتانيا أيام الرومان تكون مع ولاية بتيكا (باطقة) أو الأندلس ، القسم الجنوبي الغربي من اسبانيا الرومانية ، وتسمى بإسبانيا السفلى . ولما غزت القبائل الجرمانية شبه الجزيرة الإسبانية في أوائل القرن الخامس الميلادي ، نزل الوندال والشوابيون في ولاية لوزيتانيا . ولما عبر الوندال إلى إفريقيا ، احتل الشوابيون لوزيتانيا كلها ، واستمروا بها زهاء نصف قرن حتى أجلاهم القوط عنها ، فارتدوا شمالاً إلى جليقية ، واحتل القوط لوزيتانيا ، وعاصمتها يومئذ مدينة ماردة ، وذلك في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي ، ثم استولى القوط بعد ذلك على اسبانيا كلها ، ماعدا قسمها الشمالي الذي استمر عصراً آخر بيد الشوابيين ، حتى افتتحه القوط في أواخر القرن السادس . وكانت لوزيتانيا تكون عندئذ إقليماً من الأقاليم الستة التي قسمت إليها المملكة القوطية . ولما افتتح المسلمون اسبانيا ، بقيت لوزيتانيا على وضعها القديم ، وعاصمتها ماردة ، ومن مدنها قلمرية وأشبونة وشنتره وشنترين . وكانت ماردة أيام الدولة الأموية ، بالأخص منزل المولدين ، وكانت مثل طليطلة ، من المدن المتمردة الثائرة ، تضطرم بها الثورة على حكومة قرطبة من آن لآخر ، وكانت أيام الفتنة الكبرى في مقدمة القواعد الخارجة ، وقد ثار بها بنو الجليقي ، واستقلوا بحكمها عصراً .

وكان القسم الجنوبي من ولاية لوزيتانيا وهو الذي بقي بأيدي المسلمين ، يعرف بولاية الغرب الأندلسية ، أو غربي الأندلس . ولما قامت دول الطوائف تغلب على هذه المنطقة بنو الألفطس ، واتخذوا من بطليوس قاعدة لإمارتهم . وكان حكمهم يمتد من منتصف وادي نهر وادي يانة حتى المحيط ، ويشتمل على قسم من وادي نهر التاجه ، يمتد شمالاً حتى مدينة قلمرية^(١) ، ويشتمل على ثغر أشبونة ، وشنترين ويابرة . أما القسم الشمالي من ولاية لوزيتانيا ، وهو الذي يمتد بين مدينة براجا شمالاً ، وقلمرية جنوباً ، فكان النصارى قد تغلبوا عليه شيئاً فشيئاً ، وافتتح فرناندو الأول ملك قشتالة معظم قواعد من المسلمين ، وآخرها مدينة قلمرية ، وقد افتتحها في سنة ١٠٦٤ م (٤٥٦ هـ) ، وجعل فرناندو من هذه المنطقة ولاية مستقلة باسم « البرتغال » بالاشتقاق من اسم « بورتو كالي »

(١) قلمرية وتسمى أيضاً قلمرية هي بالفرنسية 'Cömbra' Columbia

Porto Calle ، وهى الثغر الواقع عند مصب نهر دويرة ، وجعل قاعدتها قلمرية ، وانتدب لحكمها وزيره المستعرب الكونت سسندودا فيدس الذى تعرفه الرواية العربية باسم « ششند » . ثم ضمت هذه الولاية الحديدية قبيل وفاة فرناندو بقليل إلى مملكة جليقية ، التى تركها فرناندو إلى أصغر أولاده الثلاثة غرسية .

وقد ذكرنا من قبل أن سكان اوزيتانيا ، وهى التى اقتطعت ولاية البرتغال الحديدية من قسمها الشمالى ، كانوا عنصراً خاصاً يفرق بمميزاته عن الإسبان . وكان اللوزيتانيون أو البرتغاليون أهل الولاية الحديدية ، يتوقون إلى الاستقلال عن مملكة حليقية ، ومن ثم فقد ثاروا منذ البداية ضد حكم الملك غرسية بقيادة زعيمهم الكونت نونيو منندس ، ولكنهم هزموا أمام جيش جليقية ، وقتل زعيمهم نونيو (سنة ١٠٧١ م) . واستسلمت الولاية النائرة إلى مصيرها ، وتعاقب فى حكمها الأمراء والحكام من قبل ملك قشتالة .

هذا عن أصول البرتغال الجغرافية والتاريخية . وأما عن أصول الملوكية البرتغالية ، فإنه لما عبر المرابطون إلى اسبانيا عقب افتتاح ألفونسو السادس ملك قشتالة لطليطلة ، ولقيت الحيوش الإسبانية المتحدة هزيمتها الساحقة فى موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) عبر إلى شبه الجزيرة استجابة لصريخ ألفونسو السادس ، كثير من الفرسان والأشراف الفرنسيين ، لينجدوا إخوانهم فى الدين إزاء الخطر الإسلامى الحديد - خطر النيل المرابطى ، وكان من بين أولئك المحاهدين الوافدين اثنان من أشراف برجونية ، هما الكونت ريمون البرجونى ، والكونت هنرى دى لورين ، وكلاهما ينتمى إلى فرع من فروع آل كاييه ملوك فرنسا . وقد أبدى الرجلان فى خدمة ألفونسو السادس ومعاونته همة تذكر ، ومن ثم فقد رأى أن يثيبهما عن إخلاصهما وغيرتهما ، فزوج الكونت ريمون بابنته أورাকা ، ولما كان الكونت قد ظهر بالأخص فى محاربة المسلمين فى البرتغال وانتزع منهم شترين وأشبونة وشنترة (١٠٩٣ م) فقد عينه ألفونسو حاكماً لهذه الولاية . وزوج الكونت هنرى ، وهو ابن عمومة الكونت ريمون ، بابنته غير الشرعية تريسا التى رزق بها من خليلته خمينا نونيز .

ولما توفى الكونت ريمون بعد ذلك بقليل فى سنة ١٠٩٤ م ، بعد أن أعقب من زوجه أورাকা ولدا هو ألفونسو ، وهو الذى غدا فيما بعد القيصر ألفونسو ريمونديس ، خلفه فى حكم ولاية البرتغال قريبة الكونت هنرى ، وكانت

ولاية البرتغال تشمل يومئذ المنطقة الواقعة بين نهر منيو (نهر منديجو) ، و نهر التاجه حتى أسفل مصبه ، وبها عدة مدن هامة هي براجا وبورتو وقلمرية وبازو ولاميجو (مليقة) و عدة بلاد و ضياع أخرى ، و منح الكونت هنرى الذى لقب عندئذ بالدوق ، حكم هذه الولاية لا باعتبارها إمارة مستقلة ، ولكن على قاعدة الإقطاع باعتبارها تابعة لمملكة قشتالة ، تؤدى الجزية إليها و تشاركها فى حروبها ضد المسلمين بفرقة من ثلاثمائة فارس و يتوارثها عقبه^(١) . بيد أن تريسا زوجة هنرى كانت تلقب بالملكة لأرومتها الملكية . و جعلت مدينة قلمرية حاضرة الإمارة الجديدة ، و من ثم فإن الزواية العربية قد جرت على تسمية أمير البرتغال ، أو ملكها فيما بعد « بصاحب قلمرية » . وبالرغم مما بذله الكونت هنرى للمحافظة على حدود ولايته ، فإن المسلمين استطاعوا غير بعيد أن يستردوا أشبونة و شترين . و لما توفى ألفونسو السادس فى سنة ١١٠٩ م ، جاءت وصيته الخاصة بوراثة العرش مؤيدة ، لحقوق هنرى الوراثية فى حكم ولاية البرتغال ، ولكن فى ظل قشتالة . بيد أنه كان فى الواقع يحكم ولايته مستقلا ، وكانت تبعيته لقشتالة مسألة اسمية فقط .

ولما نشبت الحرب الأهلية بين الملك ألفونسو المحارب و زوجته الملكة أورাকা ، وقف الكونت هنرى فى البداية إلى بجانب ملك أراجون فى موقعة كامبودى سنيا ، إذ كان يخشى على استقلاله من الملكة أورাকা ، بيد أنه لما تطورت الحوادث و هزمت أورাকা و حوصرت فى أسترقة ، تحول هنرى إلى مهادنتها ، ثم حارب إلى جانبها و عبر إلى فرنسا ، ليستقدم الحشود لمعاونتها ، و ذلك مقابل حصول البرتغال على مدينة توى و الأراضى الواقعة على ضفة منيو اليمنى . ثم توفى الكونت هنرى عقب ذلك فى مايو سنة ١١١٢ م ، ولم يترك سوى طفل فى الثالثة من عمره يدعى ألفونسو ، فتولت أمه الملكة تريسا الحكم ، بطريق الوصاية عليه . وكانت دونيا تريسا ، فضلا عن جمالها ، امرأة وافرة الذكاء و العزم و الإقدام ، وكانت تجيش بأطماع كثيرة فى سبيل تدعيم سلطانها و استقلالها ، و توسيع رقعة إمارتها . و قد رأينا فيما تقدم كيف عملت خلال الحرب الأهلية فى قشتالة على انتهاز الفرص ، و تحالفت مع الكونت دى ترافا و الثوار الحليقيين غير مرة ، ضد أختها أورাকা ، ثم حاربت إلى جانب أورাকা و الأسقف خلمريث ، و كيف استطاعت

R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola V.I. p. 357 (١)

في النهاية أن تحافظ على ما كسبه زوجها من أراضي جليقية ، وان تكسب من أختها أراضي جديدة في أحواز سمورة وطورو ثمناً لتخليها عن تحالفها مع الثوار (سنة ١١١٩) ، ورأينا كيف احتذت حذو أختها أورাকা في التورط في مسلكتها الأخلاقية المشين ، وتوثيق علاقتها الغرامية بالكونت فرناندو بيرث ، وتركه يتصرف في شئون الإمارة بصورة سخط لها الشعب البرتغالي ، وأخيراً كيف انتهى ألفونسو ريمونديس إلى إخضاعها ، وإلى أرغام البرتغال أن تعترف باسم أميرها الصبي ألفونسو هنريكيز أنها مستقلة بحمايته .

وفي خلال ذلك استطاعت تريسا أيضاً أن تصمد لغزوات المسلمين لأراضيها . وكانت أهم غزوة واجهتها من المرابطين ، هي زحف أمير المسلمين علي بن يوسف على قلمرية عاصمة الإمارة ومحاصرتها لها ، ودخوله أياها ، وذلك في يونيو سنة ١١١٧ م (سنة ٥١١ هـ) . بيد أن المرابطين لم يحفظوا بها بل غادروها على الأثر ، وقفلوا إلى إشبيلية ، وذلك حسبما فصلناه من قبل في موضعه .

ولم تمض على ذلك أعوام قلائل حتى سئم الشعب حكم هذه الأميرة المستهترية ، وأخذ يتطلع إلى أميره الفتي ألفونسو هنريكيز ، وكان الأمير قد بلغ الرابعة عشرة من عمره (سنة ١١٢٤ م) ، واتشح بثوب الفروسة وفقاً لتقاليد العصر ، وأجازه لذلك الملك ألفونسو ريمونديس . وكان الشعب يحب أميره الفتي بحبه ، لما كان يتصف به من الخلال الحميدة ، من الفروسة والتقوى ، ورقة الشمائل ، وتوقير رجال الدين ، ويرى أن الوقت قد حان لتقدمه وتوليته شئون الحكم . وأخيراً دبر الأشراف والأخبار مؤامرة لتحقيق هذه الأمنية ، والتف حول الأمير جمع كبير من الأنصار ، وشهر الحرب ضد أمه المستبدة ، فلقيته في أنصارها في سنت مايميتي على مقربة من جويمرانس ، فهزمت الأم ، وأسرت وألقيت إلى السجن لتكفر عن زلاتها ، وماضيها الأثيم ، ونفي خليلها أوزوجها الكونت فرناندو بيرث من المملكة ونفي معه كثير من أنصاره . وتولى الأمير الفتي ألفونسو هنريكيز حكم إمارة البرتغال ، وكان ذلك في سنة ١١٢٨ م ، وقد بلغ الأمير الثامنة عشرة من عمره .

وأعلن ألفونسو هنريكيز أنه يتولى حكم إمارته مستقلاً دون تبعية لأحد . فثار لذلك ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة ، إذ كان يعتبر البرتغال إقليماً من أقاليم مملكته مشمولاً بحمايته . وزحف بقواته على البرتغال بحجة العمل على إنقاذ

نخالته تريسا ، وإرغام الأمير الخارج عليه ، على التزام الطاعة ، ونشبت بين البرتغال وقشتالة حرب طويلة الأمد ، وكان مسرحها بالأخص جنوبي جليقية ، ولم يكن في وسع ملك قشتالة أن يتابع هذه الحرب بنفسه ، لما كان يشغله من غارات المسلمين ومدافعة ملك أراجون . ولما توج ألفونسو ريمونديس قيصرأ لإسبانيا في سنة ١١٣٥م ، رفضت البرتغال أن تسلم بهذا الادعاء ، وشاظرها في ذلك غرسيه راميريس ملك ناغارا ، ووقع عندئذ نوع من التحالف بين ناغارا ، والبرتغال . وبينما سار القيصر لمحاربة ناغارا ، زحف البرتغاليون على جليقية ، واستولوا على مدينة توي وعدة مواضع أخرى ، فهض أشراف جليقية لمقاومة البرتغاليين ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وكان الظفر فيها لألفونسو هنريكز ، ولكنه اضطر أن يترك الميدان وقتاً لكي يرد غزوة قام بها المرابطون على مقربة من قلمرية ، ولكن المرابطين كانوا قد انسحبوا خلال ذلك عائدين إلى أراضيهم ، فلما عاد ألفونسو هنريكز ثانية لاستئناف القتال في جليقية ، كان خصومه قد جمعوا فلولهم ، واستكملوا أهبتهم ، فلما اشتبك الفريقان كرة أخرى ، دارت الدائرة في هذه المرة على البرتغاليين ، فهزموا هزيمة شديدة وجرح أميرهم . ولم يمض سوى قليل على ذلك حتى فرغ القيصر ألفونسو ريمونديس من حرب ناغارا ، وعاد بنفسه لمحاربة البرتغال ، وتوالى الاشتباك بين الفريقين . وكان ألفونسو هنريكز يحرص على ألا يلتقي مع القشتاليين في معركة حاسمة ، ثم رأى في النهاية نزولاً على نصيح قاداته أن يتقدم بطلب الصلح إلى القيصر ، وتوسط مطران براجا في الأمر ، وانتهت المفاوضات إلى عقد هدنة بين الفريقين ، واتفق على تبادل الأسرى من الجانبين ، وإعادة الحدود بين البلدين ، كما كانت في آخر عام من حكم الملكة تريسا ، ولم يتفق على شيء بالنسبة للمسألة الجوهرية التي كانت سبب الحرب ، وهي مسألة تبعية البرتغال لمملكة قشتالة . وعلى أي حال فقد عقد السلم بين الفريقين ، واجتمع القيصر وألفونسو هنريكز في خيمة واحدة ، وتصافحا ، وتصافيا ، ثم عاد كل منهما إلى أراضيهم (سنة ١١٣٨ م) .

تحدثنا الرواية النصرانية بعد ذلك عن غزوة عظيمة قام بها ألفونسو هنريكز في الأراضي الإسلامية في العام التالي ، أعنى في سنة ١١٣٩ م (٥٣٣ هـ) ، وأحرز فيها نصراً باهراً على الجيش الإسلامي الضخم الذي حشده ولاة بطليوس ويابرة وباجة وإشبيلية ، وذلك في مكان يسمى « أوريك » على ضفة نهر التاجه ،

وهو حادث لم نجد له ذكراً في الروايات العربية . ثم تقول لنا إن ألفونسو هنريكيز اعترى عقب هذا النصر أن يتلقب بألقاب الملوكية ، وأن القيصر ألفونسو ريموندس بعث إلى البابا محتج على اتخاذ أمير البرتغال لمثل هذه الخطوة . على أن ألفونسو هنريكيز لم يعبأ باعتراض القيصر ، أو تدخل البابوية ، في الأمر ، واعتزم أن يجعل من لقبه الملوكي مسألة قومية بينه وبين شعبه ، فاستدعى في مدينة لاميجو (١) مجلساً قومياً (كورتيس) مثل فيه رجال الدين والأشراف ونواب المدن (سنة ١١٤٣ م) ووافق هذا المجلس على أن يتخذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك ، وأن يكون الملك متوارثاً في أعقابه الذكور ، وعلى أثر ذلك وضع أسقف براجا على رأس ألفونسو تاجاً من الذهب المرصع بالجوهر . وصادق الملك الحديد في هذا المجلس على القوانين التي قدمها إليه ممثلو الطبقات ، وفي مقدمتها قانون وراثة العرش ، وهو يبين أحكام هذه الوراثة وتسلسلها بين الأبناء والإخوة ، وحالة ما إذا توفي الملك دون عقب ، وترك إبنة ، فإنها تتولى الملك من بعده . وقانون الأشراف ، وهو ينص على من يمكن نظمهم في طبقة الأشراف ، ممن يجرى في عروقهم الدم الملكي ، وكل من وفق إلى إنقاذ الملك أو أحد أقاربه ، أو إنقاذ العلم الوطني في ميدان الحرب ، وكل من استطاع أن يقتل في الحرب أميراً من الأعداء ، أو يغتنيماً علماً من أعلامهم .

والمسألة الثالثة هي مسألة تنظيم العدل ، وقد نص القانون الذي وضع لذلك على أن يدين جميع البرتغاليين بالطاعة للملك ، باعتباره أكبر قاض في البلاد . وأن يعاقب على السرقة الأولى والثانية بالتعزير ، ويعاقب على السرقات الكبرى بالكي بالنار أو الموت . وتعاقب المرأة المتزوجة إذا زنت هي وعشيقها بالحرق ، ويعاقب القاتل بالإعدام مهما كان شخصه ، وكذلك يعاقب بالإعدام كل من اغتصب بكرًا شريفة ، فإذا لم تكن المحبوبة عليها من الأشراف ، وجب على المعتدى أن يتزوج بضحيتها .

ويترك للقاضي تقدير العقوبة على جرائم الضرب والجرح . وكل من اعتدى على أحد من رجال القضاء بالسب أو الضرب ، عوقب بالكي بالنار أو بغرامة قدرها خمسون قطعة من الذهب ، ويلزم بالتعويض المناسب .

(١) تقع لاميجو Lamigo في شمال البرتغال جنوبي نهر دويره ، وتعرف في الرواية العربية « بمليقة » .

وهكذا وضعت في مجلس لاميجو أسس مملكة البرتغال الجديدة ، التي تحولت من كونتية أو إمارة صغيرة قامت في ظروف متواضعة لتكون ولاية تابعة إلى مملكة قوية ، تأخذ منذ الآن مكانها في تاريخ اسبانيا النصرانية ، وتقوم منذ الآن فصاعداً بنصيب بارز من النضال المرير المستمر بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة ، وتدفع رقعتها تباعاً على حساب القواعد والأراضي الإسلامية في ولاية الغرب الأندلسية .

وعنى الملك ألفونسو هنريكيز كذلك بأمر جماعات الفرسان الدينية ، إذ شعر بأهميتها ، وخطرها في محاربة المسلمين ، وكانت طلائع فرسان الداوية ، وفرسان القديس يوحنا قد ظهرت قبل ذلك ، واشتركت في كثير من المعارك التي تنشب بين البرتغاليين والمسلمين . وفي سنة ١١٥٨ م ، أنشأ ألفونسو هنريكيز جماعة دينية جديدة سميت بالجماعة المحاربة الجديدة Nova Militia ، ووضعت لها نظم كنظم فرسان قلعة رباح ، وشعارها الجهاد من أجل الدين المسيحي ، وألا يدخروا وسعاً في مقاتلة المسلمين ، والأيتزوجوا ، وعين دون بيدرو أخو الملك ، أول أستاذ أعظم للجماعة . ولما نجحت هذه الجماعة في سنة ١١٦٦ ، في الاستيلاء على يا برة من أيدي المسلمين بقيادة الفارس المغامر جيرالدو الباسل (سمبافور) ، سموا « بفرسان يابرة » . ثم سموا فيما بعد « بفرسان آفيس » وذلك حينما منحهم الملك ألفونسو الثاني القلعة المسماة بهذا الاسم في سنة ١٢١١ م .

ويعرف الملك ألفونسو هنريكيز ، منشئ مملكة البرتغال ، في الرواية العربية بصاحب قلمرية أو قلنبرية^(١) ، إذ كانت قلمرية في البداية عاصمة البرتغال ، ويعرف كذلك بابن الرنق وابن الرنك أو ابن الريق^(٢) أعني ابن هنري أو إنريكي (وهنريكيز معناها ابن هنري ، وهو هنري البرجونى والد ألفونسو) .

(١) ابن الأبار في الحلة السراء من ٢٠٠ .

(٢) تختلف الروايات العربية في تسمية ألفونسو هنريكيز . ويجمع معظمها على تسميته بابن الرنك (راجع كتاب أخبار المهدي بن تومرت ص ١٢٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والبيان المغرب « القسم الثالث » ص ٧٨) ويسميه ابن صاحب الصلاة كذلك بابن الرنك أو أدفونش الرنك (مخطوط المن بالإمامة لوحة ١١٧) وتسميه بعض الروايات الأخرى « بابن الريق » (راجع الحلة السراء ص ٢٠٠ ، ورسائل موحدية - الرسالة الرابعة والثلاثون - ص ٢٢٣ و ٢٢٥ و ٢٢٧) .

وثائق مرابطة وموحدة

رسالة الإمام الغزالي

إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين

(منقولة عن المخطوط رقم ١٢٧٥ ك (الكتانية) المحفوظ بخرانة الرباط وعنوانه « مجموع أوله كتاب الأنساب » لوحة ١٣٠ - ١٣٣) .

الأمير جامع كلمة المسلمين ، وناصر الدين ، أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ، الداعي لأيامه بالخير ، محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيد المرسلين وسائر النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليوم من سلطان عادل ، خير من عبادة سبعين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من والى عشرة إلا ويوثى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه ، أوبقه جوره أو طلقه عدله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، وعدل الإمام العادل أولهم ، ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الإسلام ، وناصر الدين ، ظهير أمير المؤمنين ، من المستظلين بظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله ، فإنه منصب لا ينال إلا بالعدل في السلطنة ، وقد آتاه الله السلطان ، وزينه بالعدل والإحسان . ولقد استطارت في الآفاق محامد سيره ، ومحاسن أخلاقه على الإجمال ، حتى ورد الشيخ الفقيه الوجيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربي الأندلسي ، حرس الله توفيقه ، فأورد من شرح ذلك وتفصيله ، ما عطر به أرجاء العراق ، فإنه لما وصل إلى مدينة السلام ، وحضرة الخلافة ، لم يزل يطنب في ذكر ما كان عليه المسلمون في جزيرة الأندلس من الذل والصغار ، والحرب والاستصغار ، بسبب استيلاء أهل الشرك ، وامتداد أيديهم إلى أهل الإسلام بالسبي والقتل والنهب ، وتطرقهم إلى اهتضام أهل الإسلام ، بما حدث بينهم من تفرق الكلمة ، واختلاف آراء الثوار المحاولين للاستبداد بالإمارة ، وتقاتلهم على ذلك . حتى اختطف من بينهم حماة الرجال ، بطول القتال والمجاربة والمنافسة ، وإفضاء الأمر بهم إلى الاستنجد بالنصارى حرصاً على الانتقام ، إلى أن أوطنوهم

بيضة الإسلام ، وكشفوا إليهم الأسرار ، حتى أشرفوا على التهايم والأغوار ، فرتبوا عليهم الجزا ، وجزوهم بشر الجزا . ، ولما استنفدوا من عندهم الأموال ، أخذوا في نهب المناهل ، وتحصيل المعامل ، واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، ظهر أمير المؤمنين ، ابن عم سيد المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، واستصرخه معهم بعض الثوار المذكورين ... عن مداراة المشركين ، فلما دعوتهم ، وأسرع نصرتهم ، وأجاز البحر بنفسه ورجاله وماله ، وجاهد بالله حق جهاده ، ومنحه الله تعالى استيصال شأفة المشركين ، والإفراج عن حوزة المسلمين ، جزاه الله تعالى أفضل جزاء المحسنين ، وأمدده بالنصر والتمكين ، وذكر متابعتة العدو إلى جهة أخرى بعد ثلاثة أعوام من هذه الغزوة المشهورة ، وقتل كل من ظهر من النصارى بالجزيرة المذكورة ، من الخارجين لإمداد ملوكها على عادتهم ، أو من سراياهم في أي جهة يمموا من جهات المسلمين ، وقذف الله الرعب في قلوب المشركين ، حتى أغناه ذلك عن جر العساكر والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وذكر أن أوليك الثوار ، لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين ، وغلبته لحزب المشركين ، وسألهم رفع المظالم عن المسلمين ، التي كانت مرتبة عليهم ، بجزية المشركين ، وإمدادهم بها لهم ، مدارات لبقاء إمرتهم ، عادوا إلى ممالأت المشركين ، وألقوا إليهم القول في جهة الأمير ، وجرعوههم على لقاءه ، وصح ذلك عنده وعند المسلمين . فسأله المسلمون عند ذلك إنزال هؤلاء الثوار عن البلاد ، وتداركها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسرى الفساد ، ففعل ذلك . ولما تملكها ، رفع المظالم ، وأظهر فيها من الدين المعالم ، وبدد المفسدين ، واستبدل بهم الصالحين ، ورتب الجهاد ، وقطع مراد الفساد ، ثم أضاف إلى ذكر ذلك ، ماشاهده من تلك السجية الكريمة في إكرام أهل العلم ، وتوقيره لهم ، وتنزيهه باسمهم ، واتباعه لما يفتون إليه من أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه ، وحمله عماله على السمع والطاعة لهم ، وتنزيه منابر المملكة الحديدية والقديمة بالخطبة لأمر المؤمنين ، أعز الله أنصاره ، وإلزامه للمسلمين البيعة ، وكانوا من قبل منكفين عن البيعة ، والندا بشعار الخليفة ، إلى غير ذلك مما شرحه من عجائب سيرته ، ومحاسن أحواله ، ومكارم أخلاقه . وكان منصبه في غزارة العلم ، وورصانة العقل ، ومتانة الدين ، يقتضى التصديق له في روايته ، والقبول لكل ما يورده من صدق كلمته ،

وأن ما أفاضه من هذه الفضائل إلى حضرة الخلافة ، أعز الله أنصارها ، فوقع ذلك موقع الاحقاد ، تم ذكر مع ذلك توقف طائفة من الثوار الباقين في شرق الأندلس ، عن مشايعة الأمير ناصر الدين ، ومتابعته ، وأنهم حالفوا النصارى ، واستنجدوا بهم فأعلن المسلمون بالدعاء عليهم ، والتبري منهم ، ليتوب عليهم أو ليقطع شأفهم . وكتب هذا الشيخ سوآلا على سبيل الاستفتاء ، وافيته فيه بما اقتضاه الحق ، وأوجه الدين ، وأعجلنى المسير إلى سفر الحجاز ، وتركته مشمراً عن ساق الحد ، فى طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يتضمن شكر صنيع الأمير ناصر الدين فى حمايته لثغور المسلمين ، ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه ، ليكون رئيسهم ، ورؤسهم تحت طاعة ، وأن من خالف أمره ، فقد خالف أمر أمير المؤمنين ، ابن سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين . ولم يبالغ أحد فى بث مناقب قوم ، مبالغة الشيخ الفقيه أبى محمد فى بث مناقب الأمير وأشياعه المرابطين . ولقد شاع دعاؤه فى المشاهد الكريمة بمكة حرسها الله ، لحضرة الأمير وجماعة المرابطين ، ولم يقنعه ما فعله بنفسه إلى أن كلف جميع من رجا بركة دعائهم ، الدعاء لهم فى تلك المشاهد الكريمة والمناسك العظيمة ، وأعلن بالدعاء لأمر بلده ، الأمير الأجل أبى محمد سير بن أبى بكر ، وفقه الله تعالى ، وذكر من فضله ، وحسن سيرته ، وتلطفه بالمسلمين ، ورفع جميع النوايب عنهم ، ما جهد به إلى النفوس . ولقد دُعى الشيخ الفقيه إلى المقام ببغداد على البر والكرامة ، والاتصال بأسباب ، يتشرف بها من حضرة الخلافة ، فأبى إلا الرجوع إلى ذلك الثغر يلازمه للجهاد مع الأمراء وفقههم الله تعالى ، ولو أقام لفاز بالحظ الأوفى من التوقير والإكرام ، وما أجدر مثله بأن يوفى حظه من الاحترام ، وولده الشيخ الإمام أبو بكر قد أحرز من العلم فى وقت تردده إلى ما لم يحرزه غيره مع طول الأمد وذلك لما خص به من ... الدهن ، وذكاء الحس ، واتقاد القريحة ، وما يخرج من العراق ، إلا وهو مستقل بنصيبه ، حاز قصب السبق بين أقرانه . ومثل هذا الوالد والولد خص بالإكرام فى الوطن ، وقد تميزا بمزيد التوفيق من الأعيان فى الغربية ، والله يحفظ من حفظهما ، ويرعا من رعاهما ، فرعاية أمثالهما ، من آداب الدين المعينة على أمير المسلمين ، وقد قال المحسنون ، فليستوص بمن ظفر بهم منهم خيراً ، وكم دخل قبلهما العراق ، ويدخل بعدهما من تلك البلاد [الناثية] (١)

وما يذكر محاسنها ، ولا يرفع مساويها . وقد انتهى الشيخ الفقيه من ذلك إلى ما لا يمكن أن يلحق فيه ثناؤه ، فضلا عن أن يزداد عليه ، والله تعالى يعمر بهما أوطانهما ، ويصلح شأنهما ، ويوفق الأمير ناصر المسلمين ، ليتوسل إلى الله تعالى في القيامة بإكرام أهل العلم ، فهي أعظم وسيلة عند رب العالمين ، ونسأل الله أن يخلد ملك الأمير ويؤيده ، تخليداً لا ينقطع ، أبد الدهر ، ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء ، وتستنكر لملك العباد التأييد والبقاء . وليس كذلك . فإن ملك الدنيا ، إذا تزين بالعدل ، فهو شبكة الآخرة ، فإن السلطان العادل إذا انتقل من الدنيا ، انتقل من سرير إلى سرير أعظم منه ، ومن ملك إلى ملك أجل وأرفع منه . وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً . ومهمي وفي العدل في الرعية ، والنصفة في القضية ، فقد خلد ملكه ، وأيد سلطانه ، وقد وفق له بحمد الله ومنه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله أجمعين .

٢

رسالة

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب
إلى أمير المسلمين رحمه الله في فتح أقليمش أعادها الله بقدرته

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيري المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ١٥٤ - ٥٨ ب)

أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين ، عماد الأنام وعتاد الإسلام ، السعيد الأيام ، الحميد المقام ، كبيرى بالقدر ، وظهيرى على الدهر ، الذى أجله بحقه ، وأقر له بسبقه ، وأدام خلوده مؤيد الإرادة ، مؤيد السعادة ، مجدد النمو والزيادة . والحمد لله الحبار القهار ، الذى شد الأزر ، وأمد النصر ، وأعطى الفلج عن قسر ، ففلق عنه يد الماثل ، وفرق بين الحق والباطل ، والحمد لله الذى أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الإسلام ، وغازب به الكفار ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدبار . والله تعالى يشفع سعوده ، ويضمن مزيده ، وينصر جنوده بمنه .

ولما أن وضعنى أمير المسلمين ، أدام الله نصره ، حيث شاء من آلة التشرىف والعز المنىف ، وألحقنى من النعماء سربالها وأمنجنى أذيالها ، وصرف

إلى من عدده وبلده ما أولانى نعمه ، ووالانى كرمه ، حفظت تلك الحرمة ،
وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت فى الاجتهاد فى الجهاد عالقاً بسببه ،
أخذاً بمذهبه ، وهيات من ماله عندى جيشه الموضوع بيدي ، وأجبت داعى الله
الله بأعظم نية على أكرم طية ، لغزمة ييميناه رأسها ، وعلى تقواه أساسها وأصلها .
وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله فى العشر الأواخر من شهر رمضان
المعظم بجيش تصم صوامله ، وتطم كوامله ، راياته خافقة ، وعزماته
صادقة ، ونراته على ألسنة السعد ناطقة . ومررنا من طاعة أمير المسلمين
وناصر الدين ، على جهات سمعت مناديننا ، وتبعت هاديننا ، وانقادت وراءنا
أعداد وأمداد ، بروزاً من كهون ، ونحركوا عن سكون ، وانخنا بثغر بياسة ،
وقد توافد الجمع ، وملىء البصر والسمع . وأخذت فى الرأى أخمره ، والعزم
أضمره ، والذيل أشمره ، وجددت الاستخارة لله تعالى والاستجارة به ،
وابتهلت إليه داعياً ضارعاً ، وعولت فى جميع أمورى على حكمه خاضعاً متواضعاً .
ولحقنا بطرف بلاد العدو أعادها الله ، فوطئناها من هنالك ، وقد بان عنوان
الأهبة ، والنأم بنيان الرتبة ، وسرنا بجيش يفيض فيضا ، على أرض تغيض غيضاً ،
ولسيول الخيل إغراق ، وليروق البواتر إشراق ، وقد نطقت ألسنة الأعنة
بقدم قدم ، وأشرقت كواكب الأسنه فى عمام القتام ، وسدت الهموات كل
نهج وسبيل ، واستقلت الرايات عن قبيل فقيل ، وأفضت بنا الخيرة إلى المدينة
الحصينة «أقليش» قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد ، والسور
المشيد ، فبدر السابق وشفع اللاحق . وغدوننا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة
نخلت من شوال ، فدرنا بها دور الحلقة بنقطها ، واكتنفناها اكتناف السبحة
بسببها ، وبهت القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وثاروا وحاموا ، حين
راموا ، وجئنا بكل ضرب من الحرب ، نحسف عاليها ، وننسف هاويها ،
ونلناها بالرماح ، ونهزها هز الغصن فى أيدي الرياح ، حتى فض الختام ، وعض
منهم الإبهام ، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر ، ونفخ فى صورهم ، ودارت
دائرة السوء بدورهم ، ومحققهم السيوف محق الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا
هبا ، وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم
فجأتنا أخدة ، ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، فمخروا إلى الأذقان ، وسيقوا إلى
الموت والإذعان ، فاكدنا نزل حتى كدنا ذلك المنزل ، وما أنخنا حتى رضخنا ،

ولا وصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا .
ولما استحر فيهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ،
وغص ذلك الملتحم ، قصر الوقت المبغت ، وشغل الأخيد عن المفلت ، وألهمي
الكثير عن من قل ، ونام اللحم الغفير عن الفل ، وعادت بقاياهم بقصبة المدينة
فولجوها ، كما يلج العصفور ، ويقوم العثور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا
الحجاب ، ونحن نصل الحد ، ونوحر لأفل غرب ، ولاملت حرب ، نجتث
الجرائم ، ونحتز الغلاصم ، ونخرب الديار وبنيانها ، ونهدم البيع وصلبانها ،
ونتأخفوا بهدايا السبابا ، ونتكاشفوا عن بقايا الحبايا ، ونصرحوا بنيانا صدعته
الحتوف ، وغلبته السيوف فلأطلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على
الشرك الإيمان ، وبدل الناقوس بالأذان ، وزحزحت الهياكل عن مرضعها ،
وطرحت النواقيس عن بيعها ، ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائدين بنا
مستسلمين لنا ، فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخلة وسدتها ، وفروا
من الحملة إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدتهم ، فانجابت كربتهم ،
وعادت بعد البوار ومجاوبة الكفار بشر دار ملتهم ، وأنار لهم الإسلام على منار
الإيمان المجدد ، واشتهر فيهم التوحيد اشتهار الحسام المجرد ، وكشف الدين عن
مضمرة ، وخطب الحق المبين على منبره ، وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام
النهار ، وحن من الشمس الأصفار ، فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغيضت تلك
الدماء الهوامر ، وغداً الحميس في الحميس ، مبنياً على ذلك التأسيس ، يجر أذيال
الظفر في العدد الأوفر ، يشفع الأوالي بالتوالي ، ويشترى العوالي بالعوالي ،
فأصبحنا في عز وأنس ، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس ،
وتضامت تلك العصبية إلى تلك القصبية ، والقوم في السجن والحصر ،
والحصن كالواحد في العالم ، والأصبع في الخاتم ، والمحصور مأسور ، وصاحب
الحائط مقهور ، ولم نزل نوسعهم قتالا ، ونوسعهم ضراً ونكالا مسافة اليوم ،
إلى أن جزر النهار مده ، وبت الليل جنده ، فعدنا إلى محلتنا ، وقد أمل الكال
أينه ، وغلبت الساهر عينه ، وكنت لم آل احتراسا للمحلة بطلائع تحرس جهاتها ،
وتدراً آفاتها ، وفي القدر ما يسبق النذر ، ويفوت الحذر ، لاكن كفاية الله خير
من توقينا . وكان الطاغية زاده الله ذلا ، قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ،
وأبعد في الاستصراخ مضاره ، وعبأ جيشاً قد أسرا إلى ذمر ، وانطوى على

غمر ، فأقدم وصمّم ، وبئس ما تيمم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية
أذفونش ، وشيخهم وزعيم فرسانهم غرسية أذفونش ، وصاحب شوكتهم
أبرهانس ، والقمط بقبدره وقواد بلاد طليطلة وصاحب «قلعة النسور» و«قلعة
عبد السلام» ، وكل قاص ودان ، وعاجل وووان ، أخزى الله جميعهم ، وطلّ
نجيعهم ، ولا أقام صريعهم .

وهذا دعاء لو سكت كفيته لأتى سألت الله ربي وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة ، ويظهرون صلفاً تحت الغرة ،
وتقدموا فتندموا ، ودنوا فهووا ، ووصلوا فحصلوا ، وأرسل الله تعالى من جنده
فتى كانوا قد سبوه صغيراً واقتنوه أسيراً ، والله تعالى فيه خبأة أعدها من عنده ،
وبعثها من جنده ، ونزع الفتى إلينا من معسكرهم منبثاً بهم دالا عليهم ، وكاشفاً
بهم على النبا العظيم ، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم ، فعند ذلك ثارت ثائرتنا ،
ودارت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد ، وأشار البنان والساعد ،
وتضام القريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح قد بدأ ، والدياجير ممدودة
السرادق ، مجموعة الفيالق ، ولا جار إلا الغاسق ، ولا مار إلا السما والطارق ،
وكنت قد استدنيت القائدين المحجرين ، ذوى النصيحة والآراء الصحيحة ، أبا عبد الله
محمد بن عائشة ، وأبا محمد عبد الله بن فاطمة وليسى أعزهما الله ، فجالا في مضمار
وساع واضطلاع ، بذرع وذراع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين ، ونخضعنا
إلى حكمه مستسلمين ، فعند ذلك حل يده المحبتي ، وقيل يا خيل الله اركبي ،
فعدت الآراء بالرايات ، وحكمت النهى فى النهايات ، والأسنة تجول فى آمادها ،
والنصول تصول فى أغمادها . وثرنا كما ثار الشهم بفرصته ، وطار السهم لفوضته ،
وأمرت رجالا بلزوم المحلة ، فسدوا فرج أبوابها ، ولاذوا بأوتادها وأسبابها ،
فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قد شرعوا الأسنة من
أطرافها ، وأجالوا البواتر فى أكفافها ، وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأنحية .
وعبأنا الحيش يمناه ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه ، ونهضنا بجملتنا
من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لامة ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا
إلى الله نقتنى سبيله ، وتبتغى دليله ، فما رفع الفجر من مجابه ، ولا كشر الصبح
عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أفضية المسلمين
ماضية الأحكام ، وقبض الليل خمسه ، وفضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ،

ولشباب العراك ريعان ، ولأنفاق الإعلام ضراب أو طعان . وعند ذلك نجم
« العجم » في سواد الليل وإزباد السيل ، يهبطون إلى داعيهم ، ويهرعون إلى
ناعيهم ، في دروع كالبواري ، ورماح كالصواري ، كأنما شجروا بالحديد ،
وسجنوا في الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ، ويركبون والحتف يزحلهم ،
يتلمظون تلمظ الحيات ، قد تحالفوا أن لا يتخالفوا ، وتبايعوا أن يتشايعوا ،
ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد « أبو عبد الله محمد بن أبي زنغى » مع
جماعة ، فصددهم العدو بصدور غيرة وقلوب أشرة ، فأنحوا بكلكل ورموا
بجندل ، وشدوا فما ردوا ، وصادروا فما صدوا ، وتقهقر القائد « أبو عبد الله »
غير مول ، وتراجع غير محل إلى أن اشتد منا بطود ، وزحم من جيشنا بعود . فترأى
الجمعان ، وتداننا العسكران ، وأمسكنا ولا نجين ، ووقفنا والأناة يمن ، فعند
ذلك ثار النصر فد يمناه ، وأناط الصبر فأشرق مجياه ، ونزلت السكينة ،
وأخلصت القلوب المستكينة ، واهتزت الفيالق مأتجة ، وهدرت الشقائق هاتجة ،
وجحظت العيون غضباً ، وطلبت البواتر سبياً ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت
السيوف عن الأغناد ، وتصاهلت الخيول ، وتصاولت القيول ، فعند ذلك تواقف
القوم كوقفة العير ، بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب ، فطعن فارساً
منهم فأذراه من مركبه ، ورماه بين يدي موكبه ، فانهج ، ما أرتج ، وانفتح
المبهم ، وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم
الليل ، واعتنقت الفرسان ، واندقت الخرصان ، ودجا ليل القتام ، وضاق مجال
الجيش اللهم ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح بالأشباح ، ودارت رحي
الحرب تغر بنكاها ، وثار تائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ، فلثغر الصدور
ابتراد ، ولحزم القلوب انتهاء ، فما وضع النهار ، ولا مسخ الغبار ، حتى خضعت
منهم الرقاب ، وقبلت رؤوسهم التراب ، واتصل الهلك بالشرك ، وعادت الضلالة
إلى الملك ، وقلم ظافر الكفر ، وطالت إيمان الإيمان ، وفر الصليب سلبياً ،
وعجم عود الإسلام فكان طيباً ، وغمرهم الحيف فهمدوا ، واطفأهم الحين
فخمدوا ، ومات جلهم بل كلهم ، وما نجا إلا أقلهم ، وحنوا فبانوا ،
وقيل كانوا ، وكشفت الهبوات ، وأنجلت تلك الهنات ، عن رسوم جسموم
قد قصفتها البواتر ، ووطئتها الحوافر ، خاضعة الحدود ، عائرة الحدود ، وأخذت
ساقتنا في الطلب ، وضم السلب إلى السلب . وملئت الأيدي بنيل وافي الكيل ،

خيلاً وبغالاً وسلاحاً ومالاً ، ودروعاً ، أكلتهم حملها ، وأثقلهم حملها ، فساعت
ملبساً وصارت محبساً ، فطرحوها كأنهم منحوها ، وألقوها كأنهم أعطوها ، احتزناها
نهباً ، وأخذناها كأن لم تكن غصباً ، لقطعة ولانكر ، وعطية ولغيرهم شكر ، ثم
أمرت بجمع الرؤوس ، فاحتزت الدانية وزهد في جمع النائية ، فكان مبلغها نيفاً على
ثلاثة آلاف منهم غرسية أرذونش والقومط وقواد بلاد طليطلة ، وأكابر منهم لم
يكمل الآن البحث عنهم ، فكانت كالهضب الحسيم ، بل الطود العظيم ، وأذن عليها
المؤذنون ، يوحدون الله ويكبرون ، فلما جاء نصر الله ، ووهب لنا فتح الله ، شكرنا
مولى النعم ومُسديها ، ومُعيد المن ومُهديها ، وصدرت غانماً ، وأبت سالماً ، وبقي
القائدان محاصرين لحصن أقليش آخذين بمخنتهم ، مستولين على رمقهم .
فخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ، ووصل حوره ، معلماً بالأمر ،
مهنيماً بالنصر ، لنحمد الله عز وجل ، على ما وهب ، ونشكره على ما سنى وسبب ،
والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالحديد ، ويمن بالظفر والتأييد ، فهو ولي
الامتنان ، والملي الفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبود سواه .

٣

رسالة

كتب بها قاضي سرقسطة والجمهور فيها
إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين
حين حاصرها ابن رزمير واستغلبها أعادها الله

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيري المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ٥٥ - ٦١ ب) .

من ملتزم طاعة سلطانه ، ومستنجديه على أعداء الله ، ثابت بن عبد الله ،
وجماعة سرقسطة من الحمل فيها من عباد الله .

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرفيع القدر والمحل ، لحرم الإسلام يمنعه ،
ومن كرب عظيم على المسلمين ، يزيحه عنهم ويدفعه .

كتابنا أيديك الله بتقواه ، ووفقك لا شراً دارحسناه ، بمجاهدة عداه ،
يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان ، عن حال قد عظم بلاؤها ،
وادهمت ضراؤها ، فنحن في كرب عظيم ، وجهد أليم ، قد حل العزا والخطب ،

وأظننا الهلاك والعطب ، فياغوثاه ، ثم ياغوثاه إلى الله ، دعوة من دعاه ، وأمله
لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائد ، الحميل الكرم والعوايد ،
ويا لله ، وبالإسلام ، لقد انتهك حماه ، وفضت عراه ، وبلغ المأمول من بيضته
عداه ، ويا حسرتا على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك ، طال ما عمرت بالإيمان ،
وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصليان ، ومشاهد ذميمة
لعبد الأوثان ، ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ، وقد كان مأنوساً بتلاوة
القرآن المعظم ، تطوئه الكثرة الفساق بدميم أقدامها ، ويؤملون أن يدنسوه بقيح
آثامها ، ويعمروه بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ، ومواطن
لخاراتها ومواخيرها ، ثم يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى ، يعدن في أوثاق
الأسارى ، وعلى رجال أضحوا حيارى ، بل هم سكارى ، وما هم بسكارى ،
ولا كن الكرب الذى دهمهم شديد ، والضر الذى مسهم عظيم جهيد ، من حذرهم
على بنيات قد كن من السترنجيان الوجوه ، أن يروا فيهن سوء والمكروه ، وقد كن
لا يبدون للنظار ، فالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطفال قد كانوا
نشثوا فى حجور الإيمان ، يصيرون فى عبيد الأوثان ، أهل الكفر وأصحاب
الشیطان ، فما ظنك أيها الأمير بمن يلوذ به بعد الله الجمهور ، بأمة هى وقايد
هذه العظام الفادحة ، والنوائب الكالحة ، هو المطالب بدمائها ، إذا أسلمها فى آخر
ذماها ، وتركها أغراضاً لإعديها ، حين أحجم عن لقاءها ، فالى الله بك المشتكا ،
ثم إلى رسوله المصطفى ، ثم إلى ولى عهده أمير المسلمين المرتضى ، حين ابتعثك
بأجناده ، وأمدك بالجم الغفر من أعداده ، نادياً لك ، إلى مقارعة العدو المحاصر
لها وجهاده ، والذب عن أوليائه المعتصمين بحبل طاعته ، والمتحملين السبعة
الأشهر الشدايد الهايلة فى جنب موالاته ومشايعته ، من أمة قد نهكهم ألم الجوع ،
وبلغ المدى بهم من الضر الوجيع ، قد برح بهم الحصار ، وقعدت عن نصرتهم
الأنصار ، فترى الأطفال بل الرجال جوعاً يجرون ، يلوذون برحمة الله
ويستغيثون ، ويتمنون مقدمك بل يتضرعون ، حتى كأنك قلت أحسثوا فيها
ولا تكلمون . وما كان إلا أن وصلت وصل الله برك بتقواه ، على مقربة من هذه
الحضرة ، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصر ، بتلك العساكر التى أقر
العيون بهاؤها ، وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انثنت وما انتهت ،
وارعويت ، وما أدنيت ، خائياً عن اللقاء ، ناكصاً على عقبيك عن الأعداء .

فما أوليتنا غناء، بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء، بل أدواء، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء، بل أذلت الإسلام والمسلمين، واجترأت فضيحة الدنيا والدين، فيالله ويا للإسلام، لقد اهتضم حرمة وحماه أشد الاهتضام، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام، ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة قليلة، ولة رذيلة، وطايفة كليلية، يستنصر بالصلبان، والأصنام، وأنتم تستنصرون بشعار الإسلام، وكلمة الله هي العليا ويده الطولا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وإن من وهن الإيمان، وأشد الضعف، الفرار عن الضعف، فكيف عن أقل من النصف، فيا قبح من رضى بالصغار وسما خطة الخسف، فما هذا الجبن والفرع، وما هذا الهلع والخزع، بل ما هذا العار والضيع، أتحمسون يا معشر المرابطين، وإخواننا في ذات الله المؤمنين، إن سبق على سر تسطة القدر، بما يتوقع منه المكروه والحذر، أنكم تبلغون بعدها ريقاً، وتجدون في ساير بلاد الأندلس عصمها الله، مسلكاً من النجاة أوطريقاً، كلا والله ليسو منكم الكفار عنها جلاء وفراراً، وليخرجنكم منها داراً فداراً، فسرقسطة حرسها الله، هي السد الذي إن فتح، فتقت بعده أسداد، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله، استبيحت له أقطار وبلاد، فالآن أيها الأمير الأجل، هذه أبواب الخنة قد فتحت، وأعلام الفتح قد طلعت، فالمنية ولا الدنية، والنار ولا العار، فأين النفوس الأبية، وأين الأنفة والحمية، وأين الهمم المرابطية، فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها، وامتضاء جدها واجتهادها، وملاقاة أعداء الله وجهادها، فإن حزب الله هم الغالبون، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره، فما هذا أيها الأمير الأجل، ألا ترغب في رضوانه، واشترا جنانه، بمقارعة حزب شيطانه، والدفاع عن أهل إيمانه، فاستعن بالله على عدوه وحربه، واعمد ببصيرة في ذات الله إلى إخوان الشيطان وحزبه، فإنهم أغراض للمنايا والحتوف، ونهر للرماح والسيوف، ولا ترض بخطة العار، وسوء الذكر والصيت في جميع الأمصار. ولاتك كمن قيل فيه :

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزوا ولا يرزأ من العدو فتيلاً

ولن يسعك عند الله، ولا عند مؤمن، عذر في التأخر والارعوا، عن مناجزة الكفار والأعداء. وكتابنا هذا أيها الأمير الأجل، اعتذار تقوم لنا به الحججة في جميع البلاد، وعند ساير العباد، في إسلامكم إيانا، إلى أهل الكفر والإلحاد،

ونحن مؤمنون ، بل موقنون لإجابتك إلى نصرتنا ، وإعدادك إلى الدفاع عن
حضرتنا ، وأنت لا تتأخر عن تلبية نداينا ، ودعاينا إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا ،
فدفاعك إنما هو في ذات الله ، وعن كلمه ، ومحاماة عن الإسلام وحزبه ،
فذلك الفخر الأنبل لك في الأخرى والدنيا ، ومورث لك عند الله المنزلة العليا ،
فكم تحيي من أم ، وتجلي من كرب وغم ، وإن تكون منك الأخرى ، وهي
الأبعد عن متانة دينك ، وصحة يقينك ، فأقبل بعسكرك على مقربة من سر قسطة ،
عصمها الله ، ليخرج الجميع عنها ، ويرأ إلى العدو وقمه الله منها ، ولا تتأخر
كيفما كان طرفة عين ، فالأمر أضيقت ، والحال أزهد ، فعد بنا عن المثل
والتسوية ، قبل وقوع المكروه والخوف ، والا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا
وأموالنا ، والمستولون عن صبيتنا وأطفالنا ، لإحجامكم عن أعدائنا ، وتببطكم
عن إجابة نداينا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير عنها ، فإنها تخملك من العار
مالم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الحزى أبداً ، فالله الله أتقوه ، وأبدوا
دينه وانصروه ، فقد تعين عليكم جهاد الكفار ، والذب عن الحرم والديار ،
قال الله ، يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غاظة
الآية ، ومهمل تأخرتم عن نصرتنا ، فالله ولي الثار لنا منكم ، ورب الانتقام ،
وقد برئتم بإسلامنا للأعداء ، من نصر الإسلام ، وعند الله لنا لطف خفي ،
ومن رحمته ينزل الصنع الخفي ، ويغنيننا الله عنكم ، وهو الحميد الغني . ومن متحملي
كتابنا هذا ، وهم ثقاتنا تقف من كنه حالنا على ما لم يتضمنه الخطاب ، ولا استوعبه
الإطناب بمنه ، وله أتم الطول في الاصغاء إليهم واقتضاء مآلديهم ، ان شاء الله
تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

ع

رسالة

كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير الأجل

أبي محمد بن أبي بكر بهزيمة « القلعة » رحمهما الله

(منقولة عن المخطوط ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧١ ب - ١٧٢) .

كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك ، ولا آمال عن الهدى والرشد سعيك .
من حضرة مراکش حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة ثلث وعشرين

وخمس مائة . وقبله وافى كتابك تذكر فيه المثيلة التي كانت للعدو - دمره
الله - عليك في اليوم الذي واجهتموه فيه ، بعد ان كان لكم صدره ، وأتيح
لكم نصره ، فأواخر الأمور أبداً أوكد وأهم ، والعواقب هي التي تحمد أو تذم ،
وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أبها وأتم ، وإن لسان العذر لتلك الحال
لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيغ لمطلع بصير : توافقتم مع عدوكم ،
وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعاً ، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعاً ،
وأقوى دونه دفعاً ، فثبت وزلتكم ، وجدّ ونكلتم ، وشدّ عقد عزيتمه وحللتكم ، وكنتم
في تلك الوقعة قرّة عين الحاسد ، وشماتة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة
توليكم بين يديه بشيعة هائلة ، ودعامتكم لولا انشأؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم
من غررتموه من الرجل الذي أسلمتموه للقتل ، وفررتكم ، ونصبتموهم دريئة
للمرح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلتموه
من المجاهدين ولم تنصروه ، لا نكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ،
وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله ، فأنتم أشجع الناس
أقفاء وظهوراً ، وأجبنهم وجوهاً ونحوراً ، ليس منكم من تدفع به كريمة ،
ولا عندكم في الرشد روية ولا بديهة ، فتي وأى وقت تفلحون ، ولأى شيء
بعد ذلك تصلحون ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً ، فقد دفع بفضله الأهم الأكبر ،
وأجرى بأكثر السلامة القدر . فاكشفوا بعد أغطية أبصاركم ، وقصروا حبل
اغتراركم ، وألبسوا منه جنة حذاركم ، واعلموا أن وراء مجازاتنا إياكم جزاء
توفونه ، ويوماً عصيباً تلقونه ، فكونوا بعد هذه الهناة لداعي الرشد بين مطيع
وسامع ، ومن كلمة الاتفاق والتآلف على أمر جامع ، فانكم لو خلصت غيوبكم ،
وحسنت سريرتكم ، واطمأنت على التقوى قلوبكم ، لظهر أمركم وعلا جدكم ،
ولما ذهب ربحكم ولا فل حدكم ، فتوخوا في سبيل الله وطاعته أخلص النيات ،
وأصدق العزمات ، واثبتوا أحسن الثبات ، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل
ليلة البيات . وقد ذكر أن للعدو دمره الله مدداً يأتيه من خلفه ، والله يقطع به ،
فلنضعوا على مسالكه عيوناً تكلاً ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ ، فإن كان له
مدد كما ذكر ، قطعتم به السبيل دون لحاقه ، وأقمتم الحزم على ساقه ، والله تعالى
يفتح لكم فيهم الأبواب ، ويأخذ بأزمتكم إلى الصواب ، أنه الحميد المجيد ،
لا إله غيره .

رسالة

وله (أى لأمير المسلمين) إلى الفقيه القاضى وسائر الفقهاء والوزراء والأعيان
والكافة ببيلنسية عند نزول ابن رذمير عليها

(منقوله عن المخطوط رقم ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧٢ - ١٧٣).

كتابنا أبقاكم الله ، وأمدكم بتقواه ، ووقفكم لما يرضاه ، ولا أخلاكم
من لطايف رضاه ، وعوارف نعمه ، من حضرة مراکش حرسها الله ، لسبع
خلون من شعبان المكرم سنة ثلث وعشرين وخمس مائة . وقد وصل إلينا كتاب
الفقيه الخطيب القاضى أبى الحسن منكم أعزه الله بتقواه ، مضمنا من ذكر ما بلغه
الوجل من نفوسكم ، ما لا تزال نتوخوا بحسبه ان شاء الله ما نبي بترفيهم وتأنيسكم ،
فلا يذهبن بكم الجزع لما كان من انكشاف المسلمين هناك عن مراكزهم ،
وتصيرهم ما صيروهم من محلهم ، فرصة لناهزتهم ، وانهازهم بغير سبب سوى
تخاذلهم المعتاد ، مع ما كانوا عليه من تكاثر الأعداد ، وتظاهر الأجناد ، فحسبناهم
جميعاً وقلوبهم شتى ، ولشد ما وعظناهم في ذلك وذكرناهم ، فما نجعت فيهم الموعظة ،
ولا نفعهم الذكرى . وبعد فإننا لاندعكم بحول الله لضياح ، ولانأ لوكم إلا اهتبالا
يذهب بمشيئة الله ما نالكم من توقع وارتياح ، فطيبوا أنفساً ، واطمئنوا قلوباً ،
والله يجعل من دون ما توقعتموه فتحاً قريباً ، إنه هو الفتح العليم المنان الكريم ،
لا رب غيره . واعلموا أنه قد نفذت الآن كتبنا ثانية ، إلى ولاية أعمالنا كالأهم الله
وإياها ، نأمرهم بتسريب الأقوات ، وتعجيل إنفادها نحوكم من كل الجهات ،
وسيرد عليكم منها الكثير الموفور لأقرب الأوقات ، ثم لاتزالون من بالننا بأحق
مكان من المراعاة والحاماة ، ان شاء الله تعالى ، وهو سبحانه يوفقنا لصالح
نتوخواه من لم شعشكم ، وسد خللكم ، وإذهاب مكترثكم ، وحسم علمكم ،
ويقضى بما يضم نشرهم ، ويشد أزرهم ، ويصلح أمرهم ، ويسد ثغرهم ، ويحفظ
الألفة عليهم ، ويربى النعمة لديهم برحمته ، وتبلغوا أبقاكم الله سلاماً كثيراً أثيراً
خطيراً موفوراً .

رسالة

وله (أى لأمير المسلمين) إلى المذكورين مجاباً لهم بهزيمة ابن رذمير إياهم
في « القلاعة »

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧٣ ب)

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ، وكنفكم بعصمته وجعلكم في حماه ، وأسبغ
عليكم عوارفه ونعماه ، من حصرة مراكش حرسها الله في الحادى عشر من شعبان
المكرم من سنة ثلث وعشرين وخمس مائة ، غب ما وافانا كتابكم الأثير مضمناً وصف
اليوم الذى جرت به خزيه المقادير ، فاستعرضناه وتقرر لدينا جميع ما حواه ، وفي علمه
سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازه شأنه علينا ، لكن لا مخرج عن القضاء وحكمه ،
ولا محيد عن القدر وحتمه ، ولن يرد حول محتمل ما سبق في علمه ، وما ألونا ،
وهو عز وجهه أعدل الشاهدين ، جدا وعزماً وكدحا لإعلاء كلمة الإسلام ،
وحزماً يبذل الأموال وتخير الرجال ، واعتيام الأسلحة والأفراس ، والجمع
بين الإيحاء والإيناس ، فى الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد ، وعرض الآراء
المتخيل فيها السداد ، وبلوغ مدة جهاد فى كل نحو والاجتهاد ، لو كان العون موجوداً ،
ولم يكن التعذير . . . حاضراً عتيداً ، والله يخزى كل خاين ماين بأسخاطه
تعالى دابن جزاه ، ويرد به برد مضمرة ورداه ، ويوشك مقارضته وإرداه بحوله
وطوله ، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا ان نكون لديكم حاضرين ، لأسرعنا بذلك
مبادرين ، ولما ثننا عن حمايتكم بأنفسنا ثان ، ولا قعد بنا عن معالجة نصركم
تراخ ولا توان . وقد جددنا الآن أحت نظر ، ونحن نردفه بما يكون عليكم ألم
وارد ، وأسرع منتظر ، فلتهدأ ضلوعكم ويسكن مروعكم ، فمالنا والله يشهد هم
سوى الذباد عنكم والدفاع ، والانفراد لذلك والاستجماع ، والاجتهاد ، والتوفر
عليه بأتم الاضطلاع ، والله عز وجل المعين المنجد ، فلم يزل يعضد على ما يرضيه
ويؤيد ، لا إله إلا هو .

رسالة

وجهها أمير المسلمين علي بن يوسف بتفريع قاداته وجنده.

عقب هزيمتهم أمام ابن رذمير (الفونسو المحارب) في أراضي بلنسية

(منقولة عن المخطوط رقم ٥٣٨ الغزيري المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ١١٣-١٣٠ ب) .

« من أمير المسلمين وناصر الدين ، أما بعد ،

يا فرقة خبثت سرايرها ، وانتكشت مرايرها ، وطايقة انتفخ سحرها ،
وغاض على حين مرة بحرها ، فقد آن للنعم أن تفارقكم ، وللأقدام أن تطأ مفارقكم ،
حين ركبتموها جلواء عارية ، وأصبحتم في ادراع عارها أمثالا سواسية ،
واختلط المرعى منكم بالهمل ، فما يتبين الأنقص من الأكل ، فطأتم لها رءوس
عشايركم ، وقضيتم بالفسولة على سايركم . لاجرم أن قد صرتم سمر الندى ،
والأحاديث الملعنة بالغداة والعشى ، بما خامركم من الحين والخور ، واستهواكم
من لقاء عدوكم بالحانب الأزور ، لاتواجهونهم طرفة عين ، ولاتعاطونهم
حمة حين ، بل تعطونهم الظهر هنياً مريا ، وتتخذونهم وراءكم ظهريا ، والرماح
نحوكم لم تشرع ، والحيل لم تسرع ، والنفوس في حياض المنية لم تكرع ، فإنكم ثلة
ذبابهم وفريسة أنيابهم ، قد نعموا في بوسكم ، وناهضوكم بلبوسكم ، وخابوكم عاما
على إثر عام ، حتى ألزقوكم ، وتركوكم أسلح من حبارى ، وأشرد من نعام .

فالآن حين ملأتم أيديهم متاعا ، وواديهم سلاحاً وكراعا ، قد غزوكم
في عقركم ، وأذاقوكم وبال أمركم ، فلذتم بالحدران ، وبوئتم بالندامة والحسران .
بابغايا بني الأصفر ، وسجايا ذوات الدال والخفر ، أكرهتم زحافهم ، وكنتم -
علم الله - أضعافهم ؟ أنى لكم بالمعذرة ، وأين ؟ وقد فرض الله الواحد منكم
بالإثنين ، فقال : « إن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » . هذا ، وكلمتكم
العلي ، وحلوبتكم الحياة الديني ، ماشتم من صارم ، وطرف ونحض وركايب
وسوام ، ونضايد وخيام .

فيا أسفا للحق يدمغه الباطل ، والحالي يهره العاقل . لا بالحنيفية تحررتم ،
ولا إلى الحفيظة والإنابة تحيزتم . ليت شعري بماذا تقلدتموها هندية واعتقلتموها
سمهرية خطية ، وركبتموها جرذا سوابق ، وملكتموها مغارب ومشارق ؟

ثاوين في غير عدادكم ، منتزين على أصدادكم ، يؤدون الإتاوة إليكم حين أشرقنموهم
بالهوان ، وأنتم فيهم غرباء الوجه واليد واللسان ، وصبروكم عبيد العصى ،
ولستم بالأكثرين منهم حصى ، بل شرذمة قليل نفعها ، كثير نفعها . فيا عجباً
لذهولكم ، شبانكم وكهولكم ، تأكلون تمرها ، ولا تتصلون بجرها ، وتذهبون
محلواتها ، ولا تصبرون على لأوائها ؟ أى بنى اللثيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلى م يريكم
الناقد ، ويردكم الفارس الواحد :

إلى م يريكم الناقد	ويردكم الفارس الواحد
ألا هل أتاها على نأها	بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائى فارس	فردكم فارس واحد
فليت لكم بارتباط الخيول	ضئاناً لها حالب قاعد

ومن لرعاة الإبل بالحد المقبل ؟ لقدماً ما أذهبتم التالد والطارف ، وعجباً
عجبياً من جذامى المطارف ، وأنتم قد قدحتم فى ملكنا ، وأذنتم بانتثار سلكنا ،
فلولا من لدينا من ذويكم ، وضراعتهم إلينا فيكم ، لألحقناكم عجلاً بصحرايكم ،
وطهرنا الجزيرة من رُحضايكم ، بعد أن نوسعكم عقابا ، ونحدُّ أن لاتلوا على
وجه نقابا . فاللؤم تحت عمائمكم ، والوهن والفشل ، طى عزائمكم ، لاكن
ما جبلنا عليه من الأناة ، وتوخيناها قدما من إيقاظ ذوى الملكات ، يكفنا عن
استيصالكم ، ويحملنا على شحد نصالكم .

فاستنسروا يابغات الهيجا ، واستئسوا ، بعد الرجا ، واحذروا حلما أغضبتموه ،
وواديا من الصبر أنضبتموه ، وتوقوا صدراً أخرجتموه ، وليثاً من أجمته
أخرجتموه ، وأيم الله نقسم إنذارا بكم ، وإعذارا لكم ، لنوردن الفار منكم
من الزحف ، ماعافه من موارد الختف ، ولتجاوزن السوط إلى السيف ، ولنبدلن
المعدلة فيكم بالحيف ، فليعلم المقدم المحجم منكم عن الإقدام ، أنه سلم من الحمام
إلى الحمام ، وتخطى مصرع الأسد الباسل إلى جذع مائل ، وشهادة الأبرار إلى
مشهد الذل والصغار ، كما أن من أصيب منكم فى حرب ، أو أبلى بطعن أو ضرب ،
خلفناه فى الأهل والولد ، وبعناه الأثرة والكرامة يدا بيد ، فاختاروا لأنفسكم
وأعقابكم ، وانضوا ثوب الخزى عن رقابكم ، والسلام على من حمى الإسلام .
كمل ما كتب به الفقيه الأديب ، الكاتب البليغ الأريب ذو الوزارتين
أبو عبد الله بن أبى الخصال عن أمير المسلمين .

رسالة

لأبي عبد الله بن أبي الخصال عن بعض المرابطين
إلى أمير المسلمين علي بن يوسف
تتعلق بشئون حصن أرلبة (أوريخا)

(منقولة عن المخطوط رقم ٥١٩ الغزيري بمكتبة الإسكوريال لوحة ١٠٤ ب و ١١٠٥).

« أطل الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين ، مؤيدا بجنوده ، معاناً بتوفيقه
وتسديده ، ولا زال عدله ينعش الأمم ، وسعده ينهض الهمم . كتبت أدام الله
تأييده ، من قرطبة حرسها الله ، لست بقين من جمادى الآخرة ، وقبل بثلاث وافيتها
من الوجهة التي صحبني ومن معي فيها بمن أمره ، واكتنفتنا عزة نصره ، بعد أن
أودعنا حصن أرلبة حماه الله ، قوتاً موفوراً ، ومرفقاً كثيراً ، وحطت عندهم الأسعار
وعم الاستبشار ، وتسلم أبو الخيار مسعود الدليل ، سلمه الله ، الحصن ، واحتوى
عليه ، وصار أمره إليه ، ووافينا فلاناً أبقاه الله ، قد استاق غنيمة ظاهرة ،
وجملة من البقر وافرة ، وقتل من العدو ، قصمه الله عدداً ، وقضى وطراً ،
وشفى وجداً ، فتيمن الناس هناك ، بولاية الأمير أبي يحيى أعزه الله ، وبقيادة هذا
القائد ، الذي اقترن الفتح بمآتاه ، وكانت [عند] مقدمنا هذا الحصن خيل
طليطلة بددها الله ، مجتمعة ، فوقدهم الرغب وشملهم الصغار ، والرغم ، وتحققنا
هناك أن مواشى تلك الجبال ، قد أخذت في الإ . . . نبساط والإسهال ، والدنو
من الوادي في طلب الخصب ، وتحوله من البرد إلى الدفء ، والله يجعلها للمسلمين
طعمة ، ويزيدهم بها قوة بعزته ، وأنباء العدو ، قصمه الله ، الآن خامدة ،
وعزائمهم هامدة ، وأيديهم جامدة ، استأصل الله ، بحمد أمير المسلمين نعمتهم ،
وقطف قسمهم ، وأداخ بلادهم ، وانتسف طارفهم وتلادهم ، وألفيت الحضرة
حرسها الله ، وقد أخذ السرور من أهلها كل مأخذ ، وسرى فيهم كل مسرى
ومنفذ ، بولاية الأمير أبي يحيى أعزه الله ، وكثر الدعاء لأمر المسلمين أيده الله ،
بما جدد لديهم من حسن نظر ، ونخلع عليهم من جمال سيرة ، ولقيته فلقيت كل
ما أبهج ، وكان وفقاً لما انتشر ، ومشاكلنا لما استداع وظهر ، تم الله النعمة ،
وظاهر عليه الكفاية والعصمة ، ووافتنى كتبه الكرام بما بلغ الأمل ، وحسم العلل ، وأنا
ممثل في كل معنى ما يحره مجتهد ، فيما يقيم ذلك الثغر ويسده ، إن شاء الله عز وجل . »

رسالة

موجهة من أمير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف
إلى الفقهاء والوزراء والأخيار والكافة ببلنسية

(منقولة عن المخطوط رقم ٥٣٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ١١١ - ١٢ ب) .

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً . من أمير
المسلمين وناصر الدين تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين .

إلى وليه في الله تعالى ، الأعز الأكرم الأحظ في ذات الله لديه ، أبي زكريا
يحيى بن علي ، والفقير القاضي أبي محمد بن جحاف ، وسائر الفقهاء والوزراء
والأخيار والصلحاء ، والكافة ببلنسية ، حرسها الله ، وأدام كرامتهم بتقواه .

سلام مبرور كريم ، مردد عميم على جميعكم ، ورحمت الله وبركاته ، وبعد :
فإن كتابنا إليكم ، كتبكم الله من أثر الحق واتبع سننه ، وادّرع الحزم
ولبس جنته ، وسمع القول واتبع أحسنه ، وحافظ على كتاب الله الذي يسره
للذكرى وبينه ، وجعلنا وإياكم ممن جملة بتقواه وزينه ، من مناخنا بكرنطة ،
في العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة ، وبحمد الله من
صحيفتنا هذه صدرها الأكرم ، وكل قول فبعده يترتب ويتنظم . وقد جاء
في الآثار : كل كلام لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أجزم .

وبعد أن نستوفي واجب الحمد والشكر ، ونذكر نعمه السابغة ، علينا
أجل الذكر ، فنسأل الله توفيقاً قايماً إلى الرشيد ، وقوة على طاعته نحمل بها من
تلزمتنا رعايته ، على المنهج الأفضل والسنن الأحمد ، ونستعيذه من قلب لا يخشع
ودعاء لا يسمع ، وموعظة لا تنفع ، وسجية لا تطاع ، وهو آتبع ، ونصلى على
محمد نبيه ورسوله الذي طهره تطهيراً ، وأرسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ،
وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ رسالة ربه وهداه ، وصبر على مشقة
البلاغ وأذاه ، ولم يخش أحداً إلا الله الذي رجاه ، إلى أن بلغ الكتاب أجله والدين
مداه ، وانتهى ملك أمته إلى ما كان الله له زواه ، صلى الله عليه وعلى صحبه الذين
ذبوا عن هذا الدين وحوا حماه ، ووالوا من والاه ، وعادوا من عاداه .

ولما كان ، أعزكم الله ، الدين ينعت بالنصيحة لله ولرسوله وللمسلمين ،
والذكرى تنفع المؤمنين ، وجب أن نتخذ لكم من الموعظة به أنفسها الذي مرها
في العاقبة حلو ، وأخفض مراتبها في الله علو ، فاعلموا ، أعلمكم الله ،
ولا أقامكم مقاما يردبكم ، أن أقرب الناس إلى الله أحناهم على عباده ، وأحضرهم
للنصيحة لهم بمبلغ جده واجتهاده ، وأن أولى الناس بنا من طاب خبره ، وكرم
أثره ، وحسن مورده في الأمور ومصدره ، وكذلك « العامل » منكم و« القاضي »
وفقهما الله ، إنما أقعدا بذلك المكان لخير يتوليانه وشر يردعانه ، وعدل
يقضيانه ، فليقدما أولاتسديد أمرهما ، ولينظرا في إصلاح أنفسهما ، قبل إصلاح
غيرهما ، فمن لا يصلح أمر نفسه لا يصلح سواه ، ومن لا سدد أموره
لا يسدد أمر من تولاه . وعليكم أجمعين بتقوى الله في السر والإعلان ،
والتمسك بعصم الإيمان ، والاستعانة على حوايجكم بالكتمان ، والتنزه عن
قلبات اليد واللسان . ولم تخل أمة من جاهل وعليم ، ومعوج وقويم ، فليردع
الجاهل العليم ، ولينبه المعوج القويم ، ولن يزال الناس بخير ما لم يتساووا ، فإذا
تساووا هلكوا .

وأهم أموركم الصلاة ، التي هي سبيل النجاة لسالكها ، ولاحظ في الإسلام
لتاركها ، فالزموها في جماعاتها ، ولا تخلوا بشيء من مسنوناتها ، ومفروضاتها ،
وأخلصوا فيها لله العلي الأكبر ، واعلموا أنها كما قال سبحانه « إن الصلاة تنهى
عن الفحشاء والمنكر » .

وعليكم وفقكم الله بإصلاح ذات البين ، وإعتماد الحق المخلص في الدارين ،
وتخير الرفقا وانتخاب الجلوس ، فإن مثل الجليس كمثل القين ، والصاحب الصالح
قوة في الدين ، وقررة في العين .

وانتدبوا وانتدبوا من قبلكم للجهاد ، الذي هو من قواعد الإيمان والرشاد ،
أمر الرحمن ، وفرض على الكفاية والأعيان ، واتصال الهدو بفضل الله وللأمان .
وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المجاهد في سبيل
الله كمثل القائم الصائم الذي لا يفتر عن صلاة ولا صيام » .

والذي نأخذ به عهد الله على العامل منكم الرفق بالرعية ، والحكم بالتسوية ،
وإجراء أمورها على السبيل الحميدة المرضية ، فهي العنصر الذي منه الاستمداد ، والأصل

الذي ببوته تعمر البلاد، وتتوفر الأجناد، ويتمكن الرباط في سبيل الله والجهاد، وليعلم أن العدل يقسطها، والجور يسخطها، وقلة المساواة تشتتها وتقنطها. ولا سبيل أن يستعمل عليها إلا من يستشق جانبه وتحسن الأحدثه عنه. وأن ظهر أحد منهم بنظر جميل فيه، وكان في نفسه ما يخفيه، فالبدار البدار إلى عزله وعقابه والتشديد فيما نأمر به.

واعلموا، رحمكم الله، أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى، في الحضر والبدا، على ما اتفق عليه السلف الصالح، رحمهم الله، من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس، رضي الله عنه، فلا عدول لقاض ولا مفت عن مذهبه، ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم إلا به، ومن حاد عن رأيه بفتواه، ومال من الأئمة إلى سواه، فقد ركب رأسه واتبع هواه، ومتى عثرتم على كتاب بدعة، أو صاحب بدعة فإياكم وإياه، وخاصة وفقكم الله، كتب أبي حامد الغزالي، فليتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الإيمان من يتهم بكتانها.

والحمر، نزهكم الله عن خبايث الأمور، التي هي جماع الإثم والفجور، والباب المفضى إلى سواكن الفسق والشور، فاجتهدوا في شأنها، وأوعزوا في جميع جهاتكم بإراقة دنائها، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لعن الله الحمر وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه».

وكذلك نوكد العهد فيما نوصى به دايبا، مما أوجبه الله تعالى في حقوق المسلمين من الأعشار والزكوات، والأموال المفروضة للأرزاق المسماة، فليؤخذ ما فرض الله منها في نصابها المعلوم، وعلى سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم. وكذلك نوكد عليكم أتم تأكيد أمر أهل الذمة ألا يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين، لأنه من فساد الدين.

والسلام الأبر الأكرم الأخطر على جميعكم، ورحمة الله وبركاته، وعلى من هناك من المسلمين.»

صيغة التوحيد

التي وضعها المهدي ابن تومرت لأتباعه

توحيد الباري سبحانه

(منقولة عن كتاب «أعز ما يطلب» ص ٢٤٠ و ٢٤١)

لا إله إلا الذي دلت عليه الموجودات ، وشهدت عليه المخلوقات ، بأنه
جل وعلا ، وجب عليه الوجود على الإطلاق ، من غير تقييد ولا تخصيص ، بزمان
ولا مكان ، ولا جهة ولا حد ، ولا جنس ولا صورة ولا شكل ، ولا مقدار ولا هيئة
ولا حال ، أول لا يتقيد بالقبلية ، آخر لا يتقيد بالبعدية ، أحد لا يتقيد بالأينية ،
صمد لا يتقيد بالكيفية ، عزيز لا يتقيد بالمثلية ، لاتحده الأذهان ، ولا تصوره
الأوهام ، ولا تلحقه الأفكار ، ولا تكيفه العقول ، لا يتصف بالتحيز والانتقال ،
ولا يتصف بالتغير والزوال ، ولا يتصف بالجهل والاضطرار ، ولا يتصف بالعجز
والافتقار ، له العظمة والحلال ، وله العزة والكمال ، وله العلم والاختيار ، وله
الملك والاقتدار ، وله الحياة والبقاء ، وله الأسماء الحسنى ، واحد في أزليته ،
ليس معه شيء غيره ولا وجود سواه ، لا أرض ولا سماء ولا ماء ولا هواء ،
ولا خلاء ولا ملاء ، ولا نور ولا ظلام ، ولا ليل ولا نهار ، ولا أنيس ولا حسيس ،
ولا رز ولا هميس ، إلا الواحد القهار ، انفرد في الأزل بالوحدانية ، والملك
والألوهية ، ليس معه مدبر في الخلق ، ولا شريك في الملك ، له الحكم والقضاء ،
وله الحمد والثناء ، ولا دافع لما قضى ، ولا مانع لما أعطى ، يفعل في ملكه
ما يريد ، ويحكم في خلقه ما يشاء ، لا يرجو ثواباً ، ولا يخاف عقاباً ، ليس فوقه
أمر قاهر ، ولا مانع زاجر ، ليس عليه حق ، ولا عليه حكم ، فكل منة منه فضل ،
وكل نقمة منه عدل ، ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

رسالة الخليفة عبد المؤمن بن علي

(منقولة عن مخطوط كتاب نظم الجمان لابن القطان لوحة ٥٦ ب - ١٦٥)

« أمره رضى الله تعالى عنه ، بالأمر بالمعروف ، ونهيه عن المنكر

وعدله ونهجه مناهج الحق وفضله »

(له رسالة جامعة لأنواع من الأوامر ، دخلت في مآثره السنية ، ووصاياه الحكيمة . وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية ، وهي بعد البسملة والصلاة) .
من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره ، وأمهه بمعونته ، إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس ، ومن صحبهم من المشيخة ، والأعيان والكافة ، وفقهم الله تعالى ، واستعملهم بما يرضاه .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فالحمد لله ، وهو اللطيف الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذى بعدله قامت السموات والأرض وبه تقوم ، وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم ، ولأمته المخلصة فى عليين كتابها المرقوم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، الذى بعثه رحمة للمؤمنين ، ينيلهم به الروح والنعم ، ويريم رحيقها المختوم .

وكتابتنا هذا - كتب الله تعالى لكم كل رافة ورحمة ، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة ، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمته - من الحضرة العلية بتينملى حرسها الله تعالى فى سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسةائة ، وقد وصلناها - والحمد لله - وجناح الرحمة منضوض ، وطرف المكاره مغضوض ، وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض ، وشأن الظلم - بإذن الله تعالى - مكفوف مقبوض ، والحق أبلج لا كناية ولا تعريض .

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدي ، رضى الله تعالى عنه ، لتجديد عهد به تقادم ، وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر فى بناء مسجده المكرم تمتعاً ببركاته ، ورجاء فى تضاعف الأمر بكل لبنة من لبناته ، وحرصاً على أن يتوافر به ، حظ التوفيق وقسمه ، ويعلو فى الملأ الأعلى ذكره

ورسمه ، ورغبة في رفع بيت من أفضل البيوت ، التي أمر الله عز وجل أن ترفع ؛
ويذكر فيها اسمه ، ولتنعم الجوارح ، بمشاهدة هذه المشاهد المنعمة ، والمواسم
المعظمة ، وتزود بالتطوف على معاهد ما عهدته من العوارف المنعمة ، كل
ذلك غرضاً في ذات الله تعالى غرضه ، وأمر يستحب المرء إليه طلب ذلك
الخير ويستنهضه .

وقد تم - بحمد الله تعالى - هذا الوطر ، واقتضى الإياب إلى النظر في
المصالح ، والرأي الجميل النظر ، وتفجرت - بحمد الله تعالى - منابع الخير
وفاضت ، وعادت روابض الأمر إلى أشرف حالاته وآضت ، وانبعثت موارد
البركات بعد ما غارت في غير هذا الزمن المذكور وفاضت ، ونسأل الله تعالى عوناً
على شكر هذه النعم التي عمّت ملابسها ، ووعت الأفتدة نفائسها ، ونخاب عن
رحمها خاسر الكامة وبائسها .

وان الله تعالى ، قد قضى بأن يكون شرف صاحبه به وامتساكه ، وبين
العدل والجور حياة العالم وهلاكه ، فالسعيد من لقي ربه مبرأً من اتباع الهوى سليماً ،
والشقي من أتى مليماً ، باكتساب الكبائر ملوماً ، « ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه
على نفسه ، وكان الله عليماً حكيماً » ، والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين ، ويحب
الرفق ويحل به كنفه الأمين ، وفي الحزب على ذلك يقول وهو أصدق القائلين
« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وبرحمته سبحانه بسط لعباده النعماء ،
وبرأفته كشف عنهم العناء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنما يرحم الله من
عباده الرجاء .

وقد اتصل بنا - وفقكم الله تعالى - أن من لا يتقى الله ولا يخشاه ، ولا يراقبه
في كبيرة يغشاها وتغشاها ، ولا يؤمن بيوم الحساب فيما أذاعه من المنكر وأفشاها ،
يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار ، وينتثرون بالقتل بأعراض الدنيا
أقبح الانتشار ، يستحلون حرمة المسلمين من غير حلها ، ويسارعون إلى نقض
عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة والغلظة بطراً ورياءً في غير محلها ،
ويبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهد الجبال عن حملها ، ويستنبطون
من فواحش الآثام ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ، ويتسببون إلى قتل
المسلمين ، فضلاً عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبسات سيئونها ، ومزورات
يضيفونها إليهم ، ينسبونها ، وينظرون إلى اهتضام حق الله تعالى فيهم بأباطيل

يعدونها ظلماً ومحسوبونها ، ويسعون في استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة ، ويعيشون فيهم بكل غاضبة للقلوب منزعة ، والنبي ، صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول : « من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً ، جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول : يا رب سل هذا فيم قتلني عبثاً من غير منفعة » ولا يلتفتون إلى عاقبته ولا ينظرون ، ولا يحرون بأذانيهم ما يفعل الله بأمثالهم ولا يخطر عليهم « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » . هيات هيات ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم في أقرب أمد ما يهدم هدأ ، ويجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سداً ، ويتأصلهم بصواعق الانتقام فقد جاءوا شيئاً إداً . أما علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويوقعهم في مهاوى بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استهواهم الشيطان به واستغواهم . أما علموا أن أمر المهدي رضي الله تعالى عنه تساوى في الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ، ألم يقل رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « المسلمون تنكفي دماؤهم ويسعى لذمتهم أذناهم ، وهم يد على من سواهم » . لقد أمنوا مكر الله جرأة عليه وإقداماً ، وأعمت الشهوات بصائرهم إذهاباً لنور الحق من نفوسهم وإعداماً ، وتالله لو تعين لنا فاعل ذلك وتشخص ، لما خرج من حياله مكروه ولا تخاخص ، ولسارع إليه من أسرع عقابنا ما محور سمه محو الفنا ، ويكتب يديه بما قدمت من الحنا . ولقد ذكر لنا من تلك المظالم المستغرقة لأنواع المآثم ، الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم ، أن أولياءك الخائضين في غمرات أبحرها ، المثيرين لأسباب منكرها ، الصارمين لعلق الشريعة ، القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط ، إبلاغاً في الانتهاء بكثرتها وإجحاشاً ، ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس إيغالا للصدور وإجحاشاً ، وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله ، أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل - أصلحك الله تعالى - عن هذه الأمثال والأشباه .

وقد علمتم أن عادتنا فيما يستوجب الضرب أو يستحقه ، ممن يظلم الأمر الشرعى أو يعقه بحدود معلومة ، دون إفحاش ولا انتهاك ، ومواقف مرسومة تقابل كلا مقتضى جرمه من أثم أو أفاك .

ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات ، وتحجير المراسي وغيرها

ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً ، وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلكاً ، وأكثرها في نفس الديانة عبثاً وفتكاً ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . هل قام هذا الأمر العالى ، إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ، وسد سبيل الحق وطرقه ، وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه . اللهم إنا نشهدك أن سبيلنا سبيلك ، وإنا نستعينك مما استعاذك منه محمد رسولك . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعوذ بالله من المغرم والمأثم » تنبيهاً على ما فى أغرام الناس من الظلم المظلم . ولئن نقل إلينا - والله الشاهد - أن نوعاً من هذه الأنواع المحرمة أو صنفاً من تلك الأصناف المظلمة ، يتولاه أحد هنالك من البشر أو يأمر بشيء من ذلك الفعل المستنكر ، لنعاقبه بمحو أثره عقاباً يبقى [عظة] لمن اتعظ ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ .

وإن من ذلك الرأى الذميمة والسعى المنقوم ، ما ذكر لنا فى أمر المسافرين ، الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتهما ، والطوائف المارة على البلاد لمغنى تجارتها ، يتسبب إليه قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء ، الذين يضعون الغش طى ما يوهمون به من النصيحة ، ويستنبطون المكر فى تصرفاتهم القبيحة ، فيقولون للرجل منهم عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وإن للمخزن جميع ما به أتيت ، ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ، ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله ، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم منالة ، وإنها لداهية عاقرة ، قاصمة للظهر فاقرة ، ويا عجباً لكم معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين ، فإنكم بذلك مطلوبون ، وما حجتكم وما أنتم على حق ، كيف تتكيف هذه الكبائر وأنتم للأمر هنالك رصد ، أم كيف تجرى هذه الظلمات وقد قام للحق أود ، أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك والحرمات تنهك ، ولا يمتعض لذلك منكم أحد ، كلا ليعاقبن كل من جنى ، وليظهرن ما قصد القاصد وما عنى ، وإن من وراء قولنا لتتبعنا يبحث عن ذلك ويمحص ، ونظراً يفرق بين المشكل منه ويخلص .

ولاشك - والله أعلم - فى أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعى تغير تلك الأحوال المتغيرات ، قوم يتوسطون بينكم وبين الناس ، ويقولون ما لا يفعلون ذهاباً إلى التدليس عليكم والإلباس ، ويجعلون النفير بالظلم والعدوان بدلا من العقل والقول الجميل والإيناس ، وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، وبعدهم عن

مشاهدة الأمور ومعاينتهما ، والتحجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفسادها واختلالها ، وسبب قوى في انتقاضها وانحلالها ، وفرصة لوسائط السوء بأنهما كها في البواطل واسترسالها ، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ، ولا تبعدوا بغلظ الحجاب عما قصدكم من الخير ونواكم ، وباشروا الأحكام هنالك مباشرة المتعهد المتفقد ، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وتحفظوا في جانب المسلمين من كل خفيف المقال ، كثير الاضطراب في الباطل والانتقال ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، وثبتوا وفقكم الله تعالى في الأحكام ، التي لا بد لكم من النظر فيها تثبت الحث [البحث] عن حقائق الأمور والاستقصاء ، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللدد في الخصام وبالغوا في الإيضاء .

ولا تنظروا أن الاجتهاد في الأمور يؤدي إلى الهجوم عليها والافتحام ، ويخرج النظر عن الثبت في القضايا والأحكام ، فاذهبوا فيها مذهباً وسطاً ، واقصدوا الاعتدال مقصداً مقسطاً ، ولا تجتهدوا في شيء لا تعلمون فيه حكماً ، وشاورونا فيما يخفى عنكم وجهه ، لرسم لكم فيه رسماً ، فليس كل مجتهد مصيباً برأيه ، ولا كل هاجم على رأى منجحاً في سعيه ، وبين طرفي الأحوال واسطة جميلة فيها معقد السياسة ومناطها ، وخير الأمور - قال عليه الصلاة والسلام - أوساطها .

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أولئك المسيبين لتلك القبائح ، الساعين في صد ما يرضاه الله تعالى من المصالح ، وتعرفونا بهم بعد تثقيفهم ، لنشرد بهم من خلفهم ، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وضمنفهم ، وقد استخرنا الله ، في سد تلك الذريعة ، وصد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر ، وتعلمونا بنبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولا سبيل لكم إلى قتل أحد من كل من هو في بلاد الموحدين وأنظارهم ، ومن هو منهم وداخل في مضمارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر في أمر الله تعالى والختل ، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه ، وخاطبونا يميز أمره ومشروحه ، لينفذ فيه من قبلنا ما يوجه الحق ويقتضيه ، ونمضى في عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه ، فإياكم من مخالفة أمرنا هذا في قتل أحد ممن ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا

إلى أعلامنا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه ، لتقابلة بما نراه ، ونجربى الحق فى مجراه .
وأنه أعلمنا بأن من يرضى بتلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه ، ولا يبالي
أحسن الفعل فيه أم قبيحه ، يبتاع المرأة ويبيعه دون استبراء ، ويعبث فى ذلك
بكل إقدام على الله تعالى واجترأ ، ولا يتحفظ من موقعة الزنا المحض ، ومخالفة
الواجب مع الفرض ، وأن فى ذلك من اطراح ما أمر الله تعالى به من اتباع الشرع ،
وإفساد الأصل من السنة والفرع ، ما لا يحل سماعه ، ولا يستقر بنفس مؤمنة
استطلاعها ، فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً ممنهن أو يبيع ، حتى يستأذن
الحاكم لأمره منكم والشيوخ ، لئلا يذهب الحق فى ذلك ويضيع ، ولتقدموا للنظر
فى أسواقهن من ترضون دينه وأمانته ، وتتحققون ثقته وصيانتة ، فمن أبيع له
البيع والابتياح ، أحضره الأمين المذكور ليرتفع بشهادته الشك والزاع ، وتجربى
السنة مجراها ويمثل الأمر المطاع . وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء فى جميع من
تغنموه منهن فى تلك الأرجاء ، حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته ، وتعلمونا
من ذلك بجليته ، لرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم ، ويجربى إليه اقتضاؤكم .
والله الله فى البحث على الحمور ، وتقديم النظر فى أمرها ، فهو من أهم الأمور ،
فإنها مفتاح الشرور ، ورأس الكبائر والفجور ، وهى رابطة أهل الحرم ،
وجامعة أشتات الظلم . قال النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم :
« الحمر جماع الإثم » فجدوا فى طلبها فى المواطن المهمة بشأنها ، واجتهدوا فى إراقها
وكسر دنائها ، واعمدوا إلى السبب الذى يؤدى إلى التمكن منها ، فارعوه ،
والحظوه ، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه ، وقدموا أمناً متخيرين للتطوف
على مواضع الترتيب ، يكون بالمحافظة على ذلك محل المكالىء الرقيب ، ولا يكن
منهم إلا من يفرق بين الحلال ويميز ، ويعرف ما يجوز شربه ، وما لا يجوز ،
ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرّب واعتصامه ، وخذوهم بتوقف جدتهم على ذلك
واقصاره ، فما حل منه أباحوه ، وما كان غير ذلك قطعوه أصلاً وفرعاً وأراقوه ،
(الحلال بين والحرام بين) ولقضايا الشرع نظام . قال رسول الله صلى الله
تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « ما أسكر كثيره فإلجرعة منه حرام » .

وإن من يسعى فى نوع من أنواع الفساد ، ويستصحب الأضرار بالمسلمين
فى الإصدار والإيراد ، هؤلاء الراقصين الذين يردون بالكتب ويصدرون ، ويمشون
فما بيننا وبينكم وينفرون ، فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر فى كلفهم ،

ويلزمونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم ، وهذا فعل كل فرقة منهم في سرها ، وسوء رأيهم بذلك في المخازن وغيرها ، وأن من جملة ما حكى عنهم أنهم يتألفون في الطرق جموعاً ، ويحلون بأفنية الناس حلولاً شنيعاً ، يكلفونهم مؤثاتهم تكليف المجرم ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، حتى أنهم لا يرضون في ضيافتهم إلا بأسمن الجزر ، وناهيكم بهذا الاجترار العظيم الضرر ، فسارعوا وفقكم الله تعالى ، إلى حسم هذه العلة من أصلها ، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها ، وتخبروا لرسائلكم إرسالا ، وانتقوا من أهل المقدره على ذلك والثقة رجالا ، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في الحجى والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد ، معلومة الأمد ، لينتهوا بها ، إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم ، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة ، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور ، ونستعيد به سبحانه من الجور .

وكذلك ذكر لنا - وفقكم الله تعالى - من التحكم في الأموال ، وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال ، أن أولئك الذين ذكرت خدعهم ، ووصفت غرضهم الذميمة ومنزعهم ، يفعلون في أموال الناس ما تقدم ذكره ، وشرح فكره ، وتمتد أيديهم إلى المخازن هناك ، فيعيثون فيها ، ويتحكمون ، ويجروئون في التعدي عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون ، فاتقوا الله تعالى فيها ، فإنها أمواله المخزونة في أرضه ، وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه ، ولا سبيل لكم أن تنفذوا منها قليلاً ولا كثيراً ، إلا بعد استئذاننا وتعريفنا بالدقيق والحليل مما هنالك ، وهذا أمر منا لكم ، ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة أمراً دائماً لازماً ، سنته بالاستمرار مستظلة ، وصحته بفضل الله لا تدخلها تعله .

وقد خاطبنا بمثل ما خاطبناكم به ، جميع الطلبة الموحدين ، وكافة البلاد التي هي بالدعوة المهدية معمورة ، وبكلمة الإيمان مشرقة منيرة ، فأمرنا بجميع فصول كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل ، وفي كافة أقطار الموحدين نافذ عامل ، فمن خالفه بوجه من وجوه الخلاف ، فقد تبين عناده وساء في العاجل والآجل ما له ومعاذه ، ومن لم يمثله ، بواجب الامتثال ، ويكف يده عما رسمناه في كافة الأحوال ، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه ، واستقبل من ارتكاب النهي ما يصده الانتقام به عن سواه منحاه ، فاستصحبوا حدنا هذا استصحاباً مؤيداً ،

واتخذوه في كافة أحوالكم مستنداً ومعتمداً ، وعلى كل من إلى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة في سلك التوحيد ، الآخذة بالمذهب الرشيد ، عون الأمير - أيده الله تعالى - على بسط العدل وإفاضة على الكل ، ورفع العبد المثقل ، وكل أن يسلكوا في جميع تصرفاتهم سبيل الاستقامة ، ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة لذلك والاستدامة ، ويتجافوا عن مواقع الظلم ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، وينقادوا للواجبات بداراً إليها وإسراعاً ، ويكونوا في التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تألفاً واجتماعاً .

ولما كان هذا الأمر عندنا - وفقكم الله تعالى - أهم أمر وأوجب ، وأحق ما أدناه الحق وقربه ، وكان اهتمامنا به ، قد جعله على كل حالة مقدماً ، وأنفذه بأمر الله تعالى إنفاذاً ملتزماً ، رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا ، وها هي قد رفعت الإشكال رفعاً بيناً ، وأرتكم فرط اهتبالنا حقاً مبيناً ، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمسارة ، وصلوا ابتدارشأنها بالمواصلة والمتابعة ، وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع من في تللكم البلاد من الطلبة والعمال وكافة المقدمين للأعمال ، ولا تقدموا أمراً من الأمور على إنفاذ جميع ما تضمنه ، والاعمال بكل ما شرحه وبينه ، ولا تشتغلوا بشغل قبل الاشتغال بمعانيه ، وبما أمركم به على قواعده ومبانيه ، ومخاطبتنا بما يكون منكم في تلقيه ، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه ، وقرأوه على الكافة أعالى المنابر ، واستحضروا له وفود القبائل من البوادي والحواضر . وأسمعوا به أفصاحاً وإعلاناً ، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووحدانا ، وأحسنوا إيصال أغراضه إليهم ، فإن الله تعالى يجزي الإحسان إحساناً .

فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير وبلغتم صحته بواجب التبليغ والتقرير ، فاكتبوا منه نسخاً إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النظر ، وكل كورة من تلك الكور ، وأكدوا عليهم فيما أكدنا عليكم فيه من تقديم العمل فيه على كل الوجوه ، وامتثال مغنمه ، عل ما يحبه الله تعالى ويرتضيه ، وحذروهم من التعرض لمخالفته ، فلا عذر لمن لا يقصده على الفور ويأتيه ، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم ، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم .

وقد علم الله تعالى أن غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان ، وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان ، ولدينا من التراؤف بهم والرفق بجانبهم ، شأن لا يفارقه من فضل الله تعالى شأن ، وقد علمتم ذلك منا واختبرتموه ، وجربتموه على مر الزمان

وصبرتموه ، فلتتلقوا كل من استرعاكم الله تعالى أمره بكل طلاقة ويسر ،
ولتنشروا عليهم جناح الرحمة أكل نشر ، ولتعلموا - رعاكم الله - ان من شملته
كلمة التوحيد ، في العهد القريب أو البعيد ، في مضمار واحد من العدل محمولون ،
وأنكم عن كل من هنالك مستولون ، ولفظ الموحدين بيننا وبينهم جميعاً ، والحق
يسلك بينهم من التناصف مسلكاً مشروعاً ، وقد ألفت الكلمة العلية بينهم ،
فبعضهم لبعض في الخير أسوة ، وقد قال الله تعالى « إنما المؤمنون إخوة »
فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الجميل ، قصداً إلى مرضاة الله تعالى وإيقانا ،
وكونوا عباد الله إخواناً ، وحسنوا بهم - رعاكم الله - ظناً ، وعودوهم الخبر
لفظاً ومعنى ، وتخلقوا معهم بمحاسن الأخلاق ، وقولوا للناس حسناً ، واستألفوا
الناس بالتي هي أحسن ، وابدلوا لهم من المساعدة في ذات الله تعالى غاية ما يتمكن ،
وانهجوا لهم من المبرات منهجاً يبدو به مضمركم الجميل ويتبين ، وسروا بصالح
عملكم وبشروا ويسروا - كما قال عليه الصلاة والسلام - ولا تعسروا
وسكنوا ، ولا تنفروا .

واعلموا أن السعى في هذا الغرض واجب ، والاعتماد في رفع ذلك المانع
الحاجب ، لا يتأتى لكم جملة واحدة ، حتى تكون نفوسكم متألفة عليه متساعدة ،
وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاوناً يجمع في الصلاح آراؤكم ، ويضمن التجمع
التام لكم ولمن وراءكم ، فعليكم بالمظاهرة ، والمناصرة والموازرة ، فهي سواعد
السعد وقواعد الود ، وشيم الكرام المحافظين للعهد ، وبها يعمر محل الرضا
ونديه ، وبه أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه .

وقد نصحنكم فاقبلوها نصيحة ، قصدت في ذات الله تعالى قصدها ،
وذكرنا لكم بهذه التذكرة ، فاستقبلوها رشدتها ، ونبهناكم تنبيهاً بالغاً وللحال
ما بعدها ، جعلنا الله وإياكم ممن امثل أمره المطاع بخالص نيته ، وأفرغ الرحمة
على قالب سجيته ، وحفظ ما استرعاه الله تعالى ، فكل راع مستول عن رعيته .
وكان مما بعثنا - وفقكم الله تعالى - على تنبيهكم وإذكاركم ، وإيقاظكم للنظر في
تلك المصالح وإشعاركم ، ما ألقىناه بحضرة مراکش - حرسها الله تعالى - من بعض
تلك الأنواع ، مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع ، كنوع القبالة ، وما يجري مجراها
في وجوب الإزالة ، والإحالة ، فإننا كنا لا نبحث عن ذلك ، لتخلينا أنه لا يجرو
أحد أن يسلك في هذا الأمر الذي أظهره الله تعالى تلك المسالك ، فلما كان الحث

عما يجب ، وأزال عن وجه المشاهدة ما كان محتجب ، طلعتنا على ذلك فأنكرنا ما كان نكيراً ، وأزلنا بعون الله تعالى ما كان محذوراً بالشرع محظوراً ، حتى تطهر ثوب الأمن من دنسه ، وتجلي الوجه الخالص عن ملتبسه ، واقتبس نور الحق من مقتبسه ، وجرت الأمور على ما عهدناها عليه من الاعتدال والقوام ، بحكم ما أحكمه الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه في القضايا والأحكام ، وإذا كان الافتيات في شيء من هذا ونحن على اقتراب ، فكيف الأمر فيمن هو في حكم بعد عنا واغتراب .

فانظروا هذا - وفقكم الله تعالى - نظرة أولى الأبواب ، ولتسعوا جهدكم في رفع ذلك العمل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه ، على موجب الكتاب .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

فهرست الموضوعات

صفحة		
٣	...	مقدمة
٧	...	بيان عن المصادر
٢٥	...	تمهيد : الأوضاع العامة لشبه الجزيرة الأندلسية في عصر المرابطين والموحدين

الكتاب الأول

الدولة المرابطية في أوج سلطانها

٣٦	...	الفصل الأول : يوسف بن تاشفين . خواص إمارته ولامع خلاله
٥٧	...	الفصل الثاني : أمير المساميين علي بن يوسف وأحداث عصره
٨٦	...	الفصل الثالث : سقوط سرقسطة
١٠٥	...	الفصل الرابع : الصراع بين ألفونسو المحارب وبين المرابطين
١٠٥	...	١ - غزوة ألفونسو الكبرى للأندلس
١١٤	...	٢ - التعذيب والأسوار
١١٦	...	٣ - موقعة القلاعة
١٢٠	...	٤ - موقعة إفراغة
١٢٦	...	٥ - خاتمة ملك بني هود بالشغرا الأعلى
١٣١	...	الفصل الخامس : الأمير تاشفين بن علي وغزواته وأعماله في شبه الجزيرة
١٤٨	...	الفصل السادس : شرق الأندلس

الكتاب الثاني

المهدي محمد بن تومرت

والصراع بين المرابطين والموحدين

وقيام الدولة الموحدية بالمغرب

١٥٦	...	الفصل الأول : محمد بن تومرت، نشأته وظهوره
١٧٧	...	الفصل الثاني : الصراع بين المرابطين والموحدين - المرحلة الأولى

صفحة	
١٩٩	الفصل الثالث : عقيدة المهدي ابن تومرت وتعاليمه الدينية والسياسية ...
٢١٨	الفصل الرابع : الصراع بين المرابطين والموحدين - المرحلة الثانية ...
٢٥٤	الفصل الخامس : نهاية الدولة المرابطية في المغرب ...
٢٦٨	الفصل السادس : الدولة الموحدية في سبيل التوطد ...
٢٨٩	الفصل السابع : فتح المهديّة وإجلاء الفرنج عن إفريقية ...

الكتاب الثالث

ثورة القوى الوطنية بالأندلس

وتغلب الموحدين على شبه الجزيرة

٣٠٤	الفصل الأول : الثورة في الأندلس وانهيار سلطان المرابطين ...
	الفصل الثاني : عبد المؤمن وشئون الأندلس وافتتاح إشبيلية وقرطبة
٣٢٤	وغرناطة وألمرية ...
٣٥٣	الفصل الثالث : الثورة في شرق الأندلس وظهور محمد بن سعد بن مردنيش
٣٧٣	الفصل الرابع : أعوام عبد المؤمن الأخيرة ، وفاته وخلافه ...

الكتاب الرابع

نظم الدولة المرابطية وخواص العهد المرابطي

٤١٠	الفصل الأول : طبيعة الحكم المرابطي وأوضاعه العسكرية والإدارية والمالية
	الفصل الثاني : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العهد المرابطي
٤٣٨	القسم الأول ...
	الفصل الثالث : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العهد المرابطي -
٤٥٥	القسم الثاني ...

الكتاب الخامس

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر المرابطي وأوائل العصر الموحد

٤٧٦	الفصل الأول : ألفونسو المحارب وأوركا ملكة قشتالة ...
	الفصل الثاني : الممالك الإسبانية النصرانية في عصر القيصر ألفونسو
٤٩٢	ريمونديس وقيام مملكة أراجون الكبرى ...
٤٩٣	١ - وفاة ألفونسو المحارب وولاية أخيه الراهب راميرو

صفحة	
٤٩٩	٢ - اتحاد أراجون وقطلونية
٥٠٢	٣ - غزوات القيصر ألفونسو ريمونديس وحروبه
٥١١	٤ - أعوام القيصر الأخيرة ووفاته
٥١٥	٥ - قشتالة بعد وفاة ألفونسو ريمونديس
٥١٨	٦ - قيام جماعات الفرسان الدينية
٥٢١	الفصل الثالث : قيام مملكة البرتغال وبداية عصر ملكها ألفونسو هنريكينز

وثائق مرابطية وموحدية

٥٣٠	١ - رسالة الإمام الغزالي إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين
٥٣٣	٢ - رسالة الوزير الكاتب ابن شرف إلى أمير المسلمين في فتح أقليمش
	٣ - رسالة قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير أبي الطاهر تميم
٥٣٨	ابن يوسف حينما حاصرها ابن رذمير
	٤ - رسالة كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير أبي محمد بن أبي بكر
٥٤١	بهزيمة القلعة
	٥ - رسالة لأمر المسامين إلى الفقيه القاضي وسائر الفقهاء والوزراء
٥٤٣	والأعيان والكافة ببلنسية
	٦ - رسالة لأمر المسلمين إلى المذكورين مجاباً لهم بهزيمة ابن رذمير
٥٤٤	لياهم في القلاعة
٥٤٥	٧ - رسالة وجهها أمير المسلمين على بن يوسف بتقريع قاداته وجنده
	٨ - رسالة لأبي عبد الله بن أبي الخصال عن بعض المرابطين إلى
٥٤٧	أمير المسلمين على بن يوسف
	٩ - رسالة موجهة من أمير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف إلى
٥٤٨	الفقهاء والوزراء والأخبار والكافة ببلنسية
٥٥١	١ - صيغة التوحيد التي وضعها المهدي لأتباعه
	٢ - رسالة الخليفة عبد المؤمن بن علي. أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر
٥٥٢	وعدله ونهجه مناهج الحق وفضله

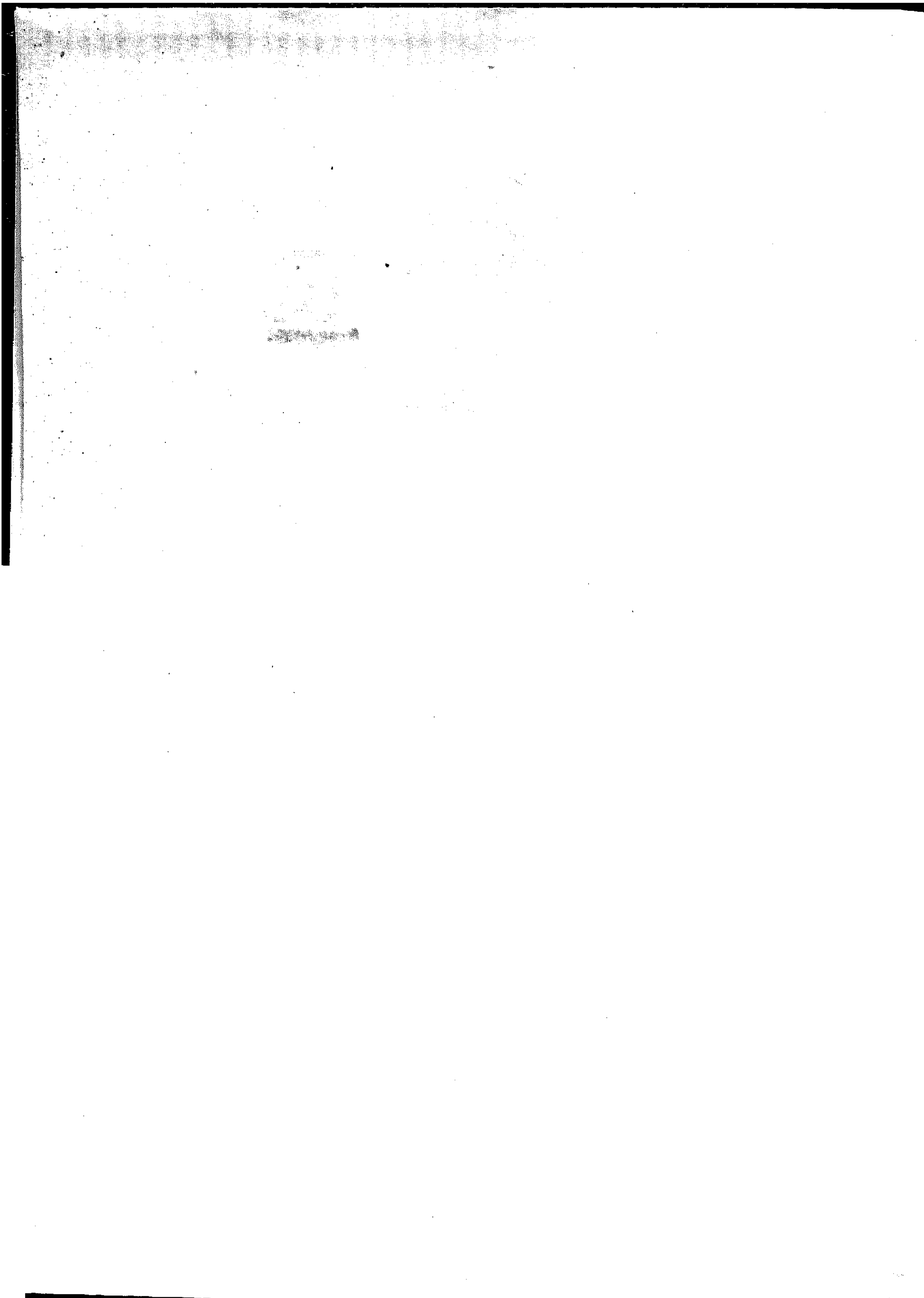
فهرست الشعر والشعرا

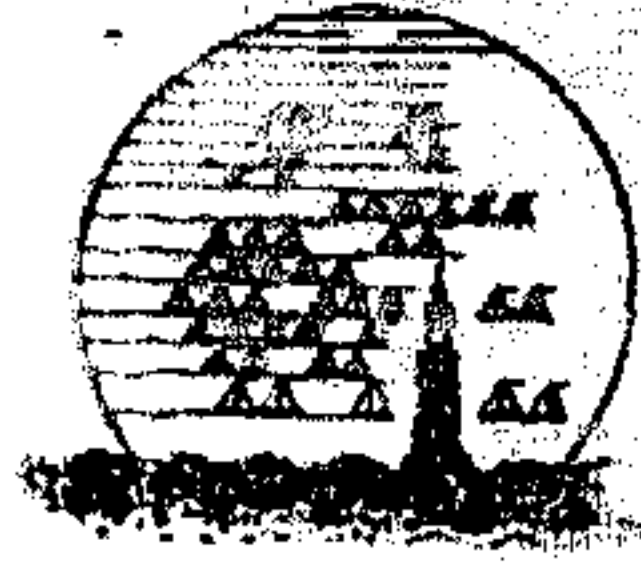
صفحة		
١٥٤	: ملك الملوك وما تركت لعامل	رثاء يوسف بن تاشفين
١٢٥	: شمرت برديك لما أسيل المواني	أبو جعفر بن وضاح المرسي
١٣٨	: أما وبيض الهند عنك خصوم	
١٣٩	: يا أيها الملأ الذي يتقنع	أبو بكر بن الصيرفي
٢٢١	: تكاملت فيك أوصاف خصصت بها	المهدي ابن تومرت
٢٧١	: فتح تفتح أبواب السماء له
٢٩٦	: ما هز عطفه بين البيض والأسل	أبو العباس التيفاشي
٣٣٠	: وما تدفع الأبطال بالوعظ عن حمى	أحمد بن قسي
٣٣١	: لئن غض منك الدهر يوماً بأزمة	ابن المنذر
٣٥٠	: قل للإمام أطال الله مدته	مروان بن عبد العزيز
٣٥١	: فغفوا أمير المؤمنين فن لنا	أبو جعفر بن عطية
٢٦٨	: أكر على الكتيبة لا أبالي	ابن مردنيش
٣٨٤	: بلغ الزمان بكم ما أملا	أبو عبد الله بن حبوس
٣٨٤	: ما للعدى جنة أوقى من الهرب	القرشي المعروف بالطلق
٣٨٤	: لوجئت نار الهدى من جانب الطور	ابن غالب الرصافي
٣٨٥	: تكلم فقد أصغني إلى قولك الدهر	أحمد بن سعيد
٤٠٣	: هو الفتح لا يجلو غرائب الشرح	الخليفة عبد المؤمن
٤٥٢	: من يشتري منى الحياة وطيبها	أحمد بن سعيد
٤٥٢	: أتاني كتاب منك يحسده الدهر	
٤٥٣	: رحلوا الركائب موهنا	محمد بن عبد الرحمن الجراوي
٤٥٤	: قدر الله وساق الخناس	عبد الملك بن قزمان
٤٥٤	: وعريش قد قام على دكان	
٤٦٥	: وبين ضلوعى للصبابة لوعة	أحمد بن حسن الجراوي
٤٦٦	: سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم	أبو العباس بن العريف

صفحة	
٤٦٧	: تجاف عن الدنيا وعن برد ظلها ...
٤٦٩	: أسير الخطايا عند بابك واقف ...
٤٦٩	: أخو العام حتى خالد بعد موته ...
٤٦٩	: سقى عهدهم بالخيف عهد غمام ...
٤٧١	: سلام والممام ووسمى مزنة ...
٤٧١	: ضربوا القباب على أقاصى روضة ...
٤٧٢	: سكتتك يا دار الفناء مصدقا ...
٤٧٣	: ياراشقى بسهام ما لها غرض ...

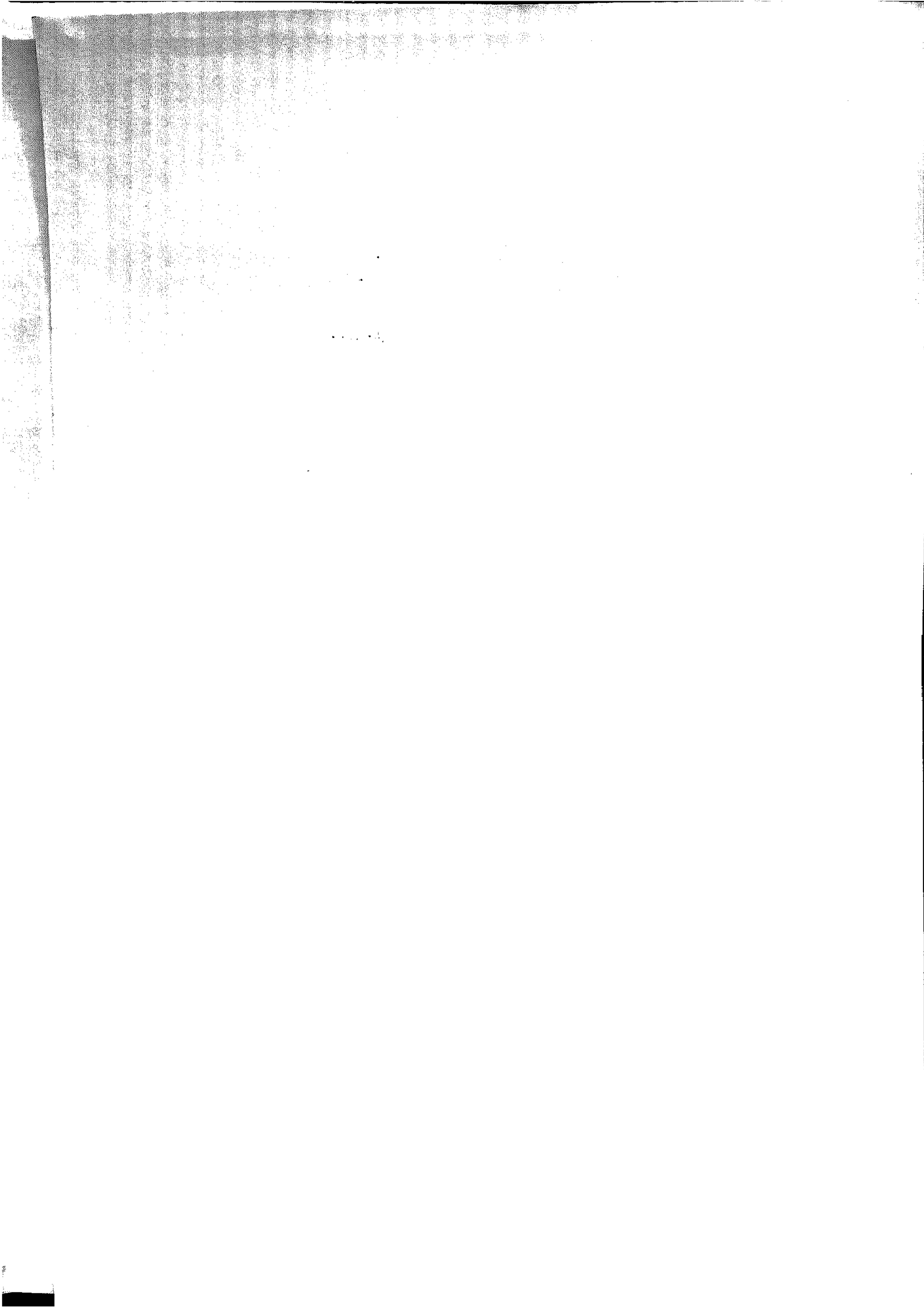
فهرست الخرائط والصور

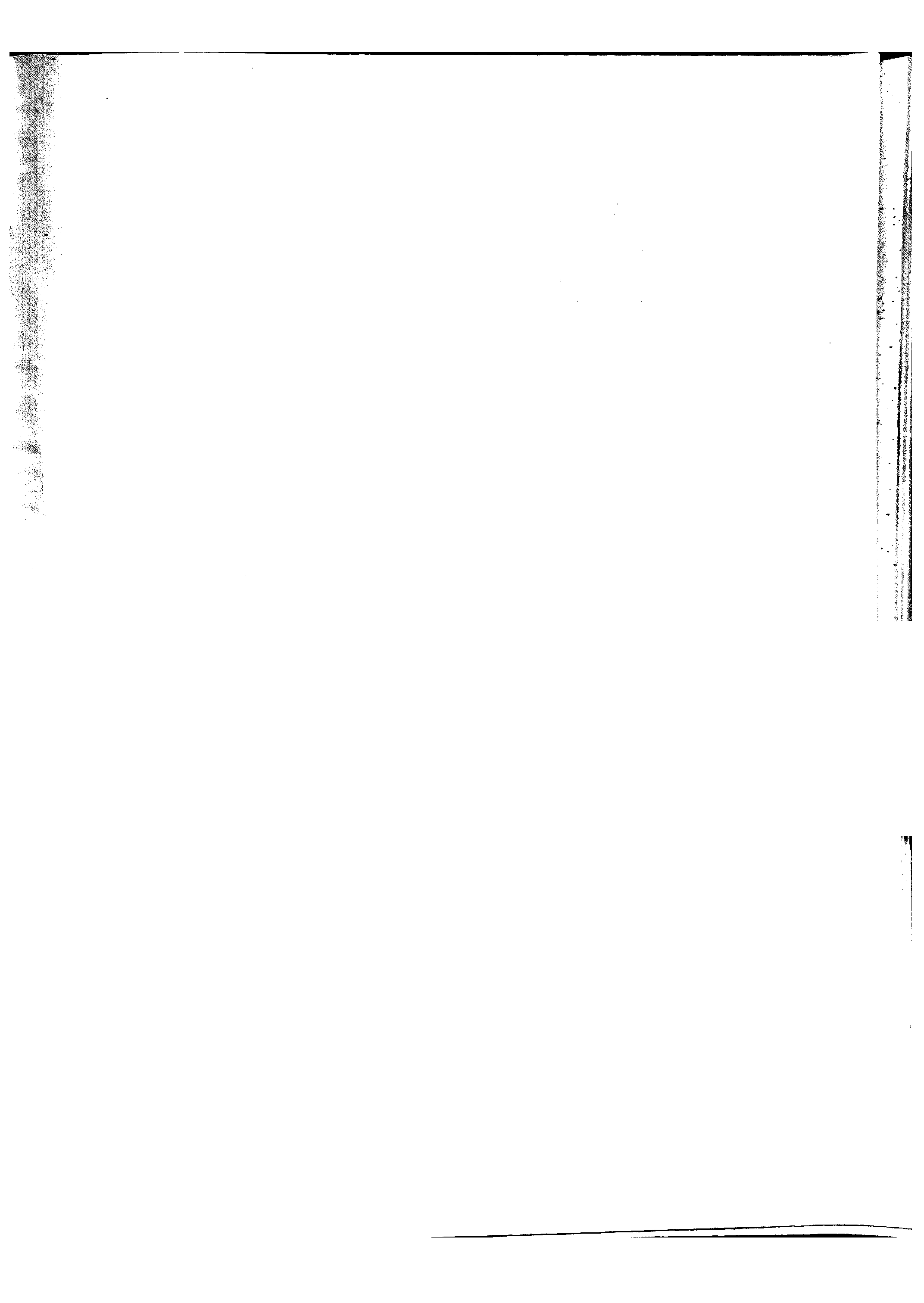
٩١ الثغر الأعلى وما يليه - مواقع حروب المرابطين والنصارى
١٠٩ خط سير الذهب والعودة لغزوة ألفونسو المحارب للأندلس
	مواقع غزوات المرابطين التي قام بها على وتاشفين في أراضى قشتالة
١٣٧ والبرتغال
١٨١ المغرب - البلاد ومنازل القبائل عند بداية الدولة الموحدية
١٨٧ أسوار مراکش وأبوابها في عهد المرابطين
١٩٧ محراب جامع المهدي وإحدى واجهات الجامع
٢٣٩ المغرب - موقع غزوة عبد المؤمن الكبرى
٢٨٣ إفريقية - مواقع غزوات عبد المؤمن لافتتاح بجاية والمهدية
٣٧٩ جبل طارق وبر العدو
٣٨٣ منظر جبل طارق من البر الإسباني
٣٨٣ بقايا الحصن الأندلسي أعلى الصخرة
٥٠٣ الممالك الإسبانية النصرانية في عهد القيصر ألفونسو ريمونديس





Central Organization of the Alexandria Library (OCAL)
W. B. ...







The page contains extremely faint and illegible text, likely due to low contrast or scanning quality. No specific words or phrases can be discerned.

Vertical text on the right edge of the page, possibly a page number or margin note, which is also illegible.



